

أوليفيا ريمي كونستابل Olivia Remie Constable

إسكان الغريب في العالم المتوسطي

السكن والتجارة والرّحلة
في أواخر العصر القديم وفي العصر الوسيط



تعريب وتقديم: محمد الطاهر المنصوري

مراجعة: محمد ياسين الصيد





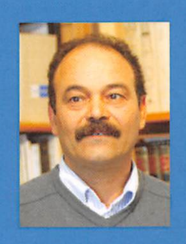
أوليفيا ريمي كونستابل

أستاذة التاريخ الوسيط ومديرة معهد روبار م. كونواي للتاريخ الوسيط بجامعة نوتردام، متحصلة على الإجازة في لغات وآداب الشرق الأوسط من جامعة يال سنة 1983 وعلى الدكتوراه في دراسة الشرق الأوسط من جامعة برنستون سنة 1989. اشتغلت بالتدريس بعد ذلك لمدة ست سنوات في جامعة كولومبيا. تهتم أبحاثها بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي لشبه الجزيرة الأيبيرية في العصر الوسيط والعالم المتوسطي وخاصة بالاتصالات بين المسلمين والمسيحيين.

إن المشروع الحالي لكونستابل هو مقارنة وضعية المسلمين الذين كانوا يعيشون في جهات مختلفة من إسبانيا وفرنسا وإيطاليا خلال القرن الثالث عشر.

من منشوراتها:

- التجارة والتجار بالأندلس وإعادة الهيكلة التجارية بشبه الجزيرة الأيبيرية (900-1500)، منشورات جامعة كمبريدج، 1994.
- أيبيريا في العصر الوسيط قراءات في المصادر المسيحية والإسلامية واليهودية، نشر جامعة بنسلفانيا، 1997.
- وهي الآن منكبّة على مشروع كتاب جديد يحمل عنوان "المسلمون في أوروبا في العصر الوسيط".



محمد الطاهر المنصوري

أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والفنون، منوبة، تونس. يدرّس حالياً بجامعة الدمام بالمملكة العربية السعودية، ومختص في تاريخ العلاقات المتوسطية في العصر الوسيط.

نشر عدة كتب ومقالات باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية منها:

Recherches sur les relations entre Byzance et l'Egypte (1259-1453), Publication de la Faculté des lettres de Mannouba, 1992.
العلاقات بين بيزنطة ومصر المماليك

Direction d'un numéro spécial de la revue Mesogeios, VII, sur le Maghreb et la mer à travers l'histoire, Editions Hérodotos, Paris, 2000.
المغرب والبحر عبر التاريخ

Chypre dans les sources arabes médiévale, Centre de recherches scientifiques, Nicosie, 2001.
قبرص في العصر الوسيط من خلال النصوص العربية

Vocabulaire historique de Byzance; édition Amal, Sfax, Tunisie, 2003.
قاموس المصطلحات البيزنطية
الحياة الدينية في بيزنطة، دار أمل للنشر، صفاقس-تونس، 2003.

Du voile et du zunnar et le code vestimentaire en pays d'Islam.
الخِمار والزّنّار وقوانين اللباس في الحضارة العربية الإسلامية

De Byzance et de l'Islam, Publication de la Faculté des lettres de Mannouba, 2009.
في العلاقات بين بيزنطة والعالم الإسلامي

De l'Islam et de l'Occident latin, Publication de la Faculté des lettres de Mannouba, 2009.
في العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب اللاتيني

تعريب من الفرنسية:

جاك لوغوف، التاريخ الجديد La nouvelle histoire.
منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2007.

فرانسوا دوس، التاريخ المُفَتّت L'histoire en miettes،
منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.

تعريب من الإنكليزية:

دراقوسلاف سرايوفيتش، الإلّيريون والتراقيون Illyrians and Thracians، الموسوعة المتوسطية، 1998.



إسكان الغريب في العالم المتوسطي

السكن والتجارة والرّحلة

في أواخر العصر القديم وفي العصر الوسيط

إنّ "الفُندق" كما هو معروف عند العرب أو pandocheion باليونانية أو fundicium أو fondaco باللاتينية كان واسع الانتشار في الفضاء المتوسّطي منذ ما يناهز ألفي سنة. لم تكن هذه المؤسّسات مأوى التّجّار والمسافرين فقط، بل كانت تعمل كذلك كحانات وأسواق ومخازن ومقرّات للتعشير والتنظيم التجاري. تابعت Remie Constable في هذه الدراسة الأصيلة التطوّر المعقّد الذي شهده هذا الصنف من المؤسّسات ابتداءً من صورته اليونانية pandocheion في العصر القديم المتأخّر إلى أن ظهر "الفُندق" على امتداد البحر الأبيض المتوسّط الإسلامي في خطٍّ موازٍ لازدهار الإسلام. وقد تابع "الفُندق" تطوّره مع مستهلّ القرن الثاني عشر ونزوح التجّار الأوروبيين إلى الأسواق الإسلامية وتحوّل إلى ما يُعرف باللاتينية fondaco. سهّلت هذه المستوطنات التجارية التجارة والتنقّل بين المناطق الإسلامية والمسيحية. وقبل مرور وقت طويل ظهرت الفنادق المعروفة باسم fondaco في مدن جنوب أوروبا أيضاً.

تبرهن هذه الدراسة التي رصدت انتشار هذا الصنف من المؤسّسات على امتداد البحر المتوسّط على وجود مصالح اقتصادية مشتركة كما تبرهن على وجود تواصل ثقافي متبادل على امتداد البحر العالم المتوسّطي، وبذلك قدّمت مساهمة باهرة تساعدنا على فهم هذه المنطقة.

موضوع الكتاب **الفنادق والخانات**

ISBN 978-9959-29-528-6

9 789959 295286



موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com

إسكان الغريب

في العالم المتوسطي

أوليفيا ريمي كونستابل

إسكان الغريب في العالم المتوسّطي

السكن والتجارة والرّحلة

في أواخر العصر القديم وفي العصر الوسيط

تعريب وتقديم

محمد الطاهر المنصوري

مراجعة

محمد ياسين الصيد

دار المدار الإسلامي

Original Title:
Housing the Stranger in the Mediterranean World
Lodging, Trade, and Travel in Late Antiquity and the Middle Ages
by Olivia Remie Constable

Reprinted 2006.

نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الإنكليزية 2003، وأعيد طبعه 2006

الطبعة الأولى
حزيران/يونيو 2013

إسكان الغريب في العالم المتوسطي
ترجمة محمد الطاهر المنصوري
موضوع الكتاب الفنادق والخانات
الحجم 17 × 24 سم
تصميم الغلاف دار المدار الإسلامي
التجليد فنّي مع جاكيت

ISBN 978-9959-29-528-6
(دار الكتب الوطنية/بنغازي ـ ليبيا)
رقم الإيداع المحلي 2010/125

دار المدار الإسلامي
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس،
هاتف 04 03 75 1 961 +   خليوي 89 39 93 3 961 +
05 03 75 1 961 +   فاكس 07 03 75 1 961 +
ص.ب. 14/6703 بيروت ـ لبنان
بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb
الموقع الإلكتروني www.oeabooks.com

توزيع حصري في العالم ما عدا ليبيا دار الكتاب الجديد المتحدة
الصنائع، شارع جوستينيان، سنتر أريسكو، الطابق الخامس
هاتف 04 03 75 1 961 +/بريد إلكتروني szrekany@inco.com.lb

توزيع داخل ليبيا شركة دار أويا لاستيراد الكتب والمراجع العلمية
زاوية الدهماني، شارع أبي داود، بجانب سوق المهاري، طرابلس ـ ليبيا
هاتف وفاكس 013 07 34 21 218 +   نقال 463 45 21 91 218 +
بريد إلكتروني oeabooks@yahoo.com

مقدّمة المترجم

قد يتساءل القارئ عن الحاجة إلى تعريب مثل هذا الكتاب وقد يكون محقّاً في ذلك لارتباط مسألة الفَنادق في الذهن العامّ بما يُسمّى اليوم «فَنادق سياحية»، كما ارتبطت في المناطق الريفية من بلاد المغرب إلى يومنا هذا بإسطبلات مُخصّصة للحيوانات التي تُجلب للبيع في الأسواق الأسبوعية، وهي عادة تُقام في القرى والمدن الإقليمية. والحقيقة أنّ الفَنادقَ المعنيّةَ في هذا الكتاب هي هذا وغيره، ولكن في مستوى يمكن وصفه بالدولي أو العابر للقارات. إذ حين ننظر في الكتاب موضوع الترجمة الذي تناول هذه المؤسّسة منذ الفترة الرومانية المتأخّرة إلى نهاية العصر الوسيط، نجد أنفسنا أمام مؤسّسة معقّدة التنظيم، ومتنازَع حول جذورها التاريخية وهي موضوع نقاش من الناحية الاصطلاحية. فهل هي ذات جذور يونانية أم لاتينية أم عبرانية أم عربية؟ كيف تناقل الناسُ المصطلح؟ وكيف عَبَرت الكلمات، ومن خلالها المؤسّسات المتعلّقة بالفُنْدُق حدودَ اللُّغة والدين والمجال؟ وكيف تطوّرت هذه المؤسّسة من مؤسّسة لإسكان الغرباء عن أوطانهم إلى مؤسّسة اقتصادية مختصّة بنوع من أنواع الأنشطة أو البضائع؟ وكيف انتقلت التسميات من فُنْدُق الجَنَويين والقَطَلانيين والبنادقة وغيرهم من الجاليات التجارية إلى فُنْدُق الحبوب وفُنْدُق الزيت والقطن والبيض والفحم والكتّان والغلّة؟

كلّ هذه العناصر تناولها هذا الكتاب بالدرس، وهو ما يجعله جديراً بالترجمة والقراءة والتقديم لجمهور القرّاء العرب الذين لم يحذقوا اللُّغة الإنكليزية. وإذا كان تراجمة التجار في العصر الوسيط يؤدّون دور الجسر بين أناس تختلف لغاتهم لتسهيل معاملاتهم وتقريب وجهات نظرهم من أجل الكسب المادّي، فلعلّنا نكون بهذه الترجمة في مُحيط الفُنْدُق وليس داخله، وسطاء بين المؤرّخ العربي ونظرائه من غير العرب.

صدر الكتاب عن منشورات كامبريدج الجامعية بلندن سنة 2003، وهو يحتوي في أصله على 427 صفحة منها البيبليوغرافيا والفهارس وينقسم إلى تسعة فصول ومقدّمة وخاتمة.

ولعل أهمّ ما يمكن قوله منذ البدء هو أنّ الكتاب عملٌ توليفيّ جمعت فيه الباحثة عُصارةَ ما كُتب عن الفَنادق والخانات والمبادلات التجارية المتوسّطية في العصر القديم المتأخّر والعصر الوسيط باللُّغات الأوروبية أساساً. ومن هذه الزاوية، فهو كتاب جدير بأن يُمعِن فيه القارئ العربيّ النظر، ولعلّ بعض المؤرّخين ينسجون على منواله لتناول مؤسّسات شبيهة بالدرس والتحقيق.

يبحث هذا الكتاب في تاريخ الفُنْدُق مصطلحاً ومؤسّسة، انطلاقاً من اختلاف التسميات التي عنتها منذ العهود القديمة إلى بداية العصور الحديثة في العالم المتوسّطي، فهو يتناول بالدرس تطوّرَ هذه المؤسّسات عبر الزمن والمجال والثقافة مع أخذ مظاهر التواصل والتحول في الاعتبار منذ أمد طويل يمتدّ على ألفي سنة، ولو أنّ البحث اقتصر في جوهره على ما هو متعارف عليه عند جمهور المؤرّخين بالعصر القديم المتأخّر والعصر الوسيط.

ومن خلال دراسة هذه المؤسّسة، تناولت الباحثة مفهوم الرّحلة وما يرافقها من العلاقات والمؤسّسات والمصطلحات وأهمّ هذه المؤسّسات هي مؤسّسة الفُنْدُق وهي جوهر الكتاب. تُعتبر هذه المؤسّسة مؤسّسة متوسّطيةً بالأساس، وإن اختلفت تسميتها من حقلٍ لغويّ إلى آخر. وقد نشأت نتيجة لتحرُّك الناس وتنقُّلهم عبر هذا الفضاء الواسع، كُلٌّ تحمله أسباب وتستقطبه مطامح، منها ما هو دنيويّ ومنها ما هو دينيّ أخرويّ: مثل الحجّ والسياحة (بمفهومها الصوفي) والاستكشاف وخاصة التِّجارة.

تعرّضت الباحثة منذ الفصل الأوّل إلى دور المؤسّسات القديمة، التي كانت - ربما - فَنادق جنينية، يمثلها البَنْدوكيون اليوناني في القديم من خلال حضوره في مخيال معاصريه، ومن خلال اضطلاعه بدور الاستقبال والإسكان بالنسبة إلى الرحّالة الوثنيين واليهود والمسيحيين بين القرن الأوّل والقرن السابع الميلادي في الجزء الشرقيّ من الإمبراطورية الرومانية.

كما سلّطت الباحثة الضوء على الأدوار التي لم تكن تتماشى والذوق العامّ، أو على الأقلّ ما ارتسم في أذهان الناس، والمتمثّلة في ارتباط البَنْدوكيون بجُمْلةٍ من السلوكيات التي تبرز فيها المشروباتُ المُسْكِرة والترفيه والدعارة والبغاء والجرائم، وهي من النشاطات التي سنجد لها صدى في الفَنادق في العصر الوسيط. ثم بيّنت الباحثة كيف انصهرت هذه المؤسّسة القديمة في العالم الإسلامي وانتشرت معه تحت اسم **الفُنْدُق** وكذلك **الخان**، لتصبح مؤسّسة ثابتة في الفضاء العمراني، تضطلع بدور الإسكان والخزن والمراقبة والتمكيس أو التعشير (أي دفع العُشر) وفق نصوص العصر الوسيط، وذلك في فضاء شاسع شَسْعَ العالم الإسلامي من الأندلس إلى بلاد ما وراء النهر.

وانتشرت الفَنادق وتطوّرت في الضفة الجنوبية للمتوسّط منذ عهد الأمويين إلى عصر الأيوبيين (من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر). وقد أصبح الفُنْدُق، بالإضافة إلى ما كان يقوم به قبل الإسلام تحت اسم البَنْدوكيون، يضطلع بأدوار جديدة في العالم الإسلامي: لقد أصبح مؤسّسةً خَيْرِيةً وتجاريةً في الوقت نفسه، يؤمّها المسؤول المتنقل من جهة إلى جهة في المهمّات الرسمية، ويأوي إليها ابن السبيل، والسائح المُتَصوّف، ويُقيم بها التاجر الباحث عن الربح وجمع المال. كما أصبح الفُنْدُق موضوع تشريع وتنظيم ومراقبة من قبل ذوي السُّلطة والنفوذ على اختلاف مواقعهم من فقيه وسُلطان. واهتمّ به الرُّسُل والسُّفراء الغربيون، وعاش فيه القناصل والمشرفون على الجاليات التجارية الأوروبية، واستقرّ به أهلُ اللهو والمجون والبغاء، وسُجن به من كان خارجاً عن الطاعة في بعض الأحيان، واستراح فيه السلاطين والحُجّاج في حلّهم وترحالهم. كما تعرّضت فَنادق للحرائق، ونُهب بعضها في حالات الانتفاض والانتقاض على ذوي السُّلطان. ولكنه ظلّ صامداً، لم تؤثّر فيه هذه الأحداث ولم تزعزعه، ولم يتغير إلّا بعد التحولات التي عرفتها المنظومةُ التجارية من تبدّل المسالك وانتقال فضاءاتها من العالم المتوسّطي إلى العالم الجديد مع انبلاج العصور الحديثة وبداية النهضة الأوروبية.

ولعلّ الإطار الذي سمح للفُنْدُق بالازدهار والانتشار خارج بوتقة العالم الإسلامي هو النشاط التجاري الأوروبي المتزايد بعد القرن الحادي عشر، فقد اكتشف التجار الأوروبيون فاعلية هذه المؤسّسة وحيويتها، فلم يتوانوا في تقليدها

ونقلها اصطلاحاً وشكلاً هندسياً وتنظيماً ورمزاً من العالم الإسلامي إلى العالم المسيحيّ الأوروبيّ بجناحيه الشرقيّ والغربيّ[1]. وقد برهن الفُنْدُق على قدرته كمؤسّسة على اختراق كلّ الحدود، إذ تبنّاه العالم الغربي بصورة تكاد تكون مطابقة للأصل العربي الإسلامي. لم يكن الفُنْدُق أداةً لتسهيل المبادلات التجارية وتوفير ما يتلاءم والجاليات المغتربة من ظروف الإقامة الخاصّة التي تجعل الغريب في بيئة تقارب بيئته الأصلية فحسب، بل كان أيضاً نافذةً على العالم الخارجي، وأداةً لتلاقح الأفكار وتحقيق نوعٍ من التعايش السلمي حتى ولو كان هشّاً. «فالفَنادق لم تكن دائماً مغلقة وجدرانها كانت دائماً نَفّاذة» كما تقول المؤلّفة.

ويعبّر الفُنْدُق كذلك عن بداية تغلغل "أوروبا" في قلب العالم الإسلامي، وذلك من خلال وجود جاليات مختلفة من حيث اللُّغة والدين ونمط العيش، يحتضنها الفُنْدُق ويعرفها السوق ويتعامل معها الناس من ممثّلي السُّلطة والتجار والحمّالين والتَّراجِمة. وقد ساعد على هذا التغلغل ازدهار التِّجارة الأوروبية وتطوّر القوة العسكرية الغربية وسيطرة الغرب المسيحي على مناطق كانت إسلامية مثل صِقِلّية والأندلس وجُزُر البليار، وهيمنة البحرية الغربية على البحر المتوسّط بعد الحروب الصليبية.

كما تناولت الباحثة بالدرس تواصل الفُنْدُق في هذه الفضاءات الأوروبية الجديدة التي انتُزعت من أيدي المسلمين وتمّ تطويعها للأوضاع الجديدة. فقد ظلّ الفُنْدُق فاتحاً أبوابه لكلّ الوافدين بشروط في ظلّ الدول المسيحية المنتصرة، وبعد أن كان في خدمة التجار المسيحيين، أضاف إليهم أيضاً الجاليات الإسلامية على اختلاف مشاربها وعلى اختلاف أنشطتها التجارية وغير التجارية.

---

(1) لعلّ مثل هذه المؤسّسة تقوم حجّة على مساهمة من مساهمات الحضارة العربية في بناء الحضارة الأوروبية الحديثة وهو على عكس ما كتبه المؤرّخ الفرنسي سيلفان غوغنهايم، داحضاً أيّ دور لهذه الحضارة في نهضة أوروبا، انظر:
Sylvain Gouguenheim *Aristote au mont Saint Michel, les racines grecques de l'Europe chrétienne*, (Paris, Seuil, 2008).

وتعليقنا عليه في مجلة حقائق التونسية
«La contribution des Arabes à la renaissance européenne serait-elle «un autre point de détail de l'histoire»? in *Réalités*, n° 1170 du 31/7 au 6/8/2008, pp. 20-22.

وهو ما يطرح التساؤل عن إمكانية وجود جاليات تجارية إسلامية في أوروبا الغربية التي لم تكن خاضعة لسُلطة الإسلام.

وما تعرّضت له الباحثة حول هذه النقطة ربما يحتاج إلى بعض الإنارة. فعلاوةً على ما قدّمته من حديث عن انعدام ما يتناسب والتجار المسلمين من ظروف الحياة الدينية التي تفرضها الشريعة الإسلامية[2]، يمكن أن نضيف إليها أمرين: الأوّل هو مواقف الفُقهاء الذين كانوا يحرّمون السفر إلى «بلاد الكفر» خاصّة في الجزء الغربي من العالم الإسلامي. فقد ورد في إحدى فتاوى المازري (توفي 530/ 1136) ما نصّه: «**ما سألت عنه من الدخول إلى صِقِلّية... والذي تقدّمت أجوبتي به، أنه إذا كانت أحكام أهل الكفر جارية على من يدخلها من المسلمين فإنّ السفر إليها لا يجوز، وقد كان قديماً أمر السُلطان بجمع أهل الفتوى عندنا، وسألنا عن السير إليها، ووقع في ذلك اضطراب لأجل ضرورة الناس إلى الأقوات، فقلت لجماعة المُفْتين رحمهم الله: الذي أراه، السفر إليها إذا كانت أحكام الروم جارية على من دخل إليها، لا يجوز، ولا عذر في الحاجة إلى القوت...**»[3].

ولئن كان هذا الموقفُ صادراً عن رجل من رِجال الإفتاء فلعله يعبّر عن جوّ كان سائداً في بعض بلاد المغرب، نافراً ومنفّراً من السفر إلى البلاد المسيحية وهو من شأنه، إن لم يلغِ تماماً السفر إلى هذه البلدان، أن يعوقها أو يجعلها محدودةً كمّاً وكيفاً. الأمرَ الثاني حركة تنقل من الجهة الشرقية إذ لم تنقطع العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامي، إذ وُجِدت جالية إسلامية تتعاطى التِّجارة في القُسطنطينية، وحظيت بتشريعات خاصّة تسمح لبعض ممثّليها من الترشّح للرابطات الحِرَفية والاستقرار بالمدينة[4]، هذا علاوة على

(2) انظر ص8 من مقدّمة الباحثة للنصّ الأصلي.

(3) المازري، فتاوى، تحقيق الطاهر المعموري، الدار التونسية للنشر ومركز الدراسات الإسلامية بالقَيْرَوان، 1994م، ص208.

(4) انظر كتاب عن الحسبة في بيزنطة في القرن العاشر الميلادي ضمن ملاحق، الشيزري، نهاية الرُتبة في طلب الحِسْبة، تحقيق السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، 1981م، ص154-155 وقد اعتمدنا على ترجمة السيد الباز العريني وكذلك على النصّ الفرنسيّ الذي يوجد في صيغته اليونانية الأصلية مترجماً إلى الفرنسية والإنكليزية، انظر في ذلك مقالنا عن هدايا المنسوجات بين بيزنطة والعالم الإسلامي. =

وجود مسجد جامع للمسلمين في القُسطنطينية يعود تاريخه إلى القرن الأوّل الهجري، وظلّ نشيطاً إلى أن تعطّل أثناء الحملة الصليبية الرابعة (1204) على القُسطنطينية، ليعود إلى النشاط من جديد في عهد الظاهر بيبرس والإمبراطور ميخائيل الثامن[5]. كما أنّ النصوص العربية لا تعدم التنويه بالإقامة في القُسطنطينية وتحقيق الأرباح من تجارتها. ولعلّ ما أورده الجزري في حوادث الزمان ما يُغني القارئ عن مثل هذه الأوضاع. فقد ذكر في عرض حوادث 692/ 1293 ما يلي: «وفيها قدم إلى دمشق الحاجّ الأجلّ عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان السنجاري التاجر السفّار من القُسطنطينية، . . . فسأله الوالد، رحمه الله، عن حاله وأين كان مقيماً، فقال [بعد ذكر جُمْلة من الأحداث] استوطنت القُسطنطينية اثنا عشر سنة. فقال له الوالد: يا حاج عبد الله، بعد حجّ المسلمين تقيم عند الفرنج؟ فقال: يا أخي مجد الدين ما أحسن أصف لك صفتها وعن قلة الاعتراض على الساكن بها ومهما أراد أن يعمل عملة ولا ينكر عليه أحد مع قلة الكلفة وكثرة الخير. . .»[6].

والظاهر أنه رغم توفّر المعاهدات على المعاملة بالمثل فيما يتعلّق بتنقل التجار من وإلى العالم الإسلامي، فلم تتوفّر ذهنية مشجّعة على المغامرة فيما تسمّيه النصوص ببلاد الكفر سواء في الجزء الغربي أم في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي. هنا تكمنُ المشكلة، أكثر من وجود أو عدم وجود مؤسّسات توفّر للتُّجّار المسلمين ما يتطلبونه من المرافق المناسبة لنمط عيشهم.

ومن المسائل التي تعرّضت إليها الباحثة أيضاً مسألة الفَنادق التي تبدو

= «Tissus et costumes dans les relations islamo byzantines (IX-Xe siècle)» in *Chemins d'outre-mer. Etudes d'histoire sur la méditerranée médiévale offertes à Michel Balard*, Paris, publications de la Sorbonne, 2004 (Byzantina Sorbonensia 20), pp. 543-551.

(5) انظر مقالنا عن مسجد القُسطنطينية.
«La Mosquée de Constantinople à l'époque byzantine» *in Buzantiaka*, t.11, Thessalonique, 1991, pp.117-127.

(6) الجزري، حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، 1998م، الجزء الأوّل، ص156. لقد ورد في النصّ المحقّق قوله «بعد الحج والمُسلمين» وهي عبارة تبدو غير متماشية مع السياق ولعلّ ذلك راجع إلى التحقيق، فغيرناها لتتماشى والسياق بـ «حج المُسلمين».

وكأنها مجال إقصائي للتُّجّار الغربيين المسيحيين في الفضاء الإسلامي، وهي من المسائل التي تحتاجُ إلى بعض النظر. ومن خلال تتبّع النشاط التجاري يمكن القول إنّ التّجارة هي التي لعبت الدور الرئيسي في نشوء هذه المؤسّسة وفي انتشارها عبر العالم المتوسّطي متخطّية بذلك حدودَ اللُّغة والدين والذهنية. إنها مؤسّسة نشأت بسبب تنقّل الناس، وجُعلت لإسكانهم واستقبالهم وأصبحت بذلك الفعل مؤسّسة تعبّر في الوقت نفسه عن التفاعل الثقافي والتمايز لأنها مكان التقاء أو على الأقلّ مكان يوفّر فرص الالتقاء لأناس مختلفي المشارب واللُّغات والمعتقدات وتسمح لهم بالتعارف والتبادل والاقتراض الحضاري على مستوى اللُّغة والتقنيات الاقتصادية ونمط العيش؛ وعن التمايز إذ استقلّت كلّ جالية بفُنْدُق خاصّ بها. وليس اختصاص الأجانب، خاصّةً في العالم الإسلامي، من فروض الدولة المضيفة سواء في المشرق الإسلامي أو في الغرب الإسلامي الوسيطين، وإنما هو من المطالب الملحّة التي تقدّم على رأس لائحة مطالب السُّفراء والمبعوثين للتفاوض مع سلاطين الإسلام من أجل عقد معاهدات الصلح والتّجارة. وهذا التمايز لم يكن يعني المسيحيين في العالم الإسلامي وإنما يعني كلّ جالية على حِدة؛ فلا الجَنَويّ ولا البندقيّ والقَطَلانيّ كان يرغب في الإقامة مع من هم ليسوا من مدينته الأم، بل أكثر من ذلك اختص المسيحيون في البلاد المسيحية من أوروبا الجنوبية بفَنادق خاصّة بهم؛ ولعلّ المثال الذي تناولته الباحثة بالدرس هو فُنْدُق الألمان بالبندقية. فقد كان الألمان كغيرهم من الأوروبيين الآخرين يختصّون بفُنْدُق ظلّ قائماً إلى نهاية القرن الثامن عشر، فهم مسيحيون في بلد مسيحي ولكنهم كانوا مختصّين بفُنْدُق خاضع لجُمْلة من الضوابط والترتيبات مثلما هو الشأن بالنسبة للجاليات الأوروبية في العالم الإسلامي أو في الإمارات الصليبية بالمشرق إلى حدود نهاية القرن الثالث عشر تاريخ إنهاء الوجود الصليبي في المنطقة.

وهذه المسألة تُعدّ في نظر البعض موقفاً إقصائياً من قبل المسلمين تجاه المسيحيين وهو ما قد نتلمّسه في بعض السطور الواردة في نصّ الترجمة، ولكنّ الباحثة بيّنت بما لا يترك مجالاً للشكّ- نصوص المعاهدات واضحة في هذا المضمار- أنّ هذه المؤسّسة كانت مطلوبة من جميع الأطراف: من المدن والدول الأوروبية المنخرطة في التّجارة المتوسّطية سعياً لحماية تجّارها حيث تتكرّر عبارة

مشهورة لا تكاد تغيب عن نصوص معاهدات الصلح وهي «أن يكون التاجر آمناً وسليماً ومعافى» «*securi sani e salvi*» ومن الدولة المستقبِلة لهذه الجاليات التجارية حتى تتمكّن من تحقيق هذه الشروط الأمنية. فلا يعقل في عصر غياب وثائق الهوية باستثناء اللباس المميز أن تستطيع الدول المضيفة حماية هؤلاء التجار. كما أنّ النظرةَ التي كانت تسيطر على رجال الدين ومن ورائهم موظّفو السُّلطة هي نظرة تتميّز بالتوجّس والخوف من الآخر المختلف "والعدوّ" وهو ما جعل الفَنادق تخضع لتنظيم محكم.

فالفُنْدُقُ في الغالب هو ملكُ الدولة، وهي التي تعيّن من يشرف على فتحه وغلقه في ساعات معيّنة من النهار. لقد كان الفُنْدُق في العالم المتوسّطي إسلاميّه ومسيحيّه يُغلق من الخارج ليلاً، ويضاف إلى ذلك وقت صلاة الجمعة في المدن الإسلامية. وليس حظر التجوال هذا خاصّاً بجهة ما من العالم الوسيط، فقد كانت تُغلق المدن والأحياء والحارات والأزقّة ليلاً في كلّ أنحاء العالم المتوسّطي وغيره في العصر الوسيط. ولعلّ الفُنْدُق باعتباره منشأة مميّزة تأوي أناساً وأموالاً تربطهم وحدةُ اللُّغة والدين والانتماء الجغرافي ونمط العيش كان يعامل على هذا الأساس. فهو حيّ داخل الأحياء، وهو قطعة من بلد ما في مدينة ما من المدن المينائية أو حتى البعيدة نسبيّاً عن السواحل.

وقد اندمج الفُنْدُق في أوروبا المتوسّطية بسهولة، فحتى المناطق التي لم تشهد حضوراً إسلاميّاً مؤسّسيّاً سياسيّاً وعسكريّاً من قبل قد تبنّت هذه المؤسّسة. كما لاءمتها الدول التي استولت على مناطق كانت إسلامية مع أوضاعها الجديدة، حتى وإن تغيّرت الصيغة العربية لتصبح "هُنْدِقا" أو "فونداك" أو "فوندا" أو "فُنيدَق" أو فُنْداكس في اللُّغات الأوروبية الوسيطية، فقد ظلّت المؤسّسة على حالها، إذ لم يكن الاستحواذ العسكري والديني والسياسي على مناطق مثل الأندلس وصِقِلّية وغيرها قادراً على إلغاء مؤسّسة ربحية ورقابية بامتياز.

لقد سلك الحُكّام الأوروبيون السلوك نفسه الذي اتّبعه الحكّام المسلمون تجاه هذه المؤسّسة فاحتفظوا بها كأداة لتنظيم التجار وإسكان الغرباء وجمع الضرائب وخزن السلع.

إلّا أنّ التغييرات التي تمّت على مستوى المسالك التجارية وفي مصالح التجار ومراقبة الدولة للتّجارة خاصّة في عهد المماليك في مصر والشام (من القرن الثاني عشر إلى القرن الثالث عشر)، أدّت إلى بروز مؤسّسات أخرى في شرق المتوسّط الإسلامي تبدو مهيّأة للتّجارة والسكن. بدأ الفُنْدُق يتراجع لمصلحة الوكالة في المدينة، والخان على طول المسالك البرية في هذا المجال. ولكنّ الفُنْدُق حافظ على روحه السابقة في مدن بلاد المغرب. فقد استمرّ وظيفةً واصطلاحاً حتى فترات قريبة من عهدنا، وهو لا يزال موجوداً في بعض المدن التونسية بهذا المفهوم الوسيطي: استقبال الغرباء، خاصّة من أهل البادية، بدوابّهم وأمتعتهم أو إيواء حِرَفيين في مدن غير مدنهم الأصلية.

وفي كلّ الحالات بدأت هذه المؤسّسة تفقد شيئاً فشيئاً من دورها التقليدي في أوروبا لتصبح مرتبطةً بخزن السلع بالدرجة الأولى، سواء تلك التي يأتي بها التجار لبيعها أم تلك التي تتحكّم فيها الدولةُ وتحتكرها مثل الحبوب والملح والخشب والمعادن. فقد بدأت تنحو نحو الانفراد بهذه الوظيفة كمخازن خاصّة يمتلكها التجارُ أو مخازن عمومية تابعة للدولة.

وكما نشأت الوكالة في شرق المتوسّط الإسلامي إلى جانب الفُنْدُق، نشأت أيضاً إلى جانبه في غرب المتوسّط المسيحي اللوجيا «loggia» التي تحتلّ مكانةً هامةً في الاصطلاح والوظائف، فهي علاوة على دورها التجاري أصبحت في بعض الحالات تلعب دور المصرف للتسليف أو لادّخار الأموال. فالفُنْدُق لم ينقرض ولكنه تراجع واحتفظ بجزء ضئيل من نشاطه التجاري القديم ممثّلاً في وظيفتين أساسيتين هما إسكانُ التجار وخزنُ السلع في العالم المتوسّطي بجزءيه الإسلامي والمسيحي الغربي على السواء.

وقد بيّنت الباحثة أنه بعد سنة 1500م وبعد اكتشاف المسالك البحرية نحو الهند والعالم الجديد وظهور قوى تجارية جديدة في شمال أوروبا والإمبراطورية العثمانية وتطوّر التقنيات البحرية والعسكرية وبروز تحجّر أكثر في تصوّر «الأنا» و«الآخر» من منظور السياسة والدين وبداية بروز الأطماع الاستعمارية، وبداية تهميش العالم المتوسّطي والتقليل من أهمية أفكار المتوسّط ومؤسّساته التي عمرت طويلاً، بدأ الفُنْدُق يتراجع بل ويفقد أسباب وجوده.

إنّ هذا الكتاب التوليفي يُعدّ من الكتب التي يحتاج إليها القارئ العربيّ في هذه الحالة لأنه قلّما نظر المؤرّخون[7] إلى مثل هذه المؤسّسات ونبشوا أنقاضها للبحث عن جذور النشاط الاقتصادي، وعن مظاهر التفاعل الثقافي والتمازج الحضاري اللّذَين لعب فيهما المتوسّط دوراً هامّاً. فعبر المتوسّط ومؤسّساته نبتت حضارة متوسّطية حتى لو بدت في نظر البعض «حضارة هجينة»[8]، ولكنها قد تلعب اليوم وغداً دوراً في التقارب بين الحضارات؛ وفي كلّ الحالات يصعبُ أن تكون أرضيةً «للتصادم الحضاري»[9] مثلما رأى ذلك صموئيل هنتنغتون، فكلّ متوسّطي يجد في متوسّطي آخر جزءاً من ذاته أو على الأقلّ لنقل ذلك تفاؤلاً باعتراف الذات بذاتها.

إنّ الكتاب موضوع الترجمة، وبالرغم من قيمته وأهمّيته، ربما شابته بعض الشوائب التي قلّما يخلو منها كتاب وقلّما ينجو منها كاتب ولا حرج في الإشارة إليها لِماماً، فالمجال لا يقتضي التفصيل.

قد يلاحظ القارئ مراوحة بين مصطلحات عديدة للتعبير عن الشيء نفسه وهي من الجوانب التي نودّ تنبيه القارئ إليها لأنها من صميم المتن الأصلي كاستعمال عبارات كما لو أنها مترادفة أو تفيد الشيء نفسه مثل الجمع بين الأوروبي والمسيحي، حتى لكأنّ أوروبا الغربية كانت تشعر بذاتها الجغرافية شعورها بوحدة دينية. والحال أنّ الواقع التاريخي يفرض علينا التدقيق في الاستعمالات. فلم تكن أوروبا واعيةً وجودها في العصر الوسيط ولم يكن الأوروبيون يشعرون بالتآخي فيما بينهم؛ فكم من حروب اندلعت بين بيشة (بيزا) وجَنَوة، وكم

---

(7) لقد سبق لنا وأن تعرضنا إلى بعض الجوانب في بحث صدر في فرنسا سنة 1995م ويبدو أنّ الباحثة أفادت منه على الأقلّ في الفصل المتعلّق بالعصر المملوكي، واعتمدته في البيبليوغرافيا المصاحبة، انظر:
M. Tahar Mansouri «Les communautés marchandes occidentales dans l'espace mamelouk», in *Coloniser au Moyen-âge*, Armand Colin, Paris, 1995 pp.89-101; 107-111.

(8) P. Horden, N. Purcell, *The corrupting sea: a study of Mediterranean History*, London, Blackwell Publishers, 2000. Pp. xiv + 761.

(9) Huntington, Samuel, *The Clash of Civilizations and Remaking of World Order*, Simon & Schuster, 1996.

اصطدمت البندقية بجَنَوة سواء في أوروبا ذاتها أو في موانئ المتوسّط مثل تونس وعكّا وبيروت وغيرها من المدن التي كان فيها الاحتكاك التجاري والمنافسة في الفوز بالامتيازات يعلوان على أيّ انتماء قد يتصوّره قارئ القرن العشرين أو قارئ القرن الحادي والعشرين. وقد بدا لنا أنّ هذا التوحيد الاصطلاحي يدعم قراءة دينية خفية في حين أن الفُنْدُق في العصر الوسيط كان يعبّر عن تمايز مزدوج، فهو يميز بين الأوروبيين فيما بينهم، كلّ حسب انتمائه إلى مدينة أو جهة من أوروبا، وبين هذه الجاليات كلّ على حِدة مع الوسط الإسلامي المضيف. كما لم تكن النصوص العربية الوسيطية تشعر بهذا التوحّد بل كانت تميّز بين الروم والفرنج وداخل الفرنج أنفسهم بين الجَنَويّ والبندقيّ والبيشانيّ والقَطَلانيّ والصقليّ وغيرهم.

كما يمكن أن نلاحظ الشيء نفسه بالنسبة إلى بلاد المغرب في العصر الوسيط، فقد جمعت الباحثة بين عبارات شمال إفريقيا والمغرب وتونس وغيرها، أو استعملت عبارات معاصرة كالقول عن مدينة سُوسة إنها في تونس والحال أنه تماشياً مع سياق الدراسة والعصر الذي تتناوله كان يستحسن استخدام المصطلح السائد في ذلك الوقت وهو إفريقيّة. فتونس لم تكن آنذاك ذات كيان سياسي متبلور ولم تبرز إلى الوجود حتى وإن كانت مدينة تونس عاصمة معروفة في العالم المتوسّطي.

كما لا يفوت القارئ التنويه بالمجهود التوثيقي الذي قامت به الباحثة من أجل تقصّي أخبار الفَنادق في الشرق والغرب على السواء، إلّا أنّ هذا المجهود قد اعتورته بعضُ القراءات غير الموفقة لبعض النصوص، كنصوص محبوب المنبجي وفتاوى الونشريسي حيث عوّلت الباحثة على الترجمات ولكن في بعض الأحيان كانت القراءة مجانبة للصواب أو تعميمية في الوقت الذي تهتمّ فيه هذه النصوص بحالات دقيقة.

فمثلاً عند العودة إلى النصوص المصدرية التي اعتمدت عليها الباحثة يبدو أن الاستعمال لم يكن دائماً متساوقاً مع الصواب؛ كالخلط في بعض الأحيان بين التعميم عندما يكون الأمر خاصّاً أو التخصيص عندما يكون الأمر عامّاً، فمثلاً

تتعرض لنصّ من نصوص السلوك للمَقْرِيزي في بحثها (ص244)، وتجعله حالة واحدة في حين أنه يذكر حادثة عامّة:

«In 1303, a funduq in Cairo was raided during the night, and the manager, who was present in the building, was forced to open storerooms. **All of Its cash revenues, in gold, silver and copper coins were lost**».

في حين يقول المَقْرِيزي:

«وصار يكبس الفَنادق وحواصل الأموال في الليل، فمن وجد صاحبه حاضراً فتح مخزنه وأخذ نصف ما يجد من نقود القاهرة وهي الذهب والفضّة والفلوس. وإذا لم يجد صاحب المال أخذ جميع ما يجده من النقود»[10]. وتلافياً لبعض الغموض في النصوص العربية المعتمدة في المتن رجعنا إليها ونقلناها من أصولها بلغة أهلها وهو ما يساهم ضمنياً في تصويب ما هو وارد في النصّ موضوع الترجمة.

أو الاستعاضة عن عبارة الأندلس بإسبانيا الإسلامية (ص182-183) وهي لغة تتجاوب مع نزعة ظهرت حديثاً في الأدبيات الغربية التي تسعى بصورة هادئة إلى محو اسم الأندلس ومفهوم الأندلس التاريخي من الأذهان. لذلك عرّبنا عبارة «muslim Spain» بالأندلس كلما وردت في النصّ الأصلي.

كما يبدو الأمر جلياً عند الحديث عن الإدريسي الذي تصفه الباحثة بالجغرافيّ الإسباني المسلم (ص127) «spanish muslim geographer» كما سبق للباحثة أن عنونت كتاباً لها بعنوان التّجارة والتجار في «إسبانيا الإسلامية»[11] في الوقت الذي دأبت فيه الدراسات السابقة، حتى اليمينية المتطرفة منها، إلى استعمال عبارة «أندلس» و«أندلسي» بصيغتها العربية في النصوص الغربية على اختلاف مستوياتها ودوافعها. فالإدريسيّ لم يكن إسبانيّاً مسلماً، بل هو من سُلالة الأدارسة بالمغرب الأقصى ووليد مدينة سبتة (ولد سنة 493هـ/ 1100م، جال في المشرق الإسلامي ثم في الأندلس ليستقرّ بصِقِلّية حيث قد يكون توفّي على ما

---

(10) السلوك، الجزء الثالث، المجلد الثالث، ص1053.

(11) *Traders in Muslim Spain, The Commercial Realignment of the Iberian Peninsula,* 900-1500 (Cambridge: Cambridge University Press, 1994) 237-239.

يبدو في العقد الثاني من النصف الثاني من القرن السادس هـ/الثاني عشر م. فما الذي جعله مسلماً إسبانياً؟[12]

كما لا بدّ من الإشارة إلى حديث الباحثة (ص129) عن موقع ميناء تونس حيث يبدو هناك اعتقاد أن ميناء تونس هو ميناء حلق الوادي اليوم، والحال أنّ ميناء تونس كان قريباً من أسوار المدينة وبالقرب منه الحيّ الفرنجيّ الذي تتجمّع فيه على ما يبدو فَنادق الجاليات الأوروبية في العصر الوسيط. وما حلق الوادي إلّا قناة تمرّ عبرها السفن وهي قناة مغلقة بسلسلة من جهة البحر تعتبر حدّاً فاصلاً بين البحر والميناء ولا يمكن الخروجُ من الميناء إلّا بعد دفع المُكُوس الراجعة بالضرورة للديوان (الجمارك). ولعلّ آثار ذلك لا تزال قائمةً إلى اليوم في الضاحية الشمالية لمدينة تونس حيث يوجد حيّ يطلق عليه اسم حيّ بوسلسلة وبالمقابل لا يزال «فُنْدُق الفرنسيس» قائماً داخل سور المدينة بجوار باب البحر.

الترجمـــة

لقد اعتمدنا في ترجمة النصوص الواردة في متن الباحثة على المصادر الأصلية سواء النصوص العربية مثل ابن جُبَيْر والمَقْرِيزي وابن صَصْرَة وغيرهم، أو المعاهدات التي أُبرمت بين دول العالم المتوسّطي في العصر الوسيط مثل النصوص التي نشرها ميكيلي أماري «M. Amari» أو تلك التي تتعلّق بالوثائق الدبلوماسية التي نشرها ألاركون إي سانتون «Maximiliano A. Alarcón y Santón» والعودة كذلك إلى الوثائق الإيطالية وسِجِلّات النقائش التي وردت في العمل إيماناً منا بأنّ لغة المصادر الوسيطية تعبّر عن روح العصر وعن لغة العصر ولها تقنياتها الخاصّة في التحرير والتعبير. واحترمنا الصيغ الواردة في النصوص الوسيطية المستشهد بها في المتن.

كما فضّلنا في غالب الوقت استعمال لفظة فُنْدُق كلما كان هناك حديث عن هذه المؤسّسة في صيغ مختلفة. ولكننا حافظنا قدر الإمكان على لفظة فُنداكو في صيغة المفرد كلّما كان الحديث عن الفَنادق المخصصة للتُّجّار الأوروبيين أو

(12) انظر حول حياته آخر ما صدر عنه ضمن تحقيق كتابه أنس المُهَج وروض الفَرَج، تحقيق الوافي النوحي، منشورات وزارة الأوقاف، المملكة المَغْربية، 2007م، ص36-40.

كلّما كان هناك حديث عن الفَنادق في مدن أوروبا المتوسّطية. إلّا أننا حافظنا على لفظة بَنْدوكيون «pandocheion» وجمعها على البَنْدوكيونات أو على لفظة ميتاتون «mitaton» وأمبولو «embole» وهي ألفاظ خاصّة بالحقل اللُّغوي اليوناني، وكذلك عبارة هُنْدِقا الإسبانية «alhondiguas» أو عبارة لوجيا «loggia» واستعملتها الباحثة في إطار المناقشات اللُّغوية التي خاضتها لتخلص إلى أن جميع هذه المؤسّسات انضوت في أغلب الأحيان في الفترات اللاحقة تحت تسمية **الفُنْدُق** أو **الفُنداكو**.

ولعلّ ما قد يجعل القارئ يتساءل عن ترجمة العنوان وروده في الأصل بصيغة *Housing the Stranger in the Mediterranean World*؛ وقد يتساءل القارئ لماذا فضّلنا لفظة إسكان على أيّ لفظة أُخرى تُفيد الإقامة والسكن. إننا نعتقد أن المسألة لا تتعلّق بالإقامة بمفهوم السكن الدائم وإنما تتعلّق بتوفير إقامة مؤقتة لمن يكون في حالة سفر مهما كانت مقاصده من ذلك. بالإضافة إلى ذلك فهذه الإقامة توفّرها الدول المُضيفة التي تتدبّر أمرها لتوفير سكن مناسب، وفي هذه الحالة توفير سكن لتجار وافدين من أصقاع بعيدة وهو ما تفيده لفظة **إسكان**. ولفظة الإسكان المُشتقّة من فعل أسكن تعني صيرورة ليست منتهية تتمثل في توفير إقامة مؤقتة واضطرارية في كلّ الحالات.

كما عرَّبنا «stranger» بلفظة الغريب، ولعلّ أحسنَ تعريف للغريب هو ما أورده أبو حَيّان التوحيديّ في **الإشارات الإلٰهية**، حتى وإن كان الجانب الرمزي والفلسفي هو السِّمة العامّة للكتاب "**بأن الغريب هو من لا سبيل له إلى الأوطان ولا طاقة به على الاستيطان**"[13] وهي تقريباً حالة مُسْتَعملي الفَنادق. كما أن الغُربة هي الابتعاد عن الأوطان[14] وهي صفة كلّ النازلين في الفَنادق باستثناء المشرفين عليها من أهل البلد. في حين قد يرى البعض أنّ لفظة أجنبي أقرب إلى واقع هؤلاء السفّار ولعله يكون محقاً لو تعلّق الأمر بالفترات الحديثة التي تبلورت فيها

---

(13) أبو حَيّان التوحيديّ، **الإشارات الإلٰهية**، تحقيق عبد الرحمن بدوي، القاهرة، 1950م، الجزء الأوّل، ص79.

(14) ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، الجزء الأوّل، حرف، «ب» ص639.

الهويّات الوطنية وأصبح فيها المرء يحمل تعريفاً قانونيّاً في ظلّ الدول الوطنية، ولكنّ هذا الأمر لم يكن متوفّراً في العصر الوسيط لا في العالم الإسلامي ولا في العالم المسيحي. لذلك تبدو استعارة لفظة أجنبي إسقاطاً على واقع العصر الوسيط. كما أنه يمكن التساؤل عن اختيار المؤلّفة للفظة «stranger» عوضاً عن لفظة «foreigner» ولو أنها استعملت هذه الأخيرة في المتن، لولا وعي الفرق بين المصطلحَيْن وصعوبة استعمال مصطلح الأجنبي في العصر الوسيط. لذلك اخترنا المصطلح المعبّر عن واقع عصره.

وفي الختام لا يسعني إلّا أن أشكر دار المدار الإسلامي التي قبلت اقتراح ترجمة هذا الكتاب. وقد سعينا قدر الإمكان إلى التقيّد بالأمانة العلمية وحاولنا الرجوع إلى مصادر الباحثة ومراجعها كلّما كان ذلك ضروريّاً.

ولئن قيل إن الترجمة مهما كانت هي خيانة للأصل فإنّ نيتنا كانت الأمانة في كلّ الأحوال.

شكر

إنه أمر عجيب ما إن يصرف المرء اهتمامه إلى موضوع ما حتى يبرز أمامه فجأةً من حيث لا يعلم في مختلف الأماكن المحتملة وغير المحتملة. على سبيل المثال بمجرّد أن يقرر شخص شراء منزل يرى الإشعارات "للبيع" تملأ كلّ الشوارع. فكان الأمر كذلك بالنسبة إلي حين كنت أبحث عن أكثر ما يمكن من المعلومات حول البَنْدوكيون والفُنْدُق والفُنداكو. فحينما بدأت أبحث عن هذه المؤسّسات، أصبحت هذه المباني التجارية التي كانت غير واضحة حتى الآن حاضرة في كلّ مكان:

في الروايات التاريخية وفي النصوص القانونية وفي روايات رحلات الحَجِيج والعُقُود العدلية والمعاهدات الدبلوماسية ورسائل التجار وكُتُب الجغرافيا وفي مصادر أُخرى من مختلف جهات العالم المتوسّطي في العصر الوسيط. فأيقنتُ بسرعة أنّ هذه الفضاءات التجارية المعدّة للسكن والخزن والتِّجارة كانت منتشرة في مختلف مدن المنطقة في الفضاء الإسلامي وفي الفضاء المسيحي على السواء. فلا بدّ أن يكون المسافر سنة 1300م أو قبل قرون من ذلك أو بعده سواء كان امرأة أم رجلاً قد اعترض هذه المرافق في أغلب الموانئ التي زارها. فقد وُجدت هذه المنشآت أيضاً مذكورة في مختلف النصوص بلغات مختلفة وفي ظروف مختلفة. توجد الإشارات إلى هذه المؤسّسات في نصوص ما كان يتسنّى لي الاطلاع عليها في مخطوطات محفوظة في أرشيفات لم أزرها أو بلغات لا أعرفها. لذلك أشعر بدَيْنٍ كبير تجاه زُملاء وطلبة ومكتبيِّين وكثير من الأصدقاء الذين مدّوا لي يد المساعدة طوال مسار البحث.

هذا الكتاب هو نتيجة مسار طويل لتقصّي المعلومات وجمعها. ولمّا علم بعض الناس بانشغالي بهذا الموضوع أصبحوا يمدّونني بقوائم طويلة من المراجع مما اعترضهم أثناء إنجازهم بحوثهم. فأنا أشعر باعتراف عميق لمساعدتهم

وكرمهم وستبرز أسماؤهم في هوامش هذا العمل. كما أنني مدينة أيضاً لكلّ من وجّهني نحو مسألة من المسائل أو مشكل من المشاكل أو مدّني بما يدعم عملي. وهذا الكتاب ثريّ بمساهماتهم. وممّا لا شكّ فيه أن ثغرات عديدة تظلّ موجودة في عمل بهذا الحجم. فستظلّ دائماً هناك بَنْدوكيونات وفَنادق ومؤسّسات فُنداكو تنتظر من يكتشفها في الأرشيف أو في أيّ مكان آخر كما أنّ العديد منها لم يقع التعرّض إليه في هذا النصّ لأنها بكلّ بساطة تقع ضمن نماذج أوسع أو أنها تَنَحَّتْ أمام استشهادات أخرى. فالإكثار ليس دائماً محبّباً. وفي آخر الأمر، على الإنسان أن يقرّر ويشتري منزلاً، أو ينهي كتاباً.

وكما أن الشكر واجب لكلّ الذين ساعدوني على جمع مادة الكتاب، فكثيرون آخرون يستحقّون الشكر الخاصّ. ومن بينهم أولئك الذين قرأوا العمل مخطوطاً في مختلف مراحله مع تنويه خاصّ إلى توماس نوبل (Thomas Noble) ودافيد أبو لافية (David Abulafia) ومايكل ماكورميك (Michael McCormick) وتيوفيلو رويز (Teofilo Ruiz) وجيمس باول (James Powell) وجايلز كونستابل (Giles Constable) وزوجي ماتيو بل (Matthew Bell). وأنا مَدِينة كذلك لكلّ من نصحني ووجّهني طوال الطريق من حيث المسائل التي تهمّ اختصاصاتهم وكلّ الزُّملاء والطلبة الذين ساعدوني على ترجمة النصوص اليونانية والعبرية والتركية والسّريانية. وقد ذكرت أسماء هؤلاء في هوامش العمل. كما حصلت على ملاحظات واقتراحات قيّمة من كلّ الذين حضروا في الندوات التي اشتركت فيها وقدّمت فيها مداخلات هي جزء من مشروعي أو الذين استمعوا إلي أتحدّث عنه في لقاءات غير رسمية. وأتوجّه بشكري الخاصّ إلى مدرسة الدراسات التاريخية «School of Historical Studies» في معهد الدراسات العليا بجامعة برنستون «Institute of advanced Study in Princeton» التي وفّرت لي إقامة هادئة ومشجّعة لكتابة المسودّة الأولى للعمل وإلى مجموعة الزُّملاء الذين اشتغلت معهم في تلك السنة.

لقي هذا المشروع الدعم المالي من معهد الدراسات العليا في برنستون ومعهد العصر الوسيط في جامعة نوتردام «Notre Dame» ومعهد المِنَح الدراسية في الفنون الحُرّة «Institute for Scholarship» بنوتردام وقسم التاريخ بجامعة نوتردام. أشكر لهم مساعدتهم مع عميق اعترافي. وأوجّه شكري كذلك إلى

المتاحف والمكتبات التي سمحت لي بنسخ صور وقعت الإشارة إلى مصادر كلّ واحدة منها، كما أشكر إيليزا ماك لنون (Eliza McLennon) التي رسمت خرائط هذا الكتاب. والشكر الحارّ واجب أيضاً إلى مؤسّسة نشر جامعة أكسفورد وخاصّة إلى وليم دايفيز (William Davies) وماري ستاركي (Mary Starkey).

وفي الختام حبي وشكري لزوجي لدعمه لي ولعملي معاً. فقد كان دائماً يجد الطريقة المُثلى لتحسين أسلوبي في الكتابة وترتيب حُجَجي بطريقة أكثر منطقية. وكذلك لولديّ أوين (Owen) وسام (Sam) اللذين عاشا مع «فَنادقي الوسيطة» فترة طويلة من حياتهما. لنلتفت الآن إلى أشياء أُخرى.

مقدّمة

ثقافة الرّحلة: الكلمات والمؤسّسات والشبكات

في أواخر القرن الخامس عشر تاه أحد الحُجّاج الألمان وهو يتجوّل في مدينة الإسكندرية وفي أزقّتها الملتوية التي لم يألفها من قبل.

وبعد فترةٍ من الدهشة طلب من أحد المسلمين أن يرشده معتمداً اللُّغة اللاتينية لأنه لا يعرف اللُّغة العربية. سأل «عن فُنْدُق القَطَلانيّين» وربما كان يتكلّم ببطء ووضوح مثلما يفعل الرحّالة عادةً في البلدان الغريبة عنهم. فطلب أن يُقاد إلى فُنْدُق القَطَلانيّين حيث كان يقيم مع حُجّاج أوروبيين آخرين[1].

ولحُسن حظّه فقد تمّ إيصاله مباشرة إلى المكان المنشود نتيجة لاستعماله لفظة فُنْدُق وهي اللفظة نفسها المُسْتَعملة في اللُّغة العربية للتدليل على المكان نفسه. في الواقع أن اللفظتين متقاربتان فهما تتقاسمان إرثاً عريقاً يصل إلى اللفظة اليونانية القديمة ـ بَنْدوكيون «*pandocheion*» ـ التي تعبّر عن الخان أو مكان إقامة المسافرين.

يبحث هذا الكتاب في تاريخ هذه المفردات وأهمّ من ذلك، في تاريخ المؤسّسات التي تعنيها منذ العهود القديمة إلى عشية انبلاج العصور الحديثة في العالم المتوسّطي، فهو يتناول بالدرس تطوّر هذه المؤسّسات عبر الزمن والمجال والثقافة مع أخذ مظاهر التواصل والتحول في الاعتبار.

ما الذي حدث لجُمْلة من المؤسّسات التي تواصلت لفترة طويلة من الزمن في مختلف الجهات؟ ما الذي جعلها تتواصل وماذا يعني ذلك التواصل بالنسبة

(1) Felix Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae, Arabiae et Egypti peregrinationem*, ed. C.D. Hassler (Stuttgart: Soc. Lit. Stuttgardienis, 1843-1849) III, 174 [134b]; French trans. *Le Voyage en Egypte de Félix Fabri*, trans. Jacques Masson and Gisèle Hurseaux (Cairo: Institut français d'archéologie orientale du Caire, 1975) II, 715.

للشيء ذاته وبالنسبة للعالم الذي يعيش فيه؟ يمكن الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال تحليل الكلمات والمؤسّسات ضمن إطارها الثقافي والتأريخي الخاصّ.

إنّ هذه المجموعة من المؤسّسات تؤدّي هي بنفسها إلى طرح هذه التساؤلات لأنّ هناك معطى معيّناً عبر فترات مختلفة ومواقع متنوّعة من العالم المتوسّطي. كلمات قليلة أو مؤسّسات خارجة عن مجال المصطلحات العلمية والفلسفية تلك التي تركت صدى كبيراً عن تطوّرها عبر حدود اللُّغة والثقافة والدين. إنه سهل نسبيّاً أن نحدّد متى تمّ إدماج العديد من الكلمات من اللُّغة اليونانية في مجال اللُّغة العربية أو من اللُّغة العربية في مجال اللُّغة اللاتينية. يمكن للإنسان أن يجد في المجال الاقتصادي على سبيل المثال علاقة بين ديوان (جمارك) و *douane/dogana*؛ وبين أبوتيكه «*Apotheke*»» (صيدلية باللُّغة الألمانية) وبوديغا «*Bodega*» (باللُّغة الإسبانية وهي من أصل لاتيني)؛ وبين ديناريوس ودينار ناهيك عن ذكر عدد لا يُحصى من أسماء المواد الغذائية والبضائع.

ومع ذلك فإنّ تطوّر هذه المؤسّسة هو تطوّر طويل المدى ومعقّد إذ يمكن أن نجد روابطَ من اللُّغة اليونانية إلى اللُّغة العربية ومن اللُّغة العربية إلى اللُّغة اللاتينية ومختلف اللُّغات الأوروبية الأُخرى عبر قرون عديدة.

إنّ مؤسّسة الفُنْدُق على اختلاف التسميات هي مؤسّسة متوسّطية على امتداد ما يقارب ألفيَّتين من الزمن. وقد كانت لهذه المؤسّسات روابط مشتركة ولو أنّها أخذت أشكالاً عديدة، فلم تكن مكاناً للإقامة فقط بل كانت أيضاً مخزناً للبضائع ومكاناً للتِّجارة ولاستخلاص الضرائب وإدارةً وحانة وسجناً ومكاناً لتجميع السلع، ومواخير[2]. يجد أيّ مسافر في أواخر العصر الوسيط في المجال

(2) هناك صيغ مختلفة لاتزال موجودة حتى الآن بما أن الفُنْدُق يعني النُّزل في اللُّغة العربية المعاصرة والفُنداكو يعني مستودعاً في اللُّغة الإيطالية المعاصرة. وستعتمد هذه الدراسة من ناحية السهولة ومن ناحية أُخرى لأنها تعكس إلى حد كبير لغة العصر الوسيط، لفظة فُنْدُق للتعبير عن هذه المؤسّسة كما وُجدت في دار الإسلام عندما كانت تحت مسؤولية المُسلمين أو المسيحيين أو اليهود الذين يعيشون داخل هذا الفضاء. وعلى عكس ذلك ستُطلق لفظة فُنداكو إما على المنشآت الخاصّة بالتُّجّار المسيحيين الأجانب في المُدن الإسلامية (رغم استمرار استعمال كلمة فُنْدُق في اللُّغة العربية) وإما على المؤسّسة التي ظهرت في مُدن أوروبا الجنوبية. =

المتوسّطي فُنْدُقاً في أغلب المُدن المجاورة للبحر مثل البندقية وراغوزة «*Raguse*» ودمشق والإسكندرية وتونس وبَلِرْم (پالرمو) «*Palermo*» وإشبيلية وبرشلونة ومرسيليا وبيشة «*Pisa*» ونابولي «*Naples*» وغيرها. قبل ذلك في بداية العصر الوسيط نشأ الفُنْدُق في العالم الإسلامي وانتشر مع الإسلام في القرن السابع. وقد كانت هناك مفردات شبيهة في اللُّغات الآرامية والعبرية والسّريانية في العصر القديم المتأخّر ناهيك عن الصيغة اليونانية الأصليّة.

تُحيل أقدم الإشارات إلى البَنْدوكيون اليوناني على العالم الأثيني في القرن الخامس قبل الميلاد، إنّ الفترة الطويلة التي تواصلت فيها هذه المجموعة من المؤسّسات وتبنّيها وتأقلُمها مع مختلف المجتمعات المتوسّطية عبر القرون تشهد على فائدتها التجارية واعتياد الناس عليها وعلى أهمّيتها.

إنّ تواصل مؤسّسة الفُنْدُق وما شابهها في العالم المتوسّطي لا يدلّ على أهمّية هذا النوع من المؤسّسات فقط وإنما يخبر عن طبيعة المُحيط الذي وُجدت فيه. فمنذ بدايات التاريخ كان المتوسّط مجالاً للرحّالة- من تجار ومحاربين وحُجّاج وباعة وسفراء ومتشرّدين- يتنقلون براً وبحراً من جهة إلى أُخرى. فقد يعتقد البعض أن هناك فترات من الركود، ولكن بعض الأعمال الحديثة كشفت عن حركية مكثّفة وعن وجود اتصالات عبر المتوسّط وداخله(3). يحتاج المسافر لتكون الرّحلة ممكنة في هذه المنطقة كما في غيرها، إلى المأوى والطعام والأمن ووسائل الراحة. وكما لاحظ فردينان بروديل بصورة موجزة "أنه لا يمكن أن تُوجد مسالك إذا لم تتوفّر أماكن التوقّف"(4). فالمسافرون حول المتوسّط

= وبالنسبة إلى أوروبا ستُستعمل ألفاظ محلّية مثل الهندقا [*alhóndiga*] في قشتالة والفنداك [*fondech*] في اللُّغة القطلانية وفُنداكو [*fondaco*] في الإيطالية وفوندا [*funda*] أو فوندي [*fonde*] في الإمارات الصليبية، إلخ. . . أما بالنسبة إلى الألفاظ المرادفة لها في اللُّغات اليونانية والسريانية والعبرية فهي لا تطرح إشكالات كبيرة وقد كُتبت بحسب ما يناسبها من الحروف.

(3) Michael McCormick, *The Origins of the European Economy: Communications and Commerce AD 300-900* (Cambridge: Cambridge University Press, 2001).

(4) Fernand Braudel, *the Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II* (New York: Harper & Row, 1972) I, 277.

يحتاجون إلى ما يريحهم ويكون ذلك في النهاية من خلال وجود المؤسّسة نفسها على اختلاف تسميتها.

بيّنت ويسّرت هذه المرافق على السواء وجود عالم متوسّطي متماسك في الفترة الممتدّة من تدهور النفوذ الروماني إلى نشوء أولى الإمبراطوريات الحديثة. إن هذه المجموعة من المؤسّسات المتقاربة الشكل لا تبرهن فقط عن التمازج بين ثقافات مختلفة الأصول وعن الظروف والاحتياجات المشتركة وعن التفاهم الذي كان يسود العالم المتوسّطي ما بين القرنين الثاني والسادس، وإنما تعبّر كذلك عن وضع جديد فيه الانقسامات السياسية والدينية واللّغوية والمنافسات التجارية والنظرة إلى الذات وإلى الآخر في تلك الفترة.

ساهم انتقال هذه المؤسّسات من عالم سياسي وديني ولغوي مهيمن إلى عالم آخر، من عصر الديانات الوثنية إلى اليهودية ثم المسيحية في نهاية العهد الروماني المتأخّر إلى العصر الإسلامي ثم في النهاية إلى عصر المسيحية اللاتينية في جنوب أوروبا، في وجود تفاهم بين الثقافات والتوسّط بينها.

تعبّر هذه المجموعة من المؤسّسات عن تزامن الأنساق الثقافية في العالم المتوسّطي كما وُصفت بصورة رائعة في عمل بروديل، وهي تعبّر أيضاً عن أهمّية الظرفية وما قد يطرأ عليها من مفاجآت في وجود التبادل.

يبيّن البحث في تاريخ البَنْدوكيون «*Pandocheion*» والفُنْدُق تواصل العصر القديم المتأخّر والعصر الوسيط، اللذين انقرضا بشكل كبير، حتى بداية العصر الحديث، عبر هذه المؤسّسات. إنّ طول عمر هذه التجهيزات وانتشارها قبل القرن السادس عشر لا يتناسبان مع تراجع أهمّيتها بعد هذه الفترة ممّا يعبّر عن الهُوّة بين الفترة الوسيطة وبداية العصور الحديثة؛ مثلما يعبّر تراجع دور هذه الفضاءات التجارية ببداهة عن أن العالم المتوسّطي في عصر فيليب الثاني وسليمان القانوني كان على وشك التحوّل.

يوافق الانتشارُ الجغرافي لمؤسّسة الفُنْدُق السواحلَ المتوسّطية، ومع هذا لبّت هذه التجهيزات احتياجات عالمية. قد يجد المسافر في العصر الوسيط الذي يبتعد عن البحر لو ذهب إلى لندن أو نوفغورود «*Novgorod*» أو بغداد أو سِجِلْماسة، أشكالاً أُخرى من أماكن السكن لها الوظائف نفسها ولكنها تحمل

أسماء مختلفة ولها تاريخها الخاصّ. تُعدّ هذه التجهيزات من منظور الأنثروبولوجيا الاقتصادية مؤسّسات مميّزة للموانئ التجارية ومناطق العبور في مختلف أنحاء العالم[5]. لقد نبّه فيليب كورتان (Philip Curtan) إلى أنّ هذه الفَنادق المختصّة في إيواء المسافرين والتجار وفي دعم النشاط التجاري يمكن أن نجدها أيضاً عبر المسالك الطويلة التي يمرّ منها الرحّالة والتجار[6]. وبهذه الصورة تكون للفُنْدُق وما شابهه مؤسّسات موازية في منشآت النقابات التجارية في لندن والبلطيق، وفي فترة لاحقة في المخازن المُنشأة في الكاريبي وبحر الصين[7]. ولكن يجب ألّا يحجب التشابه في الشكل والوظيفة الاختلافات المحلية. وذلك على الرغم من أنّ الفُنْدُقَ وغيره من المؤسّسات الشبيهة تشكل نموذجاً له تاريخه الخاصّ.

إنه من الصعب إصابةُ هدف متحرّك أو تحديدُ موضوعٍ ووصفُه مادام اسمه وشكله يتغيّران باستمرار. فحتى عندما يشيعُ أمر بين الناس ويصبح اسمه متعارفاً عليه مثلما هو الشأن بالنسبة لمؤسّسة البَنْدوكيون «*Pandocheion*» في العصر الروماني المتأخّر، فإنّ المَراجِع المعاصرة تُشير إلى مفاهيم مختلفة ومتنوّعة للمصطلح. وعلى الرغم من أن هذه اللفظة كانت دائماً مُسْتَعملة للتعبير عن مكان إقامة المسافرين بمقابل مادّيّ، فبعضها كان مكان إقامة بسيطاً لاستضافة أناس محترمين بينما استُخدم بعضها الآخر كحاناتٍ ومواخير وبيوت قمار وملاجئ للُّصوص والمجرمين.

---

(5) انظر تلخيص عمل Karl Polanyi, K.G. Hirth, and others in Richard Hodges, *Dark Age Economics. The Origins of Towns and Trade, AD 600-1000* (London: Duckworth, 1982) 23-24.

(6) Philip Curtin, *Cross-Cultural Trade in World History* (Cambridge: Cambridge University Press, 1984) 78.

(7) حول المراكز الهنسياتية (Hanseatic) [النقابية التجارية] في منطقة بحر البلطيق و«الميزان القبّاني» Steelyard في لندن انظر:

P. Dollinger, *the German Hansa*, trans. D.S. Ault and S. H. Steinberg (Stanford, CA: Stanford University Press, 1964) 98-106.

وحول التسهيلات للتُّجّار الزائرين في غانا، انظر:

P. L. Shinnie, *The African Iron Age* (Oxford: Clarendon Press, 1971) 55-56.

يوجد بعض هذه المؤسّسات في قلب المدينة وبعضها الآخر على طول المسالك الريفية، بعضها هو مؤسّسات حكومية تُؤوي الموظّفين في أعمال رسميّة؛ وبعضها الآخر ممتلكات خاصّة.

كما هو الحال بالنسبة لكلمة نُزُل (hotel) الحديثة، يمكن للإنسان أن يرى فيها تشكيلة من المرافق المختلفة التي يُطلق عليها الاسم نفسه.

إنّ مشكلة الهويّة تصبح معقّدة عندما تُطلق كلمة واحدة بأساليب مختلفة تعبّر عن اندماجها في إطار لغويّ وثقافيّ جديد. هناك في بعض الأحيان نوع من التطابق مع معناها الأصلي مثلما هو الحال بالنسبة للفظة بندوق في اللُّغة الآرامية في فلسطين في القرن الثاني. فلو وَجَد يونانيّ مثل هذه الفَنادق لوجد فيها البَنْدوكيون. وفي حالات أُخرى لقد كانت هذه اللفظة مرتبطة بالتاريخ إما بصورة مباشرة (عندما أصبح الشام البيزنطي تحت سُلطة الأمويين في القرن السابع وحلَّت لفظة فُنْدُق العربية محل البَنْدوكيون أو عندما استولت الجيوش المسيحية على المُدن الأندلسية فأصبح الفُنْدُق المحليّ يعرف بلفظة **الهُنْدِقا** «*alhóndiga*» أو الفنداق)، وإما بصورة غير مباشرة (عندما نشأت الفَنادق في إيطاليا في فترة قصيرة بعدما اكتشف التجار هذه الفَنادق في مصر وشمال إفريقيا). ففي مثل هذه الحالات الدقيقة قد يكون من الواضح -ولكن ليس على الدوام - أن الشعوب المعاصرة كانت تعرف العلاقة بين أصل الكلمة والأشكال التي تطوّرت إليها. فعلى عكس ملاحِظي العصر الوسيط، لنا إمكانية النظرة الشاملة التي تسمح بتقصّي العلاقات بين ما هو مُعاصر وما هو ظرفيّ من أشكال المؤسّسة عبر الزمان والمكان.

بُنيت هذه العلاقات في كثير من الحالات على المصطلحات المُسْتَعملة للتعبير عن مؤسّسات معيّنة في أُطُر مختلفة. إنّ للكلمات قيمتها وتتبُّع ذلك من خلال مجال شاسع من المصطلحات لا يعدّ مجرد تمرين فيلولوجي. فالشعوب تستعمل الكلمات للتعبير عن شيء معيّن ولتبليغ فكرة ما. وبذلك يعبّر استعمال مفردة معينة -وخاصّة إذا ما تمّ تبنّيها من لغة أُخرى ومن إطار آخر وإدماجها في إطار مختلف - عن أهمّيتها وقيمتها كمرجع. وفي الوقت نفسه يكون اختيار كلمة معيّنة وخاصّةً إذا ما كانت جديدة ومأخوذة من لغة أُخرى، دليلاً على وظيفة معاصرة وعلى فهم للشيء الذي أُطلقت عليه.

وعبر كلّ هذه الدراسة، أفترض أن استعمال مؤلّفي العصر الوسيط للفظة خاصّة دون توضيح كافٍ يعني أنهم يتوقعون أن قراءهم يدركون مقاصدهم حتى وإن تعدّدت.

للكلمات أهمّيتها، لأن أغلب المعطيات المعتمدة لإنجاز هذا المشروع مأخوذة من المصادر المكتوبة. إنّ ذكر **البَنْدوكيون** وما شابهه من المؤسّسات في الطُّرَف والنوادر وسِيَر القدّيسين والأدب الجغرافيّ والرسائل والتواريخ والعُقُود والنقائش ونصوص القوانين وغير ذلك من النصوص يضع الفَنادق في ارتباط بين الواقع اليومي وعالم الفكر في تلك الفترة. لقد استُعملت المصادر أينما كان ذلك ممكناً لتسليط الضوء على تاريخ البَنْدوكيون والفُنْدُق بصيغته العربية أو الإيطالية. كما يساهم الفنّ والآثار والأشكال الهندسية للأبنية التي ما تزال موجودة في تحديد التاريخ الذي ترويه المصادر المكتوبة.

إنّ العلاقات التي نشأت بين الكلمات واللُّغة صالحة لأن تكون قاعدة لتاريخ مقارنيّ. يعطي تتبّع لفظة **بَنْدوكيون** ومختلف معانيها فرصة نادرة حيث إنه يتيح المقارنة بين مؤسّسات مرتبطة فعلاً فيما بينها أكثر من أنها مترادفة. إنّ مجرد ملاحظة التشابه بين الفَنادق في بحر البلطيق والمتوسّط وبحر الصين تؤدّي إلى شيء واحد يتجاوز مجرّد التشابه البسيط، وهو أمر محيّر. وعلى العكس من ذلك تؤدّي مقارنة المؤسّسات المتقاربة بالنظر إلى العلاقات القائمة مع السلف نفسه إلى نتائج أكثر فائدة.

فتحليل هذه العلاقات والتشابه والاختلافات والتطوّرات ومقارنتها لا يؤدّي فقط إلى فهم معمّق للمؤسّسات نفسها وفهم نشوئها الخاصّ وإنما يؤدّي كذلك إلى فهم عميق للإطار المشترك بين هذه المؤسّسات وصيرورة التداخُل والتبادُل الثقافي عبر التاريخ. سيؤدّي التبادل الثقافي الذي شمل الكلمات والأشياء، أينما وقع، إلى التلاقي بين مجموعتين وهو أكثر وضوحاً في المناطق التي كانت لها اتصالات طويلة وتقاسمت إلى حدّ ما إرثاً مشتركاً. إن أكثر ما هو مشترك على الرغم من الاختلافات وربما العداوات بل الفرصة الثمينة هو التبنّي الذي له دلالته. يقدّم عالم المتوسّط في العصر الوسيط سيناريو مثاليّاً لمثل هذا التبادُل. لقد كانت المواصلات والاتصال الجاري على ضفاف المتوسّط يغذّيها الإرث

المشترك المتمثّل في التوحيد والثقافة الإغريقية الرومانية. فليس من قبيل المصادفة أن تكون لكلمة فُنْدُق العربية وكلمة فونتكوم «*fonticum*» اللاتينية جذور يونانية وكذلك عبور هذه الكلمة فيما بعد من اللُّغة العربية إلى اللُّغة اللاتينية في العصر الوسيط وليس من اللُّغة اليونانية مباشرة[8]. تتقاسم المؤسّستان الوسيطيّتان بعض المظاهر الموروثة عن السلف بل كذلك تأثّر شكلهما ووظيفتهما بطريقة استعمالهما وبالموروث وبالظروف.

من المهمّ أن نأخذ في الاعتبار الظرفية وأدوات النقل بما أن الكلمات والأفكار لا تنتقل بمفردها من مكان إلى آخر. بالمقابل فهي قد نُقلت وتمّت استعارتها وأقلمتها من قبل الشعوب التي وجدتها صالحة للاستعمال. فعلى سبيل المثال حين وجد الرحّالة المسيحيون الفَنادق -على اختلاف تسمياتها- في المُدن الإسلامية استلهموا الفكرة عندما عادوا إلى مُدنهم فوجدت الشعوب الأوروبية أنه من المفيد تأسيس فَنادق بصيغة محلية. من غير المرجّح أن تظلّ مؤسّسة على قيد الحياة ولو في المنطقة نفسها خاصّة في ظلّ التقلّبات السياسية والثقافية إلّا إذا كانت ملائمة. فهكذا كانت الفَنادق في مجال الإسلام الأوّل مختلفة بعض الشيء عن البَنْدوكيون الذي كان موجوداً من قبل وإن احتفظت ببعض المميّزات المشتركة. لقد كان سكّان الشام في القرنين السابع والثامن معتادين على المؤسّسة اليونانية وقد وجدوا فيها من القيمة ما فيه الكفاية للاحتفاظ بها وملاءمتها مع الوضع العربي الإسلامي الجديد.

ما الذي كان صالحاً من هذه المجموعة من المؤسّسات وما هي الجوانب التي تمّ الاحتفاظ بها على مرّ القرون؟

لقد كانت مسألة إقامة الرحّالة أهمّ نقطة مشتركة في العالم في مستوى تواصلها على المدى البعيد ومن حيث الحاجة إليها بالدرجة الأولى ولكن حتى هذا تغيّر مع الزمن.

كانت الفَنادق في أواخر العصر الوسيط تُستخدم لتخزين البضائع أكثر ممّا

(8) إن الألفاظ الشبيهة مثل بَنْدوكيون [Pandocheion] وباندوكس [Pandox] تنحدر مباشرة من اللُّغة اليونانية ولكنها كانت نادرة الاستعمال في أوروبا الوسيطة.

تُستخدم لإسكان الناس. ومن ناحية ثانية يعدّ توفير فضاء للتِّجارة وخزن البضائع من الخصائص الأُخرى التي تواصلت مع العهود الإسلامية منذ بدايتها. فقد أصبح النشاط التجاري نشاطاً مركزيّاً بالنسبة إلى الفُنْدُق مقارنة بما كان يحدث في البَنْدوكيون في العصر القديم المتأخّر. والظاهرة الثالثة هي التدخُّل المتواصل للسُّلطات المحلية في تسيير وإدارة مثل هذه التجهيزات. فقد كان ملوك العصر الوسيط وحكّامه في كلّ من جنوب أوروبا والعالم الإسلامي ينظرون إلى هذه المؤسّسات من حيث نفعها وكونها مصدراً للربح. لذلك وضعوها ضمن سياستهم الجِبائية. فكانت الفَنادق والمراكز التجارية ومخازن السلع الموجودة محلّ رقابة من قبل الإدارات المحلية من أجل تسهيل الاتصالات الرسمية ومراقبة حركة الناس والبضائع وجمع الضرائب والمُكُوس والاستفادة من التِّجارة. وتوفّر هذه المؤسّسات ببُعدها اللُّغوي وخصائصها المشتركة في الإسكان والتِّجارة وتدخّل الدولة مؤشّراً حيويّاً لتتبُّع العلاقات بينها عبر الزمان والمكان.

تتميّز قصّة هذه المجموعة من المؤسّسات عبر المواضيع المشتركة بينها بالتنوّع والاختلاف. لرواية هذه القصة فقد وردت فصول البحث منظّمة حسب التسلسل الزمني والتوزع الجغرافيّ.

فقد خُصّص الفصل الأوّل للبحث في الدور المعقّد للبَنْدوكيون وتغيّر صورته في واقع العصر القديم وخيال أهله. فقد كان مُسْتَعملاً في الفترة ما بين القرن الأوّل والقرن السابع من قِبَل الرحّالة الوثنيين واليهود والمسيحيين في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية. تفيد كلمة بَنْدوكيون نفسها «قبول كلّ الوافدين». وبالرجوع إلى المصادر اليونانية والعبرية والآرامية والسّريانية تفيد كلمة بَنْدوكيون أنها توفّر الإقامة لقاء مقابل لجميع أصناف الناس كما كانت مشتهرة بتوفيرها للمشروبات وبالترفيه وبالدعارة وبالجرائم. وهي وإن كانت ربما تؤوي التجار إلّا أنها لم تكن معروفة كمراكز تجارية؛ وبعكس ما صار عليه الأمر فيما بعد، لم يكن هناك حِرْصٌ على الأمن وخزن السلع. فقد كانت أبوابها المفتوحة وسمعتها السيّئة بلا شكّ لا تشجّع التجار المتجوّلين على قصدها.

مع ظهور الإسلام في القرن السابع انصهر البَنْدوكيون في الجوّ الإسلامي باسم الفُنْدُق. فأصبح بذلك من التجهيزات المميّزة للمُدن الإسلامية من الشام إلى

الأندلس لإقامة التجار وتعاطيهم لنشاطهم ودفعهم للضرائب وكذلك لإقامة الحَجِيج وأصحاب السُلطة.

ويتناول الفصلان الثاني والثالث بالدرس تطوّر وانتشار الفَنادق في الضفة الجنوبية للمتوسّط منذ عهد الأمويين إلى عصر الأيوبيين (من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر). ففي الوقت الذي حافظ فيه الفُنْدُق على جُمْلة من الوظائف الهامّة التي كانت لدى سلفه اليوناني، فقد تطوّر أيضاً لتصبح له أدوار جديدة في العالم الإسلامي: كالإحسان والتِّجارة. قد أقام جميع الناس على اختلاف مشاربهم في الفَنادق إلّا أنّ دورها في الاستجابة لاحتياجات التجار المتجوّلين تزايد حتى إنها أصبحت مقترنة بمجموعات من التجار وبنوع من البضائع. وفي الوقت نفسه اهتمّ أصحابُ السُلطة والحكّام المحليون بهذه المؤسّسات لا لما توفّره من إمكانيات جبائية كنقاط لمراقبة التجار وجمع الضرائب فقط وإنما أيضاً لِما لها من إمكانيات دينية وخَيْريّة في إيواء الحَجِيج والفُقراء. تبدو هذه التطوّرات واضحة ليس من خلال المصادر العربية والنصوص اليهودية ـ العربية فقط ولكن أيضاً من خلال المواد الأثرية والمِعْمارية وهكذا لم يعد البَنْدوكيون مختصّاً بالمناطق الخاضعة للإمبراطورية البيزنطية. فقد ظهرت في القرن الحادي عشر بالإمبراطورية البيزنطية مؤسّسة تجارية وتنظيمية للتِّجارة تسمّى الفُنْداكس «*foundax*». وهذه المؤسّسة قد تشكّلت وفق معاصرها العربي، الفُنْدُق، وليس وفق نمط البَنْدوكيون اليوناني، وهو ما يدلّ على قدرة الكلمات والمؤسّسات على تجاوز حدود اللُغة والثقافة ذهاباً وإياباً.

تعرّف تجار أوروبا الغربية على الفُنْدُق عندما بدأوا يمارسون التِّجارة في العالم الإسلامي خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وكما ستتمّ مناقشة ذلك في الفصل الرابع، فقد أدّى دخول التجار المسيحيين الغرباء إلى تطوّر مرافق خاصّة (الفَنادق) لاستيعاب وتنظيم وفصل التِّجارة الغربية في الموانئ الإسلامية.

فهذا الفُنْدُق (fondaco) بمفهومه الجديد يسهّل المبادلات التجارية وتحقيق الربح وفرض الضرائب ويوفّر للأجانب السكن وتجميع البضائع كما يوفّر الأمن للأوروبيين والمحليين على السواء ويعطي للجاليات الأجنبية نوعاً من الاستقلالية

في ظلّ السُّلطة الإسلامية. وإن كانت بنايات الفَنادق من ممتلكات الدولة وتحت نظرها فإنه كان مسموحاً للتُّجّار الغربيين أن يمارسوا شعائرهم الدينية وأن يتّبعوا تقاليدهم المعيشية كشرب الخمر داخل الفُنْدُق. وفي الوقت نفسه كانت تحرّكاتهم محدودة خارج هذه المباني حيث إنَّ التجار الأوروبيين يبقون مع بضائعهم داخل الفُنْدُق ليلاً.

لقد كانت الفَنادق الغربية داخل المُدن الإسلامية عناصر أساسية في عملية التبادل الثقافي التي حرّكت الثورة التجارية في أوروبا العصر الوسيط ويساعد وجود هذه الفَنادق على تفسير قدرة التجار الغربيين على النشاط في إطار إسلامي في حين أن المسلمين قليلاً ما كانوا يزورون الموانئ المسيحية. فبسبب وجود الفُنْدُق وجد التجار المسيحيون ممارسة التِّجارة والأعمال في الأسواق الإسلامية عملية مربحة وملائمة. وكان هذا النظام يسمح للتُّجّار الغربيين في الإسكندرية ودمشق وتونس وغيرها من الموانئ الإسلامية بمساكنة مجموعة من الأوروبيين يقاسمونهم الأطعمة واللُّغة وعادات الطهارة والتقاليد القانونية والطقوس الدينية نفسها. وعلى عكس ذلك لم تكن المُدن الأوروبية مهيّأة لتوفُّر ما يحتاج إليه التجار غير المسيحيين. ومع بعض الاستثناءات فإنّ المسلم في أوروبا المتوسّطية قد لا يجد أين يقيم بصورة لائقة له وللسكّان المحليين، فليست هناك تسهيلات دينية وغذائية، ضرورية لجعل إقامته مريحة.

بالتزامن مع ازدهار التِّجارة المسيحية في العالم المتوسّطي في القرن الحادي عشر، انطلقت عمليات التوسّع السياسي والعسكري المسيحي في الأندلس وصِقِلّية وفي الشرق اللاتينيّ مخضعةً المُدن الإسلامية ومؤسّساتها الحضرية، بما في ذلك الفُنْدُق، للسُّلطة المسيحية. ومثل نظرائهم من المسلمين سرعان ما اكتشف الحكّام المسيحيون أهمّية الفَنادق فاحتفظوا بتبصّر بالوظائف الجبائية والتنظيمية منها. ويعالج الفصل الخامس تفاصيل هذا التمشّي في شبه الجزيرة الأيبيرية خلال أواخر القرن الثالث عشر عندما دمج كلّ من فرديناند الثالث (Ferdinand III) وألفونس العاشر (Alphonse X) ملك قشتالة ومعاصرهما جيمس الأوّل (James I) ملك الأراغون الهُندغا «*alhóndigas*» والفنداق «*fondech*» ضمن المؤسّسة الاقتصادية لممالكهم الموسّعة حديثاً. ويتناول الفصل السادس تاريخ هذه الظاهرة في قلب المتوسّط وشرقه. فقد حدثت عملية الدمج نفسها على

إثر التغيير السياسي في صِقِلّية وجنوب إيطاليا حيث استفاد الحكّام من عهد روبير غيسكار (Robert Guiscard) إلى فريدريك الثاني، من الفَنادق الموجودة من قَبْلُ وذلك بإصلاحها وجعلها تتناسب مع حاجات العصر.

وكذلك في الإمارات الصليبية لعبت مؤسّسات الفنداس «*fondes*» والفُنداكوس «*fondacos*» في عكّا وصُور وأنطاكية وفي مُدن أُخرى دوراً مهمّاً في الإدارة التجارية والجبائية للمملكة. وفي المناطق التي لا تزال تحت حكم المسلمين واصلت الفَنادق المُعدّة للتُّجّار المسلمين ازدهارها في العصر الوسيط المتأخّر مثلما كان يحدث في الفَنادق الخاصّة بالمسيحيين الغربيين. إلّا أنّ التغييرات في المسالك التجارية وفي مصالح التجار ومراقبة الدولة للتِّجارة خاصّة في عهد المماليك في مصر والشام (من القرن الثاني عشر إلى القرن الثالث عشر)، أدّت كلّ هذه العوامل إلى نهوض مؤسّسات أُخرى مهيّأة للتِّجارة والسكن. ولكن رغم أنّ الفُنْدُق ظلّ يتمتّع بشعبية في المغرب في أواخر العصر الوسيط، فإنه بدأ يفقد مكانته لمصلحة فضاءات تجارية منافسة -خاصّة الوكالة- في المجال المملوكي. فحين تمّ تطوير المنطقة المينائية الجديدة بالقاهرة، في بولاق، أثناء القرن الخامس عشر، اختار أغلب التجار المصريين الكبار أن يبنوا وكالات عوضاً عن فَنادق تماشياً مع أنشطتهم التجارية. في حين أن النجاح الكبير الذي لقيه نظام الفُنْدُق قد كان مدفوعاً بتزايد عدد التجار الأوروبيين الذين يبحثون عن طريقة لاقتحام الأسواق الإسلامية. وطوال هذه المدّة أدّى تدعيم نظام الفُنداكو إلى تراجع صورة الفُنْدُق التقليدية. إنّ التغيّر الكبير في الفضاءات التجارية ما بين القديم والجديد في المتوسّط الإسلامي في أواخر العصر الوسيط هو موضوع الفصلين السابع والثامن.

أمّا الفصل الأخير وهو الفصل التاسع فقد خُصّص لدراسة الفُنْدُق في الشكل الذي أخذه في جنوب أوروبا في أواخر العصر الوسيط (من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر). وعلى الرغم من أن المؤسّسات الموجودة من قبل قد وقع تبنّيها على إثر التوسّع العسكري المسيحي في الأندلس وجنوب إيطاليا وفي الجهات الأُخرى من أوروبا المتوسّطية فقد تمّ جلب الفُنْدُق من الخارج نتيجة للتِّجارة وللدبلوماسية. ويبدو هذا جليّاً خاصّةً في مُدن فرنسا الجنوبية

وشمال إيطاليا والسواحل الدلماسية حيث بدأت تظهر فَنادق جديدة مُعَدّة للسكن والتِّجارة وتجميع البضائع مع حلول القرن الثاني عشر. فقد كان التجار وحُكّام المُدن ورجال الدبلوماسية الأدوات التي أدخلت الكلمة والفكرة في إطارها الأوروبي الجديد. وفي أغلب الحالات سرعان ما فقدت هذه المؤسّسات المزروعة في غير بيئتها علاقتها بالضيافة، ويرجع ذلك جزئياً إلى أن احتياجات السكن للتاجر الجوّال تمّ استيعابها بالمرافق المحليّة الأخرى، بدلاً من ذلك فقد أصبحت فَنادق أوروبا في العصر الوسيط محكومة بالجانب الأمني أكثر منها بالناس فتحولت إلى مخازن ومستودعات للبضائع. فقد أصبحت الفَنادق في بعض الجهات أدوات تستعملها الدولة للمراقبة وجباية الضرائب وتوزيع المواد الأساسية في حين كانت في جهات أُخرى مجرّد مخازن خاصّة يمتلكها التجار. وبصورة أوسع أصبحت العبارة مُسْتَعملة في بعض الحالات للتعبير عن المصارف أو عن بعض فروع الشركات الخاصّة. إلّا أن التعبير اليومي للتُّجّار انزاح نحو هياكل أُخرى، وخاصّة الأروقة «*loggia*». أكّد الإرث المشترك والهندسة المِعْمارية للأروقة على انفتاحها وسهولة دخولها مقارنة بالجدران السميكة والأبواب المغلقة التي كانت للفَنادق التقليدية. تشير العودة إلى الأروقة إلى تحوّل في الممارسة التجارية نحو تحرّر أكثر في المجال التجاري. إلّا أنه في قليل من المُدن الأوروبية فقط احتفظ الفُنْدُق بدوره في إقامة التجار الأجانب وتنظيمها وهو ما يظهر جليّاً في بلنسية والبُندقيّة. وهنا قد اختلط السياسي بالتجاري والجغرافيّ ليعطي فُنْدُقاً شبيهاً بما هو موجود في المُدن الإسلامية. وفي كلتا الحالتين يمكن أن تُوجد تفرّعات بالنسبة للمؤسّسات الحضرية المتأخّرة تدفع نحو الانفصال الديني وتدعم خُصوصيّات الجماعات في هذه المُدن واعتبارها "آخَر". ويبدو هذا التوجّه جليّاً في استمرار الحيّ المُسلم (moreria) في بلنسية في القرن الخامس عشر ونشوء ونموّ حيّ اليهود بالبُندقيّة (الغيتو ghetto) في القرن السادس عشر.

هناك تناسُق وتواصُل في تطوّر البَنْدوكيون والفُنْدُق والفُنداكو «*fondaco*» في أواخر العصر القديم وفي العصر الوسيط وقد اندثر في بداية العصر الحديث. والشيء نفسه حدث في العالم المتوسّطي حيث ازدهرت هذه المؤسّسة من قبل. بعد سنة 1500م واكتشاف المسالك البحرية نحو الهند والعالم الجديد وظهور قوى تجارية جديدة في شمال أوروبا والإمبراطورية العثمانية وتطوّر التقنيّات

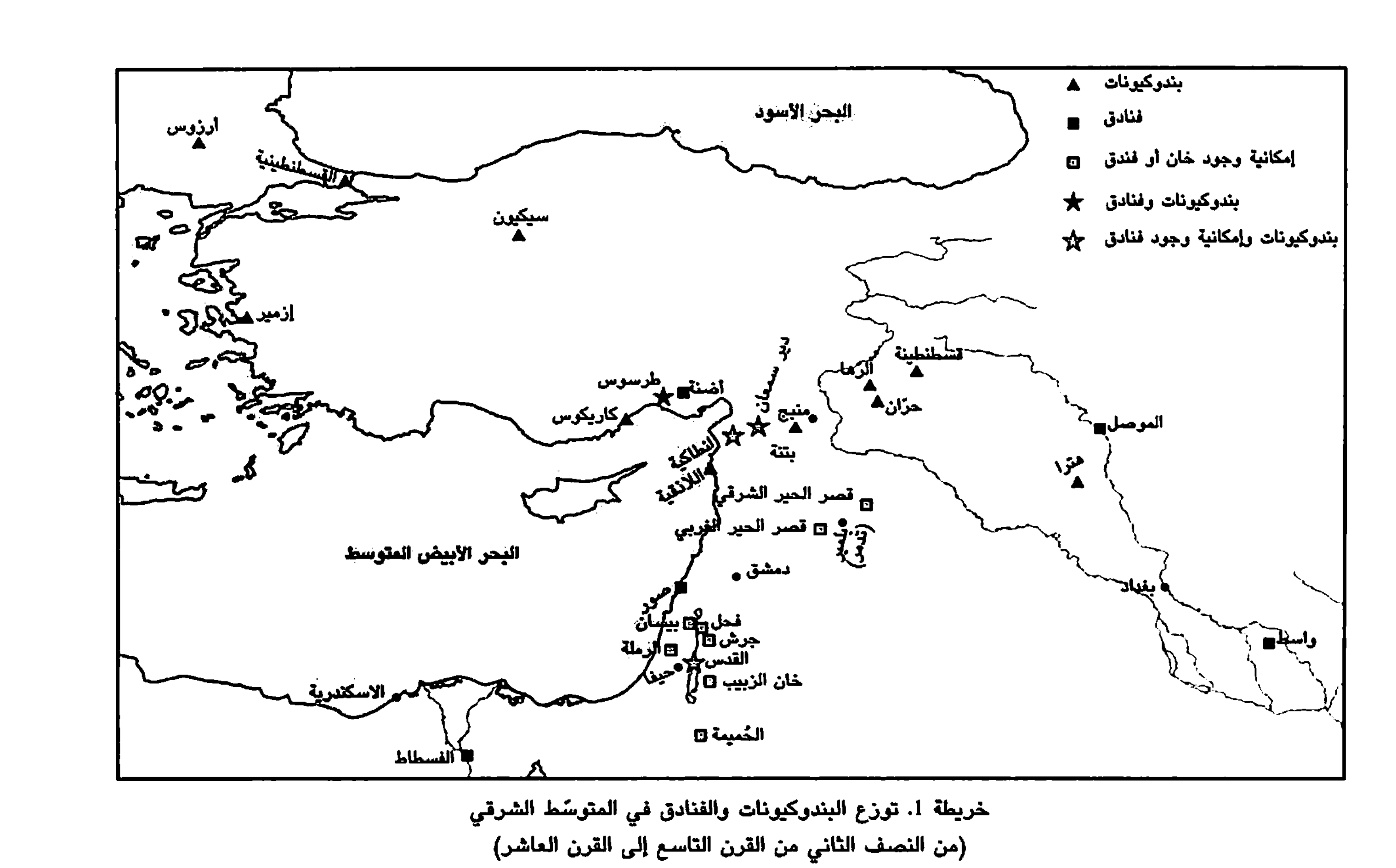
البحرية والعسكرية وبروز تحجّر أكثر في تصوّر «الأنا» و«الآخَر» من منظور السياسة والدين، وبداية بروز الأطماع الاستعمارية، كلّ هذه العوامل مجتمعة أدّت إلى تهميش العالم المتوسّطي والتقليص من أهمّية أفكار المتوسّط ومؤسّساته التي عمّرت طويلاً. لقد تواصل الفُنْدُق والفُنداكو وبقيت بعض الأشكال منه إلى اليوم في جنوب أوروبا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط. ولكنّ هذه النماذج الحديثة فقدت أهمّيتها ومرونتها وانتشارها التي نعمت بها في العصر القديم المتأخّر وفي العصر الوسيط.

الفصل الأوّل

«قبول كلّ الوافدين»: مؤسّسة عابرة للثقافات في العصر القديم المتأخّر

يقدم السامريّ الصالح في إنجيل لوقا (10: 30-35) صورة مسافر سُرق منه زاده وضُرب وتُرك بين الحياة والموت من قبل لصوص اعترضوه على الطريق المؤدّية من القدس إلى أريحا. فأنقذ هذا المسافرَ المنكودَ سامريٌّ كان عابراً ولا شكّ أنه تاجر، فضمّد جراحه وأركبه راحلة من رواحله «وحمله إلى فُنْدُق (بَنْدوكيون) وأغلق عليه الباب. وفي اليوم الثاني أحضر قطعتين نقديتين من الفضّة (ديناريين) وأعطاهما لحارس الفُنْدُق وقال له: «اعتنِ به وإن أنفقت أكثر من القطعتين سأدفع إليك ذلك عند عودتي»».

يساعد استعمال لفظة بَنْدوكيون في هذه الصورة على تسليط الضوء على مسألة الرّحلة وإقامة المسافرين في الجزء الشرقيّ من الإمبراطورية الرومانية خلال القرون الأولى بعد الميلاد. يعالج هذا الفصل أرضية ذلك التنوّع الثقافي بحثاً عن مظاهر الاختلاف والاتفاق -بصورة مجازيّة وبصورة حَرْفيّة- في فهم البَنْدوكيون وغيره من مراكز إقامة المسافرين التي تذكرها المجموعات الوثنية واليهودية والمسيحية في الفترة الممتدّة من القرن الأوّل إلى القرن السابع. فهو يحلّل أوّلاً معنى كلمة بَنْدوكيون وما شابهها من العبارات الواردة في المصادر القديمة ثم يحدِّد هذا النوع من مراكز الإقامة داخل حدود ذلك المجال من خلال ما تقدّمه الآثار والنصوص الأدبية من معلومات حول إقامة المسافرين في العصر القديم المتأخّر.



خريطة 1. توزع البندوكيونات والفنادق في المتوسّط الشرقي
(من النصف الثاني من القرن التاسع إلى القرن العاشر)

تفيد كلمة بَنْدوكيون اليونانية بصورة حَرْفية "قبول كلّ الوافدين"، ومثل هذه الإقامات كانت منتشرة على طول الطُرُقات الرئيسية والفرعية في عالم العصر القديم المتأخّر. ولهذه الكلمة جذورٌ قديمة تصل إلى القرن الخامس قبل الميلاد في منطقة أتيكا «*Attica*» واستعملها الكتّاب اليونانيون المتأخّرون للتعبير عن الفَنادق في اليونان وإيطاليا وفي جهات أُخرى. وبصورة تدريجية تضاءل امتدادها الجغرافيّ حتى أصبحت مؤسّسات البَنْدوكيون هذه منحصرة في فلسطين والشام وجنوب منطقة الأناضول. وقد وجدت أساساً في منطقة تحدّها مُدن أنطاكية والرّها وطَرْسُوس وهي المنطقة التي قد تكون رأت نشوء المسيحية وهي ربما المنطقة التي عاش فيها لوقا[1] محرِّر الإنجيل الذي يعرف باسمه.

رُغم أن هذا التجمّع الظاهري قد يكون في جانب منه نتيجة لتشتّت المصادر التي تتحدّث عن هذه الأماكن المُعدّة للإقامة وخاصّة الكتابات المسيحية الأولى، إلّا أنّ هناك غياباً لافتاً للانتباه وهو الحديث عن البَنْدوكيون في أوراق البردى المصرية المعاصرة وهو الشيء نفسه بالنسبة إلى شمال الأناضول والقُسطنطينية أو في المصادر الرومانية الغربية[2].

وبغضّ النظر عن تقلّص امتدادها الجغرافيّ، فإنّ عبارة بَنْدوكيون قد انبثّت في العديد من اللُغات الأُخرى خلال القرن الأوّل الميلادي. فقد أعاد لوقا حكاية السامريّ الصالح باللُّغة اليونانية ربما لأنها اللُّغة التي كان يكتب بها بسهولة بوصفه شامياً يحذق هذه اللُّغة. فحتى ولو كُتبت هذه الحكاية في الأصل باللُّغة

(1) Joseph A. Fitzmyer, *The Gospel According to Luke* (Garden City, NJ: Doubleday & Co., 1981) I, 45-46.

قد أورد النحوي فرينيكوس أرابيوس [Phrynichus Arabius] الذي كان يكتب في منطقة بيتينيا [Bithynia] في النصف الثاني من القرن الثاني لفظة بَندوكيون ضمن ما جمعه من الكلمات الأتيكية القديمة [Attic words] التي كانت مُسْتَعملة في عصره. *The New Phrynichus, Being a Revised Text of the Ecloga of the Grammarian Phrynichus*, ed. W. Gunion Rutherford [London: Macmillan, 1981] 362).

(2) كذلك غياب كلمة قبطية ذات اتصال، فالبَنْدوكيون لم يكن مندمجاً ضمن شبكة المحطّات التي توجد على المسالك الرومانية. والعبارة لا توجد في قائمة مصطلحات المحطّات الرومانية التي أوردها R. Chevalier's *Les Voies romaines* (Paris: Picard, 1997) 281-282.

الآرامية لاستعمل الراوي كلمة قريبة من الكلمات المتداولة. هناك عبارات شبيهة في اللغات الساميّة المحلية المعاصرة - العبريّة والآراميّة والسّريانيّة - وهو أمر يؤكّد شيوع مثل هذه الفَنادق التي كانت مُسْتَعملة من قِبل جميع المسافرين من مختلف الديانات ومن جميع مناحي الحياة وهي توفّر لهم ما يقدرون عليه من سكن وطعام. من الواضح أن هذه العبارة لم يعمَّم نقلُها إلى اللُّغة اللاتينية لأنّ هذه اللُّغة تضمُّ كلمات مشابهة لذا ظلّ انتشارها منحصراً في المجال اللُّغوي اليوناني في شرق المتوسّط. وحتى القدّيس جيروم «St. Jérôme» (مات سنة 420 ميلادية) والذي كان يعيش في الشرق اليوناني ويتكلّم اللُّغة اليونانية قد اختار، عبارة لاتينية غير مُسْتَعملة (ستابولوم[3] عند ترجمته قصة السامريّ الصالح). وربما كان لانتشار لفظة بَنْدوكيون وما شابهها من الكلمات الساميّة في الشام البيزنطي وفي فلسطين في القرن السابع، دور أساسيّ في انتقال الكلمة وما تعبّر عنه إلى إطار إسلاميّ في عبارة فُنْدُق العربية.

إنّ انتشار مثل هذه الفَنادق في بلاد الشام الرومانية مؤكّد من خلال الشَّبَه القويّ مع ما تصوّره النصوصُ اليهودية والنصوص المسيحية المبكّرة.

هناك قصّة غير مختلفة عن قصة السامريّ الصالح، وهي قصة مسافر مريض يبحث عن مأوى، [14] ظهرت في المِشْنا اليهودية (التي وقع تجميعها حوالى سنة 200 ميلادية من مواد سابقة) وفي الروايتين الفلسطينية والبابلية للتلمود (وقع

(3) يشترك الستابُلوم [*Stabulum*] في الإيحاءات التافهة التي توجد في البَنْدوكيون الذي كان يُنظر إليه على أنه ماخور. فترد مثلاً حكاية ضمن سِيَر الآباء أن بَغِيّاً كانت تمارس مهنتها في ستابلوم (*Patrologia Latina*, ed. J.P. Migne, LXXIII, col. 654-656). وقد استعمل جيروم [Jérôme] ألفاظاً أخرى للتعبير عن مثل هذه المؤسّسات المُعدّة للإقامة، فذكر أن الحاجّة باولا [Paula] قد أقامت بمأوى للمرضى ببيت لحم رافضة عرض الوالي بإيوائها في بيته، واستعمل كذلك لفظة زينودوكيون [*xenodocheion*] عديد المرّات، انظر Denys Gorce, *Les voyages, l'hospitalité et le port des lettres dans le monde chrétien des IVe et Ve siècles* (Paris: Edition Auguste Picard, 1925) 137, 140-141; Enrico Coturri, «Strade e ostelli per mercanti nell'Italia mediovale», *Mercanti e consumi organizzazione e qualificazione del commercio in Italia del XII al XX seclo (I° Convegno Nationale di Storia del Commercio in Italia)* (Bologna: Instituto Formazione Operatori Aziendali, 1986) 276.

إتمامه خلال القرنين الخامس والسادس).[4] وتروي المِشْنا قصة رجل من مجموعة من المسافرين اللاويين أصابه مرض في الطريق، فحملوه إلى فُنْدُق [بُنْداق وهي عبارة قريبة من بَنْدوكيون]. ولمّا عادوا إلى هناك سألوا صاحبة الفُنْدُق [بندقيت] "أين هو رفيقنا؟" فأجابت "لقد تُوفّي ودفنته". فسمحوا لأرملته بالزواج من جديد. فقال (الحكيم) إلى الربّي عَقِيبة (Aqība) (توفّي سنة 132 ميلادية) "ألا يجب لزوجة كاهن أن تكون [مُعتَبَرةً محلّ ثقة] كصاحبة فُنْدُق؟" فأجابه "فقط عندما يمكن اعتبار صاحبة فُنْدُق محلّ ثقة"! [لأنه في هذه الحالة] أحضرت إليهم صاحبة الفُنْدُق عصاه وحقيبته وسِفْر الشريعة الذي كان معه[5].

وكما هو الشأن في رواية لوقا فإنّ مسافراً مريضاً تمّ نقله إلى فُنْدُق على حافة الطريق وتُرك في رعاية صاحب الفُنْدُق. ففي كلتا القصّتين تبدو صفة الثقة التي يتحلّى بها صاحب الفُنْدُق بالغة الأهمّية مادام يؤتمن لا على العناية بالمريض فقط، بل يؤتمن كذلك على الأموال والممتلكات والقيام، إن لزم الأمر، بالدفن والإشراف عليه.

يُفضي تعليق الربّي حول هذه الفقرة بصورة خاصّة إلى أمرين: أوّلاً يمكن التساؤل عن هذه المؤسّسة هل كانت بين يدي يهودي أم غير يهودي؟ وثانياً التساؤل عن مدى الثقة بامرأة تُشرف على فُنْدُق والنقاش حول سيرتها وهل كانت آنذاك امرأة عاهرة (صفتها بندقيت يقابل في الكثير من الأحيان "زونا" في اللُّغة العبريّة)[6].

فالموضوع الأوّل هو موضوع متواتر في التفاسير اليهودية والآداب الفقهية بالاعتماد على فقرات من النصوص الدينية حيث تكون صورةُ البُنْداق كمكان

---

(4) حول تاريخ هذه النصوص انظر النقاش الذي دار حولها في H.L. Strack and Günter Stemberger, *Intoduction to the Talmud and Midrash* (Minneapolis: Fortress Press, 1992) 133-139, 171, 192-194.

(5) *The Mishnah*, Yebamoth 16.7; trans. Herbert Danby (Oxford: Oxford University Press, 1933) 245.

(6) لقد وصفت الترجمة الآراميّة ليوشع 2، 1، راحاب وهي بَغِيّ [*zonah*] في أريحا بأنها بندقيت [*pundaqit*]، انظر كذلك Daniel Sperber, *The City in Roman Palestine* (New York: Oxford University Press, 1998) 17.

لالتقاء أو اختلاط الديانات بصورة معمّقة أو بصورة سطحية. فاليهود مثلاً يجب ألّا يضعوا رِحالهم في بُنْداق يمتلكه سامريّ أو أحد من غير اليهود خوفاً من حدوث أضرار للدوابّ (خاصّة الضرر الجنسي) وكذلك الناس يجب أن يحذروا السكن في مثل هذه المؤسّسات[7]. وكذلك يُطرح السؤال حول إجازة البقاء في فُنْدُق في يوم السبت إذا كان صاحبه غير اليهودي مقيماً فيه[8]. قد تكون الاهتمامات نفسها مضمّنة لقصّة السامريّ الصالح التي رُوِيت مباشرة بعد قصّةٍ كيف أن يسوع وأتباعه لم يُمنَحوا الإقامة في قرية أهلُها من السامرة (لوقا 9: 52-53).

لا ندري إذا ما كان صاحب الفُنْدُق الذي وفّر الإقامة والعناية للمسافر اليهودي كما هو وارد في القصّة قد قُصد أن يكون سامريّاً أم لا وهو أمر كان موضع نقاش فيما بعد[9].

قد يكون ذلك ممكناً حسب الإطار الذي تمّ فيه النقاش مع الربّي حول البُنْداق غير اليهودي، مثلما كان حول معنى الكلمة الأصلي الجامع في اللُّغة اليونانية.

كانت الفَنادق بحكم طبيعتها نقاط التقاء وتبادل بين الناس سواء كانوا من الديانة نفسها أم لا . فكثيراً ما كانت هذه الفضاءات المنتصبة على طول الطُّرُقات توفّر مادة خيالية لروايات عن لقاءات غير مألوفة وتفاعلات ومبادلات بين الناس قد تكون في بعض مستوياتها شبيهةً بما يحدث حقيقةً في عالم الفَنادق. وقد تكون أماكنَ خارجةً عن القانون يعيش فيها المتمرّدون والمجرمون وتُمارَس فيها الرذيلة، وقد تكون أماكنَ أُخرى بعيدةً عن القانون كأماكن للشواهد الأخلاقية أو

(7) ترد تحذيرات عديدة حول وضع الحيوانات في الإصطبلات في العديد من النصوص بما في ذلك تلمود القدس (Abodah Zarah, 2: I) and the Tosefta (comp.*c.400*) Abodah Zarah 3:I-2, trans. Jacob Neusner (New York: Ktav Publishing House, 1981) 318.

(8) Babylonian Talmud, 'Erubin, 65b-66a.

(9) J. Duncan M. Derrett, "Law in the new Testament: Fresh Light on the Parable of the Good Samaritan," *New Testament Studies II* (1964-1965) 23. On relations between Jews and Samaritans, see John R. Donahue, "Who is my Enemy? The Parable of the Good Samaritan and the Love of Enemies," in *The Love of Enemy and Nonretaliation in the New Testament*, ed. W.M. Swartley (Louisville, KY: Westminster/ John Knox Press, 1992) 137-156.

الدينية. ومن هذا المنظور تفرض كلّ المقارنات نفسها من خلال الأدب اليهودي انطلاقاً من البُنْداق الآراميّ إلى البَنْدوكيون الذي ورد في إنجيل لوقا. تروي قصّة من المِدْراش حكاية تاجرين يحتقر أحدهما الآخر إلى أن تعرّض أحدهما إلى بعض المصاعب من جراء دابّته المحمّلة في يوم من أيام رحلة تجارية فلقي كلّ ما يحتاج إليه من مساعدة من التاجر الآخر. عند ذلك ذهب الرجلان إلى بُنْداق وتناولا معاً طعاماً لذيذاً وتصالحا من خلال تذكّرهما لحسن الفعل الذي قدّمه الواحد للآخر[10].

وهو فعلاً مثلما فعل السامريّ الصالح كجار حقيقي بمساعدته لتاجر منكوب ونقله إلى فُنْدُق، أصبح هذان التاجران في محبة أخوية بسبب حادث وقع في الطريق وانتهى بمصالحة في الفُنْدُق. وتروي قصّة وردت في التلمود البابلي فرصة أخرى للقاء مسافرَيْن مختلفَي الأصول والطّباع في أحد الفَنادق. ولم يكن ذلك بسبب قدوم أحدهما من الشمال والآخر من الجنوب وإنما لأنهما رغبا في الجلوس إلى المائدة نفسها في ذلك الفُنْدُق في حين تناول أحدهما لحماً والآخر جبناً. فأصبح المحرّم حلالاً في مثل ذلك الظرف ما دام الطعام جاء من وعاءين مختلفين[11]. يشير كذلك ديو كريزستوم (Dio Chrysostom) وهو كاتب وثنيّ من أواخر القرن الأوّل إلى أنه يحدث أن يلتقي التجار في أحد الفَنادق مصادفةً فيؤدّي ذلك إلى نشوء علاقات صداقة بينهم[12]. تبدو هذه النظرة إلى الفُنْدُق على

---

(10) *Midrash Tanhuma- Yelammedenu*, trans. Samuel A. Berman (Hoboken, NJ: Ktav Publishing House, 1996) 474-475. (تعليقاً على سِفر commentary on Exodus 21:1) الخروج 1 : 21 "Now these are the judgements"). ربما يعود هذا النصّ إلى القرن التاسع ولكن جوهره يشير إلى أنه قد يعود إلى ما قبل ذلك بكثير (Strack and Stemberger, *Intoduction to the Talmud and Midrash*, 305). توجد قصة شبيهة جداً تستعمل لفظة بُنْداق في المِدْراش على المزامير، تعليقاً على المزمور 99، trans. ترجمة William G. Braude (New Haven: Yale University Press, 1959) 144-145. هناك اختلاف حول تاريخ هذا النص، فقد يعود إلى القرن التاسع رغم أن أغلب مادته تعود إلى عصر التلمود.

(11) Babylonian Talmud, Ḥullin, 107b.

(12) Dio Chrysostom, *Discourses*, v, trans. H. Lamar Crosby (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1951) 234-235.

أنها فرصة للقاءات غالباً ما تؤدّي إلى اعتناق الدين والإصلاح وستنعكس هذه النظرة في الكتابات المسيحية المبكّرة مثلما سيُناقش ذلك لاحقاً.

أمّا النتيجة الثانية للحوار الذي ورد في المِشْنا حول العلاقة بين الفُنْدُق والماخور ستكون محوراً قاراً في الآداب الوثنية واليهودية والمسيحية وحتى الإسلامية. فالبَنْدوكيون وما شابهه من مراكز إقامة الأجانب (وخاصّة الستابولوم اللاتينيّ) سيكون في أغلب الأحيان مرتبطاً بالدعارة وغيرها من السلوكيات المشينة مثل السرقة والعربدة وربما القتل أيضاً. يضيف المؤرّخ اليهودي يوسيفوس (Josephus) الذي كتب باللُّغة اليونانية في القرن الأوّل الميلادي المُشْرِفات على البَنْدوكيون إلى قائمة النساء التي أوردها سفرُ اللاويين «*Leviticus*» 7:21 واللواتي لا يمكن للكهنة الزواج بهنّ (إلى جانب بائعات الهوى والإماء وأسرى الحرب والبائعين المتجوّلين)[13]. ومع أن هناك فَنادق لها سُمعة طيّبة إلّا أننا قد لا نستغرب استعمال لوقا لعبارة كَتَليما «*Katalyma*» وليس بَنْدوكيون للحديث عن أغلب فَنادق بيت لحم (7:2) التي لا تعرف شُغُوراً. يبدو أنّ الفُنْدُق في بيت لحم هو مؤسّسة محترمة ومكان يليق أن يقصده الرجل مع زوجته الحامل[14].

أما المسألة الثالثة التي وردت في حكاية السامريّ الصالح وفي قصّة المِشْنا هي العلاقة بين الفُنْدُق والمرض والموت. يمكن أن يمرض المسافرون في الطريق ويتطلّب ذلك نقلهم إلى فُنْدُق بجانب الطريق عندما لا يقدرون على مواصلة الرّحلة. يموت بعضهم في الفُنْدُق مثلما حدث للمسافر اللاوي، والفُنْدُق له سُمعة سيّئة في الواقع والمجاز. كتب أرتيميدوروس في القرن الثاني كتابه حول تفسير

---

(13) Josephus Flavius, *Jewish Antiquities*, ed. and trans. H. St. J. Thackeray (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1928; repr. 1998) III, 276-451.

(14) انظر مناقشة مصطلح كَتَليما [*katalyma*] أسفله. فقد استعمل لوقا اللفظة نفسها أيضاً للتعبير عن المنزل الذي تناول فيه المسيح وحواريُّوه العشاء الأخير (لوقا 22: 11) انظر Fitzmyer, *The Gospel According to Luke*, I, 408. اختار جيروم لفظة ديفرسوريوم اللاتينية [*diversorium*] للحديث عن الفَنادق في بيت لحم. وللتوسّع في هذا الموضوع انظر Elmer A. McNamara, «Because there was no room for them in the Inn,» *The Ecclesiastical Review* 105 (1941) 433-443.

الأحلام أنه إذا حلم الإنسان بصاحب الفُنْدُق فإن ذلك علامة على الموت أو المرض. فهو كالموت يقبل جميع الناس. ولكنّ بالنسبة إلى بقية الناس فهو رمز للفجائع والمخاوف والتنقّل والسفر. والسبب في ذلك واضح. فما هو المطلوب هنا لتفسير شيء واضح؟ الفُنْدُق (بَندوكيون) له معنى سيِّد الفُنْدُق نفسه[15]. تعتبر هذه المؤسّسات أيضاً مجالاً لانتشار الأمراض وقد يتعرَّض المسافرون إلى الإصابة بالمرض في هذه الفَنادق كما يمكن أن يتعافوا فيها. وعلى هذه الصورة تذكر فقرة من الإنجيل تعود إلى القرن الثاني أن يسوع قد شفى مجذوماً قيل إنه أُصيب بالمرض «على إثر إقامته في فُنْدُق وتناوله الطعام مع جماعة من المجذومين»[16].

لقد كانت هذه المؤسّسات "أماكن لتحقيق الربح" لذلك تفتح هذه المنشآت أبوابها لكلّ من له القُدرة على دفع مقابل السكن والطعام. وقد عبرت عن ذلك بوضوح قصّة السامريّ الصالح، كما أنه توجد حكاية أُخرى وردت في المِدْراش تروي قصّة تاجرين، أحدهما مستقيم خلوق والثاني سيّئ الأخلاق، نزلا في بُنْداق لتناول وجبة طعام. هناك طعام متنوّع، ولكن الرجلين اختلفا في ما يطلبانه من الطعام لأنهما لم يتّفقا حول ما إذا كانت الوجبة محدّدة السعر أو حسب الطلب. فاعتقدا أنه يمكن للواحد أن يدفع ثمن ما يطلبه، فطلب صاحب الأخلاق الحميدة صحفة بسيطة من العدس والخبز وبذلك دفع ثمناً زهيداً، في حين أكل الثاني (مفترضاً أن السعر محدَّد) طعاماً وفيراً، ثم تخاصم مع صاحب الفُنْدُق حول الثمن المطلوب على أنه زيادة مجحفة[17].

تحدث المؤرّخ بوليبيوس (Polybius) (كتب حوالى 129 قبل الميلاد) عن أسعار الطعام وأسعار الكِراء في إيطاليا التي كانت على ما يبدو موحّدة حتى إن المسافر "مَن كان ينزل بأحد الفَنادق لم يكن يساوم في كلفة الإقامة وكلفة الطعام وإنما يسأل عما يجب دفعه بالنسبة إلى الفرد الواحد في اليوم. ويمكن لصاحب

(15) Artemidorus Daldianus, *Artemidori Daldiani Onirocriticon libri V*, ed. Roger A. Pack (Leipzig: Teubner, 1963) III.57, 229; trans. Robert White as *On the Interpretation of Dreams* (Torrance, CA: Original Books, 1990) 176.

(16) Harold I. Bell, *The New Gospel Fragments* (London: British Museum, 1955) 12,30.

(17) Midrash on Psalms (Book I, Psalm 4) 78-79.

الفُنْدُق كقاعدة يتعامل بها أن يستضيف أناساً ويوفّر لهم ما فيه الكفاية ممّا يطلبون لقاء نصف المقابل اليومي»[18].

تناقضت أجورُ البَنْدوكيون وتنوُّعُ الزبائن فيه مع الطبيعة الخَيْريّة والتقييديّة التي وُجدت في بعض الفَنادق كما يبرز ذلك من خلال بيوت الغرباء «*Xenodocheion*» في المسيحية المبكّرة والتي لم تكن تخدم مجموعة دينية خاصّة فقط وإنما توفّر الطعام والإقامة مجّاناً احتساباً لوجه الله. تبرز هذه البيوت في القرن الخامس بصورة خاصّة من خلال رواية سريانيّة لقرارات مجمع نيقيا كفُنْدُق داخل المجال الحضري معدّ لاستقبال الحَجيج والمرضى والفُقراء[19]. وقد كانت هذه البيوت في تلك الفترة مرتبطة بالأديرة أو ذات علاقة مع الكنائس وكثير منها بُني بأمر من الأباطرة أو بعض الأثرياء الباحثين عن فعل الخير. قد أثّر الفرق بين هذين الشكلين من السكن، البَنْدوكيون وبيوت الغرباء في تطوّرهما مع المجموعات المسيحية الأولى وسيؤثّر ذلك في عبورهما للحدود الدينية بين الوثنية واليهودية والمسيحية والإسلام.

إيواء المسافرين النُّمطيّين والمسيحيين الأوائل

لقد كان البَنْدوكيون واحداً من جُمْلة من المساكن المهيّأة لاستقبال المسافرين في الفترة القديمة الكلاسيكية والمتأخّرة سواء في المُدُن والقُرى أو على جوانب الطُّرُقات في المناطق الريفية[20]. فحتى في الفترات المتقدّمة جداً

(18) Polybius, *The Histories*, ed. and trans. W. R. Paton (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1922) 276-277 (II.15.4-6).

حول كلفة الإقامة في الفَنادق الرومانية انظر Ludwig Friedländer, *Darstellungen aus der Sittengeschichte Roms in der Zeit von Augustus bis zum Ausgang der Antonine* (Leipzig: S. Hirzel, 1919-1921) I, 347-351; trans. Leonard A. Magnus as *Roman Life and Manners under the Early Empire* (New York: Arno Press, 1979) I, 290-293.

(19) *Sacrorum conciliorum nova et amplissima collectio*, ed. Giovan Domenico Mansi (Florence: Expensis Antonii Zatta Veneti, 1759-1798) II, 976, canon 70.

(20) W. A. McDonald, "Villa or Pandokeion?" in *Studies Presented to David Moore Robinson*, ed. George E. Mylonas (St. Louis: Washington University Press, 1951) 366; W. C. Firebaugh, *The Inns of Greece and Rome* (Chicago: Pascal Covici, 1927) 53,55.

كان بعض هذه المؤسّسات بارزة ومعروفة. فعندما يذكر ديموستينز (Demosthenes) (384-322 ق.م.) بَنْدوكيوناً قبالة معبد التوأمين في فيرا «Pherae» (حيث أجبر فيليب المقدونيّ السكّان المحليين على أن يؤدّوا له يمين الولاء قبل الهجوم على أثينا) يضيف "إن كلّ من زار مدينة فيرا (Pherae) فهو سيعرف ذلك المكان"[21]. ويذكر نقش أثينيّ مؤرَّخ سنة 358 قبل الميلاد وجود بَنْدوكيون بين الأبنية المخصّصة لأبولون «Apollon» والتي، مثلها مثل بَنْدوكيون فيرا، قد تكون قريبة من المعبد[22]. لا شكّ أنّ المُدُن الكبيرة قد احتوت على فَنادق يمكن للمسافرين أن يختاروا ما يناسبهم منها في حين تَقِلّ هذه المؤسّسات في مُدُن أخرى. يذكر أيشين «Aeschines» وهو غريم ومعاصر لديموستينز أنه عندما كان هذا الأخير مسافراً مع مجموعة من السُّفراء لم يرغب أحد في تناول الطعام معه "ولا الإقامة معه في الفُنْدُق نفسه طوال الرّحلة"[23].

يذكر العديد من الكُتّاب اليونانيين أولى البَنْدوكيونات في إيطاليا وربما استعملوا هذه العبارة للتعبير عن الفَنادق التي كانت لها أسماء محلية.

يشير سترابو (Starbo) (حوالى سنة 18 ميلادية) إلى ازدهار هذه الفَنادق في إيطاليا مثل فَنادق بيكتات «Pictate» قريباً من مدينة ألجيديوم «Algidium» الصغيرة[24]. يورد أبيان (Appian) (كتب في القرن الثاني الميلادي وهو يصف الحرب الأهلية في روما سنة 89 قبل الميلاد) خبر اغتيال القائد أساليو (Asellio) في بَنْدوكيون "في وسط الساحة العامّة" في روما قريباً من باب معبد فِسْتا

(21) Demosthenes, *De Falsa Legatione*, ed. and trans. C.A. Vince and J. A. Vince (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1953) 347 (section 158).

(22) Ulrich Koehler, *Inscriptiones Atticae aetatis quae est inter Euclidis annum et Augusti tempora*, Inscriptiones Graecae (Berlin: G. Reimcrum, 1877-1895) II. 2, 284-285, no. 817A, line 30. See also L. Soverini, «Il 'Commercio nel tempio': Osservazioni sul regolamento dei χα'πηλοι a Samo (seg. XXVII, 545)," *Opus* 9-10 (1990-1991) 91-92.

(23) Aeschines, «On the Embassy,» in *The Speeches of Aeschines*, ed. and trans. Charles Darwin Adams (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1988) II. 97, 232-233.

(24) *The Geography of Strabo*, ed. and trans. H. L. Jones (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1988) II, 410-411 (5.3.9)

«Vesta». ففي البداية كانت العامّة تظنّ أنه احتمى بالقرب من الكاهنات اللائي يشرفن على معبد فستا ولكنهم لمّا تيقنوا أنه في البَنْدوكيون القريب، هجموا عليه وقتلوه(25). وكما ورد من قَبْل عند ديموستينز يشير أبيان إلى هذه الفَنادق التي كانت موجودة في وسط المُدُن بجوار المعابد والأسواق حيث يمكن للعُبّاد وأصحاب الأعمال الشرب والأكل أو المبيت. وهي أماكن قليلة الرفاهية وما على النزيل إلّا أن يتأقلم مع الضجيج والعربدة وربما كذلك الأذى الجسدي.

إنّ ربط البَنْدوكيون بالحياة السافلة والإجرام ظاهرة عامّة في أدب العصور القديمة المتأخّرة. يصف المؤرخ أخيل تاتيوس (Achilles Tatius) الذي كان يكتب على ما يبدو في بداية القرن الثاني، مسافرين توقّفوا في بَنْدوكيون على طريق سميرن/إزمير ومن خلال تجاذب أطراف الحديث اعترف أحدهم بأنه قتل بنتاً صغيرة (رغم أن عملية القتل حدثت في مكان آخر)(26). وبعد قرن من الزمن تصف أعمال توما الموضوعة التي كُتبت في منطقة الرّها في بداية القرن الثالث، كيف أعاد الحواري توما الحياة إلى امرأة شابة "عاشت في بَنْدوكيون خارج المدينة (أي بائعة هوى) وقتلها عشيقها الذي غضب عندما رفضت أن تعيش معه حياة عفيفة مثلما حضّ على ذلك توما(27). بعد ذلك تضرّع الشاب المضطرب

(25) Appianus of Alexandria, *Bellorum civilium*, ed. Emilio Gabba (Florence: La "Nuova Italia" Editrice, 2nd edn., 1967) 160 (I, para. 237); trans. Horace White, *The Roman History of Appian of Alexandria* (New York: Macmillan, 1899) II, 38.

(26) Achilles Tatius, *Le Roman de Leucippé et Clitophon* (Paris: Les Belles Lettres, 1991) VII.2-5, 188-189.

(27) توجد كلّ من الصيغتين اليونانية والسريانيّة لأعمال توما. فالنص اليوناني (*Acta Philippi et Acta Thomae, ed. M. Bonnet, Acta Apostolorum Apocrypha*, II.2 [Leipzig, 1903; repr. Hildesheim: Georg Olms Verlag, 1990] 167-168) يستعمل كلمة بَنْدوكيون [*pandocheion*] في حين أن النصّ السرياني يستعمل كلمة بوتاقا [*putaqā*] (ed. Wright, *Apocryphal Acts of the Apostles II* [London: Williams & Norgate, 1871] 201). وقد استعملت هنا الترجمة الإنكليزية: W. Schneemelcher (ed.) *New Testament Apocrypha*, trans. R. M. Wilson (Philadelphia: Westminster Press, 1965) 471-472. وقد استُعملت لفظة بَنْدوكيون [*pandocheion*] في بداية النصّ عندما وصل توما وسيده أبّان التاجر إلى ميناء أندرابوليس [Andrapolis] واتخذا لهما مكاناً في البَنْدوكيون (*Acta*,105; English, 444). وعادة ما يُتحدَّث عن أندرابوليس على أنها في الهند ولكن هكسلي [Huxley] يرى أنها مدينة هَترا [Hatra] وهي مدينة تجارية تقع على طريق القوافل بين =

لتوما وذهبا معاً لمعاينة الجُثّة: "فلمّا وصلا إلى البَنْدوكيون وجداها ممدّدة هناك... فطلب توما أن تُنقل إلى وسط البَنْدوكيون. فوضعاها على سرير ونقلاها إلى الخارج وحملاها إلى ساحة الفُنْدُق ثم وضع الحواري يده عليها" وأعادها إلى الحياة، ممّا جعلها وجعل الحاضرين يعترفون بذنوبهم ويتّبعونه. فقد تمّ الجمع هنا بين الدّعارة والقتل في فُنْدُق واحد إلّا أن الساحة المفتوحة للبناية أصبحت فيما بعد مكاناً للتوبة والهداية. فقد لاحظ الباحثون تأثير القصص الهلينستية في أعمال توما حتى إن هاتين القصّتين حول جريمة مدبّرة أُلصقت بالبَنْدوكيون يمكن أن تكونا متعلّقتين بِصِلة غير مباشرة[28].

وبغضّ النظر عن المجازات الأدبية قد تكون هناك بعض الحقيقة وراء سُمعة البَنْدوكيون. تروي نقيشة جنائزية مسيحية كُتبت باللُّغة اليونانية تمّ العثور عليها بشمال الشام قرب مدينة أنطاكية وفاة ابني عمّ "قُتِلا في بُنْدوكيون *Pondocheion* (كذا) تيودوروس «Theodoros» قرب مدينة اللاذقية" سنة 342 ميلادية[29].

وحتى لو لم يكن المسافرون يشعرون بالخوف على حياتهم فإنهم لا يجدون الراحة في جوّ البَنْدوكيون الذي يطغى عليه الضجيج والصخب. يصف فيلوستراتوس (Philostratus) وهو يكتب في القرن الثالث كيف كان مسافرون يجتازون أبواب روما "قد حطّوا رحالهم في بَنْدوكيون ملاصق إلى الباب ثم تناولوا طعام العشاء إذا كان الوقت وقت المساء، عندما جاء شخص ثَمِل... وصار كأنه في حفل عربدة وقصف......"[30]. يقدّم لنا أيليان (Aelian) وهو

= الرُّها ووادي دجلة. (George Huxley, "Geography in the *Acts of Thomas*," *Greek, Roman, and Byzantine Studies* 24 [1983] 72-73). وللاطلاع على المناقشة العامّة لهذا النص، انظر A. F. J. Klijn, *the Acts of Thomas, Supplements to Novum Testamentum*, V (Leiden: E. J. Brill, 1962) and Schneemelcher (ed.), *New Testament Apocrypha*, 425-442.

(28) Klijn, *Acts of Thomas*,19.

(29) George Tchalenko, *Villages antiques de la Syrie du Nord: le massif du Bélus à l'époque romaine* (Paris: P. Geuthner, 1953-1958) III, 31-32.
تهجئة الكلمة ربما كانت تعكس طريقة اللفظ المحلّية.

(30) Philostratus, *The Life of Apollonius of Tyana*, ed. and trans. F. C. Conybeare (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1912) I, 440-441 (IV, 31).

كاتب رومانيّ يكتب باللُّغة اليونانية في بداية القرن الثالث، قصّةً أُخرى تحمل خطاباً شبيهاً وتروي كيف أن موسيقيّاً يدعى ستراتونيكوس (Stratonicus) قَبِلَ الدعوة للإقامة بمنزل خاصّ طوال رحلته ولكنّه أصبح يشعر بقلق متزايد عندما حلّ بالبيت ضيوف آخرون. وعندما تيقَّن "أن البيت مفتوح لمن يريد الإقامة به، قال لغُلامه "يا غُلام، هيا بنا نرحل يبدو أننا وجدنا يمامة عوضاً عن حمامة وبَنْدوكيوناً عوضاً عن منزل"[31]. ومهما يكن من أمر فإن بلوتارك «Plutarch» (توفي سنة 120 ميلادية) ينصح المسافر إذا كان بقية المسافرين جُفاة ومخيفين بأن لا يتحرّج من التحدّث والأكل والمحاورة بحضورهم". فلا ينبغي أن يشعر المرء بالخجل بحضور "التجار والحمّالين وأصحاب الفَنادق" و"لا ينبغي للسفر والنزول في بَنْدوكيون أن يكون عُذراً للصّمت، حتى ولو سَخِرَ منه الجميع"[32].

يمكن أن يكون صاحب الفُنْدُق رجلاً أو امرأة ويصنّفهما بطليموس (161 ميلادي) ضمن العاملين في قطاع الحِرَف (بما في ذلك الخدم وبائعو المشروبات والعاملون في معابر الأنهار والمشرفون على القرابين)[33]. وكما سبق ذكره فإن النساء اللواتي يعملن في البَنْدوكيون كنّ معروفات بالقوادة والتوسّط في الملذّات الجنسية. انطلاقاً من هذه السُّمعة فلا غرابة أن تكون سيدة الفُنْدُق مشكوكاً في نزاهتها في "المِشْنا"، خاصّة بالنظر إلى زواج امرأة الفقيد مرة ثانية. يعود هذا الموضوع إلى بدايات نشأة الفَنادق، فحتى البطل هرقل أصيب بالحزن حسب رواية بلايفاتوس (Palaephatus) (القرن الرابع قبل الميلاد) بعد أن تسببت مداعبته الطويلة لسيدة جميلة كانت تشرف على فُنْدُق في نفور رفيقه المسافر[34].

---

(31) Aelian, *Historical Miscellany*, ed. and trans. N. G. Wilson (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1997) 462-463 (14.14).

قد يعود الخلط الذي وقع فيه ستراتونيكوس [Stratonicus] إلى أنه لم تكن هناك فوارق كبيرة بين بُنيَتَي المنازل الخاصّة والفَنادق وهي نقطة ستتمّ مناقشتها لاحقاً.

(32) Plutarch, *Moralia*, ed. and trans. Frank Cole Babbit (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1956) II, 258-259 ("Advice about keeping well" 130).

(33) Ptolemy, *Tetrabiblos*, ed. and trans. F. E. Robbins (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1980) 385-387 (IV, 4).

(34) Palaephatus, *Peri Apiston*, in *Mythographi Graeci*, ed. N. Festa, III.2 (Leipzig: Teubner, 1912) XLV (XLVI) 67.

ويروي بوليانوس (Polyaenus) (كتب في القرن الثاني الميلادي واصفاً فترة سابقة) أنه عندما كان فيليب المقدونيّ يهاجم طيبة، "أحضر قائدان من قواد جنده قَيْنة من بَنْدوكيون إلى المعسكر. فلم يخفَ الأمر على فيليب، وبعلمه به، أبعد الرجلين خارج حدود مملكته"[35]. كما يروي سترابو أن "قوّاداً كان يقيم مع مجموعة من النساء في بَنْدوكيون في قرية من قُرى مقاطعة فريجيا، فدمّر زلزال المكان ليلاً... فقضى الرجل ومن معه من النساء"[36]. لا ندري هل رأى سترابو في ذلك نتيجة أخلاقية أم مجرّد رواية لحدث بارز. في فترة لاحقة، تعكس وصايا الآباء الاثني عشر (وهو نصّ يهودي - مسيحي كُتب سنة 200 ميلادية) صورة معهودة في نصوص المِشْنا المعاصرة وأعمال توما في وصفها كيف تزيّنت الأرملة تمار (Tamar) في زيّ عروس وجلست في مدينة أنايم «Enaim» على باب بَنْدوكيون. لأن قانون العمّوريين يفرض على المرأة التي تتزوج أن تقضي أسبوعاً في أحد الأبواب كبائعة هوى"[37].

كلّ المظاهر المادّيّة للبَنْدوكيون لها دلالة مجازية في النصوص الفلسفية اليونانية واليهودية، وخاصّة في كتابات فيلو (Philo) (15 ق.م.-50م) وإيبكتاتوس «Epictetus» (50-130م) اللذين تؤدّي تأويلاتهما إلى تصوّرات قديمة توجد في التلمود وغيره، وهي عبارة عن مقارنة الحياة الدُّنيا بفُنْدُق بما أن الدار الحقيقية هي دار الآخرة[38]. وسيتبنّى الكُتّاب المسيحيون لاحقاً هذه الصورة مثل يوحنا كريزوستوم (John Chrysostom) وكليمنت الإسكندري (Clement of Alexandria).

= بقيت هذه المقتطفات في جزء قد يكون نُسِخ في العهد البيزنطي. أشكر إيميلي ماكّيل [Emily MacKil] على الترجمة.

(35) Polyaenus, *Srategematon, Libri VIII*, ed. Edward Woelffin (Stuttgart: B. G. Teubner, 1970) 159 (IV.2.3).

(36) Strabo, *Geography*, 12.8.17, V, 512-513.

(37) *Testaments of the Twelve Patriarchs*, trans. R. H. Charles (London: Adam & Charles Black, 1908) 81 (Judah, XII.I-2).

قد وقع تغيير طفيف في الترجمة. فهذا إما هو عمل مسيحي وإما كتابة مسيحية منقّحة لنصّ يهودي. أمّا الصيغة التي تتحدّث عن البَنْدوكيون فهي بخطّ كاتب من القرن الرابع عشر (Bodleian MS Barrocio 133)، ولكن يبدو أنها نَسْخٌ لنصّ قديم.

(38) فمثلاً في التلمود البابلي «هذا العالم فُنْدُق والعالم الآخر هو بيتنا الدائم» (Mo'ed Kaṭan, 9b).

ويقارن كلّ من فيلو وإبكتاتوس البَنْدوكيون بوجود الإنسان الضعيف، الدنيوي، الخطّاء الذي يختلف عن الكيان العُلوي الدائم وهو العقل. وانطلاقاً من سُمعة البَنْدوكيون، المعاصرة له (أي لفيلو) يشبّه فيلو عقل الأحمق بالفُنْدُق ملاحظاً "أنه مثل الأعمى الذي لا يملك بيتاً خاصّاً ولا يتمتّع بعقل فيُعامَل باحتقار مَثَلُه مَثَلُ الذي يدخل بَنْدوكيوناً من أجل ملء بطنه والتقيّؤ في شهواته"[39]. وبرباطة جأش يستعمل إبكتاتوس صورة الفُنْدُق هذه للتعبير عن الحياة الدُّنيا مقارناً هذه المُتَع القصيرة التي يحصل عليها الإنسان مؤقّتاً بما يوفّره البَنْدوكيون للمسافرين لاستعماله دون امتلاكه[40]. ويستعمل الصورة نفسها في عمل آخر وهو الخطابات التي يحضّ بها قراءه على المحافظة على أبصارهم وبصائرهم إلى ما بعد هذه الحياة والسعي إلى الأخلاق الحميدة والفضيلة.

"فالإنسان يتصرّف مثل المسافر في الطريق إلى بلاده، فهو يتوقّف في بَنْدوكيون حسن، وإذا ما أعجبه مَكَث به.

يا أيها الإنسان هل نسيت مآلك فأنت لا تسافر إلى البَنْدوكيون وإنما عبره. و"لكن هذا البَنْدوكيون حسن". وكم من فَنادق حسنة وكم من مُرُوج ـ ولكنّها مجرّد ممرّ للعبور[41].

المواد الأثرية والنقائش (القرن الرابع)

وعلى عكس ما تقدّمه هذه النصوص من وصف تُستوحى منه وظيفةُ البَنْدوكيون والمواقف منه، تُعطي النقائش التي عُثر عليها وآثار المباني فكرة

---

(39) Philo, *Supplement I: Questions and Answers on Genesis*, ed. and trans. Ralph Marcus (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1953) 308; James R. Royse, "A Philonic Use of *pandocheion* (Luke x 34)," *Novum Testamentum* 23 (1981) 193.

(40) Epictetus, *The Enchiridion*, ed. Henricus Schenkel (Leipzig: B. G Teubner, 1916) XI,II; trans. Thomas W. Higginson (New York: Bobbs-Merrill, 1955) 21.

(41) Epictetus, *The Discourses as reported by Arrian*, ed. and trans. W. A. Oldfather (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1959-1961) 416-417. (II, xxiii.36-38). يفرّق إبكتاتوس [Epictatus] في مكان آخر في هذا العمل بين الأشياء الزمنية التي يمنحها الرب للإنسان مؤقّتاً (مثل الأرض والثروة والضياع والمنازل والبَنْدوكيونات أو العبيد) وتلك التي هي حقيقة ملك للإنسان "وهي الصفات التي تجعل منه إنساناً وهي البصمات التي جلبها معه في عقله (*ibid*, 336-337 (IV.15).

أوضح عن تأسيس وتاريخ الفَنادق التي كانت موجودة في العصر القديم المتأخّر. فَمِن غير نقيشة تسمح بتحديد هويّة بناية معيّنة يبدو تمييز الفَنادق عن غيرها من المباني العُمومية والخاصّة مستحيلاً ـ وهو ما سبَّب ارتباكاً ظاهراً لدى مسافري العصور القديمة المتأخّرة مثل ستراتونيكوس «Stratonicus» كما سبَّبه للباحثين المعاصرين. لقد تمّت محاولة تقديم هيكل مبنى وُجد بأولنتوس (Olynthus) (وهو موقع دمّره فيليب المقدونيّ سنة 348ق.م.) على أنه بَنْدوكيون لأن المبنى يبدو متسعاً وأكثر تعقيداً من منزل خاصّ. فهو يحتوي على مطبخ شاسع وغُرَف عامّة ومخازن للسلع في الطابق الأسفل ويحتوي في الطابق العُلوي على عشر غُرَف نوم على الأقل[42].

هناك نماذج متأخّرة أُخرى أقلّ إشكالاً مثلما هو الشأن بالنسبة إلى بَنْدوكيون شُيِّد في مُجَمَّع من ثلاثة دهاليز في شمال بلاد الشام في مقاطعة أسروان «Osrhoene» على الطريق الرابطة بين بتنا «Batnae» والرُّها من طرف أوريليوس داسيوس «Aurelius Dasius»، القائد والوالي الرومانيّ في المنطقة حوالى سنة 260م. وحسب النقيشة اليونانية التي وُجدت على باب الفُنْدُق "في هذا المكان بُني بَنْدوكيون فيه بئر ودهاليز حتى ينعم المسافرون بالراحة والأكل والشرب"[43]. نُحتت نقيشتان أُخريان إلى جانب النصّ اليوناني، واحدة باللُّغة اللاتينية (وهي ترجمة حَرْفيّة للنصّ اليوناني) وأُخرى متأخّرة في الزمن قد نُقشت باللُّغة العربية. ويبدو أنّ الدهاليز قد استُعملت مخازنَ للبضائع وإسطبلاً للحيوانات بما أن أحدها يحتوي على صَفّ من المعالف (المَزاوِد)، بينما وجب للبَنْدوكيون الأصلي أن يكون بناءً مستقلّاً قائماً بمفرده ولكن لم تبقَ منه أية آثار. هناك نقائش من القرن الرابع تؤرّخ لتأسيس بَنْدوكيونات أُخرى في بلاد الشام. فيوصف اثنان

---

(42) MacDonald, «Villa or Pandokeion?» 367-372.
يستعمل ماكدونالد المصطلح العامّ بَنْدوكيون فقط ليميِّز بين الفُنْدُق (النُّزُل) والبيت (المنزل).

(43) Cyril Mango, "A Late Roman Inn in Eastern Turkey," *Oxford Journal of Archaeology* (1986) 227-229; see also Jacques Jarry, "Inscriptions syriaques et arabes inédites du Tur'Abdin," *Annales Islamologiques* 10 (1972) 246-247; Hans Petersen, "A Roman Prefect in Osrhoene," *Transactions of the American Philological Association* 107 (1977) 265-282.

منها على أنهما عموميّان أنشأتهما مؤسّسات خَيْرية لتوفير السكن للمسافرين والغرباء وعلى أمل الحصول على الشكر والذِّكْر الحَسَن من قبل المُستَضافين. والبعض الآخر قد أنشأه وُلاة أو ممثّلون عن الدولة ربما لمصلحة موظّفيها أو لمصلحة أعوان البريد. وهناك نقيشة مؤرّخة في سنة 397م تذكر أنه "من أجل فعل الخير والذِّكْر الحَسَن وبمشيئة مكسيموس أوغيزوس «Maximus Ogezus» ومليكاتوس «Malichatos» وأميروس «Ameros» وبريسكوس «Priscus» نُوّاب الإمبراطور تمّ إنجاز بَنْدوكيون عُمومي"[44]. كما تمّ كذلك بناء العديد من البَنْدوكيونات الأُخرى كمؤسّسات خَيْرية خاصّة سنة 397 منها بَنْدوكيون بِحَرّان جنوب-شرق مدينة الرُّها. وتحتوي هذه البناية على نقيشة بلغة يونانية هزيلة جداً وهي تعبّر "عن الشكر والامتنان بفضل غورف «Gurf» أو غورب «Gurp» [ابن] عَوْم «'Aum» وعُذَران «'Udharān» [بن] باسوس «Bassus» [أو بَسْع «Bas'»] وعامر «'Amir» [بن] وهبإيل «Wahb'ēl» وأَنْعَم «An'am» [بن] ماركيانوس «Marcianus» تمّ إنهاء إنجاز البَنْدوكيون العمومي"[45]. إن الأسماء الواردة في النقيشة هي أسماء ساميّة وليست بالضرورة مسيحية ولو أن واحداً منهم وهو أنعم يبدو أنه ابن لمواطن رومانيّ ـ أو مُتَرَوْمِن. هناك نقيشة شاميّة ثالثة غير مؤرّخة من منطقة رمة-حازم وهي تتحدّث كذلك عن إنشاء مؤسّسة خاصّة وتورد "أن ديوميديس «Diomedes» المتقي للّه بن مورُوس «Mooros» أنشأ بَنْدوكيوناً تخليداً لذِكْراه"[46].

كان إنشاء البَنْدوكيونات في كثير من الأحيان في هذه الفترة يهدف في نفس الوقت إلى إبراز العمل الخَيْري العمومي وتخليد المؤسِّس. ويمكن أن يكون اهتمام الدولة عبر الأباطرة والحكّام المحليين في الجهات أحد العوامل كذلك

(44) William Henry Waddington (ed.), *Inscriptions grecques et latines de la Syrie* (Paris: F. Didot, 1870) 562 (no. 2462).

(45) *Publications of the Princeton University Archaeological Expeditions to Syria in 1904-5 and 1909*, ed. Enno Littmann, David Magie and Duane Reed Stuart, III, Section A, Greek and Latin Inscriptions, Southern Syria (Leiden: E. J. Brill, 1921) 413-414 (no. 794-I).

(46) Waddington, *Inscriptions grecques et latines*, 548 (no. 2408).
ترجمة وادينغتون "الخائف أو المخيف" غُيِّرت إلى مُتّقي الله God-fearing.

من خلال إنشاء المباني والفَنادق ومكاتب الجمارك وتمهيد الطُّرُقات لدعم الرّحلة والتّجارة والتواصل عبر الإمبراطورية. وتذهب عائدات هذه المنشآت إلى الخزينة الإمبراطورية(47). ففي سنة 61 ميلادية أمر الإمبراطور نيرون عامله على منطقة تراقيا ببناء حانات ومعسكرات على طول الطُّرُقات الرئيسية بالمقاطعة وكان من الأمور السائدة في ذلك الوقت في كامل أنحاء الإمبراطورية أن يتحمَّل الوُلاة مسؤولية إنشاء المباني العمومية من هذا الفصيل. وغالباً ما كان تأسيس البَنْدوكيونات جزءاً من مجهود أوسع تقوم به الدولة تحت رعايتها(48). كانت عديد الفَنادق تحت نظر الدولة بما في ذلك بناء الثُّكَن العسكرية لفائدة الجيش الرومانيّ لتفادي ضرورة إيواء الجنود مع السكّان المحليين(49). وكان موظّفو الدولة يستفيدون من هذه الفَنادق سواء كانت عامّة أو خاصّة مثلما يظهر ذلك من توقّف مبعوث إمبراطوري- انظر أسفله- لقضاء ليلة في بَنْدوكيون في مدينة سيكايون «Sykeon» وهي مدينة صغيرة تقع غرب مدينة أنقرة(50). ومع أنّ مثل هذه المؤسّسات كانت توجد بصورة مبكّرة في إيطاليا إلا أنه يظهر من النقوش أن بناء مرافق جديدة في القرنين الثالث والرابع كان محصوراً في الجهات الناطقة باللُّغة اليونانية في الجزء الشرقيّ من الإمبراطورية الرومانية خاصّة بلاد الشام وجنوب الأناضول.

تواصل تأسيس البَنْدوكيونات في الجزء الشرقيّ من الإمبراطورية الرومانية إلى حدود القرن السابع لمّا دخل الإسلام بلاد الشام ومصر وهو ما سيحدث تغييرات على هذه المؤسّسات المحلية وغيرها. يروي يوحنا فم الذهب (347-407) أن هذه المؤسّسات كانت توجد على طول الطُّرُقات الرئيسية حيث يأوي إليها المسافرون ودوابهم للسكن والاستراحة، كما يبدو أن العديد من هذه

---

(47) McCormick, *Origins of the European Economy*, 399.

(48) Petersen, "A Roman Prefect in Osrhoene," 269, 281.

(49) Benjamin Isaac, *The Limits of Empire. The Roman Army in the East* (Oxford: Clarendon Press, rev. ed. 1992) 136, 177-178, 182-184, 297-298.

(50) *Vie de Théodore de Sykéon*, ed. André-Jean Festugiére, Subsidia Hagiographica 48 (Brussels: Société des Bollandistes, 1970) I, 3 (Greek text), II, 7 (French); also V. J. O. Rosenqvist, «Der Text der Vita Theodori Syceotae im Cod. Atheniensis BN 1014,» *Eranos* 78 (1980) 165-166; E. Dawes and N. H. Baynes, *Three Byzantine Saints. Contemporary Biographies translated from the Greek* (Oxford: Basil Blackwell, 1948) 88.

المؤسّسات كان يوجد على طول الطريق المؤدّية إلى أرزوس «Arzus» بمنطقة تراقيا حسبما هو وارد في سيرة القدّيس الإسكندر الرومي «Alexander of Rome» مجهولة المؤلّف[51]. توجَدُ معظم هذه المنشآت على جانبَي الطريق بصورة منتظمة من حيث المسافات الفاصلة بين الواحدة والأخرى على طول المسالك كثيرة الاستعمال أو توجد خارج أبواب المُدُن عوضاً عن أن تكون في وسط المُدُن.

ويبدو أنّ هذه المؤسّسات كانت شائعة حسب ما توفّره مواد أثرية من القرنين الخامس والسادس في إحدى المقابر التي توجد في مدينة كوريكوس «Korykos» وهي مدينة ساحلية صغيرة في منطقة قيليقيا «Cilicia» في الجنوب الغربي لطَرْسُوس. فقد وُجدت سبع نقائش جنائزية لرجال ونساء شغلوا خطّة مشرف على بَنْدوكيون أو أبناء لمن شغل هذه الخطّة[52].

الفَنادق في الخيال والمتخيّل المسيحيين

مع اعتناق الإمبراطور قُسطنطين المسيحية، بدأت أنماط الإحسان وتأسيس المُنشآت العُموميّة تتحوّل في الشرق الرومانيّ مع بداية القرن الرابع. فعرفت بعض المؤسّسات، وخاصّة بيوت الغرباء «*xenodocheion*» نموّاً كبيراً من زاوية العمل التقويّ والجهد الخَيْريّ لتوفير السكن على وجه الإحسان، في حين أن بعضها الآخر، بما في ذلك البَنْدوكيون، اختلطت فيه وظائف جديدة بالإضافة إلى ما اشتُهر به في الماضي. وتواصل النظر إلى البَنْدوكيون، في إطار مسيحيّ، كمؤسّسة زمنية حسب تصوّر مأخوذ عن الصورة نفسها التي رسمتها اليهودية المبكّرة والفلاسفة الوثنيون مثل فيلو وإيبكتاتوس «Epictetus». وهكذا اعتمد الكُتّاب المسيحيون الأوائل وكُتّاب المناقب صورة البَنْدوكيون للتعبير عن كلّ ما

---

(51) John Chrysostom, Homily II, *Patrologia Graeca*, ed. J. P. Migne, LVI, III; Dimitre P. Dimitrov, «Le Voyage de Saint Alexandre de Rome à la travers la Thrace,» *Bulletin de l'Institut Archéologique Bulgare* 8 (1934) 155.

(52) *Monumenta Asiae Minoris Antiqua*, ed. J. Keil and A. Wilhelm (Manchester: Manchester University Press, 1931), III (nos. 459B, 576B, 602B, 674C, 675B-C, 704C, 768). See also Frank R. Trombley, "Korykos in Cilicia Trachis: The Economy of a Small Coastal City in Late Antiquity (saec. V-VI)," *The Ancient History Bulletin* I (1987) 16-23.

هو متعلّق بالحياة الدُّنيا أو عن المواقع التي يمكن أن يتعرّض الطامع فيها إلى وظيفة القدّيس إلى المغريات. ويقدّم في الوقت نفسه يوحنا كريزوستوم وغيره البَنْدوكيون من وجهة النظر المسيحية على أنه مجال لفعل الخير. من المهمّ أن نرى في تأويل قصّة السامريّ الصالح أنها تضع البَنْدوكيون في أيّ من هاتين الحالتين فقد استنتج المفسّرون الأوائل مثل أوريغن «Origen» وأغسطين «Augustine» أن الفُنْدُق من خلال هذه القصّة هو الكنيسة نفسها، وبهذه الطريقة تمّ تفضيل تأويل رمزي يتجاوز المعنى الحالي للكلمة والسُّمعة التي تحيل عليها[53].

ذكر يوحنّا فم الذهب البَنْدوكيون في حالات عديدة، وعلى الأرجح أنه كان يألف الكلمة منذ طفولته وهو الذي ترعرع في مدينة أنطاكية في منتصف القرن الرابع. ففي إحدى مواعظه كان يحضّ مستمعيه على فتح أبوابهم أمام الغرباء وعلى أن تكون منازلهم "بَنْدوكيونات للمسيح"[54].

وهنا، كما في العديد من الاستشهادات السابقة، يعني ضمنيّاً أنّ أيّ منزل خاصّ يمكن أن يكون بَنْدوكيوناً، ولكنّ فم الذهب يربط بصفة غير معهودة بين الكلمة والإحسان المسيحي. إلّا أنّ الكاتب المنقبيّ البيزنطيّ سيميون ميتافراست «Symeon Metaphrastes» الذي عاش في القرن العاشر يصف كيف أن واحداً من النبلاء يسمّى تيودوريكوس «Theodoricos» كان قد سمع يوحنّا كريزوستوم (فم الذهب) واعظاً، وبعد أن "تكلّم القدّيس، مباشرة، جمع كلّ ثروته ولم يترك إلّا ما يمكن أن يعوله هو وأبناءه، وأعطى الباقي إلى بَنْدوكيون الكنيسة تكفيراً عن ذنوبه"[55].

من جهة أُخرى يستعمل فم الذهب الصورة نفسها استعمالاً مجازيّاً مختلفاً ويقارن بين الحياة الدُّنيا والبَنْدوكيون، مكرّراً هذه الصورة سائلاً مستمعيه:

---

(53) Robert H. Stein, "The Interpretation of the Parable of the Good Samaritan," in *Scripture, Tradition and Interpretation: Essays Presented to Everett F. Harrison,* ed. W. Ward Gasque and William Sanford Lasor (Grand Rapids, MI: William B. Eerdmans Publishing Company, 1978) 279-80.

(54) Chrysostom, Sermon 45, *PG*, LX, 319.

(55) Symeon Metaphrastes, *Vita S. John Chrysostom, PG,* CXIV, 1129.

ألا تعلمون أنّ هذه الحياة ليست سوى رحلة؟ هل أنتم مقيمون؟ إنكم مسافرون. هل فهمتم ما أقول؟ إنكم لستم مقيمين وإنما مسافرون ورحّالة. فلا تقولوا "إن لنا هذه المدينة أو تلك". فلا أحد يملك مدينة. إنّ المدينة في السماء. وهذه الأشياء هي طريق. نحن الآن مسافرون في كلّ يوم والطبيعة تجري. فمن يَسِرْ في الطريق يخبّئ المال، ومن يسافر يكنز الذهب. ففي كلّ مرة إذن تنزلون ببَنْدوكيون، أخبروني هل زيّنتموه؟ لا، ولكنكم أكلتم وشربتم ثم أسرعتم في مغادرته، إنّ هذه الحياة هي بَنْدوكيون. لقد جئنا إليه ثم هيّأنا هذه الحياة لتنتهي. فنحن نسرع في المغادرة يحدونا الأمل ليس في أن نترك أيّ شيء هنا وإنما في عدم إضاعته. ففي كلّ مرة تذهبون فيها إلى فُنْدُق ماذا تقولون لحارسه؟ "احذر أين تضع أمتعتنا ولا تترك شيئاً هناك حتى لا يضيع أيّ شيء سواء كان صغيراً أو بخس الثمن فإننا سنحمل كلّ شيء عندما نعود إلى البيت". فعندما نتحدّث عن الحياة الدُّنيا فإننا نتمثّل البَنْدوكيون ولا نترك أيّ شيء في الفُنْدُق وإنما نحمل معنا كلّ شيء إلى مدينتنا. إنكم مسافرون ورحّالة ولكنكم أقلّ قيمة من المسافر. كيف ذلك؟ سأخبركم. في زمن ما ذهب مسافر إلى بَنْدوكيون ثم غادره. فهو سيّد نفسه عند القدوم وعند المغادرة. فقد أتيتُ إلى هذا الفُنْدُق، وهو هذه الحياة ولكنني لا أعرف متى سأغادرها[56].

لقد كان يوحنّا فم الذهب مباشراً في خطابه ولكنّه لم يكن مبدعاً باختياره للبَنْدوكيون كرمز للحياة الدُّنيا. فقد كانت هذه الصورة عامّةً لدى الكُتّاب المسيحيين الأوائل والفكر المسيحي منذ القرن الثاني. فقد اعتمد كليمنت الإسكندري (150-215م) على تشبيه القلب السيّئ بالفُنْدُق الزمني. كان قد قام بذلك أحد اللاهوتيين الغنّوصيّين يدعى فالنتينوس (Valentinus):

> فمن خلال المسيح وحده يمكن أن يكون القلب طاهراً عندما تُجرف كلّ روح من القلب... فإنني أفترض أن كلّ تجارب القلب مثل البَنْدوكيون. ففيه حُفَر مليئة غالباً بالقذارة بسبب الناس المقيمين فيه عندما يتصرّفون بشكل شائن ودون اعتبار للمكان، وكأنه لا يعني شيئاً بالنسبة لهم. فالقلب

(56) *Homilia de capto Eutropio*, V, PG, LII, 401. كلّ "فُنْدُق" هنا هو بَنْدوكيون في الأصل. ترجمة إيميلي ماكّيل [Emily MacKil].

أيضاً إذا لم يَحْتَطْ وينتبه منذ البداية، فهو سيعرف تجربة شبيهة وسيصبح مدنّساً وسيكون مجالاً لكثير من الوساوس[57].

كما أورد كليمنت الإسكندري صورة معروفة في إطار مناقشته "لكيفية تعامل الإنسان الكامل مع الجسد ومع الأشياء التي توجد في هذا العالم" واصفاً كيف يجب أن تكون الروح محترِمة للجسد ومستعدة، مع ذلك، لمغادرته عندما يحين وقت الرحيل. "يعيش المنتخب حياته كضيف وهو يعلم أنّ كلّ الأشياء يمكن قبولها كما يمكن رفضها... والأمر كذلك بالنسبة إلى الجسد فهو كمن أُرسل في جولة طويلة نزل فيها بالبَنْدوكيونات والمنازل في الطريق، فيجمع الأشياء المادّيّة في كلّ محطّة ولكنّه يغادر البيت والممتلكات" بلا أسف عندما يحين وقت الرحيل[58]. هذه الملاحظات وجدت صداها عند مُعاصِر كليمنت هيبوليتوس (Hippolytus) (170-236م) الذي يصف كيف "أن الخالق خلق الأجساد والأرواح من جوهر مادّي وشيطانيّ... فهذا الإنسان المادّيّ حسب اعتقادهم مَثَلُه مَثَلُ البَنْدوكيون أو البيت الذي تستقرّ به تارة الروح المفردة وتارة أُخرى أرواح الشياطين ومرة أُخرى تستقرّ به روح الكلمات"[59]. وفي القرن التالي قام الفقيه الإسكندراني ديديموس الضرير (313-398م)، وهو معاصر ليوحنّا فم الذهب، أيضاً بمقارنة الدّار الزائلة في هذا العالم بالبَنْدوكيون[60]. يعبّر استمرار هذه المقارنات في الوقت نفسه عن عُمق الصورة وعن أُلفة سامعي العصر القديم المتأخّر للبَنْدوكيون.

هناك صورة أُخرى تربط البَنْدوكيون بالمُغريات الدُّنيوية وهو ما نجده في وصف سرياني للطريق "الضيِّق والصعب" الذي سلكه المسيح والمسيحيون في هذا العالم:

---

(57) Clement of Alexandria, Fragment from *Stromatum* III, *PG*, VII, 1271-1272; trans. John Ferguson, *Stromateis* (Washington, DC: Catholic University of America Press, 1991) 232.

(58) Clement of Alexandria, *Stromatum* IV, *PG*, VIII, 1375-1376.

(59) Hippolytus, *Refutatio omnium haeresium*, ed. Miroslav Marcovich (Berlin: Walter de Gruyter, 1986) 247 (VI.34.4-6).

(60) Didymus the Blind, *De Trinitate*, *PG*, XXXIX, 780.

> مُرتقياتُه وعرة ويتواصل عبر عُرْض البحر. فقد كان يوجد على يمين الطريق وشماله قراصنة يرصدون مثلهم مثل أسياد البَنْدوكيونات الذين يشيرون بأيديهم ويقولون للعابرين: "أيها المارة إنه ليس لكم. توجّهوا، توجّهوا إلينا واقضوا الليلة. إن طريقكم صعب وليس هناك مكان آخر للاستراحة"[61].

من الواضح أنّ الصورة المجازية للبَنْدوكيون الدنيويّ وإغراءاته انتقلت بسهولة إلى اللُّغة السّريانيّة في إطار بلاد الشام المسيحية.

لقد كان الإغراء دافعاً مستمرّاً، وكثير من كُتّاب المناقب المسيحيين تبنّوا صورة البَنْدوكيون الزمني لتحديد مرحلة أو تجربة على طريق القداسة أو الشهرة. ثيودور السيكيوني (Theodore of Sykeon) (ت613م) حملت به أمّه مريم في بَنْدوكيون كانت تُديره مع أمها وأختها. وهذا البَنْدوكيون الذي يبدو أنه كان محطّةً للبريد كان يقع على طريق رئيسية تمرّ بسيكيون، "وهؤلاء النسوة كُنَّ يعشن في الفُنْدُق ويمتهنّ البغاء". وذات يوم مرّ بسيكيون أحد رسل الإمبراطور ومكث بالبَنْدوكيون مدّة من الزمن فأحبل مريم ولداً[62]. والحكاية نفسها ترويها الأسطورة حول هيلانة، أم قُسطنطين الذي سيصبح إمبراطوراً، إذ إنها كانت تمارس مهنة بائعة هوى في بَنْدوكيون كان والدها يملكه[63]. لقد ترسّخت الصورة، وفي سيرة أحد القدّيسين المتأخّرين، نيقولا الراهب الذي مارس الجندية في شبابه في عهد الإمبراطور نيقفور، أنه لما كان ذاهباً للالتحاق بإحدى الحملات العسكرية سنة 811م، قضى ليلة في بَنْدوكيون، فحاولت ابنة صاحب المحلّ "مدفوعة برغبة شيطانية"، مراودته عن نفسه ثلاث مرّات. إلّا أنه قاومها فكانت استقامته الأخلاقية درعاً له أثناء المعركة. ولمّا انسحب من الجندية فيما بعد، ترهّب[64].

---

(61) *S. Martyrii, qui est Sabdona quae supersunt omnia*, ed. Paul Bedjan (Leipzig: Otto Harrassowitz, 1902) 44-45. أشكر يوسف عمار [Joseph Amar] على هذه الترجمة.

(62) *Vie de Théodore de Sykéon*, I, 3; II, 7.

(63) François Halkin, «Une Nouvelle vie de Constantin dans un légendier de Patmos,» *Analecta Bollandiana* 77 (1959) 74.

(64) Nicholas the Monk, *Vita*, AASS Novembris Propylaeum (1902) 341.
كُتب النصّ بين القرن التاسع والثالث عشر.

وبما أن المصادر تروي أنّ الرهبان وغيرهم من رجال الدين كانوا يتوقّفون في بَنْدوكيونات مثلما يفعل ذلك المسافرون المدنيّون، فلا بُدّ أن كثيراً من هذه المؤسَّسات كانت أماكن إقامة لائقة نسبيّاً وإن كانت خشنة. فقد حَرَّم دستور الحواريين، وهو مجموعة من النصوص التي ربما جُمعت في بلاد الشام في القرن الثالث أو الرابع، على الرهبان الذهاب إلى الخمّارات ولكنّه سمح لهم بالإقامة في البَنْدوكيون عند الاقتضاء(65). إلّا أنّ السُمْعة المشبوهة قد تواصلت، مثلما هو وارد في قصّة من قصص سِيَر آباء الكنيسة عن سقوط راهب شاب يدعى مارينوس، كان من عادته التوقّف بالبَنْدوكيون عندما يقوم بنقل البضائع بين الدير الذي يعيش فيه وأقرب سوق إليه. ولم يكن ذلك الفُنْدُق على ما يبدو ماخوراً، ولو أنّ مسافراً على الأقلّ قد ظنَّه كذلك، لأنّ صاحبه كان في حالة غضب قصوى عندما اكتشف أنه تمّ التغرير بابنته العذراء من قبل أحد الذين أقاموا بالفُنْدُق وأحبلها. ورغم أنّ المُذْنب الحقيقيّ كان جنديّاً مارّاً من هناك (وهي حكاية مجازية تُذكِّر بقصّة نيقولا السابقة الذكر) فقد تمّ توبيخ الراهب الشاب ونفيه عن الدير لمدّة خمس سنوات. وفيما بعد ولَمّا توفّي مارينوس تمّت تبرئته عندما اكتُشِف أنه في الواقع امرأة متنكّرة، فأصبح القدّيسة مارينا وبالتالي لا يمكن أن تكون امرأة أباً لطفل(66).

قد تكون البَنْدوكيونات أيضاً أماكن للتوبة امتداداً لما هو موجود في أعمال توما، ربما لأنها أماكن من المنطقي أن يلتقي فيها المقدّس بالمدنّس. لقد ورد في قصّة من **الحدائق الروحية** «*Pratun Spirituale*» وهي قصّة وقع تجميعها حوالى سنة 600م أن رُجلَيْ دين عجوزين اِلتَقيا بائعة هوى في بَنْدوكيون حين كانا ذاهبين من

(65) *Die Kanones der Wichtigsten Altkirchlichen Concilien nebst den Apostolischen Kanones*, ed. Friedrich Lauchert (Freiburg and Leipzig: Akademische Verlagsbuchhandlung von J. C. B. Mohr, 1896) (Canon 54) 8; trans. as *Apostolic Constitutions*, ed. Alexander Roberts and James Donaldson, Ante-Nicene Christian Library 17 (Edinburgh: T. & T. Clark, 1870) 265.

(66) قد يعود هذا العمل مجهول المؤلّف إلى القرن السادس. وتوجد روايات من هذه الحكاية كجزء من سيرة القديس أوجينيوس [St. Eugenius] باللُّغتين اللاتينية واليونانية. وتقدّم النُسخة اللاتينية (*Vita Sanctae Marinae, PL*, LXXIII, cols. 693-695) نماذج محدودة لها صلة بالبندوكيوم [*pandochium*] والبندوكس [*pandox*].

أيغيون (Acgaion) (بالقرب من كوريكوس) إلى طَرْسُوس. ولما بدأ أحد المسافرين قراءة الإنجيل اقتربت تلك المرأة لتستمع، فأيقنت أنها على طريق غير سويّ، فتبعت الرجلين ثم ترهّبت ودخلت في دير من أديرة النساء قرب أيغيون(67). تصف سيرة بول اللتروسي (Paul of Latros) في القرن العاشر بَنْدوكيوناً سيّئاً كان مصدراً آخر للإنقاذ. ففي هذه الحالة تعرّض راهب مسافر إلى الشتم من قبل أحد النُّزَلاء، فأصيب هذا الأخير بدُمَّل مؤلم على إثر ذلك. فعالج الراهب ذلك الجِلْفَ المتألّم، فَصَلُحَت أخلاقه(68).

الآثار والنقائش (القرنان الخامس والسادس)

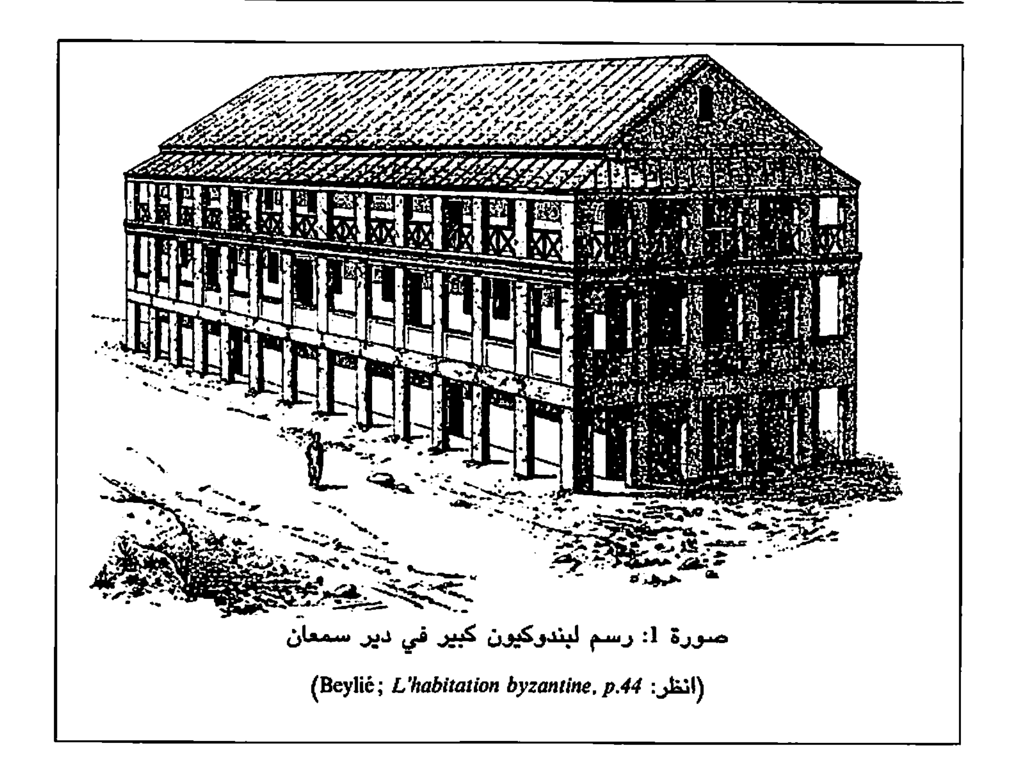
تجدّد نشاط التعمير وازدهرت الحياة العُمْرانية في الشام الرومانية خلال القرنين الخامس والسادس، مع التأكيد على رعاية المؤسّسات المسيحية على عكس المؤسّسات الدنيوية كالحمّامات وميادين الفروسية(69). وتوفّر المواد الأثرية والنقائش التي تعود إلى هذه الفترة ما يدعم ربط يوحنّا فم الذهب للبَنْدوكيون بالضيافة المسيحية بما أنّ العديد من هذه المؤسّسات كان يقع على مقربة من أماكن الحجّ. وقد كان أغلبها، مع هذا، يوجد في مُدُن صغيرة شمال الشام وخاصّة في المنطقة الداخلية من أنطاكية، وليس هناك ما يدلّ على أنها كانت مخصّصة للأغراض الخَيْريّة إلّا في القليل النادر. وفعلاً هناك قِلّة قليلة منها تحمل نقائش تعرّفها بوضوح على أنها بَنْدوكيونات أو تحدّد تاريخ تأسيسها.

هناك بنايتان في دير سمعان كان الحُجّاج يقصدونهما لزيارة قبر سمعان العمودي Simon Stylites وكان يطلق عليهما بَنْدوكيون في النقائش. وكلاهما كانت قد بُنيت سنة 479م (بعد تسع عشرة سنة من وفاة القدّيس) وفي المنطقة نفسها التي يوجد بها المَعْلَم، وربما كان يقيم بهما زوار عمود سمعان والكنيسة والدير. وقد

(67) John Moschus, *Pratum Spirituale*, *PG*, LXXXVII.3, 2879-2880; trans. John Wortley, *The Spiritual Meadow* (Kalamazoo, MI: Cistercian Publications, 1992) 22.

(68) Paul of Latros, *Vita*, ed. Theodor Wiegand, *Der Latmos* (Berlin: G. Reimer, 1913) 128.

(69) Rebecca Foote, "Umayyad Markets and Manufacturing: Evidence for a Commercialized and Industrializing Economy in Early Islamic bilād al-Shām," Ph. D. dissertation (Cambridge, MA: Harvard University,1999) 152-155.



صورة 1: رسم لبندوكيون كبير في دير سمعان

(انظر: Beylié; *L'habitation byzantine*, *p.44*)

كان شكل البَنْدوكيونين مستطيلاً، وأحدهما أكثر اتساعاً من الآخر وتوجد بهما تجهيزات للإقامة وإناخة الدواب. وللأكثر اتساعاً منهما طابقان أو (وربما ثلاثة)، ولكليهما رواقان معمَّدان خارجيّان وغُرفة كبيرة داخلية في الوسط تنتهي بغُرَف صغيرة على الجانبين(70). وقد رأى الباحثون في ذلك أنّ الفُنْدُق الصغير (لم يعد موجوداً) قد يؤجر في العادة كلّه للزبائن الميسورين في حين أن الفُنْدُق الكبير يؤمّه الناس العاديون الأقل غِنًى(71). لم تكن النقيشة التي توجد بالبَنْدوكيون

(70) *PPUAES*, ed. H.C. Butler, II, Section B, Architecture, Northern Syria (Leiden: E. J. Brill, 1920) 268-278. رسم تخطيطي يمثل البَنْدوكيونات في دير سمعان وتورمانين هو من إعداد Charles J. M. de Vogüé, *Syrie centrale, Architecture civile et religieuse du 1er au VIIe siècle* (Paris: Noblet & Baudry, 1865) plates 114,130, 131. كما تمت إعادة نشرهما من طرف L. M. E. Beylié, *l'Habitation Byzantine: recherches sur l'architecture civile des Byzantins et son influence en Europe* (Paris: E. Leroux, 1902) 46.

(71) Tchalenko, *Villages antiques de la Syrie du Nord*, I, 209. ذكر الطبيب العربي =

الكبير بدير سمعان رغم طابعها المسيحي الواضح، مختلفة، من ناحية تخليد الذكرى، عن نقائش البَنْدوكيونات السابقة للفترة المسيحية في المنطقة نفسها تقريباً من بلاد الشام: "عيسى ابن مريم. لقد شُيِّد البَنْدوكيون في تموز/يوليو 479م. أيها المسيح كُن في عوننا! سيميون بن مارون هو الذي شَيَّده: فلعلّ الأيام تذكره"[72] أما الثاني وهو الأصغر حجماً فيحمل نقيشة عادية تذكر "أن البَنْدوكيون قد شُيِّد في تشرين الأول/أكتوبر 479م. فليتمتّع أصحابه ومالكوه بالصحّة والرِّبح"[73].

وقد شُيِّد العديد من الفَنادق الأُخرى في الفترة نفسها سواء لاحتضان الحَجيج أو المسافرين العاديين. فقد بُني واحد منها في كَفْر نابو ليس بالبعيد من دير سمعان في سنتي 504-505م تحقيقاً لنذر للقدّيس زكا «St. Zacchaeus». فقد يكون هذا البَنْدوكيون تحت رعاية الحَجيج الذين يكونون في طريقهم من وإلى دير سمعان[74]. كما شُيّد بَنْدوكيون آخر في الفترة نفسها في سنتي 513-514م من قِبل أحد الأساقفة في قُسطنطينة في شمال بلاد الشام في ولاية أسروان ـ وهي المنطقة نفسها التي كان قد شيّد فيها أوريليوس داسيوس بَنْدوكيوناً في القرن الثالث[75].

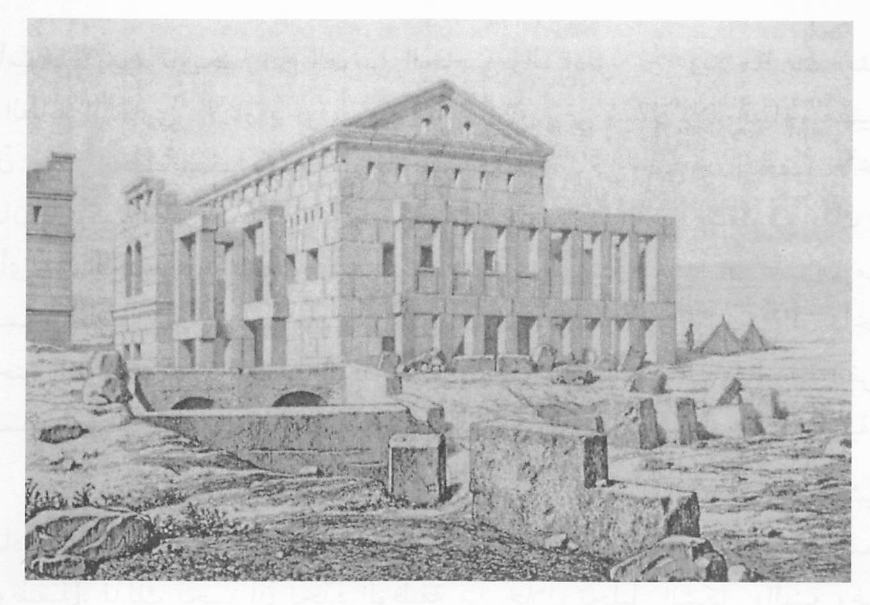
= المسيحي ابن بُطْلان (ت سنة 1066م) بعض الفَنادق في دير سمعان مشيراً إلى أن الناس لا يزالون يزورون ذلك الموقع، (ياقوت، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1956م، الجزء الثاني، ص517).

(72) *PPUAES*, ed. William Kelly Prentice, III, Section B, Greek and Latin Inscriptions, Northern Syria, Part I (Leiden: E. J. Brill, 1908) 169-170 (no.1154). نُشرت هذه النقيشة كذلك من قبل Waddington, *Inscriptions grecques et latines* (no. 2691) and Thomas Sternberg. *Orientalium More Secutus. Räume und Institutionen der Caritas des 5. bis 7. Jahrhunders in Gallien* (Munster: Aschendorff, 1991) 180-181.

(73) يمكن قراءة الجُمْلة الأخيرة "إن صحّة المُشْرِف ربح"(أي أن صحة المشرف هي فائدة للمالك) *PPUAES*, ed. Prentice, III, 172-173 (no. 1155). نُشرت هذه النقيشة كذلك من طرف Waddington, *Inscriptions grecques et latines* (no. 2692).

(74) *PPUAES*, ed. Butler, II, B, 297-298.

(75) H. Leclercq, "Hôpitaux, hospices, hôtelleries", *Dictionnaire d'archéologie chrétienne et de la liturgie*,ed. H. Leclercq, F. Cabrol, and H. I. Marrou (Paris: Letouzey & Ané, 1924-1953) VI.2 (1925) 2758; Carl Maria Kaufmann, *Handbuch der alt-*=



صورة 2: بقايا محتملة لبندوكيون في تورمانين
(انظر: Vogüé, *Syrie centrale*, tableau, 131)

فقد اختلف الباحثون عند تحليلهم للمواد الأثرية والهندسية حول عدد البَنْدوكيونات التي عُثر عليها في بلاد الشام وحول انتشارها في تلك الفترة. فقد رأى البعض منهم خاصّة جورج تشالنكو (Georges Tchalenko) وهوارد كروسبي بتلر (Howard Crosby Butler) أنّ البَنْدوكيونات هي خاصّيّة عامّة بالمُدُن الشامية وحدّدا عدداً من المواقع التي قد تكون وجدت بها هذه الأبنية[76]. وقد كانت هذه الفَنادق في كثير من الحالات مرتبطة بالمراكز التجارية والدينية وربما يكون ذلك تواصلاً مع توجّه سابق يقضي بتركيز البَنْدوكيونات في وسط الساحة العامّة. وحسب تشالنكو فإن آثار "الأسواق والفَنادق قد حُفظت بصورة جيّدة خاصّة في المنطقة الموجودة بين حلب وأنطاكية وقد حُفظت في بعض الأحيان بآثار أحياءٍ

= *christlichen Epigraphik* (Freiburg im Breisgau: Herdershe Verlagshandlung, 1917) 416; Victor Chabot, «Antiquités de la Syrie du Nord», *Bulletin de Correspondance Hellénique* 26 (1902) 200-201.

(76) قد يكون تم التعرف إلى وجود فَنادق في وَقْم وتورمانين وباعودة وبابِسقا ودارقيطا ودانة وسرجيلة (Waqm, Tourmanin, Bā'ūdeh, Babisqa, Dār Qīṭa, Dānah, and Serjilla).

بأسرها" يعود تاريخها إلى القرنين الخامس والسادس[77]. ويلاحظ بتلر مثلاً "الطابع التجاري" لآثار باعودة وهي مدينة تجارية في شمال بلاد الشام، مضيفاً أنّ بعض المنشآت قد تكون أسواقاً كبيرة مُغطّاة، "في حين أن البعض الآخر كان بالتأكيد فَنادق"[78]. إلّا أنّ جورج تات «Georges Tate» يشكّ في ذلك إذ رأى في العديد من القرائن المعتمدة لتركيز الفَنادق بعيداً عن غيرها من المؤسّسات الأخرى غير مقنعة "وليست لها قيمة"[79]. ويمكن أن نأخذ احترازات تات «Tate» مأخذ الجدّ خاصّة بالنسبة إلى الفترة التالية لبداية القرن السادس عندما أصبحت الفَنادق- وخاصّة البَنْدوكيون- لا تستند إلى حقيقة صلبة.

تبرز صعوبات خاصّة انطلاقاً من أنه حتى ولو وُجدت نقائش فهي تشير عادة إلى تاريخ التأسيس دون ذكر الغرض من ذلك البناء ودون إعطائه اسماً [وظيفيّاً]. لذلك يجب أن نحدّد الوظيفة من خلال تحليل الشكل والبنية وغير ذلك من العناصر الماديّة. فقد قارن مؤرّخو الهندسة المِعْمارية المباني مجهولة الهويّة بالمباني الموجودة بدير سمعان وبمبانٍ أُخرى من الواضح أنها بَنْدوكيونات من أجل تحديد وجود فَنادق أُخرى. ولكنّ هذه الطريقة هي عمليّة تتطلّب براعة، إذ في أغلب الحالات مثلما هو الشأن في بداية الإسلام أيضاً، لم تكن هناك اختلافات كبيرة في مستوى الشكل بين المنازل الخاصّة والفَنادق العامّة[80]. فهذه الأخيرة لم تكن بالضرورة أكبر على الرغم من أنها قد تكون لها تقسيمات داخلية مختلفة ووجود فضاء منفصل خاصّ بصاحب البيت وعائلته.

ولكنْ من المحتمل أن تكون نسبة كبيرة من الفضاء مهيّأة لربط الحيوانات وخزن البضائع، وقد أشار بتلر إلى وجود المعالف والخزائن في الطابق

(77) Tchalenko, *Villages antique de la Syrie du Nord*, I, 21.

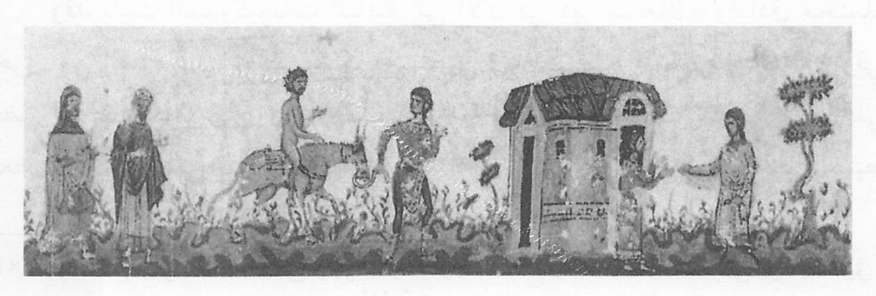
(78) *PPUAES*, ed. Butler, II, B, 161-162.

(79) Georges Tate, *Les Campagnes de la Syrie du Nord du IIe au VIIe siècle. Un Example d'expansion démographique et économique à la fin de l'antiquité* (Paris: Paul Geuthner, 1992), I, 78-81.

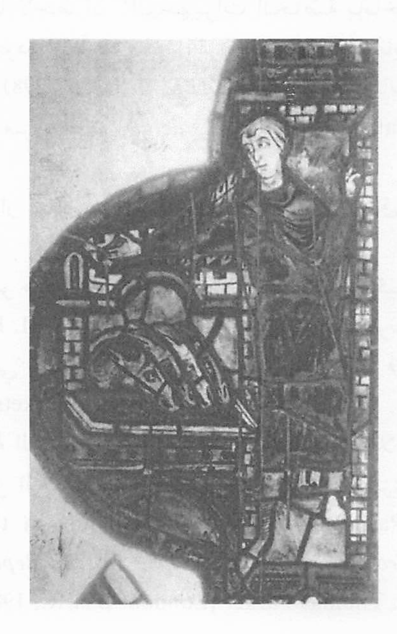
(80) Tchalenko, *Villages antique de la Syrie du Nord*, I, 22.



صورة رقم 3: البندوكيون في قصة السامريّ الصالح. صورة جزئية من مخطوط يوناني من القرن التاسع، المكتبة الوطنية، باريس، يوناني رقم 923 ورقة 320 ظهر.



صورة رقم 4: البندوكيون في قصة السامريّ الصالح. صورة جزئية من مخطوط يوناني من القرن الحادي عشر، المكتبة الوطنية، باريس، يوناني رقم 74 ورقة 132ظهر.



صورة رقم 5: البندوكيون في قصة السامريّ الصالح. صورة جزئية من نافذة السامريّ الصالح في كاتدرائيّة شارتر القرن الثالث عشر. يمكن ملاحظة كيف أن البندوكيون (والذي تُرجم إلى اللاتينية بعبارة ستابولوم) قد تغيرت وظيفته من فندق إلى إسطبل في المخيال الأوروبي الغربي.

الأرضي لأبنية كهذه[81]. فهناك بناية من طابقَيْن عرَّفها على أنها "فُنْدُق" شُيِّدت في دار قيطا، سنة 436م. "فقد كان فضاء الطابق السفلي بأسره ذا شكل طولي، يقسمه صفّ ذو ستة عشر معلفاً... وربّما كان الطابق العُلوي مقسّماً بحواجز خشبيّة أو ربّما كان بيتاً واحداً طويلاً لفائدة النُّزَلاء". تنقص هذا البناء بعض الأشياء الأساسيّة، كحديقة مثلاً، يتوقّعها المرء في منزل خاصّ[82]. وبعض المباني التي يُظَنّ أنها فَنادق يبدو أنها كانت تحتوي على مساحة فيها كنيسة صغيرة[83].

وقد بُنيت البَنْدوكيونات الباقية إلى الآن في دير سمعان، وفَنادق محتملة أُخرى من الفترة ذاتها، على شكل مستطيل وقامت على طابقين أو ثلاثة، وفي بعض الأحيان كان لها أروقة معمّدة خارجية وأدراج. ويختلف تقسيمها الداخلي فبعضها يحتوي على فناء وبعضها لا فناء له[84]. وقد تكرّر هذا التخطيط البسيط

(81) فقد أشار بتلر [Butler] إلى وجود "مِشْكاوات (جمع مِشكاة) تشبه الخزائن أو الصناديق" في أحد المباني التي قد تكون فُنْدُقاً في وَقم بُنِيَ على نفقة الدولة سنة 316 ميلادية (PPUAES, ed. H. C. Butler, II, Section A, Architecture, Southern Syria (Leiden: E. J. Brill, 1919), 417-418). كما لاحظ أن "التجهيزات الخاصّة بإناخة الحيوانات" من خلال المعالف الكثيرة الموجودة في أحد مباني القرن السادس بكَفْر نابو "قد أقنعته بأن ذلك يمكن أن يكون فُنْدُقاً" (*PPUAES*, II, B, 297-298). ويعتقد تات [Tate] خلافاً لذلك أن تلك الآثار هي آثار منزل خاصّ (Tate, *Les Campagnes de la Syrie du Nord*, 79-81).

(82) أشار بتلر [Butler] إلى أحد المباني في دار قيطا بُني سنة 436م على أنه "فُنْدُق" (*PPUAES*, II, B, 188-189).

(83) يرى بتلر أنه مثل المبنى الكبير في دانة وهو مبنى يحتوي على ثلاثة طوابق ودكاكين وكنيسة صغيرة فإنه بَنْدوكيون (*PPUAES*, II, B, 141-142). كما أشارت رفقة فوت [Rebecca Foote] إلى إمكانية وجود فَنادق في بالميرا (تدمر) ومبنى آخر يُسمّى خاناً في الرصافة قد تكون أصوله بيزنطية (Foote, "Umayyad Markets," 162-163).

(84) هناك فُنْدُق محتمل في جزء من أحد الأحياء الرومانية في مدينة لِجُّون [Lejjūn] خلال القرن الثالث وهو يتمثّل في جُمْلة من الغُرَف التي بنيت حول فناء مركزي (Patricia Crawford, "A Building in the West *Vicus* of al-Lejjin *the Roman Frontier in Central Jordan: Interim Report of the Limes Arabicus, 1980-1985*, ed. S. Thomas Parker [London: B.A.R., 1987] 385-398).

في أشكال البَنْدوكيونات في العهد البيزنطيّ فيما بعد مُظهِراً أبنية ذات طوابق ونوافذ وأبواب عديدة[85].

يقطع هذا الشكل الهندسي بوضوح مع تخطيط الفَنادق العربية التي بُنيت في المنطقة نفسها فيما بعد. فقد كانت الفَنادق والخانات الإسلامية عادة ما تُبنى حسب تخطيط مربّع الشكل ولها طابق أو طابقان يُطلّان على فناء كبير دون أن تكون لها نوافذ تفتح إلى الخارج ويمكن الدخول إليها عبر باب واحد. ومثلما هو الشأن بالنسبة إلى البَنْدوكيون يخصّص الطابق السفلي لربط الحيوانات وحفظ الأمتعة، في حين يقيم النُّزَلاء في الغُرَف التي توجد بالطابق العُلوي. لم يكن هذا الشكل الأساسي غير معروف في أبنية المتوسّط القديم أو الوسيط، سواء كانت فَنادق أم لا، ولكنّ الاختلاف الملحوظ بين بَنْدوكيون الفترة القديمة المتأخّرة وفُنْدُق العصر الوسيط هو الانعدام النسبيّ للأمن في مباني الفترة القديمة، فقد كان يسهل الدخول إلى البَنْدوكيون في حين أن الفَنادق كانت لها جدران سميكة ونوافذ قليلة ومخازن وباب يمكن إقفاله. فهذا الاختلاف يؤكّد أنّ البَنْدوكيون كان مجالاً مفتوحاً يمكن أن يلجه أيّ كان من المسافرين في حين أن الفُنْدُق كان حِكْراً على التجار. لا بدّ أن التجار المتنقّلين قد نزلوا بالبَنْدوكيونات، ولكنّ الأمر يختلف بالنسبة لِما خَلَفَهم، الفُنْدُق والفُنداكو، فلم تكن البَنْدوكيونات أماكن مرتبطة بصورة خاصّة بالتِّجارة في العالم الرومانيّ المتأخّر. وإنه لمن المعروف أنّ البحث عن المادّة المتعلّقة بالتجار أو عن تحديد أماكن إقامتهم أثناء ترحالهم في تلك الفترة هو من المهمّات الصعبة، بما أنهم قليلاً ما لفتوا انتباه الكُتّاب القُدامى. في حين تشير بعض النقائش التي عُثر عليها في بالميرا (تَدْمُر) إلى وجود مجموعات من التجار بالمدينة في القرن الثاني. وفي كثير من الحالات يتمّ الحديث عن الفَنادق من خلال ارتباطها بالنشاط التجاري، ولكن تحت تسمية كَتَليما «*katalyma*» وليس باسم بَنْدوكيون[86]. ومن المحتمل أن تكون هذه

(85) تتحدث نسختان مخطوطتان من الإنجيل باللُّغة اليونانية في المكتبة الوطنية بباريس عن حكاية السامري الصالح وتبينان وصوله إلى البَنْدوكيون [*pandocheion*] BN gr. 923, fol. 320V (ninth century) and BN gr. 74, fol.132 r (eleventh century).

(86) René Mouterde and Poidebard, «La Voie antique des caravanes, entre Palmyre et Hit au II^e siècle AP. J. -C.,» *Syria* 12 (1931) 107; Josef Dobiáš, «Une Nouvelle=

الكلمة، التي استعملها لوقا أيضاً للحديث عن الفُنْدُق ببيت لحم (2: 7) تُعرف أكثر في ارتباطها بالنشاط التجاري والسكن الآمن من عبارة بَنْدوكيون التي تُحيل على سُمعة أقلّ قيمة ولكنّها أكثر تعميماً.

كانت بيوت الغرباء (التي يُعبَّر عنها بكسينودوكيون أو كسينون) معالم معروفة في المُدُن وعلى الطُّرُقات الطويلة في العالمين الرومانيّ المتأخّر والبيزنطيّ. في الواقع، وبحلول القرنين السادس والسابع كانت بيوت الغرباء معروفة أكثر كثيراً من البَنْدوكيونات، بحيث إن الباحثين كثيراً ما تجاهلوا الأخيرة، أو أخذوا كلمة بَنْدوكيون كمرادف لكسينودوكيون (بيت الغرباء) . وكما يدلّ اسمها عليها فهي بيوت خاصّة بإيواء الغرباء والأجانب، وعلى عكس البَنْدوكيون فهي توفّر الغذاء والملجأ مجّاناً لنزلائها من حَجيج ورهبان وغيرهم من رجال الدين المسافرين (وكذلك المسافرون من غير رجال الدين). وهو ما جعل هذه الفَنادق مرتبطة بالعمل الخَيْري في الثقافتين المسيحية واليهودية. تشير نقيشة يونانية عُثر عليها في بيعةٍ يهودية بمدينة القدس وهي مؤرّخة من القرن الأوّل الميلادي، إلى وجود بيت للغرباء فيه غُرَف وفيه الماء لفائدة "الغرباء المحتاجين"[87].

فقد أصبحت هذه الفَنادق وثيقة الارتباط بالعمل الخَيْريّ المسيحيّ وبإقراء الضيف خصوصاً بعد التنصّر الرسمي للإمبراطورية في عهد قُسطنطين الأوّل. وقد شرع الأباطرة التّالُون والأساقفة والقدّيسون والأعيان في تأسيس بيوت للغرباء

= inscription palmyrénienne,» *Listy Filologické* 58 (1931) 2, 15; M. Rostovtzeff, «Les Inscriptions caravanières de Palmyre,» in *Mélanges Gustave Glotz* (Paris: Les Presses Universitaires de France, 1932) II, 793-811.

(87) E. L. Sukenik, *Ancient Synagogues in Palestine and Greece* (London: British Academy, 1934) 69-70. Also L. Levine, *The Ancient Synagogue. The First Thousand Years* (New Haven: Yale University Press, 2000) 55. كان معهوداً أن يكون للبيعة اليهودية بيت للضيوف سواء في العصور القديمة أو في العصر الوسيط، انظر: Erwin R. Goodenough, *Jewish Symbols in the Greco-Roman Period*, I: *The Archeological Evidence from Palestine* (Princeton: Princeton University Press, 1953) 213; J. Ben Zevi, "A Third Century Aramaic Inscription in Er. Rāma," *Journal of the Palestine Oriental Society* 13 (1933) 95; S. D. Goitein, *A Mediterranean Society. The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza*, II, (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1971) 153-154.

بمحاذاة الأديرة والكنائس والمواقع المقدّسة وغيرها من المواقع الأُخرى لإيواء المسيحيين بصورة حصرية[88].

(88) ومن بين أمثلة كثيرة، فقد بنى جستنيان وثيودورا بيتاً في القُسطنطينية لإيواء الفُقراء المسافرين. وأسّس غريغوري باكوريانوس [Gregory Pakourianos] ثلاثة بيوت لاستقبال الغرباء في ديره بيتريتزوس ([Petritzos] *(Oxford Dictionary of Byzantium,* ed. Alexander. Kazhdan et al. [New York: Oxford University Press, 1991] III 1644, 2208)؛ وقد شيد إبراهام دي بات رَبّان المشرف على مدرسة النساطرة في نِصّيبين كسينودوكيون [*xenodocheion*] هناك حوالى سنة 510م (Arthur Vööbus, *History of the School of Nisibis* [Louvain: Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium, 1965] 146). وفي سيرة يوحنا المُزَكّي التي تعود إلى القرن السابع هناك ذكر لتأسيسه لـ كسينودوكيون [*xenodocheion*] (H. Delahaye, "Une Vie inédite de Saint Jean l'Aumonier" *Analecta Bollandiana* 45 [1927] 22; Dawes and Baynes, *Three Byzantines Saints,* 202, 213-214, 234; part II, chap. 7). وفي مثال نادر لمؤسّسة تجارية، فقد بنى الإمبراطور رومانوس الأوّل لكابينوس (920-944) [Romanos I Lecapenus] كسينودوكيون في القُسطنطينية لاستقبال الضيوف الذين يأتون إلى العاصمة للقيام ببعض المُعاملات الاقتصادية أو الشؤون القضائية (*Oxford Dictionary of Byzantium,* 2208). لقد ألهم موضوعُ الكسينودوكيونات البيزنطية وموضوعُ الغرباء العديدَ من الدارسين فيما يتعلّق بموضوع الإحسان وتاريخ الطبّ فقد خصّص ديمتريوس كنستنتيلوس [Demetrios Constantelos] فصلاً لدراسة هذه المؤسّسات في كتابه حول *Byzantine Philanthropy and Social Welfare* (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1968) وقام جانان بجردها ضمن كتابه R. Janin *La Géographie ecclésiastique de l'empire Byzantine: Première partie, Le Siège de Constantinople et le patriarcat oecuménique,* III (Paris: Institut français d'études byzantines, 1969) 557-563. توجد دراسة خاصّة بالغريب في بيزنطة في مقال Timothy Miller "The Samson Hospital in Constantinople" *Byzantinische Forschungen* 15 (1990) 101-135؛ وكذلك خُصّصت في فصول هامّة من كتاب ميللر لهذا الموضوع Miller *The Birth of the Hospital in the Byzantine Empire* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1985). انظر كذلك C. Cupane and E. Kislinger, "Xenon und Xenodocheion im spätbyzantinischen Roman," *Jahrbuch der österreichischen Byzantinisti* 36 (1986) 201-206; E. Kislinger, "Kaiser Julian und die (christlichen) Xenodocheia," *Byzantios: Festschrift für Herbert Hunger zum 70. Geburtstag,* ed. Wolfram Hörandner (Vienna: Ernest Becvar, 1984) 171-184; Geneviève Husson, "L'Hospitalité dans le papyrus byzantins" *Akten des XIII,* =

يعبّر هذا التزايد في تمويل مضائف الغرباء عن تحوّل عامّ على مستوى الرعاية بعيداً عن الأبنية المدنية إلى مشاريع خيرية ودينية بدءاً من القرن الرابع[89].

لقد تخصّصت هذه المؤسّسات خلال القرن السادس في إيواء المرضى وبذلك تحوَّلت إلى مستشفيات. وقد كان البعض منها متّسعاً في حين كان البعض الآخر صغيراً، بعضها كان حديث عهد بالبناء والبعض الآخر قد تمّ تحويل نشاطه القديم مثلما هو الشأن في القُسطنطينية حيث قام الإمبراطور ليون الثالث (717-741) بتحويل ماخور إلى هذه المهامّ الجديدة[90]. وربما أراد ليون الثالث أو المصدر الذي تحدّث عن ذلك وهو سيميون الماجيستر «Symeon Magister» أن يؤكّد على مسألة هامّة وهي أنّ مثل هذه المؤسّسات ـ على عكس البَنْدوكيونات ـ قلّما كانت مرتبطة بالدَّعارة. ويبدو هذا التمايُز في أهداف هذه المؤسّسات بين ما هو ديني وما هو دنيويّ واضحاً في المصادر السّريانيّة المعاصرة. فقد وصف يوشع العمودي في تاريخه في بداية القرن السادس، مثلاً، الطاعون والمجاعة اللذين حلّا بمدينة الرُّها سنة 500م، وبَيَّن من خلال ذلك

= *Internationalen Papyrologenkongresses (Marburg/Lahn, 2-6 August, 1971)*, ed. E. Kiessling H. A. Rupprecht (Munich: C. H. Beck'sche Verlagsbuchhandlung, 1974) 169-177; Nigel Allen, «Hospice to Hospital in the Near East: An Instance of Continuity and Change in Late Antiquity,» *Bulletin of the History of Medicine* 64 (1990) 446-462; Judith Herrin, "Ideals of Charity, Realities of Welfare: The Philanthropic Activity of the Byzantine Church," in *Church and People in Byzantium: Society for the Promotion of Byzantine Studies Twentieth Spring Symposium of Byzantine Studies, Manchester, 1986*, ed. Rosemary Morris (Birmingham University of Birmingham Press, 1990) 151-164. أشكر فيفيان نوتون [Vivian Nutton] لسماحها لي بقراءة فصل من كتابها الذي سيصدر لاحقاً حول جنديشابور.

(89) Foote, "Umayyad Markets," 156, 163. حول الأفكار المبكّرة للمسيحية في الإحسان والضيافة انظر Rowan A. Greer, "Hospitality in the First five Centuries of the Church," *Monastic Studies* 10 (1974) 29-48.

(90) Symeon Magister, *Chronographia*, ed. I. Bekker (Bonn: Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, 1838) 645; also Constantelos, *Byzantine Philanthropy*, 196.

الفارق بين مضائف الغرباء المرتبطة بالمؤسّسة الكنسية حيث يجد المرضى والمحتضرون ما يجب من العناية في حين كان الناس يقضون من المرض في المؤسّسات الدنيوية[91].

كما أنه يمكن الإشارة إلى قلّة استعمال لفظة بَنْدوكيون في اللُّغة اللاتينية في حين انتشرت لفظة كسينودوكيون بسرعة في أوروبا في العصر الوسيط[92]. فقد ظهرت هذه المؤسّسات الخَيْرية في إيطاليا وإسبانيا وفرنسا حيث كانت مرتبطة بإقامة الرهبان. فقد أشار جيروم «Jerome» إلى مثل هذه المؤسّسات في أوستيا «Ostia» خلال القرن الخامس ومن هنا أصبحت هذه المؤسّسة شائعة في إيطاليا كلها خلال القرون الثامن والتاسع والعاشر[93]. ويقال إن الأُسْقُف ماسونا، أُسْقُف ماردة في إسبانيا الفيزيقوطية، قد أنشأ كسينودوكيون وأدمج معاصره إيزيدور الإشبيلي (560-636) هذه اللفظة بشكليها اليوناني واللاتينيّ في كتابه الأصول ليعبِّر بها عن إقامة الحَجيج والفُقراء[94].

(91) *The Chronicle of Joshua the Stylite, Composed in Syriac AD 507*, trans. William Wright (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 1882) 32-33.

(92) إن الكلمات اللاتينية الشبيهة قليلة. فقد ذكر إيزيدور الإشبيلي لفظة بندوكس [*pandox*] في قاموسه رابطاً ذلك بالشرب أكثر منه بالسكن وهناك كلمات شبيهة تظهر في *Vitae Patrun* (*Pandochium* للفندق and *Pandox* للفندقي) (*PL*, LXXIII, col. 691-692) and in undated *vitae* of the seventh-century Northumbrian St. Oswin (*AASS* [1867] August III, 772, col. 2). وقد ارتبطت هذه اللفظة في أواخر العصر الوسيط بالحانات ومحلّات تناول المشروبات (Charles Du Cange, *Glossarium mediae et infimae latinitatis* [Paris: Librairie des Science et des Arts, 1938] VI, 127). وقد ذكر الحاجّ الألماني فيلكس فابري في القرن الخامس عشر لفظة بندوكيوم لوصف محلّات للإقامة غير اللائقة كان قد وجدها في مدينة يافا وفي جزيرة كورفو [Corfu] (*Evagatorium in terrae sanctae*, III, 348 [193a]).

(93) St. Jerome, *Sancti Eusebii Hieronymi Epistulae*, ed. I. Hilberg, Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum 54-56 (Vienna: F. Tempsky, 1910; repr. 1996) LXVI. II, 661. On later *xenodocheions* in medieval Italy, see Thomas Szabó, "Xenodochia, Hospitäler und Herbergen - Kirchliche und kommerzielle Gastung im mittelaterlichen Italien (7. bis 14. Jahrhundert)," in *Gastfreundschaft, Taverne und Gasthaus im Mittelalter*, ed. Hans Conrad Peyer (Munich and Vienna: R. Oldenbourg Verlag, 1983) 61-92.

(94) Juan Uria Riu, «La hospitalidad con los peregrinos y el hospedaje,» in *Las* =

وقد كانت هذه العبارة معروفة في غاليا الكارولنجية من خلال مجموعة من الوثائق المحفوظة في دير القدّيس غال «St. Gall» راجعة للقرن التاسع وهي تضمّ قاموساً لاتينيّاً يونانيّاً فيه جُمْلة من المصطلحات الخَيْريّة منها كلمة كسينودوكيون إلى جانب خمس كلمات أُخرى تتعلّق بالمستشفيات وبيوت المسنّين واليتامى(95).

وقد وجدت كلمة كسينودوكيون طريقها إلى اللُّغة اللاتينية ولكن لم يكن لها متآصل (نظير) Cognate في اللُّغة العربية. وكان لكلٍّ من كلمتَي بَنْدوكيون وكسينودوكيون في العصور القديمة المتأخّرة مسار مختلف واحدة ذات إطار إسلاميّ والأخرى ذات إطار مسيحيّ (أوروبي وبيزنطي معاً) وهو ما يثير مسألة من المسائل المحيّرة في مستوى الربط بين الوظيفة والمعتقد وفي مستوى التفاعل الثقافي.

لو عبّرنا عن هذا في أبسط شكل لقُلنا إنّ المؤسّسات التجارية والدنيوية هي أكثر قُدرةً على عبور الحدود التي خلقتها المُعتقدات من المؤسّسات التي تحمل مقداراً أكبر من التكافؤ الديني.

ولئن انتقلت كلمة بَنْدوكيون بطابعها الكوني بسهولة من الوثنية إلى اليهودية ثم إلى المسيحية ثم إلى الإسلام، فإن كلمة كسينودوكيون بثقلها المسيحيّ لم تستطع أن تنتقل إلى عالم الإسلام.

إنّ سياسة الباب المفتوح التي انتهجها البَنْدوكيون (فهو يستقبل كلّ الوافدين) كانت عاملاً هامّاً في تسهيل انتقال هذه المؤسّسة إلى عالم الإسلام بعد القرن السابع. إذ وفّرت هذه المؤسّسات منذ العهود القديمة الإقامة لكلّ الناس من مختلف الديانات وعلى اختلاف مستوياتهم، شريطة أن يدفعوا بدل الإقامة.

= *Peregrinaciones a Santiago de Compostela,* ed. L. Vásquez de Parga, J. M. Lacarra, and J. Uría Riu (Madrid : Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1948) I, 284 ; Isidore of Seville, *Etymologies,* ed. W. M. Lindsay (Oxford : Clarendon Press, 1911) XV, 3, 13.

(95) Bernice M. Kaczynski, «Some St. Gall Glosses on Greek Philanthropic Nomenclature," *Speculum* 58 (1983) 1010-1011.

لا تحتوي هذه القائمة على لفظة بَنْدوكيون، سواء أكانت العبارة معروفة أم لا، وذلك ربما لأنها لم تكن مؤسّسة خَيْرية.

وقد كان المسلمون الأوائل، على تعدّد خلفيّاتهم، يألفون البَنْدوكيون ولو أنهم الآن قد استُثنوا من مؤسّسة الكسينودوكيون بمفهومها المسيحيّ الضيّق.

في الختام يبدو جليّاً أنّ البَنْدوكيون كان من المؤسّسات عالية القيمة الوظيفية ومن المؤسّسات المتغيّرة الأشكال في العهود القديمة المتأخّرة من تاريخ الشرق الأوسط. فقد كان مألوفاً لدى الوثنيين والمسيحيين واليهود حيث تذكر هذه المؤسّسات بكثرة في لغات عديدة وفي ظروف متعدّدة لتعبّر ليس عن خصائص واقع حقيقي وحسب ولكن أيضاً عن تبنّيها كصُوَر مجازية مشتركة تهمّ الحقول الأخلاقية والدينية في عصرها وفي مجالها. ومع مرور الزمن أصبح وجود هذه المؤسّسة نادراً في بيزنطة في العصر الوسيط، نظراً لميل الناس لتقديم الهِبات إلى المؤسّسات الدينية والخَيْرية التي تمثّلها مؤسّسة الكسينودوكيون.

في الوقت نفسه برز الفُنْدُق في العالم الإسلاميّ المبكّر خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، وبسرعة انتشر عبر المتوسّط الناطق بالعربية. وقد حافظت هذه المؤسّسة على كثير من الخصائص القديمة ولو أنها تختلف عن البَنْدوكيون في بعض من معانيه الهامّة.

وتظلّ نقاط التشابه ونقاط الاختلاف بين البَنْدوكيون والفُنْدُق من المسائل الأساسية في إطار انتقال المؤسّسات وصيرورة تبنّيها عبر الحدود الثقافية في عالم المتوسّط في العصر الوسيط. ويمكن الإجابة عن هذه المسألة بالعودة إلى فترة الإسلام الأولى في الفصل التالي عبر المؤشّرات الأولى التي يمكن أن تسلّط الضوء على تطوّر هذه المؤسّسة العربية الجديدة.

الفصل الثاني

الانتقال من بيزنطة إلى دار الإسلام(*)

لمّا أصبحت المُدُن البيزنطية الموجودة في الشرق الأدنى تحت سُلطة المسلمين، انصهر العديد من هياكلها العُمْرانية ومؤسّساتها بما في ذلك البَنْدوكيون في الإطار الإسلاميّ الجديد. فكان الكثير من الخصائص العُمْرانية والإدارية الحضرية الإسلامية مبنيّاً على النماذج البيزنطية التي تطورت لملاءمتها مع المُحيط الإسلاميّ. فاتّبع الخلفاء الأمويّون ووُلاتُهم برنامجاً إصلاحيّاً تمّ فيه إدماج هذه المؤسّسات القديمة واستحداث مؤسّسات جديدة. فقد اعتمدوا في البداية المؤسّسات الإدارية والجبائية البيزنطية التي كانت موجودة في مصر والشام ثم قاموا بصورة تدريجية بتغييرات مع تواصل عملية بناء الدولة.

بدأ هذا التحوّل مع بداية القرن الثامن من خلال مشروع طموح شمل العُمْران والجباية والنقود وبعض الإحداثات الأُخرى في المجالين الاقتصادي والإداري خاصّة في عهدي الخليفتين الأمويّين عبد الملك (685-705) وهشام (724-743). وقد نشأت، مع الوقت، لغة مؤسّسية عربية تستعمل مصطلحات قديمة ومألوفة للبِنى الإسلامية التي وإن كانت تشبه ظاهريّاً الأشكال القديمة إلّا أنها في الحقيقة لم تُعِد إنتاجها.

وقد كانت كلمة فُنْدُق التي ظهرت في القرن التاسع من بين هذه المؤسّسات العديدة التي تمّ تبنّيها من خلال النموذج اليوناني القديم وتمّت ملاءمتها مع

(*) لقد قُدّم هذا العمل في جوهره ضمن أعمال ندوة الإسلام المُبَكّر التي تشرف عليها باتريسيا كرون في معهد الدراسات المتقدمة بجامعة برنستون. وإني لشاكرة للاقتراحات والتعليقات التي قدّمها لي المشاركون في تلك الندوة.

الأوضاع الجديدة. وتشترك هذه الأنزال (جمع نُزُل) مع البَنْدوكيون في العديد من الخصائص الوظيفية مثلما هو الشأن بالنسبة إلى التسمية ولكنّها عرفت في الوقت نفسه تطوّرها الخاصّ. فقد ظلّ الفُنْدُق يتطوّر عبر الزمن تماشياً مع متطلبات العصر والمكان ومحافظاً في الوقت نفسه على التسمية وبعض الوظائف الأساسية. فقد عرفت هذه المؤسّسة طوال العصر الوسيط جُمْلة من الخصائص التي ميَّزتها عن سابقيها: البَنْدوكيون اليوناني والبوتقا السّرياني والبُنْداق العبريّ كما ميَّزتها عن لاحقيها مثل الفُنْداكس اليوناني والفُنديكوم اللاتينيّ والفُنداكو باللُّغة الرومانية الوسيطة.

سنحاول في هذا الفصل استجلاء التطوّرات الأولى للفُنْدُق كمؤسّسة إسلامية والقيام بمسح للأدلّة المتعلّقة بانتقال التسمية والمؤسّسة من مناخ بيزنطيّ إلى مناخ إسلاميّ. لن يجزم فقط، ونهائيّاً، بأن كلمة فُنْدُق هي ترجمة لكلمة بَنْدوكيون استخدمها الكُتّاب الأوائل الذين نقلوا النصوص اليونانية إلى اللُّغة العربية، ولكن ستتفحّص كيف حافظت المؤسّسة الإسلامية الجديدة على الوظائف القديمة رغم أنها أصبحت تضطلع بدور جديد. فقد وجد الفُنْدُق في الإطار الإسلاميّ مكانه اللائق في شبكة مؤسّسيّة متطوّرة من الأنزال (جمع نُزُل) والمستشفيات والمراكز الإدارية والفضاءات التجارية. إنّ مقارنةً بسيطةً بين البَنْدوكيون والكسينودوكيون تُبرز الفارق بين وظائفهما وهو الشيء نفسه بالنسبة إلى الفُنْدُق مقارنة بما شابهه من المؤسّسات العربية الجديدة (الخان والرِّباط والوكالة وغيرها) وهو ما يبيّن نقاط الاختلاف ونقاط التداخل بين هذه المؤسّسات. وسنبحث في آخر الفصل في المؤسّسات ذات القرابة في العهود المتأخّرة مثل مؤسّسة الفُنْداكس «foundax» (φούνδαξ) اليونانية التي عاد البيزنطيون وتبنّوها من العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر.

يمكن بالنظر إلى عمليّات الانتقال هذه من الدولة البيزنطية وإليها ومن العالم الإسلاميّ وإليه، أن نلاحظ اشتراكاً في المصالح وترابطاً تجارياً وقُدرة على التأقلُم والرغبة في الخلق في كلا الثقافتين. وفي الوقت نفسه تبيّن التحوّلات الوظيفية الواضحة لمؤسّستَي الفُنْدُق والفُنْداكس كيف ولماذا تستطيع بعض المميّزات الخاصّة للمؤسّسات أن تندمج في إطار مختلف عن البيئة الأصلية التي نشأت فيها.

ومَثَلُه مثلُ البَنْدوكيون، كان الفُنْدُق مكاناً لإقامة المسافرين، ولكن أصبح للفُنْدُق دور اقتصادي واجتماعي في الثقافة الإسلامية. وعلى عكس النماذج السابقة أصبح الفُنْدُق، علاوة على كونه مكاناً لإقامة الرحّالة، مخزناً للسلع وفضاء للتِّجارة وعقد الصفقات وكذلك مركزاً جبائيّاً للدولة. وتُعَرِّف المصادر العربية الوسيطة الفَنادق "كفضاءات مهيّأة لممارسة النشاط التجاري ولإقامة الرحّالة والأجانب وغيرهم"[1] وكانت التِّجارة من التطوّرات الهامّة في دور هذه المؤسّسة وهي تعكس الحاجِيّات الجِبائيّة الجديدة والمصالح الاقتصادية المتزايدة للدولتين الأموية والعباسية. يمكن أن تكون الفَنادق بموجب طاقتها الاقتصادية موضوع تنظيم رسمي كما كانت مرتبطة بنوعيّة معيّنة من التجار ومن الأنشطة التجارية. وقد تكون خاصّيّة الفَنادق التجارية قد دخلت بلاد الشام ومصر من الجناح الشرقيّ للعالم الإسلاميّ[2].

أصبحت الفَنادق في الوقت نفسه أداةً للإحسان في العالم الإسلاميّ الوسيط. فقد كان الكثير منها وقفاً من أجل توفير مداخيل لمؤسّسات ساميّة الأهداف. وقد كانت الفَنادق وغيرها من المؤسّسات المعدّة للإيواء من إنشاء أناس يتمتّعون بالثروة والجاه خاصّة من الحكّام والأمراء الذين رأوا فيها أدوات لفعل الخير وتحصيل الأرباح وكذلك وسائل دعاية. وتبدو الخصائص الدينية والخَيْرية للفَنادق أكثر جلاءً ممّا كان للبَنْدوكيون في العصر المسيحيّ القديم المتأخّر لأنّ مثل هذه الخصائص كانت مرتبطة بمؤسّسة الكسينودوكيون. ولا يعني

(1) Ibn Abī Zar‘, *Kitāb al-anīs al-muṭrib rawḍ al-qirṭās fi akhbār muluk al-maghrib wa ta'rīkh madīna al-fās (Annales regum Mauritaniae a conditio Idrisidarum imperio ad annum fugae 729)*, ed. C. J. Tornberg (Uppsala: Litteris academicis, 1843-1835). Arabic text, 26; H. Mones (ed.), "Waṣf al-jadīd li-Qurṭuba al-islamiyya," *Ma'had al-dirasāt al-islamiyya* (Madrid) 13 (1965-66) 170.

(2) M. Kervran, «Caravansérails du delta de l'Indus. Réflexions sur l'origine du Caravansérail islamique,» *Archéologie Islamique 8-9* (1999) 143-176..

حول النموّ الاقتصادي والتوجّه التجاري الجديد في عهد الأمويين، انظر:

Alan Walmsley, "Production, Exchange, and Regional Trade in the Islamic East Mediterranean: Old Structures, New Systems?" in *The Long Eighth Century*, ed. Inge L. Hansen and Chris Wickham (Leiden: E. J. Brill, 2000) 265-343.

ذلك أنّ كلّ فُنْدُق كان يلعب دوراً دينيّاً وتجارياً في الوقت نفسه بل كان هناك مجال لاختلافات كبيرة عبر العالم الإسلاميّ.

إلّا أنّ المزج بين الوظيفتين قد كان السِّمة الأساسية للفُنْدُق في العالم الإسلاميّ في العصر الوسيط من دمشق إلى قُرْطبة.

لقد أصبحت الفَنادق منتشرةً عبر المتوسّط الإسلاميّ خلال القرن العاشر فورد ذكرها في كتب الجغرافيا وفي الروايات التاريخية وفي النصوص التشريعية التي ظهرت في المشرق وبلغت الأندلس. فأصبحت الفَنادق من المواد الراسخة في كتب الجغرافيا لوصف ازدهار المُدُن إلى جانب العديد من المظاهر العُمْرانية الأخرى مثل الحمّامات والمساجد والأسواق. فأصبح حديث الجغرافيّين في النصف الثاني من القرن العاشر عن الفَنادق في أكثر المُدُن من الأمور الطبيعية سواء في المشرق أو في المغرب. فقد ذكر ابن حَوْقَل مثلاً عند وصفه لمدينة سُوسة التونسية أنها ميناء وفيها أسواق وفَنادق وحمّامات كما ذكر أنّ مدينة حلب ببلاد الشام هي أيضاً تحتوي على أسواق جيّدة وحمّامات والعديد من الفَنادق. وذكر الشيء نفسه بالنسبة إلى قُرطبة والمَوْصِل وكثير من المُدُن الصغيرة الحجم في الأندلس وشمال إفريقيا ومصر والشام والعراق وخُراسان[3]. وعلى عكس ذلك تقع الإشارة كلّما كان هناك نقص في مثل هذه المؤسّسات مثل الحمّامات أو الفَنادق لإيواء المسافرين والتجار[4].

إنه لمن الواضح أنّ الفُنْدُق قد أصبح مندمجاً تماماً في العمارة الإسلامية خلال القرن العاشر، إلا أنه لا يوجد استعمال معروف للكلمة قبل القرن التاسع.

قد ترتّبت على هذه الفجوة التي تمتدّ مائتي سنة بين فتح الشام البيزنطيّ وظهور كلمة الفُنْدُق، صعوبة في إثبات العلاقة اللُّغوية والوظيفية بين الفُنْدُق والبَنْدوكيون. ليس هناك في النصوص المبكّرة ما يُشير إلى تحويل فُنْدُق بيزنطيّ

(3) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، تحقيق، دي غويه (M. J. de Goeje, *Bibliotheca geographorum arabicorum II* ([1873]) Leiden: E. J. Brill, 1967). الجزء الثاني، سوسة (73)، حلب (177)، الموصل (210)، قُرْطبة (111)، انظر كذلك ص138، 140، 224.

(4) نفسه، ص15.

إلى مؤسّسة إسلامية أو إلى وجود أثر ماديّ لمؤسّسة موجودة تعرّضت لهذا التحوّل.

رغم ذلك قد كانت البَنْدوكيونات مزدهرة في المُدُن البيزنطية في منطقة الشرق الأوسط إلى حدود الفتح الإسلاميّ وتُبرهن الكتابات السّريانيّة والعبريّة على وجود كلمات متآصلة منتشرة في سياق ساميّ معاصر. ويظلّ الإشكال قائماً في اكتشاف علاقة متينة بين الكلمتين اليونانية والعربية واستعمالهما في بداية العصر الوسيط. ولا يمكن اعتماد التحليل المقارن لأنه لا يوفّر ما من شأنه أن يزيد على مجرّد التطوّر الموازي للمؤسّستين إلّا إذا كان من الممكن أن نجد في نهاية المطاف علاقةً ما بين البَنْدوكيون والفُنْدُق. هل من الممكن أن لا تكون للكلمتين علاقة في الواقع؟

فالثغرات الواضحة في المعلومات والوظيفة وتاريخ الكلمة تركت مجالاً للشكّ في اشتقاق كلمة فُنْدُق من كلمة بَنْدوكيون. إلى اليوم ليس هناك سوى بعض التشابه التقنيّ الذي قد يربط بين الكلمتين، مع حقيقة أن الجذر الرُّباعي ف ـ ن ـ د ـ ق ليس من أصل ساميّ.

هناك اتفاق عامّ على أن للكلمتين علاقة ولو أن بعض الباحثين قد أبدى تحفّظات حول ذلك. فمثلاً يشير كلود كاهِن إلى أنّ الفُنْدُق رُبّما ينحدر من البَنْدوكيون[5]. وعبَّر البعض الآخر عن تشكيكه في ذلك بشدّة وبحثوا عن إرث لغوي في كلمات يونانية أُخرى، من بينها بُونتيكوس وفُنْداكس[6]. وحتى الذين

(5) Claude Cahen, *L'Islam des origines au début de l'empire ottoman* (Paris: Bordas, 1970) 138.

(6) لقد ربطت هيلان أرفايلر [Heléné Ahrweiler] بين لفظة فُنْدُق واللفظة اليونانية بونتيكوس [*pontikos*/ (ποντικός)] ونشاط المُدُن الميناثية ("Encore à propos du funduq," *Itinéraires d'orient: hommage à Claude Cahen, Res Orientales* 6 [1994] 195-196)، بالرّغم من أن المؤسّسة الإسلامية كثيراً ما وُجدت في المُدُن الداخلية وفي علاقة بالتّجارة البرّيّة. وعلى عكس ذلك اشتقّ ديديه غازاغنادو [Didier Gazagnadou] اللفظة من لفظة فُنْداكس [*foundax*] اليونانية ("Une Précision sur l'origine du mot arabe funduk," *Studia Islamica* 64 [1986] 165-167).

انظر مناقشة الفُنْداكس في آخر هذا الفصل.

يقبلون العلاقة بين فُنْدُق وبَنْدوكيون قد عبّروا عن قلقهم تجاه هذه الفجوة في المصادر.

وكما عبَّر جان سوفاجيه «Jean Sauvaget» حيث كتب "إنّ ما بين مؤسّسات البَنْدوكيون البيزنطية والخانات فجوةً تاريخيةً عميقة"(7).

وكما تبيَّن، فهناك نَصّان على الأقلّ يؤكّدان وجود علاقة بين البَنْدوكيون والفُنْدُق في ذهنية من كان يكتب باللُّغة العربية خلال القرن التاسع. وبدون التقليل من احتمال تطوّر المؤسّسة خلال القرنين السابع والثامن، يبيِّن هذان المثالان أن كُتّاب القرن التاسع كانوا يفهمون الفُنْدُق على أنه مكان يقيم فيه المسافرون ويعرفون جيّداً علاقته بالبَنْدوكيون.

فبالنسبة إلى المِثال الأوّل يجب أن نعود إلى مَثَل السامريّ الصالح. إذ تستعمل مخطوطات عربية لإنجيل لوقا من القرن التاسع كلمة فُنْدُق وصاحب الفُنْدُق للتعبير عن النُّزُل (pandocheion) والقيّم عليه (pandocheus) ذواتَي الأصل اليوناني. وهو ما يُوجِد رابطاً بين الكلمتين(8).

يوجد على إحدى المخطوطات في آخر متن الكتاب (صفحة الغلاف) جملة تقول بأنه من نَسْخ إسطفان الرَّمْلي سنة 284 من تاريخ العرب (896 ميلادي)(9).

هذا النصّ المهمّ هو الآخِر في سلسلة من نصوص الأناجيل باللُّغة العربية

---

(7) J. Sauvaget, "Caravansérails syriens du Moyen-Âge,» *Ars Islamica* 7 (1940) 19.

(8) تكشف دراسة الفصل المعبّر من إنجيل لوقا في هذين المخطوطين (MS 72, fol. 73t , II 16-18 and MS 74, fol. 1441, II 13-16) أن السامريّ الصالح وجد المسافر الجريح "فأقبل به إلى الفُنْدُق وحرص عليه، ومن الغد فيما هو خارج أخْرَجَ دينارين وأعطى لصاحب الفُنْدُق وقال له أحْرِص عليه". إن اختيار الفُنْدُق كان اختياراً متعمَّداً وخاصّاً، فقد تمّت ترجمة الفُنْدُق ببيت لحم بمنزل وليس بفُنْدُق (*katalyma*, Luke 2:7). شكري إلى سيدني غريفيث [Sidney Griffith] لمساعدته على قراءة هذا النص. تمّ تصوير هذا النصّ وغيره من قبل عزيز عطية: *The Arabic Manuscripts of Mt. Sinai* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1955), ويمكن الرجوع إلى هذه النصوص على الميكروفيلم الموجود في مكتبة الكونغرس بواشنطن.

(9) توجد صورة لصفحة الغلاف في مقال Constance Padwick, "al-Ghazali and the Arabic Versions of the Gospels," *The Moslem World* 29 (1939) 134-135.

المحفوظة في دير جبل سيناء وقد يعود أقدمها إلى العقود الأولى من القرن التاسع. وتشير التحاليل اللُّغوية لنصوصها أنها من إنتاج أديرة الشام وفلسطين(10).

وتحملنا الحالة الثانية إلى مجموعة تفاسير الأحلام التي كتبها أرتيميدوروس دالديانوس «Artemidorus Daldianus» في القرن الثاني والتي تنبّأ فيها بأنّ المريض يموت لا محالة عندما يشاهد في نومه فُنْدُقاً أو صاحب فُنْدُق. وقد ترجم هذا الكتاب في القرن التاسع بالعراق حُنين بن إسحاق (808-873) الذي أصبح واحداً من أهمّ المترجمين من اللُّغة اليونانية إلى اللُّغة العربية. ومثله مثل إسطفان الرَّمْلي، ترجم حُنين بن إسحاق البَنْدوكيون بالفُنْدُق والمشرف عليه بصاحب الفُنْدُق وأضاف ثبتاً فسّر فيه أنّ الفَنادق هي مثل الخانات(11).

يبيّن كلا النصّين أن كلمتَي بَنْدوكيون وفُنْدُق كانتا تُفهمان في العهد العبّاسي

---

(10) Sidney H. Griffith, "The Gospel in Arabic: An Inquiry into its Appearance in the First Abbasid Century," *Oriens Christianus* 69 (1985) 126-127; Bruce Metzger, *The Early Versions of the New Testament* (Clarendon Press: Oxford, 1977) 257-267.
هناك نقاش مطوّل حول تعريب نصوص الأناجيل من اليونانية مباشرة أم من السريانيّة ويبدو اليوم أن الفكرة الأولى هي التي أصبحت مقبولة. وتؤكّد ترجمات عربية أُخرى للأناجيل العلاقة بين بَنْدوكيون [*pandocheion*] وفُنْدُق. ففي التوفيق بين الأناجيل الأربعة [*Diatessaron*] (الذي جمعه تاتيان بالإغريقية أو السريانيّة في منتصف القرن الثاني والذي لم يصل إلينا إلا من خلال الترجمات العربية في العصر الوسيط)، فإن النُّزُل [inn] في إنجيل لوقا (10: 30-35) تُرجم أيضاً بلفظة فُنْدُق. (P. Augustinus Ciasca, *Tatiani Evangeliorum Harmoniae Arabice* [Rome: Typographia Polyglotta, 1888] 131).
إن أقدم نسخة عربية لكتاب التوفيق بين الأناجيل الأربعة توجد ضمن مخطوط من القرن الثاني عشر مع أن هذا يمكن أن يحتوي على ترجمة تعود إلى القرون السابقة. وبما أن كتاب التوفيق يمثّل الرواية الأساسية لسيرة حياة المسيح قبل توحيد نصوص الأناجيل الأربعة في القرن الخامس فإن انتشاره المبكّر يمكن أن يؤكّد نقله المبكّر إلى اللُّغة العربية. انظر كذلك Metzger, *Early Versions of the New Testament*, 10-36. ومع أنّ كتاب التوفيق يستعمل لفظة فُنْدُق للتعبير عن البَنْدوكيون [*pandocheion*] فإنه يستعمل لفظة خاني أي صاحب الخان للتعبير عن البندوكايوس [*pandocheus*] ولا يمكن فهم الدوافع وراء اختيار الخاني عوضاً عن صاحب الفُنْدُق.

(11) Artemidorus, *Le Livre des songes. Traduit du grec en arabe par Ḥunayn b. Isḥāq*, ed. Toufic Fahd (Damascus: Institut français de Damas, 1964) 321-322.
أشكر ديمتري غوتاس [Dimitri Gutas] الذي لفت انتباهي إلى هذا الاستشهاد.

على أنهما الشيء نفسه على الأقلّ في الأوساط المسيحية التي تتكلّم العربية في فلسطين والشام والعراق. وقد فسّر سيدني غريفيث «Sidney Grifftith» الرغبة في وضع نسخة عربية للعهد الجديد بالإصلاحات الأولى للدولة الأموية والتعريب الذي قامت به في القرن الثامن، وهو ما يعني أنّ كلمة فُنْدُق ربّما كانت شائعة في ذلك الوقت[12]. ولعلّه من الأسلم أن نفترض أن الكلمة العربية كانت موجودة في البداية في الشام وفلسطين حيث كانت اللُّغة اليونانية لا تزال لغة الإدارة إلى حدود القرن الثامن. ومن المؤكّد أنّ اللُّغويين، فيما بعد، مثل الأزهري (ت980-981) وياقوت (ت1229) وابن منظور (ت1311-1312) كلهم نقلوا أن كلمة فُنْدُق قد نشأت بين أهل الشام[13].

بأيّ سرعة تمّ انتقال كلمة فُنْدُق في أرجاء العالم الإسلاميّ الفسيح؟ يشير مَسْرَد حُنين بن إسحاق إلى أن الكلمة كانت حديثة نسبيّاً في اللُّغة العربية في منتصف القرن التاسع (على الأقلّ في بغداد).

لكنّ بيانات أُخرى تشير إلى أنها انتشرت قبل ذلك الوقت وعلى نطاق واسع بحيث يمكن العثور عليها في عدد من المصادر الأوّلية ليس في فلسطين والشام وحسب ولكن كذلك في مصر وفي أقصى بلاد المغرب حيث ظهرت في فتوى تونسية في نهاية القرن التاسع[14]. تؤكّد هذه المصادر ليس على انتشار كلمة فُنْدُق وحسب ولكنها تبين أيضاً وظائف هذه المؤسّسة الإسلامية المبكّرة وعلاقاتها بالمؤسّسات الشبيهة والمعاصرة لها مثل الخانات.

وربّما كانت هناك علاقة بين الفُنْدُق والسُّلطة والإقامة والتّجارة والجباية طوال القرنين الإسلاميَّيْن الأوّلَيْن. يصف تاريخ بطارقة الإسكندرية وصول والٍ

(12) Griffith, «The Gospel in Arabic,» 160-161.

(13) الأزهري، تهذيب اللُّغة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966م، الجزء التاسع، ص412، ياقوت، معجم البلدان، الجزء الرابع، ص277؛ ابن منظور، لسان العرب، ـ دار صادر، بيروت، 1968، الجزء العاشر، ص313، انظر مناقشة ذلك فيما سيأتي.

(14) الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب، الرباط ـ وزارة الاوقاف، 1981م، الجزء السادس، ص426.

جديد إلى الفُسْطاط سنة 714 مرسلاً من قبل الخليفة الأمويّ الوليد (705-715) واسمه أُسامة. "فلما وصل التمس عَلامَ جميع الكُوَر وكتبها بالعربي" وكان مقيماً على فعله السوء وكان المسلمون والنصارى خائفين منه ثم تقدم أن لا يُؤوي أحدٌ غريباً في البِيَع أو في الفَنادق ... وكانوا خائفين منه وأطردوا من كان عندهم من الغرباء"[15]. فقد كان يُراد من هذا الكلام إبراز سوء أفعال الوالي حتى إنه لم يكن ليراعي تقاليد إقراء الغريب. ولكن في الوقت نفسه تُحيل هذه القصّة على تعقيد النظام الجبائي الأمويّ والتخطيط الاجتماعي الذي يهدف إلى مراقبة حركة التجار أو الناس الذين كانوا يتهرّبون من دفع الضرائب وكذلك إلى مركزة المباني التي يقيم بها التجار في الفُسْطاط ومن ذلك تدعيم مداخيل الدولة[16]. وقد ذكر في فترة لاحقة المؤرّخ المملوكي ابن دُقماق أنّ وُلاة مصر الأوائل من العرب كانوا يستعملون مبنى يُعرف بفُنْدُق ابن حَزْمة كمقرّ لإقامتهم الرسمية من سنة 641م إلى سنة 680م، وهنا أيضاً نجد الرابط بين المبنى والإدارة في مصر[17].

يبدو الارتباط بين إقامة الأجانب والمال والدولة واضحاً في الشام الأمويّ. فقد ذكر البَلاذُرِي (ت 892م) وهو مؤرّخ من القرن التاسع، أنّ الخليفة هشام بعد تجربة فاشلة في مصادرة بعض المطاحن والمستغَلّات الخاصّة في عكّا قرّر نقل تلك المنشآت الصناعية [الظاهر أنها بناء السفن] إلى صُور فأنشأ فيها فُنْدُقاً

(15) B. Evetts, "History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria (Agatho to Michael I)," *Patrologia Orientalis* (Paris) 5 (1910) 67-68.

إن تاريخ النصّ القُبطي مجهول ولكن قد يكون تمّ تجميعه في منتصف القرن الثامن. وقد تمت ترجمته إلى العربية في حدود سنة 1000 ولكنه وصل من خلال مخطوط متأخر، انظر: (Robert Hoyland, *seeing Islam as Others Saw it* [Princeton: Darwin Press, 1997] 446-448).

يمكن أن يكون استعمال الفُنْدُق في هذا الإطار من استعمالات القرن الحادي عشر. أشكر تشايس روبنسون [Chase Robinson] للفت انتباهي إلى هذا النصّ وغيره من النصوص الكثيرة الأخرى.

(16) قد تكون أفعال أسامة على علاقة بالمنافسة التجارية مع البيزنطيين، انظر:

Marius Canard, «Les Relations politiques et sociales entre Byzance et les Arabes,» *Dumbarton Oaks Papers* 18 (1964) 49.

(17) ابن دُقماق، كتاب الانتصار لواسطة عِقْد الأمصار، القاهرة، 1893م، طبعة ثانية بيروت 1966م، الجزء الرابع، ص40.

ومستغلّات تابعة للدولة[18]. يمكن أن تنطبق عبارة مُستَغَلّ على أيّ من أنواع المنشآت المربحة بما في ذلك المنازل والفَنادق والدكاكين التي بُنيت فوق أراضي الدولة ثم تمّ كراؤها لفائدة الخواصّ[19]. ومن المحتمل أنّ هذا الفُنْدُق قد تمّ كراؤه أيضاً أو ربّما كان يستعمل لإقامة صُنّاع السفن وغيرهم من العمّال الذين يشتغلون لفائدة الخليفة. هناك مصدر آخر يشير إلى أنّ عائلة بلا منزل كانت تسكن فُنْدُقاً بالموصل سنة 752م، وهذا يوحي كذلك بازدواجية الوظيفة أي السكن والنشاط الحِرَفي وربّما كذلك العمل الخَيْريّ، بما أن البناية كانت موجودة في سوق العَطّارين وتعرف بدار الحَوّاكين[20].

هناك كذلك مصدرٌ معاصر من شمال الشام يستعمل مفردة مستغَلّ المتعلّقة بالفَنْدقة. فقد ذكر مَحْبُوب المَنْبِجي أسْقُف الناحية الغربية من بلاد الشام وكان يكتب سنة 940م مبتدئاً من سنة 723م أنّ هشام اتخذ مستغَلّات كبيرة في أكثر المُدُن التي في سُلطاته والخانات والحوانيت والحُجَر والضِّياع والمزارع". ويذهب محبوب إلى أبعد من ذلك إذ يقول بأن هشام "هو أوّل من اتّخذ الضِّياعَ لنفسه من العرب" وهو ما يوحي بأنه كان ينظر إلى المستغَلّات على أنها مؤسّسات جديدة في بلاد الشام[21]. واشتكى في فترة لاحقة في بداية القرن

(18) البَلاذُري، كتاب فتوح البلدان، تحقيق دي غويه، ليدن-بريل، 1866م، ص117-118، ترجمه إلى الإنكليزية: P. K. Hitti, *The Origins of the Islamic State* (Beirut: Khayats, 1966) 181. هناك أمثلة عديدة أُخرى عن الدعم الرسمي لهذه المنشآت الخاصّة بالتّجارة والسكن في تلك الفترة. ففي عهد هشام بنى والي مَكّة (عم هشام) سوقاً جديدة وكبيرة في المدينة فيها دكاكين في الطابق السفلي وبيوت للسكن في الأعلى وبها أبواب تُغلق، ذُكر هذا في (Foote, "Umayyad Markets," 183.

(19) K. J. al-Duri, "Society and Economy of Iraq under the Seljuqs with special reference to Baghdad" (1055-1160 AD) Ph.D. dissertation (Philadelphia: University of Pennsylvania, 1971) 222. (مع تأكيد خاصّ على بغداد).

(20) الأزْدي، تاريخ الموصل، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1967م، ص135. توفي المؤلّف حوالى سنة 945. أشكر هيو كينيدي [Hugh Kennedy] على تنبيهي إلى هذا المثال وإلى المراجع الخاصّة بواسط التي توجد أسفله.

(21) محبوب المنبجي (أغابيوس) كتاب العنوان، تحقيق وترجمة فرنسية لفازيلياف، موسوعة تاريخ الآباء الشرقيين (*Patrologie orientale*) عدد 8، باريس، 1912م، ص505. =

التاسع سكّان كفر باية، إحدى القُرى الشامية التي توجد شمال أنطاكية، إلى الخليفة المأمون (813-833) ارتفاع ما يدفعونه من غَلّات أو كِراء لبيوتهم كما لو أنها خانات، فأسقطه عنهم[22].

ورغم أن جمع أكرية المباني التجارية والفَنادق يُعدّ من الإحداثات الأموية، فإنه من المُدهش أن العديد من النصوص تشير إلى وجود العديد من الفَنادق في المنطقة مثل صُور والموصل ومنبج وكفر باية حيث كانت توجد فيها البَنْدوكيونات بكثرة في العهد الرومانيّ المتأخّر. ويبدو أنّ العديد من الفَنادق والخانات هي تحويل لمؤسّسات الفُنْدُق التي كانت موجودة من قبل والتي احتفظت بوظيفة إسكان الأجانب مع خدمة أغراض جبائية جديدة.

ولكنّ الفَنادق ظهرت أيضاً في المُدُن المستحدثة في فلسطين مثل الرَّمْلة وكذلك في العراق. فقد أشار الدينَوَري (ت895م) إلى وجود فُنْدُق في مدينة واسط جنوب العراق ما بين 728م و737م، أي بعد عقدين من تأسيس المدينة[23]. ويدلّ وجود الفَنادق على قبول المؤسّسة كعنصر طبيعيّ في البنية الحضرية في تلك الفترة (أو على الأقلّ في عصر الدينَوَري). وبعيداً في الشرق يذكر المسعودي (ت 956م) أنّ والي طبرستان في عهد الخليفة المقتدر (908-929م) أمر لغاياتٍ جبائية بإحصاء جميع أسواق مدينة الريّ وأحيائها وإحصاء

= لاحظت رفقة فوت [Rebecca Foote] أن المُلكيات الحضرية كانت مُعفاة من الضرائب في القرن السادس وبداية القرن السابع مع أن الدكاكين كانت مُؤجرة من قبل الدولة. فيما كان بناء الدكاكين وملكيّتها من قبل الدولة البيزنطية نادراً. غير أن إشراف الدولة على بناء الأسواق وفرض الإيجارات على الأماكن التجارية أصبح على نطاق واسع في عهد هشام ("Umayyad Markets," 169, 176-177).

(22) البَلاذُري، كتاب فتوح البلدان، ص166 (ص257 من الترجمة الإنكليزية). يذكر البَلاذُري أنه في بغداد عندما بنى الخليفة العباسي المنصور (754-775) المدينة قد أحدث الأسواق وطلب من التُّجّار أن يبنوا الدكاكين وحمّلهم مسؤولية غَلّتها. وفي حين لا يشير مباشرة إلى الفَنادق، فإن هذا يدلّ على استمرار اعتماد الخزينة العباسية المبكرة على الإيجارات من المباني التجارية.

(23) الدينَوَري، الأخبار الطِّوال، دار الفكر، بيروت، 1988م، ص241. أُنشئت مدينة واسط سنة 705.

السكّان المسلمين وأهل الذمّة والتجار الأجانب والرحّالة الذين كانوا يقيمون بفَنادق المدينة وخاناتها[24]. يمكن أن يكون مثل هذا العمل من الإجراءات العادية لمسؤولين جدد في المنطقة وهي مثلها مثل ما فعله أحد وُلاة الوليد في مصر منذ قرنين سابقين. إنّ الوصف الذي يقدّمه المسعوديّ هو وصف هامّ لأنه لا يقدّم فقط العلاقة بين الفَنادق وسكن التجار وإنما كذلك يقدّم الفرق بين الفَنادق والخانات. وقد كتب ابن حوقل الشيء نفسه حيث ذكر وجود الفَنادق والخانات في الوقت نفسه في نيسابور[25]. وقد كان الحكّام المسلمون، من وقت مبكّر، يعتبرون إنشاء الفَنادق من مهامّهم الرسمية حتى ولو أن هذه الوظيفة مصوغة في خطاب يعبّر عن النيّات الدينية والسياسية والخَيْرية والاقتصادية. وقد كان تصوّرها مرتكزاً على الإرثين البيزنطيّ والساسانيّ مثلما هي مرتكزة على قواعد الإسلام. فقد كان إقراء الضيف من الفضائل التي تُقرّها مختلف الديانات السماوية وهو مرتبط كذلك بالنبيّ إبراهيم لأنه تصرّف كمضيف عند زيارة الملائكة له[26]. ويرى التشريع الإسلاميّ في إبراهيم المسلم الأوّل لأنه "أوّل من أقرى ضيفاً" كما أنه

(24) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص14، ترجمة وتحقيق C. B. de Meynard, Al-Mas'ūdī, *Les Prairies d'or*, (Paris: Imprimerie Nationale, 1877) IX, 14.

(25) ابن حَوْقَل، كتاب صورة الأرض، ص432–433.

(26) Genesis 18:1-16، القرآن، الحِجر 15 الآية 51 والذاريات 51 الآية 24. حسب التقاليد اليهودية فقد اهتزَّت مشاعر إبراهيم باستضافة الملائكة إلى حد أنه بنى فُنْدُقاً [بُنْداقاً] لأبناء السبيل (Babylonian Talmud, Soṭah, 10a; Midrash on Psalms, trans. William G. Braude [New Haven: Yale University Press, 1959] I, 205 [Psalm II0]; also *Midrash Tanhuma Yelammedenu*, trans. Samuel A. Berman [Hoboken, NJ: Ktav Publishing House, 1996] 70 [commentary on Genesis 9:20]). وقد واصل الكُتّاب المسيحيون الأوائل الربط بين إبراهيم والضيافة. فقد ذكر القديس بولس إحسان النبي في رسالته إلى العبرانيين (13: 2) مُلِحّاً على جمهوره بتذكّر الكَرَم كما لو أن البعض وهم ليسوا على علم بذلك قد استضافو الملائكة. والأفكار نفسها حول إبراهيم نجدها في شروح الأناجيل المتأخرة والأذكار المتعلّقة بالإحسان عند أمبروز الميلاني وأغسطين وغيرهم (St. Ambrose, *PL*, XIV, cols. 434-436; St. Augustine, *PL*, XXXIX, cols. 1743-1745). وقد أكّد الكاتب البيزنطي ثيودور المعلّم (أواخر القرن الثامن أو بداية القرن التاسع) على مزايا الإحسان" حتى أكْسَبَ بهذه الضيافة مودّةَ إبراهيم (*PG*, XCIX, col. 1792; trans. in Constantelos, *Byzantine Philanthropy*, 216).

المؤمن الأوّل الذي خُتِن[27]. كما أوْلى الحديث قيمة لفضيلة الكرم والأعمال العُموميّة حتى ولو أنّ المصادر متأخّرة . هناك رواية تمّ تدوينها في القرن الثاني عشر ومع نسبتها إلى أبي هُرَيرة (ت677م) تضع بناء المساجد وبيوت أبناء السبيل وتطهير القنوات من أعمال التقوى الواجبة على المؤمن[28]. وربّما كان الوزير السلجوقي، نِظام المُلك (ت 1092م) يستحضر هذا الحديث عندما كان يقول بأنه على الحاكم أن ينشئ مشاريع عُموميّة منها مدّ القنوات وبناء المدارس والجسور و"الرِّباطات (الفَنادق) على المسالك الكبرى. . . وهي ممّا يخلّد ذكره وممّا يجني حسناته في الدار الآخرة وبها تكون عليه الرحمة"[29].

كان تمويل الدولة للمؤسّسات العُموميّة سائداً منذ قرن من الزمن، فقد ذكرت النصوص أنّ الوالي البُويهيّ في غرب بلاد فارس، بدر بن حسنويه، قد "بنى في ولايته قبل وفاته سنة 1014م، ثلاثة آلاف مسجد وخان لإيواء الأجانب"[30]

(27) مالك بن أنَس، كتاب المُوَطّأ، منشورات مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1993م، الجزء الثاني، ص94.

(28) ذكر هذا الحديث الخطيب التبريزي (كان حيّاً بعد 1337م) في تعليقه على مجموعة حسين البغاوي (توفي 1117 أو 1122)، مِشْكاة المصابيح، تحقيق محمد الألباني، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، دمشق، 1961-1962، الجزء الاول، ص257، رقم 254. إن لفظة بيت المُعتادة تُعطي مصداقية لتاريخ قديم لهذا الحديث. وكما ستقع مناقشته فيما بعد فإن الفَنادق الإسلامية الأولى كانت تُسمَّى بيوتاً أو مبانيَ عوضاً عن اعتماد أسماء خاصّة مثل فُنْدُق أو خان.

(29) Niẓām al-Mulk, *Siyāsat-nama* (Tehran: Shirkat-i Intish ar at-i Ilm va Farhangi, 1994) 13; trans. H. Drake, *The book of Government or Rules for Kings* (London: Routledge & Kegan Paul, 1978) 10.

(30) ابن الجَوْزي، المُنتظَم، دائرة المعارف العثمانية، حيدرأباد، 1939م، الجزء السابع، ص272. هناك اختلاف حول معنى هذه الفقرة، فقد رأى جورج مَقْدِسي أن هذه المساجد والفَنادق تمثل مُجمَّعاً فيه "مسجد-خان" يمكن للطلبة أن يعيشوا فيه ويدرسوا (*The Rise of Colleges: Institutions of Learning in Islam and the West* [Edinburgh: Edinburgh University Press, 1981] 29-30). وقرأ رُوي مُتحدة [Roy Mottahedeh] هذه الفقرة على أنها تعني أن المساجد التي بُنيت والخانات ليست متلازمة بالضرورة ("Transmission of Learning: The Role of the Islamic Northeast," in *Madrasa, La Transmission du savoir dans le monde musulman*, ed. Nicole Grandin and Marc Garborieau [Paris: Editions Arguments, 1997] 65).

ومن قبل، خلال القرنين التاسع والعاشر، كان بعض وجهاء بُخارى قد مَوَّلوا إنشاء جسور ومساجد ورِباطات لصالح المسافرين المحتاجين(31).

ففي أيّ فترة بدأ الحكّام المسلمون يحبّسون الأموال لتوفير الموارد لبناء الفَنادق وغيرها من المنشآت العُموميّة الأُخرى؟ هناك بعض الإشارات التي تدلّ على أنّ مثل هذه الأعمال بدأت في نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن. فقد ذكر المؤرّخ ابن عبد الحَكَم (ت871م) داراً للضيافة بناها، في الفُسْطاط، عبد العزيز والي مصر وأخو الخليفة عبد الملك(32). وفي الاتجاه نفسه يورد الطبري رسالةً بعث بها الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى والي سَمَرْقَنْد سنة 719م يأمره فيها بـ"**أن اعمل خانات في بلادك فمن مرّ بك من المسلمين فأقروهم يوماً وليلة، وتعهّدوا دوابّهم، فمن كانت به علّة فأقروه يومين وليلتين فإن كان متقطعاً به فقوّوه بما يصل به إلى بلده**"(33).

وبدوره يُورد المَقْدِسيّ طُرْفةً فيها نقد للخليفة الوليد (705-715م) لإنفاقه كثيراً من الأموال لبناء مسجد دمشق الكبير عوضاً عن إنفاقها في ترميم الطُّرُقات وتشييد منشآت عُموميّة (ولعلّ الخانات هي المقصودة بذلك) وترميم الحصون بمناطق الثغور(34).

ومهما كان الأمر فالسؤال الذي يظلّ قائماً هو هل مثل هذه الروايات التي تعود إلى القرنين التاسع والعاشر تعكس حقيقة الأعمال الخَيْرية التي كان يقوم بها

(31) النَّرْشَخي، تاريخ بُخارى، ترجمة R. N. Frye (Cambridge, MA: Medieval Academy of America, 1954) 15, 18.

(32) ابن عبد الحَكَم، فتوح مصر، تحقيق ش. تورّي، منشورات جامعة يال، 1922م، ص133. C. Torrey (New Haven: Yale University Press, 1922).

(33) الطَّبَري، تاريخ الرُسُل والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995م، الجزء الرابع ص 69، انظر ترجمة D. S. Powers, *The History of Al-Ṭabarī* XXIV (Albany: State University of New York Press, 1989) 94.

(34) المَقْدِسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق دي غويه Bibliotheca geographorum Arabicorum III (Leiden: E. J. Brill, 1877; repr. 1967) 159. إن المشروع المقترح هو طرق ومصانع musān' وحصون. كان المُنتقِد قد أُخبر أن المساجد كانت أهم من المنشآت الأُخرى، أَنْزال (جمع نُزُل) R. Hillenbrand translates the second term *muṣān'* as "caravansarais" (*Islamic Architecture: Form, Function, and Meaning* [New York: Columbia University Press, 1994] 340).

الأمويّون أم هي تُعبِّر عن فهم، في فترة متأخّرة، لحقيقة الأعمال العُموميّة. من المؤكّد أن الكُتّاب المسلمين في العصر الوسيط الذين كانوا يكتبون عن البِدَع الدينية، لاحظوا أنّ إنشاء المؤسّسات الخَيْرية مثل الخانات لم يكن من مميّزات الفترة الإسلامية الأولى المعاصرة للرسول مُحمّد، ولكنّها كانت من التطوّرات التي ترتّبت عليها[35]. يبدو أنّ مثل هذه المُمارسات كانت ضمن عدد لا يُحصى من الإصلاحات والإنجازات وحركة التعمير الكثيفة التي كانت نشطة في ظلّ الحكم الأمويّ. ويبدو أنّ الحكّام المسلمين كانوا يفضّلون إنشاء الفَنادق على إنشاء الطُّرُقات. وكما بيّن ذلك ريتشارد بولييت «Richard Bulliet» فإنّ استثمارات الدولة في بناء الخانات والجسور تعادل من الناحية العملية مدّ الطُّرُقات في مجتمع لا يعرف العجلات[36].

وممّا لا شكّ فيه أن إنشاء الفَنادق قد تزايد خلال القرنين التاسع والعاشر في ظلّ الحكم العبّاسيّ ثم أصبح أمراً عاديّاً فيما بعد. ولم يكن هذا النشاط مقتصراً على الحكّام وإنما شمل الوُلاة والوجهاء الذين وهبوا أوقافاً وقاموا بأعمال لفائدة العُموم. وقد لاحظ ابن حَوْقَل في القرن العاشر في المناطق التي وصفها، أنّ وجهاء الناس قد أنشأوا أوقافاً تشتمل على أراضٍ زراعية وثروات حقيقية" مثل الفَنادق والدُّور الخاصّة والحمّامات والخانات"[37]. ويصف الرحّالة الفارسيّ ناصر خسرو، الذي كان يكتب حوالى سنة 1050م، التكيّات للمواطنين من كلّ الأمصار التي بناها الخلفاء العبّاسيون بمَكّة، وقد كان البعض منها قد خرب على عهده والبعض الآخر تمّت مصادرته" (وتشير هذه الملاحظة الأخيرة إلى أن هذه المؤسّسات كانت فيما مضى وَقْفاً)[38]. وقد كتب والي خُراسان عبد الله بن طاهر (828-945م) مثلما هو وارد في واحد من أقدم كتب "نصائح

(35) أبو شامة (عبد الرحمان) الباعث على إنكار البدع والحوادث، دار الراية، الرياض، 1990، ص95، السُبْكي (تاج الدين) طبقات الشافعية الكبرى، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، 1992م، الجزء الثامن، ص251.

(36) R. W. Bulliet, *The Camel and the Wheel* (Cambridge, MA: University Press, 1975) 228.

(37) ابن حَوْقَل، كتاب صورة الأرض، ص184.

(38) Nāṣer-e Khosraw, *Taḥlīl-i Safarnāmah*, (Tehran: Nashr-i Qatrah, 1992); trans. W. M. Thackston, *Nāṣer-e Khosraw's Book of Travels (Safarnāma)*, Persian Heritage Series IIIb (Albany: State University of New York Press, 1986) 69-70.

الملوك"، رسالة إلى ابنه يحثّه فيها على بناء الرِّباطات للمصلحة العامّة[39]. وفي سنة 877م قام أحد الوُلاة العبّاسيّين بدمشق بتخصيص فُنْدُق ليؤوي الحُجّاج في بلاد الشام، وفي الفترة نفسها تقريباً، أمر القائد العبّاسيّ بغا الصغير (ت 862م) ببناء فُنْدُق في منطقة الثغور بين أضَنة وطَرْسُوس ليس بعيداً عن فُنْدُق جديد هو الآخر[40]. ويبدو أن عدداً من الفَنادق كان قائماً في مناطق الثغور بين الشام (مناطق شمالي سوريا) والأناضول وبصورة خاصّة في المناطق التي كانت فيها البَنْدوكيونات منتشرة في الفترة القديمة المتأخّرة. وربّما كان البعض منها موجوداً منذ زمن بعيد في حين أن البعض الآخر كان حديث التأسيس. فقد ذكر الطبريّ فُنْدُقاً قرب طَرْسُوس يسمّى فُنْدُق الحسين كان الخليفة العبّاسيّ المعتضد قد توقّف به في طريق عودته إلى العراق من حملة عسكرية على الحدود البيزنطية سنة 900م[41]. ويدلّ اسم هذا الفُنْدُق على نشأته الإسلامية وقد يكون هو نفسه الفُنْدُق الذي أنشأه بغا الصغير وقد يكون واحداً من محطّات الاستراحة العديدة الموجودة بالمنطقة. وذهب الحسن المهلّبي، وهو جغرافيّ معاصر للطبريّ، بعيداً

---

(39) Hillenbrand, *Islamic Architecture*, 339-340.

(40) ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، دار الفكر، دمشق، 1984م، الجزء الرابع، ص31، ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، دمشق، 1988م، الجزء الأوّل، ص177، يذكر ابن العديم أن مصدره هو السَّرَخسي، (توفي سنة 899م). شكري لبول كوب [Paul Cobb] على هذه الإحالة.

(41) هناك موقع يبدو أنه قريب من طَرْسُوس بما أن الخليفة ذهب من فُنْدُق الحسين إلى إسكندرونة فأنطاكية فحلب فالرَّقّة ثم في اتجاه الشرق إلى العراق، الطبري، تاريخ، الجزء الخامس، ص635، والترجمة الإنكليزية (*History*, XXXVIII, trans., F. Rosenthal [Albany: State University of New York Press, 1985] 91). يمكن أن نناقش هل كان ذلك فعلاً فُنْدُقاً أم أنه مكان سُمّي على اسم فُنْدُق. إني قد أناقش كِلا الافتراضين فكثير من الأماكن تُسمّى فَنادق ظهرت في أعمال الجغرافيين خلال القرنين العاشر والحادي عشر وقد يكون البعض منها في الأصل فَنادق ريفية تأسّست حولها منشآت أخرى. فالبَكْري مثلاً (الكتاب المعروف بالمسالك والممالك، تحقيق دي سلان، باريس، 1965) يذكر فُنْدُق شَكّل بين تونس والقَيْرَوان، (ص37، 46) وفُنْدُق الريحان قريباً من تونس (ص45) في أواخر سنوات 1060م، انظر كذلك المدخل «الفُنْدُق» في G. Le Strange, *Palestine under the Moslems* (London: Alexander P. Watt for the Committee of the Palestine Exploration Fund, 1890) 439.

في تسمية المنطقة المحاذية للحدود البيزنطية "بلاد الفَنادق"[42]. يعبّر وجود الفَنادق بكثرة عن حيوية التنقّل بين بيزنطة ومجال الدولة العبّاسية خلال القرنين التاسع والعاشر. وقد ظلّت هذه الفَنادق مثلما كان الأمر في الفترة القديمة المتأخّرة، أداة ربط واتّصال بين مُدُن الأناضول والشام.

من هم المسافرون الذين يؤمّون هذه الفَنادق في مناطق الحدود؟

فقد قضى فيه على الأقلّ خليفة واحد وحاشيته ليلة وقد يكون من الممكن كذلك أن يقيم به موظّفون آخرون من موظّفي الدولة وأعوان البريد والجنود. وعلى عكس الرِّباط لم ترتبط كلمة فُنْدُق بالحصون الثغرية ولا بالمؤسّسات العسكرية. ولكنّ الفَنادق كانت حصينة البناء حتى تتمكّن من حماية الرحّالة وأمتعتهم وليس للصمود في وجه الهجمات العسكرية. ومن المعقول أن نتصوّر أنّ كلّ الذين يحطّون رحالهم بهذه الفَنادق المنتصبة على جوانب الطُّرُقات هم من التجار والحَجِيج وغيرهم من الرحّالة غير المسلّحين الذين يتنقّلون بين بيزنطة والأراضي العبّاسية.

أدلّة النقائش والآثار

هناك بعض المؤيّدات المادّيّة التي تقدّمها النقائش والآثار تدعم ما تُورده النصوص حول الفَنادق الأولى. توجد نقيشة واحدة يذكر فيها فُنْدُق قبل أواخر القرن الثاني عشر وهو عبارة عن وقف يعود تاريخه إلى سنة 913م بالرَّمْلة وهي واحدة من مدينتين أُحدثتا في الفترة الإسلامية الأولى بفلسطين. أنشأه الوالي سليمان بن عبد الملك (ت 717م) على الطريق الرابطة بين دمشق والفُسْطاط، فأصبحت الرَّمْلة مركزاً تجارياً مزدهراً. ويتحدّث المَقْدِسيّ في أواخر القرن العاشر عن وجود العديد من الفَنادق الحسنة وغيرها من المرافق الأُخرى بالمدينة[43]. وإنه لمن الواضح أن إسطفان الرَّمْلي، ناسخ إحدى مخطوطات الإنجيل الموجودة

(42) ذكره ابن العديم، بغية الطلب، الجزء الاول، ص178.

(43) N. Luz, "The Construction of an Islamic City in Palestine. The Case of Umayyad al-Ramla," *Journal of the Royal Asiatic Society* series 3,7,1 (1997) 27-54
المَقْدِسي، أحسن التقاسيم، ص164.

بجبل سيناء كان متعوّداً على كلمة فُنْدُق عندما نسخ النصّ سنة 897م أي قبل إنشاء وقف سنة 913م بأقلّ من عشرين سنة.

وتكتسب نقيشة الرَّمْلة أهمّيتها لا من حيث إنها تؤرّخ مادّيّاً للفُنْدُق (البناية في حدّ ذاتها قد انقرضت) ولكن أيضاً لأنها أقدم نقيشة معروفة تسجل إحداث وقف. فقد كانت هذه الأعمال التَّقَويّة مرتبطة في كثير من الحالات بالمباني الدينية ولكن لم يكن من غير المعتاد أن نجد أوقافاً لفائدة الفَنادق والحمّامات والأسبلة وغيرها من المرافق الاجتماعية الأُخرى. وقد أصبح من المألوف أن توفّر المنشآتُ المربحة، بما في ذلك الفَنادق وغيرها من المرافق، مداخيلَ لبناء مسجد أو مدرسة أو بيمارستان بدلاً من أن تستفيد من الأوقاف نفسها.

تقدّم نقيشة الرَّمْلة بعض المعطيات عن المبنى ذاته وعن مؤسِّسه، فتذكر:

> هذا الفُنْدُق بجميع حدوده وحقوقه وأرضه وبنائه سُفْله وعُلُوّه وممرّاته ومَرافقه وجميع ما ينسب إليه ويعرف به بما هو فيه ومنه وقف فايق الخادم ابن عبد الله الصقلّي عتيق المعتمد على الله [قد يكون الخليفة العبّاسيّ (870–892م)] وَقَفَه وحَبَسَه وتصدّق به طلباً لثواب الله...[44].

رغم طابعه الشكليّ يشير النصّ إلى أنّ هذا الفُنْدُق يتكوَّن من طابقين وبنايات خارجية وأراضٍ مجاورة له وهو ما يؤكّد على ضخامته، فهو ليس مجرَّد هيكل معزول. وقد كان مؤسّسه عتيقاً للخليفة العبّاسيّ وهو ما يدلّ على ارتباطه بواحد من الوجهاء. لأنّ الوجاهة والثروة مرتبطتان بإنشاء المباني وكثيراً ما كان الحكّام والوُلاة وأعوانهم وغيرهم من الطامحين إلى السُّلطة يعملون على تأسيسها[45].

وقد ركّزت نقيشة الرَّمْلة على وصف المِلْكيّة ولكنّها لم تذكر شيئاً خاصّاً عن الهدف التقويّ من ذلك التحبيس. فقد يكون هذا الوَقْف نموذجاً للوقف

---

(44) M. Sharon, "A Waqf Inscription from Ramla," *Arabica* 13 (1966) 78-79.

(45) لاحظ ج.م. روجرز [J. M. Rogers] ظاهرة تفويض الحُكّام إنشاء الفَنادق للوزراء والأمراء والزوجات وغيرهم ("*waqf* and Patronage in Seljuk Anatolia. The Epigraphic," *Anatolian Studies* 26 [1976] 75).

الأهلي الذي يهدف إلى حماية الممتلكات الخاصّة واجتناب دفع الضرائب وهو على عكس الشكل الكلاسيكي للوقف الخَيْري.

تقدّم المؤيِّدات الأثرية والمِعْمارية دلائل مثيرة لكنها غير حاسمة ولا تسمح باستنتاجات تسدّ فراغ المصادر الأدبية حول تاريخ الفُنْدُق. فالآثار تؤكّد ممّا لا شكّ فيه النشاط العُمْراني للحُكّام المسلمين الأوائل الذين لم يُنشئوا المساجد والقصور فقط، بل موَّلوا العديد من المشاريع العامّة أيضاً. إلّا أن سجلّ الأشكال العُمْرانية الذي تركوه، هو سجلّ محدود ومتكرّر وهو ما يجعل تحديد وظائف المباني انطلاقاً من شكلها المادّي أمراً عسيراً[46]. فالتحاليل الوظيفية انطلاقاً من أشكال الأرضيّات والأشكال الهندسية ومواد البناء المتوافرة، ليست دقيقة خاصّة إذا لم يبقَ من المَعْلَم إلّا القليل.

ومع أنه لا يوجد في الوقت الحاضر مبنى يمكن اعتماده لمعرفة كيفية التحوّل من البَنْدوكيون إلى الفُنْدُق، فلا شكّ أنّ العديد من الفَنادق وغيرها من المباني في المُدُن البيزنطية والفارسية قد قامت بالتأكيد بهذا التحوّل. تشير الآثار والنصوص الأدبية إلى وجود فَنادق إسلامية في دير سمعان وفي الرُّصافة حيث كانت البَنْدوكيونات مزدهرة وكذلك على طول الحدود البيزنطية العبّاسية. ربّما كان البعض من المنشآت الإسلامية مواصلة لفَنادق بيزنطية كانت موجودة من قبل[47]. تشير البحوث الأثرية في كثير من الجهات إلى التواصل والتحوّل السِّلْمي من الحكم البيزنطي أو الفارسي إلى الإدارة الإسلامية[48]. ورغم أنه يبدو أنّ الحياة

(46) لاحظ ر. هيلانبراند [R. Hillenbrand] "أن من خصوصيات الهندسة المِعْمارية الإسلامية أن مبنى واحداً يمكن أن يكون متعدّد الوظائف (*Islamic Architecture*, 331).

(47) حول دير سمعان، انظر ياقوت، **معجم البلدان**، الجزء الثاني، ص517، حول الرُّصافة، انظر Foote, "Umayyad Markets," 163; Walter Karnapp, "Der Khān in der syrischen Ruinenstadt Resafa," *Archëologischer Anzeiger* 93-2 (1978) 136-150.

(48) انظر مناقشة ذلك في *La Syrie de Byzance à l'Islam: VIIe-VIIIe siècle*, ed. Pierre Canivet and Jean-Paul Rey-Coquais (Damascus : Institut français de Damas, 1992). انظر كذلك Alexandrine Guérin, «Some Features of a Village Architecture in Transition from Antiquity to Islam»، **العصور الوسطى**، الجزء الثاني، 1999، ص49-52. وحول التحول من الحكم المسيحي إلى الإسلامي في الأندلس انظر =

العُمْرانية قد تراجعت في بعض الجهات من بلاد الشام خلال القرنين السابع والثامن وهو تراجع بدأ قبل ظهور الإسلام، فقد عرفت بعض المناطق حيوية عُمْرانية واقتصادية في العهد الأمويّ[49]. ويمكن أن نجد في مدينة فِحْل (في الشمال الغربي للأردن اليوم) مثال المدينة التي أصبحت تحت سُلطة العرب بعد إمضاء معاهدة صلح سنة 635م مع القائد العربي أبي عبيدة (ابن الجرَّاح). ولا تُظهر المواد الأثرية والخزفية قطيعة مباشرة على إثر هذا التحوّل من السُّلطة البيزنطية إلى السُّلطة الإسلامية. فقد ظلّ أغلب السكّان مسيحيين ويبدو أنه حصل قليل من القلق والاضطراب حول الكنائس الثلاث وحول مناطق السكن وربّما كذلك حول الثُكنات العسكرية[50]. وهناك مبنى يبدو أنه كان خاناً عظيماً قد بُني، ربّما في القرن السابع، وسطَ المدينة جِذْوَ الكنيسة الرئيسية من جهة الشمال، وقد ظلّ يشتغل حتى هَدَّه زلزال 747[51]. وقد وُصف على أنه يتكوَّن من طابقين يحتويان

= T. Glick, *From Muslim Fortress to Christian Castle: Social and Cultural Change in Medieval Spain* (Manchester: Manchester University Press, 1995) 43-44.

(49) وعلى نحو متزايد تكشف المصادر الأثرية تواصل التِّجارة الحضرية ودعمها في بداية العهد الأموي رغم ما حصل من بعض الاضطراب في فترة الفتح الإسلامي، انظر Walmsley, "Production, Exchange, and Regional Trade," 269-283; R. Hillenbrand, "'Anjar and Early Islamic Urbanism," in *The Idea and Ideal of the Town between Antiquity and the early Middle Ages*, ed. G. P. Brogiolo and B. Ward-Perkins (Leiden: E. J. Brill, 1999) 82-83. وقد ناقش كلايف فوس [Clive Foss] على العكس من ذلك أن فترة الاضطرابات والانحطاط كانت طويلة حيث امتدَّت من منتصف القرن السادس إلى نهاية الفترة الأموية، في بحثه "Syria in Transition, AD 550-750: An Archeological Approach," *Dumbarton Oaks Papers* 51 (1977) 189-269.

(50) وصف الجغرافي المُعاصِر اليعقوبي سكان مدينة فِحْل سنة 891 'على أنهم خليط من العرب والروم' (كتاب البلدان، ed. A. W. T. Juynboll [Leiden: E. J. Brill, 1861] 115).

(51) A. Walmsley, «The Social and Economic Regime at Fihl (Pella) and Neighbouring Centres, between the 7th and 9th centuries,» in Canivet and Rey-Coquais (eds.) *La Syrie de Byzance à l'Islam*, 254-255, 261. هناك غموض حول تاريخ هذه المبنى فقد يعود إلى سنة 614 كما يمكن أن يعود إلى بداية القرن الثامن (Walmsley, "Production, Exchange, and Regional Trade," 284). انظر كذلك A. W Walmsley, Architecture and Artefacts from 'Abbasid Filḥ: Implications for the Cultural History of Jordan," in *Proceedings of the Fifth International Conference on the History of* =

على "مرافق وغُرَف وأرْوقة وشُرُفات" ولكنّه من المستحيل الجزم بأنه كان بَنْدوكيوناً أو فُنْدُقاً دون تعريف مكتوب. غير أنّ العثور على بقايا شابين وسبعة جمال وحمار في إحدى جهات المبنى، يبدو أنهم ردموا على إثر الزلزال، يسمح بالقول بأن المبنى كان فُنْدُقاً للتُّجّار في العهد الأمويّ(52). ويبدو أنّ الزلزال الذي حدث في منتصف القرن الثامن كان أكبر دافع للتغيير العُمْراني لمدينة فِحْل أكثر من التحوّل السياسي والديني بما أنه ساهم في إحداث مبانٍ جديدة لم تعرفها الفترة السابقة. إذ أُعيدَ بناء ما دُمّر وتمّ ترميم البنى الأساسية بعد سنة 747م حتى وإن لم يكن ذلك دائماً في المواقع نفسها تحديداً. ويدلّ بناء خانين مُسَيَّجيْن على أهمّية التِّجارة الحضرية في تلك الفترة وهو ما تؤكّده النقود الأموية التي عُثر عليها في أحد المباني وفي السوق الملاصق(53). وقد كشفت الحفريات داخل إحدى هذه المساحات المسيّجة أنها قد تكون مخصّصة للسكن والتِّجارة والصناعات الحرفية. فقد وصف آلان ولمسلي «Alan Walmsley» هذه البنية على أنها بناية ضخمة مركزية متكوّنة من غُرَف ومن رواق مقوّس يحيط بفناء مركزيّ له مدخل من الجهة الغربية بعرض مترين ونصف المتر. جدرانه من الحجارة... تحمل طابقاً قُدّ من آجُرّ من الطين ومسقوفاً بالقرميد. وقد بُلّطت أرضية الطابق السُّفلي بالحجارة. وقد أُضيفت الأجنحة السكنية في الجهة الجنوبية والشرقية للمبنى الأصلي وهو ما يدلّ على فترة طويلة من الشغل. وتشير اللُّقَى الأُخرى... إلى وجود ورشة صغيرة لصنع البلور أضيفت في فترة لاحقة من فترات استغلاله(54).

وعلى عكس الفَنادق الأولى التي كانت ذات شكل مستطيل ليس مغايراً لِما هو موجود في دير سمعان، فقد بُني هذا المبنى الجديد حسب تخطيط مربّع وله

= *Bilād al-Shām* (Amman: History of Bilād al-Shām Committee, 1991) 135-159.
أشكر آلان ولمسلي [Walmsley] على نصائحه حول هياكل مباني مدينة فِحْل.

(52) Walmsley, "The Social and Economic Regime," 253؛ وقد وصفت رفقة فوت [Rebecca Foote] المبنى بأنه كان "ردهة طويلة ذات طابقين" ("Umayyad Markets," 197-198).
انظر كذلك Walmsley, "Production, Exchange, and Regional Trade," 284-285.

(53) Walmsley, "The Social and Economic Regime," 259; Walmsley, "Production, Exchange, and Regional Trade," 285.

(54) Walmsley, "The Social and Economic Regime," 255.

باب واحد وأرْوقة وفناء مثلما ستكون عليه الفَنادق والخانات في العهود الإسلامية المتأخّرة.

لم يكن هناك تمايز كبير في أشكال العمارة الإسلامية حيث هناك فروق طفيفة بين المباني التجارية والمباني غير التجارية أو بين الأبنية الخاصّة والأبنية العامّة وهو ما يجعل التفريق بينها حسب الوظائف أمراً عسيراً. ففي مدينة عَنْجَر الأموية مثلاً قد وقع تعريف بنايتين توجدان في وسط المدينة بطرق مختلفة على أنهما قصران أو فُنْدُقان. وربّما كانت عَنْجَر إحدى المدينتين ـ المدينة الأُخرى هي مدينة الرَّمْلة- اللتين أُسّستا في فلسطين في بداية القرن الثامن، وقد رأت رفقة فوت «Rebecca Foote» أنّ الدّكاكين التي توجد في هاتين البنايتين، "بأبوابها الواسعة التي تؤدّي إلى غُرَف مُحيطة بالفناء تُحيل أكثر على الوظيفة التجارية منها على الوظيفة السكنية" لهذه الأبنية، مما يجعلها "بين أقدم الأمثلة على الفَنادق الشامية الكبرى"[55]. وليس بعيداً عن هناك وفي جرش، تقترح فوت «Foote» أن "ما يُسمّى المُجمَّع السكني" الذي بُني في سنوات 660م بما فيه من حوانيت وفناء غير مُعتاد فيه غُرَف تُفْتَح منه ويمكن الوصول إليها من الشارع وله درج خلفيّ، وأكثر من ذلك دلالة أنه لا يحتوي على مطبخ، فربّما كان فُنْدُقاً أيضاً[56]. كما اعتُبر هيكل المبنى الذي شيّده أحد الوُلاة في عهد هشام ما بين 736 و743م في بيسان، مبنى تجارياً وربّما فُنْدُقاً ولو أنّ النقيشة التي توجد به

---

(55) Foote, ("Umayyad Markets," 197. وقد شَكَّ أوليغ غرابار [Oleg Grabar] في التعرُّف إلى عَنْجَر الأموية ("Umayyad Palaces Reconsidered," *Ars Orientalis* 23 93 [1993]). يتضمّن مقال غرابار أيضاً بعض الاحترازات المتعلّقة بتحديد المعالم الإسلامية الأولى وبانتقال الأشكال الهندسية.

(56) Foote, ("Umayyad Markets," 196 (تستعمل فوت في هذا المضمار عبارة فُنْدُق). انظر كذلك Walmsley, "Production, Exchange, and Regional Trade," 284-285. يطلق ولمسلي [Walmsley] لفظة خان على مبنى جرش، هناك إمكانية وجود فَنادق كانت قد بُنيت في العهد الأموي وتمّ اكتشافها في أريحا (Walmsley, "Production, Exchange, and Regional Trade," 287) وأبعد جنوباً في حُمَيْمة (Rebecca Foote, "The Caravanserai," in J. P. Oleson [ed.], "The Ḥumeima Excavation Project: Preliminary Report of the 1991-92 Seasons," *Annual of the Department of Antiquities of Jordan* 37 [1993] 484-486).

تشير ببساطة إلى أنه "أمر بهذا البُنيان"(57). هناك مبنيان آخران من القرن الثامن تُطلِق عليهما النصوص الثانوية تسمية خان، ولكن ليس هناك ما يفيد ذلك في النقائش المعاصرة، عُثِرَ عليهما في المواقع الأموية ببادية الشام، قصر الحَيْر الشرقيّ (شمال شرق تَدْمُر) وقصر الحَيْر الغربي (جنوب غرب تَدْمُر)(58). وكان هذان القصران قد بُنيا في فترة زمنية متقاربة بأمر من الخليفة الأمويّ هشام (724-743م)، وهو الخليفة نفسه الذي رُوي أنه هو الذي بنى فَنادق في عكّا وجبى الضرائب من الخانات. هناك مبنى في قصر الحير الغربي يعرف تقليديّاً بأنه خان، يحمل نقيشة تشير فقط إلى "أن هذا العمل" كان بأمر من هشام في رجب سنة 109هـ (نوفمبر 727م)(59). لم يبقَ شيء من المبنى ولعلّه بُني من اللِّبْن، ولكن تُبيِّن أحجار الأساس أنه كان مربّع الشكل يبلغ طول جدرانه حوالى 55

(57) E. Khamis, "Two Wall-Mosaic Inscriptions from Umayyad Bet-Shean," *Cathedra* 85 (1997) 48,54-55. شكري إلى أوليغ غرابار [Oleg Grabar] للمعلومات التي قدّمها لي حول هذا الموقع وغيره من المباني الأخرى المعاصرة له.

(58) انظر حول قصر الحَيْر الشرقي Oleg Grabar, Renata Hood, James Knustad, and William Trousdale, *City in the Desert: Qasr al-Hayr East* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1978); Oleg Grabar, 'Qaṣr al-Ḥayr al-Sharqī, (Preliminary Report on the First Season of Excavations," *Les Annales Archeologiques de Syrie* 15 (1965) 106-120; and Oleg Grabar, "Preliminary Report on the Third Season of Excavations at Qasr al-Hayr al-Sharqī," *Annales Archeologiques Arabes Syriennes* 20 (1970) 45-54; K. A. C. Creswell, *Early Muslim Architecture*, 1.2 (New York. Hacker Arts Books, 1979) 522-528; and E. Sims, " Markets and Caravanserais," in *Architecture in the Islamic World*, ed. Ernst Grube and G. Michell (London: Thomas & Hudson, 1984) 101. On Qaşr al-Ḥayr al-Gharbî, see Daniel Schlumberger, *Qaṣr al-Heir el-Gharbi* (Paris: Paul Geuthner, 1986); Daniel Schlumberger, "Les Fouilles de Qaṣr al-Heir el-Gharbi (1936-1938). Rapport préliminaire," *Syria* 20 (1939) 195-238; Creswell, *Early Muslim Architecture*, 506-507, 512-514; Ugo Monneret de Villard, *Introduzione allo Creswell, studio dell'archeologia islamica. Le origini e il periodo omayyade* (Venice: Instituto per la Collaborazione Culturale, 1966) 162.

(59) Etienne Combe, Jean Sauvaget, and Gaston Wiet (eds.), *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe*, I (Cairo: Institut française d'archéologie orientale du Caire, 1931) 23 (no. 27).

متراً من كلّ جانب. يتوسّطه فناء وله أرْوقة تؤدّي إلى غُرفة ضيّقة طويلة في كلّ جهة من جهاته الثلاث. فمن الجهة الشرقية تلاصق المدخل ستّ غُرَف صغيرة. وهناك غُرفة تمتد من شمال بوابة المبنى كانت تستعمل كمُصَلّى مثلما يبدو ذلك من خلال محرابها. ويضمّ المجمّع عند قصر الحير الشرقيّ، والذي تمّ بناؤه بعد سنة من بناء قصر الحير الغربي سنة 728-729م، مبنًى مربّعَ الشكل كبيراً وبتصميم مشابه، حتى إنه كان في البداية يُعتبر قصراً ولكن عَرَّفه أولِيغ غرابار «Oleg Grabar» على "أنه بقايا أقدم نُزُل فخم في الفنّ الإسلاميّ"[60]. تُشبه مخطّطات أرضيّة هذين المبنيين مخطّطات ما سيُعرف في بلاد الشام من فَنادق وخانات من خلال النقائش المعاصرة حتى إنه ليس بالغريب أن يعرفهما الناس على أنهما فُنْدُقان. ولكن، وبشكل صادم فإن مخطّطاتهما لا تشبه مخطّطات البَنْدوكيونات المسيحية الأولى. قد يوحي تغيير التصميم بتغيير الوظيفة (تزايد الحركة التجارية ونتيجة لذلك ازدياد الحاجة لخزن السلع وتأمين التجار) أو ربّما نتيجة لتعدّد التأثيرات الفَنّيّة وربّما نتيجة للاثنين معاً. في حين كانت الفَنادق الرومانية في العهد المتأخّر (مثلما هو موجود في دير سمعان) تُبنى عادة حسب تخطيط مستطيل وبدون فناء داخليّ ستكون المباني مربّعةُ الشكل التي لها فناء داخليّ وباب واحد وأرْوقة، نموذجَ الفَنادق والخانات الإسلامية في بلاد الشام في العصر الوسيط[61].

على أنّ المباني ذات الشكل المربّع والتي تحتوي على فناء كانت منتشرة منذ وقت طويل في العصر القديم المتأخّر وممّا لا شكّ فيه أنها كانت مرتبطة بنوع من الفَنادق[62]. توجد في الشام آثار العديد من المباني ذات الشكل المربّع

---

(60) Grabar et al., *City in the Desert*, I, 32; and Grabar, "Preliminary Report," 54. وقد عدَّدَ غرابار كذلك ثلاثة عشر هيكلاً لمبانٍ أُخرى عادة ما تعتبر قصوراً أو منازل لها تصميم هذا المبنى نفسه (*City in the Desert*, 30-32).

(61) لقد أصبح هذا الشكل عامّاً إلى حدّ بعيد حتى إن إليسييف [Elisséeff] اعتبره "نموذج الخان المتوسطي" (N. Elisséeff, "Khān," *Encyclopedia of Islam*, IV [Leiden: E. J. Brill, 2nd ed., 1990] 1011).

(62) انظر على سبيل المثال مخطّطات محطّات المسالك الرومانية لدى Chevallier *Les Voies romaines*, 285-291.

التي تعود إلى القرن الثالث في ضواحي تَدْمُر ويمكن تحديدها انطلاقاً من الصور الجويّة. قد تكون كذلك مواقع عسكرية أو فَنادق ولكن تحليل مواقعها ومقارنتها بما يشبهها من المباني الأخرى يحملنا على القول بأنها فَنادق[63].

كما كانت المباني ذات الشكل المربّع التي لها أفْنِيةٌ مفتوحة على السماء مألوفة أيضاً في العالم السّاسانيّ وهو ما يوحي كذلك بوجود تأثيرات من هذه الناحية. فَدَيْر غاشين «Dayr-i Gachīn» جنوب مدينة الرَّيّ ودروازة غاتش «Derwazeh-Gatch» مثلاً قد بُنيا على شاكلة مُرَبَّع محاط بسور وفيه فناء محاط بعديد من الغُرَف الصغيرة[64]. وفي الشرق من ذلك بيّنت بحوث تمّت حديثاً في ثماني بنايات مسوّرة، مربّعة الشكل، في وادي الهندوس تبدو مرتبطة بالتّجارة البحريّة وهي توحي أيضاً أن الأفكار المِعْمارية والاقتصادية الشرقية قد التحمت بما هو موجود في المتوسّط في القرون الأولى من تاريخ الإسلام[65]. تعبّر الأشكال الهندسية في العمارة الإسلامية الأولى عن موروث مختلط، إذ طوّع

---

(63) Jean-Marie Dentzer, «Khāns ou casernes à Palmyre? A propos de structures visibles sur des photographies aériennes anciennes,» *Syria* 71 (1994) 45-112.
ربّما يمكن ربط ذلك بفَنادق التُّجّار [*katalyma*] التي تذكرها نقائش القرن الثاني بمدينة تَدْمُر ـ انظر الفصل الأوّل.

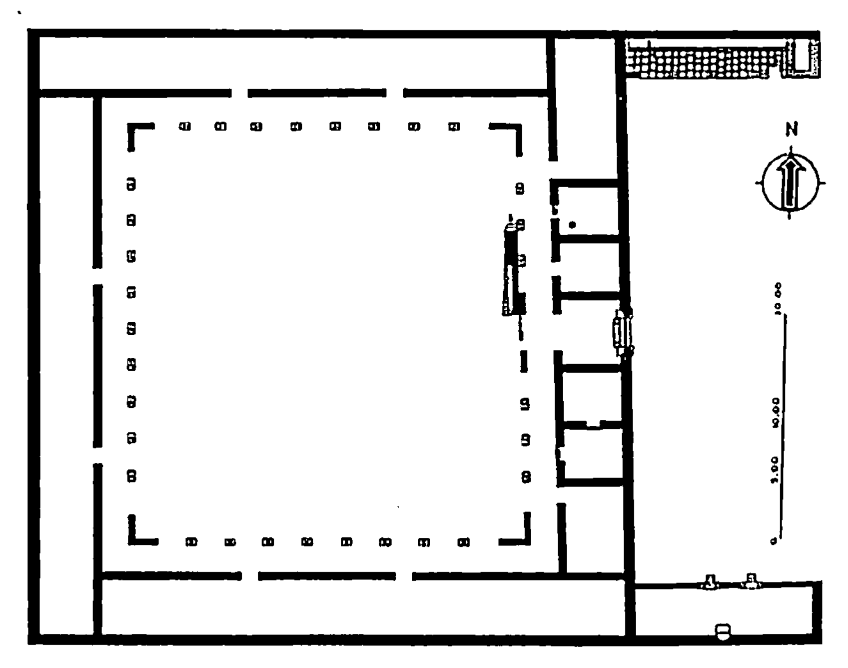
(64) M. Siroux, *Caravansérails d'Iran et petites constructions routières* (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1949) 43; M. Shokoohy, «The Sassanian Caravanserai of Dayr-i Gachîn, South of Ray, Iran,» *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 46 (1983) 449. توجد مجموعة كبيرة من مخطّطات وصور الخانات الإيرانية في عمل ـ M.Y.Kiāni and W. Kleiss, *Kārvānsarāhā-ye Irān [Iranian Caravansarais]* (Tehran: Iranian Cultural Heritage Organization, 1995). قد لاحظ أوليغ غرابار التأثيرات السّاسانية في قصر الحير الغربي("Umayyad Palaces Reconsidered," 96). فقد كانت الفَنادق موجودة على طول الطُّرُقات في الإمبراطورية الفارسية. وفي وقت مبكّر من القرن الخامس قبل الميلاد، وصف المؤرخ اليوناني هيرودوت كيف كانت الطريق الملكية بين ساردِيس وسوسة تحتوي على 111 نقطة راحة وفيها فَنادق جيّدة جداً (Herodotus, ed. and trans. A. D. Godley [New York: G. P. Putnam & Sons, 1922] V, 52). وقد كانت هذه الفَنادق مُعدَّة في الأساس لأجل البريد الملكي ولكنها قد تكون استُعملت أيضاً من قبل التُّجّار والمسافرين الآخرين.

(65) Kervran, "Caravansérails du delta de l'Indus," 143-176.

الحكّام الأمويّون والمهندسون في عهدهم الأشكال القديمة لتُناسب وظائف جديدة. وفي أغلب الحالات يبقى موضوع المباني التي لا تزال موجودة والتي تُعرَّف بأنها أنزال (جمع نُزُل) موضع نقاش أهي فَنادق *funduqs* أم خانات أم هي شيء آخر؟

الفَنادق والخانات وما شابهها

تُشير نصوص العصر الوسيط إلى تنوّع أماكن الإقامة بالنسبة إلى التجار وغيرهم من المسافرين الآخرين في العالم الإسلاميّ في بدايات الإسلام. فبإمكان المسافر أن يختار من بين العديد من المؤسّسات منها ما هو رسمي ومنها ما هو غير ذلك، سواء أكان بحثاً عن الراحة أو تناول الطعام أو التِّجارة أو اللهو أو للمبيت. وقد يحصل المسافرون في بعض الحالات على الطعام والفراش مجّاناً



صورة رقم 6: مثال لتخطيط الخان في قصر الحَيْر الغربي قرب تَدْمُر،
انظر: Schluberger, *les fouilles de Qasr el-Heir el-Gaharbi*, 210

وفي حالات أُخرى كانوا مجبرين على دفع مقابل لتلك التسهيلات[66]. ورغم أن كثيراً من المسافرين قد تمتّعوا في الفَنادق الرسميّة، إلّا أن البعض كانوا ينزلون في بيوت خاصّة أو ينامون خارج البيوت أو تحت الخيام أو في الكهوف أو على ظهور السفن، في حين يجد البعض الآخر مأواهم في مبانٍ عادة ما تكون مخصّصةً لأغراض أُخرى مثل المساجد والمدارس (وقد أمضى رحّالة القرن الرابع عشر ابن بَطُّوطة ليلة في كنيسة مسيحية)[67]. تؤوي بعض الملاجئ الرسمية (بصورة خاصّة الرِّباطات والزوايا) مجموعات خاصّة عادة ما يكونون حَجِيجاً أو طلبة عِلْم أو مُرِيدي بعض الطرق الدينية.

وهناك مؤسّسات أُخرى من بينها الفَنادق والخانات تفتح أبوابها أمام جمهور عريض من النُّزَلاء، ولكنّها كانت دائماً مرتبطة بالتجار والمسافرين التجاريين. وعلى مستوى عامّ، يُشير الجغرافيّون المسلمون والرحّالة إلى "منازل" للتوقّف على جانب الطريق وهو ما يعني عادة محطّة رسميّة حذو الطريق توجد بها المرافق الضرورية والمأوى وهي أكثر من أن تكون مجرّد استراحة[68].

يبدو أنه لم تكن هناك عبارات خاصّة في بداية الإسلام للتعبير حتى عن البنايات التي كانت مخصّصة للفَنادق. وإنه من الغريب أنّ النقائش التي وُجدت على بقايا أولى البنايات بما في ذلك قصر الحَيْر الغربي وبَيْسان، تُحيل على بنايات بعبارة عامّة مثل "هذا العمل" أو "هذه البناية" دون اعتماد عبارة خاصّة بالمبنى المذكور. كما أن البنايات التجارية في بداية الإسلام كانت عادة ما تُذكر

---

(66) لقد عبّر الحاجّ المسيحي برنار الناسك الذي سافر عبر العالم الإسلامي سنة 867 عن امتعاضه من دفع مقابل احتياجاته في فُنْدُقين قرب غَزّة (*Itinera hierosolymitana et descriptiones Terrae Sanctae*, ed. Titus Tobler et al. (Geneva: J. G. Fick, 1879) 314. شكري لمايكل ماك كورميك لهذا الاستشهاد.

(67) ابن بَطُّوطة، الرِّحلة المسماة تحفة النُّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، الترجمة الإنكليزية Ibn Baṭṭūṭa, *The Travels of Ibn Baṭṭūṭa AD 1325-1354*, II, trans. H. A. R. Gibb, Hakluyt Series 117 (Cambridge: Hakluyt Society, 1962) 469.

(68) على الرغم من اعتبار أنَّ كلمة مَنْزِل قد تكون مشتقّة من كلمة منسيو [*mansio*] اللاتينية (محطّة على الطريق) لكن في الواقع أنه اسم مشتقّ من فعل نَزَلَ وهو ما يعني وَقَفَ أو تَرَجَّلَ.

في النصوص بتسميات عامّة يتمّ فيها الجمع بين كلمة "دار" مقترنة باسم سلعة معيّنة أو تجارة أو مجموعة من الناس.

ومن الأمثلة التي تتعلّق بالفَنادق نجد دار الضَّيف التي بُنيت في الفُسْطاط في أواخر القرن الثامن (وقد سبق ذكرها) أو دار الرُّوم في القرن التاسع وهي خاصّة بالمسيحيين الذين يذهبون إلى بغداد أو عبارة عامّة مثل دار التجار وقد ذكرها المَقْدِسيّ في القرن العاشر[69]. فمن الممكن أن تكون الكلمات الهندسية الوظيفية الدخيلة مثل كلمة فُنْدُق وكلمة خان ـ حتى وإن كانت متداولة على الألسن ـ غَيْر مُسْتَعملة في اللغة العربية المكتوبة بصورة منتظمة إلى نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع.

ولكن في القرن العاشر أصبحت النصوص العربية مليئة بالكلمات التي تشير إلى نوع مُعيّن من الفَنادق. ومن بينها أصبحت كلمتا فُنْدُق وخان من أكثر الكلمات شيوعاً حتى إنهما أصبحتا تُستعملان في بعض الأحيان مترادفين إلى درجة يستحيل فيها التمييز بوضوح بينهما. و للكلمتين والمؤسّستين اللتين تُحيلان عليهما جذورٌ مختلفة، واحدة أصولها في العالم الناطق باليونانية والأخرى في بلاد فارس ومع هذا، فإنهما تتفقان في الشكل والوظيفة. ذكر المَقْدِسيّ، في القرن العاشر، الكلمتين لتعنيا الفَنْدَقة مع كلمات مثل تِيْم ودار التجار في قائمته الجغرافية الطويلة التي تضمّ الكلمات المترادفة[70]. وقد جعل حُنين بن إسحاق في القرن التاسع كلمة فُنْدُق مرادفة لكلمة خان[71].

غير أنه من الواضح أنّ المؤسّستين ـ رغم أنهما متشابهتان ـ لم تُعْتَبَرا دائماً الشيء نفسه. ففي كثير من المناسبات، يذكرهما ابن حَوْقَل معاً، مشيراً إلى أنهما لا تعنيان الشيء نفسه.

فمثلاً عندما يصف نَيْسابور بأنّ لها "أسواقاً وخانات وفَنادق "مثلما هو

(69) ابن عبد الحَكَم، فتوح مصر، ص133؛ Reuben Levy, *A Baghdad Chronicle* (Cambridge: Cambridge, University Press, 1929) 67; المَقْدِسي، أحسن التقاسيم، ص31.

(70) Ibid.

(71) Artemidorus, *Le Livre des songes*, 321.

الشأن في مُدُن إسلامية أُخرى في جهات أُخرى، ويورد كلمات "فَنادق ودور وحمّامات وخانات" كعناصر مختلفة ممكنة ضمن المنشآت الخَيْرية[72]. ويمكّن هذا التحليل من تصوّر مدى الاختلاف تقريباً مثلما هو الشأن في الاستعمال الأميركي حيث يتمّ التفريق بين النُزُل «hotel» والموتيل «motel».

هناك بعدُ تمايزٌ جِهَوي في استعمال كلمتَيْ فُنْدُق و خان في القرن العاشر، وربّما كان ذلك موجوداً من قبل. ويبدو التفريق بين الكلمتين أكثر وضوحاً في أواخر العصر الوسيط. ورغم أنّ الكلمتين كانتا شائعتين في العالم الإسلاميّ الوسيط وكثيراً ما كانتا تتداخلان، كان هناك تفضيل واضح لكلمة فُنْدُق في العالم المتوسّطي انطلاقاً من الشام إلى الأندلس. فقد ذكر لغويّ القرن العاشر الأزهري "أن كلمة فُنْدُق تعني الخان بلغة أهل الشام، [وبعبارة أُخرى] هو من هذه الخانات التي ينزلها الناس عندما يكونون في الطريق أو في المدائن"[73]، في حين أن كلمة خان كانت دائماً هي السائدة في العراق وبلاد فارس وخُراسان وفي جهات أُخرى من الشرق (وهي محدودة جداً في الغرب الإسلاميّ). من اللافت للنظر أنّ المناطق التي سادت فيها إحدى الكلمتين تطابقت مع الانتشار السابق للُّغتين اليونانية والفارسية.

---

(72) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ص432-433 وص184.
يذكر الكاتب نفسه وجود الفَنادق والخانات في بردعة وحول بحر قزوين (ص339) وفي بَلْخاب المجاورة (ص349). وفي الغرب الإسلامي توجد فَنادق بقُرْطبة في حين في ضواحيها مدينة الزهراء والرُّصافة فيها خانات (111-113)، انظر حول الوَقْف المرجع نفسه، ص184.

(73) الأزهري، تهذيب اللُّغة، الجزء التاسع، ص412. وقد تمّت إعادة ذكر هذا الاشتقاق في أعمال أُخرى، حيث يذكر الجغرافي ياقوت أيضاً أن الفُنْدُق بدأ تحت اسم الخان بين أهل بلاد الشام، (معجم البلدان، IV، ص277). ورغم أن ياقوت يذكر الخان كمرادف للفُنْدُق عند حديثه عن هذا الموضوع، لم يذكر الفُنْدُق عند حديثه عن الخان، بدلاً من ذلك يُعرّف الخان بأنه "المكان الذي ينزل فيه التُّجّار" (المصدر نفسه، الجزء الثالث، ص341). قد يكون اعتبر خان كلفظة عامّة في حين الفُنْدُق يعكس استعمالاً جِهَويّاً. ويستعمل ابن منظور اللُّغوي المشهور في لسان العرب العبارات نفسها التي استعملها الأزهري مفسّراً الفُنْدُق على أنه نفسه الخان الفارسي، والفُنْدُق بلغة أهل الشام خان من هذه الخانات التي ينزلها الناس ممّا يكون في الطُرُق والمدائن، (لسان العرب، الجزء العاشر، ص313).

ويتّضح هذا التوجّه الجِهَويّ عندما يقوم المرء بنظرة عامّة في مختلف المصادر التي تذكر الفَنادق والخانات في مختلف جهات العالم الإسلاميّ في العصر الوسيط. ولكنْ هل تعكس كلّ المصادر الاستعمالات المحلية المتداولة فعلاً؟ لا بدّ من الأخذ في الاعتبار الكُتّاب الذين ذكروا الكلمات الشائعة في المناطق التي نشأوا فيها أكثر من المناطق التي وصفوها. فلو أخذنا مثلاً كُتّاباً من الغرب الإسلاميّ مثل ابن بَطُّوطة أو ابن جُبَيْر فربّما نجدهم يستعملون كلمة فُنْدُق أكثر ممّا يستعملها كُتّاب من العراق أو خُراسان. ورغم ذلك فإن الجغرافيّين المغاربة كانوا بلا شكّ واعين بفوارق الاستعمال ويأخذونها في حسبانهم.

وهكذا عندما وصف ابن بَطُّوطة فُنْدُقاً على الطريق خارج مدينة القاهرة سنة 1326م، ذكر "أنه فُنْدُق يُسمُّونه خاناً يؤمّه المسافرون مع رواحلهم"[74]. ولكن للأسف أن هذه الملاحظة تثير مشكلة أُخرى: يتغيّر الاستعمال بصورة مستمرّة حتى داخل الجِهَة الواحدة. ورغم أنّ كلمة الفُنْدُق كانت شائعة من قبل في مصر الفاطمية وقبلها، فقد أصبحت كلمة الخان هي السائدة في الاستعمال في العصر المملوكيّ عندما زار ابن بَطُّوطة القاهرة[75]. وتصبح تعقيدات تغيّرات الاستعمال حسب الجِهات أكثر وضوحاً من خلال مثال آخر. فقد وجد ابن جُبَيْر خلال رحلته عبر بلاد الشام في سنوات 1180م الأولى فُنْدُقاً وصفه بأنه "خان السُلطان وهو خان بناه صلاح الدين صاحب الشام"[76]. يمكن أن يكون هذا الفُنْدُق هو خان العروس الذي أنشأه صلاح الدين سنة 1181م، أيّ قبل سنتين فقط من وصول ابن جُبَيْر. فما يهمّنا من ذلك هو أنّ ذلك المبنى يحتوي على نقيشة تصف تأسيسه وتصفه بوضوح على أنه فُنْدُق: "هذا الفُنْدُق المُبارك أُنشئ بأمر سيّدنا

---

(74) ابن بَطُّوطة، الرِّحْلة، الترجمة الفرنسية Ibn Baṭṭūṭa, *Voyage d' Ibn Baṭṭūṭa*, ed. C. Defrémery and B. R. Sanguinetti (Paris: l'Impremerie Nationale, 1853-1858; repr. Paris: Editions Anthropos, 1968-1969) I, 111-112; *The Travels of Ibn Baṭṭūṭa 1325-1354*, I, Hakluyt Series 110 (1958) 71-72.

(75) ستُناقش هذه التوجُّهات الجِهَوية بالتفصيل في الفصلين الثالث والسابع.

(76) ابن جُبَيْر، الرِّحْلة ، تحقيق William Wright and rev. M. J. de Goeje (Leiden: E. J. Brill, 1907) 257; trans. R. J. C. Broadhurst, *The Travels of Ibn Jubayr* (London: Jonathan Cape, 1952) 269.

ومولانا الملك الناصر صلاح الدُّنيا والدين، سُلطان الإسلام والمسلمين»(77).
من الواضح أنّ الكلمتين كانتا شائعتَي الاستعمال وما بُني على أساس أنه فُنْدُق أصبح مباشرة يسمّى خاناً في اللُّغة الشعبية. ينطبق هذا الأمر على الفترة التي بدأت فيها كلمة خان تنتشر في مصر والشام نتيجة التحوّلات السياسيّة والتجارية واللُّغوية. ويعكس التفاوت بين الاسمين التطوّر السريع والتمييز المتزايد للفُنْدُق والخان في القرن الثاني عشر.

هناك كلمات أُخرى تعبّر عن أماكن إقامة مختلفة تتماهى مع الفُنْدُق والخان ولكنّها لم تُسْتَعمل أبداً كمرادف لهما. فالرِّباطات مثلاً توفّر الإقامة للمسافرين في جِهات مختلفة، خاصّةً في الجناح الشرقيّ من العالم الإسلاميّ مثلها مثل الفُنْدُق والخان وهي كذلك نتيجة عمليّات تحبيس. لكن كما يأسف روبير هيلانبراند «Robert Hillenbrand» أن تسمية رِباط تشكو هي الأُخرى من الغموض الذي يحفّ بالعديد من المُصطلحات العُمْرانية في اللُّغتين العربية والفارسية ولا يمكن فهم المُصطلح إلّا ضمن السِّياق(78).

يقدّر كلّ من الإصْطَخْري وابن حَوْقَل في القرن العاشر عدد هذه الفَنادق بالآلاف في الشرق الإسلاميّ وهي توفّر للمسافرين الإقامة والطعام والحماية(79).

---

(77) Combe et al. (eds.), *Répertoire*, IX (1937), 115 (no. 3368); Sauvaget, «Caravansérails syriens» (1939), 50-52. لقد كان الاعتقاد سائداً أن هذا الفُنْدُق هو من إنشاء صلاح الدين غير أن قراءات أُخرى ترى أن أخاه طوران شاه، والي دمشق هو الـذي أنـشـأه (*PPUAES*, ed. E. Littman, IV, Semitic Inscription [Leiden: E. J. Brill, 1943] 75-76). وكان يُعتقد أن هذه أقدم إشارة نقائشية إلى أن تمّ العثور على نقيشة تعود إلى سنة 913م وهي نقيشة وقف من مدينة الرَّمْلة.

(78) Hillenbrand, *Islamic Architecture*, 341-342. لمزيد من التفاصيل حول هذه المؤسَّسة المعقَّدة وأشكالها المختلفة، انظر Nasser Rabbat, "Ribāṭ," *Encyclopedia of Islam*, 2nd ed., VIII (1993), 493-506. See also Paul Wheatly, *The Places where Men Pray Together* (Chicago: University of Chicago Press, 2001) 53.

(79) ابن حَوْقَل، كتاب صورة الأرض، ص293، 465-467، الإصْطَخْري، كتاب المسالك والممالك، تحقيق دي غويه، ليدن-بريل، 1870م، طبعة ثانية 1967م، ص290 (ed. M. J. de Goeje, Bibliotheca geographorum Arabicorum, I (Leiden: E. J. Brill, 1870; repr. 1967).

ففي تلك الفترة وفي تلك المنطقة كانت مؤسّسة الرِّباط تشبه كثيراً مؤسّسة الخان، فالمقارنة الصريحة التي يوردها ابن حَوْقَل تقول بأن الرِّباط الذي يوجد على جانب الطريق بين شيراز وسيرجان هو مثل الخان[80].

لكنْ بمرور الزمن اختلفت الرِّباطات لتصبح مرافق أكثر تخصّصاً تحوي ما يتناسب والمسافر لغايات دينية والجنود المحاربين وليس التجار.

وقد تحوَّل البعض منها فأصبح قِلاعاً في مناطق الثُّغور في حين تحوَّل البعض الآخر إلى إقامة للحَجيج والطلبة. هناك رِباط أُسِّس بحلب سنة 1252م وله وقف لينفق دخله على المُتَصوّفة من المستعربين ومن أبناء البلد[81]. فاحتجّ بعض الفُقهاء على ذلك لأنه في اعتبارهم مَدْعاة للتفرقة بين المسلمين. كما انتقد ابن الجَوْزي (ت 1201م) الرِّباطات على أنها أماكن يلجأ إليها المُتَصوّفة كَسَلاً وهروباً من العمل وفيها يعتزلون الناس... ثم يختم بأن الرِّباطات هي أساساً مختلفة عن المساجد والدور والخانات[82]. فقد أُنشئ العديد من الرِّباطات كأماكن يقيم بها الفُقراء وهو توجّه أصبح واضحاً خلال القرن الثاني عشر. فلما زار ابن جُبَيْر المَوْصِل في بدايات سنوات 1180م مكث "**برِباط للمحتاجين يشتمل على بيوت كثيرة ومقاصير ومطاهر وسقايات**"[83]... كما توجد أيضاً رباطات خَيْرية في مراكز الحجّ بما في ذلك مكّة والقدس كما في غيرهما من المناطق الأُخرى. ويوجد وَقْف في مكّة يعود إلى سنة 1135م لأجل إنشاء رِباط للمُتَصوّفة والحَجِيج في المدينة المقدّسة كما يوجد وَقْفان سنة 1267م و1282م لبناء رباطات بالقدس. وتوجد على المبنى الأخير نقيشة تقول "إن بناء هذا الرِّباط المُبارك هو وقف لفائدة الفُقراء والرحّالة الذين يقصدون القدس الشريف وقد تمّ بناؤه بأمر من مولانا السُّلطان الملك المنصور... قلاوون"[84].

(80) ابن حَوْقَل، كتاب صورة الأرض، ص284.

(81) Combe et al. (eds.), *Répertoire*, IX (1941), 235 (no. 4353).

(82) ابن الجَوْزي، تلبيس ابليس، إدارة الطباعة المنيرية، القاهرة، 1966م، ص360، "لا هي مساجد ولا بيوت ولا خانات".

(83) ابن جُبَيْر، الرِّحْلة، ص236، الترجمة الإنكليزية، ص245.

(84) Mecca: Combe et al. (eds.), *Répertoire*, VIII (1937), 196-197 (no. 3075). Jerusalem: 1267, *ibid.* XII (1943), 126-127 (no. 4590); 1282, *ibid.* XIII (1944), 5-6 (no. 4809).

وفي الوقت الذي تتداخل فيه وظيفة الرِّباط بجوانبها الخَيْرية مع الفُنْدُق والخان، تلتقي بعض المؤسّسات الأُخرى معهما في وظائفهما التجارية. فقد كانت القَيْصَرية والوَكالة مكانين مُعَدّين للبيع وخزن السِّلَع وجمع الضرائب. ولكنّهما لا يوفّران الإقامة بصورة دائمة للمسافرين الذين يمرّون بهما. فالقَيْصَرية (وهي كلمة أُخرى مشتقّة من اللُّغة اليونانية) هي سوق حَضَري يحتوي على دكاكين ومخازن، وهي تعتبر من ممتلكات صاحب السُّلطة[85]. وقد ظهرت الكلمة أوّلاً في النقائش سنة 1190م، ولكن القَيْصَرية كانت معروفة في مصر والشام وشمال إفريقيا منذ عهود سابقة[86]. واعتمادا على ابن جُبَيْر فالقَيْصَرية شبيهة بمؤسّسات أُخرى ولكنّها لا تتطابق معها. فقد أشار مثلاً إلى أن القَيْصَريّات في دمشق يشبه عُلُوّها عُلُوّ الفَنادق في حين أن قَيْصَرية المَوْصِل كانت "كأنها الخان العظيم"[87].

لكلمة وكالة أصول أُخرى، فهي مشتقّة من فعل وَكَّلَ وهو فعل ظهر في البداية للتدليل على الوكيل الذي ينوب عن التجار الأجانب في مصر الفاطمية ومن مهمّاته خزن وعرض السلع في السوق، والوكيل هو المُشْرِف أيضاً على الميناء وجابي الضرائب لفائدة الديوان (الجمارك). وقد أخذ هذا الموظّف شكلاً مادّيّاً منذ القرن الثاني عشر وبرزت الوكالة كفضاء تجاري وكمخزن للسلع ومكان لجمع الضرائب وإقامة التجار بصورة عَرَضية. وبنى الوزير الفاطميّ، مأمون البطائحي سنة 1122م دار الوكالة بالقاهرة لخزن البضائع وإقامة التجار الواصلين

= حول الخانات الموجودة على طريق الحَجّ، انظر A. Petersen, "The Archeology of the Syrian and Iraqi Hajj Routes," *World Archeology* 26 (1994) 51.

(85) L. Torres Balbás, *Ciudades Hispano-musulmanas* (Madrid: Instituto Hispano-Árabe de Cultura, 2nd ed., 1985) 345-346.

(86) المَقْريزي، أسواق القاهرة، ترجمة A. Raymond and G. Wiet, *les marchés du Caire Traduction annotée du texte de Maqrīzī*, ed. Textes arabes et études islamique 14 (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1979) 19. Wladyslaw Kubiak, *Al-Fusṭāṭ. Its Foundation and Early Urban Development* (Cairo: American University in Cairo Press, 1987) 127.

(87) المَقْريزي، أسواق القاهرة، ص19، حول دمشق انظر ابن جُبَيْر، الرِّحلة، ص288 (ص302 من الكتاب المترجم) حول المَوْصِل، نفس المصدر، ص235 (ص244 من الكتاب المترجم).

من الشام والعراق(88). وربّما كانت دار الوكالة هذه أداةً لمراقبة أعمال التجار وحصر أرباحهم. فبعد قرن من هذا التاريخ أمر ابن شُكْر، وزير السُّلطان الأيوبي الملك الكامل 1218-1238 في فترة الاضطراب المالي الذي عرفه حكم هذا الأخير، أن تُغْلَق الفَنادق والوكالات "التي كانت تُباع فيها السِّلَع مثل الكتّان وأشياء أُخرى، وأمر ألّا يشتري أحد سِلْعة إلّا من دار وكالة السُّلطان"(89). تفيد هذه الرواية أن الفَنادق الخاصّة والوكالات كانت لها الوظائف التجارية نفسها في ذلك الوقت. وسيتّضح التداخل بين المؤسّستين أكثر في عصر المماليك (انظر الفصل السابع).

فالتشابه بين الفَنادق والقَيْصَريّات والوكالات يكشف عن مدى تطوّر الفُنْدُق نحو مؤسّسة تجارية وجبائية في الإطار الإسلاميّ الوسيط. وكما سنرى في الفصل التالي أنّ الفُنْدُق سيواصل إيواء المسافرين (والآن مجّاناً في بعض الحالات) ولكنّه سيصبح مكاناً حسّاساً في المدينة بالنسبة إلى التِّجارة وأداةً لتدخُّل الدولة فيها. فقد استعمل الحكّام المسلمون والإدارة الإسلامية الفَنادق كمَقرّات لفرض الضرائب على المعاملات التجارية ومراقبة خزن السلع وتوزيع بعض المواد وفي بعض الحالات تنظيم حركة بعض أصناف التجار. وستصبح هذه الأدوار الاقتصادية في الفترة اللاحقة علامةً هامّةً على تحديد مَسار الفُنْدُق الذي سيتطوّر نحو أشكال ومواقع جديدة.

من الفُنْدُق إلى الفُنْداكس: العودة من العالم الإسلاميّ إلى بيزنطة

بدأ هذا الفصل بانتقال الكلمة والمؤسّسة من بيزنطة إلى الإطار الإسلاميّ المبكِّر، ولكن هناك أيضاً حركة متأخّرة في الاتجاه المعاكس. فقد ظهرت في القرن الحادي عشر مؤسّسة جديدة في بيزنطة تسمّى الفُنْداكس. رغم القول بأن هذا المركز التجاري أو مستودع السلع كان مثالاً للفُنْدُق، ففي الواقع كان التأثير

(88) ابن مُيَسَّر، أخبار مصر، تحقيق Henri Massé (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1919) 62.

(89) Sāwirus ibn al-Muqaffa', *History of the Patriarchs of the Egyptian Church*, ed. Antoine Khater and O. H. E. Burmester, IV, I (Paris: P. Fages, 1904; repr. Cairo: Société d'archéologie copte, 1974) Arabic 32-33, English 68.

في اتجاه آخر إذ كان الفُنْدُق نموذجاً للفُنْداكس. إذا لم يكن هناك شيء آخر، فالشكل اليونانيّ للكلمة يُحيل إلى أصلها العربي(90). وهذه ملاحظة مهمّة بما أنها تبيّن حيوية المواصلات والتّجارة وتعدّد اتجاهاتها في العالم المتوسّطي في العصر الوسيط. فقد تخطّت المُصطلحات التجارية والمؤسّسات حدود اللّغة والثقافة. فما كان صالحاً ونافعاً خاصّة بالنسبة إلى التجار والحكّام يمكن نقله من جِهَة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر ولو أدّى ذلك إلى تغيير بعض الخصائص لملاءمتها مع مختلف القواعد الدينية والثقافية.

ومن المعبّر أنّ كلمة بَنْدوكيون كانت قليلة الاستعمال قي بيزنطة في الوقت الذي ظهرت فيه كلمة فُنْداكس، لذلك لا يبدو محتملاً أنّ كلمة فُنْداكس بمعنييها اللّغويّ والوظيفيّ، مشتقّة من هذا المصدر. ويورد نيكاتاس خونياتس «Niketas Choniates» جُمْلة مفردة يقول فيها إن الإمبراطور إسحاق الثاني أنجلوس (1185-1195م) حوّل بيتاً مُطِلّاً على ميناء القُسطنطينية إلى بَنْدوكيون. "وهناك يوفّر الغذاء والسكن لمئة شخص وبُنيت إسطبلات لما يماثل ذلك العدد من دوابّ النقل، وكان عابرو السبيل يُستقبلون يومياً كضيوف فيقضون أياماً عديدة دون أن يدفعوا أيّ مقابل"(91). فمن الواضح أنّ هذه البناية كانت فُنْدُقاً والضيوف ربّما كانوا من التجار بما أنهم يصلون ومعهم دوابّ محمّلة بالبضائع. ويبدو أنّ الطابع التجاري والوظيفة الخَيْرية لهذه المؤسّسة قد أخذا بعض الشيء من الفُنْدُق المعاصر(92). ومع أنّ هذا البَنْدوكيون كان من إنشاء الإمبراطور فلم يكن هناك ما

(90) Gazagnadou, «Une Précision.» رغم أنه من المحتمل أن تكون لفظة فُنْداكس [foundax] مشتقّة من الفُنْدُق عبر اللّغة اللاتينية أو اللّغات الرومانسية عن طريق نظائر مثل فُنديكوم [fundicum] وفُنداكو [fondaco] ومن هناك دخلت بواسطة التُّجّار المسيحيين، ولكن عدم وجود أيّ طابع سَكَنيّ أو "وَطَنيّ لها" يجعل هذا الاشتقاق قليل الاحتمال (انظر مناقشة ذلك في الفصل الرابع).

(91) Niketas Choniates, *Historia*, ed. J. L. van Dieten (Berlin: Walter de Gruyter, 1975) I, 445; trans. Harry J. Margoulias, *O City of Byzantium, Annals of Niketas Choniatēs*, Detroit: Wayne State University Press, 1984) 244.

(92) هناك بعض الأدلّة على أن شهرة البَنْدوكيون قد تطوّرت مع مرور الزمن وبما يكون ذلك تحت تأثير الفُنْدُق. وفي حالة نادرة لاستعمال اللفظة يبدو البَنْدوكيون في صورة إيجابية من خلال سيرة ثيودور الرُّهاوي. يروي صاحب هذه السيرة أن القديس ذكر حكاية رمزية =

يفيد بِنيّة مراقبة توزيع وبيع البضائع. ويبدو أن الدوافع التي كانت تُحرِّك الإمبراطور إسحاق هي فعل الخير وليس تحصيل الأرباح. على عكس ذلك كان الفُنْداكس مؤسّسة جِبائيّة وتنظيميّة بحتة. فقد وصف ميخائيل الأتالي (ت 1085) «Michael Attaleitates» فُنْداكساً -كان مخزناً رسميّاً للحبوب- موجوداً خارج مدينة رودستو «Rodosto» ميناء مدينة أدرنة وذلك في أواخر القرن الحادي عشر، ويحتمل أن يكون ذلك في عهد الإمبراطور ميخائيل السابع (1071-1078م)[93]. فقد كانت رودستو محطّة هامّةً لشحن الحبوب وكان التجار مطالبين بتسليم حمولتهم في ذلك الفُنْداكس الذي تُباع فيه الحبوب وفقاً لتسعيرة مضبوطة وهناك ورودات أُخرى لكلمة فُنْداكس منها واحدٌ من سجلّ خاصّ بدير أسّسه إسحاق كومنانوس «Isaac Komnenos» سنة 1152م، تشير هي الأُخرى إلى مستودعات للسلع أكثر منها أماكن لإقامة التجار[94].

يبدو أن ميخائيل الأتالي لم يكن من مناصري الفُنْداكس الذي يفضّل عليه نظام توزيع المساعدات عبر المؤسّسات الدينية حيث "تحمل العديد من العربات الحبوب ويُباع ليتمّ توزيعه على المؤسّسات الخَيْرية (كسينودوكيون) وما هو تابع للكنيسة العُظمى كنيسة أيا صوفيا وفي كثير من البِقاع، ويجعلون العمل راكداً،

= تتحدث عن مسافر فقير وجد ملجأ في أحد البَنْدوكيونات بعد رحلة شاقّة عبر مسالك ضيّقة في حين قُتل مسافر غنيّ كان يمرّ بطريق سهلة ومتّسعة من قبل قُطّاع الطُّرُق (*Žitie iže vo svjatych otca našego Feodora archiepiskopa Edesskogo*, ed. I. Pomjalovskij [St. Petersburg: Tip. Imp. Akademii nauk, 1892] 80؛ أشكر دافيد جينكينز [David Jenkins] لترجمته هذه الفقرة. تُنسب هذه السيرة إلى باسيل الحمصي [Basil of Emesa] (توفّي سنة 860م) الذي كان يكتب في دير مار صابا ولكن من المحتمل أنه حصلت لها إضافات في بداية القرن الحادي عشر، ورغم أن النصّ كُتب باللُّغة اليونانية فإن ممّا لا شكّ فيه أن الكاتب كان يعرف كذلك اللُّغة العربية (Sidney Griffith, "Greek into Arabic: Life and Lettres in the Monasteries of Palestine in the Ninth Century; the Example of the *Summa Theologiae Arabica*," *Byzantion* 56 [1986] 131-132).

(93) *La Diataxis de Michel Attaliate* (Paris: Institut français d'études byzantines, 1981) 202-203. أشكر ميخائيل ماك كورميك لملاحظاته حول مؤسّسة الفُنْداكس [the *foundax*].

(94) *Byzantine Monastic Foundation Documents*, ed. John Thomas and Angela Hero (Washington, DC: Dumbarton Oaks, 2000) 829.

مثلما هو مبرمج، دون عوائق وهكذا يعمّ الازدهار الجميع"[95]. وعلى العكس من ذلك فهو يرفض المصاعب الاقتصاديّة التي تحدث عندما "بنى رجل سيّئ تماماً (اللوغوثيت logothete نيكوفوروس) فُنْداكساً خارج المدينة وأمر العربات بأن تتجمّع هناك وأعلن ذلك باسم الإمبراطور وفرض احتكاراً على الحبوب وهي أكثر المواد الضرورية التي يحتاج إليها الناس، بما أنه لا يمكن لأحد أن يشتريها إلّا من الفُنْداكس المذكور وهو فُنْداكس الشرّ اسماً وعملاً. وبسبب ذلك قلّت الحبوب وافتقرت المُدُن واشتدّ غضب الربّ على الرُّوم. ولم يَعُد الأمرُ كما كان من قبل، أن من كان يرغب في اقتناء كمّيّات كبيرة من الحبوب وبعد ذلك يُمضي عقداً مع المشتري وإذا لم يَرُقْه الوضع فهو ينتقل من مكان إلى آخر وهكذا يمارس نشاطه وهو فوق عربته. . . فالفُنْداكس كان مَقْصد تجار الحبوب الذين يقيمون به ولكن هناك أيضاً تجار حبوب آخرين، فهولاء يخطفون الحبوب مسبّقاً ويشترونها ويهرّبونها ويسعون في مضاعفة الربح ثلاث مرّات. فلم يعد هناك من يشتري من العربات الجوّالة ولم يَعُد هناك تجار يستوردون الحبوب للإمبراطورية ولا سكّان المُدُن ولا سكّان الريف ولا أحد غيرهم. فأصبح مهرِّبو الحبوب المستقرّون في الفُنْداكس يتصرفون حسب أهوائهم"[96].

وكما سيزداد الأمر وضوحاً في الفصل القادم، فإن هناك تشابهاً قويّاً في وظائف الفُنْداكس البيزنطيّ في القرن الحادي عشر ومعاصره الفُنْدُق الإسلاميّ. فقد كان كلاهما مخزناً للمواد التي تدعمها الدولة، حيث هناك بعض المواد الخاصّة (مثل الحبوب) التي تُباع بأسعار تضبطها الدولة، وحيث كان التجار مطالبين بجلب بضائعهم.

وبصورة إجمالية من حيث الأحرف التي تُكوِّن الكلمة (التَّهْجئة) والوظيفة والتدرُّج الزمني للفُنْداكس كلّ ذلك يشير إلى أنَّ هذه المؤسّسة هي من صلب مؤسّسة الفُنْدُق العربية المعاصرة لها. فنيكوفوروس «Nikephoros» وهو إداريّ

(95) Attaleiates, *La Diataxis de Michel Attaliate*, 202-203. يذكّر استعمال لفظة الكسينودوكيون [*xenodocheions*] بالموازاة للمقارنة ما بين البَنْدوكيون الدُّنيوي والكسينودوكيون الروحي في النصوص القديمة.

(96) *La Diataxis de Michel Attaliate*, 202-203.

اشتغل مرتين خطّة والٍ في أنطاكية (وقد كان مطّلعاً على المؤسّسات التجارية الإسلامية) ربّما كانت له يد في هذا التحوُّل المؤسّسي[97]. فلا نستغرب ظهور الفُنْداكس في القرن الحادي عشر خاصّة في الفترة التي كانت فيها التِّجارة المتوسّطية تنمو بوتيرة سريعة. فقد كان الفُنْدُق مألوفاً بالنسبة إلى التجار المسلمين واليهود الذين يتاجرون في الحبوب وغيرها من البضائع الأُخرى بين الموانئ الإسلامية والموانئ البيزنطية وكذلك بالنسبة إلى التجار اليونانيّين العائدين إلى بلادهم من أسواق العالم الإسلاميّ[98]. فما هو واضح هو أنّ الفُنْدُق كان مؤسّسةً راسخةً بما فيه الكفاية في دار الإسلام في تلك الفترة بما يكفي ليؤثّر في غيره من المنشآت.

فقد كان مؤسّسة تجارية وخَيْرية وفي الوقت نفسه مقرّاً لإقامة المسافرين. وقد كان للحكّام ونُوّابهم كما كان للتُّجّار وغيرهم من الخواصّ دَوْر في إنشاء وتسيير هذه المؤسّسات. وسيتناول الفصل التالي بدقة أكثر وظائف الفُنْدُق في المتوسّط الإسلاميّ طوال القرنين الحادي عشر والثاني عشر.

---

(97) لقد استعاد البيزنطيون مدينة أنطاكية سنة 969م، انظر: Hugh Kennedy, "Antioch: From Byzantium to Islam and back again," in *The City in Late Antiquity*, ed. J. Rich (London: Routledge, 1992) 181-198.

(98) حول تجارة الحبوب واحتكاراتها في بيزنطة، انظر:

G. I. Bratianu, "L'Expérience d'économie dirigée: le monopolie du blé à Byzance au xie siècle," *Byzantion* 9 (1934) 643-662.

الفصل الثالث

التِّجارة والصَّدَقة والجَماعة والفُنْدُق

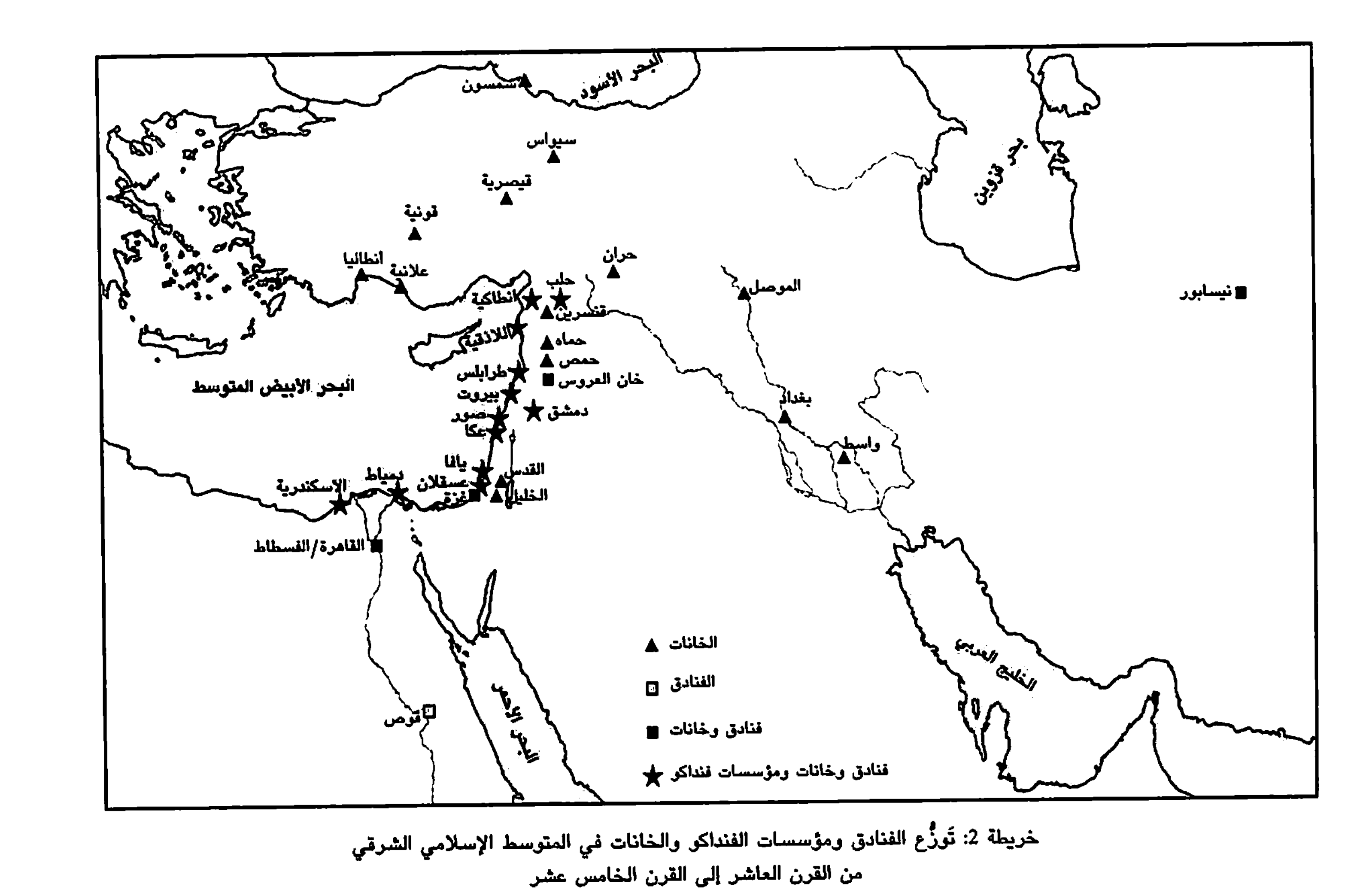
على عكس قلّة المعلومات التي كانت سائدةً نسبيّاً في بداية الإسلام، فقد عرف الفُنْدُق ازدهاره عبر المتوسّط الإسلاميّ خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر. فأخذت النصوص العربية والعربية ـ اليهودية من بلاد الشام في عهد الأيوبيّين إلى الأندلُس المُرابطية تذكر الفَنادق وغيرها من أماكن الإقامة باستمرار مؤكّدة بوضوح على أنّ مثل هذه المُؤسّسات هي من مكوّنات التجهيزات الحَضَرِيّة الراسخة والغالبة. فقد كانت المُدُن التجارية الكبرى تحتوي على مائة فُنْدُق أو أكثر داخل أسوارها. وقد ذكر الإدريسيّ عدداً مُذْهِلاً يمثّل 970 فُنْدُقاً في ميناء ألْمَرِيّة الأندلُسي حوالى سنة 1150م[1].

ولكن رغم انتشاره، فإن الفُنْدُق يظلّ عنصراً في المجتمع والاقتصاد الحَضَري الإسلاميّ، منقوصَ الدرس ولذلك غيرَ مفهوم.

فماذا كانت وظائفه؟ تعبّر المواد المتعلّقة بالفَنادق التي تعود إلى القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر عن نضج التوجّه الذي كان ملحوظاً في بداية الإسلام. الأمر الأوّل والرئيسي في الفُنْدُق هو أنه كان فضاءً تجارياً يوفّر للتُّجّار ما يحتاجون إليه من سكن وتخزين وأمن. كما كانت الفَنادق تعمل كمواقع تقوم فيها السُّلطات الحَضَرية بجمع الضرائب الموظّفة على المعاملات التجارية وتنظّم توزيع بعض المواد ومراقبة أنشطة التجار.

---

(1) الإدريسي، كتاب نُزْهة المُشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق ed. E. Cerulli et al. (Rome and Naples: Istituto universitario orientale di Napoli, 1970-1984)؛ أعيد طبعه في بيروت، عالم الكتب، 1989م، ص562-563.



خريطة 2: تَوزُّع الفنادق ومؤسسات الفنداكو والخانات في المتوسط الإسلامي الشرقي من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر

وفي الوقت نفسه كانت هذه الفَنادق توفّر ملاجئ للحَجيج والفُقراء أو تأمين مداخيل للأوقاف. فبعد نظرة عامّة عن الوظائف التجارية والخَيْرية، سيتناول الفصل دراسة عناصر الفُنْدُق المِعْمارية ومرافقه وإدارته وتطوّره نحو الارتباط التطوّري بشرب الخمر والبغاء والجرائم وكذلك دَوْر الفَنادق في تحديد هُويّات الجماعات في العالم الإسلاميّ الوسيط. من البديهيات أن الأدلّة على دور الفُنْدُق في الممارسة التجارية وجمع الضرائب أن توفّر مادّة عن الحضور الفعلي للأنشطة التجارية وتأثير ذلك في الأسعار وعن الفرق بين البيع بالجُمْلة والبيع بالتفصيل (بالتجزئة، بالمفرق) وعن معاليم (تكاليف) الكِراء وعن اللزمة لجمع الضرائب وعن دور الحكّام المسلمين في العصر الوسيط لمراقبة التجار والاستفادة من التّجارة في الوقت نفسه. قد كانت الفَنادق وغيرها من التجهيزات التجارية من أكثر المشاريع المربحة وأكثرها جذباً للاستثمار سواء أكان من جِهَة الدولة أو من جِهَة الخواصّ. فالأرباح التي تدرُّها أجور الخدمات والضرائب الديوانية ومعاليم الكِراء يمكن أن تصرف لفائدة الأوقاف ويمكن أن تدخل خزينة المدينة أو حساب الخواصّ. كما يمكن لأصحاب السُّلطة أن يراقبوا من خلال الفَنادق حركة التجار والبضائع ويمكنهم تطوير التّجارة على بعض الطُّرُقات ويضمنون جمع الضرائب على المبيعات وعلى الواردات. كما يمكن أن يوفّر الفُنْدُق الإقامة لممثّلي السُّلطة والسُّفراء والرُّسُل وأعوان البريد. ونظراً لأهمّيتها فقد كانت الفَنادق محلّ عناية دقيقة من لدن أعوان الحِسْبة. وسيكون الربط بين الربح والتنظيم خيطاً ناظماً ما دامت المؤسّسة تتطوّر في الزمان وعبر الثقافات.

الفُنْدُق فضاءً تجارياً

قدّم ابن حَوْقَل في سنوات 970م وصفاً تقليديّاً لدور الفَنادق والخانات كفضاءات تجارية في نيسابور. وهذه المدينة التي توجد بخُراسان **"فيها خانات وفَنادق يسكنها التجار بالتجارات وفيها الخانبارات للبيع والشراء. فيقصد كلّ فُنْدُق بما يُعلم أنه يغلب على أهله من أنواع التّجارة وأقل فُنْدُق منها لا يضاهي أكابر الأسواق ذوي جنسه. ويسكن هذه الفَنادق أهل اليسار ممَّن في ذلك الطريق من التّجارة وأهل البضائع الكبار والأموال الغِزار، ولغير المياسير فَنادق وخانات يسكنها أهل المِهَن وأرباب الصنائع. . . وغير فُنْدُق فيه الحوانيت والحُجُر المملوءة بهم**

وكذلك الأساكفة والخرّازون والحبّالون إلى غير ذلك، في أضعاف أسواقهم الفَنادق المملوءة بذوي الصنائع منهم، وأمّا فُنذُق البزّازين وخانباراتهم بها وبيعهم فيها وشراهم، فأكثر البلدان يشاركهم فيها ولا يقصّرون عنهم...[2].

يشير هذا الملخّص إلى أنّ الفَنادق كانت فيها فضاءات للإقامة ومراكز للتّجارة لا لأثرياء التجار فقط ولكن كذلك لتجار أكثر تواضعاً. كما توفّر أماكن للعمل والعيش ودكاكين توفّر ما يحتاج إليه الحِرَفيُّون. ويشير ابن حَوْقَل كذلك إلى أن هذه المجموعات المختلفة كانت مختصّة بفَنادق معيّنة بحسب وظائف ساكنيها.

وتؤكّد مُراسلات التجار أن مُرسليها ومتقبّليها كانوا هم أيضاً يسكنون الفَنادق عندما يكونون على سفر أو في عمل تجاري. هناك رسالة باللُّغة العربية من القرن الحادي عشر وُجّهت إلى تاجر يقيم بفُنْدُق ابن بَصّار بالفُسْطاط[3]. وتشير وثائق الجِنِيزة القاهرية اليهودية-العربية، إلى أن التجار اليهود مَثَلُهم مَثَلُ نُظرائهم من المسلمين، كانوا يقيمون بانتظام في الفَنادق[4]. وهذا أمر مؤكّد في مصر مثلما هو واضح من رسالة أُرسلت إلى تاجر مقيم

---

(2) ابن حَوْقَل، كتاب صورة الأرض، ص432-433.

(3) W. Diem, *Arabische Geschäftsbriefe des 10. bis 14. Jahrhunderts aus der Österreichischen Nationalbibliothek in Wien* (Wiesbaden: Harrassowitz, 1995) 115. أشكر لي غوو [Li Guo] للفت انتباهي إلى هذا النصّ.

(4) لقد تمَّ العثور على هذه الوثائق في مستودع مخفيّ (جِنِيزة) داخل بِيعة يهودية في القاهرة وهي تحتوي على العديد من الإشارات المتعلّقة بالفُنْدُق الذي يقصده اليهود في مصر وفي غيرها. وقد جادل ش. غويتاين [S. D. Goitein] أن التُّجّار المذكورين في وثائق الجِنِيزة كانوا عادة يفضّلون الإقامة مع أفراد عائلاتهم أو مع شركائهم في الأعمال التجارية أكثر من الإقامة في الفَنادق (*A Mediterranean Society*, I [1967], 187, 350). وقد تمّت الإحالة على وثائق الجِنِيزة حسب المجموعة التي عُثِر عليها حتى الآن. TS (Taylor Schechter collection, University Library, Cambridge); Bodl (Bodleian Library, Oxford); ENA (Elkan Adler collection, Jewish Theological Seminary, New York); BM (British Museum, London); DK (David Kaufman collection, Budapest). أشكر مارك كوهين [Mark Cohen] ومَخْبَر وثائق الجِنِيزة بجامعة برنستون لسماحهما لي باستعمال ما لم ينشر من أعمال غويتاين من ملاحظات حول الفُنْدُق في نصوص الجِنِيزة.

بفُنْدُق القَمْرة بالإسكندرية وهي ظاهرة أكثر انتشاراً في بلاد المغرب[5]. فقد أقام أحد التجار في بداية القرن الحادي عشر بفُنْدُق الزَّبيب بتونس، كما توجد رسالة أُخرى من القرن الحادي عشر (بالحروف العربيّة) موجّهة إلى تاجر في سوسة يقيم بفُنْدُق في باب مسكين بالقرب من المسجد". وكان مُتَقَبِّل الرسالة يقيم بالفُنْدُق رغم أن له أهلاً بالمدينة[6]. وتُورد رسالة ثالثة كتبها تاجر مصريّ هو نَهْراي بن نِسِّيم سنة 1046م معلومات عن مبالغ سُدّدت على رسوم وخزن البضاعة في فُنْدُقين مختلفين بالمَهْديّة، رغم أنه ربّما كان أقام بالمدينة مع بعض من رفقته[7]. كما تُورد رسالة رابعة كُتبت حوالى سنة 1100م معلومات عن كلفة نقل البضائع إلى الفُنْدُق بتونس[8]، وهناك رسالة خامسة من منتصف القرن الحادي عشر تتحدّث عن إرجاع دَيْن لأحد المُقْرِضين بفُنْدُق أبي موسى بدمشق[9].

ويقتضي وصف المُدُن الإسلامية إدراج الفَنادق ضمن مجموعة من المباني الأُخرى ممّا يجعل عبارة "وفيها فَنادق وأسواق وحمّامات" من العبارات الشكلية للحديث عن مركز تجاري نشيط. يستعمل ابن حَوْقَل وغيره من جغرافيّي القرن العاشر باستمرار جُمْلة فيها "الأسواق والحمّامات والفَنادق". ويعدّد البَكْري الذي كان يكتب في سنوات 1060م، الأسواق والمساجد والحمّامات والفَنادق في تونس وصَفاقس والمُنَستير وقابِس وفي مُدُن أُخرى بشمال إفريقيا[10]. وكذلك الإدريسيّ في القرن الثاني عشر لم يخرج عن المألوف في وصفه لمُدُن الأندلُس

---

(5) TS 10 J 12.16.

(6) TS 12.124 and TS 16.264; Goitein, *A Mediterranean Society*, I, 349-350.

(7) Bodl MS Heb. e 98 f. 65v . انظر تعاليق ش. د. غويتاين ضمن *Letters of Medieval Jewish Traders* (Princeton: Princeton University Press, 1973) 278-286 . تذكر رسالة أُخرى أن الكاتب قد "دفع أجر مبيت ليلتين في فُنْدُق بالقرب من الفُسْطاط بصورة مُسبقة قائلاً لصاحب الفُنْدُق لكي لا يقيم أحد في مكانه (Goitein, *A Mediterranean Society*, I, 350).

(8) Gottheil-Worrell XXXVI; R. Gottheil and W. Worrell, *Fragments from the Cairo Genizah in the Freer Collection* (New York: Macmillan, 1927) 36.

(9) TS NS J 14 (previously TS NS 94 J 14); edited by S. D. Goitein in *Palestinian Jewry in Early Islamic and Crusader Times in Light of the Cairo Geniza Documents* (Jerusalem: Yad Izhak ben Zvi Publications, 1980) 104.

(10) البَكْري، الكتاب المعروف بالمسالك، ص17، 20، 28، 29، 40، 56.

التي كان يعرفها أكثر من غيرها[11]. فكان احتواء المُدُن على هذه التجهيزات أمراً روتينيّاً. فتونس مثلاً كان بها خمسة عشر حمّاماً وفنادق بِعدّة طبقات وفق تعبير البَكْري وغيره ممَّن ذكر أموراً عجيبة[12].

من الواضح أنّ شبكة الفَنادق والحمّامات والأسواق هي من الأشياء التي كان أيّ قارئ أو مسافر يتوقّع أن يجدها في أيّ مدينة إسلامية. فقد كانت الفَنادق عادة موجودة بجوار السوق المركزية، وعلى جانب الشارع الرئيسي وبالقرب من أبواب المُدُن. وتكون ملاصقة للحمّامات والمساجد والدكاكين ربّما لأجل راحة التجار وغيرهم من المسافرين المقيمين هناك وللمشترين الذين يرغبون في ابتياع بعض البضائع من الفُنْدُق. توفّر هذه المنشآت الحاجات الضرورية والعمليّة، فلمّا حاصر الخليفة الفاطميّ العزيز (975-996م) مدينة حلب لمدّة ثلاثة عشر شهراً، يقول أحد المؤلّفين المتأخّرين إن الجند قاموا ببناء "الحمّامات والدكاكين والفَنادق «بوتقة/putqās»" لتوفير حاجاتهم اليومية طوال مدّة الحصار[13]. فالرَّبْط بين الفَنادق والحمّامات والمساجد والأسواق هو كذلك دليل على الوضعية الإدارية والجِبائية لمثل هذه المنشآت الحَضَريّة. كلّ هذه المؤسّسات هي لفائدة العُموم ولذلك كانت تحت رقابة السُلطات الحَضَرية. وتعود مداخيلها في كثير من الحالات إمّا إلى مؤسّسات وَقْفِيّة وإما إلى خزينة الدولة.

فالأوصاف التي قُدّمت عن الفَنادق في بداية نشوئها لا تفيد فقط بأنها مواقع تجارية بل تفيد كذلك بأن التِّجارة داخلها تختلف نوعاً ما عن التِّجارة في السوق. فمن الواضح جداً أنّ الأسعار داخل الفَنادق يمكن أن تكون أعلى ممّا

---

(11) الإدريسي، كتاب نُزْهة المُشتاق، ص564-565، 569، 570، 575. يوجد هذا النَّمَط في لغات أُخرى، فقد لاحظ ناصر خسرو مثلاً، وهو رحالة فارسي من القرن الحادي عشر، عن الخان (كَروانسرية) وجود الأسواق والحمّامات والمساجد قرب ديار بكر في منطقة الأناضول. (*Tahlīl-i Safarnāmah*, 72, *Book of Travels*, 8).

(12) البَكْري، كتاب المعروف، ص40.

(13) ابو الفرج بن العبريّ، تاريخ الزمان، تحقيق وترجمة *The Chronography of Gregory Abū'l-Faraj*, ed. and trans. (London: Oxford University Press, 1932) Syriac 199; English 179.

هي عليه في السوق كما أنّ الفَنادق ليست مفتوحة لعُموم الناس وهما أمران جعلا الفُقهاء يقفون موقفاً مُناوئاً لها.

تقول فتوى من أواخر القرن التاسع منسوبة إلى الفقيه التونسيّ يحيى بن عمر (ت901م): "على صاحب السوق أن يأمر البدويين إذا أتوا بالطعام ليبيعوه فلا يتركوه في الدُّور والفَنادق وأن لا يبيعوه في الفَنادق ولا في الدور، وأن يخرجوه إلى أسواق المسلمين حيث يدركه الضعيف والعجوزة الكبيرة... حتى وإن اعترض البائع على أنّ ذلك يخفض من سعر بضاعته ويُطيل مدّة مكوثه في المدينة"[14].

ويذكر الدِّمَشْقيّ في فترة لاحقة في كتابه الإشارة إلى محاسن التِّجارة أن أسعار البضائع التي تُباع في الفَنادق وفي الدُّور الخاصّة تختلف عما هي عليه في الأسواق العامّة[15]. يبدو أنّ الأسعار المرتفعة هي في جزء منها نتيجة للضرائب المفروضة على هذه البضائع سواء بالنسبة إلى البائع أو إلى المشتري. وبالمناسبة يذكر المَقْدِسيّ في القرن العاشر أنّ الأسعار كانت مرتفعة بصورة خاصّة في القدس "نظراً لثقل الضرائب على ما يُباع في الفَنادق"[16]. فلم يكن غير معهود بالنسبة إلى البضائع التي تصل إلى الموانئ الإسلامية في العصر الوسيط أن تدفع العُشْرَ على قيمتها وكذلك كانت تدفع تكاليف الاستيراد والبيع في الفُنْدُق ومراكز الديوان (الجمارك) حيث يراقب موظَّفو الحكومة حركة السلع ومبادلتها. كانت المعاليم في الفَنادق، حيث يُطلب إلى التجار جلب سلعهم وبيعها، تتركَّز على تلك البيوع، بينما كانت تُؤخذ ضرائب إضافية للإقامة والخزن وإيواء الحيوانات المعدّة للنقل.

ونظراً لقيمة البضائع التي توجد في بعض الفَنادق (مثل الحرير) والمعدّة للتصدير والتوريد فإنها لم تكن مرتبطة بالأوضاع الاقتصادية المحلية وبالأسعار المتداولة[17]. وبدلاً من ذلك فهي تقوم مقام المخازن للمواد المستوردة التي تمّ

---

(14) الونشريسي، المعيار، الجزء السادس، ص426.

(15) الدِّمَشْقي، كتاب الاشارة إلى محاسن التِّجارة، دار ألف باء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1983م، ص119. قد يعود هذا التأليف إلى القرن الحادي عشر.

(16) المَقْدِسي، أحسن التقاسيم، ص167.

(17) لقد كان هناك فُنْدُق الحرير في تونس قبل العهد الحَفْصِي بالقرب من باب سويقة والذي ربّما كانت له علاقة بتجارة الحرير أو كان موجوداً في سوق الحرير =

شراؤها أو بيعها وتمّ خزنها داخل أسوار الفُنْدُق. وستكون مِيزة حسنة بالنسبة للتُّجّار الجِدّيين وخاصّة التجار المحترفين الذين يعملون على نطاق واسع، أن يعرفوا أنّ بضائعَ من نوع معيَّن ومن قيمة رفيعة تُباع في هذا الفُنْدُق أو ذاك. وحتى وإن كانت الأسعار مرتفعة فهي تتغيّر بحسب العَرْض والطّلب. وإذا كان التاجر محظوظاً فإنّ المواد الثمينة تنال أسعاراً مرتفعة لأنها معدّة لتلبية حاجات الأعيان المحليين الأثرياء أو تُحمل لتُباع في أماكن أُخرى.

هناك فَنادق أُخرى معدّة للمواد الغذائية (الحبوب والفاكهة والملح والسكّر والعسل وغير ذلك من هذه المواد)؛ وهي تعمل بطريقة مختلفة ولو أنها تختلف في نشاطها عن الأسواق. وهذا تقريباً هو النوع السائد من الفَنادق التجارية ومن أكثر ميزاتها أنها مَثَلُها مَثَلُ المؤسَّسات المعدّة للمواد الثمينة بما أن التجار يستفيدون من الأمن ومن شهرة الموقع. وعلى عكس المواد الثمينة النادرة التي تتطلّب أسعاراً باهظة من بين عدد قليل نسبيّاً من المشترين تكون المواد الغذائية محلّ طلب عامّ دائم.

تلعب الفَنادق دوراً هامّاً في جمع وتخزين وتوزيع المواد الغذائية وربّما تُساهِم في استقرار الأسعار. وبدون أيّ شكل من أشكال المراقبة، فإن الأسعار تتغيّر كثيراً بحسب العَرْض خاصّة في فترات الجفاف والمجاعة حيث ترتفع أسعار القمح والشعير وغيرهما من الحبوب الأُخرى بسرعة السهم. ولأجل التحكّم في الأسعار وتوفير الغذاء بصورة مستمرّة وتوفير الربح للدولة، فإن الحكّام يتدخّلون في توفير وتسعير المواد الغذائية الأساسية. ففي بعض الأوقات، خاصّة في العهد المملوكيّ، ارتأى أصحاب السُّلطة فرض نوع من الاحتكار الحقيقي على بيع بعض المواد. فكثيراً ما نجد في أواخر العصر الوسيط فَنادق حكومية لخزن القمح والملح ومواد أُخرى تُباع بأسعار محدَّدة في المُدُن الإسلاميّة المسيحية في العالم المتوسّطي. لا تتوافر معلومات كافية عن هذه المسألة في فترات سابقة ولكن يبدو أنّ هذا النموذج كان موجوداً في العصر الأيّوبي (حيث أُنشئ فُنْدُق خاصّ

= (M. Chapoutot-Remadi, "Tunis", in *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, ed. J. C. Garcin [Rome: Ecole Français de Rome, 2000] plats at back of book, Tunis map3).

بالحبوب في مدينة حلب من قِبَل الملك الظاهر في سنوات 1180م وربّما قبل تلك الفترة)[18].

وحتى وإن كانت المواد الغذائية نادراً ما تحتكرها الدولة فإن الحُكّام كانوا دائماً متحمّسين لمراقبة نقلها وخزنها وبيعها وكانت الفَنادق هي التي توفّر الوسيلة للقيام بذلك[19]. وفي نصّ من نصوص الجِنيزة هناك دعوة رفعها أحد التجار اليهود إلى قاضٍ مسلم تتعلّق ببضاعة كان قد اشتراها من الدولة وخزّنها في الفُنْدُق ولكنّه اكتشف فيما بعد أنه لا يستطيع نقلها لأنّ الدولة تريد استرجاعها منه[20]. فإذا اعترض التجار على تنظيمات الدولة أو رغبوا في نقل بضائعهم إلى مكان آخر فإن الحكّام كانوا يلحّون في الإبقاء عليها في الفُنْدُق. وفي الوقت نفسه كان المُحْتَسِبون مُطالَبين بالتأكّد من أن التجار لا ينزلون عند معارفهم أو عند الوكلاء التجاريين أو عند شركائهم[21]. ولئن تبدو هذه الرقابة مقيّدة من وجهة النظر المعاصرة فلا يبدو أن التجار كانوا يعترضون ـ على الأقلّ ليس بشدّة ـ ما دامت غير مكبِّلة كثيراً وما دامت الضرائب معقولة. وفي الواقع فإن التجار كانوا مستفيدين من هذا النظام الذي يوفّر لهم السكن والتخزين والقيام بالأعمال التجارية في أماكن معروفة وآمنة[22].

عن الطابع التنظيمي التِّجاريّ والجِبائيّ للفُنْدُق

ظهر الطابع التنظيمي التِّجاريّ والجِبائي للفُنْدُق خلال قرن من الفتوحات الإسلامية ربّما في فترة الإصلاح الإداري والمالي في العهد الأمويّ. يصف

(18) A.-M. Eddé, *La Principauté ayyoubide d'Alep (579/1183-658/1260)* (Stuttgart: Franz Steiner Verlag, 1999) 656.

(19) كانت السُّلطة تمتلك منشآت تجارية أُخرى مثل القَيْصَريّات والأسواق ومخازن الحبوب وغيرها من السِّلَع الأُخرى وهو ما يُمكّنها من أدوات إضافية لمراقبة التِّجارة والتزوُّد.

(20) TS 16.102; Goitein, *A Mediterranean Society*, I, 267.

(21) السَّقَطي، آداب الحِسْبة، تحقيق G. S. Colin and E. Lévi-Provençal (Paris: Librairie Ernest Leroux, 1931) 60.

(22) رغم أن الفَنادق مذكورة في بعض كتب الحِسْبة، فهي لم تكن دائماً تحت نظر المُحْتَسِب (A. ar-Rāziq, "*La ḥisba et le muḥtasib* en Egypte au temps des Mamlūk," *Annales Islamogiques* 13 [1977] 124).

البَلاذُري على سبيل المثال كيف أنشأ الخليفة هشام فُنْدُقاً ودكاكين للحرفيّين في مدينة صُور لتكون مصدراً للدخل في بداية القرن الثامن[23]. ويبدو هذا التوجّه أكثر وضوحاً خلال القرن العاشر وسيصبح قاعدة في ظلّ الفاطميّين والأيوبيّين خلال القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر. وبالتالي يُخطئ القَلْقَشَنْدي (ت 1418م) عندما يقول بأنه لم تكن هناك رِباطات أو فَنادق في مصر قَبْل الأيوبيين[24]. ربّما كان يفكّر في الفَنادق الكبيرة التابعة للدولة والمخازن التي من خلالها كانت الدولة تمارس احتكار بعض المجالات التجارية في منتصف القرن الثالث عشر.

من الأكيد أنّ الفَنادق الرسمية كانت موجودة في مصر قبل الأيوبيين بما أن الخُلفاء الفاطميّين كانوا نشطين في الحَقْل التجاري وكانت الدولة تُشرِف على بعض الفَنادق والدَّكاكين، وحسب صبحي لبيب "فإن أعضاء الدِّيوان الفاطميّ كانوا أكثر الناس تأثيراً "فهم تجار ومنتجون ومستهلكون في هذا الميدان"[25]. وكان الرحّالة الفارسيّ ناصر خسرو قد زار القاهرة الفاطمية في منتصف القرن الحادي عشر وذكر ما يلي: لا يمكن حصر الخانات والحمّامات وغيرها من المباني العُموميّة التي كانت كلُّها ملك السُّلطان ولم يكن لأحد أن يمتلك سوى الدُّور وما بناه بنفسه. وقد سمعت أنه يوجد بالقاهرة وبالفُسْطاط ثمانية آلاف مَبنى مِلْك السُّلطان وهي جميعها مؤجّرة بأسعار شهرية في شكل استئجار حرّ دون أيّ نوع من أنواع القهر[26]. ورغم أن أرقام ناصر خسرو يمكن أن تكون محلّ شكّ فهو على شاكلة ما نجده في مصادر أُخرى[27].

(23) البَلاذُري، كتاب فُتوح البُلدان، ص117-118، (*Origins of the Islamic State*, 181).

(24) القَلْقَشَنْدي، صُبح الأعشى في صِناعة الإنشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1914م، الجزء الثالث، ص368-369، ذكره A. Mez, *The Renaissance of Islam* (London: Luzac & Co., 1937) 462 (ثم أخذه منه باحثون آخرون). انظر كذلك Goitein, *A Mediterranean Society*, I, 349.

(25) S. Labib, "Egyptian Commercial Policy in the Middle Ages," in *Studies in the Economic History of the Middle East from the Rise of Islam to the Present Day*, ed. M. A. Cook (Oxford: Oxford University Press, 1970) 76.

(26) Nāser-e Khosraw, *Tahlīl-i Safarnāmah*, 108, *Book of Travels*, 45.

(27) تذكر وثائق الجِنيزة، على سبيل المثال، العديد من الفَنادق في مصر الفاطمية. فقد ذكرت =

ومهما كان الرَّقم في السابق فإنه من الواضح أن عدد الفَنادق التجارية والخانات تزايد بكثرة في عصر الأيوبيين.

كانت هناك حاجة في أواخر القرن الثاني عشر إلى منشآت جديدة لتلبية حاجات النشاط التجاري المزدهر والرَّغبة المُتزايدة لدى الدولة في مراقبة هذا النشاط[28]. يشير المَقْرِيزي في العديد من المرّات إلى الأساليب الكثيرة التي اعتمدها الحكّام الأيوبيون ووجهاء الدولة (ونظراؤهم من المماليك فيما بعد) للتدخّل في النشاط التجاري لتوجيه هذا النشاط وأرباحه عبر المُنشآت التجارية الخاصّة[29]. ويبدو أنّ من الدوافع التي كانت وراء ذلك تزايد حجم تجارة العبيد بين منطقة القِرْم ومِصْر وهو ما أدّى إلى بناء فَنادق وخانات جديدة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر وهو ما أدَّى إليه ازدهارُ التِّجارة في البحر المتوسّط والبحر الأحمر وبين الموانئ الإسلامية وأسواق المناطق الداخلية[30]. فقد بُني فُنْدُقان جديدان في العهد الأيوبي بالفُسْطاط لفائدة تجار الكريمي سنة 1183م وهما حالة بارزة، ثم سرعان ما بُنِيَت فَنادق للكَريمي في الموانئ على طول الطريق المؤدّية إلى المُحيط الهندي عبر مُدُن قُوص وعَدَن[31].

كان يُعتبر أمراً عادياً في العهد الأيوبي أن نجد مؤسّسات تجارية تحمل اسم

= رسالة تعود إلى سنة 1139م بيع منزل مجاور لفُنْدُق حديث البناء (TS 12.694; Goitein, *A Mediterranean Society*, IV, [1983], 17).

(28) توفِّر النقوش أمثلةً كثيرة عن فَنادق جديدة أُسِّست خلال العصر الأيوبي. بين هذه انظر Combe et al. (eds.), *Repertoire*, X (1939), 84-85 (no. 3720) (built in 1213), X, 101 (no. 3747) (1214), X, 235 (no. 3947) (1226), XI (1941), 75 (no. 4112) (1237), XI, 101 (no. 4154) (1239).

(29) D. Behrens-Abouseif, "Qāytbāy's Investments in the City of Cairo: Waqf and Power," *Annales Islamogiques* 32 (1998) 32.

(30) Hillenbrand, *Islamic Architecture*, 374; Labib, "Egyptian Commercial Policy," 68.

(31) Labib, "Egyptian Commercial Policy," 73. لقد كانت فَنادق الكَريمي متمركّزة على ضفة النيل بالفُسْطاط بالقرب من باب القَنْطَرة ومباشرة عبر الطرف الجنوبي لجزيرة الروضة. وقدا كان هناك أيضاً العديد من الفَنادق الأخرى بتلك المنطقة/انظر الخرائط والجداول الموجودة في Paul Casanova, *Essai de reconstitution topographique de la ville d'al Fusṭāṭ ou Miṣr* (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1919).

"فُنْدُق السُّلطان" أو "خان السُّلطان" وهو ما يعني أنّ مداخيل هذه المؤسّسات تصبّ مباشرة في خزائن الدولة، فعندما أمر الوزير الأيوبي ابن شُكْر بإغلاق الفَنادق والوكالات التي يمتلكها الخواصّ في القاهرة في القرن الثالث عشر، تحوَّلت أنشطتها عبر "دار وكالة السُّلطان التي كانت موجودة بدار المُلْك، وبذلك تعود عائدات السَّمْسَرة إلى السُّلطان"(32). وفي فترة لاحقة كانت المداخيل التي يوفّرها تأجير غُرَف التخزين والإقامة في خان السُّلطان بحَلَب تساوي 10،000 دينار في السنة تدخل في خزينة الدولة في عهد الملك الناصر يوسف الثاني (1236-1260م)(33). تُشير المصادر العربية إلى وجود فُنْدُق السُّلطان بِطُلَيْطلة في القرن الثالث عشر غير أن المدينة كانت في هذه الفترة مدينة مسيحيّة، ممّا لا شكّ فيه أنه تمّ الاحتفاظ بما كان موجوداً قبل الغزو(34). وقد كان السلاطين الأيوبيون ووُلاتهم والموظّفون الأقلّ مَرْتبة ناشطين في بناء الفَنادق والخانات الجديدة في مصر والشام كما أنفقوا الأموال على بناء مُنشآت ذات علاقة مثل مدّ الطُّرُقات وبناء الجسور(35). أمر صلاح الدين سنة 1181م ببناء فُنْدُق قرب دمشق واتّبعه في ذلك

(32) Sāwīrus ibn al-Muqaffa', *Patriarchs of the Egyptian Church*, IV.I (1904; repr. Cairo: Société d'archéologie copte, 1974) Arabic 32-33, English 68.

(33) فقد اقتبس جان سوفاجيه من ابن شدّاد (منتصف القرن الثالث عشر) (Jean Sauvaget (*Alep. Essai sur le développement d'une grande ville syrienne, des origines au milieu du XIXe siècle* [Paris: Paul Geunther, 1941] 253). هناك منشأة أخرى أو هي نفسها في حلب يطلق عليها اسم "فُنداكو الأمير" وقد ظهرت في سجلّ تجاري من البُنْدقية يعود إلى حدود 1260، (D. Jacoby, "A Venetian Manual of Commercial Practice from Crusader Acre," in *I communi italiani nel regno crociato di Gerusalemme*, ed. Gabriella Airaldi and Benjamin Kedar [Genoa: Collana Storici di fonti e Studi, 1986] 425). هناك بعض المنشآت الشبيهة التي يطلق عليها اسم دار الخليفة منها واحدة في بغداد ذكرها ياقوت معتمداً على ابن بُطْلان (توفي سنة 1063)، معجم البلدان، الجزء الثاني، ص517، أو وكالة دار الملك والتي ورد ذكرها في القاهرة سنة 1235م في كتاب (Sāwīrus ibn al-Muqaffa', *Patriarchs of the Egyptian Church*, IV.I, 141).

(34) A. González Palencia, *Los Mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII* (Madrid: Instituto de Valencia de Don Juan, 1930) 58-59; I, 8 (doc. 10); III, 469 (doc. 469); II, 12 (doc. 396), II, 48 (doc. 441). انظر مزيداً من النقاش في الفصل الخامس.

(35) I. Lapidus, *Muslim Cities in the Middle Ages* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1967) 18.

بقية أعضاء العائلة الأيوبية وكذلك حاشية السُّلطان وغيرهم من المماليك[36]. وقد ذكر المَقْرِيزيّ أنّ شخصاً اسمه مَسْرُور "وهو من خدّام القصر، خدم الدولة المصرية واختص بالسُّلطان صلاح الدين [رحمه الله] وقدّمه إلى حلقته ولم يزل مقدَّماً في كلّ وقت وله برّ وإحسان. . . وانقطع إلى الله تعالى". وبعد الانقطاع عن الخدمة في عهد الملك الكامل (1218-1238م) بنى مَسْرُور فُنْدُقَين: الفُنْدُق الصغير والفُنْدُق الكبير وبنى مسجداً كذلك[37]. كما يصف المَقْرِيزيّ خان مَنْكُورَش الذي أنشأه بالقاهرة أحد مماليك صلاح الدين وقد تُوفّي سنة 1182م. ويُعرف هذا الخان في القرن الخامس عشر بخان النشّارين وهو وقف على الأعمال الخَيْرية[38]. وهناك فُنْدُق آخر هو فُنْدُق ابن قُرَيْش بناه القاضي شرف الدين إبراهيم بن قُرَيْش (ت 1245م) كاتب الإنشاء في دولة الملك العادل (1200-1218م) ثمّ الملك الكامل. ولما تُوفّي شرف الدين انتقل الفُنْدُق إلى ورثته. وأشار المصدر إلى أنه لم يكن وَقْفاً[39]. تُعَدّ الفَنادق ظاهرة عامّة في المُدُن، بينما أُنشئ كثير من الخانات الجديدة على طول طريق القوافل بين المُدُن. يذكر ابن جُبَيْر أنّ العديد من الفَنادق الجديدة قد بُنِيت أثناء رحلته عبر بادية الشام في سنوات 1180م الأولى، وتؤكّد النقائش التي عُثِر عليها، على ما بقي موجوداً من تلك المباني انتشار هذه المؤسّسات بأمر من السلاطين الأيوبيين وأمرائهم وبعض الأثرياء من الناس[40]. فلمّا غادر ابن جُبَيْر المَوْصِل أقام في قرية كان فيها خان كبير جديد، وهو يضيف أنه "في محلات الطريق كلّها خانات"[41]. كما قضى ليلة أُخرى في خان كبير جديد "قرب حَرّان وبعد بضعة أيام غادر قِنَّسْرِين وتوقّف للاستراحة "في خان كبير

(36) Combe et al. (eds.), *Répertoire*, IX (1937), 115 (no, 3368).

(37) المَقْرِيزي، الخِطَط، دار الطباعة المصرية (بولاق، 1853) الجزء الثاني، ص92؛ وكذلك المَقْرِيزي، أسواق القاهرة، ص133-135. وكذلك N. D. MacKenzie, *Ayyūbid Cairo. A Topographical Study* (Cairo: American University in Cairo Press, 1992) 166.

(38) المَقْرِيزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص93، وكذلك المَقْرِيزي، أسواق القاهرة، ص138-139.

(39) المَقْرِيزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص93؛ وكذلك المَقْرِيزي، أسواق القاهرة، ص139-140.

(40) Combe et al. (eds.), *Répertoire*, IX, 188-189 (no, 3466) (*funduq* built near Damascus in 1193), XI, 130-131 (no, 4196) (Damascus, 1241), XI, 221-222 (no, 4332) (Damascus, 1251).

(41) ابن جُبَيْر، الرِّحْلة، ص238، الترجمة، ص247.

يُعرف بخان التُّرْكُمان وهو خان شديد الحصانة"[42]. ازدهرت الفَنادق في تلك الفترة كذلك خارج المجال الأيوبي، فتذكر المصادر الجغرافية وجودها في مُدُن شمال إفريقيا والأندلُس وتشير مصادر أُخرى إليها بالترابط مع الحملة العُمْرانية الرسمية. هناك فَنادق يشرف عليها خواصّ في مدينة القَيْرَوان في القرن التاسع وستصبح مُلكاً للدولة في عهد الزيريين في أواخر القرن العاشر والقرن الحادي عشر[43]. وفي أقصى المغرب وعندما بَنَى الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين مدينة مَرّاكش عاصمة له في سنوات 1060م، يُقال إنه جلب العمّال من مدينة قُرطبة للعمل في فُنْدُقٍ مُقْبِل في حيّ الكُتُبِيّة[44]. وفي القرن الثاني عشر تمّ تمويل جامع القرويين بفاس بالاعتماد على مداخيل هامّة من وقف فُنْدُق تجاري بالمدينة[45]. وفي القرن الثالث عشر بنى السُّلطان أبو زكريا الحَفْصِي (1229-1249م) أسواقاً وفَنادق في تونس تَلْبِيةً لحاجات التجار القادمين من الجنوب مع قوافلهم[46].

تكون الفَنادق وبعض المؤسّسات التجارية الأُخرى في بعض الأحيان مهدّدة بالهدم لتفسح المجال أمام مشاريع عُمْرانية جديدة خاصّة عند ترميم أو توسيع المساجد. يذكر ابن صاحب الصلاة (ت 1198م) أن الخليفة الموحّدي يعقوب ابن يوسف (1184-1199م) لمّا أراد توسيع صحن مسجد ابن عباس بإشبيلية

---

(42) ابن جُبَيْر، الرِّحْلة ص248، 254، الترجمة، ص257-264.

(43) M. Sakly, "Kairouan," in Garcin (ed.), *Grandes villes mediterranéennes*, 72.

(44) M. Scharabi, *Der Bazar. Das traditionelle Stadtzentrum im Nahen Osten und seine Handelseinichtungen* (Tübingen: Verlag Ernest Wasmuth, 1985) 68.

كما ذكر الجَزْنائي وهو من مؤرّخي القرن الرابع عشر أن يوسف بن تاشفين قد جلب العُمّال من قُرْطبة للعمل في الحمّامات وفي الخانات بمدينة فاس، (كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق ألفريد بِل [A. Bel] الجزائر 1923م، ص32 من النصّ العربي وص78 من النصّ الفرنسي).

(45) الجَزْنائي، كتاب زهرة الآس، ص73 من النصّ العربي وص157-158 من النصّ الفرنسي، قد تهدم هذا الفُنْدُق في أواخر القرن الثاني عشر وأعيد ترميمه وتحبيسه في عهد الخليفة الموحّدي يعقوب بن يوسف (1184-1199م). وحسب الجَزْنائي كان دخلُ هذا الحَبْس في فترة لاحقة يبلغ 10000 دينار سنوياً.

(46) C.-E. Dufourcq, "Les Activités politiques et économiques des Catalans en Tunisie et en Algérie orientale de 1262 à 1377," *Boletin de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona* 19 (1946) 36.

سنة 1196م قام بهدم الأبنية المجاورة للسوق وهي تضمّ "دوراً ودكاكين وفَنادق"[47]. وأمر خَلَفُه مُحمّد بن يعقوب (1199-1213م) بتوسيع جامع القرويين بفاس وهو ما استوجب هدم فُنْدُق قديم، هو فُنْدُق ابن حبّون الذي كان قريباً[48]. وربّما بسبب مثل هذه الأنشطة وما شابهها، لم يبقَ فُنْدُق من القرنين الثاني عشر والثالث عشر بالمغرب الحديث أو بإسبانيا ما عدا بعض البقايا التي تعود إلى العصرين المَرِيني والناصِري.

مداخيل الفُنْدُق: التنظيم والضرائب والكِراء

تقوم الإدارات المَحلّية بضبط أبنية الفَنادق لجُمْلة من الأسباب: منها الطابع الربحي الرفيع للمؤسّسة واهتمام الدولة بالأسعار وتوفير الطعام والوضع الانتقالي للتُّجّار وبضائعهم. هذه أبسط الدوافع التي تجعل الدولة تراقب الفَنادق وتقتطع الأرباح عبر الضرائب وغيرها من التكاليف الأُخرى. وعندما يكون المبنى ملك الدولة فإن الأرباح تكون أكبر بالإضافة إلى ما يوفّره كِراء السكن والخزن وأثمان الطعام من المبالغ. ولأنّ الفَنادق كانت مواقع ملائمة لجمع المُكُوس على البيع وغيرها من العمليّات التجارية الأُخرى، فإن مداخيلها كانت ضخمة. ففي تونس مثلاً يوفّر فُنْدُق الخَضْروات والمِلْح والبيض (أو الكَتّان "بَياض") دخلاً سنوياً من المُكُوس يُقَدَّر بـ 3000 و1500 و1000 دينار على التوالي مما سبق ذكره من البضائع[49]. وكما ذُكر سابقاً فقد ذكر الإدريسيّ أنّ فَنادق ألْمَرِيّة كانت قد أُحصيت لجمع المُكُوس (يبدو أنها على بيع الخمر أو العنب) فبلغ عددها 970 مؤسّسة[50]. يبدو هذا العدد مبالغاً فيه ولكنّه قد يكون معقولاً. وبعد نصف قرن تمّ إحصاء 467 فُنْدُقاً بفاس مهيّأة لجني المُكُوس في عهد الخليفة الموحّدي مُحمّد بن يعقوب (1199-1213م)[51].

(47) ابن صاحب الصلاة، تاريخ المَنّ بالإمامة، دار الأندلُس، بيروت، 1964م، ص485.
(48) الجَزْنائي، كتاب زهرة الآس، ص61-62.
(49) الزَّرْكَشي، تاريخ الدولتين المُوَحدية والحَفْصِية، مطبعة الدولة التونسية المحروسَة، تونس 1872م، ص102، يعود هذا المصدر إلى القرن الخامس عشر.
(50) الإدريسي، كتاب نُزْهة المُشتاق، ص562-563.
(51) ابن أبي زَرْع، كتاب الأنيس المُطْرِب، ص26 (النص العربي) وقد أعاد الجَزْنائي ذكر هذه المعلومة في كتاب زهرة الآس، ص33.

كان أربابُ الفَنادق هم المسؤولين عن جمع الضرائب في الفُنْدُق، يدفعونها أو يدفعون منها نصيباً للدولة أو إلى مالك الفُنْدُق. تذكر رسالة من رسائل الجِنِيزة حُرِّرت باللُّغة العربية أنّ مسلماً يشرف على الفُنْدُق (فُنْدُقاني) كان قد اتُّهم بنقل بضائع لم تدفع ما عليها من ضرائب مع جُمْلة من البضائع الأخرى إلى مدينة الفُسْطاط(52). كما أنّ المشرفين على الفَنادق كانوا مسؤولين عن ضمان صِحّة وزن البضائع لأجل تحديد قيمتها، بواسطة ميزان قانوني. فلمّا احترق فُنْدُق بدُمْياط سنة 1249م، قال المؤرّخ الفرنسي جان دي جوانفيل [De Joinville] إنه وقع "حيث كانت كلّ البضائع قد وُزِنَت وخُزِنَت"(53).

كما أنه يشترط في المشرف على الفُنْدُق أن يكون كفؤاً وأميناً. ففي كتابه **الإشارة إلى محاسن التِّجارة**، يحذّر الدِّمَشْقيّ بصورة خاصّة من الكسولين من ضمن المُشرفين على الحمّامات والفَنادق والطواحين والدكاكين وغيرها من المباني(54). أغلب المشرفين على الفَنادق كانوا يستأجرون بدلاً من أن يمتلكوا الأبنية التي كانوا يديرونها.

وكثيراً ما نجد الفَنادق في عُقُود الكِراء في حين أنها نادرة في عُقُود البيع وهو ما يفيد بأنها من ممتلكات الأوقاف. والأبنية التي يشملها الوَقْف يمكن أن تؤجّر مقابل أجر معلوم لفترة تراوح بين السنة والثلاث سنوات وأنه لا يمكن بيعها إلّا بأمر خاصّ.

والوثائق التي تفصّل كِراء الفَنادق قليلة جدّاً وهي تعود إلى أواخر العصر الوسيط(55). غير أنّ كتب الوثائق التي تتضمّن نماذج العُقُود توفّر بعض الصِّيَغ الشرعية المتعلّقة بكِراء الفَنادق. ولكن للأسف إن المُصطلحات التي تتضمّنها

(52) TS 13 J 19.10V; Goitein, *A Mediterranean Society*, I, 189.

(53) Jean de Joinville, *Histoire de Saint Louis* (Paris: Jules Renouard, 1868) 58.
فقد شَبّه المؤلّفُ فقدان هذه المُنشأة بما يمكن أن يخلّفه حريق في الجسر الصغير بباريس.

(54) الدِّمَشقي، كتاب الإشارة، ص81.

(55) نشر محمد محمد أمين نموذجاً من ذلك ضمن فِهرِسْت وثائق القاهرة حتى نهاية عصر السلاطين المماليك، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1981م، ص77. أشكر نيال كريستي [Niall Christie] لإرشادي إلى هذه الوثيقة ولتمكيني من قراءة مقاله غير المنشور "A Rental Document from 8th/14th Century Egypt".

فصول نماذج هذه العُقُود لا تُعطي معلومات عن هُوِيّة الطَّرفَيْن المتعاقدَيْن سواء كان جِهَة رسمية أو جِهَة خاصّة فهي تكتفي بعبارات شكلية مثل "فلان وفلان". وبالتالي يصعب أن نعرف، إلّا في حالات قليلة، غاية الكِراء هل المقصود به بوضوح دفع النقود في مقابل استعمال بناء معيَّن (الكِراء بالمفهوم المعاصر) أو من أجل اللَّزْمة الجبائية وهي في الحالة التي يكون فيها المبنى قد أُجِّر ليحصل منه المستأجر على أرباح. ويعني ذلك أنّ جزءاً من المداخيل سواء قيمة محدّدة أو نسبة مئوية تُدفع في شكل "كِراء" معلوم لمالك المبنى. وقد وضع ابن مُغِيث الطُّلَيْطُلي (ت 1067م) فصلاً مقتضباً في كتابه في علم الشروط يتعلّق بكِراء الفَنادق بعنوان "وثيقة في كِراء فُنْدُق". فقدَّم القاعدة الشكلية للعقد بـ"فلان بن فلان" أَجَّر لفلان ابن فلان كلّ الفُنْدُق الذي يوجد في السوق الفُلاني في المكان الفُلاني. وحدوده هي كذا وكذا، بكلّ ما له من تجهيزات: طابق عُلوي ومدخل ومخرج بكذا من المال في السنة الأولى"[56]. إنّ الصيغة المُعتَمدة في هذا الكِراء هي تقريباً الصيغة المُطبَّقة في عُقُود الكِراء الأُخرى المتعلّقة بالدُور والبساتين والدكاكين وغيرها من المباني. ولكن هناك بعض الفروق تهمّ كِراء الفَنادق التي لم يُعثر عليها في أنواع أُخرى من الكِراء.

فبعكس تأجير البيوت، حسب فقيه أندلُسيّ آخر هو الجَزيري (ت 1189م)، يمكن توزيع قيمة كِراء الفُنْدُق على عدد من الأشهر عوضاً عن أن يكون مَبْلغاً إجماليّاً، ويمكن أن يتغيّر المِقْدار بحسب تطوّر المصاريف أو نتيجة للتراجع الاقتصادي[57]. يفيد مثل هذا الاحتياط أن المُلكية في وضعية لَزْمة وأن اللزّام يحصل على مدخول من الفُنْدُق. فهذا النوع من الاتفاقيات المَرِنة نجده كذلك من خلال فتوى للفقيه القُرْطُبي ابن رُشْد (ت 1126م) الذي سُئل عن المتقبّلين للفَنادق إذا قلّ الواردون للسُّكْنى في الفَنادق والطعام للطَّحن، هل ذلك حاجة يحطّ الكِراء بها عنهم أم لا؟ فأجاب: إذا قلّ الواردون من البلاد لسُكْنى الفَنادق

(56) ابن مُغِيث الطُّلَيْطُلي، المُقْنِع في عِلْم الشُروط، تحقيق F. J. Aguirre Sádaba (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1994) 232.

(57) الجَزِيري، المَقْصَد المَحْمُود في تَلْخيص العُقُود، تحقيق A. Ferreras (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1998) 207-208.

المُكْتَراة... من فتنة أو خوف حدث في الطريق أو نحو ذلك أو قل الواردون للطّحن في الأرْحيّ المُكْتَراة لجهد أصاب أهل ذلك المكان ونحوه، كان ذلك عيباً فيما اكتراه المُكْتَري يكون مخيَّراً بين أن يتمسّك بكِرائه أو يردَّه ويفسخه عن نفسه، فإن سكت ولم يقم حتى مضت المدّة أو بعضها لزمه جميع الكِراء، ولا يسقط عنه إلاّ بجلاء أهل ذلك الموضع... حتى تبقى الفَنادق خالية لا تُسكن(58).

يمكن كذلك أن تتغيّر قيمة معاليم الكِراء في مثل هذه العُقُود بحسب وضعية البناء خاصّة إن كان لها تأثير في المداخيل. فعندما أقام ناصر خسرو بالفُسْطاط في منتصف القرن الحادي عشر أخبره أحد المشرفين على دار الوكالة (وهي مؤسّسة يُخزَّن فيها الكتّان ويُباع وهي تُشْبه الفُنْدُق في هذا) أنّ معلوم الكِراء العادي لبناية هو 20000 دينار في السنة ولكن نظراً لوجود جِهَة من المبنى في طور إعادة البناء وهي غير مُسْتَعملة فالكِراء هو 1000 دينار كانت تُدفع شهرياً (أي 12000 في السنة) وذلك إلى أن انتهت الأشغال(59).

الفَنادق الخاصّة مقابل الفَنادق العامّة

ظهرت الفَنادق الرسمية، وهي محلّ اهتمام السُّلطة لسبب أو لآخر، في المصادر بصورة متكرّرة أكثر من المؤسّسات الخاضعة للخواصّ.

وعلى الرغم من أنّ الفَنادق الخاصّة كانت موجودة بدون شكّ والواقع أن عددها يفوق عدد الفَنادق الرسمية فإنها لا تظهر في المصادر إلّا إذا جذبت اهتمام السُّلطة. ويظهر عددٌ قليل من الفَنادق التي يملكها أفراد عاديّون في المصادر الشرعيّة خاصّة عند الحديث عن الوَقْف والبَيْع والكِراء. وفي حالة واحدة يذكر الجَزيري أنه إذا أراد صاحب فُنْدُق أن يؤجّر جزءاً من المبنى وتخصيص عدد قليل من الغُرَف لفائدته الخاصّة أو لخزن بعض من متاعه فيجب

(58) الوَنْشَريسي، المِعْيار، الجزء السابع، ص452، وكذلك الجزء الثامن، ص287-288. [المترجم: هذه الفقرة فيها تحريف في النصّ موضوع الترجمة، فنقلناها من المِعْيار مباشرة ليستقيم المعنى].

(59) Nāṣer-e Khosraw, *Book of Travels*, 56.

أن يتمّ التنصيص على ذلك بوضوح في العقد مع التأكيد على الغُرَف موضوع التخصيص[60]. وهناك حالة أخرى طُرحت على ابن رُشْد تبيّن مدى تعقيد تفاعُل المِلْكية الخاصة وعطاء الوَقْف وحقّ السلطة بالمراقبة والبيع والضرائب. وتطرح هذه المسألة خلافاً حول فُنْدُق كان قد أُعدّ وقفاً من قِبَل رجل من مدينة طريف وهو يُحْتَضَر. فبعد وفاته أُثيرت مسألة صِحّة مؤسَّسة الوَقْف على أساس أن الفُنْدُق بيع للواهب من قِبَل شخص من سُلالة العبابيد (الذين حكموا إشبيلية أيام حكم الطوائف 1023-1091م) ولكنّ هذا البيع قد أُلغي في عهد المرابطين (1091-1145م) الذين استرجعوا ملكيّته وفرضوا عليه ضريبة سنوية[61].

وتُفيد مصادر أخرى عن المُنافسة بين الدولة والخواصّ حول مداخيل الفَنادق. فقد تعرّض أحد القُضاة في منتصف القرن الثاني عشر في قُرْطُبة، مثلاً، إلى النقد بسبب بنائه الفَنادق والحمّامات والطواحين والدكاكين واختصاصه بمداخيلها له وحده، وبالتالي اغتصب مداخيل كان يجب أن تكون في بيت مال المسلمين[62]. وفي عهد السُّلطان الكامِل في بداية القرن الثالث عشر بَنَى أحد الأمراء الأيوبيّين فُنْدُقاً بالقاهرة لفائدته، وفي فترة لاحقة تمّت مصادرة كلّ ممتلكاته ومات في السجن[63]. فربّما كانت هذه المصادرة جزءاً من خطّة سياسية أوسع في تلك الفترة للتضييق على المؤسّسات الخاصّة وتدعيم موارد الدولة.

(60) الجَزيري، المَقْصد المحمود، ص208-209. Al-Jazīrī, *al-Maqṣad al-maḥmūd*, 208-209.

(61) الوَنْشَريسي، المِعْيار، الجزء السابع، ص466-467.

(62) ابن رُشْد (توفي سنة 1126) ذكره الوَنْشَريسي، المِعْيار، الجزء العاشر، ص15-16. يعني بيت مال المُسلمين في الأندلُس الخزينة التابعة للمسجد وهي تشتمل على مداخيل غير محدّدة متأتّية من الوَقْف ويُشرف عليها قاضي القُضاة وفي مقابل خزانة المال التابعة للدولة. See also N. Stillman, "Charity and Social Service in Medieval Islam," *Societas* 5 (1975) 109.

(63) Abū Ṣāliḥ, *The Churches and Monasteries of Egypt and Some Neighboring Countries*, trans. B.T.A. Evetts (Oxford: Anecdota Oxoniensia, 1895) 59b (trans. 174). إن الشخص المقصود هنا، فخر الدين، يُقدَّم على أنه والي مصر المسمّى غُلام البانياسي، ويعدّ اسم فخر الدين اسماً متداولاً وبما أنه ليس هناك تاريخ محدَّد لاعتماده، فإن هذه الأحداث يمكن أن تكون قد وقعت في أي وقت من الفترة الممتدّة بين القرن السابع والقرن الثالث عشر (ربّما في الفترة التي كتب فيها أبو صالح كتابه). إلّا =

وتقريباً في الفترة نفسها أمر ابن شُكْر وزير الملك الكامِل بإغلاق الفَنادق الخاصّة من أجل مضاعفة مداخيل دار وكالة السُّلطان[64].

تقدّم لنا وثائقُ الجِنِيزة معلومات أكثر تفصيلاً من المصادر الإسلامية فيما يتعلّق بالفَنادق التي يملكها القطاع الخاصّ في مصر. وربّما يعود ذلك إلى أن هذه الظاهرة كانت عامّة لدى الجالية اليهودية وربّما كذلك لاختلاف القوانين وعادات التوريث أو كذلك لعلّها موثّقة أكثر. تذكر وثيقة من وثائق الجِنِيزة تعود إلى أواخر القرن الحادي عشر خلافاً وقع حول الميراث وما تبعه من تفاوض لشراء فُنْدُق صغير بالإسكندرية لسدّ حاجات مالكيه وهم أطفال أيتام[65]. وهناك خلاف آخر حول الإرث ربّما يعود إلى سنوات 1130م بين أفراد عائلة حول فُنْدُق على مِلْك أبناء أخت أحد المتخاصمين[66]. هناك معلومات أُخرى تشير إلى الفُنْدُق كمِلْكيّة خاصّة لدى الجالية اليهودية من كتب الإفتاء اليهودي مثل حالة الأب الذي أعطى نصف مِلكيّته من فُنْدُق هِبَةً لابنته. فهذه الحالة التي ذكرها الربّي المَغْربي إسحاق الفاسي (ت 1103م) تبيّن بوضوح أنّ الفُنْدُق مِلْكية خاصّة تُوَرَّث وعَقار يمكن قسمته[67].

= أن المَقْرِيزي ذكر أميراً أَيُّوبيّاً يدعى فخر الدين البانياسي سنة 1231-1232م في عهد الملك الكامِل والذي قد يكون هو المَعْنيّ في النصّ (كتاب السُّلوك لمعرفة دُوَل المُلوك، منشورات دار الكتب الوطنية، القاهرة، 1936-1973م) ترجمة R. J. C. Broadhurst, *A History of the Ayyūbid Sultans of Egypt* [Boston: G. K. Hall & Co., 1980] 217). كما ذكر المَقْرِيزي فُنْدُقاً يُطلق عليه اسم فُنْدُق فخر الدين الذي قد تكون له علاقة بهذا الشخص أو لا تكون (أسواق القاهرة، ص234).

(64) Sāwīrus ibn al-Muqaffa', *Patriarchs of the Egyptian Church*, IV.I, Arabic 32-33, English 68.

(65) TS 12.591; Goitein, *A Mediterranean Society*, III (1978), 298.

(66) TS 12.714; Goitein, *A Mediterranean Society*, III, 286-287.

(67) Norman Roth, *Jews, Visigoths, and Muslims in Medieval Spain: Cooperation and Conflict* (Leiden: E. J. Brill, 1994) 148. هناك أدلّة على أن اليهود كانوا يمتلكون فَنادق خاصّة في شمال إفريقيا، فهناك أجوبة فِقْهية عديدة من القرن الخامس عشر تتعلّق بفُنْدُق في تونس تركه رجل لصهره الشابّ (H. Z. Hirschberg, *History of the Jews in North Africa* I [Leiden: E. J. Brill, 1974] 474).

الفَنادق أداة لفعل الخير

تعدّ الفَنادق أداةً مباشرة لفعل الخير لأنها بُنِيت على أساس نِيّات تَقَوِيّة لتوفير الإقامة للمسافرين الفقراء وللطلبة والحَجِيج وربّما كذلك لتوفير الطعام إضافةً إلى السكن على وجه الإحسان. فقد حثّ نِظام المُلْك (ت1092م) على بناء مثل هذه المؤسّسات في كتابه سياسة نامه وتبعاً لذلك وبناءً على نُصْحِه صدر أمر بترميم خان ببغداد وإضافة 100 دينار للوَقْف حتى يوفّر السكن والدعم لطلبة العلوم الشرعية[68]. كما وصف ابن جُبَيْر الذي كان يكتب في سنوات 1180م الإنجازات والمُنشآت التي قام بها الوزير جمال الدين وزير صاحب المَوْصِل والذي "اختطّ المنازل في المَفازات وأمر بعمارتها مأوى لأبناء السبيل وجميع المسافرين وابتنى بالمُدُن المُتَّصلة من العراق إلى الشام فَنادق عَيَّنها لنزول الفُقراء، وأبناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الأكْرِية وأجرى على قَوَمة تلك الفَنادق والمنازل ما يقوم بمعيشتهم. عَيَّن لهم ذلك في وجوه تأبّدت لهم، فبقيت تلك الرسوم الكريمة ثابتة على حالها إلى الآن. فسارت بجميل ذِكْر هذا الرجل الرّفاق ومُلِئت ثناء عليه الآفاق"[69]. وقد ذكر بنيامين التُّطَيْلي قبل عقدين من هذا، أنّ المنازل والأسواق والفَنادق التي كانت في بغداد للفُقراء المَرْضى الذين يأتون بغية المُداواة، قد بناها الخليفة في ضواحي المدينة. وعندما يكون المَرْضى مُقيمين بها فإنه يُوفَّر لهم الطعام وجميع حاجاتهم كما كانت تُعطى إليهم النقود بعد شفائهم ليعودوا إلى بلدانهم[70]. وهناك مؤسّسة خَيْرية أُخرى تدعى خان السبيل وكان قد بُني في القاهرة في أواخر القرن الثالث عشر " لأبناء السبيل والمسافرين بغير أُجرة"[71]. وتوفّر كلّ هذه المؤسّسات المعدّة للسكن الإحسان بفعل وجودها في حدّ ذاته.

(68) Nizām al-Mulk, *Siyāsat-nama*, 13, *Book of Government*, 10; Makdisi, *The Rise of Colleges*, 24.

(69) ابن جُبَيْر، الرِّحْلة، ص126، الترجمة الإنكليزية، ص124-125.

(70) Benjamin of Tudela, *The Itinerary of Benjamin of Tudela*, ed. and trans. M. N. Adler (London: Henry Frowde, 1907) Hebrew 59, English 37.

(71) المَقْريزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص93، ليس هناك تاريخ خاصّ بالتأسيس غير أن المؤسِّس توفي سنة 1201م.

وفي الوقت نفسه يمكن أن توفّر الفَنادق مداخيل عبر ما يتأتّى منها من الأكْرِية والضرائب وتعتبر هذه المداخيل مصدراً غير مباشر لفعل الإحسان. وقد بُني العديد من المؤسّسات الخَيْرية من أجل الربح بهدف توفير الأموال لبناء مؤسّسات خَيْرية أُخرى مثل المساجد والمدارس. والأمثلة على مثل هذه الأعمال معروفة ومنتشرة أكثر من تلك التي أُنشئت من أجل الإحسان مباشرة، وكانت الهِبات التَّقَويّة تجعل الفَنادق والخانات من الممتلكات التي توفّر المداخيل للوَقْف. وقد ذكر ابن حَوْقَل هذه الظاهرة في القرن العاشر، ولكن رغم أنه يشير إلى أن أكثر هذه المؤسّسات قد انقرضت على عهده، فإن المصادر المتأخّرة تُشير إلى استمرار الترابط بين الفُنْدُق الإسلامي في العصر الوسيط وبين الأعمال الخيرية غير المباشرة[72]. فالفُنْدُق الكبير الذي أنشأه مَسْرُور الخادم الأيوبيّ في القاهرة في منتصف القرن الثالث عشر (سبق الحديث عنه) قد أُنشئ "حَبْساً على الأسرى والفُقراء... وأوصى بأن تُعمَل داره مدرسة ويُوقَف الفُنْدُق الصغير عليها"[73] وفي المدينة نفسها جعل تقيّ الدين بن عمر وهو ابن أخت صلاح الدين وَقْفاً على المدرسة التَّقَوِيّة[74]. وهناك نقيشة وَقْفٍ معاصرة تقريباً بدمشق مؤرّخة سنة 1193م حيث وُضع دخل فُنْدُق موجود خارج أحد أبواب المدينة لفائدة قُرّاء القُرآن... لكلّ واحد أن يقرأ سُبْعَ المصحف على الأقلّ في اليوم الواحد... وكذلك لفائدة تعليم الصِّبْيان"[75]. كما تضع مؤسّسة خَيْرية أُخرى من القرن الثالث عشر وهي أيضاً بدمشق مداخيل بعض الخانات لفائدة البيمارستان الصالحي أو إطعام الفُقراء[76]. وقبل ذلك في الجِهَة الأُخرى من المتوسّط

---

(72) ابن حَوْقَل، كتاب صورة الأرض، ص184.

(73) المَقْريزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص92، انظر كذلك المَقْريزي، أسواق القاهرة، ص133-135. كان هذان الفُنْدُقان موجودين في قلب الحيّ التجاري بالقاهرة في منتصف الطريق تقريباً بين باب الفُتُوح وزُوَيْلة.

(74) MacKenize, *Ayyūbid Cairo*, 171.

(75) Combe et al. (eds.), *Répertoire*, IX, 188-189 (no, 3466).

(76) Hospital noted in *Waqf* established by Amir Sayf al- Dīn al-Qaymarī (d. 1256) in Henry Sauvaire, "Description de Damas," *Journal Asiatique* 6 (1895) 297-299; poor relief mentioned in a *Waqf* by Amir Taybars (d. 1290) in al-Jazarī, *La Chronique de Damas d' al-Jazarī (années 689-690 H)*, trans. Jean Sauvaget (Paris: Librairie ancienne H. Champion, 1949) 3 (no. 18).

طُرحت مسألة على قاضي قُرْطُبة، ابن رُشْد (ت 1126م) تتعلّق بوَقْف يتكوَّن من فُنْدُقين "حَبْساً على ثَغْر من ثُغُور المسلمين"[77].

تبدو الأهداف الخَيْرية المُتعارَف عليها بالنسبة إلى الفُنْدُق واضحة في كلّ هذه الحالات. تُساهم الفَنادق كذلك في الأعمال الخَيْرية مباشرة بتوفيرها السَّكَن أو بصورة غير مباشرة بإنشاء مؤسّسات أُخرى ذات قيمة. وقلّما تختلط هاتان الخاصّيّتان في المؤسّسة نفسها مثلما هو الحال في خان الْعِطْنَا الشامي الذي أنشئ سنة 1234م. تشير وثيقة التحبيس إلى تخصيص الطابق العُلوي لإقامة المسافرين مسلمين وغير مسلمين في حين خُصّص الطابق السُّفلي ليكون دكاكين للكِراء لتوفير ما يحتاج إليه الطابق العُلوي من مصاريف[78]. إنّ الخصائص الخَيْرية والرِّبحية للفُنْدُق وغيره من مَقرّات الإقامة كانت مترابطة بشكل لا فِكاك منه وهو أمر لا يُنظر إليه على أنه إشكالي ولا على أنه غير متناسق. ومن هذه الناحية ليس هناك تناقض في مؤسّسة الوَقْف نفسها بين إنشاء الوَقْف للأعمال الخَيْرية وفي الوقت نفسه كوسيلة لحماية الممتلكات العائلية.

الفَنادق والأعمال الخَيْرية لدى الجَماعة اليهوديّة

تُبيِّن وثائق جِنيزة القاهرة أن أنماطاً متشابهة من الإيواء بشكل الإحسان والربح الخَيْري كانت خصيصة للفَنادق التابعة للمجتمع اليهودي بالقاهرة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين. ورغم أنّ كلمة بُنْداق العبريّة مشتقّة من كلمة البَنْدوكيون اليونانية أيضاً، فإن وثائق الجِنيزة العربية-العبريّة تَستعمل عادة الصيغة العربية للكلمة. تبرز الفَنادق عامّة في وثائق الجِنيزة في مناسبتين، إما كمِلْكية جماعية ضمن ممتلكات القودِش (أو هِقداش، مؤسَّسات تَقَويّة يهودية) بالفُسْطاط أو كفَنادق يُقيم بها التجار اليهود في سفرهم ويخزنون فيها سلعهم[79].

(77) الوَنْشَرِيسي، المِعْيار، الجزء السابع، ص466-467.

(78) Combe et al. (eds.), *Répertoire*, XI, 45-46 (no, 4066); Sauvaget, «Caravansérails syriens» (1939) 54-55. المَقْرِيزي، أسواق القاهرة، ص7.

(79) القودِش هو مؤسّسة خَيْرية يهودية تشبه مؤسّسة الوَقْف الإسلامية) Mark Cohen, "Jewish Communal Organization in Medieval Egypt: Research, Results and Prospects," in *Judeo-Arabic Studies: Proceedings of the Founding Conference of the Society for*=

وفي كلتا الحالتين، وخاصّة بالنسبة إلى الفَنادق الجماعية، فإن الخصوصيات الدقيقة التي توفّرها وثائق الجنِيزة توضح خصوصيات النشاط اليومي لهذه المؤسّسات وهو ما لا توفّره المصادر الإسلامية المعاصرة.

وفي أكثر الحالات تعكس إدارة الفَنادق الجماعية اليهودية بمصر تصوّر كلّ من الحكّام المسلمين وموظّفي الحسبة للفُنْدُق في المُدُن الإسلامية. وهذا يدعم في جوانب عديدة اعتقاد ش. د، غويتاين من أنّ نموذج الحياة كما توضحه وثائق الجنِيزة يسير بالتوازي مع التوجّهات الاقتصادية والاجتماعية التي توجد في العالم الإسلاميّ بأسره. وهناك أيضاً اختلافات معبّرة تبرهن على مدى إمكانية تكييف وظائف الفُنْدُق تماشياً مع الاختلافات الثقافية والتجارية ومتطلبات الدين. فمن خلال مميّزاتها الخَيْرية والدينية تتطابق الفَنادق الإسلامية واليهودية كثيراً ولكن يبدو أنّ الفَنادق اليهودية لم تبلغ الدرجة الماليّة والجِبائيّة نفسها التي كانت لدى الفَنادق الإسلامية. ولئن كان التجار اليهود يقيمون بانتظام في الفَنادق أثناء سَفَرهم فإن هذه الفَنادق لم تكن، في الغالب، مؤسّسات يهوديّة حصريّاً.

لقد كانت الجماعة اليهودية في الفُسْطاط تمتلك العديد من الفَنادق في أواخر القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر وهي تشمل كذلك مبنى كبيراً يُعرف بفُنْدُق الكنيستَيْن (لأنه يوجد بين بِيْعتَيْن) وفُنْدُقاً أو أكثر، أصغر حجماً يُشار إليها بعبارات مختلفة مثل فُنْدُق السوق الكبير والفُنْدُق الجديد والفُنْدُق الصغير[80]. لقد كانت هذه المباني مؤسّسات خَيْرية وكانت إدارتها وأهدافها مثل ما هو موجود في الفَنادق الإسلامية التي كانت أوقافاً خَيْرية. وهي توفّر في بعض

= *Judeo-Arabic Studies*, ed. N. Golb [Amsterdam: Harwood Academic Publishers, 1997] 82). وقد درس موشي جيل [Moshe Gil] الوثائق المتعلّقة بالعَقارات بما في ذلك الفَنادق الموضوعة كَوَقْف للقودِش (وقد تمّ تعريفها على أنها مؤسّسات خَيْرية يهودية) في عمله حول Moshe Gil "Maintenance, Building Operations, and Repairs in the Houses of the Qodesh in Fusṭāṭ. A Geniza Study," *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 14 (1971) 136-195.

(80) يرى م. جيل [M. Gil] أنها أسماء مختلفة للتعبير عن المبنى نفسه ولكني أعتقد أن ذلك مستبعد. فمثلاً TS Box K 15.110 (r.8 and v.9) يُشير إلى الفُنْدُق في البازار الكبير وإلى الفُنْدُق الجديد ويقدم حساباً مختلفاً للأكْرِية الشهرية.

الأحيان السَّكَن المَجّاني للمحتاجين والمَرْضى وأبناء السبيل ولكنّها توفّر كذلك مداخيل تسند مجهودات هامّة لمؤسّسات جماعية أُخرى. وكمثال على ذلك تذكر رسالة مُحرَّرة بالإسكندرية في سبتمبر 1200م وموجّهة إلى ابن ميمون بالفُسْطاط ترميمَ بِيعة بتمويل من مداخيل أحد الفَنادق(81). تذكر مُدَوَّنات القودِش جُمْلة من مُختلَف المُمْتلكات الجَماعية منها الدكاكين والشِّقَق وكذلك الفَنادق(82). تُقدِّم هذه السِّجِلّات حسابات شَهْرية للمَصاريف والمَداخيل المُتأتية من كِراء الغُرَف في الفَنادق. كما تُسجّل كذلك مداخيل الفَنادق حسب طوابقها (مثل الطابق العُلوي أو الطابق السُّفلي) زيادة على الحسابات حسب الغُرَف الفَردية ويبيِّن تكرار الأسماء في قوائم القودِش أن الفضاءات العامّة داخل الفُنْدُق كانت تؤجّر هي الأُخرى حسب قاعدة المدى الطويل.

تتغيَّر تكاليف الكِراء في الفَترات العَصيبة أو فَترات المَجاعة وتتراجع مداخيل الجَماعة ويجد المُستأجِرون صُعُوبة في دفع الأكْرِية فيعيشون بدون دفع الإيجار(83). وتوفّر الفَنادق أيضاً السَّكَن للّاجئين من اليهود أو الوافدين الجُدُد على المَدينة إمّا بتقديم المَعُونة أو على حساب الجَماعة(84). وتحتوي البِيَع على أماكن خاصّة لإسكان القادمين إليها غير أنّ الإقامة الطويلة يجب أن تكون في الفُنْدُق(85). ولكنّه يستحيل تقدير عدد الذين يُقيمون في الفُنْدُق مجّاناً بما أنهم لا يوفّرون دخلاً يُسجَّل في دفاتر حِسابات القودِش(86).

هناك أيضاً مصاريف أُخرى متعلّقة بالأعمال الخَيْرية والعَمَليّة في علاقة بالفَنادق الجماعية. يُشير طَلب تقدَّم به أحد المدرّسين في النِّصف الأوّل من القرن

(81) ENA NS 19.10; Goitein, *A Mediterranean Society*, IV; 437 (note 99).
قد كان الفُنْدُق نفسه في هذه الحالة في طور الإصلاح وقد تمَّ دفع معاليم ذلك "مما تبقى من مال بعد إنهاء الأشغال في البِيعة".

(82) See Moshe Gil (ed.), *Documents of the Jewish Pious Foundations from the Cairo Geniza* (Leiden: E. J. Brill, 1976), Documents 65, 67-69, 72, 80-82, 83-87, 89, 91, 98-99, 101-130, 106, 131-132, 134, 138, 142.

(83) See, for example, Gil (ed.), *Pious Foundations*, 386-390.

(84) حَوْل الصَّدَقة والضِّيافة عامّة، انظر Goitein, *A Mediterranean Society*, V (1988), 28-37.

(85) Goitein, *A Mediterranean Society*, II, 154.

(86) Gil (ed.), *Pious Foundations*, 114-115.

الثالث عشر للحُصُول على مُساعدة مالية للإنفاق على تعليم ثلاثة صِبية أيتام، أبناء امرأة فارسية تعيش في الفُنْدُق التابع للجماعة[87]. وهناك أيضاً مصاريف كبيرة تُنْفَق لترميم الفُنْدُق والإشراف عليه وتسييره، ويُصْرَف منها للموظّفين وللّوازم، وكلّ ذلك يُطرح من مداخيل الوَقْف. ويتطلّب البناء في حدّ ذاته العناية المُتواصلة، مثلما تؤكّد ذلك الوثائق العديدة التي تُشير إلى توفير المواد والخدمات كدفع دِرْهَمين ونصف، حوالى سنة 1200م، لجَبْل الطِّين لإدخال تحسينات على مَدخل الفُنْدُق[88]. وتضمّ قائمة حسابات تعود إلى سنتَيْ 1183-1184م ليس مداخيل الفُنْدُق المُتأتّية من اثنتين وثلاثين شقّة وحسب ولكن أيضاً كُلفة "رِتاج للباب وجِبْس ونجارة ومَسامير" وكذلك كُلفة إزالة أوساخ من الفُنْدُق[89]. وبعد سنوات قليلة على ذلك تقريباً في سنة 1185م اقترح مجلس ابن ميمون أن يتكفّل بدفع ضريبة ذِمّة لِرَجُل على أساس أن له أموالاً لدى الجماعة مقابل إشرافه على ترميم الفُنْدُق[90]. وخُلاصة الأمر يستوجب الإشراف على الفُنْدُق مصاريف عديدة ومتنوّعة للإدارة والأعمال والحراسة. ويُطلق على المُشْرِف على الفُنْدُق الجَماعي اسم قَيِّم فُنْدُق الهِقْداش أو بكلّ بساطة الفُنْدُقاني (وهي عبارة من العربيّة الفُصْحَى للتعبير عن المُشْرِف على الفُنْدُق)[91]. وفي إحدى المَرّات قامت الجماعة اليهودية بالإسكندرية بجمع الإحسان والاقتصاد في النفقات بتكليف أحد المحتاجين، وَفَدَ حديثاً، بالإشراف على الفُنْدُق، ولكنّها سرعان ما تخلّت عن هذا الأسلوب لأن الرجل أثبت عدم كفاءته[92]. وتُعطى في بعض الأحيان إدارة الفُنْدُق في شكل لَزْمة مثلما تُبَيِّن ذلك وثيقةٌ تعود إلى سنة 1183م حيث إن فُنْدُقاني الفُنْدُق الصغير دفع للجماعة 75 درهماً شهرياً[93]. وتشير وثيقة في سنوات سابقة تعود تقريباً إلى سنة 1160م

(87) BM Or 5542.f. 14 (ll. 12-13); Goitein, *A Mediterranean Society*, II, 465.

(88) TS Box J I, f. 32; Gil (ed.), *Pious Foundations*, (no. 106) 394-396.

(89) Bodl MS Heb. f. 56 (A35); Gil (ed.), *Pious Foundations* (no. 89) 350-357.

(90) DK XXI; Gil (ed.), *Pious Foundations* (no. 77) 323-324. نظراً لأن هذه الوثيقة لم تُوقَّع قط، فربّما كان هناك خلافٌ على صوابيّة هذه التسوية.

(91) انظر في ما يتعلّق بقَيِّم فُنْدُق الهقداش. TS 12. 652; Gil (ed.), *Pious Foundations*, 50.

(92) TS 12.652 (l.13 and verso l.17); Goitein, *A Mediterranean Society*, II, 136.

(93) TS 8J II, f.4 (A 29); Goitein, *A Mediterranean Society*, II, 548 (note 50); Gil =

إلى أن فُنْدُق بين الكنيستَيْن قد خلص من ديونه التي تهمّ الخَراج ويبدو أن ذلك كان حسب قيمة إجماليّة[94]. ويُستنتج من ذلك مرة أُخرى وجود وسيط يمثّله جامع الأَكْرِية أو مُلْتَزِم الضرائب.

الشكل والوظيفة: إشارات العِمارة والتجهيزات والإدارة

توضح لنا المعلومات عن عِمارة الفُنْدُق والخان، وعن الخدمات التي تقدّمها للتُّجّار والمسافرين، تصوّراً عن كيفية اشتغالها. وكما سبق ذكره، فإنّ المباني المُخَصّصة للسَّكَن والتِّجارة يمكن أن تكون مشابهة في تخطيط الأرضيّة لتلك التي لها وظائف أُخرى. وهذه من خصائص العمارة الإسلامية التي بقليل من الأشكال يمكن أن تعطي وظائف عديدة بمُجَرَّد اختلاف بسيط في الهيكل.

تشترك المباني المعدّة للسَّكَن والخَزْن والتِّجارة في كثير من الخصائص مع مبانٍ أُخرى مُهيّأة لأغراض مدنية واقتصادية، ولذلك فإنه في غياب النقائش فكثيراً ما يصعب تحديد وظيفة المبنى أكان فُنْدُقاً أم خاناً.

وفي بعض الحالات، تؤشّر العناصر المِعْمارية إلى الاختلافات الوظيفية، فعلى عكس المنازل الخاصّة، تحتوي الفَنادق على غُرَف فَردية متّصلة بفضاء عامّ مثل الفناء أو المَمَرّات عوضاً عن أن تكون متّصلة فيما بينها. كما أن التجهيزات الخاصّة بالإنارة والتهوية وبيوت الاستحمام هي أيضاً مختلفة وكثيراً ما تكون بسيطة مقارنة بما هو موجود في المساكن الخاصّة ولا سيّما في الطابق السُّفلي المعدّ لخَزْن البضائع وربط الدوابّ.

كانت توجد عادةً في الطابق السُّفلي للفَنادق غُرَفٌ بلا نوافذ أو منافذ للتهوية، ومن الواضح أن ذلك لحماية البضائع عوضاً عن توفير الراحة للناس. أمّا في الأعلى فغُرَف النوم أفضل إنارة وتهوية ولكنّها ليست مريحة مثلما هو الحال في الغُرَف المُعَدّة للإقامة الدائمة.

تختلف الفَنادق والخانات بصورة جليّة في مستوى الحجم والقيمة

= (ed.), *Pious Foundations*, (no. 84) 337-339. أن يكون الدفع شهرياً فإن ذلك مستوحى من أن الفُنْدُق نفسه كان يوفّر 79 درهماً في الشهر سنة 1181.

(94) TS NS Box 306, f. I; Gil (ed.), *Pious Foundations*, (no. 65) 295-299.

الهندسية، فبعضها يمكن أن يحتوي على حوالى مائة غُرفة مع طاقة استيعاب لإسكان مئات الأشخاص مع دوابّهم في الوقت نفسه.

وهناك البعض الآخر الصغير الحجم والذي يحتوي على عدد قليل من الغُرَف الصغيرة. وقد بُني البعض منها ليدوم فكانت جدرانه سميكة مَبْنيّة بالحجارة في حين بُني البعض الآخر بمواد بسيطة ربّما بكلفة أقل بالنسبة إلى صاحب البناء.

واحتلّ الأمن مركز الاهتمام الأوّل، فقد وصف ابن جُبَيْر خانات قُربَ قِنَّسْرِين قائلاً "وخانات هذا الطريق كأنها القِلاع امتناعاً وحَصانة وأبوابها حديد وهي من الوثاقة في غاية"[95]. وعادة ما تكون الخانات المعزولة في البادية على طول الطُّرُقات هي الأكثر إحكاماً في البناء في حين تكون الفَنادق في المُدُن مثل المنازل التي تجاورها. وتختلف أبواب الفَنادق عن الأبواب في العمارة المدنية من حيث الشكل والاستعمال. فعادة ما يكون الدخول إلى وسط الفُنْدُق عبر باب رئيسي واحد يكون قادراً على استقبال بَغْل أو جَمَل بحمله[96]. وعادة ما يفتح هذا الباب مباشرة على الفناء الذي يوجد في الوسط ميسّراً الدخول مباشرة بدلاً من انحناءات أو زوايا تحجب النظر وتحافظ على حُرْمة الفضاء الداخلي. ففي الفَنادق والخانات تُعتبر سهولة دخول قوافل الحيوانات المحمّلة أهمّ من الحفاظ على الحياة الخاصّة. ويُعتبر حظر التجوّل ليلاً وغلق الأبواب والحراسة الليلية من الخصائص العامّة لكلّ المُدُن في العصر الوسيط في العالم الإسلاميّ والعالم المسيحيّ على السواء. ففي المُدُن الإسلامية كانت الفَنادق والأسواق والمستودعات مُحْكَمة التنظيم وعادة ما تُغْلَق من المغرب إلى الفجر، فعندما توفي عالم أندلُسيّ بهدوء في الليل في خان بالقاهرة سنة 1237م، شاع خبر وفاته بسرعة عجيبة في أنحاء المدينة. وفي الصباح تجمّع عدد كبير من أهل

(95) ابن جُبَيْر، الرِّحْلة، ص254، الترجمة الإنكليزية، ص264.

(96) هناك أمثلة عديدة عن الفَنادق والخانات في العهدين الأيوبي والمملوكي والتي كانت لها أبواب سميكة ولها أرْوِقة. فقد كان أحدها في تلّ التُّنَيْنِير في شمالي شرق الشام له باب سميك ومدخل عرضه 3,10 متر يسمح بمرور بَعِير مُحمّل، انظر:
M. and N. Fuller, «Atuqid, Zengid, and Ayyûbid Coins from Tell Tuneinir, Syria," *Turkoman Figural Bronze Coins and their Iconography*, II, ed. W. F. Spengler and W. G. Sayles (Lodi, WI: Clio's Cabinet, 1996) 138.

التقوى أمام المبنى مطالبين بفتح الباب ليتمكّنوا من مشاهدة جُثمانه[97]. كما تُورد حسابات القودِش ضمن وثائق الجِنيزة مصاريف صنع قِفْل جديد لأحد فَنادق الجماعة اليهودية وإصلاح الأبواب والبوّابات ودفع أجور الحُرّاس والعَسَس[98].

لقد كانت الممارسة الشائعة وإن لم تكن عالميّة أن تُغْلَق أبواب الفَنادق في الليل من الخارج بأمر من السُّلطات المدنيّة أو المُحْتَسِب، وهو ما يفرّق بينها وبين المنازل الخاصّة التي تُغْلَق من الداخل.

لم يكن إغلاق أبواب الفَنادق والخانات من الخارج لتوفير الأمن لساكنيها وحوائجهم فقط، ولكن أيضاً لضمان بقائهم في الداخل طوال الليل. وتكون الفَنادق في بعض الحالات بديلاً لسجن، غير رسمي، رُبّما يُحْبَس فيه أناس ليس لأنهم مجرمون وإنما دفعت بهم الظروف أن يكونوا تحت المراقبة لسبب من الأسباب. وينصح ابن عَبْدُون في رسالته في الحِسْبة التي كتبها في بداية القرن الثالث عشر بإشبيلية أنه يتوجب إيقاف الغرباء الذين يُعثر عليهم وهم يتسكّعون ليلاً في المدينة وتقديمهم للسُّلطات في الصباح. وإلى ذلك الحين لا يمكن سَجْنُهم (ولا يجب تعنيفهم أو إيذاؤهم) ولكن "يمكن الاحتفاظ بهم في الفُنْدُق ليكونوا تحت أنظار المُقيمين به حتى الصباح"[99]. وفي الجِهَة الأُخرى من المتوسّط في الفُسْطاط في الفترة نفسها نجد في دفتر حسابات يعود إلى شهر حزيران/يونيو 1201م مصاريف بأربعة دراهم ونصف الدرهم لسَجْن بعض الأشخاص في أحد الفَنادق[100].

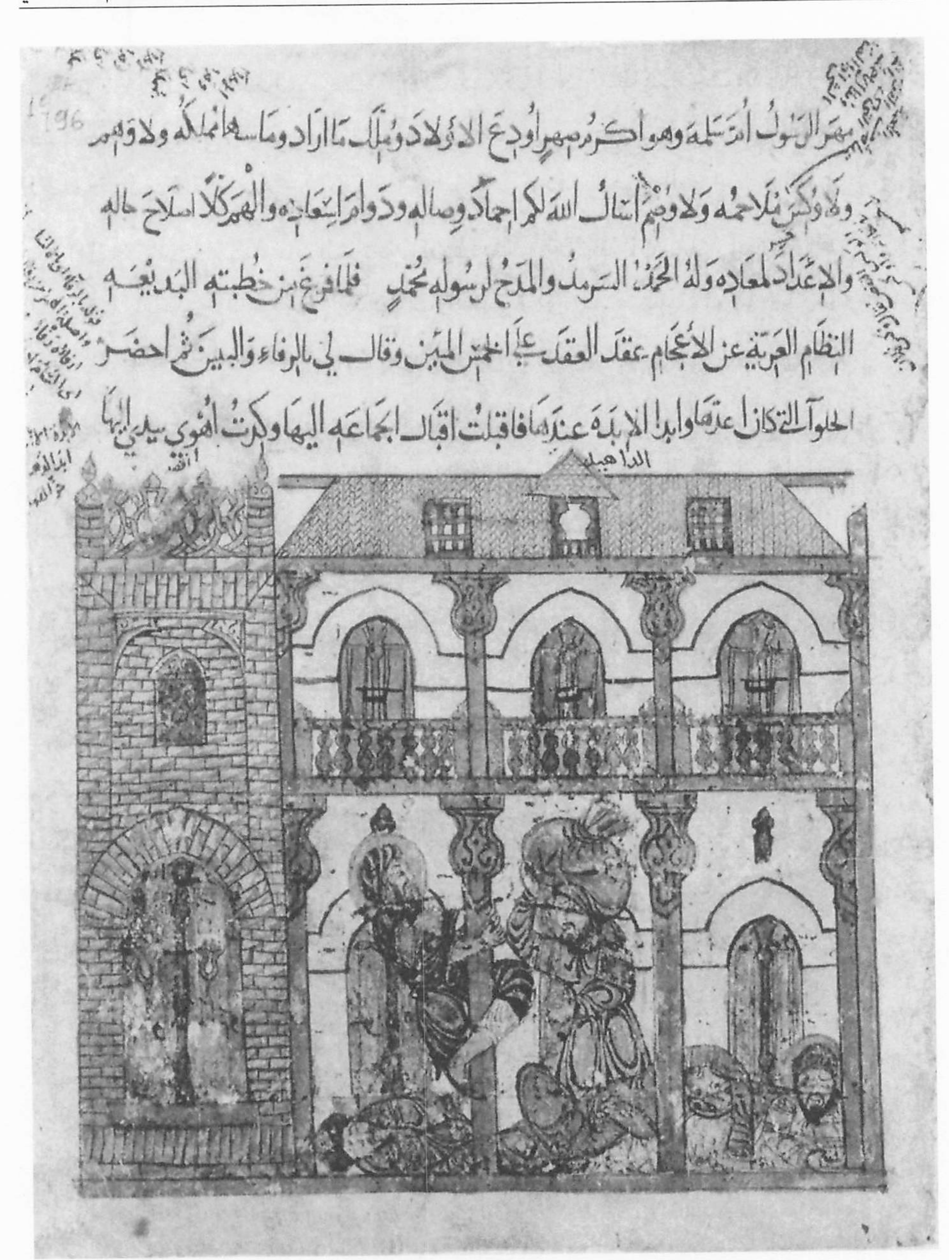
---

(97) M. Marín, "El viaje a Oriente de Abū Marwān al-Bāŷī (m. 635/1237),» in *Estudios onomásticos-biográficos de al-Andalus*, ed. M. Marín, (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Cientificas, 1994) VI, 298-299.

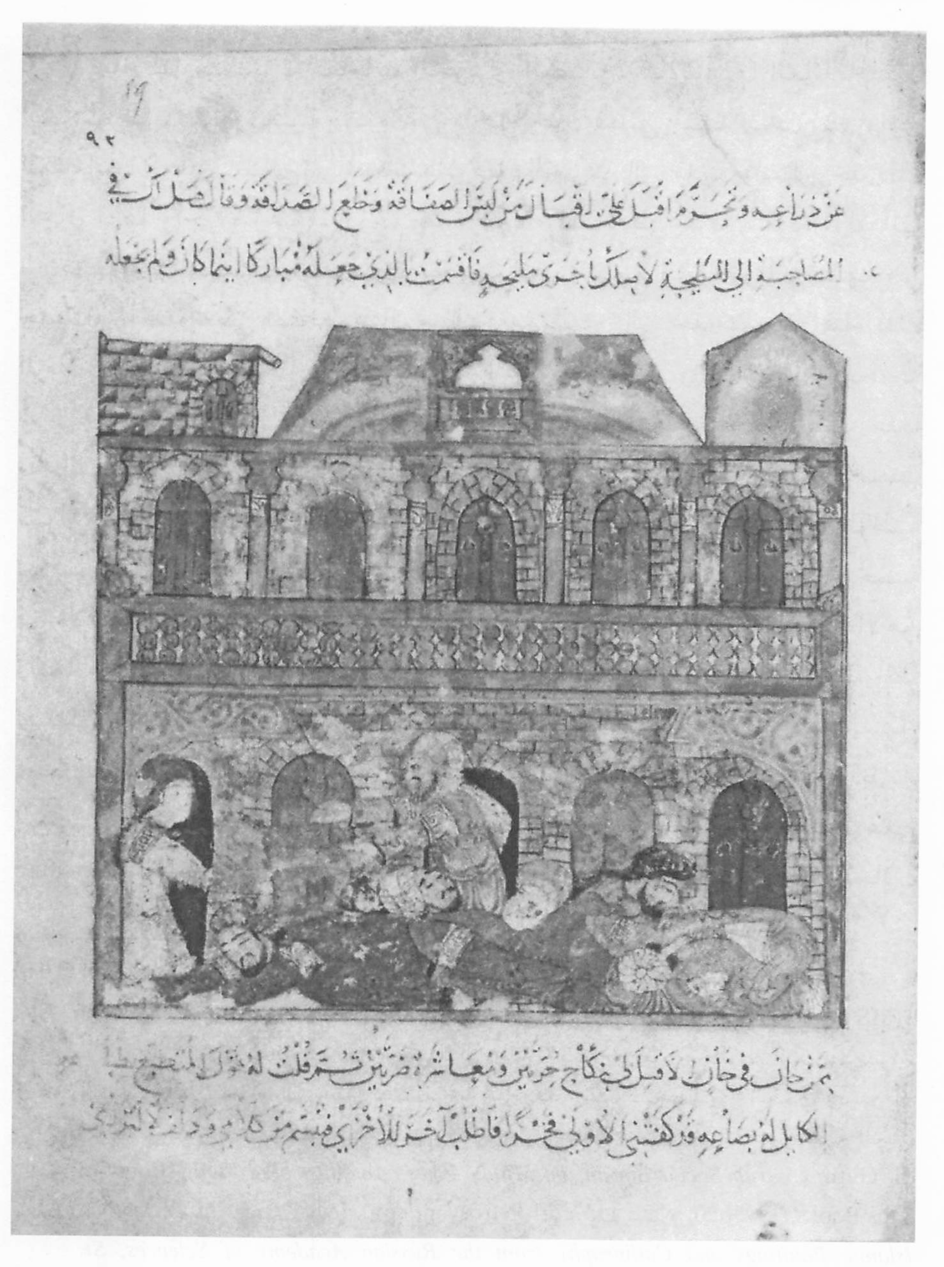
(98) Lock: Bodl MS Heb. f. 56, fs. 59-61(A35); Gil (ed.), *Pious Foundations* (no. 89) 350-357. Night-watchmen: ENA 3124 f. 13 (A160); Gil (ed.), *Pious Foundations* (no. 72) 309-311; Bodl MS Heb. f. 56, f. 43a-c (A25); Gil (ed.), *Pious Foundations* (no. 80) 327-330. TS Box K6, f.44 (A95); Gil (ed.), *Pious Foundations* (no. 142) 471-475.

(99) ابن عَبْدُون، رسالة في القَضاء والحِسْبة ضمن *Documents arabe inédits sur la vie sociale et économique en occident musulman au moyen âge : trois traités hispanique de ḥisba*, ed. E. Lévi-Provençal (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1955) 18.

(100) TS Box K 15., f. 54 (A43); Gil (ed.), *Pious Foundations*, (no. 101) 378-385.



صورة رقم 7: من منمنمات الحريري



صورة رقم 8: من منمنمات الحريري

تقدّم لنا مُنَمْنَمات مقامات الحريري البَصري (ت1122م) العائدة للقرن الثالث عشر صورة فنّية نادرة عن داخل خان قضى فيها الحارِث، راوي المقامات، إحدى الليالي[101]. فعندما وصل الحارِث إلى مدينة واسِط وجد ذلك الخان مرتّباً وأجوره زهيدة، ورغم كثرة النُّزَلاء فقد أُعطي غرفة منفردة (ولو أنها ملاصقة جداً للغُرفة المجاورة بحيث كان يُسمع ما يدور بداخلها من حديث)[102]. وتعطي المخطوطتان منظرين متشابهين إلى حدٍّ كبير عن فناء ذلك الخان، وتصوِّران المخازن الموجودة في الطابق السُّفلي، والطابق الثاني بحاجز شُرْفةٍ (درابزين) خشبيّ منحوت، وأعمدة وبيت ضيافة صغير (رغم أنه يُظهر عدداً من الزبائن نائمين في الفناء) وفي الأعلى سقف وعِلِّيّة بنوافذ. ومثلما وصفت شيرلي غوثري «Shirley Guthrie» واحدة من مُنَمْنَمات مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس رقم 5847، فهي تصوّر بناية من خمس غُرَف في الطابق العُلوي وخمسة في الأسفل، وأبواب [مزدوجة] من خشب سميك مُدَعَّم بالحديد لتوفير الأمن ولهما مَقابض معدنية دائرية الشكل... وكانت أبواب الغُرَف الخمس السُّفليّة أكثر استدارةً واتساعاً من أبواب الغُرَف الموجودة في الطابق العُلوي، ممّا يُسَهِّل دخول الحيوانات المُثْقلة بحمولتها لتصل إلى المخازن الموجودة في الطابق السُّفلي. ويمكن دخول الغُرَف العُلوية كلٌّ على حِدة عبر شُرْفة تُطِلُّ على الفناء[103]. وتُلِحّ المُنَمْنَمات التي تُوجد في مَخْطُوطة سان بطرسبورغ على الجانب

---

(101) إن المثالين المعروضين هنا هما من مخطوط بالأكاديمية الروسية للعلوم بسان بطرسبورغ [St. Petersburg] (MS c-23, fol. 99r) والمكتبة الوطنية بباريس (MS arabe 5847.). توجد على مخطوطة باريس علامة تعود إلى سنة 1237م وتعود مخطوطة سان بطرسبورغ إلى سنة 1240م أو إلى قبل ذلك نوعاً ما. وقد رُسِم كلاهما في العراق ويبدو أن الواسِطي الذي نَمْنَم مَخطوطة باريس هو أصيل مدينة واسِط حيث تدور قصة الخان (S. Guthrie, *Arab Social Life in the Middle Ages: An Illustrated Study* [London: Saqi Books, 1995] 20, plate 11; Yuri Petrosyan, et al. [eds.] *Pages of Perfection. Islamic Paintings and Calligraphy from the Russian Academy of Sciences, St. Petersburg* [Lugano: ARCH Foundation, 1995] 144, 150). وحسب غوثري [Guthrie] "كلّ مخطوطات هذا النصّ بدون استثناء تُبيِّن مبنًى ضخم القياسات من طابقين وفناءً خارجيّاً، كما أن الغُرَف تفتح على شُرُفات" (98).

(102) الحريري البَصري، مَقامات، دار صادر، بيروت، 1958م، ص228.

(103) Guthrie, *Arab Social Life*, 97.

الأمني إذ تُصَوِّر الباب الخشبيّ الخارجيّ للخان وهو مُغْلق، وهو مُجَهَّز بأنواع مختلفة من المَعادن كما تُصَوّر بدقّة أبواب الغُرَف العُلوية وقد زُوِّدت بِرتاجات ومزالِج. وفوق الباب الرئيسي توجد نافذة مُشَبَّكة بالمعدن تُسمح للساكن بالنظر إلى خارج الخان.

لقد كان الأمن دائماً هاجساً في الفَضاءات التجارية. وقد بَيَّن الرسّام من خلال هذه الأمثلة أهمّية الأبواب وغَلْقها وربّما كان ذلك من باب السّخْرية بما أن الحارِث كان شاهد عِيان على سَرِقةٍ حصلت في الخان في تلك الليلة التي قضاها (تُصَوِّر المخطوطتان السارِق وهو يتسلَّل عبر الفناء حاملاً كيساً من المَسْروقات). فالأبواب المُغْلَقة لا تحمي التجار وأمتعتهم من المجرمين الذين يأتون من خارج الفُنْدُق فقط، بل تعني كذلك أنه يمكن في بعض الأحيان اكتشاف سارق في الداخل والإمساك به قبل أن تفتح الأبواب. وقد روى ابن صَصْرَة حكاية سرقة حصلت في خان على الطريق بين دمشق والقدس في القرن الرابع عشر. وقد اتُّهم يهوديّ في البداية بالسرقة ولكن اكتُشف فيما بعد أنّ السرقة قام بها قِرْد يملكه أحد نزلاء الخان[104]. إن فناء الخان في واسط هو فناء نموذجيّ في مثل هذه المؤسَّسات، ورغم أنّ هناك اختلافات جِهَوية في شكل هذه الفَنادق، فإنه يوجد مبدئيّاً في الخانات والفَنادق في العالم الإسلاميّ الوسيط أفْنِية (تكون في بعض الأحيان مُغَطّاة) تُحيط بها أَرْوقة فيها مخازن وإسطبلات في الطابق السُّفلي. ويمكن أن نذكر أمثلة عن ذلك منذ العهد الأمويّ (في قَصْر الحَيْر الشرقيّ وقَصْر الحَيْر الغربي) وطوال العصر الوسيط حتى العهد العثماني[105]. كما أنّ الأفْنِية كانت جزءاً من العَمارة المدنيّة ومبانٍ عُموميّة أُخرى ولكن ما هو موجود في الفَنادق هي فَضاءات واسعة وذات نفع. ففي وصفه لمنزل بمَكّة يقول

---

(104) ابن صَصْرَة، الدُّرَة المُضِيّة في الدولة الظاهرية، ترجمة وتحقيق William M. Brinner, *Chronicle of Damascus 1389-1397*, (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1963) I, 39 (9) b-40 (10)b.

(105) هناك بيبليوغرافيا شاسعة حول تصميم الفَنادق والخانات، انظر:
Sauvaget, "Caravansérails syriens» 6 (1939) 48-55 and 7 (1940) 1-19; Kurt Erdmann and Hanna Erdmann, *Das anatolische Karavansaray des 13. Jahrhunderts* (Berlin: Gebr. Mann Verlag, 1976); Elisséeff, "Khān"; Siroux, *Caravansérails d'Iran*; Kiāni and Kleiss, *Kārvānsarāhā-ye* Irān.

ابن جُبَيْر إن له فناءً رَحْباً كأنه فناء فُنْدُق" وهذا يعني أنّ من خصائص الفُنْدُق ومميّزاته سَعَة فنائه(106).

تتكوّن بعض الفَنادق من طابق واحد ولكن في كثير منها توجد مدارج تؤدّي إلى طابق عُلويّ فيه غُرَف فرديّة للعيش والنوم. تذكر العديد من المصادر المكتوبة ارتفاع هذه المباني سَواء منذ أقدمها وهي نقيشة وَقْف الرَّمْلة سنة 913م أو من خلال ما تبقّى من هياكلها. تعطي وثائق الوَقْف المملوكيّ المتعلّقة بالفَنادق وصفاً مفصّلاً للحجارة وللمدارج الخشبية والبيوت العُلوية والدرابيز الخشبية" التي تذكّر بصور مَقامات الحريري(107). يذكر البَكْري وابن جُبَيْر ارتفاع الفَنادق في تونس ودمشق، ويظهر دَرَج في قصّة رواها التَّنُوخي (ت 994م) حول أحد المسافرين الذي قضى ليلة في أحد الخانات(108). تذكر سِجِلّات الجِنيزة التابعة للقودِش بشكل روتيني المداخيلَ المتأتّية إمّا من الطابق «العُلوي» أو من الطابق «السُّفلي» للفَنادق الجماعية. ففي مثال يعود إلى سنة 1182م تمّ تقسيم الدخل الشهري للفُنْدُق الصغير بالفُسْطاط على "ما هو متأتٍّ من الطابق العُلوي وهو ستة وستون درهماً ومن الطابق السُّفلي تسعة وعشرون درهماً"(109). والواضح أن الغُرَف الفردية

(106) ابن جُبَيْر، الرِّحْلة، ص167، الترجمة الإنكليزية، ص171.

(107) هناك أمثلة تتضمَّن توقيف فُنْدُق البَيْض والقَصَب بالإسكندرية سنة 1326م، ابن حبيب، تَذْكرة النَّبِيه في أيام المنصور وبَنِيه، تحقيق محمد محمد أمين، منشورات المكتبة الوطنية، القاهرة، 1982م، الجزء الثاني، ص428-432.
أشكر نيال كريستي [Niall Christie] لتنبيهي إلى هذا النصّ والسماح لي بقراءة مقاله غير المنشور حول "Reconstructing Life in Mediaeval Alexandria from an 8th/14th Century Waqf Document". وكذلك: the *Waqf* for the Funduq al-Ḥajar in Cairo (1442) in S. Denoix, J.-P. De Paule, and M. Tuchscherer, *Le Khan al-Khalili et ses environs, Un centre commercial et artisanal au Caire du XIII au XXe siècle* (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1999) II, appendix, 8-10.

(108) البَكْري، الكتاب المعروف بالمسالك، ص40، ابن جُبَيْر، الرِّحْلة، ص288، الترجمة الإنكليزية، ص302، التَّنُوخي، ترجمة D. S. Margoliouth, al-Tanûkhî, *The Table-Talk of a Mesopotamian Judge, Being the first Part of the Nishwar al-Muḥassin al-Tanûkhî*, (London: Royal Asiatic Society, 1922) 109-110.

(109) In 1230, TS Box J 2 f. 63c-d (A28); Gil (ed.), *Pious Foundations*, (no. 83) 334-337.=

كانت ذات أحجام متفاوتة بما أن حسابات تعود إلى حوالى سنة 1230، وهي ربّما تشير إلى أربع غُرَف بالطابق العُلوي لفُنْدُق بين الكنيستَيْن، إذ أُدرج مستأجرون دفعوا 15 و5و 8 و7 دراهم في الشهر كمعلوم كِراء[110]. وبعد عشر سنوات أيّ حوالى 1240 تمّ كِراء غُرفتين في الطابق العُلوي للفُنْدُق (ربّما المقصود هذه المرّة هو الفُنْدُق الصغير) بثمانية دراهم في الشهر، وغُرفتين أُخرَيين بخمسة دراهم وغُرفة بعشرة دراهم لأنها بدون شكّ كانت أوسع قليلاً. وبلغ الكِراء الشهري لغُرفتين لخزن البضائع في المبنى نفسه، يُفترض أنهما في الطابق السُّفلي، درهمين لكلّ منهما[111]. في الفُنْدُق، بعض الغُرَف المعدّة للضيافة كانت غُرَفاً خاصّة، وبينما آوَتْ غُرَف أُخرى عدة أشخاص، في حين ينام الضيوف في بعض المباني على منصّة مرتفعة في صالة جماعية[112]. توجد أغلب غُرَف النوم في الطابق العُلوي ولكن هذا ليس بالأمر الثابت في كلّ الحالات. فعندما أقام ابن جُبَيْر في فُنْدُق أبي الثَّناء بالقاهرة «فقد تمكّن هو ومرافقوه من الحصول على غُرفة فسيحة قرب باب الفُنْدُق» وهي ربّما كانت بالطابق السُّفلي[113]. وتصوّر مُنَمْنَمات المَقامات أناساً ينامون في فناء الخان ومع أن هذه ربّما كانت صورة فَنّيّة شكلية توحي بأن المشهد هو مشهد لَيْلي. إلّا أن بعض الفَنادق كانت تملك قليلاً من الغُرَف للكِراء ربّما ما بين العشر والعشرين كمعدل وسطيّ ويكون في غيرها الكثير. والفُنْدُق الذي أسَّسه مسرور في القاهرة كان من المفترض أن يشتمل على تسع وتسعين غُرفة، وهناك وثيقةُ وَقْف من القرن الخامس عشر تُحصي اثنتين وأربعين غُرفة في الطابق العُلوي في فُنْدُق آخر بالقاهرة[114]. وكما يُقيم الناس في غُرَف في الطابق السُّفلي والطابق العُلوي فإنّ النُّزَلاء ينامون أيضاً فوق السُّطوح متمتّعين بالهواء المنعش والنَّسيم.

= monthly income from the upper floor came to (22 ½) dirhams (ENA 2591, fs. 14, 15 (A172); Gil (ed.), *Pious Foundations*, (no. 134) 444-445.

(110) ENA 2591, fs. 14, 15 (A172); Gil (ed.), *Pious Foundations*, (no. 134) 444-445.

(111) ENA 2592, f. 29; Gil (ed.), *Pious Foundations*, (no. 138) 460-465.

(112) Elisséeff, "Khān", 1011.

(113) ابن جُبَيْر، الرِّحلة، ص45، الترجمة الإنكليزية، ص36.

(114) المَقْريزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص92، S. Denoix et al., *Le Khan al-Khalili et ses environs*, II, appendix, 8-10.

وقد تكون هناك بناءات فوق السُّطوح توفّر المأوى والظِّل للنُّزلاء الذين ينامون في النهار قبل السفر في ساعات الليل الباردة. كان أحد شيوخ المُتَصوّفة التونسيين في القرن الخامس عشر يسكن كوخاً فوق سطح الفُنْدُق بتونس[115]. كذلك قد صُوّر الخان الذي ورد في المقامات وفوق سطحه بعض البناءات. ويصف ابن جُبَيْر الفَنادق في جدّة مشيراً إلى أنّ أغلب المنازل في المدينة قد بُنِيَت من القَصَب، في حين بُنيت الفَنادق من الحِجارة والطّين في الطوابق السُّفليّة "وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالغُرَف ولها سطوح يُستراح فيها بالليل من أذى الحَرّ"[116]. وفي وثيقة تَحْبِيس من الإسكندرية تعود إلى سنة 1326م وصفٌ للمَدارِج التي تُفضي إلى سطح الفُنْدُق[117]. وفي السنة نفسها لمّا كان ابن بَطُّوطة يستعدّ لقضاء الليل في زاوية قريباً من مدينة فوّة [بمصر] نصحه مُضيفه وقال له "اصعد إلى سطح الزاوية فنم هناك، وذلك أوانَ القَيظ. . . فَصعِدت السطح فوجدت به حصيراً ونَطْعاً وآنية للوُضوء وجَرّة ماء وقَدَحاً للشرب، فنمت هناك"[118]. يقدّم عادة الطابق السُّفلي للفُنْدُق على أنه فَضاء مُعَدّ لخزن البضائع وإناخة الدواب، وكلّ هذا حيويّ للنشاط التجاري. وفي كثير من الحالات توجد كذلك دكاكين مرتبطة بالمبنى. وتُبيِّن بقايا الفَنادق، ووثائق الأوقاف، وكذلك مُنَمْنَمات المَقامات أن الفناء مُحاط بِرُواق مُغَطّى (وهو قاعدة يرتكز عليها الطابق العُلوي) له أبواب تؤدّي إلى غُرَف آمنة لخزن البضائع. رغم أن الغُرَف العُلويّة كانت لها نوافذ تفتح على الشارع فإن الغُرَف السُّفليّة تفتح على الداخل فقط. وصاحب الفُنْدُق أو البوّاب مسؤول عن المَخازن وفي حَوْزته مفاتيحها. والتجار يمكنهم أن يمارسوا نشاطهم في الفناء وفي ظلّ الأرْوِقة المُحيطة أو في الغُرَف العُلوية. وبما أنّ قليلاً من التجار يصلون على الأقدام، فإنه من الواجب توفير أمكنة للدوابّ مثلما هو الشأن بالنسبة إلى الناس. فلهذه الأسباب كانت الفَنادق مرتبطة بالإسطبلات ممّا أدّى بالقاضي

---

(115) J. G. Katz, *Dreams, Sufism, and Sainthood: The Visionary Career of Muhammad al-Zawāwī* (Leiden: E. J. Brill, 1996) 14.

(116) ابن جُبَيْر، الرِّحلة، ص75، الترجمة الإنكليزية، ص70.

(117) ابن حبيب، تَذْكرة النَّبِيه، الجزء الثاني، ص429-431.

(118) ابن بَطُّوطة، الرِّحلة، (1325-1354) الترجمة الإنكليزية، ص30-31.

المَغْربي ابن الحاجّ العَبْدري (ت1336) إلى التأكيد على مَنْع الدواب السائبة في الشوارع وأمام أبواب المساجد لأسباب صِحّية، ولكن يجب حصرها في الفَنادق والإسطبلات[119]. يتحمّل المشرفون على الفَنادق مسؤولية رفاه وحماية دوابّ النُّزَلاء وتأمين أمتعتهم، ولكنّهم لم يكونوا يَفُون دائماً بذلك. يورد ابن صَصْرَة حكاية مسافر من بعلبك وصل إلى دمشق في أواخر القرن الرابع عشر في الوقت نفسه الذي كان فيه السُّلطان بَرْقُوق وحاشيته يزورون المدينة. نزل ذلك المُسافر ومعه حِماره في خان بالمدينة وكان فيه بعض أعوان السُّلطان. فروى فيما بعد، قال: "**كان معي حِمار فبقيت خائفاً عليه منهم، فخرجت في بعض أشغالي وقد وصَّيتُ الخاني على الحمار، فقضيت شغلي وجئت إلى الخان فلم أجد الحمار في مكانه ففتشت عليه في الخان فلم أجده**" إذ إن الجنود قد سرقوه[120].

تواجه الحيوانات كذلك خطر الحرائق عندما تكون في الفَنادق والخانات مثلما حدث أثناء أحد الحرائق التي شبّت في أحد الخانات بدمشق وهلك فيها سبعة جمال[121].

كانت الحرائق تمثّل خطراً دائماً في مُدُن العصر الوسيط وخاصّة عندما يُحْشَر المبنى الواحد كثيراً من الناس والحيوانات والبضائع الثمينة وتكون الأبواب مُغْلَقة في الليل. فقد وصف المَقْرِيزيّ حريقاً مدمِّراً شبّ في فُنْدُق طُرُنطاي بالقاهرة "**حيث ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام**". فقد اندلع الحريق في مكان آخر بالمدينة ولكن بسبب طبيعة البضائع الملتهِبة التي كانت في هذا الفُنْدُق، دُمِّر المبنى كلُّه ـ الصواري والطابق العُلوي وكلّ شيء[122]. كانت

(119) ابن الحاجّ العَبْدري، المَدْخَل، المطبعة المصرية، القاهرة، 1929م، الجزء الثاني، ص236-237.

(120) ابن صَصْرَة، الدُرّة المُضية، الجزء الاول، ص79أ.

(121) ابن طُولُون، إعلام الوَرَى بمن وُلّي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق وترجمة هنري لاوست *Les Gouverneurs de Damas sous les mamlouks et les premiers ottomans* (Damascus: Institut français de Damas, 1952) Arabic 168; French 90. يذكّر هذا الحدث بالحمولة (حيوانات الحمل) المَيتة في خان مدينة فحل في زلزال سنة 747م (انظر الفصل الثاني).

(122) المَقْريزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص94.

التهوية من الأمور الأساسية في الفَنادق خصوصاً عندما تكون الحيوانات في الطابق السُّفلي. يوفّر الفناء بعض التهوية إلى حدّ ما ولكن هناك تدابير أُخرى أيضاً. فالمُنَمْنَمات التي تصوّر الخانات والفَنادق في المقامات تُصوّر ما يمكن أن يكون مهاوي من الخشب المنحوت قد فُتحت في السقف. توجد صُورة بُرْج في مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس رقم 5847 له باب من خشب يفتح على السقف كما يوجد شارُوق آخر(123).

كما أنّ المصارف الصّحيّة كانت أيضاً موضع اهتمام، وعادةً ما تُوجد في الفَنادق مساحة خاصّة بها مراحيض مُشْتَرَكة (على عكس ذلك توجد في المنازل الكبيرة مرافق أكثر خصوصية). لقد طُرِحت مسألة تنظيف مراحيض الفُنْدُق منذ بداية القرن العاشر ووجدت طريقَها إلى كتب الإفتاء وتواصلت إلى أواخر العصر الوسيط. فقد تَعَرَّض لها الفقيه الأندلُسيّ ابن العَطّار (ت 1009م) في فصل يتعلّق بشروط الكِراء في كتابه عن العُقُود. وقد تَوَصَّل إلى الاستنتاج بأنه عادة ما يكون صاحب الفُنْدُق مسؤولاً عن تنظيف المراحيض إلّا إذا وقع التنصيص في العقد على أنّ ذلك من مشمولات مُكْتَري الفُنْدُق. وفي هذه الحالة يجب أن يشمل العَقْد فصلاً ينصّ على أنّ البئر يجب أن تكون نظيفة بدايةً، وإن لم يكن نظيفاً يجب تقييم كمّيّة القذارة قبل إمضاء العَقْد. وفي هذا اختلاف مع عُقُود تأجير المنازل التي يكون فيها التنظيف من مهامّ ساكنها ـ "إلّا إذا كانت مُسْتَعملة كفَنادق، عندها تكون من مسؤوليات المالك. ولكنّ بعض الفُقهاء كانوا يقولون بأنّه ليس هناك ما يفيده في الشرع"(124). وسواء كانت هذه المسألة الدقيقة قائمةً في الشرع أم لا فقد كان موضوع الصرف الصحي والمسؤول عنه محلّ اهتمام

(123) Guthrie, *Arab Social Life*, 96.

(124) ابن العَطّار، كتاب الوثائق، تحقيق P. Chalmeta and F. Corriente, Ibn al-'Aṭṭār, *Formulario notarial hispano-árabe por alfaquí y notario cordobés Ibn al-'Aṭṭār (s. X)*, (Madrid: Instituto Hispano-Árabe de Cultura, 1983) 193. وقد ذكر فَقِيهٌ أندلُسيّ آخر هو أحمد بن مُغِيث الطُّلَيْطُلي (توفي سنة 1067م) حالة شديدة الشبه في إطار مناقشته لعُقُود الكِراء، (المُقْنِع في علم الشروط، ص232) ذاكراً أن المالك لفُنْدُق لا يجب أن يشترط على مكتري الفُنْدُق أن يقوم بتنظيف الفضلات لأنها مجهولة الكمّيّة وإن عدم الدّقّة قد يؤدّي إلى إلغاء العَقْد.

دائم. وقد توصّل الجَزيري الذي كان يكتب بالأندلُس في أواخر القرن الثاني عشر إلى الاستنتاج نفسه الذي توصّل إليه ابن العَطّار في حين يقول ابن الرامي الفقيه المَغْربي إن المالك لا يتحمّل مسؤولية جَهْر الآبار العميقة(125). وكانت الأمور الصِّحّيّة مسألة هامّة في الفَنادق التابعة للجماعة اليهوديّة في الفُسْطاط. وكانت مسألة رفع الفضلات تتطلّب مصاريف دائمة حسبما هو مسجّل في دفاتر القودِش من أواخر القرن الحادي عشر إلى بداية القرن الثالث عشر. تورد النصوص الواحد تلو الآخر تكاليف "رفع الأوساخ من الفُنْدُق" أو "ميزانية تسريح القنوات ورفع الأوساخ من الفُنْدُق"(126).

كما تحتاج الفَنادق إلى الماء الصالح للشُّرْب والطَّبْخ والتَّنْظيف. ففي المُدُن، الماء موجود خارج المباني وبإمكان نُزَلاء الفُنْدُق أن يذهبوا إلى أقرب الحمّامات والأسبلة لقضاء حوائجهم. كما توجد في الفَنادق مصادر تَزَوُّدها الداخلي، وقد ذكر المَقْريزيّ أنّ خان السبيل بالقاهرة وهو بناء أيوبيّ يوجد شمال باب الفتوح(127) كان "به بئر ساقية وحوض". أما الخانات الريفية فغالباً ما كانت مزوَّدة ببئر أو صِهْريج يكون في بعض الأحيان مزوَّداً عبر قنوات تحت الأرض. وقد لاحظ ابن جُبَيْر ذلك داخل الفُنْدُق الذي بناه صلاح الدين سنة 1181م والمعروف بخان السُّلطان حيث ذكر أنه "فيه ماء جَارٍ يتسرّب إلى سقاية في وسط الخان كأنها صِهْريج ولها مَنافِس ينصبُّ منها الماء في سقاية صغيرة مستديرة حول الصِهْريج ثم يغوص في سَرَبٍ في الأرض"(128). ومباشرة في أسفل الطريق يصف خاناً آخر "كان في وسطه صِهْريج كبير مملوءاً ماءً يأتيه عبر قنوات

(125) الجَزيري، المَقْصد المحمود، ص211، ابن الرامي، كتاب الإعلان بأحكام البُنيان، مركز الدراسات والإعلام، دار إشبيلية، الرياض، 1995م، ص397.

(126) Bodl MS Heb. f. 56, fs. 59-61 (A35); Gil (ed.), *Pious Foundations* (no. 89) 350-357. TS Box K15, f.54 (A43); Gil (ed.), *Pious Foundations* (no. 101) 378-385. TS Box J 2, f. 63a-b (A33); Gil (ed.), *Pious Foundations* (no. 87) 343-346. TS Arabic Box 51, f.144 (A145); Gil (ed.), *Pious Foundations* (no. 103) 388-390. TS Arabic Box 18(I), f.155 (A24); Gil (ed.), *Pious Foundations* (no. 67) 300-304.

يرد كذلك ذِكْر القَنَوات في عقد كِراء فُنْدُق بالقاهرة سنة 1311م، انظر م.م. أمين، فِهرِسْت وَثائق القاهرة، ص77، سطر 20.

(127) MacKenzie, *Ayyūbid Cairo*, 166.

(128) ابن جُبَيْر، الرِّحْلة، ص259، الترجمة الإنكليزية، ص269.

تحت الأرض من عين بعيدة. وهو دائماً مملوء[129]. وبالإضافة إلى التزود بالماء توجد في بعض الفَنادق مرافق متطوّرة كحمّام داخلي وبيت لحفظ الثلج[130]. وتوجد في بعضها أيضاً أفران وما يُحتاجه لإعداد الخبز[131].

تلبي الفَنادق كذلك الحاجات المادّيّة والروحية للمسافرين إذ يشتمل الكثير منها على ممرّ يؤدّي إلى المسجد أو توجد بداخلها غُرفة بها مِحْراب. فأقدم هيكل لخان وهو خان الزَّبيب والذي قد يكون في الأصل حصناً رومانيّاً، يبدو أنه يحتوي على جامع صغير مستطيل الشكل خارج أسوار الفُنْدُق[132]. ويلح الفقيه ابن عبد الرؤوف، من فُقهاء القرن العاشر، على أن يضمن صاحب السوق حضور سكّان الفُنْدُق إلى المسجد في أوقات الصلاة، وهي شروط سهلة التطبيق خاصّة في فترة حظر الجولان الليلي إذا كان هناك مسجد في مُحيط الفُنْدُق[133]. يبدو أنّ الفُنْدُق الذي كان قد بناه مَسْرُور في القاهرة كان يتسع لمسجد تُصلّى فيه صلاةُ الجمعة، ولكن قد تكون بعض المرافق الأُخرى متوسّطة الحجم. لقد وجدت العديد من المساجد الصغيرة والمحاريب داخل غُرَف قريبة من الباب الرئيسي مثلما يبدو ذلك من خلال المباني التي تعود في أقدمها إلى القرن التاسع (مثال الخان الموجود في قصر الحير الغربي) كما توجد أيضاً فوق السُّطوح. قد لاحظت شيرلي غوثري «Shirley Guthrie» أنّ الرسم الذي يصوّر خان واسط، (مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس رقم 5847) يبرز ما "يمكن أن يكون حائط المِحْراب له لون أزرق يميل إلى الرمادي يوجد فوق السُّطوح وفيه كتابة باهتة وهو ربّما يمثل فضاءً يمكن أن يبتعد فيه المسافر عن ضجيج وصخب الطابق السُّفلي ليصلي في هدوء"[134].

---

(129) المصدر نفسه.

(130) Siroux, *Caravansérails d'Iran*, 120-139.

(131) ابن حبيب، تَذْكرة النَّبيه، الجزء الثاني، ص428-432.

(132) Petersen, "Syrian and Iraqi Hajj Routes," 51.

(133) ابن عبد الرؤوف، رسالة في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق E. Lévi-Provençal, Ibn al-Ra'ūf, *Risāla*, in *Documents arabes inédits sur la vie sociale et économique en occident musulman au moyen âge: trois traités hispanique de ḥisba*, ed. E. Lévi-Provençal (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1955) 76.

(134) Guthrie, *Arab Social Life*, 96. See also Hillenbrand, *Islamic Architecture, 350.*

يوجد خان دَنُّون بين دمشق ودرعا وهو يحتوي على قاعة صغيرة فيها محراب على شمال =

ويظهر سطح الفُنْدُق كفضاء لممارسة الشعائر الدينية من خلال قصّة الصوفي التونسيّ الذي يعيش فوق سطح أحد الفَنادق وفي رواية أُخرى حول أحد الفَنادق بتونس الذي كان يشتمل على بِيعة لليهود فوق سطحه. وهذا الأخير هو بُنْداق مُهْمَل ومَهْجُور فكان موضوع مساءلة طرحت على ربّي الجزائر، صِمّاح، من طرف ربّي تونس يوسف زِمْرون حوالى سنة 1460م. وقد كُتب النصّ في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ولكن الفُنْدُق موضوع المساءلة كان أقدم من ذلك وربّما يعود إلى الفترة التي تغطيها وثائق الجِنيزة. وهو كمثله من فَنادق الفُسْطاط كان على ملك الجماعة اليهودية. ويعطي جواب الربّي صِماح معلومات ليس عن وظيفة المبنى فقط ولكن أيضاً عن العلاقة بين الفُنْدُق والبِيعة وعن ازدياد عدد أفراد الجماعة اليهودية في العصر الوسيط.

"عندما بُنيت البِيعة في البداية، كان عدد اليهود قليلاً وكان كلّ اليهود هناك يستطيعون أداء الصلاة داخلها حتى الوافدون كان بإمكانهم الانضمام إليهم، فالمكان كان قادراً على استيعابهم جميعاً. والآن فإن ذلك البيت لا يمكنه أن يستوعب كلّ اليهود الذين يعيشون هناك ويرغبون في الصلاة لأن عددهم قد تزايد وأصبح البيت صغيراً وليس الأمر كما كان في السابق. ولم يكن المكان بعيداً في البداية لأنّ الذين بَنَوا البِيعة كانوا يعيشون في البُنْداق حيث بُنِيت البِيعة وكان بإمكانهم أن يُصَلُّوا هناك كلّ يوم في الصباح والظُّهْر والمساء دون إزعاج أو إجهاد. أما الآن فقد تغيّرت الأحوال فلم يعد اليهود يعيشون في البُنْداق أو في مُحيطه وإنما في حيّ بعيد جداً عن الفُنْدُق حيث البِيعة لذلك لم تَعُدْ لهم القُدرة على الذهاب للصلاة في البيت ثلاث مرات في اليوم ولكن في الصباح فقط، ولا يقوم بذلك كلّ الناس وإنما قلّة منهم... نظراً لبُعْد المسافة... يبدو من خلال ما كتبتَ [المُخاطَب هو يوسف زِمْرون ربّي تونس] أن البِيعة كانت بناءً مضافاً صغير الحجم في مَبْنىً غير مقدّس [البُنْداق] وأن سقف وجدران البِيعة قد انهارت الآن ولم يعد هناك شيء مقدّس سوى الأرضيّة"[135].

= الداخل من الباب (J. Sauvaget, "Un Relais du barîd mamelouk," in *Melanges offerts à Gaudefroy-Demombynes par ses amis et anciens élèves* [Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1935-1945] 42).

(135) Hirschberg, *History of the Jews in North Africa*, 460-461.

كان البُنْداق في حدّ ذاته مقرّ سكن ويحتوي على فَضاء للعِبادة يستعمله المسافرون وكذلك المستقرّون من الجماعة اليهودية المحلية.

تفرض الشريعة الإسلامية عادة أن تكون المباني المسيحية واليهودية متواضعة المكان ولا تتجاوز في ارتفاعها مباني المسلمين. غير أنه ليس هناك ذِكْر لِما إذا كان وجود هذه البِيعة على سطح فُنْدق أحدثت إشكالاً. وعندما اختص التجار المسيحيون بفَنادق (فُنداكو) في المُدُن الإسلامية كانت هذه المباني تحتوي عادة على كنائس (لكن ليس بالضرورة فوق السُّطوح) ويسكنها قساوسة لاتينيّون. وفي حالة واحدة، على الأقل، وكما سنُبيِّن في الفصل التالي، تعرّض المسيحيون في تونس لبعض المصاعب لأن السُّلطات الإسلامية اعترضت على بناء برج منه يُقرع جَرَس فوق سطح الفُنداكو[136].

يمكن لنُزَلاء الفُنْدُق أو الخان أن يتمتّعوا بجُمْلة من التسهيلات طوال إقامتهم خاصّة إذا كان المبنى وَقْفاً. وتتنوَّع ظروف التغذية وغيرها من الضروريات، وقد يحتاج المسافر في بعض الأحيان أن يوفّر بنفسه ما يحتاج إليه (أو يحضر مواد يمكن طبخها في الفُنْدُق)، في حين تتوفّر هذه الضروريات في بعض الأحيان الأخرى مجّاناً. تخصّص الأوقاف للنُّزَلاء احتياجات عديدة كالفُرُش والخُبْز والأحذية (أو بعض المال لإصلاح الأحذية) والمصابيح وزيتها والحِبال والدِّلاء وحُذْوات الجِياد وبعض الأحيان نصيباً من الحَلْوى يوم الجمعة[137]. لا نعرف هل يتمّ توفير الأسِرَّة للنُّزَلاء ولكنّ ابن ميمون يقدّم وصفاً لأرائك عادة ما تتوفّر في البُنْداق[138].

الفُنْدُق ماخور وحانة

قد يجد المسافرون في طريقهم خدمات أُخرى بما أن الخان والفُنْدُق ـ

(136) الوَنْشَريسي، المِعْيار، الجزء الثاني، ص215-216.

(137) المَقْدِسي، أحسن التقاسيم، ص324، المَقْرِيزي، أسواق القاهرة، ص10. Hillenbrand, *Islamic Architecture*, 350; J. Sauvaget, *La Poste aux chevaux dans l'empire des mamelouks* (Paris: Adrien-Maisonneuve, 1941) 30-31.

(138) *Code of Maimonides*, X, trans. H. Danby (New Haven: Yale University Press, 1954/1982), The Book of Cleanness, V.12. يمكن أن تحيل هذه الإشارة على مواد أكثر سَبْقاً.

مثل البَنْدوكيون من قبل- كانا مرتبطَيْن بشرب الخَمْر والبغاء. ورغم أن الفُنْدُق قد ورث السُّمعة السيّئة للبَنْدوكيون، فإنهما لم يكتسبا الصورة المجازية نفسها في الأدب الإسلاميّ وفي الكتابات الدينية. ففي الفترة القديمة المتأخّرة أصبح البَنْدوكيون رمزاً أدبياً قارّاً للتعبير عن الحياة الزّائلة والعارِضة في العالم الفاني. وعلى عكس ذلك، قليلاً ما كانت الفَنادق الإسلامية تُعتبر تعبيراً عن هذه الدُّنيا مقابل الآخرة، مع أنّ المؤلّف التركي من القرن الحادي عشر، يوسف خاصّ حاجب قدّم قياساً مُماثلاً فكتب "هذا العالم هو كالفُنْدُق وأنتم فيه كالقافلة"(139). فالفَنادق هي مؤسّسات دُنيوية بالأساس.

إن وظيفة صاحب الفُنْدُق مُلَوَّثة مثلُها مثلُ السُّمعة السيّئة لصاحب البَنْدوكيون. يمكن أن تُستعمل عبارة فُنْدُقية (أي صاحبة فُنْدُق أو عاملة فيه) للتعبير عن امرأة لها سُمعة مشكوك في نَقاوتها. يُورد عبد الجَبّار الهَمَداني (ت 1025م) قصّة مسيحية قديمة يصف فيها هيلانة، أمّ الإمبراطور الرومانيّ قُسطنطين، بالفُنْدُقية(140). وفي الوقت نفسه تقريباً طُرِحت في القَيْرَوان قضيّة شَرْعيّة على الفقيه القابِسي (ت 1012م) تتعلّق بوضعية رجل سَكْران كان يسبّ الجَلالة ويصرخ أنّ "كلّ صاحب فُنْدُق له قرنان، قوّاد حتى ولو كان نبيّاً مُرسلاً". فدارت المسألة الشرعيّة حول العبارة الأخيرة ولم تُطْرَح مسألة الحديث عن القرنان

---

(139) *Kutadgu Bilig*, ed. R. R. Arat (Ankara: Türk Tarih Kurumu Basimevi, 1959) 112-113; trans. R. Dankoff as *Wisdom of Royal Glory (Kutadgu Bilig). A Turko-Islamic Mirror for Princes* (Chicago: University of Chicago Press, 1983) 86-87. الكلمة المترجمة كـ "فُنْدق" هي كوناك *konak* (وهي مناظِرة في المعنى للكلمة العربية مَنْزِل). أشكر باتريسيا كرون [Patricia Crone] على تنبيهي إلى هذا المرجع وإلى إليزابيث فريارسون [Elizabeth Frierson] لتوجيهاتها فيما يتعلّق باللّغة التركية.

(140) S. Pines, "The Jewish Christians of the Early Centuries of Christianity according to a New Source," *Proceedings of the Israel Academy of Sciences and Humanities* (Jerusalem) 2 (1966), 28. قد استعار عبد الجبار هذه الحكاية من القصص السريانيّة واليونانية القديمة وهي تشير إلى سُمعة المرأة البيزنطية المترسّخة في الأدبيات العربية. N. El-Cheikh, "Describing the Other to Get at the Self: Byzantine Women in Arabic Sources (8th-11th Centuries), *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 40 (1997) 239-250.

والقَوّاد. فتعامل القابِسي مع القضية ببساطة معتبراً ذلك من باب إحداث الشَّغَب في السوق لذا وجب شدّ المُتَّهَم بالقيود والتضييق عليه لعلّ كلامه ناتج عن السُّكْر وأضاف إنه في كلّ الحالات قد كان فيمن تقدّم من الأنبياء مَنْ جَمَعَ المال، وربّما كان ذلك من الفَنادق[141].

قد ظلّت هذه المِهْنة محلّ شُبْهة، حتى إنّ ابن عَبْدُون في فترة لاحقة يحذّر صراحة من أن المُشْرِف على الفُنْدُق الذي يؤوي التجار والغُرَباء يجب أن لا يكون [امرأة] لأن ذلك يؤدّي إلى الزِّنى. "وعلاوة على ذلك إذا كانت هناك أعمال غير لائقة تقع خارج المبنى نفسه فيجب تحريم كشف الرأس على البغايا خارج الفُنْدُق" لأنهن يُغْوِين النُّزَلاء في الداخل[142]. وتؤكّد رسالة من جِنِيزة القاهرة تعود إلى سنة 1140م هذه السُّمْعة السيِّئة للفُنْدُق. فهي تصف حالة يهوديّ اتُّهِم بممارسة الجنس مع مسلمة في أحد فَنادق الإسكندرية. وقد أنكرت الفتاة في البداية هذه التُّهْمة واتَّهمته باغتصابها. وبغضّ النظر عن الفضيحة وعن انتشارها فقد حكم القاضي المسلم بالمدينة ببراءته، ربّما نتيجة للشكّ الذي حام حول أسباب وجود هذه البنت في الفُنْدُق أصلاً[143]. وقد ذكر الكاتب الأندلُسيّ ابن حَزْم حكاية مضحكة حول موضوع المُمارسات الجِنسية المَحْظُورة في الفُنْدُق وحول حضور النساء داخله. فروى حكاية تتعلّق "برجل من شيوخنا لا يمكن ذكره، أنه كان ببغداد في خان من خاناتها، فرأى ابنة لوكيلة الخان فأحبها وتزوّجها، فلمّا خلا بها نظرت إليه وكانت بِكْراً، وهو قد تَكَشَّف لبعض حاجته فراعها كِبَر إِحْلِيله، ففرّت إلى أمها وتفادت منه فَرامَ بها كلّ من حواليها أن تُرَدّ إليه، فأبت وكادت أن تموت، ففارقها ثم ندم ورام أن يراجعها فلم يمكنه... فاختلط عقله وأقام في المارِستان يعاني مدّةً طويلة حتى نَقِه وسَلا وما كاد...".

رغم أنّ هذه الرواية يمكن أخذها كحكاية صريحة حول عدم التوافق الجنسي وفشل الزواج فإنه يبدو أكثر إضحاكاً ومعقولاً ـ ولا سيّما في ضوء ردّ

(141) الوَنْشَرِيسي، المِعْيار، الجزء الثاني، ص356-357، 517-519.

(142) ابن عَبْدُون، رسالة، ص49-50.

(143) TS 13 J 13.24; Goitein, *A Mediterranean Society*, II, 279.

فعل الزوج ـ عندما نقرأه مِنْ حَيْثُ استحالةُ العثور على عروس بِكْر متعفّفة في فُنْدُق(144).

يصف ابن بُطْلان الطبيب العربي المسيحيّ من بغداد البغاء المنظّم مثلما شاهده في اللاذقية تحت الحكم البيزنطيّ ما بين 1048 و1050م. فكان المُحْتَسِب يجمع العاهِرات والغُرَباء الذين يرغبون في الجنس من بين البيزنطيّين فيُحْمَلون إلى خان معدّ لإيواء الغرباء وهناك يحصلون. . . على شهادة مختومة بختم القسّ ليتثبّت منها الوالي»(145).

وهذه الرواية لها طعم الدهشة النمطية العربية تجاه الممارسات الجنسية عند البيزنطيّين ومن المستحيل أن نعرف مغزاها ولا يمكن أن نعرف ماذا كان يطلق على مثل هذا الخان في اللُّغة اليونانية.

كما كانت الفَنادق مرتبطة برذائل أُخرى، خاصّة استهلاك الخمر، فقد أمر السُّلطان الأيوبيّ الملك الأشرف الأوّل ببناء مسجد في دمشق سنة 1234م، مكان خان كان وكراً للدَّعارة ومحلّاً لتعاطي شُرْب الخمر»(146). وفي الجِهَة المقابلة من المتوسّط، يشير الوصف الذي قدّمه الإدريسيّ لمئات الفَنادق في مدينة ألْمَرِيّة في القرن الثاني عشر، إلى أنّ هذه المباني قد تمّ إحصاؤها من قبل الديوان (مكتب الضرائب) لأجل جمع المُكُوس عن إنتاج أو بيع الخمر أو التعنيب(147). من الممكن أن يكون حديث الإدريسيّ متعلّقاً بفَنادق المسيحيين التي كانت موجودة من غير شكّ في ألْمَرِيّة في منتصف القرن الثاني عشر، ولكنّ العدد المحدود للجالية المسيحية لا يمكن أن يتطلّب هذا العدد الكبير من الفَنادق. غير أنه كان يُسمح عادة للتُّجّار المسيحيين الغربيين في شمال إفريقيا ومصر باستيراد واستهلاك

(144) ابن حَزْم، طَوْق الحَمامة، تحقيق محمود علي مكي، دار المعارف، القاهرة، 1975م، ص138، ترجمة A. J. Arberry, *The Ring of the Dove* (London : Luzac & Co., 1953) 199.

(145) J. Schacht and M. Meyerhof, *The Medico-Philosophical Controversy between Ibn Butlan of Baghdad and Ibn Ridwan of Cairo. A Contribution to the History of Greek Learning among the Arabs* (Cairo: Egyptian University, 1937) 57.

(146) الذهبي، كتاب دُوَل الإسلام، ترجمة A. Nègre (Damascus: Institut français de Damas, 1979) 231 (text II, 103, 6-12).

(147) الإدريسي، كتاب نُزْهة المُشتاق، ص563.

الخمر في فَنادقهم (فُنْداكو) ويدفعون ضريبةً خاصّة عن ذلك يطلق عليها اسم قبالة (gabella) وهي تؤخذ مقابل ذلك الامتياز. وهناك أسباب وجيهة للاعتقاد بأن الخمر التي تُستجلب لفائدة المسيحيين في فَنادقهم في تونس نجدها تتسرَّب إلى المجتمع الإسلامي الأوسع (انظر الفصل الرابع).

إنّ الفَنادق والخانات مَثَلُها مَثَلُ البَنْدوكيون من قبل، هي أماكن يحدث أن يموت فيها الناس. يمكن أن يكون من بين المسافرين من هو متقدّم في السنّ أو من هو مريض كالشيخ الأندلُسيّ (سبق ذكره) الذي قضى في أحد خانات القاهرة سنة 1237م أو التاجر الذي عدّ مُحْتَضِراً بخان المعظّم بدمشق سنة 1290م[148]. ولكنْ في بعض الحالات تكون ظروف الموت مشبوهة. فقد عُثر على الشاعر الأندلُسيّ ابن خاقان مذبوحاً في فُنْدُق البرتقال بمرّاكش سنة 1134م. وبقيت جثته طوال ثلاثة أيام دون أن ينتبه إليها أحد وهو ما يدلّ على أنّ الفُنْدُق قليل الروّاد أو ربّما كان لكلّ واحد من المقيمين غُرفة خاصّة به[149]. وفي حالة أُخرى توردها رسالة من رسائل الجِنيزة غير مؤرّخة كتبها رجل من مدينة الخليل سعى لجمع الشهود من أجل التأكّد من ظروف وفاة شقيقه[150]. ورغم الاشتباه في ظروف هذا الموت فليس هناك دليل على أنه موت مدبّر ويمكن أن يكون ذلك الأخ قد مات مرضاً.

وبالرغم من سُمْعة الفَنادق على أنها أوكار للمُحَرّمات وممارسة الإجرام، فإنّ أغلبها لم يكن كذلك وإلّا لما واصلت ازدهارها كأماكن للإقامة وفضاءات للتّجارة. فقد كان أغلبها آمناً ونظيفاً ومحترماً، أيْ نوعاً من الأماكن التي ـ حسب عبارة ابن ميمون ـ التي يمكن لزوجين شابين ووالديهما أن يقيموا ليلة. . . على غرار جميع أبناء السبيل»[151].

---

(148) Marín, "El viaje a Oriente," 298-299; al-Jazarî, *La Chronique*, 3 (no. 17).

(149) ابن خاقان، قلائد العِقْيان، الدار التونسية للنشر، تونس، 1990م، ص12، G. Deverdun, *Marrakech, des origines à 1912* (Rabat: Editions techniques nord-africaines, 1959) 136.

(150) TS 10 J 10.20.

(151) *Code of Maimonides*, IV, trans. I. Klein (New Haven: Yale University Press, 1972) Marriage, XXII.2.

استقبال "الآخر": الفَنادق والهُوِيّة الجَماعية

إنّ سبباً من أسباب السُّمْعة المَشبوهة للفُنْدُق قد تعود إلى أنه منذ إنشائه كان مهيّأً لاستقبال الغُرَباء والمسافرين الذين ليس لهم أصدقاء أو أهل في مدينة معيّنَة. وشأنها شأن البَنْدوكيونات القديمة، فإنّ الفَنادق "تستقبل عادة كلّ الوافدين إليها" وكانت بطبيعتها أماكن تجمع هؤلاء الناس الذين هم إلى درجة ما "آخرون"، مختلفون أو غرباء عن الإطار المحلي. فمجرَّد غُربة المسافر الغريب يمكن أن تولّد عدم الثقة أو ربّما الخوف في الوقت الذي تؤكّد المَقُولات الخَيْرية الدينية والمَصالح التجارية على استقبالهم في الفَنادق عبر العالم الإسلاميّ.

تفتح بعض الفَنادق أبوابها لنوعيّة معيَّنة من الزَّبائن عادة ما تجمع بينهم الحِرْفة أو الدين أو الأصل الجغرافيّ. فمثلاً هناك فُنْدُق للحلبيّين في دمشق وهناك فَنادق بالقاهرة معروفة بصفتها خان النشّارين أو فُنْدُق التجار الذين يحملون زيت الزيتون من الشام. ومن المفهوم جداً أن يبحث التجار وغيرهم من المسافرين عن الفَنادق والفضاءات التجارية حيث يمكنهم التمتّع بصحبة أبناء بلدهم الذين يشاركونهم في المَصالح واللُّغة والمُعْتَقد[152].

ولكن ليس هناك تخصيص صارم يتعلّق بنوع من البضائع أو بنوع من الناس الذين يقصدون الفُنْدُق. فقد أقام ابن جُبَيْر في مصر في بدايات سنوات 1180م في فُنْدُق النحّاسين رغم أنه لم يكن من أهل الحِرْفة[153]. وكذلك كتب أحد التجار اليهود في بداية القرن الحادي عشر متذمّراً من قضائه شهراً في فُنْدُق الزَّبيب بتونس يحرس ثماني وخمسين حُزْمة من البضائع، فمن المستبعد أن تكون كلّ بضائعه من الفاكهة المجفّفة[154]. ليس هناك كثير من المعلومات

---

(152) ورد ذكر فُنْدُق دمشق في نصّ مؤرَّخ سنة 1241م (Combe et al. [eds.], *Répertoire*, XI, 130-131 [no. 4196]) وذُكرت فَنادق مصر في خِطط المَقْريزي، الجزء الثاني، ص92-94.

(153) ابن جُبَيْر، الرّحْلة، ص39، الترجمة الإنكليزية، ص30.

(154) TS 12.124; Goitein, *A Mediterranean Society*, I, 349. وقد كُتبت هذه الرسالة في تونس حوالى سنة 1005-1035م.

التي تشير إلى تفرقة دينية بين التجار الذين يجوبون دار الإسلام. كان بإمكان التجار المسلمين واليهود أن يختاروا مقرّ إقامتهم الخاصّة سواء في الفَنادق أو في الدُّور الخاصّة (ولو أن هذه الأخيرة غير مَنْصُوح بها). وقد كان بعض الفَنادق يشجّع المسلمين من مدينة أو مِهْنة معيَّنة وخاصّة من التجار، كما أن هناك فَنادق خاصّة بالمسافرين اليهود. تفيد فتوى منسوبة إلى الربّي شَرِيرة غاون، يبدو أنها من أواخر القرن العاشر، حول سؤال مُسافِرين يسكنون في فُنْدُق لا يسكنه إلّا اليهود، أن مثل هذه الحالة ليست غريبة[155]. ويبدو في فترة لاحقة أنّ فُنْدُق اليهوديّ بفاس في العهد المَرِيني رُبَّما كان ملك الجماعة اليهودية المحلية أو أنه فُنْدُق للمسلمين خُصّص لاستقبال التجار اليهود[156].

لم تكن الفَنادق والخانات الأُخرى في العالم الإسلامي في العصر الوسيط شديدة التَّخَصُّص بل كانت مواقع للتفاعل والتبادل بين مُختلف الجماعات. فبشكل عامّ، في الوسط الإسلامي، لا توجد دلائل قويّة تشير إلى الفصل بين الزّبائن المسلمين والزبائن من أهل الذِّمّة على أسس دينية. والدلائل على وجود اختلاط بين الزَّبائن تأتي عَرَضاً في المصادر وفي بعض الحالات النادرة (مثل تحبيس خان العِطْنة بالشام سنة 1234م ليسكنه المسلمون وغير المسلمين) هناك تأكيد واضح على الاختلاط[157]. وفي بداية القرن الثالث عشر هناك رسالة ضمن وثائق الجِنِيزة كانت قد أُرسلت إلى أحد التجار اليهود كان يقيم بالفُنْدُق المَحَلّي بالفُسْطاط وهو فُنْدُق إسلاميّ معروف[158]. ويحتوي نصّ آخر من وثائق الجِنِيزة على شكوى تقدّم بها أحد التجار اليهود إلى القاضي المسلم حول بضائع كان قد

(155) I. A. Agus, *Urban Civilization in Pre-Crusade Europe* (New York: Yeshiva University Press, 1965) I, 54-55.

(156) R. Le Tourneau, *Fez in the Age of the Marinids* (Norman: University of Oklahoma Press, 1961) 31.

(157) فقد تمّ تحبيس هذا الفُنْدُق كَوَقْف 'لفائدة المُسلمين وغيرهم ممن كان ثابتاً في عقيدته' (Combe et al. [eds.], *Répertoire*, XI, 45-46 [no. 4066]; al-Maqrîzî, *Les Marchés du Caire*, 7; Sauvaget, «Caravansérails syriens,» [1939] 54-55.

(158) TS 8 J 18.29; Goitein, *A Mediterranean Society*, I, 349.

استودعها فُنْدُق الدولة[159]. وتورد توراة المِشْنا لابن ميمون حالة اليهوديّ الذي يكتري غُرفة لفترة وجيزة في بُنْداق غير يهوديّ[160].

وتذكر مسألة شرعية من الإسكندرية في صيغة مختلفة إمكانية ممارسة الجنس بين رجل يهوديّ وامرأة مسلمة، أنّ الفَنادق قد تكون (أو على الأقلّ يشتبه في كونها) أماكن للقاءات خاصّة تحدث بين أناس مختلفي العقيدة[161]. وكان يمكن أن تحدث لقاءات في بعض الفَنادق بسبب وجودها في أحياء مختلطة. وتذكر وثيقة من وثائق الجِنِيزة بيع منزل من قبل امرأة يهودية في الفُسْطاط في أواسط القرن الثاني عشر مشيرة إلى أنّ المنزل مجاور لفُنْدُق يمتلكه مسيحي[162]. يبدو عموماً أنّ اختيار السكن هو موضوع خاضع لاختيارات المسافر، ولو أن هناك ما يشير إلى تدخّل الدولة لتنظيم ذلك. فالمطلوب من التجار والغرباء هو أن يقيموا بالفَنادق ولكن ليس بالضرورة في فُنْدُق معيّن. وكان من مهامّ موظّفي المدينة أن يسهروا على تأمين إقامة المسافرين وخاصّة الغرباء منهم كي لا يظلّوا يتسكّعون في المدينة كما يجب تسجيل أمتعتهم وحفظها. وكانت هناك مصلحة للإداريين وجامعي الضرائب، وكذلك للتّجارة والاتّصالات بصورة عامّة، أن يكون مَقَرُّ إقامة التاجر معروفاً.

نستنتج من العديد من رسائل الجِنِيزة المبعوثة إلى تجار مقيمين بالفَنادق خارج مواطنهم الأصلية أنّ عناوينهم ثابتة وإقامتهم في تلك المؤسّسات من الأمور المألوفة. ولكن لا ندري هل كان ذلك ناتجاً عن اختيارات شخصية أم عن قرارات رسمية أم عن الاثنتين معاً.

لا يشمل تراخي الرقابة على إقامة المسلمين وأهل الذمّة، التجار

---

(159) TS 16.102; Goitein, *A Mediterranean Society*, I, 267.

(160) *Mishneh Torah*, trans. E. Touger (New York: Moznaim Publishing Corp., 1990) Hilchot Mezuzah, v, 10.

بما أنه كان على الرّحالة اليهود أن يقيموا عادة في المساكن غير اليهودية في العصر القديم المتأخّر، عندما تَمَّ تجميع التلمود، أو في العصور الوسطى، فإن تعليقات ابن ميمون ظلّت ذات صِلة في أيامه.

(161) TS 13 J 1324; Goitein, *A Mediterranean Society*, II, 279.

(162) TS 12.660.

المسيحيين الوافدين. فلهذه الأسباب حدث تغيّر فُجائي في مراقبة الفَنادق بمجيء التجار الأوروبيّين وتزايد عددهم في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر. يحتاج هؤلاء التجار الغربيون إلى مزيد من المراقبة والتنظيم لأنهم "الآخر" البعيد حقيقة وليس مثلهم مثل التجار المحليين الذين يمارسون نشاطهم ويتنقلون داخل دار الإسلام.

ومع دخول أعداد متزايدة من التجار الإيطاليين والفرنسيين والقَطَلانيّين إلى عالم التِّجارة في المتوسّط الجنوبي، فإنهم وجدوا مؤسّسة الفُنْدُق في مختلف الموانئ الإسلامية التي رغبوا في ممارسة نشاطهم فيها. وأصبح هؤلاء التجار الغربيون والحُجّاج محلّ رقابة شديدة من قِبَل الدولة وخُصّصت لهم فَنادق معيّنة داخل المُدُن الإسلامية. سواء في إشبيلية أو في تونس أو في الإسكندرية أو في أمكنة أخرى كان على التجار الجَنَويين أو البنادقة أن ينسّقوا أنشطتهم مع المؤسّسات التجارية الموجودة بما في ذلك الفُنْدُق الذي كان سِمة المُدُن الإسلامية.

وبالمقابل تطوّر الفُنْدُق ليستجيب لحاجات هذه الفئة التجارية الهامّة والمتزايدة وذلك بالاضطلاع بمهامّ جديدة مع استفادة السُّلطات الإسلامية من تنامي التِّجارة الغربية ومن مردودها الجِبائي.

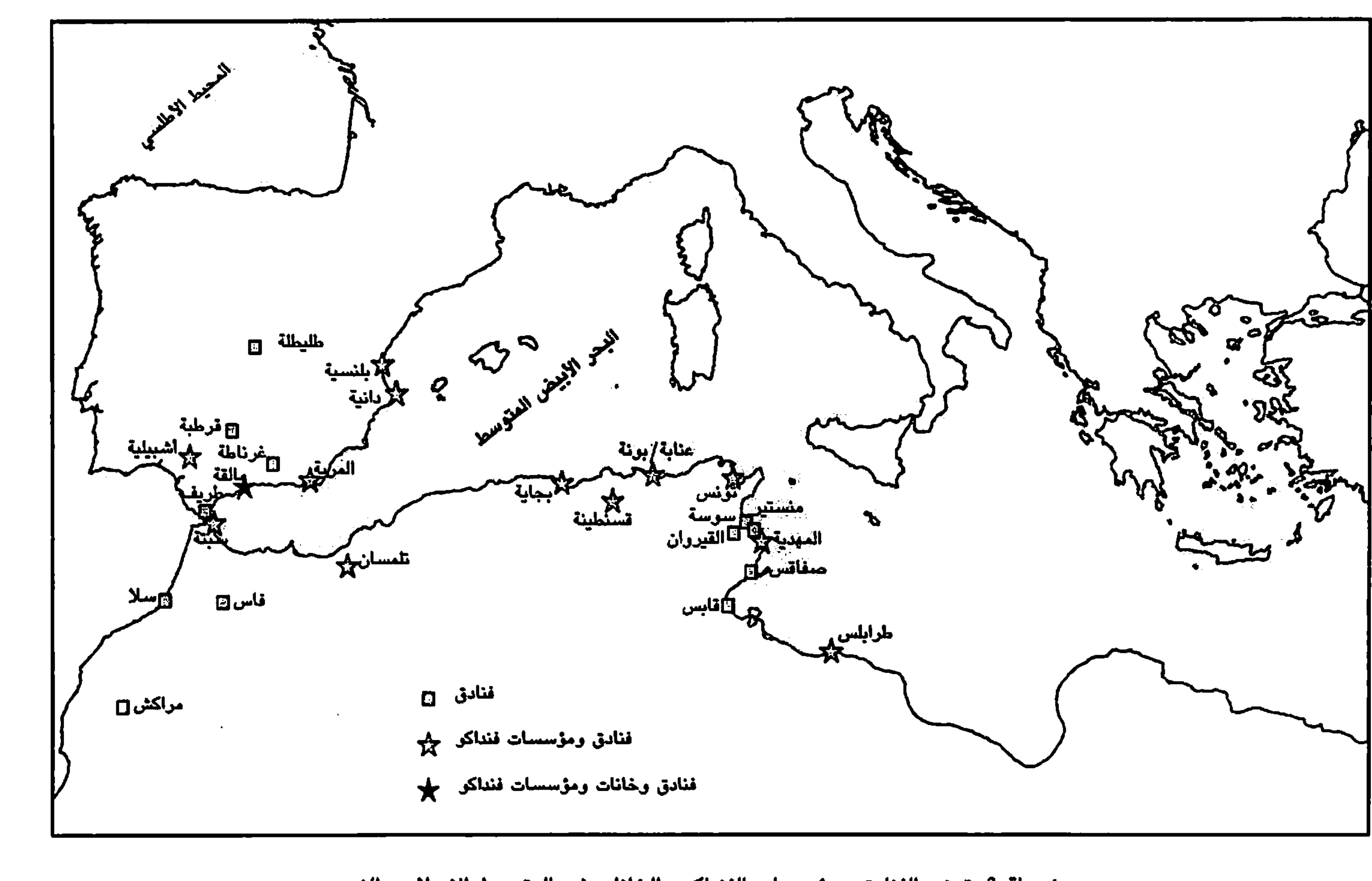
تمّ الاحتفاظ بالعديد من الخصائص السابقة للفَنادق مع تطوير بعض الخصائص الجديدة واستقبلت زبائنَ جُدُداً في طابعها كالفُنْدُق الإيطالي (فنداكو) (أو الفُنديكوم اللاتينيّ). وسيناقش في الفصل التالي دور الفُنْدق/ فُنداكو كقاعدة للنشاط التجاري المسيحيّ في الأسواق الإسلامية وركيزة أساسية لتطوّر التِّجارة عبر الحدود الثقافية في العالم المتوسّطي في العصر الوسيط. وبالمقابل سيؤثّر تنامي المبادلات بين المُدُن الأوروبية والإسلامية وازدهارها في التطوّر المستقبلي للفُنْدُق والفُنداكو.

الفصل الرابع

مستعمرات قبل الاستعمار:
التّجارة المسيحية الغربية وتطوّر الفُنداكو

عندما وصل الرحّالة اليهوديّ أصيل أيبيريا، بنيامين التُّطَيْلي إلى الإسكندرية سنة 1165م، أدهشه مشهد الحركة الاقتصادية التي كانت عليها المدينة والتجار الأجانب الذين كانوا هناك وخاصّة المسيحيين اللاتينيّين منهم، وكذلك اختصاص كلّ أمة بفُنْدُق خاصّ بها. فوصف الإسكندرية كما يلي:

> إنها سوق لكلّ الأمم، يأتيها التجار من كلّ الممالك المسيحية. من جِهَة يأتونها من البُندقيّة ومن لُمبارديا وتوسكانة وأبوليا وأمالفي وصِقِلّية وكلابريا ورومانيا وبلاد الخزر وباتزيناكية والمجر وبلغاريا وراغوزة وكرواتيا وسلاڤوينا وروسيا وألمانيا وسكسونيا والدانمارك وكورلاند وإيرلندا والنروج وفريزيا وإسكتلندا وإنكلترا وبلاد الغال والفلاندر وهينوا ونورمانديا وفرنسا وبواتيه وأنجو وبورغونديا والموريان والبروفانس وجَنَوة وبيشة (بيزا) وغاسكونيا والأراغون ونَبّرة (ناڤار).
>
> وفي اتجاه الغرب وتحت سُلطة المسلمين: الأندلُس وغرب الأندلُس إفريقيا وبلاد العرب.



خريطة 3: توزع الفنادق ومؤسسات الفنداكو والخانات في المتوسط الإسلامي الغربي
من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر

ومن الجانب الآخر: الهند وزَوِيلة والحبشة وليبيا واليمن وشينار والشام وجاڤان أيضاً التي يُسمّى أهلها اليونانيين، والأتراك... والمدينة نشيطة ومليئة بالحركة. وكلّ أمة لها فُنْدُقها الخاص[1].

قد تعرّضت رواية بنيامين التُّطَيْلي إلى النقد واعتُبرت مُبالغاً فيها إلى أبعد الحدود، وهو أمرٌ مشكوكٌ فيه أن يجتمع مثل هذا العدد من التجار الأجانب الذين كانوا ينشطون في مدينة الإسكندرية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر[2]. إلّا أنه توجد وثائق مُعاصرة تدعم أهمّ ما جاء في جوهر مُلاحظته، وهو أنّ عدداً من مجموعات التجار المسيحيين الغربيين (وكذلك المسلمون واليهود) كانت لهم جاليات، وكانوا يتمتّعون بحقّ الحصول على فَنادق في الإسكندرية في تلك الفترة. وهذا يُعبّر بلا شكّ عن تطوّر جديد نسبيّاً للعلاقات التجارية عبر الحدود الثقافية في العالم المتوسّطي. فسندرس في هذا الفصل تطوّر هذه التِّجارة وأثر هذا الاتجاه بما أن التجار الأوروبيّين قد ضمنوا الوصول إلى المجال التجاري الإسلاميّ والبيزنطيّ خلال القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر.

فقد عرفت الأنماط السياسية والاقتصادية في العالم المتوسّطي في تلك الفترة تحوّلات عديدة، فبعد أن كانت التِّجارة تحت الهيمنة الإسلامية واليهودية انتقلت إلى أيدي الحكّام والتجار المسيحيين. وفي الوقت نفسه تطوّرت طرق المُبادلات البحرية وخُلقت شبكات جديدة من العلاقات بين مُدُن جنوب أوروبا والموانئ الإسلامية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا والأندلُس. كما تطوّرت المبادلات بين الغرب المسيحيّ والإمبراطورية البيزنطية مع تطوّر عدد التجار والبحّارة الأوروبيّين الذين يصلون إلى القُسطنطينية ومختلف موانئ الإمبراطورية الشرقية. وقد نُوقشت دوافع هذا التنامي التجاري كثيراً ولكن من الواضح أن هناك نُمُوّاً سُكّانيّاً وازدهاراً للمُدُن وتطوُّراً في الإنتاج الزراعي في أوروبا الغربية

(1) Benjamin of Tudela, *Itinerary of Benjamin of Tudela*, Hebrew 67-69, English 76.
قد تمّ تعصير بعض أسماء المواقع من خلال ترجمة أدلر [Adler].

(2) أشار داود اليعقوبي [David Jacoby] أن هذه الصورة لم تؤكّد قط من خلال مصادر أُخرى ("Les Italiens en Egypte aux XIIe et XIII siècles: du comptoir à la colonie?» in *Coloniser au moyen âge*, ed. Michel Balard and Alain Ducellier [Paris: Armand Colin, 1995] 79).

قد حَفَز زَخماً اقتصادياً وخلق في الحين ذاته أسواقاً جديدة للسِّلع المستوردة وطبقةً من التجار جاهزة لقطع مسافات بعيدة لتوفير تلك البضائع.

لقد أدّى تنامي التِّجارة الدولية عبر مسافات بعيدة في المتوسّط ودخول التجار المسيحيين الغربيين بوفرة مجال المُدُن الإسلامية والبيزنطية، إلى إعادة النظر في المؤسّسات المحلية المعهودة الخاصّة بالتجار الأجانب وبالمسافرين. فالتجار الأجانب يحتاجون إلى أماكن آمنة للإقامة وتخزين السلع، كما يحتاجون إلى أماكن لممارسة شعائرهم الدينية وإلى تجهيزات للطبخ والاستحمام وأسواق للبيع والشراء. كما أنّ السُّلطات الإسلامية كانت مَعْنِيّة بأن يكون التجار الأجانب، وخاصّة اللاتينيّين المسيحيين، مأموني الإقامة وأن تكون سلعهم محفوظة وأن يتاجروا وأن يعشّروا كما لا يمكن أن يتعدَّوا، غير مُراقَبين، على المُحيط الاجتماعي أو الاقتصادي المحليين. وقد كانت مؤسّسة الفُنْدُق في المُدُن الإسلامية تعرف هذه الاحتياجات خاصّة وأنها قد سبق وأن وفّرتها للتُّجّار المسلمين واليهود. وتدريجياً تأقلمت هذه المؤسّسة مع مطالب مجموعات بشرية جديدة يمثّلها التجار المسيحيون الغربيون[3]. فقد مثّل القرن الثاني عشر نقطة تحوُّل بالنسبة إلى الفُنْدُق، فتطوّر من مؤسّسة تهتمّ فقط بالتجار الذين يمارسون نشاطهم داخل دار الإسلام إلى مؤسّسة توفّر ما يحتاجه الزبائن من أوساط ثقافية وتجارية أوسع.

فعندما زار بنيامين التُّطَيْلي مدينة الإسكندرية في سنوات 1160م كانت الفَنادق مراكز للتِّجارة المسيحية الغربية في تلك المدينة وكانت تُسَهِّل وتُنَظِّم نشاط الجاليات التجارية الأوروبية. وكان الأوروبيّون يطلقون عليها اسم فُونديكوم «*Fondicum*» باللُّغة اللاتينية أو فُنداكو «*fondaco*» باللُّغة الإيطالية (مع مجموعة من المُرادفات الدّارِجة). فالعلاقة المباشرة بين كلمَتَي فُنْدُق وفُنداكو هي أن إحداهما ترجمة للأُخرى وهو أمر واضح من خلال المُعاهدات التجارية حيث استُعملت الكلمة سواء في النسخة العربية أو في النسخة الإيطالية. مع ذلك وعلى الرغم من أن التسهيلات الخاصّة بالتجار الغربيين ما زالت تسمّى بالفَنادق في اللُّغة العربية

(3) خلافاً لذلك لم تكن الخانات الإسلامية وغيرها من الأنْزال قادرة على التكيُّف لاستيعاب النشاط المسيحيّ المتزايد.

إلّا أنّ إدارتها وتنظيمها اختلفا عما هو مألوف في الفَنادق العادية الخاصّة بالتجار المحليين. وفي إطار هذه المناقشة وتوخّياً للبساطة سيتمّ تطبيق كلمة فُنْداكو على المرافق المعدّة للتُّجّار المسيحيين الغربيين بينما تعني كلمة فُنْدُق خدمات السكن والخزن للتُّجّار من داخل دار الإسلام.

شجّع وجود الفُنْدُق والفُنداكو في العالم الإسلاميّ التجار الأوروبيّين على زيارة الموانئ الإسلامية في حين أنّ النَّقص في وجود مثل هذه المؤسّسات في المُدُن الأوروبية يعني أنه قليلاً ما يسافر التجار المسلمون إلى الأسواق الأوروبية. وقد كانت الفُنْداكوات في الإسكندرية وتونس وإشبيلية وغيرها من المرافئ الإسلامية تسهّل التِّجارة بين أناس من مُعتقدات مختلفة وهو ما لم يكن معروفاً في أوروبا(4).

لم تكن الفَنادق الإسلامية تستقبل زبائنها على قاعدة دينية إلّا في حالات نادرة مثلما كان الشأن في البَنْدوكيونات من قبل. ولكنّها كانت منظّمة على أساس تَخَصُّص التجار المِهْني أو حسب الانتماءات الجِهَوِيّة. وقد مكّنتها هذه السياسة من مرونة في تلبية حاجات التجار الأوروبيّين بل إن وجود هؤلاء الأجانب نفسه كان السبب في تغيير المؤسّسة الأصلية وتطوّر الفُنْداكو. وكما سنرى فإن نظام الفُنْداكو الأوروبيّ في المُدُن الإسلامية سُرعان ما فرض قيوداً تنظيمية ونموذجاً للتفرقة، حتى حين توفيره للتُّجّار المسيحيين الأجانب فرصة لا تُقَدَّر لدخول المجال التجاري المحلي.

فالبِنية والتنظيم اللذان توفّرهما مؤسّسات الفُنْداكو يجعلان التِّجارة والتفاعُل بين مجالات ثقافية مختلفة وأمراً ممكناً رغم المصادمات العسكرية وعمليّات الغزو. فقد سهّلت مؤسّسات الفُنداكو المُبادلات الاقتصادية التي استفاد منها التجار الوافدون والتجار المحليون على السواء كما استفادت منها حكوماتهم.

---

(4) لقد كانت مقرّات التُّجّار في أوروبا الشمالية مثل مخازن الفولاذ في لندن تشترك مع الفَنادق المتوسطية في بعض الوظائف دون أن يكون هناك قُرْبَى فيما بينها في تطوّرها. كما أنه لم يكن هناك قُرْبى بينها وبين المُجَمَّعات التجارية في الشرق الأقصى كما رأى ذلك ر.س. لوبيز [R. S. Lopez] ("Du Marché temporaire à la colonie permanente: l'évolution de la politique commerciale au moyen âge," *Annales: Economies, Sociétés, Civilisations* 4 [1949] 403-405).

وقد كانت هذه المنشآت المربحة خاضعة لتنظيم السُلُطات الإسلامية المحلية، مثلما هو الشأن بالنسبة إلى الفَنادق، وقد فرضت هذه السُلّطات رقابةً صارمةً على دخول الفُنْداكو واستخدام أبنيته[5]. لذلك، ورغم التشابه الوظيفي مع المستعمرات التجارية الأوروبية المُبَكِّرة في الفترة الحديثة في الهند وفي العالم الجديد، فإنّ نظام الفُنْداكو الوسيط في الموانئ الإسلامية لم يكن بعدُ توسّعاً للهيمنة التجارية الأوروبية.

فقد كانت هذه المؤسّسات خلال القرن الخامس عشر في الإسكندرية وتونس وغيرهما من المُدُن الإسلامية الأُخرى مستعمرات غربية دون أن يكون لها مظهر الاستعمار.

فقد كان التجار الغربيون يمارسون نشاطهم في الموانئ الإسلامية في القرن العاشر وعددهم في تزايد واضح خلال القرون الثلاثة اللاحقة. مع هذا لم تكن هذه الفترة فترة مُبادلات تجارية سِلْمية عبر المتوسّط، ولكنّها مشحونة بالعداء بين أوروبا والعالم الإسلاميّ وبيزنطة وتُهيمن عليها الحروب الصليبية والتوسّع الجغرافيّ المسيحي. وقد استفاد التجار وبُناة السفن والبحّارة في موانئ أوروبا الجنوبية من هذه المصادمات بما أنها توفّر لهم شغلاً إضافيّاً وتفتح أمامهم أسواقاً جديدة في المُدُن المسيحية حديثاً في إسبانيا وصِقِلّية والممالك الصليبية وكذلك في بعض الموانئ الإسلامية الرئيسيّة مثل الإسكندرية وتونس. فقد أدّت المتطلّبات الجامعة بين التِّجارة المتزايدة والحرب إلى إعادة تقييم وإعادة هيكلة العلاقات التجارية الإسلامية المسيحية، وحاجة متزايدة إلى الأمن بالنسبة إلى التِّجارة، وميلاد الفُنداكو.

ففاوضت أغلب أهمّ الدول والمُدُن التجارية في جنوب أوروبا من أجل مُعاهدات مستقلة وذات امتيازات مع الدول الإسلامية في مصر وإفريقيا الشمالية والأندلُس وكان كلّ يسعى إلى التفوُّق (أو على الأقلّ إلى المساواة) على منافسيه

---

(5) أشار كلود كاهِن إلى أن الفَنادق الغربية لم تذكر في مِنْهاج المَخْزُومي وهو كتاب في التِّجارة والضرائب من القرن الثاني عشر في مصر، وقد يكون الفصل المتعلّق بهذا الموضوع قد فُقِد. (C. Cahen, *Makhzūmiyyāt. Etudes sur l'histoire économique et financière de l'Egypte médiévale* [Leiden: E. J. Brill, 1977] 237-238).

في مستوى الامتيازات التجارية الممنوحة لتجارهم الذين يتعاطون نشاطهم في الخارج. وقد أصبح في منتصف القرن الثاني عشر تضمين الوعد بالإقامة في فُنداكو وغيره من المنشآت أمراً عادياً في هذه المعاهدات، وفي كلّ الفصول التجارية هناك ذِكر للأمان والتخفيض الجِبائي وغرق السفن وعمليّات الإنقاذ والأهليّة القانونيّة والمواضيع المُتَّصِلة بذلك. وهذه المعاهدات هي أكثر من أن تكون مُجَرَّد أساليب بلاغية تعبّر عن المطامح التجارية والسياسية، إذ تؤكّد مصادر أُخرى تنفيذ مضامينها.

وعلى عكس التجار الذين يمارسون نشاطهم مع العالم الإسلاميّ بَرّاً، فإنّ التجار الذين يجتازون البحر من أوروبا قد يحتاجون لقضاء فصل الشتاء في الخارج. فالمناخ المتوسّطي يفرض نَسَقاً موسمياً على حركة التِّجارة البحرية وعلى السفر لأن الإبحار كان صعباً وخطيراً ـ وإن يكن غير مستحيل ـ خلال فصل الشتاء. لذلك كان أيّ رجل أعمال حَذِر من جَنَوة أو من بَرْشَلونة يجد نفسه في المتوسّط الشرقيّ في شهر سبتمبر، يدبّر أمره لِيُشتّي في الإسكندرية أو في حلب بالحلول مع بضاعته في فُنداكو حتى قُدوم جو الربيع الأكثر رحمة. وقد يستقرّ بعض التجار لفترة أطول لعدة سنوات في مدينة أجنبية ويرسلون المعلومات والبضائع إلى شركائهم ببلادهم الأصلية.

وكما ذكر بنيامين التُّطَيْلي، فإن التجار الأوروبيّين بالإسكندرية وغيرها من المُدُن الإسلامية الأُخرى يتوزَّعون على العديد من الفَنادق الغربية. وكان بعض التجار يكتري أو يمتلك مسكنه الخاصّ، رغم أنّ السُّلُطات المَحلّية عادة ما لا تشجّع على هذا النوع من الترتيب[6]. وقد ازدادت الضغوطات على مرّ الزمن على التجار الغربيين ليسكنوا ويخزِّنوا بضائعهم ويمارسوا نشاطهم في مبنى الفُنْداكو تحت رعاية ومراقبة موظّفي المدينة.

(6) هناك أدلة على أن قلّة من التُّجّار كانوا يعيشون خارج الفَنادق. فقد أشارت مثلاً وثيقة حُرّرت بتونس في سنوات 1280م أنه تمّ تحريرها في بيت القاضي غويدي [Guidi] Geo Pistarino (ed.), *Notai genovesi in Oltremare: atti rogati a Tunisi da Pietro Battifoglio (1288-1289)* (Genoa: Civico Istituto Colombiano, 1986) xxxii. انظر أيضاً الفصل الثامن هامش رقم 6.

على الرغم من أنّ هذه القيود قد تُثير غضب بعض التجار فالترتيبات كان لها مزاياها أيضاً. فالسهولة التي يوفّرها الفُنْداكو من حيث أُلفة الطعام واللُّغة ووجود قسّ لاتينيّ وتطبيق القوانين الغربية ومتعة الإقامة مع أوروبيّين آخرين كانت مكتسبات هامّة. وكما كتب ذلك الحاجّ الألماني فيلكس فابري «Felix Fabri» فيما بعد، عندما وصل إلى فُنْدُق القَطَلانيّين بالإسكندرية "إننا قضينا وقتاً طويلاً في البحث عن سَكَن مع مسيحيّ حتى إنه كان يبدو لنا أننا وصلنا إلى حدود بلادنا"[7].

لقد أصبحت مؤسّسة الفُنْداكو في القرن الثالث عشر مؤسّسةً راسخةً والنصوص الغربية العديدة التي تصف المُدُن الإسلامية تذكر وجود مبانٍ مخصّصة لإقامة مختلف المجموعات "الوطنية" للتُّجّار المسيحيين. ورواية بنيامين التُّطَيْلي لم تكن سوى مثال مبكّر من سلسلة من الملاحظات الشبيهة التي لاحظها زُوّار مدينة الإسكندرية. فتورد تقارير القرنين الرابع عشر والخامس عشر كثيراً من المعلومات عن الفُنْداكو. فقد وصف، على سبيل المثال، هذه المؤسّسة في أوج تطوّرها الحاجّ الإيرلندي سيمون سيميونيس «Simon Semeonis» الذي مرّ بالإسكندرية سنة 1323م:

> "تمتلك كلّ دولة مسيحية بحرية فُنْدُقها وقنصلها في مدينة الإسكندرية. فالفُنْداكو هو بناية شُيِّدت لفائدة التجار حسب دولهم أو جِهاتهم. فهناك فُنداكو للجَنَويين وآخر للبنَادقة وآخر لسكّان مرسيليا وآخر للقَطَلانيّين وغيرهم. وعلى كلّ تاجر أن يتّجه بنفسه مع كلّ ما لديه من بضائع نحو الفُنْداكو المخصّص لأهل بلده أو جِهته باتفاق مع توجيهات قنصله وهو رأس المؤسّسة والمشرف على كلّ المقيمين فيها. وإنه بدون حضور القنصل أو بدون إذنه لا يمكن لأحد من تجار الدولة التي يمثّلها أن يُقْبَل في المدينة مع بضاعته[8].

(7) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae*, III, 149 [126a], *Voyage en Egypte*, II, 667.
قد يكون التُّجّار أقل انبهاراً من الحُجّاج بتلك الفروق نظراً لأنه لم يكن مسموحاً لهم أن يتوغّلوا في أسفارهم في العالم الإسلامي وكانوا كذلك يقيمون أكثر في الفَنادق.

(8) Simon Semeonis, *Itinerarium Symonis Semeonis ab Hybernia ad Terram Sanctam*, ed. and trans. Mario Esposito, Scriptores Latini Hiberniae IV (Dublin: Dublin Institute for Advanced Studies, 1960) 49-51.

ستتكرّر رواية سيمون مرات عديدة من قِبَل المسافرين من الحُجّاج والتجار الذين سيزورون مصر المملوكية وستعطي كتاباتهم وصفاً دقيقاً لهذه المؤسّسة في أواخر العصر الوسيط.

بيد أنه من غير المرجّح أنّ المؤسّسة كانت قد تطوّرت كُلّيّاً في العهد الأيوبيّ، ولا كانت تتميّز بوضوح عن ابن عَمِّها الفُنْدُق. ولتتبّع تطوّر هذه المؤسّسة عبر الزمن وحسب الظروف الجِهَوِيّة ستتناول الفقرة التالية في مرحلة أولى تطوّر الفُنْداكو الغربي في مصر والشام في عهد الفاطميين والأيوبيّين في منتصف القرن الثالث عشر، ثم في الفترة نفسها في المتوسّط الأوسط والغرب الإسلاميّ في ظلّ الممالك المُرابطية والمُوَحِّدية والحَفْصِية.

ثم بعد هذه الدراسة الجِهَويّة ستتمّ مناقشة إدارة الفُنداكو وعُمّاله لإقامة مقارنة بين الإدارة والامتيازات والموظّفين في مختلف المجالات. وبغضّ النظر عن الاختلافات الجِهَوِيّة والسياسية داخل العالم الإسلاميّ، فسيكون واضحاً أنه توجد قوى متشابهة تعمل عبر المتوسّط الجنوبي وأن القوى التجارية الأوروبية كانت تفاوض مع مختلف الدول الإسلامية من أجل ترتيبات موازية لأجل الفُنْداكو ومن أجل الحصول على مزيد من الامتيازات التجارية. وقد كان التجار الغربيون في الوقت نفسه يبحثون عن سبل للوصول إلى الأسواق البيزنطية حيث كانت طلباتهم تلقى القبول بطرق مختلفة. وللمقارنة ستقع مناقشة كيفية تقبُّل البيزنطيّين لقدوم التجار اللاتين في آخر الفصل.

الأجانب والفُنداكو في المُدُن الفاطمية والأيوبية

رغم أنّ قليلاً من التجار الأوروبيّين كانوا يرتادون الأسواق الإسلامية في القرنين الثامن والتاسع، فإنّ أقدم إشارة إلى وجود جالية تجارية أوروبية غربية مقيمة بمصر تعود إلى القرن العاشر[9]. فقد تحدّث المؤرّخ العربي المسيحيّ يحيى الأنطاكي (وقد كان يكتب في بداية القرن الحادي عشر) عن مقتل 160 من التجار المَلافتة بمصر سنة 996م. وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة أم لا فإن

(9) On travel before the tenth century, see McCormick, *Origins of the European Economy*, 240-243.

النصّ يشير إلى وجود جالية غربية مهمّة في المدينة في نهاية القرن العاشر. ولم يذكر يحيى الأنطاكي فُنداكو وإنما مبنى يطلق عليه دار المانَك التي يعيش فيها تجار الرُّوم ويخزنون فيها بضائعهم والتي تعرّضت إلى النهب خلال المذبحة. وتؤكّد رواية أُخرى معاصرة وهي رواية المُسَبّحي وهو مؤرّخ مسلم، هذا الحدث وتذكر دار المانَك في علاقة بالتجار الرُّوم وإقامتهم بها وخزنهم لسلعهم بها[10]. هناك نقاط عديدة تكتسي أهمّية خاصّة في هذه الروايات: أوّلاً فهي تشير إلى وجود جالية تجارية غربية مهمّة بمصر وتصفها بأصولها الجغرافية (أمالفي «Amalfi»)، ثانياً هؤلاء التجار لهم مكان خاصّ يقيمون به ويمارسون من خلاله التِّجارة، ثالثاً هذا المبنى يطلق عليه دار المانَك وليس فُنْدُقاً حتى ولو كانت الفَنادق منتشرة في المجال الحَضَريّ الإسلاميّ في تلك الفترة[11].

إنّ مُمارسة إسكان مُنفصل للمسيحيين (وليس بالضرورة المسيحيين الغربيين) كان قد ثبت حتى في وقت سابق. وقد ذكرت في بغداد حيث إن الطبيب المسيحيّ ماسويه بن يوحنّا (ت 857م) قد اكترى غرفة في دار الرُّوم وهي مبنى يؤمّه التجار والمسافرون المسيحيون[12]. هنا مرة أُخرى لم يطلق على المبنى اسم الفُنْدُق رغم أنه يقوم بالوظيفة نفسها. حقيقةُ شَغْل التجار المسيحيين لفضاء مجسّم ماديّاً داخل المدينة ومعترف بهم كجالية مميّزة يفترض أنها انبثقت من المواقف المألوفة تجاه المسيحيين المحليين والتجار المسافرين على السواء. وعلى الرغم

(10) Claude Cahen, "Un texte peu connu relative au commerce orientale d'Amalfi au Xe siècle," *Archivo Storico per le Provence Napoletane n. s.* 34 (1953-1954) 4-6.
تعني كلمة "دار" المنزل إلا أن معنى مانك غير معلوم، وقد اقترح كاهِن قراءتها على أنها ماتَك من خلال نصّ المُسَبّحي.

(11) إنه من الممكن جداً أن بعض الناس كانوا يطلقون على مقر إقامة المَلافِتة لفظة فُنْدُق. كما أنه يمكن للإنسان أن يتكهّن أن تطوّر الفُنداكو كمقر إقامة آمن للتُّجّار الأجانب قد وُلد من المآسي مثل مذبحة سنة 996م.

(12) Levy, *A Baghdad Chronicle*, 67 . قد يكون ذلك في علاقة بمنشأة يطلق عليها ياقوت (توفي سنة 1229م) دار الخليفة التي توفّر للدولة دخلاً متأتّياً من الجِزْية التي يدفعها غير المُسلمين الذين يسكنون هناك، ياقوت، معجم البلدان، الجزء الثالث، ص517. فيما يتعلّق بموقع دار الرُّوم، انظر Françoise Michaeu, "Baghdad", in Garcin (ed.), *Grands villes Méditerranéennes*, 114-115.

من أنّ المذبحة التي تمّت في القاهرة سنة 996م كانت بالتأكيد انتكاسة في العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا إلّا أنها تعكس قِدَمَ المُبادلات عبر الحدود الثقافية قبل التطوّر الشكليّ لنظام الفُنداكو.

ورغم وجود أدلّة على أنّ الفُنداكو التجاري الغربي كان موجوداً منذ أواخر القرن الحادي عشر فهو لم يظهر كمؤسّسة في المُدُن الإسلامية من خلال الوثائق إلّا في منتصف القرن الثاني عشر. فمن هذه الناحية، أجبر التوسّع الاقتصادي والعسكري لأوروبا المسلمين على مراجعة استراتيجيّاتهم لمُراقبة الأجانب وتأمين إقامتهم. قد كان حضور التجار الأجانب في مصر مسألة واضحة حوالى 1174-1175م (570هـ) وذلك من خلال رسالة بعث بها السُّلطان الأيوبيّ الجديد صلاح الدين إلى بغداد ليعلم فيها عن علاقاته بالتجار البنادقة والبيشانيين (أهل بيزا) والجَنَويين ويبرِّر ذلك بأنهم قادرون على جلب الأسلحة إلى مصر ومواد ضرورية أُخرى[13]. فقد كان التجار المسلمون في مصر وغيرها من العالم الإسلاميّ في حاجة إلى المعادن وإلى الخشب لصنع الأسلحة وبناء السفن وكان التجار الغربيون سعداء بتزويد ذلك السوق على الرغم من استنكار البابا[14].

تؤكّد مُعاهدة أُمضيت بين مدينة بيشة (بيزا) وصلاح الدين قبل أن يبعث برسالته إلى بغداد بقليل (مؤرّخة في صَفَر 569هـ أيلول/ سبتمبر 1173م) على حقّ البيشانيين في فُنداكو خاصّ بهم وتشجّع الإيطاليين على جلب الحديد

---

(13) وقد وردت هذه الرسالة في مصادر عديدة وقد كان أبو شامة (1203-1267م) أوّلهم (كتاب الروضتين، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، 1962م، ص1-2، 621-622) (*Kitāb al-rawḍatayn* [Cairo: Maṭba'at Lajnat al-Ta'līf, 1962] 1.2, 621-622; *Recueil des historiens des croisades*, Historiens Orientaux IV [Paris: Imprimerie Nationale, 1848] 178). انظر كذلك، ابن واصل (ت 1298م)، *مُفَرِّج الكُرُوب في أخبار بني أيوب*، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1953-1960م، الجزء الثالث، ص296-297، والقَلْقَشَنْدي (توفي سنة 1418م)، *صُبح الأعشى*، الجزء الثالث عشر، ص88.

(14) لقد حَرَّمت التشريعات البابوية بوضوح بما في ذلك مَجْمَع لاتران الرابع سنة 1215 نقل الأسلحة والحديد والخشب إلى الموانئ الإسلامية، انظر كذلك:

O. R. Constable, *Trade and Traders in Muslim Spain: The Commercial Realignment of the Iberian Peninsula, 900-1500* (Cambridge: Cambridge University Press, 1994) 237-239.

والخشب والرّماح إلى مصر[15]. وبالمثل فقد ذكرت عُقُود مؤرّخة في أيار/مايو - حزيران/يونيو 1173م فُنداكو بالإسكندرية مع تراتيب لشحن الخشب إلى تلك المدينة[16]. من الواضح أنه من الضروريّ إيجاد وسيلة لتنظيم واستغلال ومراقبة أنشطة التجار المسيحيين في المُدُن الإسلامية.

لقد وجد الحكّام الفاطميّون المتأخّرون والحكّام الأيوبيّون الفُنْدُق مناسباً لتلبية هذه الاحتياجات، كما تزايد حديث النصوص في تلك الفترة عن الفُنْدُق كمكان لإقامة الغُرباء والتجار والمسافرين المحليين على السواء[17]. وفي الوقت نفسه كان من الضروريّ تطوير نظرية أشمل حول موقع المسيحيين الأجانب داخل المجتمع الإسلاميّ.

فقد كان وضع المسيحيين المحلّيين والجماعات اليهودية (أهل الذّمّة) الذين يعيشون في ظلّ الدولة الإسلامية يعدّ مسألة مختلفة بما أن الشرع الإسلاميّ والمُمارسات كانت لها سوابق في مُعالجة قضايا العلاقات بين العقائد في دار الإسلام.

لكنّ التجار المسيحيين الأجانب لا يُصنَّفون كالمسيحيين المحلّيين إذ كانوا يحتاجون إلى عَقْد أمان يسمح لهم بالسفر والمُتاجرة في الأراضي الإسلامية. ومن الناحية النظرية يحتاج عَقْد الأمان إلى ضمان مسلم لمسيحيّ ولكن في الواقع كان ذلك محلّ تفاوض ضمن المعاهدات التجارية بين الدول. ففي معاهدة بين جَنَوة والسُّلطان المصري، هناك ضمان للأمان لجميع التجار الجَنَويين الذين يتاجرون في مصر لمدّة معيّنة.

---

(15) Michele Amari (ed.), *I Diplomi arabi del R. archivio fiorentino* (Florence: Tipografia di F. Le Monnier, 1863) 258.
حُفِظت هذه المعاهدة في اللُّغة اللاتينية فقط ولكن بما أنها تشتمل على التاريخ الهجري فإن ذلك يعني أنه لا بدّ أن هناك أصلاً عربيّاً.

(16) R. Morozzo della Rocca and A. Lombardo (eds.) *Documenti del commercio Veneziano nei secoli XI-XIII* (Rome: Instituto Storico Italiano per il Medico Evo, 1940), I, 242-243 (docs. 247, 248).

(17) حسين مؤنس، وصف الجديد، ص170، ابن أبي زَرْع، كتاب الأنيس المُطرِب، ص26، قد ذكر ابن أبي زَرْع أحداثاً تعود إلى عهد الخليفة الموحّدي محمد الناصر (1199-1213م).

لم تكن بيانات المُمارسة فيما يتعلّق بوضع الأجانب المسيحيين في أراضي المسلمين شائعة لكن هناك فتوى متأخّرة أصدرها الفقيه المصري السُّبْكي (ت 1355) تقسم الأجانب إلى أربع مجموعات شرعية (السُّفراء والمبعوثون والتجار والحُجّاج وكلّ الذين يأتون لسماع القرآن) وتلاحظ أنّ أولئك الذين يأتون إلى بلاد الإسلام للتِّجارة ويحملون معهم أماناً لا يخضعون لقوانين أهل الذِّمّة نفسها. وخلافاً لأهل الذِّمّة يكون وضعهم هو وضع الذي يتمتّع بعهد أمان أو بمعاهدة. وإن عهد الأمان أضعف من عهد الذِّمّة لأنه قابل للنقض في ظروف محدّدة في حين أن عهد الذِّمّة لا يُنقض.

إذا نقض التجار الأجانب أمانهم فإنهم يكونون مستحقِّين للعِقاب وفي الحالات الخطيرة (خاصّة في حالة ارتكاب جريمة قتل) يمكن إحضارهم أمام السُّلْطان لمقاضاتهم[18]. وقد أكّدت هذا الموقف نصوص المعاهدات التجارية الأولى التي تلحّ على الوضع القانوني الخاصّ للجاليات التجارية الأجنبية وعادة ما تضعهم تحت قوانينهم في حالة الخلافات الداخلية التي قد تنشب بينهم ولكنّها تضعهم تحت سُلْطة السُّلْطان في الحالات الأكثر خطورة بما في ذلك مرّة أُخرى جرائم القتل.

ولتطوير نظرية قانونية تهمّ مجموعات التجار الأجانب الذين يقيمون بدار الإسلام كان من الضروريّ تحديد هذه المجموعات ذاتها. وقد كان ذلك مسار عمل كان يقع في الوقت نفسه في العالم الإسلاميّ وفي العالم المسيحيّ خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر وقد أدّت احتياجات الجاليات التجارية الغربية إلى ربط دائرتي النقاش ووضعهما في اتّصال مباشر.

فداخل أوروبا أدّى تزايد استقلالية المُدُن-الدُّوَل الإيطالية مع ما رافقها من نقاشات نظرية في ذلك الوقت حول المجموعات "الكونيّة" إلى تدعيم الفكرة الناشئة "للرابطة" التجارية[19]. لذلك كان تجار جَنَوة وبيشة (بيزا) والبُنْدقية

---

(18) A. S. Atiya, "An Unpublished XIVth Century *Fatwā* on the Status of Foreigners in Mamlūk Egypt and Syria," in *Studien zur Geschichte und Kultur des Nahen und Fernen Ostens Paul Kahle* (Leiden: E. J. Brill, 1935) 56, 59-60.

(19) P. Racine, «Les Débuts des consulats italiens outre-mer», in *Etat et colonisation au moyen âge*, ed. Michel Balard (Lyon: La Manufacture, 1989) 272.

ومرسيليا وغيرها من المُدُن الأُخرى ينظرون إلى أنفسهم كأعضاء لمجموعات متميّزة محدَّدة مع حدود "وطنيّة" وهم يسعون من أجل تحقيق أهدافهم الخاصّة والجماعية وهي أهداف تختلف عن ـ وتتنافس مع ـ أهداف التجار من المُدُن الأوروبية الأُخرى.

كانت أنماط التفكير الموازية في العالم الإسلاميّ مكمِّلةً للتطوّرات الفكرية في أوروبا وكذلك ساعدت على تطوير نظام مرتكز على فنادق (فُنْداكو) غربية "وطنيّة". أوّلاً، كان الشرع الإسلاميّ يقرّ دائماً بالفرق بين مختلف المجموعات المسيحية (النساطرة واليعاقبة والملكانيين إلخ. . .) من أهل الذمّة المسيحيين، لذلك لم يكن من المستغرب أن يكون التجار المسيحيون الأجانب عدائيين ومعترضين على تصنيفهم ضمن مجموعة واسعة واحدة.

ثانياً: إنَّ التفكير المعاصر بشأن المسافرين المسلمين وعن وسائل الراحة المؤَمَّنة لهم في ذلك الوقت دعم فكرة أنّ الجاليات الأجنبية لها الحقّ في الاستقلالية والتسيير الذاتي. وقد لاحظ ابن جُبَيْر في سنوات 1180م أنّ صلاح الدين جعل مسجد ابن طُولُون بالقاهرة **"مأوى للغرباء المغاربة يسكنونه ويُحَلِّقُون فيه وأجرى عليهم الأرزاق في كلّ شهر. . . وجعل أحكامهم إليهم ولم يجعل يداً لأحد عليهم. فقدموا من أنفسهم حاكماً يمتثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده واسْتَصْحَبُوا الدَّعَة والعافية"**[20].

وهناك عامل ثالث عزَّز عَزْل التجار المسيحيين الغربيين وتسييرهم الذاتي داخل فَنادقهم، هو أنّ مؤسّسة الفُنْدُق ذاتها تشجّع على هذا النوع من التميز. فقد كانت هذه الفضاءات دائماً مرتبطة، بشكل غير رسميّ، بنوع من التجار أو من الحِرَفيين أو بانتماء جِهَويّ معيّن ولذلك لم تكن هناك إلّا خطوة قصيرة لخلق فَنادق "وطنية" لتجار البُندقيّة وجَنَوة وبيشة وبَرْشَلونة وغيرها. وكما هو الحال مع أغلب أصناف الهُوِيّات الفردية في عالم العصور الوسطى الإسلاميّ والمسيحي، فإن التعريف الأوّل للفرد يتمّ على أساس الدين ولكن في الفُنداكو أصبح الدين متماهياً مع الانتماء الجِهَويّ والسياسي. فقد هَيْمَنَ الفصل على أسس "وطنية" على النقاشات التي كانت تدور حول الفَنادق ووظائفها منذ منتصف القرن الثاني عشر وتواصلت خلال العصر الوسيط المتأخّر إلى العهد العثماني.

(20) ابن جُبَيْر، الرِّحْلة، ص52، الترجمة الإنكليزية، ص44.

ورغم خطاب الفصل هذا فإن هناك كثيراً من الدلائل على أن التجار على اختلاف انتماءاتهم كانوا يتاجرون فيما بينهم ويتزاورون في فَنادقهم حتى ولو كانوا يسكنون منفصلين. هناك عَقْد مُبْرَم في تونس في كانون الأول/ ديسمبر 1286م بفُنداكو البيشانيين (أهل بيزا) مثلاً، يضفي طابعاً رسمياً على شراكة بين تاجر بُنْدُقي وآخر بيشاني للمتاجرة في سردينيا[21]. وحتى السُّلطات الإسلامية تتخطى في بعض الأحيان حواجز الفصل بين المجموعات لتُسْكِن تجاراً أجانب أو حُجّاجاً غربيين في أيّ فُنداكو في متناول اليد دون مراعاة لانتماءاتهم. فالأهمّ من وجهة النظر الإسلامية هو توفير السكن لهؤلاء المتجوّلين بأسرع ما يمكن حفاظاً على أمنهم وتأميناً للضرائب أكثر من البحث عن تصنيفهم بدقّة. قد يكون فَرْطُ الفِقَر في المعاهدات الدبلوماسية التي تلحّ على سبيل المثال على أنّ البيشانيين لا يُجْبَرُون أبداً على قبول أيّ تجار آخرين في فُنداكو البيشانيين إلّا حسب رغبتهم الخاصّة، انعكاساً لهذه الوضعية وتعبيراً عن مدى رغبة المسيحيين أنفسهم في الانفصال بعضهم عن بعض[22]. وهناك بعض الفَنادق في الإسكندرية لها استعداد أكثر من غيرها لاستقبال زبائنَ مختلفين. إنه من النادر أن يستقبل الفُنْدُقان البُنْدُقِيّان غير البَنادقة، ولكنّ الفُنداكو القَطَلاني كان يستقبل عادة الحُجّاج الغربيين الذين يمرُّون بالإسكندرية مقابل معلوم باهظ في حين يستقبل فُنداكو مرسيليا ونَرْبونة بصفة عادية تجاراً من مُدُن أخرى من فرنسا الجنوبية. إنّ أقدم معاهدة تجارية وصلتنا تشير بصورة خاصّة إلى فُنداكو مسيحيّ في مصر هي معاهدة أُمضيت في شهر شباط/ فبراير سنة 1154م بين السفير البيشاني رانياري بوتاتشي «Ranieri Botacci» وأبي الفضل عَبّاس وزير الخليفة الفاطميّ الظافر. وككثير من المعاهدات الدبلوماسية بين الحكّام المسلمين والمسيحيين لم تصلنا إلّا النسخة اللاتينية لنصّ المعاهدة رغم أنه في الأصل يمكن أن تكون هناك

---

(21) David Abulafia, «A Tyrrhenian Triangle: Tuscany, Sicily, Tunis, 1276-1300," in *Studi di storia economica toscana nel Medioevo e nel Rinascimento in memoria di Federigo Melis* (Pisa: Pacini, 1987) 61.

(22) Amari (ed.), *Diplomi arabi*, 288 ("nullo altro homo d'altra gente non chi abia gus et fundacais a voluntate Pisani, et non debet introire avere altra gente sine loro"). ليس هناك إثبات لتاريخ هذا النصّ ولكنه قد يكون من القرن الثالث عشر.

نسخة عربية أيضاً. ذهب رانياري بوتاتشي إلى الديوان الفاطميّ للتفاوض في شأن إعادة الامتيازات التجارية البيشانية بمصر والحصول على أمانٍ للتُّجّار البيشانيين والحُجّاج وإعادة بناء فُنداكو البيشانيين بالإسكندرية والحصول على فُنداكو ثانٍ بالقاهرة. ومقابل ذلك تَعِدُ بيشة (بيزا) بألّا تساعد المسيحيين الغربيين في الإمارات الصليبية ضد مصر وألّا تُمدّهم بالسفن الحربية[23].

من الواضح أنّ بيشة كانت لها علاقات تجارية مع مصر - ولها فُنداكو بالإسكندرية - منذ فترة مبكّرة، ولكنّ المعاملات التجارية قد انقطعت وقد يكون ذلك بسبب الأحداث العسكرية أثناء الحملة الصليبية الثانية. ستتدخَّل الحملات الصليبية ثانية في سنوات 1160م مع غزو أماليك الأوّل «Amalric I» لمصر مسبّباً مصاعب للتُّجّار الغربيين الذين كانوا يمارسون أعمالهم هناك[24]. وعاد النشاط التجاري إلى سالف عهده مع وصول الأيوبيّين إلى السُّلطة وكانت بيشة قد أرسلت سفيراً آخر وهو ألديبراندوس «Aldeprandus» للتفاوض من جديد من أجل الحصول على امتيازات تجارية سنة 1173م. وقد أعادت المعاهدة التي أمضيت مع صلاح الدين في تلك السنة (سبق ذِكرها) لبيشة حقّ المتاجرة في مصر وضمنت لتجارها فُنداكو وكنيسة وحمّاماً في الإسكندرية مع وعد بِحُريّة ممارسة شعائرهم الدينية واستعمال موازينهم ومكاييلهم في النشاط التجاري في الوقت نفسه. وكما سنرى، فإنّ الرّبط بين الكنيسة والحمّام والفُنداكو هو من الأمور الثابتة في المفاوضات التجارية في تلك الفترة[25].

تنحّياً عن التنازلات الفاطميّة السابقة لم يمنح صلاح الدين فُنداكو للبيشانيين بالقاهرة وحصر نشاطهم التجاري في مُدُن الوجه البحريّ الإسكندرية ودُمْياط[26]. وستظلّ هذه القيود طوال العهدين الأيّوبيّ والمملوكيّ فلم يُمنح

(23) Amari (ed.), *Diplomi arabi*, 241-249. See also W. Heyd, *Histoire du commerce du Levant au moyen âge* (Leipzig: Otto Harrassowitz, 1885-1886) I, 393.

(24) Jacoby, "Les Italiens en Egypte," 77.

(25) Amari (ed.), *Diplomi arabi*, 258. كذلك Heyd, *Histoire du commerce du Levant*, I, 397.

(26) في فترة متأخّرة نسبيّاً يبدو أن بيشة قد حصلت على فُنداكو في دُمْياط- الفُنداكو اللاتيني الوحيد المعروف في المدينة- ما بين 1215 و1245م، وهناك بعض الأدلّة على أنه ظلّ =

للتُّجّار المسيحيين إلّا فَنادق في الإسكندرية وبعض الموانئ الأُخرى. ولم يكن مسموحاً للتُّجّار الأجانب أن يمارسوا نشاطهم خارج هذه الأسواق الطَّرَفية ولم يكن ممكناً السفر إلى القاهرة إلّا في ظروف معيّنة. وقد كانت الفَنادق موجودة في نقاط مراقبة التّجارة الإسلامية - المسيحية، وكمؤسّسات كان يمكن من خلالها للأيّوبيّين والمماليك أن ينظّموا التّجارة العالمية ويستفيدوا منها. وقد أمكن، بتحديد مجال النشاط بالنسبة للتُّجّار الغربيين في الإسكندرية، ولبعض المنشآت داخل المدينة، مراقبة حركة التجار والبضائع الأجنبية. وكانت الضرائب تؤخذ عن الواردات وعن عمليّات البيع، وخصُّصت المسالك التجارية حول الإسكندرية للتُّجّار المحليين.

وليس هناك من شكّ أن بعض التجار الأجانب كانوا، بالتعاون مع شركائهم المحليين، يهربون من هذا النظام ويتاجرون في مجال أوسع ولكنّهم لم يتركوا أيّ أثر في المصادر الراجعة إلى العهد الأيّوبيّ.

إنّ تخصيص كنيسة وحمّام لفائدة التجار البيشانيين وكذلك الفُنداكو له دلالته. وهذا الحشد من المنشآت المرتبطة بالفُنداكو تُذَكِّر بنفس التجميع الحاصل حول الفَنادق، والفِقَر من هذا النوع ـ التي تجمع بين مجموعة من المنشآت (الفُنداكو والكنيسة والحمّام والفُرْن والحديقة) ـ ستصبح من المميّزات الثابتة في المعاهدات التجارية بين السُلطات المسيحية والإسلامية من القرن الثاني عشر فصاعداً. ولم يكن هذا الجمع نتيجةً لحاجة المسافرين أينما كانوا في السكن والعبادة والنظافة والطعام فقط، ولكن أيضاً نتيجة لليقظة الدائمة التي أُولِيَت لهذه المرافق من قِبَل الفُقهاء الحَضَريين والوُلاة والمُحتَسِبين. ولم يكن هذا الأمر خاصّاً بمصر ولكنّه شأن عام في العالم الإسلاميّ المتوسّطي.

= مُسْتَعملاً إلى سنة 1286م، حيث تذكر قوانين مدينة بيشة فَنادق الإسكندرية ودُمْياط.
(Francesco Bonaini [ed.], *Statuti inediti della città di Pisa del XII secolo* [Florence: Presso G. P. Vieusseux, 1854-1870] I [1854], 333-334). Also Catherine Otten-Froux, "Les Pisans en Egypte et à Acre dans la seconde moitié du XIIIe siècle: documents nouveaux,» *Bollettino Storico Pisano* 52 (1983) 189 (doc. 15).
وكانت هناك فَنادق إسلامية أيضاً في دُمْياط في تلك الفترة، فقد وصف جان دي جوانفيل [Jean de Joinville] كيف أحرق المسيحيون الفُندى [Fonde] حيث كانت البضائع وكيف بِيعت السِّلَع بالوزن خلال اعتداء على المدينة سنة 1249م (*Histoire de Saint Louis*, 58).

لقد كانت الكنائس هامّة بالنسبة للتُّجّار الغربيين في المُدُن الإسلامية ومثلما بَيَّن ذلك سيفولود سلساريف «Vsevolod Slessarev» فإنه قد تكون القدرة على الوصول إلى الكنائس، أكثر من وجود الفُنداكو، ما أرسى أُولى جماعات التُّجار القادمة من وراء البحار(27). وهناك العديد من المصادر الأولى التي تشير إلى التِّجارة العابرة للثقافات تذكر وجود الكنائس وربّما مجمَّعات كنسية يمكن للتُّجّار أن يتعبَّدوا ويقيموا ويخزِّنوا بضائعهم فيها. وربّما أصاب وجودَ كنيسة مرتبطة بالفُنداكو وتراً مألوفاً في المجتمع الإسلاميّ لأن الناس معتادون وجود المسجد والبِيعة في مثل هذه المؤسّسات. ويذكر العديد من المعاهدات الدبلوماسية الكنائسَ رغم أنها لم تتوسّع في بسط المعلومات عنها. هناك وثيقة مفصّلة بصورة غير مألوفة تمّ إمضاؤها في تموز/يوليو 1287م بين ألفونس الثالث ملك الأراغون والحَفْصِيين في فترة أوج مملكة الأراغون. وهي لا تذكر، في نسختيها اللاتينية والعربية، وجود قَسّ يشرف على الصلوات في الكنيسة فقط، وإنما كذلك تشير بوضوح إلى قرع النواقيس لتجميع "المسيحيين في كلّ الفنادق والمقيمين في المساكن الأُخرى" لحضور الصلاة(28).

لا بُدَّ أنَّ السماح بوجود الكنائس، من وجهة نظر المسلمين، كان مشابهاً للتسامُح الذي كانت تتمتّع به كنائس أهل الذمّة. وبشكل عامّ، لم يكن مسموحاً للمسيحيين المحلِّيين أن يقرعوا النواقيس ولا أن يوسّعوا في مباني الكنائس ولا أن يرتفع علوّ مبانيهم على مباني المسلمين. ولمّا خَرَقَت المعاهدات الدبلوماسية هذه الحدود التقليدية حدثت بعض المصاعب. فتجيب فتوى من تونس غير محدّدة التاريخ عن مسألة بناء المسيحيين الأجانب لكنيسة جديدة لها صومعة في الفُنْدُق،

---

(27) Vsevolod Slessarev, «*Ecclesiae Mercatorum* and the Rise of Merchand Colonies,» *Business History Review* 41 (1967) 177-197.

(28) Maximiliano A. Alarcón y Santón (ed. and trans.), *Les documentos árabes diplomáticos des Archivo de la Corona de Aragón* (Madrid: Publicaciones de las Escuelas de Estudios Árabes de Madrid y Granada, 1940) 394-400; Giuseppe La Mantia (ed.), *Codice diplomatico dei re Aragonesi di Sicilia* (Palermo: Scuola tip. "Boccone del Povero," 1917; repr. Palermo: Società Siciliana per la Storia Patria, 1990) 377-386 (doc. 167).

تذكر النسخة العربية من النصّ "أن العُرْف الجاري بين المسيحيين في كلّ الفَنادق هو قرع النواقيس"، لذا فإن هذه المعاهدة ربَّما لا تعكس أيّ تجديد.

ولتبرير هذا العمل استظهروا "بكتاب العهد، فوُجِد فيه أنه لا يُحال بينهم وبين أن يبنوا بيتاً لتعبُّداتهم، واعتذروا عمّا رفعوه [إنه للضوء]، فبعث إليه القاضي فوجده كذلك" ولكن قرار القاضي النهائي لم يصلنا[29]. ومع الوقت، نُقِلت المنشآت الخارجية مثل الكنيسة والحمّام أو الفرن دائماً إلى داخل مبنى الفُنداكو، وهو ما كان يخلق عادة مُجَمَّعاً كبيراً، ولكنّ نصوص القرن الثاني عشر تبيّن أنها كانت لا تزال في تلك الفترة مرافقَ منفصلٌ بعضُها عن بعض. وقد كانت الحمّامات والأفران، في البداية خاصّة، من المنشآت الحَضَريّة التي يمكن للأجانب المسيحيين استعمالها في أوقات محدّدة. وعلى هذا، كانت ممّا يحتاج إلى المراقبة والتنظيم. وبما أنه لا الكنيسة ولا الحمّام كانا ضمن المبنى في الفَنادق، فإنّ معاهدة 1173م بين بيشة وصلاح الدين وضعت بوضوح ترتيبات تتعلّق براحة وخصوصية وأمن البيشانيين عندما يستعملون هذه المرافق. ففي اليوم الذي يذهبون فيه إلى الحمّام لا يكون مسموحاً لغيرهم بذلك وعندما يذهبون إلى الكنيسة كانت تُوَفَّر لهم الحماية في الشارع وفي مبنى الكنيسة ذاته ولا يمكن التشويش عليهم في صلاتهم من قِبَل أيّ دخيل[30].

كما كانت الأفران عادةً مرتبطة بالفَنادق (الفُنْداكو)، فهي ضرورية من أجل "خَبْز الخُبْز" كما هو منصوص عليه في معاهدة 1271م بين تونس والبُندقيّة ولكن أيضاً هناك حاجة إليها للخَبْز وإعداد الطعام[31]. وكان قنصل البيشانيين بالإسكندرية، قبل ذلك بسنة، قد أمر ببناء فُرْن في فُنْدُقه، وكانت قوانين مجلس

(29) الوَنْشَرِيسي، المِعْيار، الجزء الثاني، ص215-216.

(30) Amari (ed.), *Diplomi arabi*, 258 («in die quando illi ad lavandum issent, nullus extraneus debet ire...quando ad ecclesiam issent, nullam molestiam debent habere, neque per viam, nec intra ecclesiam; et intra ecclesia nulla res debet esse ut verba Dei non possint audire, sicut lex eorum est").

(31) G. L. F. Tafel and G. M. Thomas (eds.), *Urkunden zur älteren Handels- und Staatsgeschichte der Republik Venedig mit besonderer Beziehung auf Byznaz und die Levante*, Fontes Rerum Austriacarum 12-14 (Vienna: Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften, 1856-1857) III, 120.
كانت الأفران مرتبطة أيضاً بالفَنادق *(funduqs)* مثلما تبيِّن ذلك نصوص الأوقاف مثل وثيقة وقف فُنْدُق الحَجَر الذي وَقَفَه السُّلطان بَرْسْباي، نشرته س. دنوا: ed. in Denoix et al., *Le Khan al-Khalili et ses environs*, II, appendix, 8-10).

مدينة مرسيليا منذ سنة 1228م قد أشارت إلى أنه من المفهوم أن يكون هناك فرن في كلّ فُنْدُق (فُنْداكو) من فَنادق المرسيليين[32].

لقد كانت الأفران مُمتلكات رابحة سواء في المُدُن المسيحية أو المُدُن الإسلامية في العصر الوسيط، لأنه كان من عادات الناس أن يحملوا العجين وبعض الأطعمة الأُخرى لطَهْوِها في الفُرْن العُموميّ ودفع مقابل زهيد عن تلك الخدمة وكثيراً ما تَحَوَّل الحقّ في تشغيل فُرْن وجمع هذه المداخيل إلى لَزْمة في مُدُن العصر الوسيط. ويمكن أن تدار الأفران في الفَنادق على أُسُس مشابهة. ففي بداية سنة 1200م عُيّن خبّازٌ جَنَويّ للإشراف على فرنٍ وحمّام في فُنْداكو الجَنَويين بالإسكندرية. وقد انتُدِب الخبّاز لمدّة سنتين أمضاهما في الفُنْداكو وحصل على نصف دَخْل الفرن (من الاستعمال وبَيْع الخبز) بعد حسم تكاليف الصِّيانة[33].

يبدو أنّ الأفران التي كان يستعملها سكّانُ الفُنْدُق كانت توجد، في البداية، خارج مبنى الفُنْدُق وكان الغربيون يدفعون أجرة مقابل استعمالها ثم أصبحت فيما بعد موجودة في داخله. وقد تكون هناك أسباب عديدة وراء هذا التغيير منها ما هو عمليّ ومنها ما هو اقتصاديّ. فالفُرْن بالداخل كان ملائماً أكثر (إذا اتُّخِذت الاحتياطات المناسبة ضد الحرائق) وهو يمنح جماعة الفُنْدُق استقلالية اقتصادية أكبر لأنّ الغربيين لم يعد عليهم دفع تكاليف استخدام فُرْن المسلمين بل بالعكس يمكنهم أن يستثمروا الفُرْن لتوفير خدمات لمصلحة سكّان البلاد[34]. وفي الوقت نفسه يشجّع وجود فُرْن داخل الفُنْداكو على عَزْل الناس وعَزْل طرق طبخهم وطهوهم أيضاً. فمن وجهة نظر عمليّة أيضاً من الأمور الأساسية لمجموعة مقيمة،

(32) Jacoby, "Les Italiens en Egypte", 84; Louis Méry and F. Guindon (eds.), *Histoire analytique et chronologique des actes et des délibérations du corps et du conseil de la municipalité de la Merseille, depuis le Xme siècle jusqu'à nos jours* (Marseille: Feissat aîné et Demonchy, 1841) I, 352.

(33) S. Origone, «Genova, Constantinopoli e il Regno di Gerusalemme (prima metà sec. XIII)», in *I comuni italiani nel regno crociato di Gerusalemme: atti del Colloquio «The Italian Communes in the Crusading Kingdom of Jerusalem» (Jerusalem, May 24-May 28-1984)*, ed. G. Airaldi and B. Z. Kedar, Collana storica di fonti e studi 48 (Genoa: Università di Genova, 1986) 311-312.

(34) Jacoby, "Les Italiens en Egypte", 87-88.

تعيش في ظلّ حَظْر التَّجْوال المتكرِّر وراء أبواب مغلقة ليس في الليل فقط وإنما أيضاً في بعض الحالات في النهار، أن يكون لها فُرْن في الداخل.

تبدو تعقيدات الأفران المالية والثقافية من خلال وثيقة تعود إلى سنة 1308م، يجيب فيها السُّلطان الحَفْصِي بتونس عن قائمة طويلة من الشكاوى (قد ضاعت اليوم) تقدّم بها قنصل الأراغون تتعلّق بجُمْلة من المسائل من بينها مسألة فرن الفُنداكو.

ويُبرهن جواب السُّلطان عن فهم مُعمّق أو على الأقلّ يقدّم المبرِّرات المتعلّقة بتنظيم هذا المَرْفق. فيفسّر قبل كلّ شيء **"أن العادة فيه وفي جميع أفران النصارى أن يكون لكلّ فُنْدُق فرن مختصّ بهم ليطبخوا فيه طعامهم لا غير، من غير أن يشاركهم فيه أحد لكون المسلمين لا يجوز لهم أن يطبخوا طعامهم معهم..."** إلاّ أنه يواصل **"إذا اكتروه لأحد من المسلمين ليعدّ فيه طعام المسلمين، فمتى استغنوا عنه يرجع كراؤه للديوان... لأنهم إنما أُعطُوا فُرْناً ولم يُعطَوا كِراء فُرْن"**[35]. فكما هو الشأن بالنسبة إلى مباني الفُنداكو ذاته فإن ما هو ممنوح للجاليات التجارية، من قبل السُّلطات الإسلامية، هو حقّ استعمال الفُرْن وليس الفُرْن ذاته. ففي الظاهر أنّ الأراغونيين كانوا يؤجّرون الفرن ويستفيدون من مداخيله وأن السُّلْطان والسُّلطات المحلية تريد إبطال هذه الممارسة. وعلى الرغم من ادّعاء حقّ السُّلطة الدينية، فالأساس المنطقي الأوّل في فَصْل المَرافق المعدّة للطبخ لم يكن مدعوماً من قبل الشريعة الإسلامية، وهكذا فإن الجزء الثاني من الجواب ـ التفاوُض من أجل تعويض ماديّ ـ هو الذي يؤدّي إلى لُبّ النِّزاع.

---

(35) Alarcón (ed.), *documentos árabes diplomáticos*, 266-270 (doc. 120). قد يكون هناك قلق بأن المسيحيين قد يستعملون الأفران لطبخ لحم الخنازير رغم أن الحَفْصِيين كانوا يمنعون تربية الخنازير في فَنادق المسيحيين (Robert Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Ḥafṣides. Des origines à la fin du XVe siècle* [Paris: Adrien-Maisonneuve, 1940] II, 225). وقد كان المسؤولون الحَفْصِيون في الموانئ يفرضون رقابة مشدّدة على المُسْتَوعَبات الأجنبية الواردة تجنُّباً لملامسة الخنازير. ولهذه الأسباب كان بيغولوتي [Pegolotti] ينصح التُّجّار باستعمال براميل جديدة عندما يصدِّرون زيتاً إلى تونس (*La Pratica della mercatura*, ed. Allan Evans [Cambridge, MA: Medieval Academy of America, 1936] 130).

حافظت المعاهدات بين الأيّوبيّين ومدينة بيشة في بداية القرن الثالث عشر على النظام الأساسي الذي أفرزته المفاوضات الأولى، وكانت تُورِد "العادة المعمول بها" لتجديد الامتيازات أو تثبيت الامتيازات القديمة. لذلك كانت الأوامر الصادرة إلى القنصل البيشاني بمصر، ماركوزو دي تيبارتي «Marcuzzo dei Teperi»، لا تطلب منه إمضاء معاهدة سلم مع الأيّوبيّين فقط وإنما كذلك "المطالبة بكنيسة القدّيس نيقولا «Saint Nicholas» وفُنداكو ومحطّة للإرساء وحمّام وكلّ ما كان يحتاج إليه البيشانيون عندما كانوا يرسون بالإسكندرية في الماضي"[36]. نستنتج من الصياغة أن العلاقات التجارية بين بيشة ومصر قد تدهورت فترةً من الزمن وكان من الضروريّ إعادة الوضع إلى سالف عهده. وردّاً على هذه المبادرة البيشانية أعطى السُّلطان العادل (1200-1218م) عهد أمان تقريباً في سنة 1208م. ووعد السُّلطان أنه عندما يأتي البيشانيون إلى مصر سوف لن "تُفرض عليهم ضرائب ولا مُكُوس جديدة وسيكون الأمر على ما كان عليه في السابق. . . وسيكون لهم فُنْدُق وكنيسة وحمّام مثلما كانت عادتهم من قبل"[37].

وفي وثيقة أُخرى غير مؤرّخة قد تكون هي أيضاً من زمن الملك العادل الأوّل، تلحّ هي الأُخرى على العادة السابقة وتذكر جُمْلة من التدابير لترميم فُنداكو البيشانيين "المسمّى بالبيت الذي تعوّد البيشانيون أن يقيموا به عندما يكونون بالإسكندرية" وكلّ ما كان لهم على عادتهم[38]. وعلى الرغم من الدعوة المستمرّة للعودة إلى ما هو معمول به في العادة، فإن نظام الفُنداكو لم يستقرّ

---

(36) Amari (ed.), *Diplomi arabi*, 281 («petat ecclesiam sancti Nicholai et fundacum et stateram et balneum et omnia que solita sunt haberi a Pisanis in Alexandria ex antiquo tempore»). See also Heyd, *Histoire du commerce du Levant*, I, 412.

(37) Amari (ed.), *Diplomi arabi*, 283. حاول أماري [Amari] تأريخ هذا النصّ بشهر أيار/مايو 1208م.

(38) Amari (ed.), *Diplomi arabi*, 290. Heyd, (*Histoire du commerce du Levant*, I, 394) أرّخ هذا الأخير النصّ في سنوات 1150 نظراً لأنه يمكن أن نفهم أن فُنداكو البيشانيين قد رُمِّم سنة 1154م. إلا أن شتيرن [Stern] يرجعه إلى عهد الملك العادل الأوّل على أساس المقارنة مع مراسيم سُلطانية أُخرى تعود إلى ذلك العهد، انظر S. M. Stern, "Two Ayyūbid Decrees from Sinai," in S.M. Stern (ed.) *Documents from Islamic Chanceries*, Oriental Studies III (Oxford: Bruno Cassirer, 1965) 31.

خلال القرن الثالث عشر وتشير عمليّات التجديد إلى تواصل اللّهْوَجة في الإصلاحات على مستوى الشكل والوظيفة.

لم يكن التجار البيشانيون الوحيدين في الحصول على امتيازات في مصر الأيّوبية، فقد وصل إليها سفراء البُندقيّة سنة 1170م وتبعهم في فترة وجيزة مبعوثو جَنَوة ومرسيليا. وكما ذُكِر من قبل قد كان للبُندقيّة فُنداكو في الإسكندرية في سنة 1173م وكانت لصلاح الدين علاقات جيّدة مع الدوق سيباستيانو زياني «Sebastiano Ziani»[39]. وواصل التجار البنادقة استعمال الفُنداكو والحمّام بالإسكندرية وكانوا يذهبون إلى كنيسة القدّيس ميخائيل في بداية القرن الثالث عشر. وتذكر وثيقتان غير مؤرّختين تعودان إلى تلك الفترة فُنداكو للبنادقة وتذكران بالخصوص أن التجار البنادقة كانوا يقيمون بمنزل مؤجّر في أحد أسواق الإسكندرية[40]. فسرعان ما تطوّرت التِّجارة البُندقيّة بما يكفي لتتطلّب مسكناً ثانياً وقد ذُكر الفُنْدُقان في معاهدة مع السُّلطان العادل الثاني مؤرّخة في نوفمبر 1238م تستجيب لطلب البنادقة في الحصول على فُنْدُقين[41].

وقد كان الأمن من المشاغل الدائمة في الفُنْدُق والفُنداكو، بما أنّه كان من الضروريّ حراسة الناس والبضائع داخل المبنى. فقد كانت حماية تجارة البضائع من أولى الاهتمامات في حالة الفُنْدُق فأصبح أمن الأشخاص في المرتبة نفسها في حالة الفُنداكو. كان التجار الأجانب يرغبون في الحماية من السكّان المحليين واعتزالهم كما أنّ مسؤولي المدينة المسلمين كانوا يرغبون هم أيضاً في منع المسيحيين الغربيين من التجوُّل بحرية داخل المدينة. فلهذا السبب كانت مسألة مراقبة باب الفُنداكو وتحديد أوقات فتحه وغلقه من محاور التفاوض بين السُّلطات المسيحية والإسلامية.

فقد أقرَّت معاهدة البُندقيّة لسنة 1238م أنّ المشرفَيْن على الفُنْدُقَيْن يكونان

---

(39) Jacoby, "Les Italiens en Egypte," 79.

(40) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 189 («mercatoribus Venetiarum, ut habeant fondicum in Alexandria ad habitandum in eo, quod dicitur Soguediki»).
يستنتج من العبارة الأخيرة أن الفُنداكو كان في الأصل مبنى تجاريّاً، أو كان يقع في سوق قديمة وقع تحويله إلى فُنْداكو مثلما هو الحال بالنسبة إلى الفَنادق *funduqs* العادية.

(41) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 336-341.

وحدهما المسؤولَيْن عن تسييرهما الداخلي ولهما حقّ فتح وغلق الفُنْدُقين متى شاءا[42]. تعطي المصادر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر توضيحات أوفر عن حيازة مفاتيح الفَنادق من قِبَل موظّفي السُّلطات المملوكية وعادة إغلاق الفَنادق من الخارج في الليل وفي وقت صلاة الجمعة.

كان التجار البنادقة مثل نظرائهم من البيشانيين يرغبون في امتيازات أوسع للمتاجرة خارج الإسكندرية وكانوا يمارسون التِّجارة في حلب خلال القرن الثالث عشر. وكانت حلب مصدراً مهمّاً للمواد الشرقية (مثل القطن والحرير والفستق والعقاقير الطبية) التي تصل إلى المتوسّط من الأناضول وكردستان والعراق وبلاد فارس. ويعتبر دخول مجال المُبادلات عبر حلب إضافة لنفوذ البنادقة الاقتصادي يُكمل حضورهم المُعاصر في تلك الفترة بالإسكندرية وعكّا وغيرهما من الموانئ الصليبية والقُسطنطينية وبحر إيجه بعد الحملة الصليبية الرابعة سنة 1204م[43]. ففي سنة 1207-1208م وصل مبعوث من البُندقيّة إلى مقرّ أمير حلب الأيّوبيّ الملك الظاهر أحد أبناء صلاح الدين طالباً إعادة امتيازات البنادقة بالمدينة. وجواباً عن هذا الطلب مَنَحَ للبنادقة حمّاماً وفُنداكو وكنيسة بالمدينة وحَدَّد معاليم الضرائب على الوارد والصادر بنسبة 12 بالمئة[44]. وبعد ذلك بحوالى عشر سنين وصل مبعوث بُنْدقي آخر (توماسّو فوسكاريني Tomasso Foscarini) في تشرين الثاني/نوفمبر 1225م إلى مقرّ الملك العزيز يحمل طلباً بالمزيد من التنازلات منها الحصول على فُنداكو بمدينة اللاذقية، ميناء حلب، وتخفيض نسبة الضرائب.

---

(42) *Ibid.* («ipsi fonticarii habeant potestatem claudendi et aperiendi ad eorum voluntates»).

(43) Eddé, *Principauté ayyoubide d'Alep*, 511-529.

(44) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 65; Heyd, *Histoire du commerce du Levant*, I, 374. لقد تمّ نشر المعاهدات الأولى مع حلب كذلك من قبل ماركو بوزا. Marco Pozza, *I trattati con Aleppo, 1207-1254* (Venice, Il Cardo, 1990). قد تمّت دراسة العلاقات بين البُنْدقية وغيرها مع حلب من قبل عديد من الباحثين، وآخرهم آن ماري إده Anne-Marie Eddé, "Les relations commerciales entre Alep et Venise au VII/XIII siècle," *Revue des Etudes Islamiques* 59 (1991) 165-186; and Eugene Wirth, "Alep et les courants commerciaux entre l'Europe et l'Asie du XIIe au XVIe siècle," *Revue du monde Musulman et de la Mediterranée* 55-56 (1990) 44-56.

وجواباً عن ذلك تمّ تخفيض الضرائب إلى 6 بالمئة وكالعادة مُنِحَ البنادقةُ فُنداكو وحمّاماً وكنيسة وفرْناً في الميناء. ولكنّ هذه المعاهدة لم تعمّر طويلاً لأنه ما إن وصل دوج doge جديد على رأس البُندقيّة حتى أرسل جيوفاني سوكوغولو «Giovanni Succugullo» في ديسمبر 1229م لمراجعة حقوق البنادقة بحلب واللاذقية مع توسيع مجال النشاط التجاري. وهذه المعاهدة لا تذكر فُنداكو خارج المدينة فقط ولكن أيضاً تتحدّث عن وعد ببناء فُنداكو جديد قرب الجسر على نهر العاصي على طريق اللاذقية-حلب، ليكون مقرّ إقامة للبنادقة[45]. ويعبّر إيفاد سفير من البُندقيّة إلى حلب سنة 1254م عن أن نشاط البنادقة التجاري كان متواصلاً في المدينة في أواخر العهد الأيّوبيّ[46]. وفي فترة متأخّرة على إثر سيطرة المماليك على مصر والشام واسترجاع القُسطنطينية من قِبَل البيزنطيّين والغزوات المغولية في شمال بلاد الشام وسقوط الموانئ الصليبية مثل عكّا وصُور وبيروت، تجاوزت دمشق حلب لتصبح السوق الأولى بالنسبة إلى البنادقة الذين يتاجرون مع بلاد الشام.

كما اتصل السُّفراء البنادقة بالسلاجقة في الأناضول بحثاً عن الامتيازات التجارية في بداية القرن الثالث عشر. وكنتيجة لذلك تمّ إبرام ثلاث اتفاقيات بين الطرفين ولكن لم يصلنا منها إلّا اتفاق واحد مؤرّخ في آذار/مارس 1220م. وقد كان العديد من المعاهدات بين المسلمين والمسيحيين محدّدة في الزمن ولكن الاتفاقيات التي أبرمت مع السلاجقة بهذا الخصوص كانت قصيرة فهي صالحة لمدّة سنتين فقط. يسمح نصّ معاهدة 1220 المبرمة بين ممثّل البُندقيّة في القُسطنطينية «Podesta» وسُلطان قونية، قَيْقُباذ (1220-1227م) للبنادقة بالتِّجارة في الأراضي السلجوقية مقابل ضريبة زهيدة جداً (2 بالمئة) ولهم مؤسّساتهم القضائية للنظر في الخلافات التي تنشب مع غيرهم من المسيحيين، من بنادقة وبيشانيين وغيرهم من الغربيين. وعلى عكس الامتيازات التي كانت لهم في الأراضي الأيّوبية لم يُمنح لهم بصورة علنية أيّ تنازل لامتلاك حمّامات أو فَنادق

(45) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 258, 275-276 ("ad pontem namque promisi illis facere fondicum ad hospitandum"); also in Pozza (ed.), *I trattati con Aleppo*, 40-43, 52-54. See also Heyd, *Histoire du commerce du Levant*, I, 374.

(46) Heyd, *Histoire du commerce du Levant*, I, 375-377.

أو كنائس أو أفران في المُدُن السلجوقية[47]. وقد يكون هذا النقص، جزئيّاً على الأقلّ، نتيجة لانتشار الخانات أكثر من الفَنادق في المناطق الخاضعة للسلاجقة. وبغضّ النظر عن شهادة بنيامين التُّطَيْلي وقائمته التي تشمل أربعين مجموعة من التجار المسيحيين الذين يمتلكون فَنادق في الإسكندرية في سنوات 1160م، هناك عدد محدود من الوثائق المباشرة التي تتعلّق بأيّ فُنْدُق من فَنادق الغربيين بالمدينة باستثناء تلك التي تخصّ بيشة والبُندقيّة قبل القرن الثالث عشر.

ومع ذلك وفي بعض الحالات هناك معلومات غير مباشرة تدعم رواية بنيامين التُّطَيْلي. فقد كان التجار الجَنَويون ناشطين في مصر قبل تاريخ زيارة بنيامين التُّطَيْلي، كما تبيّن ذلك الاتفاقيات التي أبرموها في القرن الثاني عشر ومن خلال ذكرهم في مراسلات التجار اليهود المصريين التي تعود إلى سنوات 1070م[48]. فقد كان للجَنَويين فَنادق منذ منتصف القرن الثاني عشر كما توجد مؤسّسات أُخرى خاصّة بالتجار في إفريقيا الشمالية وإسبانيا حيث كان الجَنَويون معنيين بها بشدّة لضمان التمتّع ببعض الامتيازات مثلما هو الشأن بالنسبة إلى بيشة.

وقد تكون بعض المجموعات الأُخرى من الغربيين تباطأت في الحصول على فَنادق في مصر خلال العصر الأيّوبيّ رغم وجود أدلّة، على غِرار ما يتعلّق بالجَنَويين، إلى وجود مُبادلات مكثّفة مع مصر قبل1250م[49]. ويشير العديد من

(47) M. E. Martin, "the Venetian-Seljuk Treaty of 1220," *English Hostorical Review* 95 (1980) 321-329; Elizabeth Zachariadou, *Trade and Crusade: Venetian Crete and the Emirates of Menteshe and Aydin (1300-1415)* (Venice: Hellenic Institute of Byzantine and Post-Byzantine Studies, 1983) 3-4; Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 221-225.

(48) Benjamin Kedar, «Mercanti genovesi in Alessandria d'Egitto negli anni sessanta del secolo XI,» in *Miscellanea di studi storici II*, ed. G. Pistarino, Collana storica di fonti e studi 38 (Genoa: Università di Genova, 1983) 21-26; Jacoby, "Les Italiens en Egypte," 78-80.

(49) See David Abulafia, "The Levant Trade of the Minor Cities in the Thirteenth and Fourteenth Centuries: Strengths and Weaknesses," *Asian and African Studies* 22 (1988) 183-202. Also D. Abulafia, "The Anconitan Privileges in the Kingdom of Jerusalem and the Levant Trade of Ancona," in *I comuni italiani nel regno crociato di Gerusalemme: Atti del Colloquio "The Italian Communes in the Crusading Kingdom of Jerusalem" (Jerusalem, May 24- May 28-1984)*, Collana storica di fonti e =

المصادر، بعد هذا التاريخ، إلى نشاط التجار المسيحيين في الإسكندرية المملوكية، ذاكرة فَنادق خاصّة بتجار من بيشة وجَنَوة والبندقية وفلورنسا ومرسيليا ونربونة ومونبليه وبرشلونة وغيرها من جهات أُخرى. وستناقش هذه المرافق الوسيطة في الفصل الثامن.

الفُنداكو في الغرب الإسلاميّ قبل سنة 1300م

لم تكن الأسواق في مصر والشام الوجهة الهامّة الوحيدة في العالم الإسلاميّ التي يقصدها التجار المسيحيون الغربيون ولا الأماكن الوحيدة التي يمكنهم الحصول فيها على امتيازات تجارية. وقد كان التجار من إيطاليا وجنوب فرنسا ومملكة الأراغون ناشطين أيضاً في المُدُن المينائية بشمال إفريقيا، خاصّة تونس، وفي الأندلُس. في الحقيقة تتوفّر الوثائق حول الفَنادق في المتوسّط الغربي أكثر ممّا هي عليه في الشرق الأوسط (رغم وجود معاهدة 1154م بين بيشة ومصر الفاطمية ووثائق أُخرى تشير إلى أنّ الفَنادق الأوروبية قد تكون وُجدت قبل ذلك التاريخ). ومن الممكن أيضاً أن يكون المحرّك لتغيّر المؤسّسة الإسلامية، التي بدأت تبرز في الغرب الإسلاميّ، وربّما في الأندلُس حيث كانت العلاقات الإسلامية المسيحية والمُبادلات التجارية مُبكّرة، وأن التصوّر الجديد للفُنْدُق الذي يُعبّر عنه في الوثائق بالفُنداكو، تمّ نقله إلى الشرق من قِبَل التجار المسيحيين الذين يبحثون عن امتيازات مُماثلة في مصر والشام.

ولكن بما أنّ صيغة الفُنداكو قد ظهرت في الإمارات الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر فإنّ الوثائق لا تسمح باستنتاجات نهائيّة في هذا الشأن.

ولم تقع الإشارة في المصادر الأولى إلى فَنادق التجار الأوروبيّين في غرب المتوسّط في المعاهدات بين المسلمين والمسيحيين وإنما من خلال وعد حصلت

= studi 48, ed. G. Airaldi and B. Kedar (Genoa: Università di Genova, 1986) 529.
تحتوي هذه المجموعة على رسالة تعود إلى سنة 1231م موجّهة من البابا غريغور التاسع إلى السُلطان الكامِل يحتجّ فيها على حبس تجّار من أنكونا [Ancôna] في الإسكندرية وسرقة متاعهم. وقد بيّن أبولافية [D. Abulafia] أن العبارات المضمَّنة للشكوى تفيد بأنه يجب قراءة عبارة التُجّار الأنكونيين على أنهم جالية تضمّ مجموعة معيّنة ومنفصلة عن بقية التُجّار حتى ولو لم تكن هناك إشارة إلى امتلاكهم لفُنداكو.

عليه جَنَوة سنة 1146م من ملك قشتالة، ألفونس السابع وكونت برشلونة، رامون بِرنغير الرابع «Berenguer IV». ويمنح هذا الوعد فُنداكو وحمّاماً وفرناً وحديقة في مدينة ألْمَرِيّة ومقابل ذلك تقدّم جَنَوة مساعدة بحرية للاستيلاء عليها[50].

بالرغم من أنّ ظهور هذا الشكل المُبكّر -والذي سيصبح قارّاً عند منح الامتيازات- في معاهدة بين المسيحيين، فمن المؤكّد أن الصياغة تعكس الامتيازات التي كان التجار الجَنَويون يتمتّعون بها بالفعل في ألْمَرِيّة الإسلامية. بدلاً من الوعد بامتيازات جديدة لجَنَوة فقد كان ألفونس السابع ورامون برونجيه الرابع يريدان طمأنة حليفهما المحتمل إلى أنّ التجار الجَنَويين سيتمتّعون بامتيازات تجارية أكثر في ظلّ الحكم المسيحي. ورغم أنه ليست هناك إشارة إلى فُنداكو خاصّ بالجَنَويين بمدينة ألْمَرِيّة قبل سنة 1146م، هناك أدلّة واضحة على وجود تجارة جَنَوية في المدينة وعلى وجود فَنادق أُخرى بها في بداية القرن الثاني عشر. يَذكر أحد المصادر أنّ سفينة جَنَوية كانت قد أبحرت من مدينة ألْمَرِيّة حوالى سنة 1120م، في حين تفيد تنظيمات المُبادلات الجَنَوية بوصول سفن من ألْمَرِيّة في السنوات الأولى من 1140م[51]. كما أنّ الجغرافيّ الأندلُسيّ الإدريسيّ كان قد ذكر عدداً كبيراً من الفَنادق وغير ذلك من المؤسّسات التجارية في مدينة ألْمَرِيّة حوالى سنة 1150م[52].

من غير شكّ كان التجار الجَنَويون يقيمون في فَنادق بمُدُن أندلُسية أُخرى في تلك الفترة. في شهر حزيران/يونيو 1149م وقّعت جَنَوة معاهدة سلام لمدّة عشر سنوات مع ابن مَرْدَنيش أمير بَلَنْسية وجزر البَلْيار، وحصل الجَنَويون بمقتضاه على "فُنْدُقين... للإقامة والتّجارة... واحد في بلنسية والآخر في دانية ولا يمكن لأحد آخر أن يقيم معهم، كما يُسمح لهم باستعمال الحمّام مرة في

(50) Cesare Imperiale di Sant'Angelo (ed.), *Codice diplomatico della repubblica di Genova*, Fonti per la storia d'Itlia (Rome: Tipographia del Senato, 1936-1942) I, 206-207 (doc. 167) and 214-215 (doc. 169) "unum alfondegam de melioribus et unum furnum et balneum et iadinum bonum").

(51) Constable, *Trade and Traders*, 42.

(52) الإدريسي، كتاب نُزهة المُشتاق، ص562-563.

الأسبوع»[53]. وبعد ستة أشهر، في كانون الثاني/يناير 1150م، منح ابن مَرْدَنِيش الامتيازات نفسها لبيشة مع فُنْدُق في دانية والآخر في بَلَنْسية[54]. كما سعت كلّ من بيشة وجَنَوة في الحصول على امتيازات في إشبيلية، وتُبيِّن العُقُود التجارية الجَنَوية وجود نشاط للتُّجّار الجَنَويين منذ 1164م (رغم أنه ربّما ازدهر النشاط التجاري قبل ذلك التاريخ)[55]. وقّعت بيشة معاهدة أُخرى مع الخليفة الموحّدي يوسف بن عبد المؤمن (1163-1184م) سنة 1167م وفيها وعد بفُنداكو للبيشانيين بإشبيلية[56]. ولكي لا تكون مسبوقة، تقرَّبت جَنَوة إلى حاكم جزر البَلْيار، إسحاق بن مُحمّد سنة 1181م وحصلت على امتيازات تجارية ولكن لم تحصل على فُنْدُق.

وبعد سنوات قليلة من ذلك عاودت مفاوضات جديدة مع ابنه عبد الله بن إسحاق في سنة 1188م وأدّت تلك المفاوضات إلى وعد «بفُنداكو للتُّجّار الجَنَويين أينما أرادوا مع فرن واستعمال الحمّام مرة في الأسبوع»[57]. يعكس تعدّد المعاهدات مع مختلف ملوك الغرب الإسلاميّ لا التغيّرات السياسية والانقسامات التي كانت سائدة في تلك الفترة فقط ولكن أيضاً الديمومة المحدودة لتلك المعاهدات (التي نادراً ما تتجاوز العشر سنين). وقد بيّن إعلان

---

(53) Imperiale di Sant' Angelo (ed.), *Codice diplomatico*, I, 247-249 ("Duos fundicos proprios illorum causa...negociandi et habitare...in eis, unum in Valentia et unum in Denia. Et nemo ex aliis gentibus ibi habitet. Et unum balneum per unamquamque ebdomadum diem.").

(54) Amari (ed.), *Diplomi arabi*, 240.

(55) O. R. Constable, «Genoa and Spain in the Twelfth and Thirteenth Centuries: Notarial Evidence for a Shift in Patterns of Trade,» *Journal of European Economic History* 19 (1990) 655.

(56) M. L. de Mas Latrie (ed.), *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge* (Paris: Henri Plon, 1865) 22 («fondacum in Subilia Pisanis habere concessit»).

أخطأ ماس لتري وقرأ «سوبيليا» Subilia «زُوِيلة» Zouila وهي ضاحية في المَهديّة ولكن «إشبيلية» تبدو قراءة أفضل.

(57) Imperiale di Sant' Angelo (ed.), *Codice diplomatico*, II, 271-273 (doc. 133), II, 341-344 (doc. 177) ("promisit dare Ianuensibus fundicum ubicumque Ianuensibus placuerit et furnum et balneum in unaquaque septimana, per diem unum»).

جَنَوة ولاءها لفريدريك الأوّل وذلك بأن وعدته بمساعدة بَحْريّة ضد ابن مَرْدَنِيش أمير جزر البليار الذي كانت قد أمضت معه معاهدة سِلْم قبل ذلك بسنوات قليلة أي سنة 1149م، مما يعكس سرعة تغيّر التحالفات[58]. وبعد عقدين من الاتفاق مع فريدريك أعاد الجَنَويون تأكيد معاهدة السلم مع حاكم البَلْيار المسلم سنة 1181م حسبما يرونه نافعاً لمصالحهم.

وقد كان التجار الغربيون ناشطين كذلك في موانئ شمال إفريقيا في القرن الثالث عشر من المغرب إلى تونس[59]. كانت مدينة تونس تحت سُلطة الحَفْصِيِّين منذ 1229م إلى الفتح العثماني في القرن السادس عشر. وهي مدينة تتمتّع بموقع استراتيجي هامّ، فهي تراقب مَمَرّاً حسّاساً من ممرّات العبور بين الحَوْضَين الشرقيّ والغربي للمتوسّط. ويَعتبر التجار الغربيون تونس محطّة أساسية بالنسبة إلى أنشطتهم التجارية وسارعوا في الحصول على فَنادق وجُمْلة أُخرى من الحقوق في تلك المدينة[60]. مثلما كان الحال في الأندلس فقد كانت بيشة وجَنَوة سبّاقتين في التوسّع التجاري الأوروبيّ في المنطقة، فهناك ذِكْر لمركز إقامة مُحاط بسور للبيشانيين وعائلاتهم في تونس في معاهدة مُبَكّرة سنة 1157م[61]. وقد ذهب في

(58) *Liber iurium Reipublicae Genuensis*, Historiae Patriae Monumenta, (Turin: Ex Officina Regina, 1854) I (no. 237) cols. 210-211 ("contra sarracenos in toto regno Lupi et regis maiorice et minorice").

(59) المعلومات عن الفنادق (الفُنداكو) الغربية في المغرب نادرة جداً، مع أنه من الأكيد أنها وُجِدت في القرن الثالث عشر. وهناك عَقْدٌ كُتِبَ في سبتة في تشرين الثاني/نوفمبر سنة 1236 كان قد وُقِّع في فنداكو مرسيليا (Louis Blancard [ed.], *Documents inédits sur le commerce de Marseille au moyen âge* [Marseille: Baralatier-Feissat père et fils, 1884-1885] I, 108 [no. 73]).

(60) لقد تمّ تَقَصّي العلاقات بين المسيحيين والأراضي الحَفْصِيّة من قبل برنشفيغ من خلال دراسته المكوّنة من جزءين Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les Hafsides*. See also Ronald Messier, "The Christian Community of Tunis at the time of St. Louis' Crusade, AD 1270," in *The Meeting of two Worlds: Cultural Exchange between East and West during the Period of the Crusades*, ed. Vladimir P. Goss (Kalamazoo, MI: Medieval Institute Publications, 1986) 241-255; and Mounira Chapoutot-Remadi, "Tunis", in Garcin (ed.) *Grandes villes mediterranéennes*, 241.

(61) Amari (ed.), *Diplomi arabi*, 4.

النصف الثاني من القرن الثاني عشر عالم الرياضيات البيشاني ليوناردو فيبوناتشي «Leonardo Fibonacci» وكان طفلاً صغيراً مع أبيه إلى مقرّ الديوان الخاصّ بالتجار البيشانيين في مدينة بِجاية، حيث تعلّم استعمال المِعداد abacus[62]. وبالنظر إلى المفاوضات الأخرى المعاصرة مع مصر وإسبانيا، فإنّ هذه المصادر تشير إلى وجود الجاليات التجارية البيشانية عبر طول المتوسّط في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. ولم تظهر المجموعات الأوروبية الأخرى والفَنادق في تونس إلّا سنة 1220م) خاصّة بعد تولّي أوّل سُلطان حَفْصِي مستقلّ العرش هو أبو زكريا (1229-1249م). وقد اشتهر هذا السُّلطان ببنائه للأسواق والفَنادق للتُّجّار المسلمين ممّا يشير إلى أنّ هذه الفترة هي فترة ازدهار عامّ للمؤسّسات التجارية بفضل الدعم السُّلطاني[63]. كانت فَنادق الغربيين في تونس الحَفْصِيّة متجاورة خارج المدينة الرئيسية وقرب ميناء حَلْق الوادي وقد ظلّوا هنالك حتى الفترة العثمانية.

وبما أنّ بيشة كانت سبّاقة في التفاوض من أجل الحصول على امتيازات تجارية في تونس، فقد قدّم مبعوثو جَنَوة (سنة 1223م) والبُندقيّة (1231م) مطالبهم على أساس المطالب البيشانية السابقة[64]. نقل سفراء البُندقيّة حرفيّاً فصول المعاهدة التي أبرمتها بيشة سنة من قبل، في آب/أغسطس 1230م، حيث حصلت على فُنداكو وكنيسة ومدفن واستعمال الحمّام مرة في الأسبوع وفرن خاصّ. كما طلبت بيشة أن يُسمح لها بتوسيع الفُنداكو بدعوى أنّ الجَنَويين قد حصلوا على مثل هذا الامتياز[65]. تواصلت المُناورات من أجل الحصول على أكثر ما يمكن من امتيازات إلى آب/أغسطس 1234م، حيث وقع تجديد

(62) Leonardo Fibonacci, *Liber abbaci* (dated 1202), in *Scritti di Leonardo Pisano: mathematico del secolo decimoterzo*, ed. B. Boncompagni (Rome: Tipografia delle Scienze Mathematiche e Fisiche, 1857) I.

(63) Dufourcq, "Catalans en Tunisie," 36.

(64) Brunschvig, *La Berbérie orientale*, I, 26-27.

(65) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 299-307 ("fontico...ecclesia et cimeterium...balneum una die hebdomade et furnum proprium...debent augmentari fonticum eorum sicut fonticum Januensium").

كما يمكن أيضاً لدراسة وجود البَنادقة في تونس النظر في: Alberto Sacerdoti, "Il consolato veneziano del regno hafsida di Tunisi (1274-1518)," *Studi Veneziani* II (1969) 531-535.

امتيازات بيشة وسُمِح لها ليس بتوسيع الفُنداكو وحسب، وإنما كذلك ببناء جدار بين فُنداكو البيشانيّين وفُنداكو الجَنَويين حتى لا يتسنّى لأحد من الطرفين التنقُّل من مَبْنًى إلى آخر. كما تذكر معاهدة سنة 1234م كذلك فَنادق البيشانيّين وامتيازاتهم التجارية الأخرى في مُدُن حَفْصِيّة أُخرى مثل المَهْدِيّة وبِجاية وقابِس وصَفاقِس وطَرابلس[66]. ومن الطبيعيّ أن هذه الاتفاقات كانت تناسب كلا الطرفين بما أنها جُدّدت مرة أُخرى في آب/أغسطس 1264م على إثر المفاوضات التي جرت بين بيشة والسُّلطان مُحمّد المستنصر الحَفْصِي (1249-1277م)[67]. وقد ذكر كذلك المؤرّخ الفلورنسي جيوفاني فيلاني (ت 1348م) وهو مؤرّخ متأخّر، أنه رغم أن التجار البيشانيّين كانوا أوّل من حصل على امتيازات تجارية في تونس، فإن ذلك لم يذهب بدون منازع. يزعم فيلاني بأن التجار البيشانيين كانوا يَحْظَوْن بالكثير من التقدير من قبل الأمير الحَفْصِي المُسْتَنْصِر، حتى إنه في يوم من أيام تشرين الثاني/نوفمبر 1252م لاحظ هذا الأخير بريق قطعة نقدية ذهبية فلورنسيّة «florin» (سُكَّتْ في فلورنسا للمرة الأولى في تلك السنة) بين نقود بيشة الفِضّية. أُعْجِب المُسْتَنْصِر كثيراً بجودة الذهب فسأل البيشانيين عن فلورنسا. فأعطوا ردّاً ذامّاً ولكنّ الأمير ألحّ في سؤاله إلى أن عَثَر على تاجر فلورنسي في المدينة قدّم له عرضاً حول أمجاد مدينته. بعد ذلك عرض المُسْتَنْصِر بناء كنيسة وفُنْدُق لإيواء التجار الفلورنسيين في تونس[68]. من الأكيد أن هذه الطُّرْفة موضوعة لأنّه وبالرَّغم من أنّ التجار الفلورنسيين كانوا يمارسون التِّجارة في تونس عندما كان فيلاني يكتب، ولكنْ هناك قليل من الأدلّة حول وجودهم في الأراضي الحَفْصِيّة في القرن الثالث عشر. مع ذلك تُعَبِّر هذه الحكاية عن الواقع وهو أن السلاطين الحَفْصِيّين استهوتهم المكافأة الجِبائيّة المحتملة التي توفّرها المعاهدات مع الدول الأوروبية.

---

(66) Amari (ed.), *Diplomi arabi*, 292-293.

(67) إن النصّ الإيطالي لهذه المعاهدة هو ترجمة عن النصّ اللاتيني السابق له والذي يعود إلى سنة 1234م، وقد نُشر من قِبَل كُلّ من Amari (ed.), *Diplomi arabi*, 295-298، و Mas Latrie, *Traités de paix et de commerce*, 45

(68) Giovanni Vallani, *Cronica di Giovanni Vallani* (Florence: Il Magheri, 1823) II, book 4, chap. 54, 77-78.

بعد حصولهم على فُنداكو وجُمْلة من الامتيازات التجارية الأُخرى في تونس سنة 1231، واصل البنادقة تجديد تلك الحقوق خلال القرن الثالث عشر[69]. وخلافاً لبيشة وجَنَوة لم تَسْعَ البُندقيّة لمواصلة العلاقات مع السلاطين المسلمين في المتوسّط الغربي أو الأندلُس، ونشاطها في تونس لم يكن سوى سلاح ضمن إمبراطوريتها التجارية الشاسعة في المتوسّط الشرقيّ. أعاد البنادقة التفاوُض بشأن تجديد معاهدتهم في نيسان/أبريل 1251م، معبّرين عن رغبتهم في الحصول على فُنْدُق وكنيسة في تونس ولكن على شرط أن لا يدخل أحد الفُنْدُق دون إذن منهم، لأنّ العادة في الفُنْدُق هو أن يكون هناك مكتب خاصّ بالديوانة (الجمارك) في الفندق، كما من حقّهم اختيار قنصلهم ليمارس العدالة بينهم. وأكثر من ذلك، ألحُّوا على أن يُسمح لهم بتوسيع وترميم الفُنداكو والكنيسة كلّما احتاجوا إلى ذلك[70]. تُعيدنا هذه الفقرة الأخيرة إلى الفقرات الأولى من المعاهدات الجَنَوية والبيشانية حيث تَمَّ تجاوز الموقف الإسلاميّ التقليدي المانع لترميم المَباني المسيحية. ويعدّ التأكيد على قُنْصُل خاصّ وعلى مكتب الديوانة (الجمارك) من المطالب الثابتة في منتصف القرن الثالث عشر وسنناقشها لاحقاً في هذا الفصل.

تتضمّن المُعاهدات الجَنَوية مع الحَفْصِيين المطالب والامتيازات نفسها، ولكنّ المعلومات المتعلّقة بفَنادق الجَنَويين ونشاطهم الاقتصادي في تونس قد تمّ إثراؤها من خلال سِجلّات بييترو باتيفوليو «Pietro Battifoglio» الكاتب العَدل الجَنَوي الذي اشتغل بتونس ما بين 1288 و1289م. وقد كان الكاتب العَدْل عنصراً من موظّفي الفُنْدُق، على الأقلّ منذ بداية القرن الثالث عشر وتفترض تشريعات مرسيليا وجود كُتّاب وكُتّاب عُدُول من المسلّمات في سنة 1228م) ولكن تعدّ وثائق بييترو من الوثائق القليلة من نوعها التي وصلت إلينا[71]. تُبْرِز هذه العُقُود أن النشاط التجاري الجَنَوي في تونس كان ضخماً ولم يكن بييترو

(69) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 299-307.

(70) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 452-456.

(71) Méry and Guindon (eds.), *Histoire de Marseille*, I, 352.
هناك إشارة كذلك إلى وجود كاتب من البُنْدقية في مدينة الإسكندرية سنة 1238. (Jacoby, "Les Italiens en Egypte," 83).

سوى واحد من أكثر من اثني عشر كاتباً عَدْلاً يعملون لفائدة جالية جَنَوية شبه دائمة ورُبما كان عدد أفرادها بلغ المئات في أواخر القرن الثالث عشر[72].

تُشير العُقُود التي سجّلها بييترو إلى أنه يوجد فُنْدُقان للجَنَويين في مدينة تونس في أواخر سنوات 1280: الفُنْداكو القديم والفُنْداكو الجديد وكلاهما كان قيد الاستعمال. وكان الجَنَويون قد استقرُّوا بتونس في سنوات 1280م منذ أكثر من نصف قرن وكان عددهم قد تجاوز حجم الفضاء الأوّل[73]. ومثلما فعل البنادقة بالإسكندرية، وجدوا أنّ من الضرورة التوسّع في فُنْدُق ثانٍ يكون حجمه أكبر. فمباشرة بعد وصول سُلْطان جديد إلى السُّلطة سنة 1284م هو عُمَر أبو حَفْص، أقرَّت معاهدةٌ مُمْضاة سنة 1287م تمويلات من الديوان لشراء منازل جديدة يقيم بها الجَنَويون وتوسيع الفُنْداكو الذي يقيمون فيه[74]. أدّت هذه الإصلاحات إلى بناء فُنْداكو ثانٍ يبدو أنه كان مبنى جديداً جداً عندما كان بييترو باتيفوليو يكتب في أواخر سنوات 1280م[75]. في الحقيقة قد يكون التجار الجَنَويون قد انتقلوا إلى الفُنْداكو الجديد في حين ظلّ الفُنْداكو القديم محلاً لنشاطاتهم التجارية. إذ لا نجد إلّا عقدين ممّا سجّله بييترو في الفُنْداكو الجديد في حين أنَّ 80 بالمئة من جُمْلة 133 عقداً التي يتضمّنها دفتره قد سُجِّلت في "فُنْدُق الجَنَويين القديم"[76].

بالرغم من الحديث عن المنافسة التِّجارية التي تُعبّر عنها بوضوح المعاهدات الرسمية، يُشِير العديد من الوثائق إلى أن التجار كانوا يعملون معاً. وكما سبق ذكره، فإن تاجراً من البُنْدقية وآخر من بيشة تعاقدا في فُنْدُق البيشانيين

(72) Felipe Fernández-Armesto, *Before Colombus: Exploration and Colonisation from the Mediterranean to the Atlantic, 1229-1492* (London: Macmillan, 1987) 109; Pietro Battifoglio, éd. Geo Pistarino, *Notai genovesi in Oltremare (1288-1289)*.

(73) لقد برز الفُنْداكو الجَنَويّ سنة 1230م في معاهدة مع بيشة وفي سنة 1236م مع السُّلطان الحَفْصِي أبي زكريا. وقد تمَّ إمضاء معاهدة مُماثلة في أكتوبر سنة 1250م (قبل المُفاوضات مع البُنْدقية بقليل في شهر نيسان/أبريل) مع المُسْتَنْصِر الحَفْصِي وكذلك توجد معاهدة أخرى مع السُّلطان نفسه تعود إلى سنة 1272م (Mas Latrie [ed.], *Traités de paix et de commerce*, 119-123).

(74) Mas Latrie (ed.), *Traités de paix et de commerce*, 126.

(75) Pistarino (ed.), *Notai genovesi in Oltremare (1288-1289)*, xxiv.

(76) Pistarino (ed.), *Notai genovesi in Oltremare (1288-1289)*, 130-142.

بتونس سنة 1286م للقيام بنشاط مشترك مع أن التاجر البُنْدقي كان بمقدوره أن يوجّه الدعوة إلى شريكه البيشاني لإضفاء الطابع الرسمي على عَقْده في فضائه التجاري الخاصّ[77]. كما أنّ بييترو باتيفوليو كان يمارس نشاطه في فَنادق الجاليات الأُخرى عند الاقتضاء. فقد سَجَّل عقدين "بفُنْدُق تجار مرسيليا" وآخر "بفُنْدُق القَطَلانيّين". فمن الواضح أنه كان يتنقّل بين مختلف الفَنادق لقضاء شؤون زبائنه من الجَنَويين على الرغم من أنه كان يقوم بجُلّ نشاطاته في المؤسّسات الجَنَوية. وفي كلّ واحدة من هذه الحالات الثلاث فإنّ المسألة المَطرُوحة كانت تشمل جَنَويين إلى حدّ ما. هناك حالة بشأن عَقْد يتعلّق بسفينة اكتراها عدد من التجار من مايُورْكة وطَرْطُوشة وجَنَوة، في حالة أُخرى تمّ التسجيل فيها في فُنْدُق تجار مرسيليا تتعلّق بقرض بين تاجر من فلُورنسا وآخر من جَنَوة والعقد الثالث تمّ تسجيله في مكان آخر يتعلّق بنزاع حول سِلَع تمّ شَحْنها على سفينة من جَنَوة إلى تونس[78].

يبدو أنّ أهمّ الفَنادق في تونس في تلك الفترة أو الفَنادق الأكثر نُفُوذاً هي الفَنادق التي يملكها تجار مملكة الأراغون. فأوَّل "فُنْداكو للقُطَلانيّين"، كما كان يُسَمَّى، كان قد أُنشئ في تونس سنة 1253م. فقد كانت وراء تجار بَرْشلونة وغيرهم من المُدُن الأراغونية ـ القَطلانيّة قوة سياسية وبحرية أكثر من البيشانيّين والجَنَويين والبَنادقة، تجعلهم يَتمادَوْن أكثر في المُطالبة بامتيازات تجارية في الأراضي الحَفْصِية. فبحلول منتصف القرن الثالث عشر كان ملك الأراغون جيمس الأوّل «James I» معروفاً بغزواته فقد استولى على كثير من المناطق بما في ذلك جُزُر البَلْيار وبَلَنْسية بعد حملات عسكرية خاضها ضد الحُكّام المسلمين. وفي فترة لاحقة من القرن توجّه الأراغونيون نحو الشرق عبر التوسّع السياسي في صِقِلّية وغيرها من مناطق الحوض الغربي للمتوسّط. وفي الوقت نفسه كان التجار من مملكة الأراغون يوسّعون من دائرة نشاطهم التجاري منافسين الإيطاليين في فُرَص المُتاجرة والحصول على الامتيازات في الإسكندرية وتونس وغيرهما من

(77) Abulafia, "A Tyrrhenian Triangle," 61.

(78) Pistarino (ed.), *Notai genovesi in Oltremare (1288-1289)*, 56-57 (doc. 37); 159-160 (doc. III); 148-150 (doc. 103).

الجهات الأُخرى، وكان مجال النشاط مساوياً في مجال مِصْر التي كانت في مَنْجًى من السفن الأراغونية في حين كانت المملكة الحَفْصِية عُرْضةً للخطر.

بحياكتهم لنسيج دبلوماسي مُعَقّد مَبْنيّ على الوعود والتهديدات والابتزاز المالي كان مبعوثو الأراغون يفاوضون من أجل نوع من الفَنادق الخاصّة بالتجار الأراغونيين والقَطَلانيّين مختلفة كثيراً عن تلك التي كانت للجَنَويين وغيرهم من الإيطاليين. وبالرغم من أنّ الفَنادق القَطَلانيّة في تونس وبِجاية تشتغل بالطريقة نفسها التي تشتغل بها الفَنادق الأُخرى في القرن الثالث عشر، إذ توفّر أرضية للتّجارة وسكناً آمناً للتُّجّار القَطَلانيين، فقد كانت تُسَيَّر بطريقة مُنفردة. ولئن كانت أغلب الفنادق (الفنداكو) في المُدُن الإسلامية مِلْك الحكومات الإسلامية مثل الفَنادق العادية، فقد كان واضحاً أنّ جيمس الأوّل كان يعتبر فَنادق القَطَلانيّين في تونس وبجاية جزءاً من خزانته المَلَكيّة فكان يُسَيِّرها بالطريقة نفسها التي يُسَيِّر بها الفَنادق الموجودة في مملكته في بَلَنْسية وقَطَلونيا، ويتحدّث عنها بالأسلوب نفسه على أساس أنها "فَنادقُه". وقد يكون هذا النمط واحداً من الأمثلة الأولى للمُستعمرات التّجارية الأجنبية في العصر الحديث، والتي لم تكن فقط مسكونةً بالأوروبيّين وإنما كذلك مُسَيَّرة من قِبَلِهم. ولهذا السبب ستتمّ مناقشة الفَنادق القَطَلانيّة في الفصل التالي ضمن الحديث عن المُدُن الإسبانية المسيحية الحديثة.

القَناصل وإدارة فَنادق المسيحيين في المُدُن الإسلامية

رغم أنّ مباني الفَنادق كانت عادة مِلْك الحُكّام المسلمين وتحت رعايتهم فهم الذين يتكفّلون بمصاريف ترميم الأسوار والأسْقُف ويضمنون أنّ أبوابها قد أُغلقت في الأوقات المناسبة ويراقبون شؤونها المالية، فقد كانت مسيّرة من قِبل المسيحيين الغربيين. وهناك قليل من المواد التي تتعلّق بموظّفي الفَنادق في القرن الثاني عشر، ومن الممكن أن تكون هذه المنشآت في بداياتها مُفْتقرة إلى موظّفين دائمين ومقيمين لفترة طويلة من الزمن[79]. ولكن مع تنامي التّجارة وتعدُّد المعاهدات الدبلوماسية في بداية القرن الثالث عشر ظهرت الحاجة إلى موظّفين دائمين في الفُنْداكو من إداريين ورجال دين وكُتّاب عدول ومحاسبين وخَبّازين وخدم.

(79) Jacoby, "Les Italiens en Egypte," 80.

وقد كان القُنْصُلُ أَهَمَّ المُوَظّفين في الفُنْداكو، وهو إمّا مُعيَّن من قِبَل المدينة الأصلية وإمّا ينتخبه التجار من بينهم، وهو المسؤول عن المبنى وكلّ ما في داخله. فهو يلعب دور الممثّل لدولته في كلّ ما له علاقة بالحكومة الإسلامية وهو مسؤول عن الحياة اليومية في الفُنْداكو وهو الذي يمارس القضاء داخل الفُنْداكو. وهذه الوظيفة تشبه وظيفة ممثّل أهل الذِّمّة والمجموعات التجارية داخل العالم الإسلاميّ وفي آخر الأمر مثل وظيفة السَّفِير، ولكنّها مختلفةٌ عن هاتين الوظيفتين. فلم يكن القُنْصُل من رَعايا الدولة الإسلامية مثلما هو الشأن بالنسبة للمسيحيين المحلّيين والجماعات اليهودية، كما لم يكن موظّفاً مأجوراً لدى السُّلطات الإسلامية مثلما هو الشأن بالنسبة إلى وكيل التجار كما أنه لا يتمتّع بسُلطات وبحصانة السَّفير في الفترات اللاحقة. كما يختلف قُنْصُل الفُنْداكو عن الإداريين المُسَمَّين بنفس الاسم في بعض المُدُن المسيحية: كالقَناصل الذين كانوا يشكّلون مجالس تَسْيير الدُّوَل-المُدُن الإيطالية أو "قُنْصُل التجار" و"قُنْصُل البحر" مثلما هو الشأن في برشلونة أو غيرها من مُدُن أُخرى[80].

أصبح من المُعْتاد أن تُفرد المُعاهدات التجارية بين الدول المسيحية والإسلامية فصولاً تتعلّق بِصَلاحيّات القُنْصُل كما تُدرج فِقْرات تتعلّق بحقوق التجار في الفُنْداكو وغير ذلك من الامتيازات بصورة مُفَصَّلة. توجد في بعض الأحيان ترتيبات تتعلّق بالقُنْصُل ولكن دون ذِكْر للفُنْداكو ممّا يعني أنه يمكن أن يوجد قُنْصُل دون أن يكون هناك فُنْداكو ولكن من النادر أن نجد فُنْداكو بلا

(80) لقد تَطَوَّرت هذه الدواوين في جنوب أوروبا في الفترة نفسها بالضبط بالتوازي مع عودة القوانين الرومانية. ويجب ربطها بذلك إلى حدّ ما، رغم أنه لم يكن ممكناً إعادة بنائها. ويجعل تواصل لفظة قُنْصُل من الصعب في بعض الأحيان تمييزها من استعمال إلى آخر. وعندما يتم ذكر لفظة قُنْصُل عادة في المُدُن في الخارج يكون ذلك تعبيراً عن قَناصل الفَنادق أو قناصل الجاليات الغربية في الخارج. فقد بَيَّن داود اليعقوبي [Jacoby] أن بعض الحالات يعتريها الغُموض مثلما هو الشأن بالنسبة إلى بعض القناصل الجَنَويين العائدين من مصر إلى جَنَوة سنة 1204 الوارد ذكرهم في الحَوْلِيّات الجَنَويّة *Annali Genovesi di Caffaro e de'suoi continuatori* [Genoa: Istituto Sordo-Muti, 1901] II, 86). فقد يكون هؤلاء مبعوثين عائدين إلى بلادهم بعد أداء مُهِمّة محدودة أو بعض القَناصل العائدين بعد فترة طويلة من العمل في فُنْدُق الإسكندرية (Jacoby, "Les Italiens en Egypte," 86).

قُنْصُل يُشْرِف عليه. تُشير بعض المصادر من النصف الأوّل من القرن الثالث عشر إلى أن وظيفة القُنْصُل ما زالت غير مستقرّة بعد في تلك الفترة إذ تُبرهن عن وجود بعض التَّذَبْذُب في تحديد وظيفة وواجبات وأجْر هذا الموظّف.

تجد في الوقت نفسه إشارات إلى بعض الوظائف الأُخرى- مثل البايل «*baillius*» والفُنْدُقاني «*fundigarius, fundicarius*» ونائب القُومِس «*vicecomitatus*» وحارس الفُنْداكو وآخرين- التي كانت تَتَداخل في الأصل مع القُنْصُلية. ولكن أصبحت هذه الوظائف تدريجاً مختلفة أو انحلّت لَمّا أصبحت وظيفةُ القُنْصُل في موقع مُهَيْمِن في أواخر القرن الثالث عشر. فقد حصل سُفَراء البُندقيّة من السُّلطة الأيّوبيّة سنة 1229م في حَلَب مثلاً على أن يكون فُنْدُقهم تحت إشراف البايل «*baillius*» وتكون له سُلطة قضائية على البنادقة. وكما سنرى في نهاية الفصل هناك مستعمراتُ بُندقيّة شرقيّة أُخرى كانت تحت إشراف بايل «*baillius*» خصوصاً في الإمبراطورية البيزنطية[81]. وبعد عشر سنوات من ذلك في سنة 1238م، أفضت المُفاوضات بين البُندقيّة ومِصْر إلى جعل مُراقبة الفُنْدُق ومُمارسة القَضاء داخل الفُنْدُقَين البُنْدقِيَّين بالإسكندرية بما في ذلك غلق أبوابهما وفتحها، من مشمولات فُنْدُقانِيَّيْن (two fonticarii) وهو ما سيكون في فترة لاحقة من مهامّ القُنْصُل[82].

تظهر وظيفة المُشْرِف على الفُنْدُق «*fundicarius*» في سِياقات مختلفة عادةً ما تُفيد أنه كان مسؤولاً بدايةً عن الشؤون الماليّة داخل المؤسّسة. ففي سنة 1289م، على سبيل المثال، كان من واجبات المُشْرِف على فُنْدُق الجَنَويين بتونس جمعُ كلّ المداخيل الراجعة إلى مدينة جَنَوة" ووظيفته كانت خاضعة للقُنْصُل بصورة واضحة[83]. في بعض الأحيان خلال منتصف القرن الثالث عشر، كانت وظيفة المشرف على الفُنْدُق تتداخل مع وظيفة القُنْصُل، وذلك ربّما يعني أنهما في

(81) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 275-276. لاحظ دونالد كِلَر [Donald Queller] أنَّ "المسألة معقّدة" بشأن ما إذا كان مركز البايل أقرب إلى مركز سفير أو قُنْصُل (Donald E. Queller, *Early Venetian Legislation on Ambassadors* [Geneva: Librairie Droz, 1966] 31).

(82) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 336-341.

(83) Pistarino (ed.), *Notai genovesi in Oltremare (1288-1289)*, 182-183 (doc. 128).

مرحلة لم تَتحَدَّد فيها معالمهما بعد، بإدماج تقليدين ثقافيين بينما تطوّر الفُنْدُق ليصبح فُنْداكو. وهكذا فإنّ وظيفة القُنْصُل قد تمّ جلبها من التقاليد اللاتينية في حين يبدو أنّ كلمة الفُنْدُقاني «fundicarius» مشتقّة من كلمة فُنْدُقيّ العربية وهي تعني الشخص الذي يُشْرِف على الفُنْدُق. يبدو منطقياً، إذن، أنْ كان القُنْصُل مرتبطاً دائماً بسُكّان الفُنْداكو الأوروبيّين في حين أنّ وظيفة المُشْرِف على الفُنْدُق كانت أكثر ارتباطاً بتنظيم التّجارة داخل الفُنْداكو وخارجه.

في سنة 1228م يشير قرار صادر عن مجلس مدينة مرسيليا أنه يجب أن يكون المُشْرِفون على الفَنادق في سَبْتة وبِجاية مُجَهَّزين بأدوات وزن جيّدة وقانونية حسبما تقتضيه العادة لوزن البضائع عند إنزالها من السفن[84]. وتؤكّد في فترة لاحقة، حوالى سنة 1255م قرارات أُخرى من مرسيليا الطبيعة العَمَليّة لهذه الوظيفة وتفصلها عن وظيفة القُنْصُل مع الإشارة إلى "أنه لا يمكن للمُشْرِف على الفُنْدُق أن يبيع الخمر أو استدراج بيعه إلّا حسب القواعد التي يحدِّدها القُنْصُل". ويؤدّي خَرْق القواعد التي يقررها القُنْصُل إلى الفصل عن وظيفة مُشْرِف على الفُنْدُق. من جِهَة أُخرى ألحَّت قرارات مجلس مدينة مرسيليا على عدم تدخّل القُنْصُل في مهامّ المُشْرِف على الفُنْدُق ولا في أيّ ممّا عُهِد به إلى هذه الوظيفة من قِبَل أعضاء مجلس مدينة مرسيليا[85].

يمكن لهذه القرارات أن تتفاوت مثلما يبدو ذلك من خلال رسالة صادرة من بيشة (بيزا) بتاريخ سنة 1245م تؤكِّد تعيين المسمّى ياكوبو ابن غِيدو بُولكينو «Jacopo Son of Guido Pulchino» في وظيفة قُنْصُل ومُشْرِف على فُنْدُق الإسكندرية" لمدّة ثلاث سنوات تبدأ منذ وصوله إلى مصر. ولكن هذا التداخل الوظيفي الذي يتناقض مع قرارات مدينة بيشة التي تفصل بين الوظيفتين قد يكون بسبب انعدام المرشّح الجيّد لمثل هذا العمل[86]. كانت بيشة في بداية القرن الثالث عشر قد أَقَرَّتْ شروط اختيار القناصل في ما وراء البحار مؤكّدة على أن أيّ قُنْصُل يجب أن يكون قد وُلِد في مدينة بيشة أو في منطقتها وعلى أن ينتخب

(84) Méry and Guindon (eds.), *Histoire de Merseille*, I, 352.

(85) Méry and Guindon (eds.), *Histoire de Merseille*, II, 10, III, 79-80.

(86) Otten-Froux, «Les Pisans en Egypte et à Acre,» 172-173, 167-168.

التجار البيشانيون من بينهم كلّ ستة أشهر قُنْصُلاً جديداً ملائماً حسب رغبتهم. وهذا القانون، مثلما بَيّنَ دافيد جاكوبي، يفترض وجود جالية كبيرة إلى حدٍّ ما يُمكن الاختيار منها، خاصّةً إذا كان عليهم أن يختاروا مُرَشَّحَيْن كلّ سنة[87]. في سنة 1245، وبعد انتخاب ياكوبو بولكينو وقع التمديد في مدّة الوظيفة إلى سنتين، ولكن على شرط أنْ لا يُعاد انتخاب القُنْصُل إلّا بعد مرور عشر سنوات على الانتخاب السابق له في الوظيفة[88].

تواصل التفاوض بشأن شروط الوظيفة ومدّتها طوال القرن واختلف ذلك من فُنْداكو إلى آخر. وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر أصبح القُنْصُل هو الموظّف البارز الأكثر ارتباطاً بالفُنْداكو. ستفتح المَرْحلة الجديدة من المُفاوضات الدبلوماسية مع المَماليك بعد 1250م (ستُناقش في الفصل الثامن) ونهاية الإمارات الصَّلِيبية سنة 1291م، مرحلة من المسؤوليات الجِدِّيّة والكبيرة بالنسبة إلى القَناصل. هذه الواجبات بُيِّنَت بوضوح في تخويل مَنَحَهُ جيمس الأوّل ملك الأراغون للمجلس البلدي ببرشلونة في آب/أغسطس 1266م من حقّ تعيين القَناصل في مصر والشام "حيث يكون لهؤلاء النُّفُوذ القَضائي المُطْلَق في كلّ الميادين بالأمر والتسيير والإجبار والمُساعدة والمُعاقبة والقيام بكلّ شيء لفائدة رعايانا الذين يصلون بواسطة السُّفُن من وراء البِّحار أو المُقِيمين بتلك الأراضي"[89]. كان مطلوباً من التجار القَطَلانيّين أن يُطيعوا قُنْصُلهم في كلّ الميادين طوال إقامتهم في الخارج[90]. تؤكّد هذه الضَّوابط على العلاقة القضائية

(87) Jacoby, "Les Italiens en Egypte," 82.

(88) Jacoby, "Les Italiens en Egypte," 85.

(89) Antonio de Capmany y de Monpalau, *Memorias históricas sobre la marina, comercio y artes de la antigua ciudad de Barcelona* (Madrid: A. de Sancha, 1779-1792; annotated re-edition Barcelona: Cámara Oficial de Comercio y Navegación, 1962) II, 35 («...ordinandi, gubernandi, compellendi, ministrandi, puniendi...»). انظر كذلك Amada López de Meneses, «Los consulados catalanes de Alejandria y Damasco en el reinado de Pedro el Ceremonioso,» *Estudios de Edad Media de la Corona de Aragón* (Zaragoza) 6 (1956) 83-183. قبل ذلك كان القَناصل القَطَلونيون يُعيَّنون من قِبَل الملك نفسه لولاية مُدَّتها سنتان يكون لهم فيها نُفُوذ على الفُنْداكو مثلما هو مُبيَّن في معاهدة 1266م.

(90) López de Meneses, «Los consulados catalanes,» 88.

بين القُنْصُل وتجار بلاده وتُشير في هذا المستوى إلى الأهمّية الكبيرة لواجبات القُنْصُل في تنظيم ومراقبة الفُنْداكو وكلّ مَنْ هو في داخله.

وقد تزايدت أهمّية القُنْصُل ليصبح مُمَثِّلاً لبلاده في علاقاتها بالسُّلُطات الأجنبية، فهو ليس مُشْرِفاً إدارياً على الفُنْداكو فقط، فقد أصبح مثلاً من المألوف بالنسبة إلى القُنْصُل في مصر أن يلتقي السُّلطان المملوكيّ ومن حقّه أن يسافر إلى القاهرة كلّ ستة أشْهُر للنظر في ما يتعلّق بجاليته. وتمتّع بالامتياز نفسه كذلك قُنْصُل الجَنَويين في تونس في أواخر سنوات 1280م إذ تُشير وثائق الكُتّاب العدول إلى أنه طلب مرتين تدخُّل السُّلطان للنظر في خَرْق المعاهدات الجَنَوية الحَفْصِية[91]. ويصف فيلكس فابري بعد قرنين من الزمن، القناصل الغربيين في الإسكندرية على أنهم سُفَراء ووُسَطاء:

يوجد في كلّ فُنْداكو مَسْؤول من البلد الذي يمارس معه [الفُنْدُق] التّجارة وهو يُسمّى قُنْصُلاً. وقَناصل الفُنْداكو هم أصحاب سطوة. ويعود إلى كلّ قُنْصُل منهم أن يقدِّم المشورة ويخفّض الضرائب على البضائع ويهتم بتموين الفُنْداكو ويحافظ على السِّلْم وأن يتعاون مع القناصل الآخرين من أجل تنمية تجارة بلادهم.

وقد تدعّمت وظيفة القُنْصُل بحلول سنة 1480م وأصبح نُفُوذُها ثابتاً[92].

وكمقابل لجهودهم، يحصل القَناصل في القرن الثالث عشر عادة على نسبة مئوية من المداخيل ومن الرسوم عن البضائع التي تمرّ عبر الفُنْداكو الذي يُسَيِّرُونه. وتختلف الترتيبات في هذا الشأن وقد يكون ذلك انعكاساً لتَغَيُّر التوازن السياسي والتّجارة الجِهَوِيّة وطُموحات القُنْصُل. وكان كلّ من الحُكّام المسلمين المحلِّيين والدول التجارية الغربية يستفيد من نظام الفُنْداكو وكان القَناصل (على الأقلّ نظريّاً) يجمعون المداخيل للأخيرين. ومن الواضح أنه في بعض الحالات تكون وظيفة القُنْصُل موضوع لَزْمة يُمنَح فيه القُنْصُل حقّ جمع المداخيل من الفُنْداكو مُقابل نصيب محدّد أو نسبة مئوية يدفعها إلى بلده الأصلي. وفي حالات

(91) Fernández-Armesto, *Before Colombus*, 110.

(92) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae*, III, 162-163 [130b]; *Voyage en Egypte*, II, 693-694.

ستُناقش واجبات القناصل في مصر المملوكية بالتفصيل في الفصل الثامن.

أخرى ليس هناك ذِكْرٌ لذلك المُقابل، وهو ما يمكّن من الاستنتاج بأن الوظيفة القُنْصُلية كانت وظيفة براتب. فقد سَمَح سنة 1264م جيمس الأوّل لقُنْصُل القَطَلانيّين بالإسكندرية بفرض ضَرِيبة بسيطة "على بضائع تجارنا الذين يَصِلُون إلى الإسكندرية ويُقيمون في الفُنْداكو"[93]. وبعد عقدين ناقش خلال شهري نيسان/أبريل وأيار/مايو سنة 1281م، المجلسُ الكبير بالبُندقيّة تحديد مدّة القُنْصُلية ورواتب قناصل البُندقيّة بتونس، وتعيينهم بالتالي مُدّة سنة ومنحهم "ثُلثي دخل الفُنْداكو، والفُرْن والحانة ويعود الثُّلث المتبقّي إلى مجلس المدينة لينفق على إصلاح الفُنْداكو... والأموال التي يجمعها [القُنْصُل] من الغرامات يجب أن تُوضع على ذمّة إصلاح الفُنداكو حسب ما يراه مناسباً".

تُشير المصادر في القرن الرابع عشر إلى تعريفات ورسوم مُتنوّعة تتعلّق بالفُنْداكو تُدْفَع إمّا للقُنْصُل نفسه وإمّا إلى غيره من أعوان الفُنْداكو وإمّا إلى السُّلطة الإسلامية. ففي سنة 1335م سمحت مدينة بَرْشَلونة بأخذ 1 بالمئة (لعلّها مثل ضريبة 1264م) على قيمة البضائع المَجْلُوبة من وإلى فُنْداكو القَطَلانيّين في الإسكندرية لنفقات القُنْصُل[94]. وقد كان التجار مَثَلُهم مَثَلُ البضائع خاضعين لدفع رسوم، وقد ضمَّ دليل التجار القَطَلانيّين الذي يعود إلى القرن الرابع عشر رسماً (أو ربّما ضريبةً على الرؤوس) تُسمَّى ضَرِيبة الفُنْداكو يدفعها كلّ تاجر يصل من دمشق إلى الإسكندرية[95]. تُشير المعلومات المتأخّرة من القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر إلى تغيير أصبح يحصل القناصل بمقتضاه على مُكافأة ليس من حكوماتهم ومن الفُنْداكو فقط وإنما كذلك من السُّلْطان المَمْلُوكيّ[96].

---

(93) López de Meneses, «Los consulados catalanes,» 88.

(94) López de Meneses, «Los consulados catalanes,» 94.

(95) Miguel Gual Camarena (ed.), *El primer manual hispanico de mercaderia (siglo XIV)* (Barcelona: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1981) 132.

(96) لقد كان دفع أجور القناصل من قِبَل المماليك ابتكاراً في القرن الخامس عشر وستُناقش في الفصل الثامن. [المترجم: لقد وجدت ظاهرة حصول القناصل الأجانب على رواتب من السُّلطة المملوكية منذ أواخر القرن الثالث عشر. فقد ورد في مداولات مجلس مدينة البُنْدقية بتاريخ 8 نيسان/أبريل 1278م قرار بعدم دفع رواتب القناصل الذين يختارهم التُّجّار وذلك على خلفية تحريم البابا للتِّجارة مع العالم الإسلامي وعدم انصياع التُّجّار =

كذلك كان القناصل يتمتّعون بمصادر أُخرى للدَّخْل بما أنه كان مَسْمُوحاً لهم استيراد وتصدير البضائع عبر الفُنْداكو لحسابهم الخاصّ وكذلك من خلال فرضهم مبالغ باهظة على المقيمين مقابل السَّكَن والطعام وخَزْن السِّلَع(97). اشتكى جورجيو غوتشي «Giorgio Gucci» وهو حاجّ إيطالي سنة 1384م من الغَلاء الذي اعترضه في الإسكندرية بما في ذلك: "دفع كلّ واحد مِنّا دوقاً (عُمْلة البُنْدقية) إلى القُنْصل... الذي أقمنا عنده؛ ودفعنا ثمانية دوقات مقابل ما قدّمه لنا من الخَمْر والبسكويت طوال إقامتنا معه"(98). ويؤكّد بعده مُسافر آخر هو سيمونه سيغولي «Simone Sigoli» ذلك بقوله "دفعنا دوقاً على الرأس للقُنْصُل الذي يعتني بالحَجِيج والذي وفّر لنا الإقامة" ويُضيف مُتذمّراً "إن هذا المبلغ لم يكن يشمل الفراش أو أيّ شيء آخر"(99). وقد لاحظ عديد من الحُجّاج الآخرين الذين أقاموا في فَنادق بالإسكندرية، بما في ذلك فيلكس فابري، ارتفاع تكاليف الطَّعام والسَّكَن. وفي حالة فيلكس، فإنه قد سُومِح بالدَّيْن بعد توسّط زوجة القُنْصُل مشيرة إلى فقره وإلى كونه رجل دين(100).

وبالإضافة إلى القُنْصُل والمُشْرِف على الفُنْداكو كان للفُنْداكو موظّفون آخرون، بعضهم كان في خدمة القُنْصُل في حين كان البعض الآخر يقوم بعدة مهامّ تتعلّق بالمبنى وشؤونه. ففي سنة 1281م سُمِح لقناصل البُندقيّة بإحضار قَسّ وأربعة من الخدم وجوادين يحملونهم معهم عندما يذهبون لتسلّم وظيفتهم(101). قد كان

= البنادقة لذلك القرار. انظر F. Thiriet, *Délibérations des assemblées vénitiennes concernant la Romanie*, I-II, Paris - la Haye, 1971, p.38, document ñXLVIII، ومقالنا الوارد في بيبليوغرافيا العمل موضوع الترجمة، وبالتالي يصعب تأريخ هذه الوضعية بالقرن الخامس عشر].

(97) Mas Latrie (ed.), *Traités de paix et de commerce*, 206-207.

(98) Lionardo di Niccolò Frescobaldi, Giorgio Gucci, and Simone Sigoli, *Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine, and Syria in 1384*, trans. T. Bellorini and E. Hoade (Jerusalem: Franciscan Press, 1948) 150, 153.

(99) Simone Sigoli in Frescobaldi et al., *Visit to the Holy Places*, 166.

(100) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae*, III, 203-204 [144a]; *Voyage en Egypte*, II, 771-772.

(101) Mas Latrie (ed.), *Traités de paix et de commerce*, 206.

حضور القسّ بصفة خاصّة هامّاً بما أنّ المعاهدات التجارية تضمن عادة للجاليات الأوروبية الحقّ في كنيسة. فالتجار المسيحيون اللاتينيون يحتاجون إلى قِسّيس وكنيسة أو مُصَلّى ليس لتسهيل القيام بالفرائض الدينية اليومية وحسب ولكن لمساعدة المُحْتَضِر ودفنه بصورة لائقة. ويشهد أدب الرِّحلة وروايات التجار والمُعاهدات الدبلوماسية (بفصول تؤكّد أنه على القُنْصُل حماية حقوق أيّ تاجر يموت بلا وَصِيّة) على أنّ الموت في أرض غريبة كان من الفَرْضِيّات الحاضرة باستمرار في الأذهان. وقد كان القِسّيسون اللاتينيّون قلّة في العالم الإسلاميّ ولا يوجدون إلّا في الفُنْداكو أو ضمن الحَجِيج أو في صُحْبة الجيوش المسيحية[102]. في سنة 1215م كان يعيش في فُنْدُق البيشانيّين بالإسكندرية قَسٌّ وخادم من خُدّام الكنيسة وكان الرجلان قد أُعْفِيا من الضريبة على الرؤوس. ولأنّ هذه الضريبة لم تكن لتُفْرَض في كلّ الحالات على المقيمين لمدّة قصيرة، فإعفاؤهم الصريح يعني أنهما كانا مرتبطين بفُنْداكو البيشانيين لفترة تتجاوز السنة[103]. وهناك قَسّ بيشاني آخر كان ناشِطاً في تونس سنة 1240م، عندما سُمِحَ له بِمَسْك دُكّان لبيع الأدوية وهو جزء من الفُنْداكو البيشاني ولكنّه ملاصق لِسُوره من الخارج[104]. وتذكر معلومات متأخّرة تعود إلى سنوات 1259م و1271م أنّ القسّيسَيْن البيشانيين بتونس وبجاية كانا يُعَيَّنان من أُسْقُف بيشة مباشرة، الذي كانا يدينان له بجزء سنويّ من دَخْلِهما. وهناك ترتيبات منذ بداية القرن قد تكون شبيهة بذلك[105].

لم يكن لكلّ فُنْداكو غَرْبِيّ قِسّيسه الخاصّ به، وإنما كان القساوسة

(102) تتركّز المناقشة التالية على قَساوِسة تونس والإسكندرية. وكان في أقصى الغَرْب في المَغْرِب الأقصى عدد قليل من رجال الدين اللاتين في سَبْتة وربّما كذلك في مُدُن أُخرى، انظر:
Jeronimo de Mascarenhas, *História de la ciudad de Ceuta* (Lisbon: Academia das Sciencias de Lisboa, 1918) 48-53; and Charles E. Dufourcq, «Les Relations du Maroc et de la Castille pendant la première moitié du XIII siècle,» *Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb* 5 (1968) 47, 49.

(103) Amari (ed.), *Diplomi arabi*, 286, article 13; Jacoby, "Les Italiens in Egypte," 86.

(104) Mas Latrie (ed.), *Traités de paix et de commerce*, 35.

(105) Mas Latrie (ed.), *Traités de paix et de commerce*, 37, 47. See also Messier, «The Christian Community of Tunis,» 249.

الموجودون يُقَسِّمُون نشاطهم بين مختلف الجاليات التجارية. فقد ذكر فيلكس فابري أنّه ذَهَبَ إلى فُنْدُق بُنْدُقيّ لحضور الصلاة لأنه لا يوجد قساوسة في الفُنْدُق القَطَلاني حيث يقيم. وقد أشرف قِسّيس البنادقة على وفاة أحد رفاق فيلكس، كونت سولم «the count of Solm» الذي تُوُفِيّ ودُفِن بالإسكندرية(106). وقدّم قَسّ الجَنَويين بتونس الخدمة نفسها لامرأة توفّيت في فُنْدُق مرسيليا سنة 1289م(107).

وهذا الأخير كان تيالدوس «Tealdus»، وكان قِسّيس كنيسة القدّيسة مريم «Santa Maria» الموجودة في الفُنْداكو الجَنَوي القديم بتونس. وقد ذُكِر اسمه كشاهد أو كطَرَف في العديد من العُقُود التي حَرَّرها الكاتب العدل بيترو باتيفوليو في الفُنْداكو. ومن اللافت للنظر أنّ تيالدوس نادراً ما يظهر في وظيفة القَسّ في هذه الوثائق. ولكنّه حضر كشاهد في ثمانية عشر عَقْداً (يُفْتَرض أنه كان في متناول اليد عند تحريرها)، وفي خَمْسة عُقُود أُخرى قَبَض أو سَلَّم أموالاً تُرِكَت في ذِمَّته بوصية وفي عَقْدَين آخرين يتدخّل في شؤون الفُنْداكو، فمَرّةً عُهِدَ إليه بمِفتاح مخزن الخَمْر على إثر خلاف وفي الثاني قدّم شهادة في شأن الاستيلاء غير المشروع على حُمُولة من الزَّيْت(108).

كما أنه من اللازم على الخبّازين والكُتّاب العدول وغيرهم من العاملين توفير الحاجات اليومية لمَبْنَى الفُنْداكو ولساكنيه.

ولم يكن الحِرَفِيُّون جزءاً من موظّفي الفُنْدُق الرّسميين ولكنّهم كانوا عادة من الأوروبيّين وليسوا من المحلّيين. فمُداولات مَجْلس مدينة مَرْسيليا سنة 1228م مثلاً، تُظْهِر أنّ المُجمَّع الفُنْدُقي يمكن أن يشمل العديد من الدَّكاكين ووَرْشات الحِرَفِيين، مثلما يشمل المخازن وغُرَف النوم المرتبطة عادة بأماكن الإقامة. وكان يجب أن تكون هذه المَرافق الإضافية تحت نظر المُشْرِف على الفُنْدُق الذي كان مسموحاً له بأن يؤجّر دُكّاناً لمدّة سنة للخِيَاطة ودُكّاناً آخر لإسكافيّ ودُكّانَيْن

(106) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae*, III, 22 [81b], 32 [85b], 199-200 [142b-143b], *Voyage en Egypte*, II, 406, 428, 764-767.

(107) Pistarino (ed.), *Notai genovesi in Oltremare (1288-1289)*, 11-13 (doc. 6).

(108) Pistarino (ed.), *Notai genovesi in Oltremare (1288-1289)*; Tealdus appears in twenty-six documents (nos. 1, 3, 6, 8-11, 14, 18-19, 35-36, 51-52, 55, 60, 61-62, 78-79, 83, 92, 97, 104, 124, and 131).

آخرين للفَرّائين. وإذا كان يوجد حقاً فَرّاؤون آخرون أو خَيّاطون أو إسْكافيون من بين مُواطني مرسيليا إضافة إلى ما سَبَق ذِكْرُه من الفَرّائين والخَيّاطين والإسْكافيين يمكنهم أن يشتغلوا في الدكاكين المذكورة ويمكنهم القُدُوم إلى الفُنْداكو وبالتالي يُسمح لهؤلاء الفَرّائين وغيرهم من الحِرَفِيين أن يأتوا مُباشرةً ومَجّاناً إلى الفُنْداكو المذكور بغرض التِّجارة وممارسة نشاطهم، وليس للعمل في دكاكين المسلمين... على أن عمل هؤلاء في الفُنْداكو المذكور في المناطق المذكورة بهذه الطريقة لا يجب أن يكون عائقاً للتُّجّار الموجودين بذلك الفُنْداكو[109].

ومثلما هو الشأن بالنسبة إلى الخَبّازين الأوروبيّين فإنّ وجود الخَيّاطين الغربيين والفَرّائين والإسْكافيين كان مُريحاً بالنسبة إلى سُكّان الفُنْداكو، وتَوَفُّر مثل هذه الخدمات داخل الفُنْداكو يُحقّق مداخيل يمكن إعادة تَداوُلها داخل الجالية الأوروبية.

كانت كلٌّ من الدول الإسلامية والمسيحية تُقَدِّر ما يمكن أن يوفّره الفُنْداكو من أرباح، ليس فقط كمقرّ للتِّجارة وجمع ما يترتّب عليها من راتب ولكن أيضاً كوسيلة لجمع أنواع مختلفة من الرُّسُوم والأكْرِية وغير ذلك من الضرائب البسيطة التي تُفرض على مختلف الأنشطة. فكلا الحكومتين تسعى للاستفادة ممّا يوفّره الفُنْداكو من ربح وهو ما يفسّر نجاحه لفترة طويلة من الزمن، ولكنّ توازن تلك الأرباح قد يكون سبباً في النِّزاعات. فمثلما حصل في حالة الفُرْن في فُنْداكو القَطَلانيّين بتونس سنة 1308م، فقد تحدُث الخلافات إذا تعدّدت الأيدي- من المسلمين والمسيحيين- التي تُحاول الغَمْس في الوعاء المالي نفسه. فقد كانت الدُّوَل الإسلامية دائماً تؤكّد على أن الفُنْداكو ذاته هو مِلْك للمسلمين وأن المسيحيين يتمتّعون به حسب رغبة السُّلطان. وكان الحكّام المَسِيحيون وقَناصلهم وغيرهم من الغربيين حَذِرين جداً. وقد كانوا يستخلصون أكثر ما يمكن من الضرائب دون أن يشكّل ذلك خطراً على العلاقات مع الإدارة الإسلامية المَحلّية.

هناك مسألة إشكالية تتعلّق بما هو دِيني وما هو مالي، وهي مسألة بَيْع الخَمْر في الفَنادق المسيحية. يختلط تحديد الكَمِّيات المُوَرَّدة بالموانع الدينية

(109) Méry and Guindon (eds.), *Histoire de Merseille*, I, 351-352.

وبتحديد نقاط البيع لتزداد عمليّة المتاجرة في الخَمْر في الموانئ الإسلامية قيمة وتعقيداً. فقد كان الحُكّام المسلمون متسامِحِين في إنتاج واستعمال الخَمْر من قِبَل المسيحيين المحلّيين لأنّ الخَمْر ضرورية في جانب منها بالنسبة للقُدّاس المسيحي. ولكنّ استهلاك الخَمْر من قبل المسلمين مُحَرَّم من وجهة نظر الشَّرْع الإسلاميّ ولو أن مصادر العصر الوسيط تبيّن أنه كثيراً ما كان يُضرب بالمَنْع عُرْض الحائط. فقد كانت الفَنادق المسيحية مرتبطة بالحانات ويتناول الخَمْر بما أنه كان مسموحاً لها بالتزوُّد باستمرار حسب ما تُقِرُّه المعاهدات الدبلوماسية فيما يتعلّق باستيراد واستعمال الخَمْر. رَسْمياً هذا الخَمْر معدّ للاستهلاك من قِبَل المسيحيين داخل الفُنْداكو. فتذكر مثلاً معاهدة 1238م بين البُندقيّة والسُّلطان الأيّوبيّ الملك العادل الثاني "أنه يمكن للتُّجّار أن يتناولوا الخَمْر داخل الفُنْداكو حسب ما يُمليه العُرْف والعادة"(110). بينما عَمَليّاً، وبعد وصول حمولة الخَمْر إلى الفُنْداكو وبعد أن يدفع التجار عنها ما يجب من الضرائب، يُشرب بعض منها داخل المَبْنى بينما تجد بعض البراميل طريقها إلى مشتريها من المسلمين.

فقد كانت تجارة الخَمْر المسيحيّ مألوفة في الموانئ المَغْربية في بداية القرن الثالث عشر والوثائق التي تذكر ذلك متوفّرة أكثر ممّا هو الشأن بالنسبة إلى مصر، حتى أن مداولات مجلس مدينة مرسيليا سنة 1228م شملت قسماً منفصلاً بعنوان "مَنْ مِنْ مواطني مرسيليا يمكنه بيع الخَمْر أو يسعى لكي يُباع" في الفَنادق بشمال إفريقيا. رغم أنّ النُّصُوص القانونية غالباً ما تعكس الجانب النَّظَري أفضل من الواقع ومع ذلك فهي تُشير إلى التعقيدات الاقتصادية وتَعارُض المصالح والأهداف المَدَنية التي تتعلّق بهذه التِّجارة:

"نأمر ونقرّ بأنّ كلّ مواطني مرسيليا دون غيرهم، يمكنهم أن يبيعوا أو يعملوا على البيع بالجُمْلة وبالمُفَرَّق ودون دفع ضريبة لكلّ ما يجلبون من خَمْر إلى مدينة مرسيليا أو منها إلى سَبتة وبِجاية وتونس ووَهْران وغيرها من أراضي المسلمين، ويكون ذلك في الفَنادق الصغيرة التي عادة ما يُباع فيها الخَمْر في تلك البلدان. وفيما يتعلّق بهذه الفَنادق التي يُباع فيها الخَمْر والتي لها مُشْرِفون

---

(110) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 339.

(والذين تمّ تثبيتهم في عملهم لفترة محدّدة يحتفظون خلالها بالعائدات لأنفسهم ويمتلكون متجراً وفقاً لرغباتهم الخاصّة لبيع الخَمْر للمسلمين) فإنه وقع إقرار وإثبات أنه لا يمكن لأيّ مواطن من مواطني مرسيليا أن يشتري أيّ خَمْر ليُعِيد بيعها في تلك الفَنادق الصغيرة المذكورة أعلاه. كما وقع إقرار وإثبات أنّ الفَنادق في البلدان المذكورة التي اعتاد التجار نُزُولها وخَزْن سِلَعهم بها، لا يمكن للمُشْرفين على الفَنادق في تلك البلدان لمدّة مُعَيّنة أن يفتحوا أو يمسكوا، لمدّة سنة، أيَّ دُكّان لبيع الخَمْر سواء بالمُفَرَّق أو بالجُمْلة للمَسِيحيين الآخرين أو للمسلمين»[111].

يتّضح على الفَوْر كثير من النُّقَط من خلال هذا المَقْطع، وهي معلومات تؤكّدها مصادر أُخرى. أوّلاً يَسْمَح الحُكّام للتُّجّار أصيلي مرسيليا بنقل الخَمْر دون دفع ضريبة من مدينتهم إلى موانئ شمال إفريقيا حيث تُباع الخَمْر هناك للمَسِيحيين والمسلمين على السواء. ثانياً تُشير قرارات المجلس إلى أنّ الخَمْر تُباع عادة إلى المسلمين في الفَنادق الصغيرة التي كانت متميّزة عن المباني الكبيرة التي يُقيم بها التجار الأجانب ويمارسون نشاطهم فيها. يُعتبر وجود هذه الفَنادق المختصّة ببيع الخَمْر في التوجّه نفسه الذي نجده في الفَنادق الإسلامية التي ارتبطت بالمتاجرة في مواد خاصّة ومع احتمال أن السُّلطات الإسلامية كانت مَعْنيّة بالإشراف ومراقبة هذه المواد. وأخيراً هذه الفَنادق الصغيرة المعدّة لتجارة الخَمْر كانت مؤجّرة وَقْتياً لفائدة المُشرفين على الفَنادق الذين يمكنهم جمع الأرباح في تلك المدّة. فهؤلاء المالكون لهم فقط حقّ كِراء الدُّكّان لبيع الخَمْر للمسلمين في حين أنه كان مَمْنُوعاً على كلّ التجار أصيلي مرسيليا أن يُعيدوا بيع الخَمْر من ذلك الفُنْداكو.

وفي منتصف القرن صدرت قرارات أُخرى عن مَجْلِسَيْ مدينة مرسيليا تهمّ القُنْصُل وتوضح العلاقة بينه وبين المُشرف على الفُنْداكو وتبيّن دور القُنْصُل في بيع الخَمْر في فَنادق بلاد الشام والإسكندرية وبجاية. يجب على القُنْصُل أن يمنع بيع أيّ نوع من أنواع الخَمْر ما عدا الخَمْر المُصَدَّر من مرسيليا ما دام متوفّراً.

---

(111) Méry and Guindon (eds.), *Histoire de Merseille*, I, 350-351.

كما لا يمكنه أن يؤجّر أيّ دُكّان أو يسمح بكِراء دُكّان إلّا لمواطني مرسيليا دون الحصول على إذن المُشرف على الفُنْداكو. وفي الأخير لا يمكن للقُنْصُل أن يُجْبِر المُشرف على الفُنْداكو أو أيّ أحد آخر على شراء الخَمْر أو غيره من المواد الأُخرى بأسعار تتجاوز المعهود(112).

يخضع الخَمْر وغيره من المواد الأُخرى إلى ضريبة تُسمّى بالقَبالة تدفع عند التَّوْريد وعند البَيْع. وتنطبق عبارة قَبالة الإيطالية على العديد من الضرائب غير المُباشرة التي تُجبى في إيطاليا وخارجها خلال القرن الثالث عشر(113). وفي سنة 1311م مثلاً يصف البُنْدُقي زيبالدون دي كنال «Zibaldone di Canal» ميناء بِجاية على أنه "منطقة تدفع فيها القَبالة ولا يمكن لأحد أن يشتري شيئاً إلّا من التجار الذين دفعوا القَبالة ولا يمكنهم بَيْع البضائع المُسْتورَدة إذا كانوا يرغبون في ذلك إلّا بعد دفع مَعْلُوم"(114). وقد كانت القَبالة تُدفع لموظّفي الدولة أو اللّزّامين وحقّ جمع قَبالة الخَمْر يجب أن يؤول إلى الغربي الذي يُشرف على الفُنْدُق أو القَبالّ المسلم. ورغم أنّ عبارة قَبالة الإيطالية مُشتقّة من القَبالة في اللُّغة العربية، ليس هناك ما يُفيد بأن فَهْم القَبالة من قِبَل الأوروبيّين قد أُخذ مباشرة من مُحيط الفُنْداكو في الخارج.

فقد كان على التجار الأوروبيين الذين يُصدِّرون الخَمْر إلى تونس أن يحملوا هذه البضاعة إلى "فُنْدُق القَبالة بتونس". وفي سنة 1287م سجّل أحد الكُتّاب العدول في پالرمو (Palermo) حُمُولة من الخَمْر الأَحْمَر باعها تاجران من برشلونة إلى تاجر من فلورنسا كان يستعدّ لنقلها من صِقِلّية إلى تونس على متن

(112) Méry and Guindon (eds.), *Histoire de Merseille*, II, 206, III, 78.

(113) لقد كان لهذه الكلمة مدلول واسع وهي تتخذ أشكالاً مختلفة حسب الأماكن وحسب الفترات، انظر على سبيل المثال، Florence Edler, *Glossary of Mediaeval Terms of Business. Italian Series 1200-1600* (Cambridge: MA: Mediaeval Academy of America, 1934) 130-131, and examples throughout Pegolotti's *La pratice della mercatura*؛ وكذلك الفصل المُتعلّق بالقَبالّة في سِيينا [Siena] ضمن William M. Bowsky, *The Finances of the Commune of Siena, 1287-1355* (Oxford: Clarendon Press, 1970) 114-165.

(114) Zachariadou, *Trade and Crusade*, 134-135.

سفينة جَنَوية. وكان الخَمْر موجّهاً إلى "فُنْدُق القَبالة بتونس" ويكون المشتري الفلورنسي وحده مسؤولاً عن دفع القَبالة عندما يبيع الخَمْر. لبلوغ تلك الغاية يمكن أن يتحمّل البائعان القَطَلانيّان جُزْءاً ممّا قد يحدث من أضرار أثناء السفر(115). ومثلما كان الأمر فيما يتعلّق "بالفُنْداكو الصغير" في قرارات مجلس مدينة مرسيليا فإنّ هذا الفُنْدُق المُعَدّ للقَبالة في تونس هو فُنْدُق مُتميِّز عن بقية الفَنادق الأوروبية الأُخرى. وقد رأى دافيد أبولافية «David Abulafia» أنّ ذلك الفُنْدُق "هو مَبْنى يوجد داخل مدينة تونس ذاتها"(116). ولكنّ تخصيص حَلْق الوادي بالذِّكْر، وهو ميناء تونس، يسمح بالقول إنّ هذا الفُنْدُق الخاصّ بالخَمْر كان موجوداً بالقرب من فَنادق الغربيين خارج المدينة الأساسية في مُحيط الميناء. فالمسؤول الغربي عن جمع الضرائب الذي يسيّر فُنْدُق الخَمْر يجب أن يكون تحت الرَّقابة نفسها التي يخضع لها الأوروبيّون، والمسلمون الذين يشترون الخَمْر كان عليهم أن يخرجوا من المدينة والذهاب إلى حَلْق الوادي لاقتناء حاجتهم.

ويؤكّد دَفْتَر الكاتب العَدْل بيترو باتيفوليو التمييز بين فُنْدُق الخَمْر وفَنادق السَّكَن بتونس. فيصف جدلاً ساخناً وقع في كانون الأوّل/ ديسمبر 1288م بين ابن يعقوب، وهو فقيه مسلم ومُشْرِف على الديوان (الجمارك)- يسمّيه اللاتينيون" afachinno Bon Racadi, mushirifo in duganna الفقيه ابن يعقوب الرَّقادي المُشْرِف على الدِّيوان"- وأحد الجَنَويين واسمُه برترامينو فرّاريو «Bertramino Ferrario» المسؤول عن القبالة الكبرى للخمر. فقد كانت السُّلطات الإسلامية غاضبة على برترامينو إمّا لأنّه كان يبيع الخَمْر للمسلمين أو ربّما لأسباب مالية معقّدة (وهي غير مذكورة). وكقرار مُؤقّت إلى أن يُحَلَّ الخِلافُ أَمَرَ القُنْصُل الجَنَوي بغلْق المَبْنى الذي يُباع فيه الخَمْر وسَلَّمَ المفاتيح في حفظ تيالدوس القِسّيس الجَنَوي(117). ولم يعد بيترو إلى هذا الموضوع وبالتالي فلا نعرف ما

---

(115) Adamo de Citella, *Le imbreviature del notaio Adamo de Citella a Palermo*, ed. Pietro Burgarella (Rome: Centro de Ricerca, 1981) I, 179-180 (doc. 296).

(116) Abulafia, «A Tyrrhenian Triangle,» 63.

(117) Pistarino (ed.), *Notai genovesi in Oltremare (1288-1289)*, 3-4 (doc. 1). لم يكن بياترو باتيفوليو [Pietro Battifoglio] يستعمل كلمة فُنْداكو في هذه الوثيقة بالذات. وفي وثائق أخرى كان يُذْكَر أنّ هذا المبنى هو "المكان الذي يُباع فيه الخَمْر". وقد كان الحديث =

هو القرار النهائي ولكن تُسَلِّط بقية المواد الواردة في الدفتر الضوء على وضعية امتياز بَيْع الخَمْر.

بعد مُضيّ ستة أشهر، في شهر حزيران/يونيو 1289م، أعلنت بلدية مدينة جَنَوة أنها باعت وظيفة الكتابة في فُنْداكو مدينة تونس إلى المُسَمَّى ليوناردو دي سيغنبالدو «Leonardo de Sigenbaldo» (وتصفه بأنه المُشْتَري) لمدّة ستّ سنوات. وقد اعتبر ليوناردو هذا الشراء استثماراً فطالب بحقّ فَتْح حانة يمكنه أن يبيع فيها الخَمْر في دكان بالفُنْداكو الجَنَوي. في الوقت نفسه يُشير العَقْد بصورة خاصّة إلى الفرق بين وظيفته ووظيفة المُشْرِف على الفُنْداكو مع وعد بأنه "لا يمكن لأيّ مُشْرِف على فُنْداكو في تونس، دون ترخيص من المشتري أو من ينوب عنه، أن يبني أو يفتح دُكّاناً، لأنه هو من يجب أن يحصل على مداخيل الفُنْداكو"[118]. ومثلما هو الشأن مع ما توفّر من معلومات سابقة من مرسيليا تُفِيد هذه الروايات التي تعود إلى سنوات 1288 و1289م أنّ هناك فرقاً بين بَيْع الخَمْر خارج فُنْداكو الجَنَويين، الذي كان من مشمولات برترامينو فَرّاريو (وهو ما شَغَلَ السُّلطات المحلّية إذ قد يكون المشترون المسلمون مَشْمُولين) وبيع الخَمْر داخل الفُنْداكو الذي كان تحت سيطرة ليوناردو دي سيغنبالدو.

وكان كلّ من ليوناردو (بوضوح العبارة) وبرترامينو (على نحو مُحْتَمل) قد دفع ضريبة مقابل حقّ التمتّع بأرباح بَيْع الخَمْر طوال مدّة الاتِّفاق. ورغم أن ليوناردو قد تولّى هذه الوظيفة من بلدية جَنَوة فإنّ هناك ما يفيد أيضاً أنّ وظيفة قَبالة الخَمْر يمكن منحها محلّياً من قبل السُّلطات الإسلامية. ورغم أن البضاعة نفسها كانت محظورة رسمياً، فإن السُّلطات الإسلامية وبصورة عمليّة فضّلت تنظيمها والحصول على مداخيل من بَيْع الخَمْر إذا لم يَتَسَنَّ منعُه بتاتاً. وفي رسالة غير مؤرّخة أرسلها دوج (doge) البُنْدقيّة بييترو غرادينيغو «Pietro Gradenigo» (1289-1311م) إلى تونس وفيها شكوى من أن قُنْصُل البَنادقة بتونس لم يَعُد

= عن بيع الخَمْر قد تزايد في سنوات 1280، وربّما يكون لذلك علاقة بالصّراعات التي كانت تشقّ أبناء العائلة الحَفْصِية المُتصارِعين على الحُكْم. ففي سنة 1283م، مثلاً، كان أحد المُطالبين بالعَرْش قد أعدّ برنامج إصلاح ديني يدعو إلى غَلْق الفُنْدُق الذي يُباع فيه الخَمْر وتحويل المبنى إلى مسجد (Brunschvig, *La Berbérie orientale*, I, 87).

(118) Pistarino (ed.), *Notai genovesi in Oltremare (1288-1289)*, 182-183 (doc. 128).

يمكنه الاستفادة من بَيْع الخَمْر لأن التزام ضريبة الخَمْر قد باعها الملك إلى تاجر بيشاني يدعى راينيريو مارتللو «Raynerio Martello». والملك المقصود هنا رغم عدم ذِكْر اسمه، قد يكون السُّلْطان الحَفْصِي[119]. ولاحقاً، "أبطل الملك هذا [البيع] لأسباب غير معلومة وأصبح هو الذي يجمع الضريبة الأمر الذي، بكلّ وضوح، أَحْدَثَ الذُّعْر في صفوف الجالية الأوروبية"[120]. ولأن أربعة سلاطين توالوا على العرش الحَفْصِي خلال هذين العَقْدين، فإنّ السياسة المتبدِّلة والمتعلّقة بقَبالة الخَمْر عكست، على الأرجح، البرامج السياسيّة والدينية لكلّ واحد منهم.

وكان البغاء مثل الخَمْر مرتبطاً بالفُنْداكو المسيحي والفُنْدُق الإسلامي (مثل البَنْدُوكيون من قبلهما).

توفّر هذه المنشآت عادة الإقامة القصيرة أو الطويلة المَدَى للمسافرين من الذُّكُور الذين يكونون بعيدين عن أهاليهم وليس هناك ما يُستغرب في أن يبحث هؤلاء الرجال عن سَلْوى في الخَمْر والنِّساء وفي أن تعمل السُّلُطات المحلّية على تنظيم شهواتهم. فمُداولات مدينة مرسيليا سنة 1228م مثلاً تُنَدِّد بشدّة بالبغاء في الفَنادق (الفُنْداكو) ببلاد الشام والإسكندرية وشمال إفريقيا. فليس فقط "مفهوماً هو أنّ البغايا لا يُسمح لَهُنَّ بالبقاء في الفُنْداكو أو الإقامة فيه. . . [ولكن أيضاً] على القَناصل الذين يذهبون إلى تلك الأماكن أن يُقسموا بكُتّاب الأناجيل المقدَّسين ألّا يُرْسِلوا بغايا ولا يسمحوا بإرسالهن إلى أيّ فُنْدُق من الفَنادق التي تُوجد بتلك البلاد وألّا يسمحوا لَهُنَّ بالإقامة هناك"[121]. يمكن أن نستنتج من هذه القُيُود، ومن فَرْض تعهُّد، رسميّ أنّ القَناصل قبل هذا التاريخ لم يكونوا دائماً محلّ ثِقة في هذا المِضْمار.

يَنْبع الاهتمام الرَّسميّ بوجود البغايا في الفنادق (الفُنْداكو) من الاعتبارات

---

(119) لقد تَولّى عَرْش الحَفْصِيين أربعة سلاطين خلال تلك الفترة، هم: يحيى الثالث ابن إبراهيم (1285-1295م) ومحمَّد الثاني بن يحيى (1295-1309م) وأبو بكر الأوّل ابن عبد الرحمن (1309م) وخالد الأوّل بن يحيى الثالث (1309-1311م).

(120) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, III, 395-396;

يقضي هذا المصدر بطرح السؤال حول التميز بين البيع داخل الفُنْداكو وخارجه.

(121) Méry and Guindon (eds.), *Histoire de Merseille*, I, 352.

الإدارية والأخلاقية، وربّما كذلك من قلق تعقيدات دبلوماسية إذا كان رجل مسيحيّ أجنبيّ مُتَّهَماً بمُمارسة الجنس مع امرأة مسلمة محلّية. وليس هناك دليل جِبائي على وجود مِثْل هذا النشاط فليست هناك رُسُوم ولا غَرامات ولا أُذُون لممارسته.

ورغم إنتظام تحريم وُجُود البغايا في الفَنادق، فإنَّ هذه المؤسّسات ليست خاصّة بالذكور فقط. تُشير العُقُود التي حَرَّرَها بييترو باتيفوليو بتونس، على الاقلّ، إلى وجود ثلاث نساء أوروبيّات- وهو وجود مُحْتَشِم. فمن الممكن بل من المحتمل أن يكون قُرْبُ تونس من إيطاليا قد شَجَّع بعض التجار الإيطاليين على اصطحاب زوجاتهم أو بناتهم أو رفيقات لهم إلى الفَنادق بشَمال إفريقيا في حين أنّه من النادر أن تُسافِر النساء إلى فَنادق بعيدة كتلك التي ببلاد الشام ومصر. فقد تَزَوّج بعض القَناصل الأوروبيين من مسيحيّات شَرْقِيّات بمصر في القرنين الرابع عشر والخامس عشر على الأقلّ، ولكن ليست هناك مَعْلُومات عن نِساء غَربيّات مُقيمات في الفَنادق المصرية[122].

فقد أملت جوفانّا زينوجيا «Giovanna Zenogia» وَصِيَّتها يوم 14 كانون الثاني/يناير 1289م وهي تُحْتَضَر بفُنْدُق تجار مرسيليا بتونس. وقد تركت نقوداً لأشخاص مُخْتَلِفين من بينهم خدمها وذكرت أنَّها تودّ أن تُدفن في كنيسة القدّيسة مريم في فُنْداكو الجَنَويين القديم مع إشراف تيالدوس على مراسم دفنها. وليست هناك إشارات إلى أصلها إن كانت من جَنَوة أو من مَرْسيليا ولا أيّ إشارة إلى عائلتها في نصوص أخرى[123]. وفي وثيقة أُخرى حُرّرت من قَبْلُ في الكنيسة بفُنْداكو الصِّقِلّيين بتونس تتعلّق بكالي « Cali» وهي امرأة أصيلة سكلافونيا «de Sclavonia»، فقد رغبت في إبطال زواجها الثاني من غادو دي بودي «Gado de Budi» الذي تمّ منذ سنتين، على أساس أنها لا تزال في عِصْمة زوجها الأوّل، روجيه السلافوني «Roger of Sclavonia» الذي ترغب في الرجوع إليه[124]. وبعد

(122) عَلّق الحاجّ فراسكوبلدي [Frescobaldi] في القرن الرابع عشر على وضعية بعض القناصل الذين يتزوّجون نساء مَحَلّيات (*Visit to the Holy Places*, 38).

(123) Pistarino (ed.), *Notai genovesi in Oltremare*, 11-13 (doc. 6).

(124) Pistarino (ed.), *Notai genovesi in Oltremare*, 9-10 (doc. 5).

ذلك بشهرين في شهر آذار/مارس شهدت كتالينا «Catalina» ابنة غيدو «Guido»، أصيلة كاستالّو دي كاسترو (قرب كاغلياري بسردينيا) رَسْمِيّاً أنها حامل منذ ثلاثة أشهر من واحد اسمه كولومبو دي بوبيو «Columbo di Bobbio». وكانت الوثيقة قد حُرِّرَت، في هذه المرَّة، في فُنْداكو القَطَلانيّين بتونس "في الغُرفة التي تسكنها المُسَمّاة كتالينا"[125]. فلو كانت كتالينا قد تَزَوَّجت كولومبو لمَا كان من الضروريّ أن يقع تحرير هذه الشهادة. فهذه الوثائق المُوجَزة تعطي القليل من المعلومات عن وَضعية أو سُمْعة كلّ من جوڤانا وكالي وكتالينا كما أنها لا تفسّر وجودهن بتونس. ففي حالتين، على كل حال، يُشير تَعَدُّد الأزواج والحَمْل إلى أن هؤلاء النِّسْوة كُنّ ناشطات جِنْسياً في فَنادق الجاليات الأوروبية.

وقد أصبحت فَنادق الأوروبيّين في القرن الثالث عشر في المُدُن الإسلامية عِبارة عن مُقاطعة يمكن فيها للتُّجّار الأوروبيّين وغيرهم من المسافرين أن يتمتّعوا بكثير من وسائل الراحة كما لو أنّهم في المنزل. فَتُوَفِّرُ هذه المنشآت فضاءً للتِّجارة والحياة بالنسبة إلى الأجانب تحت رقابة الإدارة الإسلامية المحلِّية المُشَدّدة، ويُوَفِّر هذا النظام الربح والأمن للجهتين. ولم يكن التجار وحدهم ولكن أيضاً الموظّفون الغربِيُّون ورِجال الدين والحِرَفِيُّون والمُلْتزمون، إناثاً وذُكوراً يقيمون في هذه الفَنادق لفَتَرات مُختلفة، مؤسِّسين بذلك لمُسْتَعمرات أجنبية في المجالات الإسلامية.

مع ذلك فقد كانت مُسْتَعمرات ولكن بدون الإطار الاسْتِعْماري. فالفُنْداكو يوفّر دخلاً جِبائيّاً ومداخيل أُخرى لكلا الطرفين الأوروبيّين الوافدين والمسلمين المحلِّيين، ولكن المباني ذاتها كانت دائماً تحت مراقبة وفي عناية الحكومات المحلِّيّة. فقد كانت جَنَوة والبُندقيّة وغيرهما من السُّلطات التجارية تطالب بالحصول على فَنادق -مع حقوق للقناصل، وحقّ النظر في الدعاوى القضائية، والإنقاذ في البحر وأداءات تجارية خاصّة وامتيازات أُخرى- أثناء المفاوضات الدبلوماسية مع المُوَحِّدين والفاطميّين والأيّوبيّين والحَفْصِيّين. ولم تكن الدول الأوروبية تشعر أنّها في موضع تفوُّق في هذه العلاقة إلّا في حالات نادرة[126].

---

(125) "Actum Tunexi, in fondico Catalanorum in talamo in qua habitat dicta Catalinna": Pistarino (ed.), *Notai genovesi in Oltremare*, 45-46 (doc. 29).

(126) انظر النقاش حول فُنْداكو القطلانيين في تونس في عهد جيمس الأوّل في الفصل التالي.

يكشف تحليل الفَنادق وإدارتها في المتوسّط الإسلاميّ من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر عن أنماط مُنْتَظِمة في النظرية والتطبيق عبر مجال شاسع. ومع ذلك ورغم أنّ الفُنْداكو كان قد أصبح النموذج المُهَيْمِن كفَضاء تجاري وسَكَنّي غربيّ في المُدُن الإسلامية، ولكنّه لم يكن الاختيار الوحيد المتوفّر.

إن المقارنة مع الفضاءات التجارية بالإمبراطورية البيزنطية تبيّن أنّ هناك حلولاً بديلة لتسهيل مَسار التِّجارة الدولية طويلة المسافات.

المُسْتَعْمَرات التجارية في بِيْزَنْطة

لقد وسّع التجار الأوروبيُّون الغربيون مجال نشاطهم التجاري في اتجاه المُدُن البيزنطية وخصوصاً مدينة القُسطنطينية بالتوازي مع توسّعهم في الأسواق الإسلامية. فقد كانت بيزنطة لفترة طويلة من الزمن مصدراً للبضائع الشرقية النفيسة بالنسبة إلى الأسواق الأوروبية كما أنّ الإدارة البيزنطية والموظّفين في المُدُن لهم قرون من التجارب في التعامل مع التجار الغربيين الذين وصلوا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وتُشير المصادر إلى وجود فضاءات متنوّعة للتّجارة الأجنبية وإقامة الأجانب في المُدُن البيزنطية ولكن رغم أنّ المؤرّخ نيكيتاس كونياتس يذكر بَنْدُوكيوناً يسكنُه التجار في القُسطنطينية سنة 1180م، يبقى استعمال كلمة بَنْدوكيون وفُنْداكو وما شابههما من الكلمات النادرة[127]. وعوضاً عن ذلك توجد كلمات أُخرى مثل ميتاتون «mitaton» وإمبولو «embolo» للتعبير عن فضاءات لها وظائف الفُنْداكو نفسها في البلاد الإسلامية.

إنَّ عِبارة ميتاتون mitaton اليونانية هي استعارة من اللاتينية حيث إنَّ كلمة ميتاتوس metetus كانت تعني مَسْكناً أو إقامة في الفَتْرة القديمة المُتأخّرة. وقد كانت الكلمة مُسْتَعملة بهذا المَعْنى في سِجلّات المَجامع الكَنَسِيّة لسنوات 536 و681م[128]. وكانت كذلك مُسْتَعْملة للتعبير عن المَراكِز الرومانية المُتقدّمة على

(127) Choniates, *Historia*, I, 445, *O City of Byzantium*,244. سَتُناقَش لفظة فُنْداكس foundax اللفظ الشقيق لاحقاً.

(128) Councils noted in the *Oxford Dictionary of Byzantium*, "Mitaton", II, 1385.

حدود بلاد فارس لمُراقبة تَنَقُّل المُسافرين والبضائع ولِجَمْع الضرائب(129). وفي أواخر القرن التاسع ظهرت المُؤسَّسة في سِياق مُحَدَّد بالتِّجارة والتنظيم في كتاب الوالي، وهو دليلٌ لنُظُم سُوق القُسطنطينية وَقَعَ تَجْميعُه في عهد ليون السادس (886-912م)(130). فقد كانت مُؤسّسات الميتاتون في تلك الفَتْرة في القُسطنطينية عِبارة عن فنادق رَسْميّة مُعَدّة لاحتضان المُبادلات التِّجارية بين العاصمة البيزنطية والعالم الإسلاميّ. وكان الرَّسْميُّون البيزنطيّون مُهْتمّين بمراقبة بيع الحرير الخام ولكن أيضاً لعَزْل التجار الشوام ومُراقبة تَحَرُّكاتهم والتأكُّد من أنهم لا يُطيلون البقاء أكثر من مدّة ثلاثة أشهر.

وحسب هذه القوانين فإنّ ما استورده تجار المَنْسوجات الحريرية الشامية من السِّلَع يجب أن يُوْدَع في خان (ميتاتون) من الخانات فتظلّ به حتى يجتمع التجار لاقتسامها. ويَسْري هذا على ما يَرِدُ من الشام من السِّلَع الإسلامية... وينبغي لجميع التجار أن يجتمعوا بهذا المَوْضَع وأن يتقاسموا السِّلَع مع التجار الشوام الذين دامت إقامتهم بالعاصمة عَشْر سنوات مُتَّصلة. وينبغي أن يُقيموا جميعاً في قِطاع واحد من الخان (إمبولو) وألّا ينتشروا هُنا وهُناك في أرجاء المدينة ليبيعوا سِلَعهم(131).

ويواصل مُقَرِّراً بأنه ينبغي لتجار الشام الذين يجلبون السِّلَع ألّا يُقيموا في الخانات أكثر من ثلاثة أشهر. وفي تلك الفترة ينبغي لهم استكمال بيع سِلَعهم وشراء سِلَع أُخرى. وإذا بقيت لهم سِلَع ممّا وَرَّدُوه لم يَبِعْها أولئك الذين يُتاجرون بها عليهم أن يُبلِّغوا عنها والي المدينة حتى يقوم بما يجب للتخلُّص من الفائض.

(129) R. S. Lopez, «The Silk Industry in the Byzantine Empire,» *Speculum* 20 (1945) 25-26.

يحتوي هذا المقال على أهمّ المُناقشات الشاملة حول مُؤسّسة الميتاتون [the *mitaton*]، مع أنّ لوبيز [Lopez] ربّما كان يبالغ في تطبيقاته التجارية. انظر كذلك Lopez, "Du Marché temporaire," 391.

(130) (*Book of the Eparch*), *Das Eparchenbuch Leons des Weisen*, ed. Johannes Koder (Vienna: Verlag der Österreichischen Akademie der Wissenschaften, 1991) 94-97.

(131) على الأرجح، أنّ عبارة "إمبولو" [*embolo*] تُحيل هنا على شارع أو رواق مُعَمَّد. وربّما أصبحت هذه الكلمة في فترة لاحقة هي الكلمة العادية التي تعني الحَيّ الخاصّ بالجاليات التِّجارية الأجنبية في القُسْطنطينية.

ومع أنَّ هؤلاء التجار كانوا مَعْفِيِّينَ من دفع الضرائب فإنَّهم كانوا يتحمّلون مصاريف الطعام والسكن مدّة إقامتهم(132). تتعلّق التنظيمات الواردة في كتاب الوالي خاصّة بالتجار والبضائع الوافدة من بلاد الشام على ميتاتونات القُسطنطينية وقد يكون الدافع الأصلي لتطوير المؤسّسة قد نما انطلاقاً من الحاجة إلى تنظيم المُبادلات التجارية عبر الحدود البيزنطية-العبّاسية حديثة العهد. فكلٌّ من المسؤولين المسلمين والبيزنطيّين كانوا يَسْعَوْن لمُراقبة التجار الأجانب ونشاطهم عن كَثَب. ومن المُمكن كذلك حسب ما يراه روبرت لوبيز «Robert Lopez» أنَّ العِبارات الإيجابية الواردة في كتاب الوالي تعكس تطلُّعات بيزنطة لكسب مُساندين في بلاد الشام ضِمْن تخطيط ـ لم يتحقّق ألبتّة- لغزو المنطقة(133). والأكثر احتمالاً هو أنّ كِلا الطرفَيْن له المصالح نفسها في دفع التِّجارة مادام الأمن والحماية متوفّرين.

إنّه من الصعب أنْ نعرف ما إذا لم يكن هناك أيّ علاقة بين الميتاتون والفُنْدُق. من الواضح أنّه ليست هناك علاقة لُغَوية وأنَّ التشابُه في الوظائف يمكن أنْ يكون وليد الحاجات نفسها وكذلك التأثير المُباشر في الوقت نفسه. غير أنَّ هُناك من يرى أنَّ الفُنْدُق قد أخذ خصائص وظيفته من الميتاتون(134).

(132) (*Book of the Eparch*), *Das Eparchenbuch*, 94-97; English trans. (with minor changes) from A. E. R. Boak, "Notes and Documents: The Book of the Prefect," *Journal of Economic and Business History* I (1928-1929) 606-607.

(133) Lopez, «Silk Industry in the Byzantine Empire,» 30.

(134) أشار روبرت لوبيز إلى أنّه «للوهلة الأولى فإنَّ الميتاتا [the *mitata*] كانت شبيهة بِمَقَرّات السَّكَن المُعَدَّة للتُّجّار في العصر الوسيط»، ولكنه يواصل ليُبيِّن مظاهر الاختلاف التي تشمل فترات الإقامة المحددة (Lopez, «Silk Industry in the Byzantine Empire,» 27-28). وقد لاحظ داود اليعقوبي [David Jacoby] أيضاً التَّشابه بين المُؤَسَّستين فاستنتج أنّ الفُنْدُق قد يكون مُؤَسَّسة مُنْحَدِرة من الميتاتون البيزنطي (David Jacoby, "Nuovi e mutevoli orizzonti: verso ed oltre l'Oriente mediterraneo," *Storia d'Europa*, III: Il Medioevo, ed. Gherardo Ortalli [Turin: Einaudi, 1995] 1165). وقعت كذلك الإشارة إلى التَّشابُه بين الميتاتون والفُنْداكو، انظر بصورة خاصّة Gabriel Millet, "Sur les sceaux des commerciaires Byzantines," *Mélanges offerts a M. Gustave Schlumberger* (Paris: Librairie Orientaliste Paul Guethner, 1924) II, 323. وقد أشار اليعقوبي أيضاً إلى التشابه بين «الميتاتون» [*mitaton*] ودار المانَك (Jacoby, "Les Italiens en Egypte," 88).

من المُؤَكّد أنّ الميتاتون أقدم من الفُنْدُق (لكن ليس [أقدم من] البَنْدوكيون). وهكذا يبدو كذلك من المرجّح أن تسويق الميتاتون كان متأثراً بِمِثال الفُنْدُق. ويبدو أنَّ اللقاء بين الإداريِّين البيزنطيّين والتجار المسلمين خلال القرون الفاصلة بين ظهور الإسلام وبداية القرن العاشر قد خَلَق مُخَطَّطاً للميتاتون ليتطوّر نحو المؤسّسة المنظّمة لإيواء التجار التي تظهر في كتاب الوالي(135).

كان التجار المسلمون نشيطين في القُسطنطينية طويلاً قبل أنْ يُصبح وجود التجار الأوروبيّين الغربيين ثابتاً في المدينة (باستثناء البنادِقة). فكانت لهم مساجِد وكذلك مَرافِق أُخرى بالعاصمة البيزنطية في أواخر القرن العاشر، ويبدو أنّ هناك جاليةً مسلمة مُقيمة في أواخر القرن الثاني عشر(136). ومع ذلك فلا يُذكر ميتاتون إسلاميّ إلّا بدايةً من سنة 1203م عندما الْتَهَم حريقٌ مَسْجِد بِراما «Perama» بالقُسطنطينية. وفي ذلك الوقت كان الرحّالة الأوروبيّون أيضاً ناشطين في المدينة. وحسب نيكيتاس كونياتيس شَبَّ الحريق عندما هجم الغربيون (التجار البيشانيون

(135) يبدو أنَّ الميتاتون في بيزنطة في بداية القرن العاشر كان يُؤوي مجموعات أُخرى من التُّجّار الأجانب، وقد يكون للتُّجّار البلغار ميتاتون في القُسطنطينية حتى قبل ذلك التاريخ، وقد كانت هذه المُنْشأة في عهد الإمبراطور ليون السادس قد تمَّ كِراؤها ونقلها إلى مدينة سالونيك. وقد أدى ارتفاع تعرفة الكِراء إلى إغضاب البُلغار حتى إنّ ليون السادس أعاد هذه المُؤسّسة إلى العاصمة ووضعها تحت سُلطة الإمبراطور. (Lopez, «Silk Industry in the Byzantine Empire,» 32). كما كان التُّجّار الروس أيضاً يرغبون في الحصول على ميتاتون بعد إمضاء معاهدة تجارية بين الإمبراطورين ليون السادس والإسكندر مع الأمير الروسي أولِغ [Oleg] في السنوات بين 904 و907م (*Russian Primary Chronicle*, ed. and trans. Samuel Hazard Cross [Cambridge, MA: Medieval Academy of America, 1953] 64-65).

(136) Stephen Reinert, "The Muslim Presence in Constantinople, 9th-15th Centuries: Some Preliminary Observations," in *Studies on the Internal Diaspora of the Byzantine Empire*, ed. H. Ahrweiler and A. Laiou (Washington, DC: Dumbarton Oaks Press, 1998) 125-150.

أشار ابن شدّاد إلى وجود تُجّار مُسلمين في القُسطنطينية سنة 1189م عندما تمَّ فتح مسجد جديد بالمدينة لفائدة الجالية الإسلامية على أثر إمضاء معاهدة بين صلاح الدين وإسحاق الأوّل سنة 1188م، (انظر سيرة صلاح الدين، مؤسّسة الخانجي، القاهرة، 1962م، ص132، والترجمة الإنكليزية C. R. Conder, *The Life of Saladin* [London: Palestine Exploration Fund, 1897] 199).

والبنادقة والفرنسيون) "دون سابق إشعار على مسجد المسلمين (الكلمة بِيعة) والذي يُسمّى في اللُّغة الشعبية ميتاتون، بسيوفهم ونهبوه"[137]. لا يعني هنا استعمال كلمة ميتاتون المَسْجِد فقط ولكن أيضاً الحيّ أو المَبْنَى الذي بعيش فيه المسلمون ويخزنون بضائعهم. وقد يكون الغربيون الذين أشعلوا النار ومارسوا النهب مدفوعين بدافع المُنافسة التجارية، كما يجدر الذكر بأنّه ليست هناك إشارة إلى وجود مَسْجِد أو ميتاتون للتُّجّار المسلمين في القُسطنطينية في عهد السيطرة اللاتينية بعد 1204م. وبعد استرجاع المدينة من قِبَل الباليولوغ «Paleologus» أُعيدت المؤسّسات الإسلامية واليهودية في العاصمة البيزنطية. فقد ذكر رَحّالة مسلم زار المدينة سنة 1293م أنّ هناك مكاناً يبلغ اتّساعُه اتّساع مَبْنىً ذي طابقين في دمشق مُحاط بِسُور وله باب يمكن فتحه وغلقه، صُمّم خصيصاً ليكون مَسْكناً للمسلمين وكذلك هناك مكان آخر خاصّ باليهود. في كلّ ليلة يُغلق البابان في الوقت نفسه الذي تُغلق فيه بقية أبواب المدينة[138]. إن هذا المَبْنَى يُشبه ماديّاً ووَظِيفيّاً فُنْدُقاً أو خاناً ومن الواضح أنَّ التَّشابُه هو الذي أدهش الكاتب (على الرغم من أنه لم يستعمل كلا الكلمتين) لأنه قام بمُقارنة مع المؤسَّسات التي تُوجد في دمشق.

أدّى تَزايُد عدد التجار الغربيين الواصلين إلى القُسطنطينية في القرن الحادي

---

(137) Choniates, *Historia*, I, 553, *O City of Byzantium*, 303.

(138) الجَزَرِي، جواهر السُّلوك في الخُلَفاء والمُلوك، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس، مخطوطات عربية رقم 6739، ورقة IV 9، انظر كذلك M. Izeddin, "Un Texte arabe inédit sur Constantinople byzantine," *Journal Asiatique* 246 (1958) 453-455.

[المترجم: كتاب الجَزَري هو تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجَزَري، حقّقه عمر عبد السلام تدمري، 3 أجزاء، المكتبة العصرية، بيروت، 1998م، ويوجد النصّ موضوع الإحالة في الجزء الأوّل، ص156-157].

من المحتمل أن يكون الجَزَرِي قد سمع لفظة ميتاتون وظنها لفظة مكان العربية وهي اللفظة التي ربّما استقام له معناها. إنَّ إشارة الجَزَري إلى مكان يسكنه التُّجّار اليهود شبيه بمقر سَكَن المُسلمين، تُثير التساؤل. فالدلائل على وجود جالية يهودية في القُسطنطينية خلال العصر الوسيط هي نادرة، وقد أشار داود اليعقوبي "إلى الغُمُوض الكبير" الذي يشمل الوجود اليهودي في الفترة بين القرنين الخامس والحادي عشر. فلم يوجد حيّ يهودي في القُسطنطينية بوضوح إلّا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (David Jacoby, "Les Quartiers juifs de Constantinople à l'époque byzantine," *Byzantion* 37-[1967] 167-227).

عشر إلى قيام البيزنطيّين بتغييرات للتّعامُل مع التّجارة الخارجية. فالظاهر أنَّ الميتاتون لم يَعُد يفي بالحاجة أمام تزايُد المُبادلات الغربية فَعِوَضاً عنه تمّ مَنْح الجاليات التجارية الأوروبية أحياءً صغيرة خاصّة (إمبولوم أو إمبولو) لإيواء التجار العابرين والمُقيمين الذين يفوقونهم عدداً والذين كانوا أكثر استقراراً. يحتوي كلّ حَيّ على عدد من المنازل ومخزن وكنيسة وحمّام وفُرْن وغير ذلك من المرافق الأخرى التي تحتاج إليها الجاليات التّجارية الأجنبية[139]. وكَوْنُ هذه المُنشآت تعكس ما أمَّنَه الحُكّام المسلمون بالارتباط مع الفُنْداكو يدلّ على عَدَد من أوْجُه التشابُه في المُتطلّبات وضبط التجار الغربيين في المُدُن البيزنطية والإسلامية.

إلّا أنَّ الإداريين البيزنطيّين لم يعتمدوا قطّ وبصورة مُباشرة نموذجَ أو مُصطلحَ الفُنْدُق أو الفُنْداكو. وقليلاً ما نجد الكلمة الأخيرة مُسْتَعملة في المجال البيزنطيّ إلّا في النصوص التي كُتِبَت باللاتينية وباللُّغات الرّومانسية ويصف المُؤَرِّخ الجَنَويّ كَفّارو «Caffaro» تدمير الفُنْداكو الجَنَوي بالقُسطنطينية سنة 1162م، ولكن لا يعدو هذا الاستعمال إلّا أن يكون ربّما مجرّد تأويل غربي لكلمة إمبولو[140].

(139) وصف هوراشيو براون [Horatio Brown] الإمبول [Embolum] على أنّه مكان يُخزِّن فيه التُّجّار سِلعهم ويبيعونها ويقومون فيه بمعاملاتهم. . . فقد كان مَبْنًى فيه لوجيا loggia مفتوحة حواليه وهي طبيعة المراكز التجارية أكثر منها طبيعة البازارات. إلّا أنَّ عِبارة إمبول قد أخذت مُبَكِّراً مَعْنًى آخر واسعاً وأصبحت تشمل الحَيّ بأسره. ("The Venetians and the Venetian Quarter in Constantinople to the Close of the Twelfth Century," *The Journal of Hellenic Studies* 40 (1920) 75). حول إقامة الغربيين في القُسطنطينية ومُمتلكاتهم فيها، انظر كذلك:

Chryssa A. Maltezou, "Les Italiens propriétaires 'Terrarum et casarum' à Byzance," *Byzantinische Forschungen* 22 (1996) 177-191; Paul Magdalino, *Constantinople médiévale: études sur l'évolution des structures urbaines* (Paris: De Boccard, 1996) 85-90; Michel Balard, "L'Organisation des colonies étrangères dans l'empire byzantin (XIIe-XVe sièclee)," in *Hommes et richesses dans l'empire byzantin (VIIIe-XVe siècle*, Vassiliki Kravari (Paris: P. Lethielleux, 1991) II, 268-269. The decline of the *mitaton* is discussed in K. Ciggaar, *Western Travelers to Constantinople: The West and Byzantum 962-1204* (Leiden: E. J. Brill, 1996) 24.

(140) *Annali Genovesi di Caffaro e de'suoi continuatori*, ed. Luigi Tommaso Belgrano and Cesare Imperiale di Sant' Angelo (Genoa and Rome: Istituto Sordo-Muti, 1980-1923) I, 68.

قد كان كَفّارو [Caffaro] قد أَلِفَ مُؤسَّسة الفُنْدُق والفُنْداكو في المُدُن الإسلامية مثل مدينة الْمَرِيّة.

ورغم أنه لم يظهر في المناطق الخاضعة لبيزنطة لا الفُنْدُق ولا الفُنْداكو المُتَّخذ للسكن، فإنّ وجود مُؤسَّسة شقيقة هي الفُنْداكس، قد تمّت مناقشته في الفصل الثاني. ويجدر بنا العودةُ إلى الفُنْداكس خاصّة وأنَّ إدارته تُشير إلى تَوازٍ آسِر مع الفَنادق والفَنادق الغربية (الفُنداكو) في البلاد الإسلامية. ورغم أنَّ هذه المُنْشأة مُتَفَرّعة عن الفُنْدُق، يبدو أنَّها تطوّرت بعيداً عن الفُنْداكو، لأنَّ الكلمة اليونانية تُحيل دائماً على مكان لخَزْن السِّلَع أو مُسْتَوْدَع- ولا تُشير أبداً إلى مكان لسُكْنَى التجار الأجانب. فقد ذُكِر فُنْداكس لخَزْن الحبوب وجَمْع الضرائب عن تجارتها خلال النِّصف الثاني من القرن الحادي عشر في رودستو، ميناءِ مدينة أَدَرْنة، حيث كان يُدار كلَزمة يُشْرِف عليه الفُنْداكاريوس (foundacarius) (والمُؤكّد أنّ هذه الكلمة مُشْتَقّة من الفُنْدُقِيّ والفُنديكاريوس fundicarius بالصِّيغتين العربية واللاتينية). وقد وُصِفت هذه الوظيفة من قِبَل المُؤَرِّخ ميخائيل الأتالي (ت. 1085م):

"زعيم هؤلاء الناس السَّيِّئين، الفُنْداكاريوس الذي أثار بِطُرُق مُبتكرة غَيْظ أولئك الذين يجلبون الحبوب وأَخَذَها منهم بدناءة مقدّماً مطالب قاسية للإيجارات وحطَّ من قيمتهم بِبِدَعِه المُختلفة. وهكذا بينما تطوّر الفُنْداكس تدنّت المُدُن التي كانت مزدهرة إلى حالة من الظلم العنيد وهكذا ارتفع سعر الذُّرة من دينار واحد لـ 18 مُدّاً إلى دينار للمُدِّ الواحد. فمنذ ذلك الوقت وَهُم يمارسون التِّجارة (للأسف إنه الطمع) بجلب العربات المشحونة بالحبوب وحسب وإنما كذلك كلّ ما يمكن بيعه وهم يَمُرُّون من هناك. ولكنَّ أولئك القادمين من الأرياف والمُقيمين بجوار رودستو قد تمّ تحذيرهم من بَيْع محاصيلهم في منازلهم. وقد تمّ التَّخلّي عن أدوات الوزن التي يستعملونها وأصبح فُنْداكس واحد أميراً وسَيِّداً على كلّ موازين الحبوب. لم يحدث مثل هذا قطّ ولم تُشْرِق الشمس ذاتها على مثل هذا الظُّلم. فبالنسبة إلى كلّ من يُوشى به أنّه يبيع الحبوب في البيت ممّا حصد، كان يُعامَل كمُجرم مُتّهم بالقتل أو كسارق أو شخص غريب وتُهاجَم مُمْتلكاته وتُصادَر من قِبَل المُشْرف على الفُنْداكس. يُساعِده مائة عسكري يمثّلون كلّ ما هو سيّئ في الإنسان ويُطيعونه ويُهاجمون التجار المساكين والفَلّاحين من كلّ جِهَة بكثير من الإغاظة"[141].

(141) Attaleiates, *La Diataxis de Michel Attaliate*, 202-203.

يُوضِح ميخائيل الأتالي أنّ المُشكل يَكْمُن مع إدارة هذا الفُنْداكس ومُشْرِفه الفاسد أكثر مِمّا هو مع المُؤسَّسة ذاتها. وبالتالي عندما استولى نيقفوروس بريانوس على مدينة أَدَرْنة سنة 1077م "كان أوّل ما قام به لأجل السُّكّان هو هدم رمز الإهانة والظُّلْم وهذا التَّجاوُز للسُّلْطة وهذا المُعَوِّق للازدهار، من الأعلى إلى الأسفل، وعوّض ذلك بالأمر ببناء فُنْداكس خارج المدينة وتمّ تدمير الفُنْداكس القديم من أُسِسه"[142]. وواضحٌ أنَّه عندما يُدار الفُنْداكس إدارة جيّدة تماماً كما هو الحال مع الفُنْدُق أو الفُنْداكو يمكن أن يكون رصيداً للتُّجّار والمُنتجين وكذلك المسؤولين. لَمْ تُشْبِه بِنْية هذا الفُنْداكس أَمْثالها من فَنادق الحبوب والزيت والغِلال والقُطْن وغير ذلك من الفَنادق الأُخرى في العالم الإسلاميّ آنذاك وحَسْب، ولكن كذلك فَنادق الخَمْر في تونس وفي غيرها من المُدُن الأخرى. فكلّها كانت تلعب دور المَخازِن التجارية تُباع فيها أنواع مُعَيَّنة من البضائع بأسعار مُحدَّدة حيثُ عادةً ما كان التجار يُدْعَوْن لإحضار سِلَعهم إليها.

تُبَيِّن مُقارنة مساكن التجار والمُؤسَّسات التجارية في المُدُن البيزنطية والمُدُن الإسلامية اختلاف تجارب التجار المسيحيين الذين يُقيمون في مُدُن مسيحية وأولئك الذين يُقيمون في مُدُن إسلامية. ففي كِلْتا الحالتين كان المُقيمون أجانب وكُلٌّ من السُّلطات الإسلامية والبيزنطية كانت تسعى لمُراقبة حركة التجار الغربيين وبضائعهم وتتأكّد من استيفاء الضرائب والمُكُوس. وقد كانت السُّلُطات البيزنطية فوق ذلك قادرة جداً على مُمارسة (أو أنّها كانت تسعى إلى مُمارسة) مُراقبة شديدة القسوة على التجار الأجانب، لكنّ الجدير بالذِّكْر أنَّهم لم يفعلوا ذلك بالنسبة للمجموعات المسيحية الغربية. فقد كان البَنادِقة والجَنَويون والبيشانيون وغيرهم منظّمين بلا شك، ولكنّه لم يكن مطلوباً منهم أن يسكنوا ويُمارِسوا

(142) Attaleiates, *La Diataxis de Michel Attaliate*, 249. يذكر نصّ من البُنْدقية يعود إلى سنة 1157م مُلْكية في مدينة رودستو «juxta locum, qui dicitur Fontega [Rodosto] in ruga Frnacigenorum, foras muros civitatis» وهو رُبّما يُشير إلى فُنْداكو جديد أو إلى المَوْقع القديم للفُنْداكس. Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, I, 138; also Slessarev, "*Ecclesiae mercatorum*," 186.

نشاطهم في ميتاتون حتى عندما كانت هذه المُؤسَّسة لا تزال على علاقة بالتجار المسلمين. فعلى العكس كان الغربيون يتمتّعون في القُسطنطينية بَحَيِّهم [إمبولوس] الخاصّ الذي كان يشمل منازل خاصّة ودكاكين ومخازن ومُنْشآت أُخرى.

وقد حصلت كلّ دولة أوروبية على حُقُوق مختلفة لفائدة رعاياها في الأراضي البيزنطية ولو أنّ كلّاً منها يريد الحصول على المجموعة نفسها من الامتيازات الدينية والتجارية[143]. فقد منح مرسوم إمبراطوري، صادر سنة 991م، للبُندقيّة، التي كانت لها أقدم العلاقات مع بيزنطة، تخفيضاً في الضرائب وحماية سفنها وتمكين رعاياها من مَبْنىً «domo» يُمارسون فيه التِّجارة ولكن ليس هناك ما يفيد التَّنازُل عن أرضٍ ما[144]. ولم يَكُن ذلك إلّا في القرن التالي تقريباً عندما مكّنهم الإمبراطور ألكسيس الأوّل سنة 1082م من حَيّ ودكاكين وكنيسة ومخبز. وتوالت المراسيم الإمبراطورية خلال القرون التالية لتكرّر الفصول نفسها (مع تجديد بعضها في بعض الأحيان بعد فترات الصِّراع البيزنطيّ-البُنْدقي) لتصل إلى حدّ التمليك[145]. كان آلاف البنادقة في سنة 1170م يعيشون في العاصمة البيزنطية مُحْدِّثين ضغطاً من أجل الحصول على السَّكَن وغيره من المُنشآت الأُخرى. ورغم الجُهُود الإمبراطورية لحصرهم في حَيِّهم بالمدينة، يبدو أنَّ بعض البَنادِقة استقرُّوا في أحياء أُخرى[146]. كما استقرّ التجار البنادقة في معظم الولايات البيزنطية بما في ذلك رودستو Rodosto حيث حصلوا على امتيازات تجارية مثل التي حصلوا عليها في القُسطنطينية[147]. فقد كانت هذه الحُرِّية النسبية في الحركة، وهذا العدد الهامّ من البَنادِقة، أمراً مختلفاً عن وضعيَّتهم في المُدُن الإسلامية في الفترة نفسها.

---

(143) لقد نُشِرَت المُعاهدات بين بيزنطة والغرب في مجموعات عديدة أهمها بالنسبة إلى البُنْدقية مجموعة تافل وتوماس [Tafel and Thomas]، انظر كذلك:

J. Müller (ed.), *Documenti sulle relazioni delle città toscane coll'Oriente cristiano e coi Turchi fino all'anno MDXXXI* (Florence: M. Cellinie, 1879); Marco Pozza and Giorgio Ravegnani (eds.), *I trattati con Bizanzio* (Venice: Il Cadro, 1996).

(144) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, I, 38.

(145) Brown, "Venetians and the Venetian Quarter," 70-71.

(146) Brown, "Venetians and the Venetian Quarter," 82-83.

(147) David Jacoby, "Italian Privileges and Trade in Byzantium before the Fourth Crusade: A Reconsideration," *Annuario de Estudios Medievales* 24 (1994) 365-366.

وقد حصلت كذلك جَنَوة وبيشة وغيرهما من الدول الغربية على الحقّ في التمتُّع بحيّ خاصّ [إمبولو] وكنائس ومنازل وحمّامات وآبار وطواحين ومُنْشآت تِجارية في القُسطنطينية وفي مُدُن بِيزنطية أُخرى خلال سنوات 1150م وفي الوقت نفسه الذي كانوا يُفاوضون فيه من أجل الحصول على فَنادق [فُنْداكو] وامتيازات تجارية في المُدُن الإسلامية المُتَوسّطية[148]. في أواخر القرن الثالث عشر كان هناك شَبَكة مُعقّدة من الأحياء الغربية المُنْفصلة داخل القُسطنطينية تمتدّ على ساحل القرن الذَّهَبي وتوفّر المُنْشآت المُعَدّة للشَّحْن والخَزْن والسَّكَن. وغالباً ما كانت هناك مُنافَسات خاصّة بين جَنَوة وبيشة. وقد أعطت مُعاهدة جَنَوية تمّ التَّفاوُض بشأنها مع الإمبراطور مانويل كومنانوس سنة 1155م للتُّجّار الجَنَويين حَيّاً خاصّاً وتمنحهم حقّ النظر في قضاياهم القانونية الخاصّة "كما كان للبيشانيين بالضبط"[149].

سمحت هَيْمَنة البُندقيّة بعد الحَمْلة الصَّليبية الرابعة سنة 1204م لهذه الجالية بالتوسُّع إلى أبعد ما يكون في حين كانت الجاليات الغربية الأُخرى مُحاصرة أو تمّ التخلُّص منها. فتعاظمت مُمتلكات البنادقة في الأراضي البيزنطية في عهد الحُكْم اللاتينيّ بصورة هائلة وفي الوقت نفسه ظهرت فجأة، في المنطقة، مُؤسَّسة الفُنْداكو ذاتها. فهذا التَّحوُّل لا يُبَيِّن الهَيْمنة اللاتينية وتَزايُد استعمال المُصطلحات الغربية بعد 1204م فقط، ولكنّه يَسْمح باستنتاج أنّ الفَنادق كانت بالنسبة إلى التجار البَنادِقة وإلى الإداريين فضاءات تِجارية مفضّلة. كان البَنادِقة قد أَلِفوا الفَنادق ليس في المُدُن الإسلامية فقط ولكن أيضاً في المناطق التي كانت

---

(148) See Angelo Sanguinetti (ed.), *Nuovi serie di documenti sulle relazioni di Genova coll'Impero Byzantino,* Atti de la Società ligure di storia patria 28 (Genoa: Società ligure di storia patria, 1897) 339-573.

كان البَنادِقة والبيشانيون والجَنَويّون هم الجماعات المُسيطرة ولكن التُّجّار من أمالفي وراغوزا وأنكونا وفلورنسا ومونبليه كذلك كانوا يتعاملون مع القُسْطنطينية. وقد كانت امتيازاتهم مَحْدُودة وقد مُنحت في وقت مُتأخِّر، انظر:

M. Balard, «L'Organisation des colonies étrangères;» Janin, *Géographie ecclésiastique,* 570-576; Abulafia, "Anconitan Privileges in Jerusalem", 527; and Kathryn Reyerson, "Montpellier and the Byzantine Empire: Commercial Interaction in the Meditrrannean World before 1350," *Byzontion* 48 (1978) 456-476.

(149) Sanguinetti (ed.), *Relazioni di Genova coll'Imperio Byzantino,* 344.

تحت سُلْطتهم. فقد كانت لهم فَنادق يُسَيِّرونها في المُدُن الصليبية لفائدة تجارهم ويوجد فُنْدُق في مدينة البُندقيّة ذاتها للتُّجّار الألمان. فعندما اعترف جوفروا دي فلاردوان، أمير أكايا «Achaea» سنة 1209م بسُلْطة البُندقيّة وبسُلْطة الدوج Doge بيترو زياني، وعد التجارَ البَنادقة بأنّ تكون لهم كَنيسة وفُنْداكو صغير الحَجْم ومحكمة في المدينة تعود إلى الدوج بالنَّظَر(150). وبعد سنة من ذلك احتاج ميخائيل كومنانوس وهو من العائلة الإمبراطورية المَخْلُوعة إلى دعم البنادقة لتأسيس دُوَيْلة في البَلْقان سنة 1210م، فعرض هو كذلك عليهم كَنائس وفَنادق ومُنْشآت أُخرى أينما كانوا يُريدون عبر أراضيه(151). وفي القُسطنطينية ذاتها، سهر بودستا البُندقيّة [وهو مسؤول واسع الصلاحية] ياكوبو تيابولو «Jacopo Tiepolo» على بناء فُنْداكو في حزيران/يونيو 1220 فوق أرض اكْتَراها البَنادقة من الأُسْقُف اللاتينيّ(152). كما كانت الدُّوَل الغربية الأُخرى ترغب في الحُصُول على فَنادق في تلك الفترة. فعندما استولى كونت مالطا على جزيرة كريت سنة 1206م بمُساعدة الجَنَويين، وَعَد التجار الجَنَويين سنة 1210م بفَنادق وحمّامات وأفران وما شابه ذلك من الامتيازات التقليدية في كلّ مُدُن الجزيرة. ولكنَّهم لم يتمتّعوا بهذه الامتيازات طويلاً لأنَّ البنادقة استولوا على الجزيرة في السنة التالية(153). وكان يُوجد في مدينة كانديا فُنْدُق جَماعي تحت تَصَرُّف البَنادقة وكان مذكوراً في السِّجِلّ العَقاريّ الرسميّ سنة 1242م(154).

(150) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 97.

(151) Adolf Schaube, *Handelgeschichte der romanischen Völker des Mittelmeergebiets bis zum Ende der Kreuzzüge* (Munich and Berlin : R. Oldenbourg, 1906) 266 (section 207).

(152) Flaminio Cornaro, *Ecclesiae Venetae antiquis monumenyis nunc etian primum editis illustratae ac in decades distributae* (Venice: Baptiste Pasquali, 1749) III, 99. By 1234, Venice also had a *fondaco* on Rhodes (Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 320).

(153) *Liber iurium Reipublicae Genuensis*, I, 553-554; Maria Georgopoulou, *Venice's Mediterranean Colonies: Architecture and Urbanism* (Cambridge: Cambridge University Press, 2001) 18-19, 47.

(154) Archivio di Stato, Venice, Duca di Candia, b. 18, Catastico SS. Apostalorum, f. 175; my thanks to Maria Georgopoulou for this citation, and for other advice on *fondacos* and *loggias* in Candia.

بعد استرجاع اليونانيين للسُّلطة سنة 1261م وما نتج عن ذلك من تَراجُع للتأثير اللاتينيّ، أصبح ذِكْرُ الفَنادق في الأراضي البيزنطية نادراً. وعِوَضاً عن تلك الكلمات أصبحت هناك كلمات أُخرى، خاصّة كلمة لوجيا «loggia»، مُحَبَّذة الاستعمال. فعندما أعاد ميخائيل باليولوغ «Michael Paleologus» لجَنَوة حُقُوقَها في القُسطنطينية سنة 1261م، مَنَحها *لوجيا «loggia» وقَصْراً وحمّاماً وفُرْناً وحديقة وكثيراً من المنازل وفقاً لِما رَغِبَت[155]. وعاودت البُندقيّة كذلك التَّفاوُض لاسترجاع امتيازاتها سنة 1265م وسُرْعان ما حصل تجارها على إعفاء جِبائي وكثير من حُقُوقِهم السابقة بما في ذلك الحصول على مَنازل وحمّامات وأفْران في القُسطنطينية وسالونيك ولكن ليس هناك ذِكْرٌ لفُنْداكو[156].

أصبحت اللُّوجيا في أواخر القرن الثالث عشر مألوفةً جِداً سَواءً في بيزنطة أو في الأراضي اللاتينية في المُتَوسّط الشرقيّ. فهذا الاستعمال المُتوازي في الفترة نفسها في مناطق أُخرى من المُتَوسّط المسيحي تطوّرت خلاله كلمة لوجيا من مُجَرَّد مدلول لفضاء مَفْتُوح لتعني بِنية مُعَدَّة للنشاط التجاري وفضاء تُمارِس فيه الجاليات أعمالها[157]. وقد ذُكِرت اللوجيا مثل الفُنْداكو في علاقة بجاليات سياسية خاصّة (لوجيا البَنادقة بمدينة الماغوصة، فُنْدُق الجالية الجَنَوية...) وهو ما يُشير إلى درجة من السُّلطة والتنظيم الطائفي[158]. كانت كَلِمتا لوجيا وفُنْداكو

(155) *Liber iurium Reipublicae Genuensis*, I, (no. 945), cols. 1350-1359.

(156) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, III, 62-89, 92-100. See also Julian Chrysostomides, "Venetian Commercial Privileges under the Palaeologi," *Studi Veneziani* 12 (1970) 290-298.

(157) اشتُقَّت كلمة لوجيا [*loggia*] في الأصل من كلمة جرمانية تعني فضاءً مظلَّلاً ومفتوحاً وهي تشبه معنى الإمبولو [*embolo*] اليونانية، وستقع مناقشة معنى اللوجيا في غرب المتوسط لاحقاً في الفصلين الخامس والسادس، بشأن «اللوجيا» الغربيّة انظر: Kim Susan Sexton, "A History of Renaissance Civic Loggias in Italy from the Loggia dei Lanzi to Sansovino's Loggeta," Ph. D. dissertation (New Haven: Yale University, 1997).

(158) أُخذت هذه الأمثلة من:

Valeria Polonio (ed.), *Notai genovesi in Oltremare: atti rogati a Cipro da Lamberto di Sambuceto* (Genoa: Università di Genova, 1982) 221-222, 438-439, index 568-569.

مُتلازِمَتَيْن في المَعْنى وفي بعض الأحيان تتداخل معانيهما حتى حوالى سنة 1300م. ففي مدينة كافا «Caffa» الجَنَوية مثلاً حَرَّر العدل لامبارتو دي سامبوشاتو «Lamberto Sambuceto» سبعين عَقْداً في الفُنْداكو الجَنَوي ما بين 1289 و1290م وكثيراً من العُقُود الأخرى في لوجيا الجَنَويين وستّة عُقُود أُخرى في "لوجيا الفُنْداكو نفسه"[159]. وفي نيقوسيا في الفترة نفسها كانت الكَلِمتان مذكورتين ولكنّهما مُنْفَصِلتان كما هو وارد في أحد العُقُود المُحَرَّرة "بِفُنْداكو الجَنَويين بنيقوسيا الذي توجد فيه لوجيا الجَنويّين المذكورين" سنة 1297م[160].

تَبْرز في الفترة نفسها فَنادق الإيطاليين في ما وراء البحار بانتظام كمبانٍ خاصّة بالمُعاملات التِّجارية وخزن البضائع وليست خاصّة بجالية. بعضها كان مُؤَجَّراً ورُبّما كان هذا شأن فُنْداكو الجَنَويين بالماغوصة Famagusta الذي ذُكِر مَرَّتين أنَّه

---

(159) Michel Balard, *Gênes et l'outre-mer* (Paris: Mouton, 1973) I, 401; *Logia sive fondaco* (docs. 38, 56, 353, 392, 416, 423); Laura Balletto, «Da Chiavari al Levante ed al Mar Nero nei secoli XIII e XIV,» *Atti del Convegno Storico Internazionle per l'VIII centenario dell'urbanizzazione de Chiavari (8-10) Novembre 1978)* (Chiavari: Azienda Autonoma Soggiorno e Turismo, 1980) 238, 262-278.

(160) Michel Balard (ed.), *Notai genovesi in Oltremare. Atti rogati a Cipro da Lamberto di Sambuceto (11 Ottobre 1296-23 Giugno 1299)*, Collana Storica di fonti e Studi (Genoa: Università di Genova, 1983) 69 (no. 55).

هناك معانٍ متداخلة أو متشابكة أكيدة في جهات أُخرى. فقد كانت لفظة بيت (*domus*) مُسْتَعملة في قبرص كفُنْداكو في منتصف القرن الثالث عشر، (G. Thomas, "Einen Bericht über die ältesten Besitzungen der Venezianer auf Cypern," *Abbandlungen der Bayerischen Akademie der Wissenschaften*, Philosophisch-Philologische und Historische Klasse (Munich: Bayerischen Akademie der Wissenschaften, 1878) 150. Thomas dates this to 1278, but David Jacoby prefers 1242-1247. See Jacoby, "The Rise of a New Emporium in the Eastern Mediterranean: Famagusta in the late Thirteenth Century," *Meletai kai hypomnemata, Hidryma Archiepiskopou Makariou III* (Leukosia: Hidryma Archiepiskopou Makario, 1984) I, 155, n. 51. Another contract, drawn up in Famagusta in 1302, was written in a shop in the Genoese *fondaco* ("in apotheca fondici Ianuesium Famagoste"). See Romeo Pavoni, *Notai genovesi in Oltremare. Atti rogati a Cipro da Lamberto di Sambuceto (Gennaio-Agosto 1302)*, (Genoa: Università di Genova, 1987) 79 (no. 57).

تحت إشراف بتروس روبايوس «Petrus Rubeus» سنة 1300م (وكما أنّه ليس هناك ذِكْر للوجيا الجَنَويين في تلك المدينة بهذه الصِّيغة)[161]، تُوجد فَنادق أُخرى ذات مُلْك خاصّ. وبقدر ما كانت هناك إشارات لمُؤَسَّسات لوجيا وفَنادق جماعيّة جَنَوية بكافا سنة 1280م، كانت عائلة زكريا «Zaccaria» المُتَنَفِّذة تَمْلك فُنْدُقها الخاصّ في المدينة نفسها وكذلك شأن بعض عناصرَ من عائلات مالوني «Mallone» ولومالّلينو «Lomellino» وبعض الأفراد الآخرين[162]. وكما سنرى في الفُصُول اللاحقة فإنّ هذا الاستعمال يعكس التَّوَجُّه المُعاصر الذي كان سائداً في مُدُن أوروبا الجَنوبية.

بَرَزَت اللوجيا بصفة تدريجية كعِبارة مُهَيْمِنة في بداية القرن الرابع عشر عندما أخذت الوثائق تُشير إلى تَزايُد الاختلاف بين هذه المَباني والفَنادق. ورُغْمَ أنّ الفَنادق لم تَنْقرض فإنّ اللوجيا أصبحت مُنْشأة تجارية مفضّلة عندما يتعلّق الأمر بتوفير فضاء للسَّكَن والخَزْن والتِّجارة للتُّجّار المسيحيين الذين لهم مُعاملات في أراضٍ مسيحية أُخرى إنْ في بيزنطة أو في أراضي ما وراء البحار الغربية أو في مُدُن جَنُوب أوروبا. كان للّوجيات قَناصِل وقد شغلت هذه المُؤَسَّسات العديد من الوظائف نفسها التي قام بها الفُنْداكو والإمبولو «embolo» في وقتٍ ما واللذان أصبحا مراكز للتنظيم العُموميّ والهُوِيّة الجَماعية والحياة المُعاملاتية ومجال مُمارسة القضاء في الخارج[163]. وقد كانت اللوجيات مثل الفَنادق في القرنين

---

(161) Cornelio Desimoni (ed.), «Actes passés a Famagouste de 1299 à 1301 par devant le notaire génois Lamberto di Sambuceto,» *Archives de l'Orient Latin* 2 (1884) III (no. 205), 114 (no. 211).

تحتوي مجموعة ديسيموني [Desimoni] على العديد من الإشارات المُتعلِّقة باللوجيا الجنوية (89, 90, 275, 281, 297, 341, 349) وأكثر من ذلك فيما يتعلّق باللوجيا البُنْدقية (70-75, 77, 108, 282-283, 286-287, 290-291, 293-294, 303, 333). ولكن ليس هناك ما يشير إلى أن هذه المُنشآت كانت مؤجّرة.

(162) George Ioan Bratianu (ed.) *Actes des notaires génois de Péra et de Caffa de la fin du treizième siècle (1281-1290)* (Bucharest: Cultura Nationala, 1927) 255-256 (no. 277); Balard, *Gênes et l'outre-mer*, I, 128 (docs. 323, 324); also docs. 795, 801, 867-869, 871-872, 882; Michel Balard, *La Romanie génoise (XII-début du XVIe siècle)* (Rome: Ecole française de Rome, 1978) 201, 236, 255, 286, 337.

(163) Geo Pistarino, «Les Symboles de Gênes dans les établissements d'outre-mer» in *Coloniser au moyen âge*, ed. M. Balard and A. Ducellier (Paris: Armand Colin, 1995) 302.

الثاني عشر والثالث عشر تُمْنَح للجاليات التجارية الأجنبية ضمن المُفاوَضات الدبلوماسية بين الدول المسيحية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. فعندما منح أندرونيكوس الثاني قطعة أرض في حيّ غلاطا «Galata» للجَنَويين سنة 1304، سمح لهم ببناء منازل ودكاكين للقصّابين ولوجيا وحمّام وكنيسة على تلك الأرض[164]. وبعد سنوات قليلة وفي سنة 1319م شملت امتيازات البنادقة بمدينة طرابزون، التي منحهم إياها ألكسيس الثاني لوجيا وكنيسة ومنازل وحمّاماً[165]. وفي جزيرة كريت كانت لوجيا البنادقة في مدينة كانديا تُستعمل للإعلانات العُموميّة والتجمُّعات والمزادات العلنية التي تنظّمها الدولة. وفي سنة 1325م تمّ نقل هذه اللوجيا من ساحة الميناء إلى مَبْنًى جديد في وسط المدينة[166]. وقد كانت لبيشة لوجيا في الماغوصة وليماسول منذ أواخر القرن الثالث عشر وحصل كلّ من البنادقة والجَنَويين على لوجيات في قبرص في العُقُود الأولى من القرن التالي[167]. وفي فترة لاحقة تحدَّث إيمانويل بيلوتي «Emmanuel Piloti» عندما

---

(164) *Liber iurium Reipublicae Genuensis*, II, (no. 160), cols. 441-444.

(165) E. Concina, *Fondaci. Architettura, arte e mercatura tra Levante, Venezia e Alemagna.* (Venice: Marsilio, 1997) 102.
تعني الإشارة إلى وجود فُنْداكو (fonticum) (سنة 1320م) وخان (Carvasara) (1330م) في طرابزون بعد سنوات قليلة إلى وجود كلمات متنوّعة حَيِّز الاستعمال (المرجع نفسه، ص104) وظلّ استعمال لفظة فُنْداكو شائعاً في طرابزون إلى أواخر القرن الخامس عشر. فقد طالب الفلورنسيون من خلال معاهدة مع إمبراطور طرابزون سنة 1460 بفُنْداكو «للإقامة وخزن البضائع» مع كنيسة مثلما هو الشأن بالنسبة إلى البنادقة والجَنَويين (Müller, *Documenti sulle relazioni toscane*, 186-187 [doc. 138]).

(166) Georgopoulou, *Venice's Mediterranean Colonies*, 84.
تشير المصادر المتأخّرة إلى استمرار فُنْداكو في الوجود في مدينة كانديا Candia (الآن هو مخزن للعموم) (المرجع نفسه، ص51).

(167) حول بيشة، انظر: M. Balard, "I pisani in Oriente della Guerra di Acri (1258) al 1406," *Studi di storia pisana e toscana in onore del prof. Cinzio Violente* (Pisa: Pacini, 1991) 4. حول امتيازات البُنْدقية في قبرص سنة 1302م و1306م انظر: M. L. de Mas Latrie, *Nouvelles preuves de l'histoire de Chypre sous le règne des princes de la maison de Lusignan* (Paris: J. Baur et Détaille, 1873) 47 and M. L. de Mas Latrie, *Histoire de l'île de Chypre sous le règne des princes de la maison de* =

وصف أحد الشوارع الطويلة في الماغوصة سنة 1441م قائلاً "بأنه يَعُجّ بلوجيات رفيعة خاصّة بكلّ أمّة مسيحية ذات نُفُوذ" وهو وَصْفٌ يذكّر بما كتبه بنيامين التُّطَيْلي عن فَنادق الإسكندرية منذ ثلاثة قرون خَلَت[168].

يعكس تطوّر اللوجيا العمل المتواصل والتجديد في مستوى المُصطلحات والمؤسّسات التجارية في العالم المتوسّطي في العصر الوسيط. ففي حالات مُعَيّنة تطوّرت أشكال جديدة لتلتقي مع حاجات وظروف جديدة في حين تواصلت مؤسّسات قديمة في مناطق أخرى وتطوّرت نحو أشكال جديدة من المقرات والأسواق. وعلى الرغم من أنّ اللوجيا أصبحت مُهَيْمِنة على الموانئ المسيحية في بداية القرن الرابع عشر، فإنّ الفُنْداكو واصل ازدهاره في المُدُن الإسلامية. فقد ظلّ انطلاقاً من القرن الحادي عشر، المؤسّسة الأولى في تنظيم وتسهيل التِّجارة المسيحية في الموانئ الإسلامية، واستمرّ في الاضطلاع بهذه الوظيفة مع بعض التغييرات الطفيفة خلال الفترة المَمْلوكية إلى العهد العثماني. من الواضح أن الفُنْدُق كان يُلَبِّي الحاجات اليومية والرغبات الجبائية لكلّ من التجار المسيحيين الأجانب والسُّلطات الإسلامية. ويُعَدُّ نقلُ هؤلاء الغربيين لهذه المؤسّسة فيما بعد إلى مُدُنهم الأصلية بأوروبا شهادة أخرى على طول نَفَس الفُنْداكو وعلى مرونته. وكما سنبيّن في الفصلين القادمين، فإنّ حقيقة أنّ الحُكّام والتجار الغربيين في الأراضي التي استولوا عليها قد كيَّفوا الفُنْدُق والفُنْداكو ليناسبا الظروف الجديدة تشهد على فائدة هذه المؤسّسة المستمرّة وعالميتها.

= *Lusignan* (Paris: Imprimerie Nationale, 1852-1873) II, 104)؛ وكذلك بالنسبة إلى الامتيازات الجنوية في قبرص سنة 1326م، انظر: (Mas Latrie, *Histoire de l'île de Chypre*, II, 156). وقد حصل تُجّار نَرْبونة Narbonne على لوجيا في جزيرة رودس سنة 1351م، انظر (C. Port, *Essai sur l'histoire du commerce maritime de Narbonne* [Paris: Durand, 1854], 119). وقد أصبحت اللوجيا شائعة في الأراضي العثمانية المبكّرة. وفي سنة 1353م كان للبنادقة لوجيا وفرن وكنيسة ومنازل في إمارة أيدين (Zachariadou, *Trade and Crusade*, 127-129).

(168) E. Piloti. *Traité d'Emmanuel Piloti sur le passage en Terre Sainte (1420)*, ed. P. -H. Dopp (Louvain and Paris: Editions E. Nauwelaerts, 1958) 76.

الفصل الخامس

الغزو والمجال التجاري:
مِثال أيبيريا

أثر الغزو في المجال التجاري

لقد كان التوسّع العسكري والسياسي المسيحيّ في العصر الوسيط الأوسط على حساب الأراضي التي كانت بين أيدي المسلمين، وكذلك كان لنموّ تجارة ما وراء البحار الأوروبية، نتائج هامّة على تطوّر المجال التجاري في الجهات التي تمّ غزوها. بعد سُقُوط المُدُن الإسلامية في شبة الجزيرة الأيبيرية وصِقِلّية والشرق الأوسط بين أيدي المسيحيين على إثر الحروب الصليبية والاسترجاع المسيحيّ خلال القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر،تم تبنّي المؤسّسات الحَضَريّة الإسلامية ـ بما فيها الفُنْدُق ـ وملاءمتها لتلبية حاجات الوضع المسيحيّ الجديد. ونظراً لكون هذه المنشآت عالية الربح سواء في التِّجارة أو فرض الضرائب أو الكِراء اهتمّ الحكّام المسيحيون الجُدد بالحفاظ عليها وعلى إدارتها. مع بداية الغزو المسيحي، اتخذ التجار كذلك تدابير للحفاظ على نظام الفُنْداكو إلّا أن استعمالهم لهذه المؤسّسة سيتراجع تدريجاً تحت السُّلطة المسيحية. فقد أحدث الغزو في صِقِلّية وإسبانيا تغييراً سياسيّاً ودينيّاً مستمرّاً، حتى إن الفُنْداكو وما شابهه بين 1280 و1290م أخذ شكلاً مسيحيّاً جديداً واضحاً. في المقابل ستعود الأراضي الصليبية تحت الحكم الإسلاميّ في نهاية القرن الثالث عشر.

هناك تشابُه لافت للنظر في الطريقة التي انتقل بها الفُنْدُق للاستعمال المسيحيّ تحت سُلطة الأنظمة الجديدة في أيبيريا وصِقِلّية والإمارات الصليبية في

الفترة نفسها تقريباً. فالصِّلة الواضحة هي وجود التجار الإيطاليين الذين كانوا نَشِطِين في مختلف هذه الجهات سواء قبل الغزو المسيحي أو بعده. وفي كثير من الحالات طلب الإيطاليون من الحكّام المسيحيين بعد انتصاراتهم مباشرة بمواصلة العمل بالامتيازات التجارية التي كانوا يتمتّعون بها في ظلّ الإدارة الإسلامية في السابق أو بتطبيق ما لهم من حقوق في جِهات أُخرى. وفي حالات أُخرى سبق أن وعد الغُزاة بتنازلات في المستقبل (بما فيها الفَنادق) لفائدة المُدُن - الدول الإيطالية مقابل الدعم البحري في الحملات العسكرية القادمة[1].

إلّا أنّ الارتباط المُباشر بين المستويَيْن الإداري والسياسي كان أقلّ وضوحاً. فمن غير شكّ أن الحكّام في إسبانيا وصِقِلّية والشرق اللاتيني كان كلٌّ منهم يُدرك أنشطة الآخر، ولكنْ ثَمَّةَ شكٌّ في اعتمادهم بصفة واعية لسياسات متشابهة إلّا في حالات استثنائية (مثلما هو الشأن في المَمالك المتجاورة كمَمْلكتَي الأراغون وقَشتالة في فترة وصاية فريدريك الثاني على القُدس أو في فترة سيطرة الأراغون على صِقِلّية). فبدلاً من ذلك، كان التشابُه في منهجهم لإدماج الفُنْدُق وليدَ تَشابُه الظروف والقيود التي كان الحُكّام في مختلف الجهات يعملون فيها. وفي الوقت نفسه، تعكس الاختلافات بين المناطق الثلاث في تَقَبُّل وإدماج الفُنْدُق الإسلاميّ ليس الاختلاف في التِّجارة في كلّ جِهَة وحسب ولكن أيضاً في مستوى بُناها السياسية المُتمايزة والتَّراتُبيّات الاقتصادية وقِدَم تَعَوُّدها على الأشكال الإسلامية.

سَيَمْسح هذا الفصل إدارة الفُنْدُق في المناطق الخاضعة حديثاً للمسيحية في ظلّ العرش القشتالي وممالك الأراغون في الفترة الممتدّة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر، وسينظر في أثر الغزو في هيكل الأحياء الخاصّة بالتجار الأجانب سواءٌ في المناطق التي استولى عليها المسيحيون حديثاً ــ مثل

(1) وكما سيقع تفصيله لاحقاً، فقد وعد ألفونس السابع الجنويين بفَنادق وامتيازات أُخرى في مدينة ألْمَرِيّة سنة 1146م. وقدَّم فريدريك بربارُوسّا الوعود نفسها مقابل مساعدة جنوة ضد صقلية سنة 1162م وفي سنة 1190م وعد فيليب أوغست الجنويين بالحصول على فَنادق في كلّ مدينة إسلامية تستولي عليها فرنسا.

المُستعمرات القَطَلانيّة في تونس الحَفْصِية ـ أو في المُدُن التي لا تزال تحت الحُكْم الإسلاميّ. سيفحص الفصل التالي إذن التطوّرات المُوازِية في صِقِلّية وجنوب إيطاليا والإمارات الصليبية[2].

خدمت كذلك الهياكلُ المادّيّة في المُدُن الإسلامية ـ المنازل والأفران والحمّامات والأسواق والفَنادق والإسطبلات- الأهدافَ نفسها تحت الحكم المسيحيّ مثلما كان ذلك تحت الحكم الإسلاميّ. وهكذا واصلت العديد من الفَنادق دورها كمَقَرّات للسكن المؤقّت وكمخازن للسلع وأماكن للبيع وجمع الضرائب. وفي بعض الحالات كان هذا التواصل الوظيفي صريحاً ولو أن المنشآت الحالية قد تغيّرت. ففي سنة 1225م مثلاً، عندما طلب ألفونس العاشر ملك قشتالة من المسلمين المقيمين في مورون «Moron» أن يرحلوا إلى سيليبار «Siliebar» ليُفْسِحوا المكان للمسيحيين الجُدُد ليسكنوه، وعد الملك بأن تكون لهم "حمّامات ودكاكين وأفران وطواحين وفَنادق" في مقرّهم الجديد "مثلما كانوا يتمتّعون به في الماضي على عادة الموريين moors [المسلمين]"[3]. وفي بعض الأحيان كان لا بُدَّ من تغييرات جوهرية مثلما تمّ تحويل المساجد والمدارس الدينية إلى كنائس ومُنشآت أُخرى مَقْبُولة في المدينة المسيحية. وفي المناطق التي ظلّت تقيم فيها أقلية مسلمة حافظ عدد قليل من المساجد على طابعه الأصلي لتستعمله تلك المجموعة، ولكن كان ضروريّاً تحويل أغلب المباني خاصّة المباني الكبيرة ذات البُنْيان البارز لخدمة الأهداف المسيحية وللدعاية.

وقد تمَّ بسرعة إدماجُ المُؤسّسات التي تُنتج دَخْلاً، كالأسواق والفنادق، في الإطار الاقتصادي المسيحي. ولِئَن تمّ تحويل العديد من الفَنادق الصغيرة الشائعة في المُدُن الإسلامية لأغراض أُخرى (حُوِّلَتْ غالباً إلى مساكن وإسطبلات ومخازن) مع مجيء السُّلطة المسيحية، فإنَّه من الواضح أنّ عدداً منها أصبح مُلْكاً

---

(2) ستقع مناقشة تطوُّر الفَنادق المسيحية في هذه المناطق وغيرها في أوروبا الجنوبية خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر، في الفصل التاسع.

(3) Nicolás Tenorio y Cerero, *El concejo de Sevilla. Estudio de la organización político-social de la ciudad desde su reconquista hasta el reinado de Alfonso XI* (Seville: Imp. De E. Rasco, 1901) 264-266.

للعرش وحافظت على دور هامّ في الحياة الاقتصادية للمدينة. فهذه الفَنادق المَلَكِيّة التي عادةً ما يُشار إليها بكلمة "فَنادقُنا" في الوثائق الرسمية، كانت من العلامات البارزة في المناطق الحديثة العَهْد بالمسيحية. فقد كانت موجودة بالتوازي مع المُنشآت الصغيرة التي يملكها الأفراد ومع الفَنادق المُخَصَّصة للجاليات الإيطالية وغيرها من الجاليات التجارية الأُخرى (فَنادق "الأمم")، ولكنّها تختلف عن كليهما. كانت الفَنادق المَلَكِيّة تُستعمل باستمرار كمُستودعات يمكن أن يطلب التجار الوافدون أن يضعوا فيها أمتعتهم أو يُوضع فيها نوعٌ مُعيَّن من البضائع للخزن والبيع ودفع الضرائب. كما استُعملت بعض المُنشآت المَلَكِيّة كمساكن ولكن مع تركيز على مُراقبة البضائع أكثر من مُراقبة التجار والتأكيد على أن نسبة مُعيَّنة من مداخيل التِّجارة كانت تُحمل إلى الخزينة المَلَكِيّة.

ومع أنّه ليس من الإبداعات المسيحية، فإنّ الفَنادق المَلَكِيّة بارزة في السِّياقات المسيحيّة، بما أنَّ هذا التقليد التوثيقي يميل إلى التركيز على السُّلْطة المَلَكية، فقد كانت الفَنادق منذ وقت طويل واحدة من بين مجموعة من المُنشآت- مع الأفران والطواحين والحمّامات والأسواق والمباني الدينية- التي كانت تُعتبَر جُزءاً من مَتاع الدولة في العالم الإسلاميّ. فكثيراً ما كانت المصادر العربية تذكر علاقة الفَنادق بالحُكّام. فقد كان بعضها يُعْرَف بفُنْدُق السُّلطان وعدد كبير منها أنجزه الخُلَفاء والسلاطين والأُمراء. وكان العديد منها مُؤَسّسات خَيْريّة والبعض الآخر كان لِغايات رِبْحِيّة تهدف إلى إنشاء المشاريع الوَقْفِيّة، في حين كان غيرها مُستعمرات تجارية تابعة للسُّلطة تهدف إلى جَلْب السلع لبيعها وجمع الضرائب. فمثلاً في مصر سنة 1219م وهي فترة أزمة، أَغلقت الإدارةُ الأيّوبية "كل فُنْدُق تُباع فيه مواد مثل الكتّان وغيره من البضائع الأُخرى. وصدر الأمر بألّا يُباع شيء إلّا في وَكالة السُّلطان"[4]. فتصف هذه المُحاولة لمراقبة الأنشطة التجارية لمصلحة الحكومة، نَمُوذجاً إدارياً كثير الشَّبَه بما نراه في إسبانيا وصِقِلّية والإمارات الصليبية خلال القرن الثالث عشر.

(4) Sāwīrus ibn al-Muqaffa‘, *Patriarchs of the Egyptian Church* (Cairo: 1943), IV, 32-33 (Arabic); 68 (English).

يُبرهن ظُهور الفَنادق المَلَكِيّة المسيحية ليس على مَدى قُدرة الحُكّام والإداريين المسيحيين على هَضْم وتبنِّي المُؤسّسات الجِبائية الإسلامية لفائدتهم الخاصّة وحسب، ولكن أيضاً على مَسار تَشَعُّب الفُنْدُق الإسلاميّ إلى مُؤَسَّسات مُستقِلّة ولكن مُتَناغمة في الإطار المسيحي. فقد شدَّ انتباهَ الباحثين، الذين وصفوا الفُنْدُق على اختلاف تسمياته «*al hóndiga, fondech, fonduk*» في شبه الجزيرة الأيبيرية أو الفُنْدا «*funda*» والفُنْداكو في الإمارات الصليبية، التنوُّعُ في استعمال هذه المُصطلحات. فقد لاحظ روبرت بيرنز «Robert Burns» أنّ كلمة فُنْدوك «*fonduk*» في مَمْلَكَتَي الأراغون وقشتالة تطرح "إشكالاً دلاليّاً" لأنّ كلّ كلمة يمكن أن تُخْفي العديد من الوظائف، في حين كتب جوناثان رايلي سميث «Jonathan Riley-Smith» "هناك أربعة معانٍ مختلفة على الأقلّ" لكلمة فوندا «*Funda*» وفُنْداكو في سوريا [الشام] اللاتينية[5]. كان الناس في العصر الوسيط يُدرِكون الروابط بين المصطلحات وتشعُّبها. فلم تكن المُصطلحات الرومانسية المحلية مفهومة فقط كترجمة لكلمة فُنْدُق العربية في كلّ جِهَة، بل كانت تعتبر مُرادِفات لها في مختلف المناطق. ففي رواية قشتالية للحروب الصليبية من القرن الثالث عشر الغَزْوة الكُبْرى لما وراء البحر «*La Gran conquista de Ultramar*» إعادة أَمِينة لما تضمّنته وثيقة لاتينية فيها امتيازات تجارية للبنادقة بمدينة صُوْر سنة 1123م بترجمة كلمة فوندا «*funda*» بالفُنديقا «*alfóndiga*»[6]. وحتى لا يقع

(5) R. I. Burns, *Medieval Colonialism. Postcrusade Exploitation in Islamic Valencia* (Princeton: Princeton University Press, 1975) 65-66; Jonathan Riley-Smith, "Government in Latin Syria and the Commercial Privileges of Foreign Merchants," in *Relations between East and West in the Middle Ages*, ed. Derek Baker (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1973) 115-116.

تمثل هذه الملاحظات جزءاً من الوصف المفصّل والجيّد لهذه المؤسّسات في ممالك الأراغون وفي بلاد الشام الخاضعة للّاتين، انظر:

Burns, *Medieval Colonialism*, 64-76 and Riley-smith, "Government in Latin Syria," 109-122. Also R. I. Burns, "Baths and Caravanserais in Crusader Valencia," *Speculum* 46 (1971) 443-458.

(6) *Pactum Warmundi*, in Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, I, 84-89; *La gran conquista de Ultramar que mando escribir el Rey don Alfonso el Sabio*, ed. Pascual de Gayangos, Biblioteca de los Autores Españoles 44 (Madrid: Ediciones Atlas, 1951) 409.

الخلطُ، لا بدّ من الإشارة إلى أن كلمة فوندا القشتالية الحديثة (التي تعني نُزُلاً) مُشتقّة هي الأُخرى من الفُنْدُق ولكنّها تبدو كما لو أنها جاءت إلى اللُّغة القشتالية من اللُّغة الفرنسية (مُنْحدرةً من الفوندا اللاتينية) في بداية العصور الحديثة[7].

لا يُستغرب تعقيد المفهوم واستعماله. فعندما وجد التجار والغُزاة المسيحيون في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الفُنْدُق الإسلاميّ، كان آنذاك مؤسّسة مُتعدّدة الوظائف الحكومية منها والتجارية والجِبائية والاجتماعية والحِرَفية. وقد كان هذا التعدّد الوظيفي مفهوماً تماماً في الإطار الإسلاميّ وهو لا يُكَوِّن مُشكلاً ولكن هذه المؤسّسات لم تكن مفهومة بالقدر الكافي من قبل الغربيين الوافدين والذين لا يعرفون عادة إلّا القليل من اللُّغة العربية واهتمامهم بالمؤسّسات المَحلّية لا يتجاوز الاهتمامات الفَرْدية الخاصّة.

وقد فهم التجار الغربيون الذين يمارسون أنشطتهم في الموانئ الإسلامية أنّ الفُنْدُقَ هو عبارة عن مكان منفصل خاصّ بالسَّكَن والخَزْن والتِّجارة وفيه يمكن استعمال اللُّغة الأصلية التي تعوّدوها وتطبيق قوانينهم ومُمارسة شعائرهم الدينية وتناول أطعمتهم المُعتادة. فإنّ فَهْمَهُم لهذا النوع من الفُنْدُق تمّ نقله في أنحاء المتوسّط المسيحيّ في الوقت الذي كان التجار يَسْعَوْن للعثور على تسهيلات مماثلة في الأراضي غير الإسلامية حتى إنهم جلبوا نماذج لهذه المؤسّسة إلى جنوب فرنسا وقَطَلونيا وإيطاليا. وفي الوقت نفسه الذي سقطت فيه المُدُنُ الإسلامية تحت سيطرة الحكومات المسيحية في بداية الغَزَوات، كان حُكّام هذه المُدُن الجُدُد يَتُوقُون إلى مُلاءمة الخصائص الجبائية لبعض الفَنادق- كمؤسّسات لجمع الضرائب ومُراقبة التِّجارة - لتلبية حاجتهم المالية الخاصّة. كما كان على الحُكّام أيضاً توفير فَنادق وطنية للتُّجّار الإيطاليين وغيرهم من الذين كانوا يبحثون عن الاستقرار أو مواصلة الحُصُول على قواعد تجارية في مَمالك هؤلاء الحُكّام. وفي الوقت نفسه كانت الفَنادق الصغيرة التي تملأ المُدُن الإسلامية قد مُنِحَت

---

(7) لم أعثر على كلمة فوندا [*fonda*] في النصوص الأيبيرية الوسيطة، وأوّل ذِكْر لهذه العبارة يَرِد في القرن الثامن عشر في قاموس الأكاديمية المَلَكِيّة الإسبانية سنة 1791م. وتبقى أصولها غامضةً بعض الشيء، ولكن يُفترض أنها مُشْتَقّة هي أيضاً من عبارة فُنْدُق، انظر:
Joan Corominas and José A. Pascual, *Diccionario crítico etimológico castellano e hispánico* (Madrid: Editorial Gredos, 1980) II, 927-929.

قطعةً قطعةً لتكون أملاكاً خاصّة أو مُمتلكات يُؤجّرها المسيحيون للسَّكَن والتّجارة أو الحِرَف. وقد كان البعض منها يحمل اسم فُنْداكو وهو ما يُعبِّر عن أصولها إلّا أنّ أغلبها قد ذاب في الأشكال الحَضَريّة المسيحية وأصبحت تحمل أسماء أُخرى فيَصْعُب تَتَبُّع تطوُّرها.

وهكذا فإنّ مؤسّسة إسلامية مُعقّدة إلى حدٍّ ما قد تمّت تجزئتها إلى أشكال مُختلفة في ظلّ الحُكم المسيحي. هناك سؤال يطرح نفسه على الفور وهو كيف يمكن لهذه النماذج المختلفة، التي غالباً ما كانت مُتنافسة التعايُش مع وضعها المسيحيّ الجديد. يبدو أنّ الفَنادق المَلَكِيّة والفَنادق الوطنية كفضاءات تجارية مُتنافسة، كانت على خلاف بعضها مع بعض في السياق المسيحيّ رغم أنها لم تكن كذلك في العالم الإسلاميّ. فقد كانت أغلب الفَنادق في المُدُن الإسلامية ـ خاصّة تلك التي كانت مخصّصة للجاليات التجارية الأجنبية ـ موضوع تنظيم مُحْكَم من قِبَل الدولة وتحت إشرافها. وعلى عكس ذلك فقد كانت الفَنادق التابعة للجَنَويين والبيشانيين أو البنادقة في إسبانيا المسيحية وصِقِلّية والإمارات الصليبية أقل خُضُوعاً للمراقبة من قِبَل الدولة من الفَنادق المَلَكِيّة. ولم يكن التجار الإيطاليون الوافدون للتّجارة بإشبيلية ومسّينا وعكّا رعايا للحُكّام المحليين ولم يكونوا أجانب من الكُفّار ليس لهم من النفوذ إلّا أهمّيتهم الاقتصادية. بل على العكس من ذلك كان الإيطاليون وغيرهم من التجار الآخرين في وضعية قوية تسمح لهم بالمطالبة بتنازلات وبامتيازات هامّة من الملوك والنبلاء في الشرق اللاتينيّ وإسبانيا وصِقِلّية لأن سُفُنَهم كانت توفّر النقل البحريّ والمواصلات والمَؤُونة والتّجارة. لذلك مُنح التجار الغربيون فَنادق خاصّة بهم في العديد من المُدُن حديثة العهد بالسُّلطة المسيحية حيث يعيشون ويمارسون نشاطاتهم. وقد كان من الضروريّ تجنُّباً للمنافسة بين الفَنادق المَلَكِيّة والفَنادق الوطنية أن يُفْصَل بين مجالات النشاط. فاختلفت الترتيبات (وكما كان في جميع المحاولات التشريعية كانت هناك بعض الثَّغَرات) ولكنّ الحُكّام حاولوا مِراراً فرضَ احتكار بعض البضائع على أن تتمّ مُبادلة بعضها من خلال المَخازن المَلَكِيّة. فعلى التجار الأجانب إما أن يُحضروا سِلَعَهم إلى الفَنادق المَلَكِيّة لبيعها أو لخَزْنها وإمّا عليهم أن يذهبوا للفَنادق المَلَكِيّة لاقتناء نوعٍ معيَّن من البضائع في حين تكون فَنادقهم مُعدّة للإقامة وبعض الأنشطة الأُخرى.

ونتيجةً لهذه التنظيمات التي تسعى إلى تهميش الفَنادق التي بيدي الجاليات الأجنبية ونتيجةً للمصالح الجِبائية المَلَكِيّة الجديدة المُضَمَّنة للتنظيمات التي تهمّ البضائع أكثر ممّا تهمّ التجار، تَرَاجَعَ استعمال كلمة فُنْداكو تدريجيّاً في أماكن عديدة خلال القرن الثالث عشر. وحلّت مَحلّه اللوجيا لتصبح أكثر المُنْشآت المُسْتَعمَلة للسكن التجاري وخَزْن البضائع والمُبادلات في المُدُن المسيحية في المجال المتوسّطي باستثناء بعض الموانئ القليلة التي لا يزال فيها التبادل عبر الثقافات يواصل دعمه لوجود الفُنْداكو. ففي بَلَنْسية مثلاً، كان التجار المسلمون الوافدون مُطالَبين بالإقامة في فَنادق تُشْرِف على تسييرها السُّلطة المَلَكِيّة، في حين كان للتُّجّار المسيحيين المَنازل واللوجيات الخاصّة في المدينة. وفي المُدُن الإسلامية المُعاصرة تَوَاصَلَ فَصْلُ المسيحيين الأجانب في الفَنادق السَّكَنيّة. ومن الواضح أنّه كان هناك إدراك متزايد في القرن الثالث عشر أنّ الفُنْدُق كان الأنسب لتنظيم التفاعُل والتبادُل عَبْر الواجهات الدينية والسياسية. وفي الوقت نفسه، كان هناك إدراك متزايد أنّ الرقابة الصارمة للأفراد ليست ضرورية بين المسيحيين، وأصبحت السِّلَعُ محلَّ الاهتمام في الفَنادق التي يُديرها المسيحيون، بدلاً من الناس.

هناك جانب مُحَيِّر بصورة خاصّة في انتقال المُؤسَّسات الحَضَريّة الإسلامية من الحاكم المسلم إلى الحاكم المسيحيّ في بداية الغزوات الأوروبية وهو إلى أيّ حدّ يمكن أن يُقَدِّم تحليل هذا الانتقال توضيحاً جَلِيّاً للأشكال الإسلامية السابقة أو المعاصرة لهذه المؤسّسات. هذه منطقة عَصِيّة، لأنها تستدعي نقاشاً عكسياً وربّما يكون تمريناً مُفيداً على الأقلّ لتوسيع نظرتنا إلى الفُنْدُق الإسلاميّ عبر جُمْلة من الفَرْضيات وتقديم تفسيرات مُمْكنة لبعض الجوانب الغامضة فيه. إنّ الوثائق المسيحية الوسيطية، خصوصاً العُقُود العدلية والعُهُود المَلَكِيّة وسِجِلّات الضرائب والمُراسلات الرسمية وهي مَحْفُوظة أكثر من نظيراتها في العَربية، تُعطي صورة عن الفُنْداكو المسيحيّ لا يمكن الحصول عليها بالنسبة إلى الفُنْدُق الإسلاميّ. ففي المناطق التي انتقلت من الحكم الإسلاميّ إلى الحكم المسيحيّ من المُمْكن ـ أو من المُرَجَّح ـ أنّ كثيراً من خصائص إدارة المؤسّسات الحَضَريّة الحديثة المسيحية ـ اتّبعت إلى حدّ بعيد الممارسات الإسلامية الأولى. فيمكن أن تكون الفوندا «*funda*» والفُنْداكو في الإمارات الصليبية والفُنْدِكُوم «*fundicum*» في

صِقِلّية والهُنْدِقا «alhóndiga» في قشتالة والفُنْداك «fondech» في ممالك الأراغون شبيهة، إلى حدّ ما، بالفَنادق التي سبقتها في الوجود.

ومع ذلك، في حين كانت المُمارسة المسيحية غالباً ما تعكس الاستعمال الإسلاميّ السابق، قد تكون تأثّرت في مواطن أُخرى بالأشكال المسيحية المُوازية. فإدارة الفَنادق الحديثة المسيحية في القرن الثالث عشر، مثلاً، قد تكون متفرّعة ليس عن المُمارسة الإسلامية فقط لكن ربّما كذلك من ملاحظة السياسات التي اتَّبعها الإداريون المسيحيون في مناطق أُخرى أو من الوصف الذي قدّمه التجار للفُنْداكو في أماكن أُخرى. كما أنّه من المُمْكن أن تكون إدارة الفُنْداكو في الأراضي المسيحية قد أثّرت في نظيراتها في المُدُن الإسلامية، سواء نتيجة تأثير تنقُّل التجار بين المناطق المجاورة (مثلما هو الشّأن بين غَرْناطة والأندلُس وبين صِقِلّية وتونس أو عبر الحدود بين الشام المُسلِمَة واللاتينية) أو ـ كما هو الشّأن في الإمارات الصليبية عندما رجعت هذه الأخيرة تحت السُّلطة الإسلامية.

بغضّ النظر عن جاذبية هذه الاحتمالات التي ترى التواصُل المُتبادَل والتأثيرات العابرة للثقافات لا يجب التَّغافُل عن أهمّية الانقطاعات والتغييرات التي أحدثها التقدّم العسكري المسيحي. فقد أحدث الاستيلاء على الأراضي نتيجة للحروب الصليبية والغَزْو في الشرق الأوسط وصِقِلّية وإسبانيا قطيعةً جذريةً على المُسْتوى الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. وقد اضْطُرَّت أعداد ضخمة من الناس إلى الهجرة أو تغيير نَمَط حياتهم، وفقد الكثيرون منهم حياتهم أو أسباب الحياة. وقد كان الإداريون المسيحيون الوافدون قليلي الاهتمام بتواصُل المُؤَسّسات الإسلامية أو بالاحتفاظ بها لذاتها، إلّا إذا كانت هذه الأشكال القديمة مناسبة لتلبية حاجتهم.

الفُنْدُق والهُنْدِقا والفُنْداك في أيبيريا المسيحية

واصل مُلُوك قشتالة والأراغون خلال القرن الثالث عشر خُططاً متماثلة للغَزْو وجابهوا مشاكل إدماج مُدُنهم الإسلامية الجديدة ومؤسّساتها الحَضَريّة. فقد ابتدع فرديناند الثالث (1217-1252م) وألْفونس العاشر (1252-1284م) وجيمس الأوّل ملك الأراغون (1213-1276م) تِقْنيّاتُ متشابهة دون أن تكون

مُتطابقةً لتَنْصِير أراضيهم الجديدة. كان الفُنْدُق قد تطوّر عبر مَسارات مُتشابهة في كِلا المَمْلَكتين يعمل كمخزن تحت الإدارة المَلَكية ومكان إقامة ومركز جِبائي للبضائع ـ وهي جميعها تُوَفِّر مداخيل هامّة للمَلِك. ومع ذلك، فإنّه رغم وجود الفَنادق المَلَكِيّة في كِلتا المَمْلكتين فقد كان التركيز عليها مُختلفاً. ففي قشتالة أكّدت مُؤسّسة الهُنْدِقا على دور الفُنْدُق السابق كمحطّة تجارية ومكان لخزن البضائع، في حين واصل الفُنْداك في الإطار القَطَلاني ـ الأراغوني لعب دَوْر مقرّ إقامة للتُّجّار ومستودع للبضائع في الوقت نفسه. كما كانت الفَنادق الخاصّة بالجاليات الإيطالية موجودة في كِلتا المَمْلكتين، وكانت الفَنادق القَطلانيّة موجودة في الخارج. وكما ستتمّ مناقشته لاحقاً في هذا الفصل، فإنّ النجاح العسكري للملك جيمس الأوّل في شرق شِبْه الجزيرة وأسلوبه العدائي على مستوى السياسة الجِبائية، قد أثَّرا في إدارة الفَنادق القَطَلانيّة في تونس الحَفْصِية التي اعتبرتهم في وضعية مُغايرة لنظرائهم من البيشانيين والجَنَويين مثلما تمّت مناقشة ذلك في الفصل الرابع.

أدّت حملات الاسترجاع كما يُسمّي الإسبان جُهُودهم العسكرية للاستيلاء على الأراضي الإسلامية في شِبْه الجزيرة، إلى إخْضاع العديد من الأراضي الأندلُسية إلى سُلْطة مسيحية دائمة. وبالرغم من القِراءات التي تُعيد هذه الجهود إلى القرنين التاسع والعاشر، فإنّ النجاحات العسكرية الفعلية للاسترجاع قد بدأت سنة 1085م مع الاستيلاء على طُلَيْطُلة من قبل ألْفونس السادس ملك قشتالة وليون. وقد تَبع ذلك التوسّع الأراغوني إلى وادي نهر الإبرو في بداية القرن الثاني عشر مع الاستيلاء على سَرَقُسْطة سنة 1118م وغزو طُرْطوشة من قبل القَطَلانيّين سنة 1148م. ومع هذا، فقد وقعت بعض النَّكَسات خلال القرن الثاني عشر عندما قامت القُوّات المُرابطية والمُوَحّدية بتجديد القُوَى الأندلُسية وتقوية الدِّفاعات الحدودية. وقد حدثت نُقْطة التَّحَوُّل سنة 1212م مع انتصار القوى المسيحية المُشتركة في معركة العِقاب «*Las Navas de Tolosa*» وسيشهد مُنْتصف القرن التالي على التوسُّع والاستيلاء المُذْهل على الأراضي في عهد فرديناند الثالث وجيمس الأوّل. فكانت المُدُن تسقط الواحدة تِلْوَ الأُخرى في أيدي المسيحيين، فسقطت قُرْطُبة وإشبيلية تحت سيطرة قَشتالة في سنوات 1236م و1248م في حين تمّ ضمّ ميورقة سنة 1229م وبَلَنْسية سنة 1238م إلى ممالك الأراغون.

أُجْبِرَ الاستيلاءُ على مُدُن طُلَيْطُلة وسَرَقُسطة وبَلَنْسية وقُرْطُبة وإشبيلية وغيرها من المُدُن العديدة الأُخرى، الحكّامَ المسيحيين على تطوير طُرُق لإدماج الأراضي الجديدة ومعالجة استقرار سُكّانها. فلم يكن النَّهْب الجَماعي والطرد هو الاختيار الذي تمّ اتّباعُه في المناطق التي كان الحُكّام يرغبون فيها في الحفاظ على قاعدة اقتصادية في أراضيهم الجديدة. لذلك كانت هناك جُهُود لإبقاء المسلمين على الأرض في وضعية استِعْباد في غالب الحالات من أجل الحِفاظ على الإنتاج الزراعي. أمّا في المُدُن فقد رَكَّز الحُكّام على حماية الحيوية الاقتصادية للبُنَى الحَضَريّة أكثر من الحفاظ على اليد العاملة. فأُجبر العديد من المسلمين على إخلاءِ بيوتهم وتَرْك مُمْتلكاتهم مِمّا أدّى إلى توفُّر العديد من المباني وأحياء المُدُن لتصبح من مُمْتلكات الدولة وتوزيعها على الوافدين الجُدُد من المسيحيين. وقد كان من بينها العديد من الفَنادق التي كانت عادة تُعْرَف باسم الهُنْدِقا أو الفُنْدِقا في قشتالة والفُنْدك في مَمْلَكَتَي الأراغون وقَطَلونيا. وحتى قبل الانتصارات الرئيسية في القرن الثالث عشر كانت تُعْرَّف على أنّها عَقارات ذات قِيمة. ففي سنة 1101م إبّان السيطرة القصيرة على مدينة بَلَنْسية من قِبَل رودريغو دياز «Rodrigo Diaz» المعروف بالسِّيْد el Cid، قامت أرملته خيمينا «Jimena» بِجَرْد الفَنادق ضمن العديد من المُمْتلكات التجارية والعائلية التي مُنحت لكاتدرائية المدينة[8].

إنّ تحليل هذا الإدماج للمؤسّسات الإسلامية في الأراضي المُسْتَرْجَعة في إسبانيا مُثْمِرٌ بصورة خاصّة لأن الوثائق غنية جداً- أكثر ممّا هو في صِقِلّية وفي الإمارات الصليبية. فقد كان توزيع المُمْتَلكات التي أصبحت مسيحيّة منذ أَمَدٍ قريب في أيبيريا مُسَجَّلاً حسب نَمَط مُوَحَّد هو سِجِلّ التقسيم وهو جَرْدٌ للعقارات الحَضَريّة والريفية التي تمّ توزيعها على السُّكّان الوافدين. ويتمّ تحيينُها كلّما أصبح توزيع الأراضي أكثر ثَباتاً فكانوا يُسَجِّلون بكلّ دِقّة كلّ منزل أو دُكّان أو فُرْن أو مَسْجد أو فُنْدُق أو إسطبل أو غيره من البُنَى كالحدائق الحَضَريّة أو قِطَع الأراضي الفَلّاحية مع كِرائها وكلّ ما من شأنه أن يُعَرِّف بها وكذلك اسم الشخص أو المَجْمُوعة التي مُنِحَتْ لها. وصل إلينا العديد من سِجِلّات التقسيم، بشكل من

(8) Ramó Menéndez Pidal, *La España del Cid* (Madrid: Espasa-Calpe, 5th ed., 1956) II, 870.

الأشكال، من العديد من مُدُن القرن الثالث عشر مع أنَّ أطولَ السّجلّات وأهمَّها هي تلك التي تعني ميورقة وبَلَنْسية وشَرِيش ومُرْسية وإشبيلية[9]. وقد ذُكِر حوالى خمسين فُنْدُقاً في سِجلّات تقسيم بَلَنْسية وهو ما يعني أنّ هذه المُنشآت قد انتشرت في العديد من المُدُن الإسلامية الأُخرى قبل غَزْوها. وفي المَواطن التي تكون فيها السِّجلّات مَنْقُوصة توجد مَصادر أُخرى تُعَوِّض النقص مثل العُهُود المَلَكِيّة القشتالية والأراغونية وتُعطي صُورة عن المؤسّسة كما تطوّرت تحت رقابة الحُكّام المسيحيين.

وكما هو الأمر في الشرق الأوسط وفي شمال إفريقيا، فإن وجود أسماء أماكن حديثة ومن العصور الوسطى في إسبانيا تُدَلِّل على وجود فنادق قد اختفت. ففي سنة 1170م، مثلاً، منح ألفونس الثامن قرية ألفُنْدقا Alfondega في

(9) Manuel González Jiménez and Antonio González Gómez (eds.) *El repartimiento de Jerez de la Frontera: estudio y edición* (Cadiz: Instituto de Estudios Gaditanos, 1980); Julio González (ed.), *Repartimiento de Sevilla. Estudio y edición* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1951); Juan Torres Fontes (ed.), *Repartimiento de Murcia* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1960); Juan Torres Fontes (ed.), *Libro del repartimiento de las tierras hecho a los pobladores de Murcia* (Murcia: Real Academia de Alfonso X el Sabio, 1991); Próspero de Bofarull y Mascaró (ed.), *Repartimientos de los reinos de Mallorca, Valencia, y Cerdaña* (Barcelona: Imprenta del Archivo, 1856); Manuel González Jiménez, «Repartimientos andaluces del siglo XIII, Perpectiva de conjunto y problemas,» in *De al-Andalus a la sociedad feudal: los repartimientos bajomedievales*, ed. Manuel Sánchez Martínez (Barcelona: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1990) 95-117.

للأسف لقد ضاع القسم المُتعلّق بتقسيم الجانب الحَضَريّ من مدينة إشبيلية وليس هناك تسجيل لتقسيم منازلها وفَنادقها وغير ذلك من المُمْتلكات التي توجد في المدينة. وما يَحُزّ في النفس كذلك هو أن النصّ اللاتيني لتقسيم ميورقة قد سَجَّل بدقّة مُتناهية توزيع الطواحين والأفران والبساتين والحمّامات والمنازل ومقرّات الإقامة (hospitia and albergs). وتظهر هاتان الكلمتان الأخيرتان بكثرة بحساب 20 أو 30 تسجيلاً في الشارع الواحد أو من خلال منحها لشخص واحد، ولكن بسبب عدم وجود هذا الجزء من النصّ اللاتيني في النصوص العربية، لا يمكننا أن نعرف إذا كان أيٌّ منها في الأصل فُنْدُقاً. (Bofarull [ed.], *repartimiento de los reinos de Mallorca, Valencia, y Cerdaña*, 58-68، يجب أن نلاحظ أن النصوص الأُخرى من سِجِلّات التقسيم، اللاتينية والرومانسية تستعمل عبارات مُتآصلة Congnates (مثل فُنْدِكُوم [*fundicum*]) لا ترجمات لِلَفظة فُنْدُق.

منطقة القَرِّية Alcarria لفائدة الإسبيتارية[10]، كما توجد أسماء أماكن أُخرى مثل الفُنْدقلا «Alfondeguilla»، وهي قرية صغيرة في منطقة كاستلون «Castellón» وفنداك مارينيان «Al fàndek de Marinyén» بالقرب من بَلَنْسية والهُنْدِقا في مُقاطعة مالقة «Málaga» فكلّ ذلك يؤكّد وجود فَنادق في هذه المناطق في وقت ما[11]. وكذلك داخل المُدُن، تشهد الأسماء الحديثة للشوارع والساحات في قُرْطُبة ومالقة وإشبيلية وفي مناطق أُخرى على وجود الفَنادق والهُنْدِقا في وقت سابق[12].

تفيد أشكال كلّ من الفُنْدقا أو الهُنْدِقا بقشتالة وفُنْدك أو الفُنْدك الأراغوني-القَطَلانيّ أن هذه الكلمات مشتقّة مباشرة من اللُّغة العربية وهو ما يفرضه الإطار الأيبيري وليس من لغة مسيحية أُخرى مثل الفُنْدِكُوم «*fundicum*» اللاتينيّ أو الفُنْداكو الإيطالي[13]. وتؤكّد قوائم الكلمات الأيبيرية والمَعاجم هذا الاشتقاق المُباشر وتؤمّن دلالات إضافية على الاستعمال والدَّور. وقد تُرْجِمت قائمة

---

(10) Remedios Morán Martín, "La organización de un espacio de la Orden de Calatrava en el siglo XII: la Alcarria," in *Espacios y fueros en Castilla-La Mancha (siglo XI-XV). Una perspectiva metodológica*, ed. Javier Alvarado Planas (Madrid: Ediciones Polifemo, 1995) 291-293.

(11) Leopoldo Torres Balbás, "Las alhóndigas hispanomusulmanas y el Corral del Carbón de Granada," *al-Andalus* 11(1946) 451. On Alfàndec de Marinyén, see R. I. Burns (ed.), *Diplomatarium of the Crusader Kingdom of Valencia* (Princeton: Princeton University Press, 1985-2001), III: *Transition in Crusader Valencia: Years of Triumph, Years of War, 1264-1270, 50-2* (doc. 520)
وبالنسبة إلى أماكن أُخرى، انظر: Maria del Carmen Barceló Torres adds Fondeguilla to this list (*Minorías islámicas en el país valenciano. Historia y dialecto* [Valencia: Instituto Hispano-Árabe de Cultura, 1984] 381).

(12) See for example Jesus Zanón, *Topografía de Córdoba almohade a través de las fuentes árabes* (Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1989) 73-74.

(13) حول الاشتقاقات، انظر Eero K. Neuvonen, *Los arabismos del español en el siglo XIII* (Helsiniki: Societa Orientalis Fennica, 1941) 37-38; also Arnald Steiger, *Contribución a la fonética del hispano- árabe y de los arabismos en el ibero-románico e el siciliano* (Madrid: Libreria y Casa Editorial Hernando, 1932) 114.
وكما هو الشأن في جِهات أُخرى من أوروبا هناك عبارات لاتينية أُخرى تعني الفَنادق والخانات في إسبانيا مشتقّة مباشرة من لفظة مأوى [*hospes*] ولا علاقة لها بالفُنْدُق، =

الكلمات العربية [*Vocabulista in arabico*] مَنْسُوبةً إلى رامون مارتي «Ramon Marti» (وربما كان شِبْهَ أكيد أنه من شرق إسبانيا) في القرن الثالث عشر، وقد تُرجم فيها كلٌّ من الفُنْدُق والخان بكلمة ستابولوم «*stabulum*» اللاتينية، مع التأكيد على دور المؤسّسة كمكان للسكن وربط الدواب في تلك الفترة[14]. واقترح بيدرو دي ألكالا «Pedro de Alcalá» في فترة لاحقة في سنة 1505م العبارات القشتالية:

Méson, posada, alhóndiga and *venta taverna en el camino*

لتقوم مقام الكلمة العربية «فُنْدُق» كما اقترح الكلمات

Mesonero, alhondiguero or *ventero*

كبدائل للفُنْدقير «*fundaqayr*» (أو المُشْرِف على الفُنْدُق) وهو يشير مرة أُخرى إلى وظيفة السكن والتِّجارة التي تضطلع بها هذه المؤسّسة[15].

فقد كان المُدَراء في قشتالة وممالك الأراغون (على عكس نُظَرائهم الأوروبيين الشماليين القادمين إلى صِقِلّية والدُوَيلات الصليبية) معتادين بالفعل على الفُنْدُق والعديد من المؤسّسات الإسلامية الأُخرى حتى ولو كان ذلك من خلال نماذج نُصْرِنَتْ، وذلك منذ أمد طويل قبل الغزو الحالي للمُدُن الإسلامية. وقد سمح التجاور الطويل المَدَى بين السكّان المسلمين والمسيحيين في شبه الجزيرة بتحويل تدريجيّ للمُؤسّسات والمُصطلحات بين الثقافات المختلفة. فقد كان الأيبيريون المسيحيون، حتى أولئك الذين كانوا في المناطق التي لم تكن قطّ تحت سُلطة المسلمين، على معرفة بمختلف أوجه الحياة الإسلامية، لأنّ الكلمات والمُصْطلحات الاقتصادية التي تتعلّق بالسلع والنقود والمنتوج الفلاحي والأطعمة والمؤسّسات والتِّقْنيّات والموازين والمكاييل كانت تخترق الحدود من

= ويرد ذِكْرها في نُصُوص مختلفة، انظر، على سبيل المِثال، الأحكام على المُضِيفين hosts وحُسْن الضيافة hospitality في الـ *Fuero of Cuenca* cap. XII، في "De foro hospitorum," *Forum Conche*, ed. George H. Allen, *University Studies* (University of Cincinnati) series 2, 4 (1910) 108-109.

(14) Torres Balbás, "Las alhóndigas hispanomusulmanas," 447-448.

(15) Pedro de Alcalá, *Petri Hispani de lingua Arabica libri duo*, ed. Paul de Lagarde (Göttingen: Arnoldi Hoyer, 1883) 98, 311, 353, 427.

جِهَة إلى أُخرى ترافق المسافرين والبضائع. وتعود أقدم إشارة إلى الفُنْدقا «alfondega» إلى سنة 1033م في مملكة ليون التي تبعد أميالاً عديدة شمالي الحدود مع الأندلُس[16]. وفي القرن التالي، قبل سنوات من استيلاء ألفونس الأوّل ملك الأراغون على تُطَيْلة، تَذْكُر مُعاهدة أُمضيت سنة 1119م تجاراً مسيحيين كانوا يسكنون فُنْدُق المدينة[17]. وبعد ثلاثين سنة، في سنة 1148م يذكر عهد من رامون بيرنغر الرابع «Berenguer IV» للمسلمين بمدينة طَرْطُوشة التنازُلات التي قام بها ألفونس في السابق ويؤكّد على تأمين خزن السلع في الفُنْدكس «Alfondechs»[18]. تُشير مصادرُ أُخرى كذلك بما فيها عهد خيمينا لكنيسة بَلَنْسية سنة 1101م، إلى ظاهرة التواصل. ولكي تكون الفَنادق قائمة وعاملة على الفور بعد الغزو المسيحيّ لا بدّ أن الحُكّام والتجار المسيحيين كانوا على معرفة جيّدة بهذه المُؤَسّسات.

يبدو واضحاً بعد الغزو المسيحيّ لمدينة طُلَيْطُلة سنة 1085م، أنّ الفَنادق المَحلّية ظلّت تشتغل. تذكر عُقُود المُسْتَعربين التجارية وغيرها من الوثائق الأُخرى، التي حُرِّرت بالعربية بدايةً من أوائل القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر، العديد من الفَنادق الموجودة في المدينة. ففي ديسمبر 1203م، مثلاً، اشترى أُسقف مدينة طُلَيْطُلة ثلاثة منازل مجاورة لأحد الفَنادق وبعد ذلك

---

(16) M. Gómez-Moreno, *Iglesias mozárabes. Arte español de los siglos IX a XI* (Madrid: Centro de Estudios Históricos, 1919) 122.

(17) Tomás Muñoz y Romero, *Colección de fueros municipales y cartas pueblas de las reinos de Castilla, Léon Corona de Aragón, y Navarra* [Madrid, 1847]; repr. Madrid: Edicioes Atlas, 1978) I, 416.

لقد تمّ تأريخ النصّ المنشور سنة 1115م رغم أن محتواه يسمح بالقول بأنه يعود إلى ما بعد سنة 1119م.

(18) Próspero de Bofarull y Mascaró (ed.), *Procesos de la antiguas cortes y parlamentos de Cataluña, Aragón, y Valencia* (Barcelona : D. José Eusebio Monfort, 1849) IV, 133 (doc. 56).

تحتوي هِبَة من ألفونس الثاني إلى دير بوبليت [Poblet] سنة 1176م إشارة إلى فُنْدُق بطرطوشة (AHN, Cod. 992b, f. 12r-v).

أشكر بريان كاتلوس [Brian Catlos] على مَدّي بهذه الوثيقة وغيرها من وثائق الأرشيف غير المنشورة التي تحتوي على إشارات إلى الفَنادق بالأراغون.

هناك عقد بَيْع مُؤَرَّخ سنة 1242م يتعلّق بمنزل مجاور لإحدى جهات فُنْدُق مَهْدُوم[19]. من المؤكّد أنّ جماعة المُسْتَعربين كانوا متعوّدين تماماً على الفُنْدُق في إطارهم الإسلاميّ وظلّوا يميّزونه ويذكرونه باسمه العربي خلال وسط القرن الثالث عشر.

رغم أنّ العديد من الفَنادق في الأراضي التي تمّ الاستيلاء عليها هي من مُخَلَّفات الفترة الإسلامية فمن الواضح تماماً أن أبنية أخرى كانت منشآت حديثة العهد. وفي فترة تقرب من القَرن من الاستيلاء على مدينة وشقة سنة 1096م، يوجد عهد من عهود ألفونس الثاني مُؤَرَّخ في سنة 1229 (1191)م، يذكر فُنْدُقاً تمّ بناؤه حديثاً في حَيّ من أحياء المدينة كان يسكنه المسلمون ويعملون فيه[20]. وبعد ذلك في سنة 1266م عندما منح جيمس الأوّل ساحة في رَحْبة السوق بمدينة بَلَنْسية إلى أرنو دي روماني «Arnau de Romaní» كانت الهدية مُعْفاة من الضرائب مدى الحياة مع شرط وحيد هو أن لا يُحَوّلها أرنو إلى فُنْدُق[21]. إلّا أنه بعد سنتين من ذلك مَنَح جيمس الإذن إلى واحد آخر ببناء فُنْدُق ودكاكين بمدينة برشلونة[22].

الفَنادق والعرش

قد يكون اهتمام جيمس بإنشاء فَنادق جديدة، خاصّة، نابعاً من الرَّغبة في حماية المداخيل التي تعود على مُنشآته المَلَكِيّة الخاصّة. هناك أدلّة أنّ الهُنْدِقا

(19) González Palencia, *Mozárabes de Toledo*, I, 270 (doc. 329), II, 149 (doc. 558).

(20) Cartulario de la Iglesia de San Pedro el Viejo (Huesca), fol. 134v
توجد نسخة مصورة من هذا المخطوط محفوظة بجامعة سَرَقُسْطة. أشكر بريان كاتلوس [Brian Catlos] على هذه الوثيقة.

(21) Burns (ed.), *Diplomatarium*, III, 236-237 (doc. 692).
ربّما كانت هذه الهِبَة ذات قيمةٍ كبيرة. ويبدو جيمس [James] هنا وهو يخاطب أرنو [Arnau] بلغة حميمة وقد أصبح أرنو [Arnau] فيما بعد عُمْدة لمدينة بَلَنْسية. وفي سنة 1268 وافق جيمس على بيع فُنْداكو على مِلْك خاصّ ببَلَنْسية ويبدو أنه كان ذا قيمة، وهو ما يبيِّن أن كُلّ المنشآت لم تكن تحت تصرُّفه (Burns [ed.], *Diplomatarium*, III, 369 [doc. 810]).

(22) ACA, c, reg. 15, fol. 107v (15 kal. July 1268).

والفُنْداك كانا مرتبطين بالملك سواء في مملكة قَشتالة أو في ممالك الأراغون. وقد كانت هذه المباني في بعض الأحيان بين أيدي أُناس آخرين كانوا قد أخذوها من الملك ولكن في بعض المراحل كانت تُدار نيابة عن الملك. كان الحكّام المسيحيون مثل سابقيهم من المسلمين يرغبون في الإشراف على حركة التّجارة بالنسبة لبعض المنتوجات خاصّة المواد الغذائية ليتمكّنوا من مُراقبة الأسعار وتوفير ما يحتاج إليه الناس في فترات المَجاعة وتوسيع موارد الخزينة عبر المُكُوس التجارية وكلّ ما سبق ذكره[23]. ومثلما كان الأمر بالنسبة إلى الفَنادق في السابق، فقد كان الهُنْدِقا المَلَكي في قَشتالة والفُنْدك في ممالك الأراغون في القرن الثالث عشر وسيلتين جَيِّدتين لتحقيق هذه الأغراض، لأنه كان بإمكان الحاكم أن يطلب نقل البضائع إلى تلك المخازن للبَيْع والخَزْن وفَرْض الضرائب ويمكن أن يطلب من التجار أن يسكنوا داخل تلك المؤسّسات.

تأتي بعض أقدم الأدلّة حول الفُنْداكو الملكي من مدينة طُلَيْطُلة حيث تذكر وثائق المستعربين مِراراً مؤسّسة تدعى فُنْدُق السُلطان بجوار الكاتدرائية. ففي عَقْد بيع يعود إلى سنة 1117م بعد ثلاثين سنة تقريباً من الاستيلاء على المدينة: نجد وصفاً لمنزل مُجاور لهذه المؤسّسة، تذكر وصية تعود إلى سنة 1187م منزلاً آخر في مُحيط فُنْدُق السُلطان والعديد من العُقُود التي تتعلّق ببيع العقارات ما بين 1212 و1217م "فُنْدُق مَنْ أَيّده اللّه" وهي مؤسّسة عرفها غونزاليز بالانثيا «González Palencia» على أنّها "الهُنْدِقا المَلَكِية"[24]. وقد ذُكرت وظيفتها المُعاصرة في عَقْد بيع يعود إلى سنة 1170م على أنها "فُنْدُق السُلطان حيث... يذبح الإفرنج الأبقار"[25].

(23) كما أشار إلى ذلك توماس غليك [Thomas Glick] وغيره يبدو أن الإدارة المُمَرْكَزة والسُلطة الجِبائية في عهد الحُكّام الأندلُسيين كانتا نموذجاً جَذّاباً بالنسبة إلى المُلُوك المسيحيين T. F. Glick, *Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages* [Princeton:) .(Princeton University Press, 1979] 213

(24) González Palencia, *Mozárabes de Toledo*, 58-59, I, 8 (doc. 10), III, 469 (doc. 469), II, 12 (doc. 396), II, 48 (doc. 441).

(25) González Palencia, *Mozárabes de Toledo*, volume preliminar, III, 517-518 (doc. =1099).

كان الهُنْدِقا خلال القرن الثالث عشر بقَشتالة مذكوراً بصورة خاصّة على أنه من مُمتلكات المَلِك وحالة واحدة في مدينة شَريش على مُلْك الملكة[26]. وفي سنة 1253م، بعد الاستيلاء على مدينة إشبيلية بقليل، سمح ألفونس العاشر بمنح منزل في إشبيلية بجوار "الفُنْدُق المَلَكي «*Alfondiga del Rey*»"[27]. وفي مرسوم آخر من السنة نفسها عَمد الملك إلى ذكر المُمارسات السابقة المُتعلّقة بالهُنْدِقا في إشبيلية عندما أمر بأن يوجّه المسلمون الذين يأتون بالبغال المُحَمَّلة بالحبوب إلى إشبيلية ولكي ينزلوا في الهُنْدِقا التابع له وأن يدفعوا ما كانوا يدفعونه من أداءات في ظلّ حكم أمير المؤمنين"[28].

وأبعد ممّا يجري به العمل في قشتالة، كان الفُنْداك في شرق الأندلُس من المُمتلكات المَلَكِيّة ومصدراً هامّاً من مصادر الدخل لِلْعرش. وتتأتّى الأرباح من وظيفته كَمَقرّ إقامة للتُّجّار وكمَخْزَن للسِّلع ومكان للمُبادلات التجارية - في نهاية القرن الخامس عشر على الأقلّ - كماخُور وحانة مرخّص لهما[29]. وقد ذُكِرت

= يشير عقد بيع منزل سنة 1166 (I, 56-57, doc. 79) إلى فُنْدُق كان مُسْتَعملاً كمسلخ إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة أنه فُنْدُق السُّلطان. وقد اعتبر بيرنز [Burns] أن دكاكين الجَزّارين هي من الاحتكارات المَلَكِيّة في إسبانيا في القرن الثالث عشر (*Medieval Colonialism, 43*). يشير كذلك اقتسام الحصص في بَلَنْسية إلى وجود فُنْدُق لِلْحم (المرجع نفسه، ص283) ومع أن بيرنز كتب "يبدو أنه خطأ في الاسم" إلا أن الإشارات الموازية تفيد أنه كان كذلك، أي فُنْدُق الجَزّارين أو ربّما لبيع اللّحم الطازج (المرجع نفسه، ص70).

(26) González Jiménez and González Gómez (eds.) *repartimiento de Jerez* no.) حول الهُنْدقا المَلَكِيّة، انظر 1827). Torres Balbás, "Las alhóndigas hispanomusulmanas," 453-454.

(27) A. Ballesteros y Baretta, *Sevilla en el siglo XIII* (Madrid: Establecimiento Tipográfico de Juan Pérez Torres, 1913) xlix (doc. 44).

(28) M. Fernández Gómez, P. Ostos Salcedo, and M. L. Pardo Rodríguez (eds.), *El Libro de privilegios de la ciudad de Sivilla* (Seville: Ayunatamiento de Sevilla, 1993) 148.

كان المُسلمون المحلّيون والمُسلمون الوافدون مَعْفيِّين من دفع هذه الضريبة التي تُعَرَّف على أنّها ضريبة على الرؤوس يدفعها أيٌّ كان يوميّاً في فُنْدُقِي (الفُنْدقا [*alfóndiga*] المَلَكي).

(29) Burns, *Medieval Colonialism*, 65-66; M. D. Meyerson, *The Muslims of Valencia in the age of Fernando and Isabel: Between Coexistence and Crusade* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1991) 155, 320.

على وجه التحديد في كثير من الحالات هذه المُؤَسَّسات في ممالك الأراغون على أنها من أملاك الملك تحت تسمية "فُنْدُقنا" أو "فُنْدُق الملك" كما هو الحال في مدينة شاطِبة، و"فُنْدُق مَلِكِنا" في برشلونة، و"فُنْدُق سَيِّدنا الملك" في سَرَقُسْطة[30]. وكما هو الشأن في الجِهات العديدة الأُخرى كانت مُؤَسَّسات الفُنْداكس واحدة ضمن كوكبة من المؤسّسات التي تُعْتَبر من مُمتلكات الملك كأن نَجِد في وثيقة تعود إلى سنة 1246م أقطع بمقتضاها جيمس الأوّل "منازل ودكاكين للحِرَف وحمّامات وطواحين وأفراناً وفُنْداكس وحدائق" بمدينة دانية لفائدة سيد ريبوليه «Lord of Rebollet»[31].

الفَنادق والتّجارة

إنّ المادّة التي تُوَفِّرها سِجلّات التقسيم والمصادر المعاصرة لها من قَشْتالة تربط الهُنْدقا بصورة متكرِّرة بنوعيّة مُعَيَّنة من المواد خاصّة مثل الطحين والقمح والخبز والزيت والسمك والملح. إنّ مواد أساسيةً كهذه، كانت دائماً مُحْتَكَرة من قِبَل الملك خلال القرن الثالث عشر وكان بعض هذه الفَنادق من مُنْشآت الملك وتحت سُلْطته وهي ربّما من مخلّفات المُمارسات الإسلامية السابقة[32]. قد كانت الفَنادق في العالم الإسلاميّ خاصّة في المَغْرِب والأندلُس مُسْتَعَملة بصورة خاصّة كمخازن لهذا النوع من المواد الأساسية. فعندما قام جيمس الأوّل بتوزيع

(30) Játiva (1252): Bofarull y Mascaró (ed.), *Repartimiento de los reinos de Mallorca, Valencia, y Cerdaña*, 419; R. I. Burns, *The Crusader Kingdom of Valencia. Reconstruction on a Thirteenth-century Frontier* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1967) 140. Onteniente (1263); Burns, *Medieval Colonialism*, 69. Barcelona (1243): J. Miret I Sans and M. Schwab, "Documents sur les juifs Catalans aux IXe, XII, et XIIIe siècle," *Revue des Etudes Juives* 68 (1914) 179 (doc. 26). Zaragoza (1294): ACA, c, reg. 194, fol. 85r (1294).

(31) Joaquim Miret i Sans (ed.), *Itinerari de Jaume I «El Conqueridor»* (Barcelona: Institut d'Estudis Catalans, 1918) 176.

(32) إن الفكرة المسيحية التي تقول بالحقوق المَلَكِيّة على بعض المواد مثل الملح تطوَّرت في الفترة نفسها وقد تكون هي أيضاً مأخوذة عن التقاليد الإسلامية، انظر:

Reyna Pastor de Togneri, "La Sal en Castilla y Léon. Un problema de la alimentación y del trabajo y una politica fiscal (siglos X-XIII), *Cuadernos de Historia de España* 37-38 (1963) 67-81.

المُمْتلكات في مدينة مُرْسية حديثة العهد بالغزو في شهر مارس 1266م، تذكر إحدى الوثائق منازل مجاورة لفُنْدُق المَخْزن(33). فالظاهر أنّ سُكّان مُرْسية الجُدُد لم يكونوا قطّ على معرفة بالعادات الإسلامية ولكنهم واصلوا في كثير من الأحيان المُمارسات السابقة.

يوجد في إشبيلية هُنْدِقا للطحين (الهَرِينة أو الفَرِينة) في أبرشية القدّيس بيدرو «San Pedro» في منتصف القرن الثالث عشر- وربّما تكون المؤسّسة نفسها التي طلبت من التجار المسلمين أن يحملوا إليها الحبوب سنة 1253م- وهُنْدِقا للمِلْح قرب باب أرينال «Puerta de Arenal»(34). ويظهر هُنْدِقا آخر للملح في سجلّات التقسيم بمُرْسية (1266- 1272م) كمؤسّسة حديثة العهد بالإنشاء بأمر ملكي، ولكنّها بُنيت على موقع الهُنْدِقا الإسلاميّ القديم(35). ويحتوي سِجِلّ التقسيم في مدينة شَريش (1269م) كذلك على إشارات عديدة إلى أن هُنْدِقا الطحين/الفَرينة توجد مُتاخمة لحيّ اليهود بالمدينة(36). وهناك مؤسّسة أُخرى بإشبيلية، هي هُنْدِقا التُن Atún، تبيع السمك بجوار الكاتدرائية سنة 1250م(37). وبما أن زيت الزيتون كان من أشهر صادرات إشبيلية في العهدين الإسلاميّ والمسيحي، فإنه لا غرابة في أن نجد في وثيقة مَنَح بمقتضاها سانشو الرابع هُنْدِقا الزيت إلى مجموعة من التجار القَطَلانيّين الذين يعملون بإشبيلية سنة 1292م(38).

كذلك ونتيجةً لتزايد الاهتمام بالهُنْدِقا كمؤسّسة خاصّة بخزن البضائع وبيعها

---

(33) Burns, *Diplomatarium*, III, 212-213 (doc. 671).

(34) González, *Repartimiento de Sevilla*, I, 515-516.

(35) Torres Fontes, *Libro del Repartimiento de Murcia*, 96r-96v; also Torres Fontes (ed.), *Repartimiento de Murcia* (1960) 244.

(36) M. González Jiménez and Antonio González Gómez, *Repartimiento de Jerez* (nos. 1631, 1632, 1875, 1882, 1919).

ليس هناك ما يؤكّد أنْ كان لشريش فُنْدُقان للقَمْح، واحد بجوار عدد من المنازل بحيّ اليهود (nos. 1875, 1882, 1919) والثاني بجوار عدد من المنازل (أحدهما أيضاً بجوار حيّ اليهود (ملاصق لأبرشية القديس ديونيزيو [San Dionisio] (nos 1631, 1632). أعتقد أن هذه الإشارات تعني جميعها المبنى نفسه.

(37) (Alfonso X of Castile), *diplomatario andaluz de Alfonso X*, ed. M. González Jiménez (Seville: Caja de Huelva y Sevilla, 1991) 277-278 (doc. 250).

(38) Capmany, *Memorias*, II, 76.

في قشتالة، فقد انعكس ذلك من خلال التشريعات المَلَكِيّة. ففي كتاب الأقسام السبعة، وهو مجلّد ضخم في القانون أعدَّه ألفونس العاشر في القرن الثالث عشر، نجد الهُنْدِقا كمخزن للسِّلع ومكان لبيع البضائع وفي حالة واحدة يقع التمييز بين المُشْرِف على الفُنْدُق والمُشْرِف على الهُنْدِقا المُعَدّ "للقمح والشعير والطحين الذي تمّ جلبه إلى هناك على ظهور البغال"[39]. وفي نصّ قانوني آخر ضِمْن هذا المُجَلَّد يتعلّق بحالة "من ينقل أو يبيع القمح والخَمْر والزيت أو أيّ بضاعة أُخرى في الهُنْدِقا"[40]. ورغم أنه ليس هناك ما يفيد بصورة مباشرة بأن هذه المُؤَسّسات هي مُؤَسّسات مَلَكية، فإنها قد لعبت دوراً في تأسيس نقاط لجمع وتوزيع بعض البضائع.

تُواصل المصادر التي تعود إلى القرن الرابع عشر وما بعده إظهار الهُنْدِقا القَشتالية كأداة مَلَكية هامّة لمُراقبة التِّجارة، خاصّة تجارة الحبوب، وكذلك لجمع الضرائب. ففي سنة 1340م، كانت الأوامر الصادرة عن الملك ألفونس الحادي عشر تهدف إلى تنظيم البيع بالتجزئة في إشبيلية عن طريق الهُنْدِقا المُعَدّ للحبوب والملح، غير أنّ المراقبة لم تكن مشدّدة كما ستكون عليه في القرن التالي حيث كانت الشروط المَلَكِيّة أكثر صَرامةً فيما يتعلّق بجلب الحبوب إلى فُنْدُق الخُبْز[41]. يذكر مرسوم من القرن الرابع عشر بيع الطحين "في الهُنْدِقا وخارجه" مشيراً إلى جواز كِلا الخيارين[42]. وكذلك نجد في قائمة من قوائم الضرائب المؤرّخة سنة 1344م أمراً بأنه يمكن لتُجّار التجزئة (المُفَرِّق) "أن يشتروا القمح أو الشعير لبيعه في المدينة أو في الهُنْدِقا أو أيّ موقع مُعَدّ للبيع بالمُفَرَّق" إلّا إذا كانوا قد عُوقِبوا من قِبَل مجلس المدينة[43]. وفي سلسلة أداءات أُخرى من

(39) *Las Siete partidas*, partida VII, title XIV, law 7, in *Los Códigos españoles* (Madrid, 2nd ed., 1872) IV, 367-368; trans. Samuel Parsons Scott, *Las Siete partidas* (new edn., ed. R. I. Burns, Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2001) V, 1382.

(40) *Las Siete partidas*, partida III, title XXX, law 7, *Códigos*, III, 371, *Las Siete partidas*, trans. III, 851.

(41) The fiftheenth-century *Alhóndiga del pan* will be discussed in chapter 9.

(42) Joaquín Guichot y Parody, *Historia del excmo, Ayuntamiento de la muy noble, muy leal, muy heróica é invicta Ciudad de Sevilla* (Seville: Tipografí de la Región, 1896) I, 225-256.

(43) Guichot, *Ayuntamiento*, I, 247 (item 31).

إشبيلية تعود إلى سنة 1347م هناك تمييز بين بيع الملح بالمُفَرَّق الذي يجب أن يكون في دكاكين الهُنْدِقا في حين أنّ البيع بالجُمْلة يجب أن يكون في مَخْزن الملح «Almacen de la Sal»[44].

وعلى عكس الوضع في قَشتالة، كانت الفَنادق المخصّصة لبيع منتوجات مُعيَّنة في البلاد القَطَلانية الأراغونية أقلّ شيوعاً. فبعض المواد التي كانت مرتبطة بالهُنْدِقا في قشتالة مثل الحبوب والمِلْح لم تكن مرتبطة بالفَنادق في ممالك الأراغون رغم أنها كانت موضوع أشكال أُخرى من التنظيم والتمكيس[45]. قد يكون هناك فندك للوَرَق وهو مادّة هامّة تُنتج في المنطقة المجاورة لمدينة شاطبة. ففي سنة 1282م، أعفى بطرس الثالث المسلمين من شرط "السكن وتفريغ سلعهم وبيع الورق" في الفندك المَلَكي. وبعد ثلاث سنوات من ذلك، في سنة 1286م تقريباً، أُلقِي القبض على مسلم من شاطبة بعد أن دخل خِلسة إلى الفندك الملكي في بَلَنْسية وسرق الورق، وهذا قد يعني أنّ المبنى كان يُستعمل مخزناً[46]. وربّما مثلما حدث في مصر، أنَّ هذا السارق هو في الواقع تاجر يحاول ترحيل بضاعته من الفُنْدك تَهَرُّباً من دفع رسوم الخَزْن والأداءات الناتجة عن البيع[47]. ومن الواضح أنّ الأمن كان موضوع اهتمام السُّلطة، فعندما أقرّ بطرس الثالث راتب حارس جديد للفُنْدك الملكي في المنطقة الإسلامية ببَلَنْسية سنة 1276م، كان التأكيد على أنّ ذلك الراتب هو بدل "لتأمين البضائع وكلّ شيء آخر" في المَبْنى[48].

---

(44) Guichot, *Ayuntamiento*, I, 265.

(45) مثلاً، كان المِلْح يُباع في الفوليس [*alfolís*]، وهي لفظة قد تكون مشتقّة من الهُري وهي تعني بالعربية مخزن الحبوب عِوَضاً عن الفُنْدك [*fondechs*] ومن الجدير بالذِّكر أنه فيما بعد، وفي الممالك الأراغونية في صِقِلّية وجنوب إيطاليا، فإنّ الملح سيوزَّع ويُباع من خلال الفنداكو (انظر الفصلين السادس والتاسع).

(46) Both references cited by Burns (ed.), *Diplomatarium*, I: *Society and Documentation in Crusader Valencia, 170-171.*

(47) Piloti, *Traité*, 180-181.

(48) Burns, *Medieval Colonialism*, 73-74; J. E. Martínez Ferrando, *Catálogo de la documentación relativa al antiguo reino de Valencia* (Madrid: Imprenta Góngora, 1934) II, 23 (no. 62).

في حين أنّ الهُنْدِقا القشتالية كَثَّف من مُراقبة حركة تنقّل البضائع أكثر من حركة الناس، واصل الفُنْدك في ممالك الأراغون دوره كمَقَرّ إقامة للتُّجّار وغيرهم من المُسافرين الآخرين. وكان كثير من هذه المؤسّسات ـ أو على الأقلّ تلك التي توردها المصادر ـ من المُمْتلكات المَلَكِيّة. كان بعضها مُسَيَّراً بصورة مُباشرة في حين كان بعضها الآخر مُعَداً لجمع الضرائب أو مقابل نسبة مئوية من دخلها. يبدو خلال القرن الثالث عشر، وبصورة خاصّة في عهد جيمس الأوّل، أنّ الفُنْدك كان مهيّأً لتوفير السكن في المملكة بأسرها سواء في المُدُن أو المناطق الريفية للمسافرين المسلمين والمسيحيين معاً. وفي القرنين الرابع عشر والخامس عشر تقريباً صارت هذه المُؤَسَّسة شبه مقصورة على الأحياء الإسلامية «*Morerias*» بالمُدُن. وأصبح إجبارياً على التجار والمسافرين المسلمين الإقامة بهذه الفَنادق. وبما أن الأحياء الإسلامية هي جُزء من الممتلكات المَلَكِيّة فإن الفَنادق الموجودة بها هي أيضاً تحت إشراف الدولة ومراقبتها(49).

فمن المحتمل أن يكون دور الفُنْدك كمقرّ إقامة للتُّجّار في شرق المجال الأراغوني القَطَلانيّ قد تواصل أكثر ممّا كان عليه في قشتالة لأن هذا الجانب من المؤسّسة كان له قدر أكبر من الأهمّية الدائمة في شرق شبه الجزيرة. فبَلَنْسية وبرشلونة وغيرهما من المُدُن الساحلية الأُخرى في ممالك الأراغون كانت لها تقاليد عريقة في التِّجارة الدولية ولديها عدد هام من التجار المحليين أكثر ممّا هو موجود في مُدُن قشتالة، باستثناء مدينة إشبيلية. فكان التجار المسلمون والمسيحيون يأتون من وراء البحار للتِّجارة ويسكنون في الفَنادق التي توجد في مملكتي الأراغون وقَطَلونيا. بل والأهمّ من ذلك، هو أن التجار المسيحيين من مدينة برشلونة وبَلَنْسية ومايورقة كانوا أنفسهم يعتمدون على الفَنادق عندما يكونون في أيّ منطقة من مناطق العالم المتوسّطي.

فوظيفة الفَنادق السكنية في ممالك الأراغون وظيفة واضحة سواء في المناطق المسيحية القديمة أو في المناطق التي وقع ضمّها حديثاً. ففي سنة 1243م، مثلاً، منح جيمس الأوّل الحماية لكلّ وافد يسكن ويعيش في الفَنادق

(49) حول التشريعات المتأخّرة، انظر Barceló Torres, *Minorías islámicas*, 97.

ببرشلونة[50]. وبما أنّ هذه المدينة كانت دائماً تحت السُّلطة المسيحية، فإن هذه الفَنادق هي فكرة مستوردة على شاكلة الفَنادق في المُدُن الإسلامية، (ويمكن أن يكون الشيء نفسه صحيحاً بالنسبة إلى الفُنْدِكا الذي ذُكِر في مدينة خاكا Jaca سنة 1252م)[51] على أنه في سنة 1257م تقريباً عندما أجّر جيمس فُنْدكاً في مدينة بيارة المسترجعة حديثاً لزوجين من المسيحيين فإن هذا المبنى كان، على الأرجح، فُنْدُقاً تحت حكم المسلمين. قال سانش بيري دي كابزون «Sanç Pere de Cabezón» وزوجته فُرتادا «Fortada» إنهما "سيعتنيان بالفُنْدك بما فيه من إسطبلات وأسِرَّة وكلّ المرافق الضرورية حتى يمكن توفير ما يحتاج إليه التجار وغيرهم من الوافدين من حسن الإقامة لهم ولأمتعتهم ودوابّهم". ومقابل ذلك تمّ الاتفاق على أن يكون تعرفة الإيجار المحدّد نصف الأرباح التي تحقّقها المؤسّسة ولكن تمّ التنازل عن ذلك للسنتين الأوّليين حتى يتسنّى لهما ترميم المبنى وإعادة بنائه. كما منح لهما جيمس ترخيصاً لفتح حانة يُباع فيها الخَمْر من منطقة بيارة وغيرها[52]. لقد كان تأجير الفَنادق يتمّ عادة لفترة محدودة ربّما لتستطيع الخزينة المَلَكِيّة إعادة النظر بصورة منتظمة في التدابير المالية وفي شأن الحائزين على الإيجار. وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ أيّ في سنة 1266م، أعاد جيمس كِراء الفُنْدك نفسه لمدّة أربع سنوات "إلى الجالية الإسلامية بمدينة بيارة وإلى كلّ أفراد الجالية في الحاضر والمستقبل"[53].

الفُنْداكو : الإدارة والأموال

تُشير التغييرات التي حدثت على مُسْتوى الإدارة المالية للفَنادق المَلَكِيّة سواء في قشتالة أو في الممالك القَطَلانيّة خلال القرن الثالث عشر إلى نوع من الترقيع الدالّ على أنّ المؤسّسة كانت غير مألوفة وأنّ نُشوءَها حديث نوعاً ما. مع

(50) Burns, *Medieval Colonialism*, 67.

(51) AHN, Cod. 663b, 42-43 (no. 101) (4 April, Era 1290).

(52) "Vendere vinum in predicto alfondico": Burns (ed.), *Diplomatarium*, I, 204, II: *Foundations of Crusader Valencia: Revolt and Recovery, 1257-1263*, 24-25.

(53) Burns, *Medieval Colonialism*, 66. See also Burns (ed.), *Diplomatarium*, III, 334-335 (doc. 774).

ذلك ليس هناك من شكّ أن الحكّام المسيحيين قد اعترفوا بالإمكانات الاقتصادية لهذه المؤسّسات. ففي بعض الحالات كانت مؤسّسات الهُنْدِقا والفُنْدك مسيّرةً مباشرة من قِبَل الموظّفين الحكوميين الذين يجمعون المُكُوس المترتّبة على البيع ومعاليم الكِراء للسكن وخزن البضائع وغيرها من الضرائب الأخرى. وكثيراً ما كانت هذه المؤسّسات تؤجّر في شكل لزمة أو مُقابل نسبة مئوية من مداخيلها بالصورة التي تمكّنها من توفير مداخيل للخزينة المَلَكِيّة في حين تكون مراقبتها بين أيدي أُناس آخرين مثلما هو الحال في فُنْدك مدينة بيارة. إن التمييز بين اللَّزْمة والكِراء ليس دائماً واضحاً. ففي بعض الحالات يمكن أن يكون أحد المباني مؤجّراً كدُكّان حِرَفي أو فضاء يعيش فيه الناس ولكن عادة ما يكون الفُنْدك معدّاً لتوفير دخل للمستأجر وفي الوقت نفسه للمالك الذي هو المَلِك. إلّا أن كلّ المُؤسّسات لا توفّر دخلاً للخزينة المَلَكِيّة، فبعضها، وخاصّة تلك المُؤسّسات الصغيرة والمحدودة الدخل كان يعطيها المَلك دون أن يترقّب منها معاليم كِراء أو ضرائبَ. وتفيد سجلّات التقسيم في بَلَنْسية أن عدداً من هذه المُمْتلكات الحُرّة يمنح مجّاناً، مثل أحد الفَنادق الذي مُنِح "مجّاناً ومن دون رسوم" وفُنْدُقاً آخر مُنِح هو أيضاً "مجّاناً ومن دون ضرائب ليكون منازل"(54).

يمكن أن توظّف المداخيل المُتأتّية من الهُنْدِقا المَلَكي لفائدة مستفيدين آخرين دون الخزينة المَلَكِيّة. يبيّن امتيازٌ منحه ألفونس العاشر لمدينة لوركا سنة 1266م أن الهُنْدِقا كان مُلْكاً مَلَكياً مُعَدّاً للكِراء ويؤكّد في الوقت نفسه موقعه ضمن مجموعة من المؤسّسات الشبيهة الأُخرى. فلكي يتسنّى للمدينة أن توفّر ما تدفعه لحُرّاسها أعطى المَلِك كلّ "مداخيل الكِراء في لوركا المُتأتّية من كِراء الدكاكين والأفران والطواحين والحمّامات والهُنْدِقا" وكلّ الضرائب المتأتّية من السوق لهذا الغرض(55). وبما أنّ الهُنْدِقا المُعَدّ للحبوب هو أيضاً من أملاك المَلِك، كان ألفونس العاشر سنة 1269م قادراً على إعطاء 600 مرافيديس

(54) «Alfundicum juxta portale Alcantere francum et liberum sine censu»: Bofarull (ed.), *Repartimientos de los reinos de Mallorca, Valencia, y Cerdaña*, 287, 412.

(55) (Alfonso X of Castile), *Fueros y privilegios de Alfonso X el Sabio al reino de Murcia*, ed. J. Torres Fontes, Colección de documentos para la historica de Murcia 3 (Murcia: Academia Alfonso X el Sabio, 1973) 92-93.

«maravedis» من مداخيل كِراء "فُنْدُق للطحين" بإشبيلية إلى جمعية كَلاترافا الدينية «the Order of Calatrava»[56].

لا تسمح المصادر القشتالية دائماً بتوضيح ما إذا كانت هذه الأكْرِية تمثل دخلاً سنوياً محدّداً أم أنها تتغيّر بتغيّر النسبة المئوية المُتأتّية من مداخيل الفُنْدِقا. وعلى العكس من ذلك فإن البيانات التي تتعلّق بممالك قَطَلونيا والأراغون عادةً ما تكون أكثرَ دقّة، فهي تبيّن أنّ الدخل السنوي القارّ هو الأكثر شيوعاً في أهمّ المناطق الأيبيرية رغم أنّ الملك كان يحصل فعلاً على نسبة مئوية من مداخيل فُنْدك مدينة بيارة. يُشير العديد من مداخل سِجِلّات التقسيم ببَلَنْسية إلى دفع أكْرِية الفُنْدك سنوياً، وعادة ما يكون ذلك في عيد الميلاد، مثل العديد من المُمْتلكات الحَضَرِيّة الأخرى. ففي إحدى الوثائق مُنِح رجل وامرأته "منازل في شاطبة... وفُنْدكاً له واجهات على الطريق العام بها دكاكين أُجِّرت منّا مقابل معلوم سنوي"[57]. وكذلك بالنسبة إلى فُنْدك في أونتنينتي «Onteniente» كان دخله سنة 1263م اثنتين وأربعين قطعة نقدية «solidi» في السنة، وفُنْدُق أحد المُدَجَّنين «Mudejar» في بيغو «Pego» كان يدفع قُرابة السبعين قطعة نقدية «solidi» سنة 1269م وبلغ كِراء فُنْدك في نوفيلا «Novella» أربعين قطعة نقدية سنة 1315م[58]. وسجّلت عُقُود أخرى إيجارات مماثلة متفاوتة التعقيد. هناك بعض الترتيبات من هذا النوع تعترف صراحة بأن مثل هذه المؤسّسات كانت مُتَمَلَّكة منذ فترة سابقة، فقد سمح جيمس الأوّل للمسلمين في إسليدا «Eslida» أن يواصلوا البقاء بفُنْدُقهم مقابل كِراء يُدْفَع في زمن محدّد[59].

بَيَّنَ كثيرٌ من التجارب المالية في بيارة وغيرها من المناطق الأخرى أن

(56) Ballesteros, *Sevilla en el siglo XIII*, clxvix (doc. 162).

(57) Bofarull (ed.), *Repartimientos de los reinos de Mallorca, Valencia, y Cerdaña*, 446.

(58) Burns, *Medieval Colonialism*, 69; Manuel de Bofarull y de Sartorio (ed.), *Rentas de la antigua corona de Aragón* (Barcelona: Imprenta del Archivo, 1871) 123. نشرت هذه الوثائق من قبل بيرنز Burns (ed.), *Diplomatarium*, III, 48-49 (doc. 519).

(59) Burns, *Medieval Colonialism*, 68. إنّ مِنَح أو امتيازات الأفران والطواحين تَبِعَت نموذجاً مشابهاً من الاستمرار والرقابة المَلَكية. فقد ورد في وثيقة الهِبَة التي أعطاها جيمس لمُسْلِمي إسليدا [Eslida] أنه "يمكنكم خَبْز خُبْزكم في الأفران التي بُنِيَت في عهد السراسنة Saracens"، (المرجع نفسه، ص50-51).

جيمس الأوّل قد بدّل سياساته الكِرائية بحثاً عن أفضلها لمصالح العرش. فبعد غزو بَلَنْسية، مثلاً، تمّ تأجير الفُنْدك الرئيسي في المدينة لمُدّة ثلاثة عُقُود لفائدة وليم إسكريفا «William Escrivá» مقابل خمسة مزمودين «*mazmodins*» سنويّاً (والذي أجّره بدوره إلى مُكْتَرٍ آخر مقابل 8 مزمودين سنويّاً). وفي سنوات 1270 وبعد وفاة وليم، أنشأ جيمس الأوّل فُنْدكاً جديداً وراجع سياسته الكِرائية. وبعد ذلك احتفظ بجميع الأرباح وعِوَض ذلك أخذ يدفع مبلغاً مُحَدّداً مسبقاً لِمُكتَري المبنى[60]. تواصلت هذه السياسة في عهد بطرس الثالث عندما أصبح مُراقب الفُنْدك المَلَكي في الأحياء الإسلامية ببَلَنْسية متعوِّداً على الحصول على راتب "مقابل عمله" من لَدُن صاحب المدينة[61].

تَكْشف سلسلةٌ من الوثائق تعود إلى ما بين 1286 و1291م الصراعات حول امتيازات الفُنْدك الملكي في الأحياء الإسلامية لمدينة بَلَنْسية خلال فترة حكم ألفونس الثالث. ففي شهر سبتمبر 1286م، منح المَلِك هذه المَلَكِيّة إلى برنار البولايي «Bernard of Bolea» ممثّل الملك، وأعاد التأكيد على هذه المِنْحة بعد سنة من ذلك على الرغم من بعض المعارضة، ومع ذلك بحلول شهر شباط/ فبراير، أعطي الفُنْدك لواحد آخر ولكنّه أُعيدَ من جديد إلى برنار في شهر سبتمبر التالي. وبعد ستة أشهر من ذلك، في شهر مارس 1289م، تلقّى صاحب بَلَنْسية أمراً لإعادة تأكيد ملكية برنار للمَبْنَى مع دخله اليومي المقدّر بعشرة دنانير. وبعد سنتين من ذلك، في سنة 1291م وفي وثيقة نِهائية صدر تحذير لشخصين بعدم التدخّل في ملكية برنار لذلك المَبْنَى[62].

---

(60) Burns, *Medieval Colonialism*, 71.

(61) Burns, *Medieval Colonialism*, 73-74, nn. 90-93; Martinez Ferrando, *Catálogo de la documentación*, II, 34 (no. 114)

وكما بَيَّنَ بيرنز [Burns] أنه ليس من السهل إثبات الطبيعة الدقيقة لهذا الأجر خاصّة في فترات تخفيض قيمة العُملة كما أن المبالغ يمكن أن تتفاوت.

(62) (Alfonso III of Aragon), *Documentos del reinado de Alfonso III de Aragón, relativos al antiguo reino de Valencia y contindos en los registros de la corona de Aragón*, ed. Rafael Gallofre Guinovart (Valencia: Institución Alfonso el Magnánimo, 1968) 87 (doc. 368), 192 (doc. 892), 231 (doc. 1085), 250 (doc. 1179), 267 (doc. 1270), 270 (doc. 1282) 271 (doc. 1288), 411 (1191).

قد ناقش بيرنز هذه الوثائق (Burns, (*Medieval Colonialism*, 75, n. 94).

من الواضح أنّ هذا الفُنْدك كان شيئاً ثميناً ومحلّ نِزاع. ففي عهد ألفونس الثالث، يبدو أنّ برنار قد حصل على دخل ثابت من المُلْكِيّة عِوَضاً عن نسبة مئوية من إيرادات في تقلُّب مستمرّ. وبعد عَقْدَين في عهد جيمس الثاني، كان برنار لا يزال متصرّفاً في الفُنْدك، والآن مع امتلاكه مدى الحياة وحسب شروط مختلفة إلى حدّ ما. تُشير سلسلة من الأكْرِية المَلَكِيّة تعود إلى سنة 1315م "أن السيد الملك يملك فُنْدكاً في بَلَنْسية يتصرف فيه السيد برنار البولايي مقابل كِراء مبلغه أربعمائة صوليدي «solidi» مِنْحَة من السيِّد المَلِك وبأمر من السيِّد الملك يحتفظ برنار بمبلغ ثلاثمائة صوليدي مدى الحياة والفائض الذي يوفّره الفُنْدك المذكور سنويّاً"[63]. إن تواصل التَغيُّر في ترتيبات الماليّة التي تتعلّق بهذا الفُنْدك طوال حوالى قرن من الزمن بعد الاستيلاء على بَلَنْسية، يُعَبِّر عن تواصُل المفاوضات حول هذا النوع من المؤسّسات الرابحة.

الفَنادق غير المَلَكِيّة

على الرَّغم من الأولوية المُعطاة لهذه المُؤسّسات في المصادر المَلَكِيّة في قَشتالة وممالك الأراغون، فإنه من الواضح كذلك وجود العديد من مُؤسّسات الفُنْدِقا والفَنادق في أيدي غير مَلَكيّة، في حَوْزة النُبلاء والكنيسة أو الناس العاديين. وكان أغلب هذه المباني في الأصل قد منحها الملك لهؤلاء الناس، وعادةً ـ ولكن ليس دائماً ـ ما يكون واضحاً عندما تكون هذه المُلْكيات طويلة الأجل بدلاً من المِنَح القصيرة المَدَى أو الاستئجار.

تتوافر المعلومات من هذا النوع في المصادر القَشتالية منذ القرن الثاني عشر وتتواصل خلال فَترات الاسترجاع الأساسية. ففي سنة 1162م، عندما استعار رئيس كاتدرائية طُلَيْطُلة غُرفة "في فُنْدُقنا الذي نمتلكه قرب سانكتي خُوستو «Sancte Justo»"، هناك تركيز على كلمة "مَتَاعُنا" وعلى "الذي يسكن عندنا"[64]. ومثل ذلك بعد الاستيلاء على قُرْطُبة سنة 1241م، لمّا منح فرديناند

---

(63) Bofarull (ed.), *Rentas*, 88; Burns, *Medieval Colonialism*, 74-75.

(64) González Palencia, *Mozárabes de Toledo*, vol. preliminar, 60 (no. 3). يبدو ظاهراً أن هذا المَبْنَى ظلّ فُنْدُقاً إلى حدود سنة 1162م.

الثالث حمّاماً والهُنْدِقا المجاور له كمسكن إلى دون غونسالفو «Don Gonçalvo»، رئيس المدينة، موضحاً بصيغة ميثاقه أنه ينبغي اعتبارها هديّة دائمة[65]. وفي إشبيلية كذلك مَنَح ألفونس العاشر مؤسّستَيْ هُنْدِقا للأسقف وجماعة الكهنة في الكاتدرائية سنة 1276م مع كلّ الحقوق المَلَكِيّة الحاضرة والمستقبلية في المَبْنَى، بصورة واضحة[66].

وكانت مِنْحة فرديناند للهُنْدِقا في قُرْطُبة سنة 1241م جديرة هي أيضاً بالاهتمام لأنّ المَبْنَى الذي مُنِح لدون غونسالفو كان مجاوراً لمؤسّستَيْ هُنْدِقا أُخْرَيَيْن، يبدو أنهما مِلْك خاصّ - واحد يتصرَّف فيه دون باريس «Don Paris» والثاني بيدرو رويز طافور «Pedro Royz Tafur». ويعود أغلب هذه المُؤَسَّسات إلى سِجِلّ تقسيم قَشتالي وبعض الوثائق الشبيهة الأُخرى كانت مرتبطة بأسماء أشخاص، ولكن من النادر أن نجد كثيراً من المَعْلُومات حول الظروف التي تمّ فيها الحُصُول على هذه المباني. ففي إشبيلية أُعْطِي هُنْدِقا يوجد بالقرب من الكاتدرائية إلى لورنزو سواريز «Lorenzo Suarez» أحد قُوّاد الجيش في عهد فرديناند الثالث، بعد الاستيلاء بقليل على المدينة سنة 1248م. وهذا الخَبَر مُوَثَّق في مِنْحة غير ذات علاقة لِمَنازل مُجاورة "لفُنْدُق دون لورنزو سواريز" لفائدة مجمع الكاتدرائية سنة 1254م[67]. وفي أبرشية القدّيس إيزيدرو «San Isidro» إلى جِهَة الشمال قليلاً أعطى ألفونس العاشر مَنازل أُخرى مجاورة من جِهَة "فُنْدُق غارسيا مارتينيز مالركابدو «García Marínez Malrecabdo»" ومن جِهَة أُخرى للفُنْدُق الذي يمتلكه خوهان دومينغيز «Johán Dominguez» الذي هو اليوم تحت تصرُّف خادمنا خوهان غونسالفيز "«Johán Gonçalvez» وذلك سنة 1264م[68]. يبدو أنّ هذا الفُنْدُق الأخير كان تأجيراً مَلَكيّاً لأنه كان قد عرف تغييرات وأصبح الآن بين يدي

---

(65) (Fernando III of Castille), *Reinado y diplomas de Fernando III*, ed. Julio González (Córdoba: Caja de Ahorros de Córdoba, 1986) III, 214-5 (doc. 671).

(66) Ballesteros, *Sevilla en el Siglo XIII* , ccxii (doc. 199). (Alfonso X of Castile), *diplomatario andaluz*, 450 (doc. 427).

(67) Ballesteros, *Sevilla en el Siglo XIII* , 19 and lxvi (doc. 65).

(68) Ballesteros, *Sevilla en el Siglo XIII* , cxliv (doc. 136); (Alfonso X of Castile), *diplomatario andaluz*, 309-310 (doc. 282).

أحد التابعين للملك. وهذان الفُنْدُقان نفسيهما تجدهما في عَقْدَين يعودان إلى مارس 1275م وهو ما يُبَيِّن بوضوح أنَّهما كانا من المعالم البارزة في الحَيّ. ففي العَقْد الأوَّل المؤرَّخ في 8 مارس، مَنَحت دونيا ماريا «Doña María» أرملة بيدرو مورال «Pedro Moral» عدداً من المنازل في أبرشية القدّيس إيزيدور "موجودة بين هُنْدِقَيْ غارسيا مارتينيز دي كامبو «García Martínez de Campo» ودون خوان غونزاليس «Don Juan Gonzáles»" إلى كاتدرائية إشبيلية. يبدو أنّ دونيا ماريا كانت تريد البقاء في المنطقة لأنها بعد ثلاثة أسابيع اشترت يوم 27 مارس منزلين آخرين يوجدان "بين هُنْدِقَيْ إنْيِيغو غونزاليس «Iñigo Gonzalez» وغارسيا مارتينيز مالركابدو «García Martínez Malrecabdo»"[69].

يذكر سِجِلّ تقسيم شَريش العديد من مُؤَسَّسات الهُنْدِقاس في المِلْك الخاصّ ويقدّم صُورة أكثر وضوحاً للمُؤَسّسة ممّا هو موجود في إشبيلية. فقد ذُكِر الهُنْدِقا في أربع من ست أبرشيات لمدينة شَريش ولكنّ الأغلبية (بما فيها هُنْدَقا الفرينة "الطحين") كانت توجد في أبرشية سان ديونيسيو «San Dionisio» التي كانت الحيّ التجاري الرئيسيّ في المدينة وموقع السوق الرئيسيّ (القَيْصَرية) تحت الحكم الإسلاميّ والمسيحيّ على السواء[70]. وقد ذُكِرت هذه المُنْشآت في علاقة

(69) González (ed.), *Repartimiento de Sevilla*, II, 354.

(70) كثيراً ما تذكر سِجِلّات التقسيم مُؤَسّسات الهُنْدِقا [*alhóndigas*] والفُنْدك [*fondechs*] بجوار الأسواق والأبواب والحمّامات والأفران وغيرها من المنشآت، وتَمَوْضُع نموذجيّ في المدينة الإسلامية. يشير سِجِلّ التقسيم في بَلَنْسية إلى وجود الفَنادق قرب الحمّامات، (Bofarull [ed.], *Repartimientos de los reinos de Mallorca, Valencia, y Cerdaña*، وواحد قرب إسطبل وجامع (606)؛ وقرب الحدائق (308، 492)؛ وقرب البَوّابات (287)؛ وقرب حانوت جزّار (448)؛ والعديد قرب الأفران (607، 613). وفي حالات أُخرى يوصف حَمّام على أنه مُحاط بمنازل وفُرْن وفُنْداكو للّحم (283) وكذلك في حالة أُخرى (382) يوجد فُرْن بجوار فُنْداكو وحَمّام ودكاكين وحانوت جَزّار. في سنة 1275-1276م حصل جَزّار على مبلغ لبناء فُنْدك [*fondech*] (Martínez Ferrando, *Catálogo de la documentación*, I, 413 [no. 1893]). يُعلّق بيرنز على وجود الفَنادق قرب الكنائس وأبواب المُدُن (*Medieval Colonialism*, 70). ويناقش علاقتها بالحمّامات (المرجع نفسه، ص57-58). وفي 1258، وَهَب جيمس الأوّل فُنْدكاً مع فُرْن إلى بِرِنغر المونتكادي [Berenguer of Montcada] (Burns [ed.], *Diplomatarium*, II, 164-166).

بالأشخاص مثلما هو الحال في أحد الفَنادق الكبيرة بأبرشية سان سالفادور «San Salvador» كان قد مُنِح أو أُجِّر إلى دون سُلاما أبرافالا «Don Çulama Abravalla»... مع بعض الامتيازات الرابحة الأُخرى[71]. ويذكر عدد من مداخل الوثائق الأُخرى من جِهَة ثانية منازل بجوار فَنادق دون ذِكْر أسمائها[72].

يبدو أن عدداً قليلاً من الهَنادق في مدينة شريش كانت كبيرةً جداً لأنها قُسِّمَتْ فيما بعد إلى العديد من المساكن، أو كان يُحاذيها كثيرٌ من المنازل، ففي حالة منها، كان كثيرٌ من المنازل يَحُدُّها من الجانبين فُنْدِقا واحد، ممّا يوحي بمُنْشأة كبيرة ومجمَّعة لها امتدادات زاوِيَّة مُمْتدَّة أو أجنحة[73]. وعلى عكس ذلك من الواضح أنّ غيرها كان صغيراً نِسْبياً ويبدو ذلك من خلال التصغير المُسْتَعمَل عند الحديث عن "فُنَيْدِق بيدرو غيلْيَن «Fondiguilla que es de Pedro Guillén»"[74]. ويبدو أنّ البعض منها كان مُجَمّعاً في مكان واحد أو متلاصقاً مثل "الفُنَيْدق الصغير الملاصق من جهة واحدة للفُنَيْدق الذي يمتلكه بيدرو مارتين «Pedro Martin»"[75].

---

(71) González Jiménez and González Gómez (eds.) *Repartimiento de Jerez*, xxxiii (nos. 212, 213, 215).

(72) González Jiménez and González Gómez (eds.) *Repartimiento de Jerez* (nos. 1625-1626, 1669-1674, 1697-1678, 1702).

(73) González Jiménez and González Gómez (eds.) *Repartimiento de Jerez* (nos. 1669-1674).

(74) González Jiménez and González Gómez (eds.) *Repartimiento de Jerez* (nos. 1699, 1700-1701).

أشار توماس غليك [Thomas Glick] إلى أن ميل المسيحيين إلى استعمال التصغير عند حديثهم عن المباني الإسلامية من قَبِيل فُنَيْدق alfondiguilla ومُسَيْجِد ومُنَيْزل... دليل على أن المسيحيين الوافدين قد وجدوا المنازل المُوريسكية صغيرة نوعاً ما. فلم يكن من غير المألوف بالنسبة إلى السُّكّان المسيحيين الجُدُد إدماج العديد من المَنازل في منزل واحد (Glick, *Muslim Fortress*, 148). ومن ناحية أُخرى، وفي بعض الحالات، يمكن أن يُنشأ العديد من المنازل من صُلْب فُنْدُق قديم، حتى ولو كان صغيراً، مثل حالة تلك المنازل التي كانت فُنَيْدِقاً casas que fueron alfondiguilla (González Jiménez and González Gómez [eds.] *Repartimiento de Jerez*, 24 [no. 165]).

(75) González Jiménez and González Gómez (eds.) *Repartimiento de Jerez* (no. 1807).

بعد ذلك بقليل هناك مادّة أُخرى (رقم 1812) تتعلّق بِهِبة الهُنْدِقا الأخير إلى بيدرو مارتين [Pedro Martin] (حتى ولو أنه يشار إليه أيضاً الآن بأنه فُنَيْدق [*alfóndiguilla*]).

في الوقت الذي تمّ فيه التقسيم المَسيحيّ الأوّل لمدينة شَريش سنة 1269م، كان العديد من مُؤَسّسات الهُنْدِقا في المدينة تُسْتعمَل في الوظائف التجارية والسَّكَنية. وتُشير هذه الاستعمالات في بعض الحالات إلى الإضافات المسيحية في حين تعيد أخرى الوظائف التي كانت سائدة في العهد الإسلاميّ. فالهُنْدِقا الذي كان على مِلْك بيدرو مارتين كان حانة، في حين كانت المؤسّسات الأخرى مثلها تُستغلّ للسكن. وهناك مداخلُ كثيرةٌ في سِجِلّ التقسيم وزَّعَتْ "منازل كانت فُنْدُقاً" و "منازل كانت فُنيدقاً". وغالباً ما تأتي هذه المداخل على شكل وحدات مجمّعة وتُفيد بأنّ الهُنْدِقا الأصلي كان قد قُسّم إلى مَساكن للساكنين الجُدُد(76). وفي حالات أخرى كان الهُنْدِقا غير صالح وربّما لا يُنْاسب أن يُستعمل كهُنْدِقا بالمعنى الضَّيّق للكلمة، مثلما هو حال منزل بُني من "فُنْدُق مُتداعٍ يحتاج إلى الترميم"(77).

وهناك إشارات كثيرة إلى وجود الهُنْدِقا المتداعية. إذ هناك إشارة إلى مَبْنًى آخر في مدينة شريش في حالة سيّئة وفُنْدُق واحد على الأقل بمدينة طُلَيْطُلة يُذْكَر على أنه فُنْدُق مَهْدُوم سنة 1242م(78). ربّما هناك مَيْل إلى هذا الوصف أكثر من المَيْل إلى الملاحظة الموضوعية. في حين أنه من الممكن أن تَؤُول هذه المباني إلى الخَراب، إذا لم تعُدْ مُرْبحة، فإنه ممكنٌ أيضاً أنه كان ملائماً وصفها على أنّها في وضع أسوأ مما هي عليه في الحقيقة. وقد يكون العديد من هذه الفَنادق مِلكية وَقْفيّة تحت الحكم الإسلاميّ غير قابلة للتصرُّف. ولكن كانت هناك طريقة مشروعة في التشريع الإسلاميّ تسمح بتحرير هذه المُمْتلكات من أجل وَقْف جديد أو بيعها بوصفها خرائب. وبالتالي يمكن أن تُبنى مَحَلَّها مبانٍ جديدة مع نسبة مئوية من الربح لفائدة الوَقْف القديم. ومن الممكن أنَّ الحُكّام المسيحيين كانوا يلجأون إلى الطريقة الشرعية نظراً للطابع الديني الحسّاس لمثل هذه المِلكيات أو خوفاً من أن يُحدث ذلك اضطرابات بين من بقي من المسلمين.

(76) González Jiménez and González Gómez (eds.) *Repartimiento de Jerez* (nos. 165, 327, 985, 1661, 1663, 1786-1788).

(77) González Jiménez and González Gómez (eds.) *Repartimiento de Jerez* (no. 1785).

(78) González Jiménez and González Gómez (eds.) *Repartimiento de Jerez* (no. 1711); González Palencia, *Mozárabes de Toledo,* II, 149 (doc. 558).

مثلما كان في قَشتالة، فقد تمّ توزيع العديد من الفَنادق في ممالك الأراغون كمُلكيات للنُّبَلاء وتبيّن أنها رابحة جداً. ففي تموز/يوليو 1258م، مثلاً، قايض جيمس الأوّل الأرض المُحيطة بقلعة ألتيا (التي كانت مِلْكاً لبرينغر دي مونتْكادا «Berenguer de Montcada» آنذاك، لكن الملك كان يرغب في مقايضتها بمكان آخر) بثلاثة فَنادق في برشلونة. وقد كانت هذه المباني مُرْتبطة بمُنشآت أُخرى بما في ذلك فُرْن ودكاكين للحِرَف ومنازل وقد كانت مؤجّرة من الباطن بمبلغ 160 ديناراً مُرابطِيّاً «*morabitinis*» في السنة مقابل الامتياز. وحسب مِنْحة جيمس فإن الفَنادق الثلاثة مُنِحَت لبرينغر نهائيّاً مع كِرائها السنوي. مع ذلك برزت المشاكل في أقلّ من شهر بعد ذلك، عندما طالب برينغر بإعادة المُمْتلكات الموجودة في ألتيا «Altea»، رافضاً أن يعطي الفَنادق التي اكتسبها حديثاً(79) .

يبدو كذلك أن بعض الفَنادق الأُخرى في الشرق كانت صَفَقَات مُتواضعة عُقدت من قبل مواطنين عاديين يفترض أنَّها كانت تُشبه إلى حدّ كبير نظائرها في مدينة شريش وغيرها من المُدُن القشتالية. فقد كانت هذه المباني تُذْكَر في علاقة بأسماء أشخاص مثل فُنْدُق إيجيدي غارسيز «alfundico Egiidi Garcez» أو فُنْدُق السيكاف «alfondec Açicaf» أو فُنْدُق ماريا دي منغيت «alfondiga Marie de Mengit». . . وهي فَنادق يمكن بيعها وشراؤها وتوريثها كأيّ عَقار آخر في المدينة(80). كما أنّ بعض الفَنادق الخاصّة الأُخرى كانت تُستعمل للتّجارة أو للحِرَف بما أنها تُذْكَر عادة مع الدكاكين والمخازن ودكاكين الحِرَفيين وما يتبعها. وتبدو في حالات عديدة كأنها كانت جُزءاً من تجمُّع مبانٍ أكثر من أنها كانت أبنية قائمة بذاتها.

كانت الكنيسة والتنظيمات العسكرية كذلك تمتلك فَنادق في ممالك الأراغون حيث منح ألفونس العاشر ملك قشتالة، مداخيلَ مُتأتّية من فُنْدُق الفرينا (الطحين) لأخويّة كَلاترافا، ووزَّع جيمس الأوّل هذه المباني نفسها مانحاً التنظيمَ

(79) Burns (ed.), *Diplomatarium*, II, 164-166, 169-170 (docs. 195, 200).

(80) Bofarull (ed.), *Repartimientos de los reinos de Mallorca, Valencia, y Cerdaña*, 295, 656; Burns, *Medieval Colonialism*, 69, n. 80; Martínez Ferrando, *Catálogo de la documentación*, I, 173 (no. 780), 215 (no. 975).

نفسه منازل في بوريانا «Burriana» سنة 1233م، والمباني "التي كانت فُنْدقاً أيّام المسلمين"[81]. وفي فترة لاحقة مُنِح المرسيداريون «Mercederians» سنة 1245م فُنْدُقاً ليحوّلوه إلى مأوى للعجزة في مدينة دانية في حين مُنِح الإسبيتاريون «Hospitalers» سنة 1252م فُنْدُقاً في شاطبة "لتحويله إلى منازل"[82]. كما يبدو أنَّ أُسْقُف مدينة طراغونا Tarragona كان لديه الكثير من الفَنادق ومنازل مُلاصِقة عديدة في مدينة بَلَنْسية[83].

الفَنادق الأجنبية في أيبيريا والفَنادق الأيبيرية في الخارج

فضلاً عن توزيعهم المُمْتلكات على رعاياهم كان ملوك قَطَلونيا والأراغون يوفّرون بصورة منتظمة مُؤَسَّسات الفُندِقا والفُنْدك للجاليات التجارية الأجنبية التي تشتغل في بلدانهم.

كما كانوا في الوقت نفسه مهتمّين بتوفير الظروف المناسبة والنجاح لتجارهم الذين يمارسون نشاطهم ما وراء البحار. إنَّ تعوُّد الحكّام الأيبيريّين إدارة مُؤَسَّسات الفُندِقا والفُنْدِك في بلادهم عزَّزَ موقفهم تجاه هذه المنشآت التي توجد ما وراء البحار خلافاً لبقية الدُّوَل التجارية الأوروبية الأُخرى. ففي ممالك الأراغون خاصّةً، أثَّرت الرعاية القصوى التي بَذَلها جيمس الأوَّل في إدارة فنادقه المَلَكيّة في بلاده، في تسييره للفَنادق القَطَلانيّة في الخارج.

(81) Miret i Sans (ed.), *Itinerari de Jaume I*, 109; Burns, *Medieval Colonialism*, 68.

(82) Miret i Sans (ed.), *Itinerari de Jaume I*, 174; Burns, *Crusader Kingdom*, 185, 459, n. 79. وَهَبَ جيمس الأوّل سنة 1266 فُنْدُقاً بشاطبة ليكون مستشفى (Burns, *Crusader Kingdom*, 243; edited in Burns (ed.), *Diplomatarium*, III, 199 (doc. 660); also noted in Martínez Ferrando, *Catálogo de la documentación*, I, 141 (no. 635).
إن استعمال الفُنْدِك مَأْوَى للمَرْضَى يمكن أن يكون استمراراً للسوابق الإسلامية بِرَبْط هذه المباني بالأعمال الخَيْرية، فقد أنشأ وليم إسكريفا [William Escrivá] في بَلَنْسية مُستشفىً سنة 1242م ولكن مع أنَّ وليم كان يملك فُنْدِقاً مُهماً أيضاً وَهَبَه له الملك، فإنه يبدو أنه لم يستعمله لإنشاء مُؤَسَّسته الخَيْرية (Burns, *Crusader Kingdom*, 239).

(83) Bofarull (ed.), *Repartimiento de los reinos de Mallorca, Valencia, y Cerdaña*, 291, 576, 635.

وبما أنّ الهُنْدِقا والفُنْدك كانا يتطوّران في شبه الجزيرة الأيبيرية خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر، فقد كان لتلك التغيُّرات أثرها في التجار المنخرطين في التِّجارة الدولية مسلمين ومسيحيين على السواء. وقد كان على التجار الذين يتاجرون من المناطق حديثة العَهْد بالمسيحية وإليها أن يكونوا على عِلْم بما يحدث من تغييرات في هذه المُؤَسّسات وفي الأسواق مع بداية التغييرات السياسية والدينية. فقد واصل التجار المسلمون في الفضاء الأراغوني القَطَلانيّ استعمال الفُنْدك كما أصبح مطلوباً منهم بمقتضى القرارات المَلَكِيّة بغضّ النظر عن اشتداد مُنافسة التجار المسيحيين المحلّيين والأجانب. في المقابل تَراجَعَ حضور التجار المسلمين في فَنادق وأسواق قشتالة بينما اغتصب مكانهم التجار الإيطاليون.

لقد كان تَزايُد نفوذ التجار المسيحيين في المُدُن المِينائية الأيبيرية يتمّ بالتوازي مع الانتصارات العسكرية المسيحية، وقد أبدع التجار الجَنَويون بصورة خاصّة في قشتالة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. وكان التجار من ممالك الأراغون في الوقت نفسه يوسّعون نشاطهم في الخارج في شمال إفريقيا ومصر. وقد عمل التجار في هذين المجالين بسرعة على مُلاءمة أنشطتهم مع التغيُّرات السياسية والتصوُّرات الجديدة للفضاء التجاري. ففي إشبيلية وغيرها من المُدُن الأيبيرية الأخرى، تخلّت بصورة تدريجية مجموعات التجار المسيحيين الذين تَعَوَّدوا على الفُنْدُق في ظلّ الحكم الإسلاميّ عن هذه المُؤَسّسة لفائدة مُؤَسّسة أُخرى أكثر مُرُونة وأقلّ تَحَكُّماً في المُنشآت التجارية وأهمّها كانت اللوجيا «*loggia*». وفي الوقت نفسه، كان التجار القَطَلانيّون في المُدُن الإسلامية خاصّة في تونس وبجاية الحَفْصِيِّين، يقيمون بالفَنادق التي تُشبه إلى حدّ كبير تلك التي توجد في بلادهم. وقد كانت المُنشآت القَطَلانيّة خلال القرن الثالث عشر سواء في الخارج أو في الداخل موضوع مراقبة مالية من قِبَل جيمس الأوّل. فقد طالب هذا الحاكم بمراقبة مباشرة على الفَنادق الموجودة في ما وراء البحار أكثر ممّا كان يتمتّع به غيره من السُّلطات التجارية الأوروبية. يبرهن هذان التوجّهان على مدى قُدرة المُنشآت التجارية على التأقلُم والاندماج أو الاندثار حسب ما تقتضيه الحاجات الجبائية والسياسية في الزمان والمكان.

التجار المسيحيون الأجانب في قشتالة وممالك الأراغون

كان الجَنَويون وغيرهم من التجار الإيطاليين الآخرين يتاجرون في جنوب إسبانيا منذ نهاية القرن الثاني عشر وبالتالي كان لهم حضور تجاري راسخ في المنطقة مع حلول الغزو المسيحي. ومباشرة بعد انتقال إشبيلية إلى السيطرة المسيحيّة في تشرين الثاني/نوفمبر 1248م، سعى الجَنَويون للحفاظ على حقوقهم في التِّجارة في المدينة ويبدو أنّ فرديناند الثالث كان هو أيضاً راغباً في أن يتواصل حُضُورهم. ولم يكن ذلك نتيجة لأهمّية الجَنَويين التجارية فحسب وإنما كذلك لما تُوفِّره البحرية الجَنَوية القوية من دعم لقشتالة في جهودها الحربية.

وحسب ما تقدّمه الحوليات الجَنَوية «*Annales Ianuenses*» فقد كانت البعثات الجَنَوية تلتمس من فرديناند الثالث سنة 1249م أن يمنح الجَنَويين فُنْدُقاً ومنازل وكنيسةً وفرناً، مع قنصل يمثّلهم مثلما كانوا يتمتّعون به في إشبيلية "على عهد المسلمين"[84]. ورغم أن هذا المطلب لم يكن مُوَثَّقاً من إشبيلية، إلّا أنَّ المعاهدات السابقة مع المُدُن الأندلُسية الأُخرى (والتي تمّت مناقشتها في الفصل السابق) تُظهِر أنَّ هذه الشبكة من المُنشآت كانت بلا شكّ مُنِحَت للجَنَويين وغيرهم من التجار الإيطاليين الآخرين في القرن الثاني عشر. ففي سنة 1146م مثلاً، أيّ قبل قرن من سقوط إشبيلية وَعَد الملك القشتالي ألفونس السابع الجَنَويين بسلسلة مماثلة من المُنشآت (فُنْدُق، وفُرْن، وحمّام وحديقة) مقابل دعمهم له في حملته ضدّ ألْمَرِيّة المسلمة. وقد أثمرت كذلك مفاوضات الجَنَويين تنازلاتٍ مماثلة في المُدُن النَّصْرِية خلال القرن الثالث عشر مُشِيرة إلى أنّ حَقَّ التمتُّع بهذه المُنشآت كان من الاهتمامات المتواصلة في الأسواق الأندلُسية. ففي معاهدة مع السُّلطة النَّصْرِية سنة 1279م سُمِح للجَنَويين بالتمتُّع بحمّام وفُرْن وكنيسة ومخازن في غرناطة وفَنادق في المملكة بأسرها[85].

---

(84) Caffaro, *Annali Genovese*, III, 183-184.

(85) *Liber iurium Reipublicae Genuensis*, I, cols. 1485-1486 (doc. 989).
يقدّم هذا النصّ تسجيلاً لمختلف الترتيبات التي تَمَّت في العام السابق وربّما يُعِيد تأكيد هِبات سابقة. وحول هذا الموضوع انظر J. E. Lopez de Coca Castañer, "Comercio exterior del reino de Granada," *Actas del II Coloquio de Historia Medieval*

واستجابة لطلبهم، أصدر فرديناند الثالث عهداً مُطَوَّلاً باللُّغة اللاتينية لفائدة جَنَوة ممثّلةً في شخص مبعوثها نيقولا كالفو «Nicolas Calvo» في أيار/مايو 1251م، وعد الملك بمقتضاه الجَنَويين في إشبيلية أنه بإمكانهم أن ينتخبوا قناصلهم ليمثّلوا مصالحهم وضمن لهم حقّ الدخول إلى مملكته ومحميّاته مجّاناً، كما منحهم كنيسةً خاصّة بهم وحدّد لهم ضرائب مُشجّعة على الواردات والصادرات. كما حدّد لهم حَيّاً خاصّاً بهم وحمّاماً وفُنْدُقاً وفُرْناً بمدينة إشبيلية على أن يُبْنَى أو يكون تحت رعاية الجَنَويين وعلى حسابهم الخاص(86). في كلتا الحالتين يُشير هذا الفصل إلى وجود قطيعة مع التقاليد. فإذا كان على الجَنَويين أن يبنوا مُنشأة جديدة، فذلك يعني أن فرديناند لا يرغب في تسليمهم مَبْنىً موجوداً أو فُنْدُقاً من الفَنادق المَلَكِيّة. وإذا كان من جِهَة أُخرى على الجَنَويين أن يكونوا مسؤولين عن رعاية مُؤسّسة موجودة، فهناك إذن نِيّة في التمييز بين الإطار المسيحيّ الجديد والإطار الإسلاميّ القديم، لأنّ مُؤَسَّسات الفُنْدُق كانت عادةً على ملك الإدارة الإسلامية المحلية وهي المسؤولة عن رعايته.

في أقل من سنة بعد ذلك، في كانون الثاني/يناير 1252م، أصدر فرديناند أمراً آخر مُوجَزاً، لفائدة جَنَوة وهذه المرة باللُّغة القشتالية. فهذه الوثيقة القصيرة صدرت للسفير الجَنَوي نفسه، نيقولا كالفو، ولكنّها كانت ذات نَبْرة مختلفة وأكثر تركيزاً من نظيرتها التي صيغت باللُّغة اللاتينية. وخلافاً للنسخة اللاتينية الأصلية،

= *Andaluza, Hacienda y comercio (Sevilla, 8-10 de Abril, 1981)* (Seville: Excma. Diputación Provincial de Sevilla, 1982) 340. إن الإشارة إلى مخازن وكذلك إلى فَنادق تسمح باستنتاج أن الفَنادق كانت لا تزال مُسْتَعملة للسُّكْن.

(86) لقد أُعيد استنساخ هذه الوثائق مَرّات عديدة بالاعتماد على النُّسخة الموجودة في أرشيف جَنَوة والمنشورة ضمن *Liber iurium Reipublicae Genuensis*, I, cols. 1060-1064 (doc. 794). انظر بالخصوص R. Carande, *Sevilla, fortaleza y Mercado* (Seville: Universidad de Sevilla, 1972) 72-75. النصّ المذكور مأخوذ من (Fernando III of Castile), *Reinado y diplomas de Fernando III*, III, 405. وقد نُشِرت النسخة القشتالية المحفوظة بأرشيف سيمانكاس [Simancas] من قبل I. González Gallego, "El libro de los privilegios de la nación Genovesa", *Historia, Instituciones, Documentos* I (1974) 288-292.

فقد اهتمّ هذا الأمر بصورة استثنائية بالجانب العَقاري ولم يَمْنَح فقط المباني نفسها، ولكن أشار كذلك إلى مواقع المباني وشروط تسليمها. فقد منح فرديناند "حيّاً بإشبيلية للجالية الجَنَوية حيث تكون لهم كنيسة وحمّام وفُرْن" ثم يواصل ليضيف أن ذلك الحَيّ يقع في ساحة القدّيسة ماريا بالقرب من حَيّ الفرانكيين بجوار السوق الذي يُباع فيه الشعير وكنيسة ديسكالزوس «Descalzos» ويمكن للجَنَويين أن يطالبوا بكلّ المباني التي وُعِدوا بها بصورة دائمة ما عدا السوق المُجاورة (القَيْصَرية) وفُنْدُق التُّن[87].

واصل السُّفراء والتجار الجَنَويون طوال حكم ألفونس العاشر التفاوض بشأن مجموعة الامتيازات نفسها في إشبيلية المسيحية (الاستقلالية تحت سُلْطة القُنْصُل والفُنْداكو والكنيسة والحمّامات والأفران والإعفاء الجبائي) والتي سَعَوا للحصول عليها في بداية المُحادثات التجارية في إشبيلية وغيرها من جِهات العالم المُتَوسّطي في تلك الفترة. ولكن ستتغيّر مطالبهم ويبتعد تركيزهم في منتصف القرن التالي تقريباً عن الهُنْدِقا. فقد أصبح واضحاً للجميع أنّ ظروف التّجارة قد تغيّرت في ظلّ الحكم المسيحيّ وبالتالي لم تَعُدْ الفَنادق ضرورية ولا حتى مرغوباً فيها. وهكذا فإن إعادة تأكيد الامتيازات التي منحها فرديناند الثالث للجَنَويين سنة 1251م لا تذكر فُنْدُقاً للجَنَويين بإشبيلية، ولو أنها كثيراً ما منحت الحقوق في قناصل وشوارع ومنازل وآبار وامتيازات تجارية أُخرى[88]. كانت للجالية الجَنَوية في إشبيلية حوالى سنة 1300م اهتماماتٌ أُخرى ولم يعد الجَنَويون يريدون هُنْدِقا أو هم في حاجة إليها لمواصلة نشاطهم التجاري في المدينة.

لقد كان التغيُّر في فهم مؤسّسة الهُنْدِقا القشتالية واضحاً من خلال دعوى قضائية تعود إلى سنة 1334م وهي تتعلّق بخلاف حول هُوِيّة أحد التجار يدعى جوم مانفري «Jaume Manfré» الذي ينسب نفسه تارة إلى ميورقة وتارةً أُخرى إلى

(87) "...En Sevilla un barrio por al comun de Genua, en el qual barrio vos podades fazer eglesia et banno et alfondiga et forno"؛ يوجد هذا الفصل في تأكيد مُتأخّر قام به ألفونس العاشر و يعود إلى شهر آب/أغسطس 1260م، وقد تمّ نشره ضمن (Alfonso X of Castile), *diplomatario andaluz*, 277-278 (doc. 250).

(88) González Gallego, "Libro de los privilegios," 277-358.

جَنَوة. كان نشاطه يتطلَّب رحلات متعدّدة إلى مملكة غرناطة وإشبيلية في بداية القرن الرابع عشر. فكانت أغلب الأدلّة التي قدّمها الشهود في هاتِهِ الدعوى تحوم حول ما إذا كان جوم المذكور قد لُوحظ بصحبة تجار جَنَويين أو أصيلي ميورقة وهل كان قد أقام في الهُنْدِقا الخاصّ بهم. فكانت شهاداتهم تُبيِّن أنّ نظام الإقامة في الفُنْدُق الإسلاميّ الخاصّ بالجاليات التجارية الأجنبية لا يزال مزدهراً في مملكة غرناطة النصرية خلال الفترة ما بين 1320م وبداية 1330م لأن جوم شُوهِد مرات عديدة في الفَنادق الأوروبية في ألْمَرِيّة وغرناطة. فمن الواضح أن هذه المُنشآت كانت مُهيّأة لسكن ونشاط الجاليات حسب انتماءاتها لأن أحد شهود العِيان التقى جوم المذكور في ألْمَرِيّة سنة 1326م أو 1327م وقال بأنه "كان يرتدي ملابس قَطَلانيّة وكان يتصرف كقَطَلانيّ وكان يعيش ويقيم في الفُنْدُق القَطَلانيّ". كما شوهد سنة 1333م وهو "يجلس ويأكل في الفُنْدُق القَطَلانيّ". غير أن شاهداً آخر قال بأن جوم أقام مع الجَنَويين في ألْمَرِيّة وأنه "شاهد جوم هذا مع الجَنَويين يتحدّث معهم ويقيم في فُنْدُقهم" سنة 1326م[89]. ولكن يبدو أن جوم كان يقيم بمنزل في إشبيلية حسب أحد شهود العِيان "لأنه ليس هناك فُنْدُق لا للجَنَويين ولا للقَطَلانيّين"[90]. كما أنّ المراسيم الصادرة بشأن إشبيلية عن الملك ألفونس الحادي عشر سنة 1337م لا توجد فيها إشارات إلى هُنْدِقا مُعَدّة للسكن، إلّا أنها تذكر بوزاداس «*posadas*» أُستالايس «*ostalais*» ومنازل مُعَدّة للكِراء وغيرها من المُؤَسّسات المُعَدّة لإقامة المسافرين[91].

مِثْل الجَنَويين كان القَطَلانيّون يَسْعَون للحصول على امتيازات جِبائية وغيرها من التنازلات في إشبيلية المسيحية مُقْتَفِين أثر الإيطاليين. ففي بداية سنة 1280م،

---

(89) Manuel Sánchez Martínez, «Mallorquines y genoeveses an Almería durante el primer tercio del siglo XIV: el proceso contra Jaume Manfré (1334),» *Miscellània de Textos Medievales*, IV : *La frontera terrestre i marítima amb l'Islam* (Barcelona: Consell Superior d'Investigaciones Científiques, 1988) 120, 154, 158.
لقد أورد العديد من شهود العِيان شهادات عديدة في حالات عديدة أُخرى كان يجلس فيها جوم [Jaume] سواء مع القطلانيين أو الجَنَويّين في فَنادقهم في ألْمَرِيّة وغرناطة.

(90) "In Xibilia non sit fundicus catalanorum neque januensium"; Sánchez Martínez, "Mallorquines y Genoeveses en Almería," 121, 158.

(91) Guichot, *Ayuntamiento*, 219.

مثلاً، طلب التجار القَطَلانيّون من ألفونس العاشر الإعفاء من الضرائب والحَقّ في حَيّ وفُنْدُق كما فعل فرديناند الثالث مع الجَنَويين منذ ثلاثين سنة خَلَت[92].

يبدو أنَّ ألفونس قد استجاب لطلبات القَطَلانيّين الجِبائية ولكن دون أن يذكر فُنْدُقاً أو حَيّاً في إشبيلية. وفي آب/أغسطس 1284م لمّا جَدَّد الملك الجديد، سانشو الرابع، الامتيازات السابقة لم يذكر هُنْدِقاً خاصّاً، وإنما أمر بأن يُعطى القَطَلانيّون حَيّاً خاصّاً بهم حيث يمكنهم بناء مخزن وفُرْن وحيث يمكنهم بَيْع وشِراء الأقمشة بالجُمْلة والمفرَّق مثلما هو الشأن بالنسبة إلى الجَنَويين". وسيقع تجديد "هذا الحقّ في الحصول على مخزن وفُرْن" في شهر حزيران/يونيو 1292م كذلك بمناسبة السَّماح للتُّجّار القَطَلانيّين بتجارة زيت الزيتون في فُنْدُق الزيت بإشبيلية بالشروط نفسها التي كانت للجَنَويين[93]. فمن الواضح أن اللوجيا أصبحت الآن مقرّاً لنشاط التجار في حين أصبح الهُنْدِقا مَخْزناً للسِّلَع.

فهذا التغيُّر في التعبير من الهُنْدِقا إلى اللوجيا يجب ربطه بالتغييرات الجَذْرية التي عرفتها مُصطلحات الفضاء التجاري المسيحيّ، التي تَمَرْكزت ليس في إسبانيا فقط وإنما كذلك في بيزنطة وفي جِهات أُخرى من المتوسّط (مثلما وقعت مناقشة ذلك في الفصل السابق) في أواخر القرن الثالث عشر. فأصبحت الجاليات التجارية الأجنبية في نهاية هذا القرن عِوَضاً عن المُطالبة بهُنْدِقا أو بفُنْدُق، تسعى للتحكّم في منازلها وفي أحياء وشوارع وأفران ولوجيات في المُدُن الأيبيرية المسيحية. ففي حين ظلّت الهُنْدِقا أدوات للمُراقبة الجبائية المَلَكِيّة، أصبح التجار الأجانب يُحَبِّذون امتلاك العقارات التي يمكنهم التصرُّف فيها حسب مشيئتهم. وبدأت تظهر مؤسّسة اللوجيا في قشتالة والممالك الأراغونية في الوقت نفسه في نهاية القرن الثالث عشر، بأن حَلَّت محلَّ الهُنْدِقا والفُنْدِك كمقرّ إقامة للتُّجّار المسيحيين ومركز نشاطهم التجاري. ومن الأرجح أن لا يكون ذلك من باب الصُّدْفة أن تكون الكلمة قد ظهرت أوّلاً في إشبيلية في الإشارة إلى الجالية القَطَلانيّة حيث إنّه من المُمْكن أن يكون تجار في ممالك الأراغون هم الذين

(92) Capmany, *Memorias*, II, 46 (Alfonso X of Castile), *diplomatario andaluz*, 514-515 (doc. 485).

(93) Capmany, *Memorias*, II, 53, 76-77.

جلبوا الكلمة من الشرق الإسباني إلى قشتالة. وفي فترة لاحقة سيحصل الجَنَويون على لوجيا في إشبيلية خلال القرن الرابع عشر مثلما حصلت على ذلك المجموعات التجارية العديدة الأُخرى بما في ذلك المجموعات المَحْدُودة العدد كتجار ميلانو[94].

لم يَقَعْ قَطُّ تفسيرُ أسباب هذه التغيُّرات في المُصطلحات، وفي المُؤسّسات، في المصادر، ولكن يمكن التفكير في تفسير يعتمد على التغييرات السياسية-الدينية التي حصلت وفي المُمارسات التجارية المُعاصرة لها. فقد بدأت اللوجيا عِبارةً ضمن قاموس المُصطلحات الهندسية المِعْمارية تعني عادة شُرْفة مسقوفة أو رُواقاً مُقَوَّساً مُهَوَّىً ومُظَلَّلاً يمكن أن يجد فيه التجار راحتهم لممارسة نشاطهم ويمكن فيه للكُتّاب العُدُول أن يجلسوا لأداء مهامّهم. ومع أنَّ اللوجيا كانت تشمل مخازن، فإنَّ تخطيطها العامّ كان مكشوفاً أكثر من الفَنادق وهو تخطيط لا تُمليه الحاجة إلى الأمن أو التحكّم في التجار والبضائع على السواء. فكلمة لوجيا على ارتباط وثيق بالتّجارة في مُدُن جنوب أوروبا مثل برشلونة وجَنَوة حيث لا توجد أية إمكانية للتثاقُف[95]. فأصبحت اللوجيا فضاءً تجارياً يلتقي فيه التجار المسيحيون للقيام بأنشطتهم مع مسيحيين آخرين، كما أصبحت هناك لوجيات مختلفة مرتبطة بالانتماءات الجِهَوِيّة لساكنيها من التجار وأصبحت مكاناً خاصّاً بإقامتهم ومُنطلقاً لنشاطهم. في المقابل بَقِيَت مُؤسّسات الفُنْدُق (الفُنْداكو) مقرّاتٍ للإقامة شديدةَ الارتباط بالتِّجارة الإسلامية أو بالتِّجارة المسيحية في العالم الإسلاميّ.

وبالرغم من أنّ الفُنْداكو واللوجيا يُلَبِّيان الحاجات التِّجارية نفسها كَسَكَن للتُّجّار والأمن والخَزْن والتِّجارة فإنهما يختلفان عن بعضهما من الناحية الإدارية

---

(94) González Gallego, "Libro de los privilegios," 314; González (ed.), *Repartimiento de Sevilla*, I, 343-344.

تظهر اللوجيا في المُفاوضات من أجل حُصُول القطلانيين على امتيازات في كورسيكا وسردينيا سنة 1321م (Capmany, *Memorias*, II, 158).

(95) حول اللوجيا القَطَلانية انظر: Guillem Forteza, «El Cicle arquitectònic de les nostres llotges medievals,» *Revista de Catalunya* (Barcelona) 14 (1934) 221-248.

وكذلك Sexton, «Renaissance Civic Loggias,» 17-20, 81-82.

ومن حيث المفهوم. كمقرّات للإقامة، يلعب الأوّل دوراً هامّاً منظّماً في التوسّط بين الثقافات في حين تشتغل الثانية في جَوٍّ أقلّ تنظيماً بالنسبة للتبادُل المشترك بين المسيحيين. وقد أصبح هذا الوضع واضحاً في أواخر القرن الثالث عشر الذي حصل فيه إدماج فضاءات جديدة من العالم المتوسّطي نتيجة للتوسُّع المسيحيّ السياسي والتجاري.

عَلَّمت التجربة في الأراضي الإسبانية التي تمّ الاستيلاء عليها حديثاً وكذلك في صِقِلّية وفي الإمارات الصليبية، التجار المسيحيين كيفية التفريق بين مُمارسة التِّجارة في العالم المسيحيّ وممارستها في العالم الإسلاميّ.

ورغم أنّ المَسار الاقتصادي للتِّجارة كان متشابهاً في كثير من الحالات عَبْرَ المتوسّط مثلما هو الشأن بالنسبة إلى لُغة التِّجارة، فإن تجربة التجار المسيحيين الذين يعيشون في تلك الفترة في المُدُن الإسلامية، حيث تكون تحرُّكاتهم ونشاطاتهم ومعتقداتهم مُقَيَّدة وتحت رقابة مُشَدَّدة، كانت مختلفة جداً عن حياتهم في المُدُن الخاضعة لإدارة مسيحية.

فالتجار الأوروبيّون حتى أولئك الذين يتكلَّمون لُغات مختلفة أو هم رعايا دولٍ أجنبية، كان بإمكانهم أن يندمجوا في إطار بُنْية تحتية مادّيّة واجتماعية أوسع نطاقاً للمُدُن التي انتقلت للمسيحية من خلال شراء المنازل والإقامة حيث شاءوا في أحياء المُدُن إلى درجة يستحيل توفّرها في المجال الحَضَريّ الإسلاميّ. فقد كان الحُكّام المسيحيون تَوّاقين لجَنْي أكثر ما يمكن من الأرباح من التِّجارة الخارجية ويكون ذلك عادة عن طريق فَرْض الضرائب على البضائع وتطبيق سياسات حِمائية في مجال التِّجارة ولكنّهم من النادر أن يكونوا مهتمّين بتنظيم أو بحصر نشاطات التجار المسيحيين أنفسهم أو بالتحكّم في تحركاتهم.

وهكذا غَيَّرت الهُنْدِقا تركيزها على العمليّات التجارية في المُدُن المُسْتَرْجَعة حديثاً في قشتالة في أواخر القرن الثالث عشر. فتخلّت عن وظيفتها السَّكَنية في ظلّ الإدارة المسيحية وأصبحت عِوَضاً عن ذلك مكاناً لخَزْن السِّلَع والبَيْع بالجُمْلة وجَمْع الضرائب والتوزيع. وعلى هذا النحو، بَقِيَت مصدراً هامّاً للمداخيل المَلَكِيّة، الناتجة عن مُراقبة نَقْل البضائع عِوَضاً عن مراقبة تَنَقُّل الناس. ففي سنة 1310م، مثلاً، مَنَح فرديناند الرابع الجالية الجَنَوية مداخيل "فُنْدُق الفَرِينة

المَلَكي" بإشبيلية عِوَضاً عن الفُنْدُق ذاته، وذلك مُقابل مساعدة الجَنَويين أثناء محاصرة مدينة الجَزِيرة[96].

كان الوضع مُختلفاً في مَمالك الأراغون وقَطَلونيا لأنّ الفُنْدُق حافظ على وظيفته السَّكَنِيّة على الرغم من أنه يُلَبّي على نحو متزايد رَغَبات التجار غير المسيحيين. فكما كان في قشتالة، سُرْعان ما سَعَت المجموعات التجارية مباشرة بعد استيلاء جيمس الأوّل على جُزء من الشرق الأيبيري لحماية مصالحها في الوضع السياسي والديني الجديد. فكانت المُدُن المِينائية في شرق إسبانيا تُوفِّر أسواقاً أساسية للتُّجّار الإيطاليين الذين طالما سَعَوا للحُصُول على امتيازات لتجارتهم في جُزُر البليار وكذلك المُدُن القارّيّة الأُخرى. فلم تُضَيِّع المُدُن-الدول الإيطالية الوقت في ضمان حُقُوقها الجارية في ميورقة حديثة العهد بالمسيحية، مطالبين جيمس الأوّل بالامتيازات مُذَكِّرين بالسابقة لدعم مطالبهم. ففي أيار/مايو 1233م، وفي سنوات قليلة بعد الاستيلاء على جُزُر البليار، حصلت جَنَوة على حقّ بِناء فُنْدُق وكنيسة في ميورقة، وبعد ثلاثة أشهر، في شهر آب/أغسطس 1233م، تمّ مَنْح الحقوق نفسها إلى التجار البيشانيين[97]. وبعد نصف قرن من ذلك تقريباً أصبح للجَنَويين لوجيا عِوَضاً عن فُنْدُق في مدينة ميورقة ولو أنه قد

(96) Fernández Gómez et al. (eds.), *Privilegios de Sevilla*, 265-269.

(97) Miret i Sans (ed.), *Itinerari de Jaume I*, 103-104; A. Santamaría, "La Reconquista de las vías marítimas," *Annuario de Estudios Medievales 10* (1980) 57.
وحتى في وقت مُبَكِّر، كان جيمس قد وَهَبَ سنة 1230م ساحة للجَنَوِيين ومنازل وكنيسةً وبستاناً في ميورقة ولكن ليس هناك ذِكْر لفُنْداكو (P. Lisciandrelli, *Trattati e negoziazioni politiche della repubblica di Genova [958-1797]* [Genoa: Società Ligure di Storia Patria, 1960] [no. 250]; and *Liber iurium Reipublicae Genuensis*, I, cols. 888-889 [no. 688]. تسعى المعاهدة مع بيشة إلى تجديد الامتيازات بما في ذلك الحقّ في الحصول على فُنْداكو وفُرْن وكنيسة كان قد ضَمِنَها رامون برينغر الثالث [Ramon Berenguer III] لبيشة أثناء حملة ناجحة إلى حدٍّ قليل على جُزُر البليار سنة 1113-1114.
([James I of Aragón], *Documentos de Jaime I of Aragón*, ed. A. Huici Miranda and M. D. Cabanes Pecourt, 1 [Valencia: Anubar, 1976] 318-320 [doc. 186]; also P. Piferrer y Fábregas, *Islas Baleares* [Barcelona: D. Cortezo, 1888] 568-570).
ورغم أن هذه الهِبَة المُبَكِّرة غير مُدَعَّمة بأدلّة، فإنّه ليس هناك شَكّ في أن بيشة قد تمتعت بمثل هذه الامتيازات في جُزُر البليار في العهد الإسلامي (انظر الفصل الرابع).

يكون المَبْنَى نفسه تحت تَسْمِية جديدة. وقد كانت هذه اللوجيا في الوقت نفسه مكاناً لإقامة الجَنَويين وفضاءً للتفاعُل الثقافي، فكانت سنة 1286م مَسْرحاً لمُجادلة بين عدد من أعضاء الجالية اليهودية بميورقة وتاجر جَنَوي يقدّم نفسه على أنه فَقِيه في الدين يسمّى إنغاتو كونتاردو «Inghetto Contardo»[98]. وفي القرن الرابع عشر مثلما هو الشأن في قشتالة، كانت اللوجيا قد أصبحت المَقَرّ المُعتاد لأعمال المسيحيين وحياتهم الاجتماعية وسَكَنِهم في ممالك الأراغون[99].

بينما كان التجار الإيطاليون يواصلون المُطالبة بامتيازات تجارية في الأراضي حديثةِ العَهْد بالمسيحية، كانوا يتمتَّعُون كذلك بحقوق في الأراضي الأُخرى الخاضعة لسُلطة جيمس الأوَّل. فقد حصلت جَنَوة على فُنْداكو في مدينة مونبليه، ولكن كما هو الشأن في بعض المُنشآت المَلَكِيّة الأُخرى، حافظ جيمس الأوَّل على مراقبتها بشدّة. ففي امتياز يعود إلى سنة 1263م هُناك وَعْدٌ للجَنَويين باستعمال ذلك المَبْنَى ولكن دون السماح لهم بِرَهْنِه أو بتحبيسه أو بتقييده بأيّ شكل من الأشكال، وإنّ أيّ تاجر يعمل أو يعيش في الفُنْداكو عليه أن يتبع المسالك القانونية والمَلَكِيّة إذا كان له أيّ تظلُّم[100].

كانت مُؤَسَّسات الفُنْدك الخاصّة بالتجار المسيحيين قد اندثرت بصورة تدريجية بحلول آخر القرن الثالث عشر في جُزُر البليار والمُدُن القارّيّة في ممالك

(98) Inghetto Contardo, *Disputation*, in *Die Disputationen zu Ceuta (1179) und Mallorca (1286)*, ed. Ora Limor, Quellen zur Geistesgeschichte des Mittelalters, 15 (Munich: Monumenta Germaniae Historica, 1994) 169 (also ed. Gilbert Dahan, *Disputatio contra iudeos [Controverse avec les juifs]* [Paris: Les Belles lettres, 1993] 86); Steven Epstein, *Genoa and the Genoese, 958-1528* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1996) 174-175.

(99) تَذْكُر الامتيازات التي مَنَحها ملوك الأراغون للجاليات المسيحية الأُخرى منذ بداية القرن الرابع عشر اللوجيا ولا تذكر أبداً الفُنْدك. وعندما تذكر وثائق داتيني [Datini] الفَنادق (الفنداكو) التي على مِلْك الشركة في بَلَنْسية، وميورقة وبرشلونة، فإن ذلك يعكس الاستعمال الإيطالي (بمعنى المَخْزَن، انظر الفصل التاسع) عِوَضاً عن معناه الأيبيري (G. Corsani, *I Fondaci e i banchi di un mercante pratese del trecento: contributo alla storia della ragioneria e del commercio, da lettere e documenti inediti* [Prato: La Tipografica, 1922] 35).

(100) (James I of Aragón), *Documentos de Jaime I de Aragón*, v (Zaragoza, 1988) 49 (no. 1342).

الأراغون. وفي الوقت نفسه، فإنَّ منشآت تحت هذا الاسم كانت تزداد ارتباطاً بزبائن من المسلمين، وخصوصاً جِهَة بَلَنْسية. وقد عَلَّل خايمي فيسانس فيفاس «Jaime Vicens Vives» هذا التغيير بتنامي النشاط التجاري، ومع كثرة الذهاب والإياب لعدد كبير من التجار "أصبح نظام الفَنادق الكبيرة الجماعية غير مُجْدٍ"، وبذلك فَسَحَ الهُنْدِقا والفُنْدك الطريق أمام نُشوء شبكة من الفَنادق والإقامات صغيرة الحجم[101]. إنّ هذا التفسير لا يقنع على أكثر المستويات ليس أقلّها أنه يُسيء فَهْمَ الوظائف الأُولى للفُنْدُق وحجمه فكلّ الدلائل تُشير إلى أنّ أغلب الفَنادق في الأندلُس كانت صغيرة الحَجْم نسبيّاً وكثيرة العدد ولو أنه كانت توجد بلا شكّ مُنشآت كبيرة الحَجْم. ويبدو من المستبعد أنها أعاقت التوسّع التجاري بما أنها واصلت القيام بوظيفة تِجارية حَيَوِيّة في جِهات أُخرى من المتوسّط. فَعِوَضاً عن ذلك كان الارتباط القوي والمُستمرّ بين الفُنْداكو والتِّجارة الإسلامية وخاصّة التِّجارة المختلطة-الإيمان بين المسلمين والمسيحيين، هو المسؤول عن تَحوُّل الأعمال التجارية المسيحيّة-الداخلية المُتَبادَلة إلى اللوجيا.

فَنادق لغير المسيحيين في أيبيريا المسيحية

حافظت مُؤَسَّسات الفُنْدك على أهمِّيّتها كمركز للتفاعل الثقافي في ممالك الأراغون حيث توجد فَنادق خاصّة بالتجار المسلمين الوافدين والتي لا تزال إدارتها تحت سُلْطة الملك في الأحياء الإسلامية خلال القرن الخامس عشر. وفي حالات قليلة مثل حالة الفُنْدُق والدكاكين التي سَتُبْنَى في برشلونة سنة 1268م، فإن هذه الفضاءات كانت قد أُعدّت خصوصاً لتُسْتعمَل لإقامة وأمن التجار المسيحيين والمسلمين واليهود[102].

ولكن في حين ظَلَّت بعض الفَنادق توفّر الإقامة بانتظام للمسيحيين، ازداد تخصُّص هذه المُنشآت كأماكن مُعَدّة لإقامة المسلمين. قد واصل التجار المسلمون الأصيلون من غَرْناطة وبلاد المَغْرب نشاطهم التجاري في موانئ

(101) J. Vicens Vives, *An Economic History of Spain* (Princeton: Princeton University Press, 1969) 194.

(102) ACA, c, reg. 15, fol. 107v (15 kal. July 1268).

ممالك الأراغون وقَطَلونيا، خاصّة في بَلَنْسية، مع أنهم لم يعودوا يزورون إشبيلية أو أَسْواقاً أُخرى في قَشتالة. وقد كان التحوُّل في الفُنْدك في بيارة سنة 1266م من توفير السَّكَن "للتُّجّار وغيرهم" إلى مَقَرّ خاصّ بالمسلمين، يعكس بالفعل توجُّهاً نحو تشريع يطالب المسلمين بالإقامة في مُؤَسّسات الفُنْدك المَلَكِيّة. وفي فترة ليست بالطويلة بعد إعادة تَخْصيص الفُنْدك في بيارة، وعندما أنشأ فُنْدكاً مَلَكيّاً جديداً في بَلَنْسية سنة 1273م، أمر جيمس الأوّل بأن تكون هذه المُنْشَأة "خاصّة بالمسلمين في الأحياء الموريسكية حيث يجب على كلّ المسلمين الوافدين على بَلَنْسية أن يُقيموا فيها بأمري"[103]. وكذلك يوجد فُنْداكو مَلَكي بحيّ المسلمين بسَرَقُسْطة حيث يجب على المسلمين الذين يزورون المدينة أن يُقيموا ويبيعوا سِلَعَهم فيه. وفي بعض الأحيان تكون هذه المُنْشَأة مُؤَجَّرة إلى مُشْرِف مسلم وفي بعض الأحيان الأُخرى إلى مُشْرِف مسيحي[104]. وقد تمّ الضغط على بطرس الثالث، ملك الأراغون سنة 1282م لإلغاء أمر قديم يتعلّق بإقامة التجار المسلمين الوافدين على مدينة شاطبة بأن يسكنوا في الفُنْدك المَلَكي ويفرغوا فيه بضائعهم ويبيعوها هناك، ولكن بقي ذلك المطلب قائماً[105]. في الحقيقة أصبح هذا النوع من التنظيمات من الثوابت في ممالك الأراغون وقَطَلونيا منذ نهاية القرن الثالث عشر إلى بداية القرن السادس عشر[106].

---

(103) Burns, *Medieval Colonialism*, 71-72; Martínez Ferrando, *Catálogo de la documentación*, I, 347 (no. 1587).

لقد كان من دوافع جيمس في هذه العمليّة تقليل النشاط التجاري في أحد الفَنادق الخاصّة.

(104) ورد في توبيخ من بطرس الثالث إلى حاكم سَرَقُسْطة إشارة إلى مبيعات يقوم بها مسلمون مقيمون في "فندقنا" المَلَكي (ACA, c, reg. 41, fol. 72r (17 kal. June, 1297)). وسيشار إلى هذا الفُنْدُق فيما بعد في عهد جيمس الثاني على أنه فُنْدُق المُسلمين الذين يسكنون في الحَيّ الإسلامي (ACA, c, reg. 96, fol. 24r (7 ides Sept. 1293); also ACA, c, reg. 194, fol. 85r (6 kal. Oct [1294]). وسيذكره دفتر جيل تارين [Gil Tarin] راعي سَرَقُسْطة في عهد جيمس الثاني في سنوات 1290م باسم فُنَيْدق سَرَقُسْطة (*El registro del merino de Zaragoza, el caballero Don Gil Tarin, 1291-1312*, ed. Manuel de Bofarull y de Santorio [Zaragoza: Imprenta del Hospicio Provincial, 1889] 5). أشكر بريان كاتلوس [Brian Catlos] على هذه المراجع السَّرَقُسْطية.

(105) Burns (ed.), *Diplomatarium*, I, 170-171.

(106) See chapter 9 for a discussion of these later data.

طوال الفترة التي بدأ فيها جيمس بمطالبة المسلمين غير المُقيمين بالسَّكَن في مُؤَسّسات الفُنْدك المَلَكِيّة، بدأنا نرى تمييزاً للفَضاءات الحَضَريّة التي تعيش فيها مختلف المجموعات الدينية. فقد تزايد تشجيع ـ أو مطالبة ـ المسلمين واليهود في المُدُن حديثة العهد بالمسيحية بالعيش في أحياء خاصّة وُضِعَت جانباً لمصلحتهم. فقد كانت الأحياء الإسلامية واليهودية في ممالك الأراغون تحتوي على جُمْلة من المرافق المُتَّصِلة بها مثل المساجد والبِيَع اليهودية والحمّامات والأفران ودكاكين القصّابين والأسواق والفَنادق(107).

كان من المفترض أن يقيم التجار المسلمون الأجانب والمسلمون المقيمون بممالك الأراغون، والذين يفدون من الأرياف أو من المُدُن الأُخرى، في تلك الفَنادق. وهكذا فإنَّهم كانوا خاضعين لتنظيم مُزْدَوج داخل أسوار الفُنْدك وداخل حُدُود الحَيّ الإسلاميّ. وبالرغم من أنّ المسافرين اليهود لم يكونوا مُلزمين بأيّ شُرُوط خاصّة على أن يسكنوا في مُؤَسّسات الفُنْدك المَلَكِيّة، فإنه يبدو أن هناك تقارباً عامّاً بين مختلف أشكال الإقامات المَعْزُولة.

لقد كانت الإقامات الإسلامية المنظّمة في مدينة بَلَنْسية موجودة ضمن عدد مَحْدُود من الفَنادق المسيحية حتى تعكس وظيفة الفُنْداكو الخاصّ بالتجار الأجانب في المُدُن الإسلامية (يعتبر فُنْدُق الألمان بالبُندقيّة مثالاً آخر يستحقّ الذِّكر). وقد ساهمت عوامل عديدة في تواصل هذا الدور التجاري العابر للثقافات. أوّلاً وهو الأهمّ، أدّى المَزْج بين قوة السوق والسياسة المَلَكِيّة إلى توجيه التجار المسلمين إلى موانئ إسبانيا الشرقية التي يحتاجون فيها إلى مُنْشآت للسُّكَن والتِّجارة. ثانياً ومثلما وقعت مناقشته سابقاً، لعب جيمس الأوّل دوراً نشيطاً في تطوير السياسات الاقتصادية في مَمْلَكته بما في ذلك مراقبة الفَنادق المَلَكِيّة.

إنّ المُراقبة غير العادية التي مارسها جيمس الأوّل على الفَنادق المَلَكِيّة في مَمَالكه تعكس إلى حدّ ما موقفه من المؤسّسات القَطَلانيّة في المُدُن التونسية. إن

(107) David Abulafia, "From Privilege to Persecution: Crown, Church and Synagogue in the City of Majorca, 1229-1343," in *Church and City, 1000-1500*, ed. D. Abulafia et al. (Cambridge: Cambridge University Press, 1992) III-126.

التوازي الواضح بين إدارته للفَنادق المَلَكيّة الخاصّة بالمسلمين في مُدُن شرق الجَزيرة ومثلها من المُنشآت القَطَلانيّة في الخارج يُوحي بوجود علاقة في تصوّر الفضاءين كفضاءين للتفاعل الثقافي والتِّجارة وجمع الضرائب.

التجار القَطَلانيّون والفَنادق في البلاد التونسية في العهد الحَفْصِي

كَسَب جيمس بضمّه ميورقة وبَلَنْسية إلى الأراضي الأراغونية القَطَلونيّة لقب جيمس الغازي «James the conquerant/Jacques Le Conquérant» وأعطاه حُكْمه الطويل المَدَى الذي امتدّ إلى ستين سنة الفُرْصة لمُواصلة إنجازاته العسكرية. إضافة إلى ترسيخ السيطرة على فُتُوحاته الأيبيرية قد كان يتطلّع شرقاً إلى البحر الأبيض المُتوسّط قَصْدَ التوسُّع للسيطرة على الجُزُر الاستراتيجية وعلى المَسالك في المتوسّط من أجل تعزيز طُمُوحاته السياسية الشخصية ومصالح تجُّار مَمْلكته. فقد خَلَقَ زَواج ابنته كونستانس [Constance] من الإمبراطور فريدريك الثاني وأهمّ من ذلك زواج ابنه بطرس (الذي سيصبح فيما بعد بطرس الثالث) من حفيدة فريدريك الثاني وتسمّى كذلك كونستانس، مَلِكةَ صِقِلّية، تَحالُفاتٍ سمحت للأراغون بالمطالبة بعرش صِقِلّية وهي أهمّ ممتلكاته في قلب المتوسّط. إذ توفّر صِقِلّية مركزاً حيويّاً للبضائع والتجار العابرين بين حوضي المتوسّط أو بين موانئ جَنَوة وبيشة بشمال إيطاليا وشمال إفريقيا. فقد كانت هذه الجزيرة وخاصّة مَيناءي بالرمو ومَسّينا أهمّ مكسب سياسي وتجاري، وليس من المستغرب أن يجدَ مُلوك الأراغون أنفسهم في تَنافُس من أجل السيطرة على صِقِلّية في العقد الأخير من القرن الثالث عشر.

وقد كان في الضفة الجنوبية من المتوسّط ميناءا تونس وبِجاية بإفريقية الحَفْصِية من النقاط الاستراتيجية كذلك، فهما يقعان على طول المسالك التجارية الكبرى التي تربط بين شرقيّ المتوسّط وغربيّه، وقد كانا هما أيضاً مجال اهتمام جيمس. فقد كانت هاتان المدينتان من الأسواق الهامّة ليس للبضائع العادية التي توجد ضمن التِّجارة المتوسّطية فقط ولكن لأنهما كانتا مَصَبّاً للذهب القادم نحو الشمال من إفريقيا الغربية. فلهذا السبب كان التجار الأوروبيّون في القرن الثالث عشر يَسْعَون لربط علاقات تجارية مع الدولة الحَفْصِية والحصول على فَنادق من السلاطين الحَفْصِيين. قد كانت هذه الفَنادق في أغلب الحالات مثلما تَمَّت

مناقشة ذلك في الفصل السابق شبيهة جدّاً بنظرائها في الإسكندرية وغيرها من المُدُن الإسلامية الأُخرى.

ومع ذلك قد كانت طُمُوحات جيمس الغازي الجِبائية وقُوَّته العسكرية قد اجتمعت لتصمّم ترتيبات مختلفة فيما يتعلّق بالفُنْداكو القَطَلانيّ. ومثلما هو الشأن بالنسبة إلى الفَنادق المَلَكِيّة في بلاده، قد كان جيمس يَذْكُر الفَنادق القَطَلانيّة بتونس وبِجاية بكلمة "فَنادقنا" وكانت مداخيلها مُراقبةً مباشرةً من قِبَل المَلِك[108]. وبالرغم من أنه لم يَقُمْ قطُّ بحملة صليبية ضد الحَفْصِيين مثلما فعل نظيره ومعاصره ملك فرنسا لويس التاسع، فمن الواضح أنه رأى نفسه في موقع قُوّة بالنسبة إلى الأراضي الحَفْصِية وهو ما يجعله قادراً على المُطالبة بامتيازات لتجار بلاده ولخزينته وهو ما لم يكن متاحاً للمجموعات التجارية الأوروبية الأُخرى. قد كان هذا الموقف ناتجاً عن انتصاراته العسكرية في إسبانيا ومنعكساً من خلال تصوّره أن الفَنادق القَطَلانيّة يجب أن تكون وفق الامتيازات السياسية التي أصبح يتمتّع بها في الأراضي التي غزاها. وقد تواصلت سياسته التوسّعية بعد وفاته من طرف خلفائه بطرس الثالث (1276-1285م) وألفونس الثالث (1285-1291م) وجيمس الثاني (1291-1327م) وغيرهم.

ذُكِرت أوَّل الفَنادق القَطلانيّة في المجال الحَفْصِي بتونس سنة 1253م وبِجاية سنة 1259م. ورغم أنها قد تكون موجودة من قبل خلال القرن الثالث عشر، فمن المهمّ الإشارة إلى أنها ظهرت لأوّل مَرّة في المصادر في الفترة التي كانت فيها القوة السياسية والعسكرية لجيمس الأوّل قد اشتدّ عُودُها دافعة بذلك التأثير التجاري والدبلوماسي لهذه المَملكة[109]. وقد كانت العلاقات بين الحَفْصِيين والمُلُوك الأراغونيين والقَطلانيّين متغيِّرة خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ولكن رغم وجود فترات انقطاع ظَرْفية، فإنَّ الوثائق متوفّرة بكثرة لِتُبيِّن تواصُل العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين البلدين.

(108) يُحيل هذا الاستعمال الذي يحدث في بعض الأحيان على الفُنْداكو القطلاني في مُدُن إسلامية أُخرى بما فيها الإسكندرية، ولكن الترتيبات الجِبائية والإدارية الداخلية لهذه المُنْشآت تختلف عن تلك التي توجد في الموانئ الحَفْصِية.

(109) C. E. Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib aux XIII et XIVe siècles* (Paris =Presses Universitaires de France, 1966) 98, 101.

وقد استفاد الطَّرَفان من هذه العلاقات ولكن على خلاف الأنظمة الأوروبية الأُخرى، فقد كانت اليد العُليا في المفاوضات الاقتصادية دائماً للأراغون. إذ كانت الفَنادق القَطَلانيّة في تونس وبِجاية مثلاً، تعتبر ملكاً خاصّاً لجيمس الأوّل، وهو الذي يجني كلّ مداخيلها أو يؤجّرها للقناصل أو لموظّفين يختارهم بنفسه، يطلق عليهم اسم المُشْرِف[110]. وهذه الوضعية تختلف عن وضعية الفَنادق الأراغونية في جِهات أُخرى من العالم الإسلاميّ بعد سنة 1260م حيث كان القناصل يتقاضون رواتبهم من مدينة برشلونة أو من التجار مباشرة[111]. يمكن من خلال الوثائق الجيّدة الموجودة في أرشيف مملكة الأراغون أن نتعرَّف في الوقت نفسه على أسماء القناصل الذين يدفع لهم جيمس الأوّل رواتبهم في فَنادق تونس وبجاية وأن نُقَدِّر دخلهم[112]. تُبَيِّن المبالغ المالية الهامّة بكلّ وضوح الأسباب التي تجعل الملوك وغيرهم حريصين على المشاركة في إدارة الفَنادق. فقد تتبَّع

= انظر كذلك A. B. Hibbert, "Catalan Consulates in the Thirteenth Century," *Cambridge Historical Journal 9* (1947-1949) 352-358; Andrés Giménez Soler, "El commercio en tierra de infieles durante la edad media," *Boletín de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona* 5 (1909-1910) 171-199, 287-298, 521-524.

(110) Burns, *Medieval Colonialism*, 257; Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib*, 321-324.

استفاد جيمس كذلك من التِّجارة نفسها بتكليف من ينوب عنه في الأعمال التجارية بتونس لصالحه (C. E. Dufourcq, "Les Consulats catalans de Tunis et de Bougie au temps de Jacques le Conquérant," *Annuario de Estudios Medievales* 3 [1966] 474-8).

(111) Joan F. Cabestany Fort, "Consols de Mar" y 'consols d'Ultramar' en Cataluña (siglo XIII-XV," in *La genti del Mare Mediterraneo*, ed. Rosalba Ragosta (Naples: Lucio Pironti Editore, 1981) 415-416. Also Dufourcq, 'Consulats catalans de Tunis et Bougie," 471.

(112) تتوافر لدى كابماني Capmany قوائم لأسماء القناصل في تونس وبجاية تعود إلى 1281م مع أسماء قناصل في مُدُن أُخرى في العالم المتوسطي من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر (*Memorias*, II, 850-860). إن نظرة سريعة على المُعاهدات الدبلوماسية والرسائل والأوامر التي تُعْطَى للسُّفراء التي وصلتنا، وغيرها من المواد التي تهمّ العلاقات بين تونس ومَمالك الأراغون وقَطَلونيا توجد في I. De Las Cagigas, "Un Traité de paix entre le Roi Pierre IV d'Aragón et le Sultan de Tunis Abû Isḥāq II (1360), *Hespéris* 18 (1934) 65.

شارل ديفور «Charles E. Dufourcq» الدخل الذي يحصل عليه القناصل من كِراء أو من تأجير الباطن لفَضاء أو لوظيفة داخل هذه الفَنادق في الفترة ما بين 1257 و1275م. إذ تراوحت المبالغ ما بين 300 بيزون «Besants» في السنة وألف وثلاثمائة وثلاثين بيزوناً «Besants» دون اعتبار طَفْرة سنوات 1261 و1263م المُزْدهرة التي قَفَزَت فيها المداخيل إلى أكثر من ألفين وخمسمائة بيزون «Besants» في السنة. كانت المداخيل المُتأتّية من بجاية دائماً أقلّ من تلك التي توفّرها مدينة تونس. قَدَّر ديفور «Dufourcq» أن مداخيل الفَنادق توفّر للقناصل رِبْحاً مائة بالمئة أكثر ممّا دَفَعُوه للمَلِك مقابل وظيفة القُنْصُلية. وقد كان القناصل في الوقت نفسه يجمعون الضرائب من التجار الذين ينزلون في فَنادقهم وهي عادةً ما تُمَثِّل نسبة واحد بالمئة من قيمة البضائع. وتتضاعف قيمة هذا المبلغ ثلاث مَرّات في تونس من ألف إلى ثلاثة آلاف بيزون «Besants» سنويّاً خلال هذه الفترة الممتدّة عشرين سنة، وتضاعفت هذه المداخيل في بجاية من 600 إلى 1200 بيزون «Besants»[113].

دفع رامون أرنو، أوّل قنصل قَطَلانيّ في تونس سنة 1253م وهي سنة تولّيه القُنْصُلية، مبلغ 1000 بيزون «Besants» للمَلِك مقابل سنتين من العمل في الفُنْدُق[114]، أعاد كِراءه مرة ثانية بالاشتراك مع فيليب الداني «Philip of Denia» سنة 1258م. وفي شهر تموز/يوليو من السنة نفسها أعلن جيمس عن هِبة تقول "بأنّه أعْطَى وباع وتنازَلَ وأَجَّرَ الفُنْدُق المَلَكي الذي يملكه بتونس" إلى رامون وفيليب، ولكنّه ألغى ذلك التعيين بعد سنة لأن وليم البريلاتي «William of Perilata» (الذي شغل تلك الخُطّة في منتصف سنة 1250م) تذمّر من استغلال القُنْصُلين الجديدين لمنصبهما وعَرَضَ هو نفسه أن يدفع أكثر مقابل تولِّي الخطّة. وبذلك اندلعت حرب من المزايدات وأصبح هؤلاء الثلاثة يتعاقبون على خطّة القُنْصُلية، وفي كلّ مرة يدفعون مبالغ مرتفعة مقابل ذلك الامتياز ممّا رفع سعر الوظيفة إلى أكثر من 500 بالمئة. ففي سنة 1265م، أعاد رامون وفيليب شراء الوظيفة بسعر 5500 بيزون «besants» لمدّة سنتين سُمِح لهما خلالهما أيضاً بجمع

(113) Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib*, 177-179.

(114) Dufourcq, "Consulats catalans de Tunis et de Bougie," 470.

أرباح الدكاكين والمَخْبَزة والحانة الموجودة بالفُنْداكو. وإذا حصل أن تدخَّل المسلمون المحليون في نشاط الفُنْداكو (وعلى ما يبدو ذلك من خلال وثائق الجَنَوي بييترو باتيفوليو سنة 1280م) كان من حقّ رامون وفيليب أن يُطالبا بتعويضات. وقد كانا مسؤولين عن انتداب عَدْل لمتابعة سجلّات الفُنْداكو، كما أن المَلك نفسه يريد أن ينتدب قَسّاً ليشرف "على كنيسة فُنْدُقه بتونس"(115).

وبما أن المُتَرشّحين لوظيفة القُنْصُلية كانوا على استعداد لدفع مثل تلك المبالغ فذلك يعكس كثافة وضخامة التِّجارة في مدينتي تونس وبجاية، وهو نشاط سُرْعان ما يضيف قيمة لموقع القُنْصُل. فقد ارتفع حجم المعاملات سنة 1260م إلى درجة أنه وقع الاحتياج إلى فُنْدُقين للقَطَلانيّين في كلّ من المدينتين (وقد تمكّن الجَنَويون بعد عَقْدَين من ذلك التاريخ من اكتساب فُنْداكو ثانٍ ربّما للأسباب نفسها). يشير جيمس إلى فُنْدُق بجاية بعبارة "فُنْدُقنا في بجاية" في وثيقة تعود إلى سنة 1260م، وبعد سنة باع منصب قنصلية "الفُنْدُقين القديم والجديد" بمدينة تونس لمدّة سنتين(116). من الممكن أن يكون أحد المبنيين قد توقّف عن الاستعمال وعُرِض فضاءه للبيع مَرّة أُخرى بما أنه في سنة 1270م تمّ إبرام معاهدة بين جيمس والسُّلطان الحَفْصِي مُحمّد المُسْتَنْصِر (1249-1277م) يطلب من خلالها من السُّلطان أن يعمل على "توسيع فُنْداكو" تجار ممالك الأراغون بتونس(117). ومن الجدير بالذِّكْر أنّ تكاليف هذا المشروع هي على حساب السُّلطان الحَفْصِي مثلما هو الشأن بالنسبة إلى الفَنادق في البلاد الإسلامية حتى حين كان جيمس هو الذي يجني الأرباح.

إن مطالبة جيمس لفائدة فَنادقه وعائداتها الضَّخْمة لم تكن لتتجاوز حدود المجال الحَفْصِي. ورغم أن التِّجارة القَطَلانيّة كانت منتشرة في موانئ أُخرى من موانئ شمال إفريقيا مثل تِلِمْسان ووَهْران وسَبْتة في أواخر القرن الثالث عشر، فإن الفَنادق في هذه المناطق كانت تسير وفق ما هو معمول به في المؤسّسات

(115) Dufourcq, "Consulats catalans de Tunis et Bougie," 471-474; Fernández-Armesto, *Before Columbus*, 138.

(116) Dufourcq, "Consulats catalans de Tunis et Bougie," 470-471.

(117) Mas Latrie (ed.), *Traités de paix et de commerce*, 282 (article 17).

الأوروبية الأخرى. فلم تكن هذه الفَنادق مُسَيَّرة كأنها مُمْتلكات مَلَكية (رغم أن المَلِك كان يحصل على نصيب من مداخيلها) بل كانت تدار على أساس يومي من قِبَل التجار المُقيمين بها[118]. فحتى في وهران حيث توجد إشارات تذكر كلمة فُنْدُقنا" فإن الترتيبات لم تكن مثلما هو الشأن في تونس وبجاية، لأن المداخيل المترتّبة عنها كانت تُقْتَسَم بين ملك الأراغون والأمير الزّياني[119].

تطلق على مساكن التجار أصيلي ممالك الأراغون في أغلب المُدُن خارج أراضيهم تسمية "فَنادق القَطَلانيّين" وهو تقريباً التوجُّه نفسه في مدينة تونس. ففي وثيقة تعود إلى حوالى أواخر عهد الملك جيمس، يشير هذا الأخير إلى أحد الفَنادق بقوله "فُنْدُقنا الذي يسمّى فُنْداكو القَطَلانيّين"[120]. إن التسميات الجِهَوِيّة تسير هكذا جَنْباً إلى جَنْب مع المراقبة المَلَكِيّة وهي عادةً ما تُطبَّق على مجموعة أوسع من التجار وليس على القَطَلانيّين أنفسهم فقط.

ورغم أنه يُمكن وضع تجار من خارج ممالك الأراغون وقَطَلونيا مثل التجار من صِقِلّية وبَلَنْسية وجُزُر البَلْيار، تحت تسمية "القَطَلانيّين"، فإن هؤلاء قد انفصلوا عن جالياتهم الأصلية في أواخر القرن الثالث عشر. فقد كانت رغبتهم الواضحة في الحصول على فَنادق خاصّة بهم في مُدُن المغرب دليلاً على تطلُّعاتهم إلى هُوِيّة سياسية مستقلّة من جِهَة وما يمكن أن يحقّقه فُنْدُق منفصل من مُكافأة مالية كبيرة من جِهَة أُخرى. في سنة 1285م وبعد ثلاث سنوات من استيلاء الأراغونيين على صِقِلّية، تمّ إمضاء معاهدة بين الحَفْصِيين وبطرس الثالث تَمَكّن بمقتضاها الصّقلّيون من الحصول على فُنْداكو خاصّ بهم في مدينة تونس كما تمّ وضع هذا الفُنْداكو تحت مسؤولية قنصل فُنْداكو

(118) Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib*, 519. On Tlemcen, see C. E. Dufourcq, "Les Espagnols et le royaume de Tlemcen aux XIIIè et XIVè siècles," *Boletín de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona* 21 (1948) 5-128.

(119) P. Gourdin, «Le 'Partage' du Maghreb entre l'Aragón et la Castille au traité de Monteagudo (1291)," in *Le Partage du monde. Echanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale*, ed. Michel Balard and Alain Ducellier (Paris: Publications de la Sorbone, 1998) 405-406.

(120) Dufourcq, "Consulats catalans de Tunis et Bougie," 472.

القَطَلانيّين[121]. ويبدو أن فُنْداكو الصقلّيين قد بدأ يشتغل في فترة وجيزة بعد ذلك بما أنَّ كاتب العَدْل الجَنَوي بتونس بييترو باتيفوليو ذَكَره في العُقُود التي حَرَّرها ما بين 1288 و1289م مَرّات عديدة[122]. كما تحرك تجار ميورقة من أجل الحصول على فُنْداكو في تونس بعد وفاة جيمس التي نتج عنها إنشاء مملكة شبه مستقلة بميورقة ولكنّهم لم يحصلوا على ذلك إلى بداية القرن الرابع عشر[123].

واصل جيمس بيع وظيفة القُنْصُل في تونس وبجاية حتى وفاته سنة 1276م وقد حافظ خليفته بطرس الثالث مع بعض التغييرات على سياسته. كانت القُنْصُلية خلال فترة انتقال السُّلطة بين يدي رجلين كانا قد أجَّراها إلى ثالث هو برنار الروبيو «Bernard of Rubio». وبعد اعتلائه العرش ألغى بطرس الثالث هذا الإيجار وعَوَّضه بمنحهما لَزْمة مباشرة إلى برنار مقابل ثُلُثي مداخيلها بما في ذلك الفُنْداكو والفُرْن والدكاكين والأداءات الديوانية والمخازن والحانة[124].

من الواضح أنّ هناك إصلاحاً إدارياً كان جارياً حتى ذلك الحين وربّما كان قد بدأ قبل ذلك مع سَعْي الملوك الأراغونيين للوصول مباشرة وبأقصى قدر من المُرونة إلى مداخيل فَنادقهم بتونس إذ عِوَضاً عن إعطاء هذه الامتيازات مقابل دخل معلوم لمدّة سنتين، فقد أصبحت تُعطى مقابل نسبة مئوية من المداخيل. ويبدو أن إعادة التنظيم المالي ربّما كانت مرتبطة بنوع من الترقيع المالي في الأراضي الأراغونية القَطَلونيّة ذاتها حيث كانت القيمة المُحْتَمَلة للفُنْداكو ـ وخطر فقدان العائدات لفائدة القناصل ـ وهم في الحقيقة تجار أذكياء ـ والمُشْرِفين على الفُنْداكو ـ مُعْتَرَفاً بها أيضاً. ففي سنة 1270م، غيّر جيمس سياسته في جمع مداخيل الفَنادق المَلَكِيّة في مدينة بَلَنْسية من اللَّزْمة إلى طريقة تجعل كلّ المداخيل تنصبّ في خزينته وذلك بدفع راتب سنوي إلى شخص مكلّف بجمع الضرائب.

---

(121) Brunschvig, *La Berbérie orientale*, I, 94-95; D. Abulafia, *A Mediterranean Emporium. The Catalan Kingdom of Majorca* (Cambridge: Cambridge University Press, 1994) 159.

(122) Pistarino (ed.), *Notai genovesi in Oltremare (1288-1289)* (docs. 5, 6, 20, 117-119).

(123) Dufourcq, "Catalans en Tunisie," 43-44.

(124) Burns, *Medieval Colonialism*, 75, n. 94; Dufourcq, "Consulats catalans de Tunis et Bougie," 472.

وقام بالشيء نفسه بعد سنة 1285م في شمال إفريقيا بأن جعل القناصل يحصلون على راتب ثابت(125).

ازدهرت الفَنادقُ القَطَلانيّة بشمال إفريقيا في العُقُود الأخيرة من القرن الثالث عشر. وتُبيِّن قوائم السفن التي تبحر من ميناء ميورقة سنة 1284م أنه كانت تبحر سفينة كلّ يومين في اتجاه الموانئ المَغْربية فيَكون عدد السفرات ما بين 31 و42 سَفْرة في اتجاه شمال إفريقيا(126). إلّا أن التغييرات الدينية والمناخ السياسي وحملة لويس التاسع على تونس سنة 1270م قد فتحت مرحلة جديدة أمام الدبلوماسية الغربية ومطالب الغربيين. إذ اضطرّ السُّلطان الحَفْصِي المستنصر في خضمّ هذه الحملة أن يدفع مبلغاً ماليّاً هامّاً لفرنسا وفي سنة 1277م سارع بطرس الثالث ـ في فترة وجيزة بعد اعتلائه العرش، للمطالبة بالإتاوة نفسها، مُعَلِّلاً ذلك بعدم انتظام الحَفْصِيين في دفع ما عليهم من أموال لوالده(127). وفي الواقع يبدو كما لو أنّ حركة بطرس الثالث كانت مدفوعة بالمنافسة القَطَلانيّة الفرنسية أكثر منها بالرغبة في فَرْض إتاوات قديمة أو لإثبات تَفَوُّقه على الحَفْصِيين. فقد كانت فاعليةُ مُطالبة بطرس بإتاوة مشكوكاً فيها ولكنّها تبدو كما لو أن الحَفْصِيين رَضَخُوا خاصّة بعد افتكاك الأراغونيين لصِقِلّية من عائلة الأنجوفيين سنة 1282م.

تَمَّ تجديد التنازُلات السابقة في معاهدة جديدة بين الحَفْصِيين والأراغونيين بتاريخ 13 حزيران/يونيو 1285م لمدّة خمس عشرة سنة القادمة، كما نصّت المعاهدة على أن يدفع الحَفْصِيون إتاوة سنوية بمبلغ 333، 33 ألف بيزوناً «besants» بالإضافة إلى 100,000 أُخرى باقية بذمّة الحَفْصِيين منذ ثلاث سنوات(128). كما طالب بطرس في المُعاهدة نفسها بفُنْداكو للصِّقِلّيين بتونس

(125) Dufourcq, *L'Espagne catalane et le Maghrib*, 275.

(126) Abulafia, *Mediterranean Emporium*, 138, 142-143.

(127) Dufourcq, "Catalans en Tunisie," 15, 31. See also J. Abun-Naser, *A History of the Maghrib* (Cambridge: Cambridge University Press, 1975) 144-145.

(128) Capmany, *Memorias*, II, 58-59; Brunschvig, *La Berbérie orientale*, I, 94-95.

توافق يوسيفا موتخه فيفيس [Josefa Mutgé Vives] برنشفيغ [Brunschvig] على استنتاجه في أن الحَفْصِيين كانوا قد دفعوا فعلاً هذه الإتاوة للأراغون على الأقل في فترة وجيزة.

Josefa Mutgé Vives ("Algunas noticias sobre las relaciones entre la corona Cat-

يضمن للتّجارة القَطَلانيّة التحكُّم في الطريق البحري الهام بين صِقِلّية والبلاد التونسية. آخر امتياز جِبائي فُرض على الحَفْصِيين هو أنّهم تَخَلّوا عن حقوقهم في القَبالة (ربّما قَبالة الخَمْر وغيرها من البضائع الأُخرى) لتجار ممالك الأراغون. من المحتمل أن يكون لتجديد هذه الامتيازات المربحة علاقة بإمضاء بطرس لعَقْد، قبل أسبوع من تاريخ المُعاهدة في 5 حزيران/يونيو، لفائدة سليمان بن زاهِت (سلمون أبنزاهت) - وهو يهوديّ يعمل لفائدة الدِّيوان المَلَكي، على نصف أرباح الفَنادق بتونس[129]. وقد كان ضروريّاً للحفاظ على أرباح كافية من الفَنادق لفائدة الملك أن يقع الترفيع في المداخيل وتقع إعادة هيكلة الترتيبات المتعلّقة بمن يتولّى القُنْصُلية. ففي شهر تشرين الأوّل/أكتوبر، أوفد بطرس سفيراً لأخذ الإتاوة من تونس ومعه سفير جديد لإدارة فَنادق القَطَلانيّين والصِّقِلّيين والإشراف على الضريبة، وعِوَضاً عن الحصول على نسبة مئوية من مداخيل الفُنْداكو ذاته، فقد كان القُنْصُل الجديد سيتقاضى مُرَتَّباً ثابتاً حسب تقدير الملك[130].

وبعد ذلك بمدّة قصيرة تُوفّي بطرس الثالث ممّا أدّى إلى التراجع عن هذه الترتيبات كما كان عُزِلَ كلٌّ من شارل دانجو والبابا مارتان الرابع في فترة قصيرة بعد ذلك والنزاع من أجل السُّلطة في الدولة الحَفْصِية، كلّ ذلك أدّى إلى زَعْزَعة المتوسّط الأوسط. وربّما واصل الملوك الأراغونيون في مختلف الجهات

---

alano- Aragónesa y el reino de Tunez de 1345 a 1360," in *Relaciones de la Península Ibérica con el Maghreb (siglos XIII-XVI)*, ed. M. García-Arenal and M. J. Viguera [Madrid: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1988] 144).

(129) J. Régné, *History of the Jews in Aragón (Regesta and Documentos, 1213-1327)* (Jerusalem: The Magnes Press, 1978) 250 (no. 1381).
لقد كان بطرس واضحاً في أن سليمان كان له أن يأخذ مداخيل الفَنادق، ولكن لم يكن حُقُوق أخرى على هذه المؤسّسات.

(130) La Mantia (ed.), *Codice diplomatico*, 204-209; Brunschvig, *La Berbérie orientale*, I, 95. بما أن الطبيعة الدقيقة لضريبة القبالة gabella غير واضحة، فإنه من الصعب أن نعرف ما إذا كانت الإدارة نفسها هي التي يُمْسِكها الجَنَوِيُّون ما بين 1288 و1289م (Pistarino [ed.], *Notai genovesi in Oltremare [1288-1289]*, 3-4) أم أن كلّ جالية لها ضريبتها الخاصّة. فبعد سنة من ذلك، سنة 1286 مُنِع قُنْصُل الصِّقِلّيين في تونس بصورة واضحة من جمع مداخيل الفُنْداكو المَلَكي بدون أمر واضح من الملك (جيمس الثاني، ملك صِقِلّية) (La Mantia [ed.], *Codice diplomatico, 299*).

المُحافظة على الفَنادق ومداخيلها وحقوق تجارهم في استعمالها نُصْب أعينهم. ففي مارس 1287م، أرسل جيمس مَلِك صِقِلّية وهو الابن الأصغر لبطرس الثالث سفيراً إلى أخيه ألفونس الثالث، ملك الأراغون الجديد يحثّه على السِّلْم مع الفرنسيين بينما يجب أن تبقى صِقِلّية وغيرها من الجُزُر الصغيرة الأُخرى مع الإتاوة الحَفْصِية والفُنْداكو والقُنْصُلية بتونس مجاله الخاص(131). وعِوَضاً عن العمل بهذه النصيحة، قام ألفونس الثالث بعد أشهر قليلة من ذلك بتعزيز علاقاته بتونس الحَفْصِية (بعد فترة قصيرة من مُغازلة المَرينِيِّين) وذلك بإمضاء معاهدة في شهر تموز/يوليو مع عبد الواحد، السُّلطان المؤقّت، ابن أبي حَفْص عُمَر المُطالِب بالسَّلْطنة. وكجزء من هذه المفاوضات جدّد ألفونس مطالبه الخاصّة المتعلّقة بالفَنادق والإتاوة ومع ذلك تنازل لأخيه عن جزء من الإتاوة. ويُعَدُّ النصّ العربي لهذه المعاهدة بالحقوق الجارية بالنسبة إلى فُنْداكو تونس مع كلّ الحُريّات والمزايا التي يوفّرها الفُنْداكو على العادة طوال العهد اللامع للملك جيمس الأوّل. كما ضُمِنَت الحرية الدينية للاتينيّين المسيحيين بتونس وقعت الإشارة إلى المُطالبة بدفع 33,333 بيزوناً كإتاوة لمَمْلكة الأراغون (منها 16000 بيزون إلى جيمس ملك صِقِلّية)(132).

وبالرغم من هذا التضامُن الأَخَوِي المُعلن، فقد كان ألفونس تحت ضغط مُتزايد من قبل البابوية وفرنسا والأَنْجُوفيين لفصل صِقِلّية عن ممالك الأراغون فتمّ وضع ترتيبات لذلك في بداية سنة 1291م. ولكنّ وفاة ألفونس فجأة في شهر حزيران/يونيو من السنة نفسها أبطلت تلك المفاوضات وجعلت أخاه جيمس الثاني الذي أصبح ملك الأراغون يتحكّم في صِقِلّية وميورقة إلى جانب أراضي المملكة الرئيسية. وما إن وصل جيمس الثاني إلى السُّلطة، حتى كتب مباشرة إلى الحَفْصِيين مطالباً بمواصلة دفع الإتاوة ومعبّراً عن أنه ليست له النّيّة في تسليم أيّ جُزْء من الأرض التي يسيطر عليها(133). ومع وجود ملك واحد يسيطر على كامل

(131) La Mantia (ed.), *Codice diplomatico*, 364.

(132) Alarcón (ed.), *Documentos árabes diplomáticos*, 398. قد نُشِرَت النسخة اللاتينية لهذه الوثيقة ضمن La Mantia (ed.), *Codice diplomatico*, 377-386 (doc. 167)

(133) Brunschvig, *La Berbérie orientale*, I, 102.

الإمبراطورية القَطَلانيّة الأراغونية (الجُزُر والأراضي القريبة معاً) ازدهرت الحركة التجارية القَطلانيّة ومعها مداخيل المَلِك.

تواصلت فَنادق القَطلانيّين والصِّقِلّيين بتونس كقيمة استراتيجية ومالية عالية وكان جيمس يجني أرباحها إلى أن جاءت معاهدة أنياني «Agnani» لتجبره على التخلّي عن ميورقة وصِقِلّية سنة 1295م. وتقريباً طالب الميورقيون مباشرة بفَنادق خاصّة وقناصل بتونس وغيرها من موانئ شمال إفريقيا، وهو ما أحدث بعض الغموض لدى السُّلطة الحَفْصِية. ففي رسالة غير مُؤرّخة بعث بها السُّلطان الحَفْصِي مُحمّد الثاني (1295-1309م) إلى جيمس الثاني يُذكِّر السُّلطان الحَفْصِي أنّ ملك ميورقة (يبدو أنه جيمس الميورقي، أحد أعمام ألفونس الثالث وجيمس الثاني الذي كان يطالب بالسُّلطة في الجزيرة بعد 1298م) وقد كتب "يطالب بأن يكون للتُّجّار الميورقيين فُنْدُق مُغاير لذلك الذي بحوزة تجار برشلونة" على أساس أنّ ميورقة أصبحت اليوم مُستقلّة عن المملكة[134]. فالظاهر أنّ السُّلطان الحَفْصِي لم يكن راغباً في التَّصَرُّف دون إذن برشلونة، ولكن هذه المَرّة كان طلب الميورقيين مُبَرَّراً، وقد حصلوا على فُنْدُق خاصّ بهم في تونس بعد فترة قصيرة من ذلك.

لقد تغيّرت هُوِيّة الفُنْدُق خلال القرن الثالث عشر بصورة دراميّة في مختلف الجِهات التي استولت عليها الجيوش المسيحية في شبه جزيرة أيبيريا. وقد حافظ الهُنْدِقا والفُنْدك في كلّ من مملكة قَشتالة وممالك الأراغون على سِمات الفُنْدُق الإسلاميّ نموذجهما السابق، ثم واصلت هذه المؤسّسات الجديدة تطوّرها لتستجيب لمتطلّبات إطارها المسيحيّ الجديد.

بصفة عامّة يبدو أنه كان ينظر للدور الجبائي لهذه التسهيلات على أنه أثمن رصيد وأكثر سُهولة في التنافُل عبر الحدود الثقافية. لقد كان الملوك الأيبيريون، ألفونس العاشر ملك قَشتالة وجيمس الأوّل ملك الأراغون ومن خَلَفَهُم، مهتمّين

---

(134) Alarcón (ed.), *Documentos árabes diplomáticos*, 400-401.

اقترح ألاركون [Alarcón] تاريخاً هو سنة 1295، أي مباشرة بعد اعتلاء محمد الثاني العرش، وهو أمر ممكن ولكن قد يكون التاريخ بعد سنة 1298م قليلاً أكثر إمكانية، انظر كذلك See Abulafia, *Mediterranean Emporium*, 12.

بفرض مُراقبتهم على الهُنْدِقا والفُنْدك لتنظيم خَزْن المواد الغذائية وفرض الضرائب عليها وعلى غيرها من المواد التجارية. وأبعد من ذلك فقد كان ينظر إلى هذه المُنشآت في البداية على أنها صالحة لِسَكَن التجار الأجانب مثلما كان ذلك في الأندلُس الإسلامية. ثم تغيّر هذا الموقف سنة 1280م، ربّما كما سيبدو ذلك أن بُنْية التِّجارة بين المسيحيين دَعَمَتْ مُرُونة المُؤسّسات وجعلتها أقل تقييداً، خاصّة اللوجيا. وهكذا أصبحت الهُنْدِقا القشتالية أكثر فأكثر مكاناً للتحكُّم في البضائع في حين بَقِيَ الفُنْدك الأراغوني-القَطَلانيّ يستجيب لخدمة التِّجارة العابرة للثقافات والسَّكَن داخل المُدُن حيث يواصل التجار المسلمون نشاطهم.

بما أنَّ المجال الاقتصادي والسياسي الأراغوني-القَطَلانيّ قد وصل إلى ما وراء المتوسّط شرقاً في أواخر القرن الثالث عشر، فقد وجد التجار الأراغونيون وحكّامهم الفَنادق في شمال إفريقيا وصِقِلِّية. ففي هاتين الجِهَتين أدّى تعوُّد التجار القَطَلانيّين على الفُنْداكو كمُؤسّسة تجارية جبائية إلى تغيير فهمهم للمُؤسّسات الشبيهة به في الخارج. فقد كانت لجيمس الأوّل وخلفائه في تونسْ والمُدُن الحَفْصِية العديدة اليد العُليا في الإدارة المالية وفي تسيير الفَنادق المحلية الخاصّة بالتجار القَطَلانيّين. وقد تَعرَّفوا في الوقت نفسه في صِقِلِّية على الفَنادق في صيغتها المسيحية وأدمجوا هذه المنشآت ضمن سياستهم الإدارية.

لم تكن أيبيريا المنطقة المتوسّطية الوحيدة التي تمّت فيها أقلمة المؤسّسات الحَضَريّة ضمن الإدارات المسيحية في غمار الغزوات العسكرية. فقد كانت صِقِلِّية أرضاً إسلامية قبل غزوها من قبل النورمان في القرن الحادي عشر. وقد كانت الفَنادق في المُدُن الصِقِلِّية قد عرفت تجارب شبيهة ولكنّها مختلفة في مستوى الاندماج في الحَضارة اللاتينية في ظلّ النورمان والهُوهَنْشتوفن «Hohenstaufen» في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر. وإلى أبعد ما يمكن شرقاً في بلاد الشام وفلسطين، عَرَفت الفَنادقُ في المُدُن الصليبية المَسارَ نفسه مع اختلاف في مستوى الاندماج والتّطوّر في ظِلّ السُّلطة الصليبية. إن نِقاط الاختلاف، بل والأكثر بُرُوزاً هي أنّ أوجُهَ الشَّبه بين إدماج الفُنْدُق في بَوْتقة المسيحية في غرب ووسط وشرق المتوسّط تُعَبِّر عن قدر كبير من المُرُونة التي تتمتّع بها هذه المُؤسّسة وعن فائدتها التجارية والجِبائية.

الفصل السادس

الفَنادق في صِقِلّية وجنوب إيطاليا والإمارات الصليبية

لقد تناول الفصل السابق تأثير الغَزْو المسيحيّ في الفضاءات الجارية، خاصّة الفَنادق، في شبه جزيرة أيبيريا خلال الفترة المُمتدّة من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر. ولكنّ هذه المنطقة لم تكن الوحيدة في العالم المتوسّطي التي وجد فيها الغُزاةُ المسيحيون هذه المُؤسّسات واعتمدوها. ففي سنة 1080م منح الزعيم النورماني روبير غيسكار «Robert Guiscard» فُنْداكو بمدينة أمالفي وكلّ توابعه إلى دير مونتي كاسينو «Montecassino»، وأكّد ابنه الدوق روجيه «Duke Roger» تلك المِنْحة بعد عشر سنوات من ذلك وتواصل ذِكْرُها في الوثائق البابوية في القرن التالي[1]. ومثلما هو الشأن فيما يتعلّق بفُنْدُق بَلَنْسية

---

(1) ورد ذِكْر هذه الهِبات التي قدَّمها روجيه وروبير ضِمْن the *Chronicle of Montecassino* by Leo Marsicanus and Peter Deacon, ed. Hartmut Hoffman, MGH, Scriptores 34 (Hanover: Hahnsche Buchhandlung, 1980) 439, 475; also *PL*, CLXXIII, 795C and 833A، قد يكون زواج روبير غيسكار من الأميرة اللُّمْباردية سيكالغيتا [Sikelgaita] هو الذي سرّع بالاعتراف به وإدماجه في المُؤسّسات المَحلّية، وحول هذا الفُنْداكو، انظر: M. Willard, "The *Fundicus*, a Port Facility of Montecassino in Medieval Amalfi," *Benedictina* 19 (1972) 253-61. وتذكر الوثائق البابوية من سنة 1097م إلى سنة 1208م هذا الفُنْداكو، (Willard, "*The fundicus*," 257; وكذلك *PL*, CLXII, 147A (Paschal II in 1105), 1252B (Calixtus II in 1122), CC, 77D (Alexander III in 1159, CCXV, 1597A (Innocent III in 1208)، في حدود سنة 1280 لم يعد هذا الفُنْداكو على ملك مونتي كاسينو [Montecassino] إلا أنه كان لا يزال مُرْتبطاً بالمُؤسّسة الرهبانية (R. Filangieri di Candida [ed.], *Codice diplomatico amalfitano* [Trani: Vecchi, 1951] 177). ومن المُحتَمل أنه قد هُدِم =

مُعاصِره والذي منحه رودريغو دياز «Rodrigo Diaz» لكاتدرائية المدينة سنة 1090م وأكّدته أرملته خيمينا «Jimena» سنة 1101م، فقد كان واضحاً أنّ مَبْنَى أمالفي من المُنشآت المربحة وهذا جليٌّ من خلال الهِبَة وإعادة تدوينها. وفي شرق المتوسّط كذلك مَنَحَ بوهمند الطارنتي «Bohemond of Taranto» ـ الابن الصليبي لروبير غيسكار ـ فُنْداكو للتُّجّار الجَنَويين في أنطاكية سنة 1098م بعد فترة قصيرة من استيلائه على المدينة. من الممكن أن تعكس هذه الهَدِيّة تَواصُل الامتيازات التي كان يتمتّع بها التجار الجَنَويون تحت الحكم الإسلاميّ من قَبْل (كما سيكون الأمر فيما بعد في مدينة إشبيلية بعد غزوها). وقد كان الفُنْداكو الجَنَوي بأنطاكية الأوّل ضمن سلسلة من المُنشآت المُماثلة التي ستمنح للجاليات التجارية الغربية في المُدُن الصليبية خلال القرنين الثاني والثالث عشر. وقد برهن انتشار هذه الفَنادق على قيمتها. سيتفحَّص هذا الفصل تطوّر الفُنْدُق في ظلّ الحكم المسيحيّ ببلاد الشام وسيَبْحَث في المَسالك التي أدّت إلى أقْلَمة هذه المُؤسّسة الإسلامية لتتلاءمَ مع الاحتياجات الجِبائية والتجارية والتنظيمية للإدارة المسيحية الجديدة في هذه المناطق.

تنصير الفُنْدُق في صِقِلِّية وجنوب إيطاليا

من المُحتمل أن تكون الفَنادق الإسلامية في كلّ من صِقِلِّية وإسبانيا متشابهة جداً خلال الفترة السابقة للقرن الحادي عشر. فالمصادر العربية تُقدّم بيانات أفضل بكثير حول الفَنادق الأندلُسية خاصّة وأن المعلومات التي تتعلّق بالجانب الاقتصادي والاجتماعي في صِقِلِّية الإسلامية معروفة بقلّتها.

حتى ابن حَوْقَل الذي ترك وصفاً مفصَّلاً لمدينة پالرمو سنة 973م، وأحصى بدقّة مختلف أسواقها، لم يذكر بها فَنادق. ومن جِهَة أُخرى بما أنه لاحظ صراحة غياب الفَنادق والأسواق في الضواحي المُحيطة بمدينة الخالصة، فذلك يعني أنها كانت موجودة في پالرمو[2]. لكن للأسف ليست هناك أعمال

= تماماً مع مدينة أمالفي المنخفضة نتيجة إعصار مُدَمّر حدث سنة 1343م (Willard, "*The Fundicus,*" 261)

(2) ابن حَوْقَل، كتاب صورة الأرض، ص119.

أثرية تؤكّد وجود أو تطوّر فَنادق خاصّة في ظلّ حكم المسلمين أو المسيحيين[3].

أصبحت صِقِلّية تحت حُكْم المسيحيين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر عندما استولت عليها القُوّات النورمانية يقودها الأخَوان روبير وروجيه غيسكار Roger Guiscard. وفي الوقت نفسه انتزع النورمان جزءاً من جنوب إيطاليا من أيدي البيزنطيّين واللُّمْبارديين وضَمُّوها إلى حُكمهم. يبدو أنّ الفُنْدُق العربي والفُنْداكس البيزنطيّ قد ترسَّخا في تلك الفترة في جنوب إيطاليا ومن المُمكن كذلك أن تكون بعض نوعيّات الفَنادق مألوفة من خلال العلاقات التجارية المُبَكِّرة بين أمالفي ومصر.

ولكنْ هناك قليل من المعلومات حول مسار اندماج هذه المؤسّسات في بداية الحكم النورماني، رغم أنه من المعلوم أنّ ديوان الملك والديوانة (الجمارك) والمالية النورمانية قد استوعبت المؤسّسات والأشكال الإدارية البيزنطية والإسلامية كما جلبت أشكالاً أُخرى من أوروبا الشمالية[4]. فمن المستبعد أن يكون الموظّفون الفَطِنون الموجودون في القصر الملكي النورماني الذين كان كثيرٌ منهم من اليونانيّين والمسلمين والذين يعرفون جيّداً الممارسات السابقة، قد تغافلوا عن المداخيل التي يمكن أن توفّرها الفَنادق في ممالكهم.

فمن المؤكّد أن منح روبير غيسكار للفُنْداكو في أمالفي لفائدة دير مونتي كاسينو سنة 1080م، يعبّر عن معرفة مُسبقة بقيمة مثل هذه المُنشآت. كما نجد مثل هذه المُنشآت في الوصايا التي تركها غيره من الأسياد لفائدة المؤسّسات

(3) لاحظت جنفياف وهنري براسك [Geneviève and Henri Bresc] الحاجة إلى الأعمال الأثرية للرَّبط بين الفَنادق المسيحية بصِقِلّية وسابقاتها. ("*Fondaco* et taverne de la Sicile médiévale," in *Hommage à Geneviève Chevrier et Alain Geslan. Etudes médiévales*, ed. Joëlle Burnouf et al. [Strasbourg: Centre d'archéologie médiévale de Strasbourg, 1975] 101-102). أنا مَدِينةٌ كذلك إلى جيريمي جونز [Jeremy Johns] لنصائحه فيما يتعلّق بهذه المسألة.

(4) حول علاقة النموذج الإداري الفاطمي بالبلاط النورماني، انظر: Jeremy Johns, *Arabic Administration in Norman Sicily* (Cambridge: Cambridge University Press, 2002).

الدينية. كما أنّ مَنْح الدوق وليم سنة 1114م، لفائدة دير مونتي كاسينو، فُنْدُقاً آخر وتوابعه في مُحيط ميناء مدينة سالرنو «Salerno» سنة 1114م يعبّر عن أهمّية المداخيل المُتأتّية من إقامة الأجانب ومن التّجارة[5]. وقد أدرج جورج الأنطاكي، رئيس ديوان روجيه الثاني، فُنْدُقين في پالرمو ضمن الهِبات التي أُعطيت لكنيسة القدّيسة ماريا في أميراليو «Maria de l'Ammiraglio»[6].

إلّا أنّ الفَنادق قد برزت بصورة جليّة في صِقِلّية المسيحية وفي جنوب إيطاليا في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ومن هنا أخذت المُؤسّسة أشكالاً متعدّدة ومألوفة، ليس من خلال توفيرها السَّكَن للتُّجّار الأجانب وغيرهم من المُسافرين فقط ولكن أيضاً من خلال كونها مَخْزَناً للسِّلَع ومركزاً للأداءات الجُمْركية والمُبادلات التجارية. وهذه الأنشطة لها ارتباطات بالنماذج العربية كما يتّضح ذلك من خلال وصف پالرمو الذي قام به الجُغْرافيّ الإدريسيّ سنة 1150م. والإدريسيّ الذي كان يكتب في عهد روجيه الثاني كان بلا شكّ على دِراية وثيقة بهذه المباني كما يعرف طبوغرافيا عاصمة النورمان التي يقول عنها ("إنَّ بها مَساجد عديدة وفَنادق وحمّامات ودكاكين للتُّجّار") على طريقة الجغرافيّين المسلمين عند وصفهم للمُدُن الإسلامية عبر المجال المتوسّطي[7].

وعندما حلّ الرحّالة ابن جُبَيْر بصِقِلّية في سنوات 1180م في طريقه إلى الأندلُس عائداً من الشرق الأوسط، كانت الجزيرة قد أصبحت تحت حكم النورمان منذ قرن من الزمن. غير أنّ ابن جُبَيْر قد وصف الفَنادق الصِّقِلّية في كثير من الجوانب على نحو ما وصف به الفَنادق التي اعترضت سبيله في مصر والشام وأقام بفَنادق في مسّينا «Messina» وترميني «Termini» وپالرمو[8]. في كلّ مدينة

---

(5) Tommaso Leccisotti (ed.), *Le Colonie cassinesi in Capitanata*, IV: *Troia* (Montecassino: Miscellanea Cassinese, 1957) 87.

(6) Johns, *Arabic Administration*, 110. بما أن جورج الأنطاكي قد عاش في كلّ من الشام وبلاد المَغْرِب (المرجع نفسه، ص80-86) فلا بد أنه كان يعرف الفَنادق في العالم الإسلامي ولا بُدَّ أنه كان يعرف العادة الشائعة في إدخال المباني التجارية في الوقفيّات للمساجد.

(7) الإدْرِيسي، كتابُ نُزْهة المُشتاق، ص591.

(8) ابن جُبَيْر، الرِّحْلة، ص327، 331، 333، الترجمة الإنكليزية *Travels of Ibn Jubays*، ص343، 347، 350.

يلاحظ أنه أمضى الليلة "في فُنْدُق من هذه الفَنادق" وهو ما يعني ضِمْنِياً وجود العديد منها. وأضاف أنّ الفُنْدُق الذي أقام به في پالرمو هو الفُنْدُق "الذي يقيم به المسلمون". إلّا أنه لا يمكن أن نعرف من خلال تعليقه هل هذا الاختيار كان بأمر من السُّلطات النورمانية وهو ليس مُغايراً لما كان معهوداً في الفَنادق في البلاد الإسلامية وفي ما بعد في فَنادق (فُنْدِك) المسلمين في ممالك الأراغون، أم هو اختيار من قبل التجار المسلمين أنفسهم وهو ما يعكس التمايز الجغرافيّ والديني والمِهْني الذي كان شائعاً في فَنادق العالم الإسلاميّ.

هناك كذلك أدلّة أُخرى تتعلّق بالفَنادق في پالرمو وفي غيرها من الجهات الأُخرى في القرن الثاني عشر. ففي ديسمبر 1183م، تقريباً في الفترة نفسها التي زار فيها ابن جُبَيْر العاصمة النورمانية، يصف نصٌّ حديقةً مُنِحَتْ لدير سانتا ماريا دِلّا غروتا «Santa Maria della Grotta» في پالرمو على أنها "محاذية لفُنْدُق أولاج fonolaco olagiorum"[(9)]. إنّ معنى هذه التسمية هو محلّ نقاش فهو قد يعني شخصاً يملك فُنْدُقاً أو مَبْنًى يقيم به الناس ولكن يبدو أكثر أنه كان فُنْدُقاً معدّاً لزيت الزيتون أو ربّما لتجار زيت الزيتون وهو يشبه كثيراً ما هو موجود في المُدُن الإسلامية تحت الحكم المسيحيّ في أيبيريا. وبعد عشر سنوات يذكر نصّ هِبة قام بها الإمبراطور هنري الرابع سنة 1195م لمِلْكية موجودة "أمام الفُنْدُق الكبير" ante fundacum magnum بمدينة مسّينا. ولا بُدَّ أنَّ هذا كان مَعْلَماً معروفاً، مع أن وظيفته، وما إذا كان هو الفندق الكبير أو فُنْدُقاً كبيراً، فذلك يبقى غامضاً[(10)].

كما أن عبارة فُنْداكس اليونانية ظهرت في وثائق پالرمو تقريباً في الفترة نفسها، لتشهد لا على تنوُّع الإطار الثقافي للمدينة فقط ولكن أيضاً على إمكانيات التداخُل الثقافي والتأثير المتبادل بين الاستعمال العربي واليونانيّ واللاتينيّ لهذه المُصطلحات. والوظيفة الدقيقة لهذه المُنشآت لم تكن واضحة وربّما استعمال كلمة فُنْداكس تعكس ببساطة الترجمة الفورية التي يقوم بها الكُتّاب العُدُول

(9) C. A. Garufi (ed.), *I Documenti inediti dell'epoca normana in Sicilia* (Palermo: Società Siciliana per la Storia Patria, 1899) 195-196.

(10) D. Celementi, "Calendar of the Diplomas of the Hohenstaufen Emperor Henry VI concernig the Kingdom of Sicily," *Quellen und Forschungen aus italienischen Archiven und Bibliotheken* 35 (1955) 141.

اليونانيّون لكلمة فُنْدُق. فمن الأكيد أنّ هذه المباني تبدو مشابهة لغيرها من الفَنادق المُعاصرة في پالرمو من حيث القيمة التي يراها فيها الناس ومن حيث الهيكل الماديّ[11]. تظهر كلمة فُنْداكس في نصّ هِبة من مدينة پالرمو سنة 1153م وَهَبَه بمقتضاها زوجان وابنهما إلى أحد الأديرة. وهو أكثر من مَبْنًى، بل كان مُجمَّعاً مُغلقاً يحتوي على منازل عديدة وبئر وبستان- وهو ربّما يشبه الفُنْدُق السابق وتوابعه الذي منحه روبير غيسكار وخلفاؤه إلى دير مونتي كاسينو. وتذكر وثيقة ثانية تعود إلى سنة 1196م بيع جزء من فُنْداكس آخر بمدينة پالرمو[12].

وبالرغم من إدراك الحُكّام النورمان لقيمة الفَنادق، فقد كانت مراقبتهم الإدارية لهذه المُنشآت مراقبة غير مُنظَّمة وغالباً لم تكن مُجدية[13]. ففي سنة 1190م، مثلاً، يرد ذِكْر فُنْدُق في أربع رسائل صادرة عن تنكرد «Tancred» إلى نيقولا أُسْقُف سالرنو تُنازِعه هذه المُنشآت. وفي حزيران/يونيو، كتب الملك يطلب استرجاع ضَرِيبة العُشْر على الخَمْر والطعام الذي كان يُدفع عادة إلى كنيسة سالرنو إلى ديوان الجِباية المَلَكِيّة مقابل دين قديم بـ 50 طَري [tari] من الذهب. كما طلب تنكرد في الوقت نفسه أن يسلّم نيقولا فُنْداكو تتصرّف فيه الكنيسة وهو موجود في الساحة الرئيسية بمدينة سالرنو مع كلّ الدكاكين والمباني والشُّقق التابعة له[14]. وككلّ الفَنادق المعاصرة تقريباً يبدو أنّ هذه المُنشأة تحتوي على مُجمَّع من المباني وتشمل فضاءات للتِّجارة والسَّكَن. ولا بدّ أنها من المُمْتلكات ذات القيمة والتي يحتمل أن تكون من الحَجْم الكبير. قد سُلِّمَتْ في البداية

(11) رغم أنه ليس هناك ما يسمح بِرَبْط هذه المُنْشآت التجارية الموجودة بپالرمو والتي تعود إلى القرن الثاني عشر مع فُنْداكس الحبوب الموجود في القُسْطنطينية في سنوات 1080م، فإن كلمة فُنْداكس قد تَواصَلَ استعمالها في اللُّغة اليونانية البيزنطية في القرن الثاني عشر.

(12) S. Cusa (ed.), *I Diplomi Greci ed Arabi di Sicilia* (Palermo: Stabilimento Tip. Lao, 1868) 87-88 (no. 171); 31-33 (no. 92).

(13) انظر التعاليق في David Abulafia, "The Crown and the Economy under Roger II and his Successors," *Dumbarton Oaks Papers* 27 (1983) I.

(14) "Fundicum pertinens Salernite ecclesie, quod est in platea maiori Salerni, cum omnibus apotegis et edificiis et tenimentis suis": H. Zielinski (ed.), *Tancredi et Willelmi III regum diplomata* (Vienna: Böhlou Verlag, 1982) 10-12 (doc. 4), 13-15 (doc. 5), 20-21 (doc. 7), 22-23 (doc. 8).

لا بُدَّ أنَّ هذا الفُنْداكو فنداكو آخر غير الذي تَمّ ذِكْره في حَيّ ميناء سالرنو سنة 1114م.

لكنيسة سالرنو، ولكن يرغب الملك الآن في استرجاعها. ويظهر أنّ الأُسْقُف يُماطل في المبادلة ممّا أجبر تنكرد على إرسال مزيد من الرسائل الرسمية في آب/أغسطس وفي تشرين الأوّل/أكتوبر.

تؤكّد رسائل تنكرد أنّ الفُنْدُق في صِقِلّية وجنوب إيطاليا كما هو الشأن في أيبيريا والعالم الإسلاميّ، كان يعتبر استثماراً مَلَكيّاً رابحاً. وكان الملوك النورمان وإداراتهم يعرفون إمكانياته مِثْلما هو الشأن لاحقاً في عهد الهُوهَنْشتوفن والأنَجْوفيين كما أنّ المُؤسّسة ظهرت في التشريعات المَلَكِيّة وكذلك قوانين الضرائب (شأنها شأن العُقُود الخاصّة) كانت بتواتُر متزايد في القرن الثالث عشر وما تلاه.

لمّا بلغ الإمبراطور الهُوهَنْشتوفني الصغير، فريدريك الثاني، سِنّ الرشد، قام مُباشرة بالعمل على مُراجعة التشريعات الصِقِلّية التي طَغَتْ عليها الفوضى وإعادتها للعمل .وإعادة مُراقبة المُمتلكات الفيودالية (الإقطاعية) التي اضْمَحَلّت منذ أواخر العهد النورماني وخلال الفترة التي لم يكن فيها في سِنّ الرشد. فمن هنا بدأت وضعية الفَنادق في صِقِلّية وفي جنوب إيطاليا تتّضح في مصادرنا. ورغم أنّ هذه المُؤَسّسات قد خضعت للسُّلطة المسيحية لأكثر من قرن ونصف قرن فإن صيرورة إدماجها في المسيحية وهَضْمِها تَعُود في الحقيقة إلى القرن الثالث عشر. وكما فعل مُعاصره جيمس الأوّل، بذل فريدريك الثاني جهوداً شاقّة لوضع المُنشآت الإدارية والجِبائية، بما في ذلك الفَنادق، تحت سُلطته المباشرة. فوضع عدداً مُحدّداً من الفَنادق تحت إدارة الإمبراطورية وطالب بالعديد من المُنشآت المَلَكِيّة النورمانية التي أصبحت بين أيدي رجال الدين والخَواصّ، ورغم أن تشريعات فريدريك الثاني وخلفائه عادة ما تُشير إلى السوابق النورمانية فهي تبرهن عن هَيْمنة عَقْلية جِبائية وتَمَلُّكية كبيرة تجاه المُؤَسّسات الجِبائية في المَمْلكة. وكما وصفها دافيد أبو لافية، فإنّ تنظيمات فريدريك الجديدة للفَنادق "وَفّرت النظام والنمذجة لهياكل مُراقبة كانت في السابق تعاني سُوء التنظيم"[15].

---

(15) David Abulafia, *Frederick II: A Midieval Emperor* (New York: Oxford University Press, 2nd ed., 1992) 216 وكذلك حول سياسة فريدريك الثاني المتعلّقة بالفَنادق، انظر: G. Paolucci, "Le finanze e la corte di Federico Il di Svevia," *Atti della Reale Accademia di Scienze, Lettere e Belle Arti di Palermo* 3rd series, 7 (1904) 16-27.

لقد بدأ هذا العمل خلال سنوات 1220م مع اجتماع كابوا (1221م) «Diet of Capua» وتواصل مع إصدار مَراسيم مالفي (الكتاب الأُغسطي) «Constitutions of Melfi (Liber Augustalis)» سنة 1231م وفيما بعد ضِمْنَ مُلخّص القوانين الذي يجمع ما بين التشريعات النورمانية السابقة في إطار نظرة إمبراطورية موحّدة ولغة التقاليد الرومانية الجميلة. ومن بين الإضافات التي حصلت لمَراسيم مالفي، هناك فصل يتعلّق بالفَنادق وإدارتها (الكتاب الأوّل، الفصل 79)، يُنظِّم المُبادلات والضرائب المُتعلّقة بالحديد والفولاذ والملح وغير ذلك من البضائع التي تمرّ عبر الفَنادق الصِّقِلّية[16]. وقد كانت هذه المواد ذات الخصوصية موضوع احتكار مَلَكي، وكما رأينا سابقاً، فقد كانت تُشبه في ارتباطها بالفَنادق وَضْعِية فَنادق قَشتالة وغيرها من الجِهات الأُخرى. وقد لاحظ فريدريك في جهات أُخرى أنّ التجار يبيعون الأقمشة في الفَنادق المَلَكِيّة (فَنادقنا حسب تعبيره)[17]. تؤكّد كذلك بعض التَّشْريعات الأُخرى على طُمُوح الإمبراطور إلى تحديد الأسعار وتنظيم الفَنادق ومُراقبة مداخيلها. ففي أيار/مايو 1231م، أُرْسِل مُمثّلان عن الإمبراطور لاسترجاع فُنْدُق كبير في إيشيا «Ischia» وفُنْدُق صغير آخر كان كلاهما جُزْءاً من مُمْتلكات المَلِك في عهد آخر ملك نورماني، وليم الثالث[18]. وبعد شهور قليلة، في آب/أغسطس 1231م، تقدّم لائحة

---

(16) لقد نُشِر هذا النصّ مِراراً وحول آخر نشر له، انظر:

(Frederick II), *Die Konstitutionen Friedrichs II. für das Königreich Sizilien*, ed. Wolfgang Stürner, MGH (Hanover: Hahnsche Buchhandlung, 1996) 264-266; also (Frederick II), *Die Konstitutionen Friedrichs II. für sein Königreich sizilien*, ed. Hermann Conrad, Thea von der Lieck-Buyken, and Wolfgang Wagner, II (Cologne and Vienna: Böhlau Verlag, 1973) 136-137; and (Frederick II), *Historia diplomatica Frederici Secundi, sive constitutiones, privilegia, mandata, instrumenta quae supersunt istius Imperatoris et filiorum ejus*, ed. J. L. A. Huillard-Bréholles (Paris: Henri Plon, 1852-1860) IV, 211-212.

أشكر جيمس باول لنصيحته بشأن هذا القسم.

(17) E. Winkelmann (ed.), *Acta Imperii inedita saeculi XIII et XIV. Urkunden und Briefe zur Geschichte des Kaiserreichs und des Königreichs sizilien*, I (Innsbruck: Neudr. d. Ausg., 1880; repr. Aalen: Scientia Verlag, 1964) 655 (doc. 853).

(18) "Revocent ad demanium curie fundicum Iscle et fundicum parvum domne Trocce, sicut ipsa fundica fuerunt in demanio tempore regis Guillelmi": Winkelmann (ed.), *Acta Imperii inedita*, 612 (doc. 781).

مراجعة الأداءات الجُمْركية قائمة بالفَنادق الرسمية المُخَصّصة للخَزْن وجمع الضرائب وهي أربعة في مَسّينا واثنان في سَرَقُسْطة والعدد نفسه الذي هو عليه عادة في پالرمو[19].

تقدّم التشريعات العمليّة لفريدريك الثاني الفُنْداكو كمؤسّسة تجارية وجِبائية مَلَكية تهتمّ أساساً بمُراقبة سِلَع معيَّنة. إذ يضيف الفصل 89 من مَراسيم مالفي أن التاجر الذي يضع سِلَعه في فُنْداكو كما هو مطلوب، له الحرية في البحث عن سَكَن خاصّ به في المدينة. غير أنّ مجموعة هامّة من التنظيمات القديمة الصادرة في تشرين الأوّل/أكتوبر 1232م تُشير إلى أنّ الفَنادق في مَمْلكة فريدريك كانت تشتغل كأماكن للسَّكَن والتِّجارة في الوقت نفسه. وحسب هذه القوانين، فإنه يجب على المُشْرِفين على الفَنادق أن يوفّروا المَوازين لوزن البضائع ويحدّدوا أداءات معلومة مقابل استعمالها والأمر بدفع تعرفات مُحَدَّدة مقابل استعمالها وعليهم كذلك أن يوفّروا الفِراش والغَطاء والإنارة وخشب الوَقُود لضيوفهم من التجار[20]. كما يشير قرار يتعلّق بالفُنْداكو المَلَكي بنابولي في سبتمبر 1231م إلى "الضيوف الذين يُقيمون بفَنادق الآخرين عندما تكون فَنادقنا المَلَكِيّة مُمتلئة"[21]. وبالتالي يبدو أنه كان يفترض أن يُقيم التجار بالفَنادق المَلَكِيّة حيث يتوفَّر الفراش، وتوجد كذلك فَنادق خاصّة لاحتضان أيّ تدفُّق للتُّجّار. يوجد هنا نوع من المُوازاة في مستوى لُغة المَلَكِيّة وتنظيمات السَّكَن، مع التشريعات المُعاصرة في مَمْلكة الأراغون. يمكن كذلك للفَنادق الخاصّة أن تكون مُعَدَّة لاستقبال الناس بأمر مَلَكي مثلما سيحدث ذلك لاحقاً لأحد المُشْرِفين على فُنْدُق في پالرمو وهو بلدوكيوس «Balduccius» حيث طلب منه أن يُؤوي عدداً من الجِياد في فُنْدُقه "حسبما جَرَت العادة وحسبما تأمر به السُّلطة" وذلك سنة 1298م[22]. يسمح هذا النوع من التنظيمات في القرن الثالث عشر بالقول بأن رواية ابن جُبَيْر في أواخر القرن الثاني

(19) Winkelmann (ed.), *Acta Imperii inedita*, 616-617 (doc. 790).

(20) Richard of San Germano, *Chronicon*, in L. A. Muratori (eds.), *Rerum Italicarum scriptores* (Milan: Typi Societats Palatinae, 1723-1751) VII, 1030. Also in G. Del Re (ed.), *Cronisti e scrittori sincroni della dominazione normanna nel regno di Puglia e Sicilia* (Naples: Stamperia dell'Iride, 1868; repr. Aalen: Scientia Verlag, 1975) II, 76.

(21) Winkelmann (ed.), *Acta Imperii inedita*, 620 (doc. 793).

(22) Adamo de Citella, *Imbreviature*, II, 3 (doc. I).

عشر المتعلّقة بالفُنْدُق الذي كان "يسكنه المسلمون" بمدينة پالرمو، تعود إلى شرط قانوني يَفْرِض على المُسافرين المسلمين الإقامة في هذا المَرْفق.

فَنادق الجاليات التجارية الأجنبية

مثلما كان التجار والرحّالة المسلمون يسكنون في فُنْدُق خاصّ بپالرمو كان تجار شمال إيطاليا يَسْعَون بدورهم لأن يكون لديهم فَنادق في مُدُن صِقِلّية في عهد النورمان وبداية عهد أسرة الهُوهَنْشتوفن. ويبدو أنّ هذه المُنشآت كانت تُشبه فَنادق الجَنَويين والبيشانيين والبَنادقة في العالم المتوسّطي خلال القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر، ولكن ليست هناك معلومات لتبيُّن ما إذا كان للتُّجّار المسيحيين مثل هذه المُنشآت في المُدُن الإسلامية بصِقِلّية[23]. ففي سنة 1116م تقريباً صدرت وثيقة عن روجيه الثاني باللُّغة اليونانية مُنِحَت بمقتضاها قطعة أرض في مسّينا لتاجِرَين من جَنَوة لبِناء أو إعادة بِناء مكان للسَّكَن. ويبدو أنّ ذلك كان هِبة شخصية لهذين النَّفَرَيْن بدلاً من امتياز لجَنَوة، ولكن ذلك يشير إلى حُضُور التجار الجَنَويين على أرض الجزيرة حتى ولو لم يكن في شكل فُنْداكو في حدّ ذاته[24]. كما كان التجار البنادقة حاضرين ويبدو أنه كانت لهم كنيسة في پالرمو في سنة 1140م رغم أنه ليس هناك ما يشير إلى وجود فُنْداكو للبنادقة[25].

إلّا أنه في سنة 1162م، وبصورة مُفاجئة أعلن الإمبراطور الجرماني فريدريك الأوّل عن وَعْد للجَنَويين بجُمْلة الامتيازات المعهودة- حقّهم في قَناصل وتخفيض في الضرائب ومقرّ خاصّ و"شارع لتجارهم مع كنيسة وحمّام وفُنْداكو وفُرْن" مقابل المساعدة الجَنوية لافتكاك مدينة سَراقُوسة Syracuse وغيرها من المُدُن الأُخرى من أيدي النورمان. وفي الوقت نفسه أعطى لبيشة (بيزا) الامتيازات والحوافز

(23) رغم أنه من المؤكّد وجود فَنادق إسلامية في الجزيرة قبل القرن الحادي عشر فإن السيطرة النورمانية على الجزيرة وقعت قبل الإشارات الأولى إلى الفَنادق التجارية المسيحية في مختلف جهات المتوسط. إذ تعود أولى الإشارات إلى الفَنادق المسيحية إلى سنة 1098م بأنطاكية (انظر آخر قسم من هذا الفصل).

(24) Cusa (ed.), *I Diplomi greci ed arabi*, 359-360 (no. 33); David Abulafia, "Pisan Commercial Colonies and Consulates in Twelfth-century Sicily," *English Historical Review* 93 (1978) 70.

(25) Abulafia, "Pisan Commercial Colonies," 71.

نفسها[26]. ويجب أن يُفْهَم هذا الوعد في إطار الطُّموحات السياسية للإمبراطور، ولكنّ الفرصة لم تَتَوَفّر لفريدريك بَرْبَروسّا للوفاء بوعده. غير أنّ اللافت للنظر أنّ تاريخ هذه الوعود وقائمة المُنشآت كانت هي نفسها التي مُنِحَت للتُّجّار الإيطاليين في مُدُن أُخرى في حوض البحر المتوسّط في منتصف القرن الثاني عشر. إنّ الإعادة المألوفة لكلمة كنيسة وحَمّام وفُرْن وفُنْداكو تعود في الأصل إلى قائمة المطالب الجَنَوية انطلاقاً من التجربة الأيبيرية والبيزنطيّة والإسلاميّة وليس إلى مجموعة من الحوافز الإمبراطورية المُستوردة من تجارب في الشمال.

لقد كان التجار الإيطاليون مع بداية القرن الثالث عشر مُسْتقرّين في صِقِلّية وجنوب إيطاليا حيث حصلوا على امتيازات تِجارية مُفيدة من لَدُن حُكّام الهُوهَنْشتوفن الجُدُد مقابل دعمهم للهُوهَنْشتوفن ضدّ النُّورمان. لقد كانت مصالح إيطاليي الشمال مركّزة في شرق الجزيرة وفي جنوب إيطاليا خاصّة على طول مضيق مسّينا ولا يبدو أنهم طلبوا أو حصلوا على فُنْداكو في بالرمو بدلاً من ذلك فقد كانت للتُّجّار الجَنَويين والبيشانيين والفَلُورنتيين مُؤسّسات في مَسّينا في العَقْد الأخير من القرن وقد ظهر القناصل الإيطاليون في مسّينا سنة 1189م[27]. وَعَدَ هنري الرابع سنة 1191م مدينة بيشة بأن يكون لتُّجّارها شارع ومنازل وهو على ما يبدو تجديد لامتياز كان قد مَنَحَه إيّاها تنكرد[28]. وقد أدَّت المُنافسات بين التجار الجَنَويين والتجار البيشانيين سنة 1194م في مَسّينا إلى العُنْف، حيث هاجم البيشانيون فُنْداكو القدّيس يوحنّا الذي كان للجَنَويين واستولوا عليه، ونهبوا عدداً من المنازل الخاصّة بالتجار الجَنَويين[29]. وتعكس هذه الأعمال أحداث

(26) *Liber iurium Reipublicae Genuensis*, I, (no. 236) cols. 207-210; Lisciandrelli, *Trattati e negoziazioni* (no. 53); (Frederick I), *Friderici I. Diplomata*, ed. H. Appelt, MGH Diplomata (Hanover: Hahnsche Buchhandlung, 1979) 200, 222. Also F. Chalandon, *Histoire de la domination normande en Italie et en Sicilie* (Paris: A. Picard et fils, 1907) II, 296-297.

قبل ذلك بقليل، سنة 1156م، عقدت جَنَوة مُعاهدة مع الملك النورماني وليم الأوّل تتعهّد فيها بالجِياد.

(27) Abulafia, "Pisan Commercial Colonies," 68, 75, 78.

(28) "Rugam unum com domibus convenientem Pisanis mercatoribus": MGH, Legum sectio IV, ed. L. Weiland (Hanover, 1893) 474 (no. 333).

(29) Caffaro, *Annali Geneovesi*, II, 48.

القُسطنطينية حيث أخلى البيشانيون الفُنْداكو الجَنَوي منذ ثلاثين سنة وتُبرهن على مَدَى أهمِّية بناء الفَنادق كأساس للحركة التجارية والهُوِيّة الجماعية في الخارج في أواخر القرن الثالث عشر. وبما أنّ منازل الجَنَويين قد تعرّضت للهُجُوم سنة 1194م وكذلك فُنْدُقهم، فإنّ ذلك يُبَيِّن بوضوح أن التجار المسيحيين في صِقِلِّية لم يكونوا يسكنون معاً في المَبْنَى نفسه كما هو الشأن في المُدُن الإسلامية ولكن كان مَسْمُوحاً لهم بامتلاك المنازل وغيرها من العَقارات الأُخرى. وهو ما تؤكّده وثيقة رسمية صادرة عن فريدريك الثاني مُؤَرّخة في شهر كانون أول/ ديسمبر 1200م حيث تمنح للجَنَويين حقّ امتلاك مِلْكيات عديدة بما أنها تمنحهم منازل في ثلاث مُدُن صِقِلِّية (مسّينا، تراباني «Trapani» وسَراقُوسة) مع حقّ ممارسة النشاط التجاري في الفُنْداكو المَلَكي بمدينة نابولي «Napoli»[30].

واصل تجار إيطاليا الشمالية نشاطهم في فَنادق صِقِلِّية وجنوب إيطاليا خلال حكم فريدريك الثاني وحتى في فترة التوتُّر خاصّة مع الجَنَويين. ففي سنة 1220م فَقَد التجار الجَنَويون امتيازاتهم في المنطقة فترة من الزمن بما في ذلك حُقُوقهم في قصر مرغريتا في مسّينا الذي كانوا قد مُنِحُوه سنة 1200م (رُبَّما تعويضاً عن الفُنْداكو الذي أخذه البيشانيون سنة 1194م)[31]. ولكنّ البيشانيين ظلّوا حُلفاء الإمبراطور وواصلوا تجارتهم في مَسّينا. يذكر عَقْدٌ حُرِّر بسان جيمينيانو «San

(30) (Frederick II), *Historia diplomatica*, I, 66; Imperiale di Sant' Angelo (ed.), *Codice diplomatico*, III, 183-186 (doc. 72). انظر كذلك: J. M. Powell, "Medieval Monarchy and Trade: The Economic Policy of Frederick II in the Kingdom of Sicily," *Studi Medievali* 3rd series, 3 (1962) 447.

(31) Caffaro, *Annali Geneovesi*, II, 171. ربّما كان هذا المَبْنى يخصّ مارغاريتوس البرنديزي [Margaritus of Brindisi] أمير البحرية النورمانية ما بين 1184 و1194م وذلك قبل أسره من قبل الإمبراطور هنري السادس حيث أعطى الإمبراطور الفُنْداكو للجَنَويين لفترة وجيزة سنة 1200م إلى أن انقطعت العلاقات. وقد عادت الأنشطة التجارية الجَنَوية في المَمْلكة إلى سالف عهدها سنة 1245م. وقد ألغت قرارات مدينة كابوا [Capua] سنة 1220م، كلّ الامتيازات التي مُنِحَت منذ وفاة وليم الثاني سنة 1189م بما في ذلك الامتيازات الجَنَوية التي تَمّ الحصول عليها في حداثة سِنّ فريدريك الثاني، انظر:
J. M. Powell, "Genoese Policy and the Kingdom of Sicily," *Mediaeval Studies* 28 (1966) 346-349, and Powell, "Medieval Monarchy and Trade," 500-502.

«Gimignano» سنة 1232م يتعلّق بالتجار المَحلّيين الذي يَتَعاطَوْن تِجارة الفُلْفُل في مَسّينا أنهم يَذْهبون إلى فُنْداكو البيشانيين في المدينة. وبعد عشر سنوات، في سنة 1243م، هناك عَقْدٌ آخر أُرسل من سان جيمينيانو إلى فُنْداكو البيشانيين بنابولي وهي مدينة كان فيها أيضاً فُنْداكو يخصّ الفلورنسيين بِدَوْرِهم[32]. تُضفي هذه المادّة مِصْداقية على رواية واردة ضمن الديكامرون لبوكاتشيو «Boccaccio's Decameron» تبدأ "بأنه كان يعيش في مَسّينا ثلاثة إِخْوة، جميعهم من التجار تَرَكَ لهم أبوهم المولود بسان جيمينيانو ثَرْوة طائلة... وكانوا يستخدمون في أحد فَنادقهم شاباً بيشانيّاً يُدعى لورنزو كان يُخَطط لجميع أعمالهم ويُسَيِّرها..."[33].

وفي بداية النصف الثاني من القرن الثالث عشر، مثلما كان الأمر في المُدُن الأيبيرية في نهاية القرن، تراجع موقع الفُنْداكو ضمن قائمة المُنشآت المَرْغوب في مَنْحِها للتُّجّار الأجانب بصِقِلّية وجنوب إيطاليا. وحلّت مَحَلَّه اللوجيا. فقد مَنَحَ مانفريد سنة 1259 و1261م لوجيا للجَنَويين في مسّينا وسَراقُوسة ونابولي وفي مُدُن أخرى وأضاف ما دامت لهم لوجيا فيجب أن يكون لهم قَناصل لهم مُطلق السُّلطة على الجالية الجَنَوية[34].

(32) R. Davidsohn, *Forschungen zur Geschichte von Florenz* (Berlin: Ernest Siegfried Mittler & Sohn, 1900) II, 305 (no. 2324) June 7, 1232, 306 (no. 2327) Nov. 4, 1243. هناك وثيقةٌ أُخرى تعود إلى شهر حزيران/يونيو 1242 (Winkelmann [ed.], *Acta Imperii inedita*, 681 [doc. 897]) تذكر تُجّاراً بيشانيين يبيعون الخَشَب والخُضَر في فَنادق نابولي.

(33) G. Boccaccio, *The Decameron*, Fourth Day, fifth story, 4-5 (Novara: Instituto geografico de Agostini, 1962) I, 436, trans. G. H. McWilliam (Harmondsworth: Penguin Books, 1972) 366.

وعلى الرغم من أنَّ بوكاتشيو [Boccaccio] كان يستعمل عبارة الفُنْداكو، في مَعناها التوسكاني في القرن الرابع عشر، كجزء من ممتلكات شركة تجارية له مُسَيِّره الخاصّ (انظر الفصل التاسع). ولا بد أن مستمعيه من معاصريه كانوا يُقدِّرون صِدْق مشهَديَّته. فقد كان بوكاتشيو يألفُ موضوعه بما أنه كان هو نفسه قد عَمِلَ متدرِّباً (صانعاً) في شركة تجارية بنابولي عندما كان صغيراً.

(34) "In quacumque civitate regni habent logias genuenses possint habere suos consules": Q. Sella (ed.), *Pandetta delle gabelle e dei diritti della curia di Messina* (Turin: Stamperia Reale, 1870) 93; *Liber iurium Reipublicae Genuensis*, I, (no. 944) cols. 1346-1349.

وكذلك على الرَّغم من أنَّ التجار في مرسيليا سبق أن كان لديهم فُنْداكو في مَسّينا سنة 1269م وفي فترة مبكّرة من حكم شارل دانجو سَمَحَ لهم المَلِك ببناء لوجيا في مسّينا، وتراباني وبَلِرْم (پالرمو) وسَراقُوسة ونابولي خلال الفترة المُتأخّرة من سنة 1270م[35]. وتؤكّد مصادر أُخرى هذا التحوُّل في المُصطلحات في ظلّ الإدارة الأنجوفية Angevins والأراغونية خلال أواخر القرن الثالث عشر بِذِكْرها للّوجيا في صِقِلِّية وجنوب إيطاليا خاصّة بتجار جَنَوة وأمالفي وبيشة والبُنْدقيّة ومونبليه ونَرْبونة[36]. وفي سنة 1286م، بعد سنتين من حُصُول التجار الأراغونيين على لوجيا في إشبيلية، استولى جيمس ملك صِقِلِّية على منزل في مَسّينا على أساس أنه بُنِيَ بالقرب جداً من لوجيا القَطلانيّين وهي مُنشأة أُحْدِثَتْ بتكليف من الملك نفسه وبالتالي قد يُضرّ بأنشطة اللوجيا[37].

تُبيِّن المعلومات المُتَوفِّرة عن صِقِلِّية وجنوب إيطاليا نَمَطاً في اعتماد اللوجيا مُماثلاً لما كان موجوداً في إسبانيا (انظر الفصل الخامس). فلم تكن اللوجيا في أواخر القرن الثالث عشر مُختلفة وظيفيّاً عن الفُنْداكو الذي كان سابقاً لها، بمَعْنَى أنها مُنْشأة مُعَدَّة للسَّكَن والتِّجارة وخاصّة بمجموعة لها الانتماء نفسه يُسَيِّرها قناصل وفي بعض الحالات تكون تحت نظر المَلِك. إلّا أن التتالي في الزمن للكلمتين - فُنْداكو ولوجيا- يشير إلى انتشار واعٍ لهذا التغيير في المُصطلح مُواكبة للتغيُّرات السياسية والدينية وكذلك الظروف التجاريّة.

الفَنادق والجِباية المَلَكِيّة

على الرغم من الانتشار المتزايد للّوجيا كمَقَرّ للتُّجّار الأجانب، فقد واصلت الفَنادق ازدهارها كمخازن خاصّة ومُنشآت تجارية رسمية في صِقِلِّية وجنوب إيطاليا.

(35) Georges Lesage, *Marseille angevine* (Paris: E. de Boccard, 1950) 100-101.

(36) "Logiam Amalfie maritime Panormi," 1287 (Adamo de Citella, *Imbreviature*, I, 118-119 [no. 185]); "apothecam suam sittam retro logiam Ianue," 1287 (*ibid.*, 124 [no. 194]); "Actum Neapoli prope logiam Pisanorum," 1294 (F. Artizzu [ed.], *Documenti inediti relative ai rapporti economici tra la Sardegna e Pisa nel medioevo* [Padua: Casa Editrice Dott. Antonio Milani, 1962] I, 32 [no. 23]); "logiam Pisanorum Panormi," 1298 (Adamo de Citella, *Imbreviature*, II, 160 [no. 160]); *loggias* of merchants from Montpellier and Narbonne, 1300 (Sella [ed.], *Pandetta delle gabelle*, 136, 138).

(37) La Mantia (ed.) *Codice diplomatico*, 323.

وقد كان التمييز بين المُؤَسّستين واضحاً من خلال عَقْد كتبه في پالرمو كاتب العَدْل آدامو دي شِتَلّا «Adamo de Citella» سنة 1299م يَصِفُ مَنْزِلاً موجوداً "وراء لوجيا البيشانيين في پالرمو وبين مَنْزِل من جِهَة وفُنْداكو بونفِلي «Bonfilii» من جِهَة أُخرى"[38].

وكما هو الشأن في قشتالة، أدّى التَنْصير إلى اهتمام مُتزايد بالسِّلَع والخَزْن والبَيْع والتقويم وتحديد الضرائب بدلاً من الاهتمام بالسَّكَن. كانت مراسيم مالفي قد وَضَعت قواعد بَيْعِ وإعادة بَيْع المِلْح والحديد والفُولاذ وغير ذلك من المواد المُصَدَّرة (إذا لم تكنْ من المواد الغذائية) والتي تمرّ عبر الفَنادق المَلَكِيّة تحت إشراف موظّفين يتقاضون رواتب (يُسَمَّون فنديكاريوس أو فنديغاريوس). تُفيد قائمة في الأداءات الجمركية بنابولي تعود إلى سنة 1231م "أنّ كلّ البضائع التي جُلِبَتْ للبيع في المَمْلكة سواءٌ جَلَبها تجار من المَمْلكة أم غيرهم من الأجانب سواءٌ عن طريق البَرّ أم البَحْر، يجب أن تُودع في الفَنادق الرسمية" لاستخلاص الأداء. ويُواصل النصّ مُستعرضاً الأداءات الواجبة على الكَتّان والحرير وغير ذلك من المواد المُسْتَوردة مع الإشارة إلى أنه على التجار المسلمين أن يدفعوا أداءات أرفع ممّا يدفعه نظراؤهم المسيحيون[39]. هناك مواد أُخرى تمرّ هي أيضاً بالفُنْداكو مثل الخَشَب وأنواع مختلفة من الأقمشة والقِرْميد وزيت الزيتون والعِنَب والخُضَر والقِنَّب والكَتّان والقمح والشعير[40]. يلوح من خلال هذه السِّلع تشابهٌ مع المواد التي كانت مُرْتبطة بالفُنْدُق في العالم الإسلاميّ والهُنْدِقا في قَشتالة

---

(38) Adamo de Citella, *Imbreviature*, II, 160 (no. 160).

(39) Winkelmann (ed.), *Acta Imperii inedita*, 616-617 (doc. 790).

(40) في شهر تموز/يوليو 1231م طلب فريدريك أن جزءاً من اثني عَشَر من محاصيل الحبوب والخُضَر والكَتّان والقِنَّب يجب أن تُحْمَل مباشرة إلى المخازن المَلَكِيّة (Winkelmann [ed.], *Acta Imperii inedita*, 615 [doc. 787]). وبعد ذلك في حزيران/يونيو 1242م ذكر أن التُّجّار البيشانيين كانوا قادمين إلى فَنادق نابولي من أجل الخشب والخضروات (المرجع نفسه، ص681، وثيقة رقم 897) وخلال سنتي 1286 و1287م كان سيمون دي باكتيس [Simon de Pactis] المشرف على فُنْداكو في پالرمو مشتركاً في عمليّات تجارية تتعلّق بالقمح والشعير والعنب والآجُرّ (Adamo de Citella, *Imbreviature*, I, 28, 35, 65, 67, 79, 87-90, 170)؛ وقد ذكر بيغولوتي أن الزيت كان مودعاً في الفَنادق في أبوليا [Apulia] في بداية القرن الرابع عشر (Pegolotti, *La pratica della mercatura*, 163).

حيث كانت هذه المُنشآت تلعب دور المَخْزَن والمحطّة التجارية ومكاناً لِوَزْن السِّلعَ وتحديد ما عليها من الضرائب.

وقد كانت الضريبة المقصودة في صِقِلِّية وجنوب إيطاليا هي ضريبة الفُنْداكو «*Ius Fundici*» وهي واحدة من الضرائب التجارية العديدة التي كان يجمعها المَلِك. وهذه الضريبة كان يدفعها المشتري للبضائع المُستوردة عند البَيْع (وهي عادة 2,5 أو 3 بالمئة من القِيمة) في حين تُوجد ضَريبة أُخرى تُسَمَّى ضريبة الديوان «*Ius dogana*» [الجمارك] (لها القِيمة نفسها) يدفعها التاجر الذي يتاجر في المواد المُستوردة والمُصدّرة. وقد كانت ضريبة الفُنْدُق واضحة الارتباط ببيع المواد المُستوردة وهي تُدْفَع فقط عند بَيْع السلعة ومغادرتها للفُنْدُق (ومن هنا جاء القول المأثور "تدفع ضريبة الفُنْدُق مرة ولكنك تدفع ضَريبة الديوان مائة مرة")[41]. وهذا يدعم الاستنتاج القائل بأنَّ هذه المُنشآت نفسها كان يُنْظَر إليها في البداية على أنها محطّات للخَزْن والتِّجارة.

فكما هو الشأن مع تنظيمات تجارية أُخرى، كانت هذه الضرائب مُنظّمة وموضوعة تحت رقابة فريدريك الثاني الشديدة ورقابة خُلفائه من بعده[42]. تُفَسِّر الأوامر بجمع الضرائب الصادرة سنة 1231م إلى جُباة الضرائب في تراني «Trani» وبارلاتا «Barletta» أن "الأجانب الذين يبيعون سِلَعاً يدفعون ضريبة الديوان على البَيْع وإذا اشْتَرَوا بضائعَ أُخرى بالمال الذي وَرَدَ من هذه المبيعات يدفعون ذلك الحين ضَريبة الفُنْدُق" وكذلك يدفع السُّكّان المحليون الذين يشترون بضائع من أحد الفَنادق، ضريبة الفُنْدُق كغيرهم من التجار الآخرين بما في ذلك "المسلمون المُقيمون بالمملكة والذين يجب عليهم دفع ضَرِيبَتَي الفُنْدُق والديوان مثل المسيحيين بالضبط".

(41) "Uno essere il fondacho, e cento le dohane": Abulafia, "Crown and Economy," 9.

(42) لمزيد من المعلومات، انظر:

W. A. Percy, "The Revenues of the Kingdom of Sicily under Charles I of Anjou, 1266-1285 and their Relationship to the Vespers," Ph. D. dissertation (Princeton: Princeton University, 1964) 285-7. Also W. A. Percy, "The Indirect Taxes of the Medieval Kingdom of Sicily," *Italian Quarterly* 85 (1981) 73-85.

غير أنّ رعايا المَمْلكة والأجانب الذين يجلبون بضائع إلى الفُنْدُق ويعجزون عن بيعها يمكنهم حَمْلُها دون دفع ضريبة الفُنْدُق مادامت لم تقع أية عمليّة بَيْع[43]. ويُعْفي هذا النصّ بعض المواد (الزَّيْت والجُبْن والخَمْر واللَّحْم) من هذه التنظيمات على أساس أنه توجد تنظيمات خاصّة بها، ولكنّها ستدخل في فترة لاحقة ضِمْن القوانين الجِبائية. يمكن لبعض المَجْمُوعات التجارية الخاصّة أن تحصل على إعفاءات جِبائية من حين إلى آخر كما حصل في عهد مانفريد «Manfred» الذي أعفى سنة 1264م تجاراً من فارمو «Fermo» من دفع ضريبة الفُنْدُق وبعض الأداءات الأُخرى[44]. أَقَرَّت التشريعات الصادرة عن شارل دانجو سنة 1275م أنّ الضرائب يدفعها المشتري للكثير من المواد المختلفة منها الزَّيْت والجُبْن والحَديد والفُولاذ والحرير واللَّحم المُمَلّح (ولكن ليس على الحيوانات الحَيّة) وهي التي تجب عليها ضريبة الفُنْدُق. قد حُدِّدت قيمة المعاليم بالأوقية الذهبية (الطاري الصِّقِلّي) حيث تُدفع حسب وَزْن البضاعة بالموازين الرسمية الموجودة في الفُنْداكو[45]. وقد بقي هذا النظام قائماً إلى بداية القرن الرابع عشر عندما كان بيغولوتي «Pegolotti» يُسجِّل الأداءات والمدفوعات في مختلف جِهات المتوسّط في كتابه دليل التجار (الذي كُتِب ما بين 1310 و1340م). وقد أحصى بيغولوتي الديوان والفُنْداكو ضمن أسماء الضرائب "في كَامِل صِقِلِّية ومنطقة بوغليا «Puglia»" مُفَسِّراً كذلك "أنه حيثما بيعت بضاعة" في أبوليا «Apulia» أو نابولي، يجب على الأجانب دَفْع مَعْلُوم للفَنْدَقة في حين يدفع المحلّيون مَعْلُوماً آخر[46].

إنّ ظهور ضَرِيبة الفُنْدُق في صِقِلِّية وجنوب إيطاليا ووضوح المعلومات حول تطبيقها يقدّم جُمْلة من الاحتمالات المُحَيِّرة لتوضيح إجراءات سابقة لم تكن مُوَثَّقة. يبدو أنّ الضريبة على البَيْع في الفَنادق زادت في وقت لاحق في سِعْر البيع بالمُفَرَّق لبعض المواد ولكن بما أنه كان مطلوباً من الباعة أن يبيعوا في هذه المخازن تَواصَلَ ازدهارُ البَيْع في هذه الفَنادق. فقد كانت هذه الظاهرة،

(43) Winkelmann (ed.), *Acta Imperii inedita*, 619 (doc. 792).

(44) Winkelmann (ed.), *Acta Imperii inedita*, 419 (doc. 505).

(45) Winkelmann (ed.), *Acta Imperii inedita*, 759 (doc. 999).

(46) Pegolotti, *La pratica della mercatura*, 15, 161-162.

التي سبَّبت بقاء الأسعار مرتفعة بصورة اصطناعية أكثر ممّا هي في السوق المَفْتُوح، أيضاً سِمَةً غريبة في الفَنادق الإسلامية الأولى. فمثلاً تَذَمَّر الفقيه يحيى بن عمر في القرن التاسع (وهو لم يكن يكتب في صِقِلِّية وإنما في البلاد التونسية على الضفة الأخرى من المَضِيق) من غلاء الأسعار في الفَنادق أكثر ممّا هي في الأسواق[47]. فربّما النظام الضريبي نفسه والتضخُّم قد أثّرا على مدى فترة طويلة في كلّ من المَغْرِب وصِقِلِّية وقد تكون ضَريبة الفُنْدُق في القرن الثالث عشر تواصُلاً لضريبة إسلامية سابقة على البضائع التي كانت تمرّ عبر الفَنادق.

ولقد كانت إدارةُ فَنادق الدولة في صِقِلِّية وجنوب إيطاليا وتوفير السَّكَن وخَزْن البضائع وجمع ضَرِيبة الفُنْدُق مُوَكَلةً إلى موظّفي المَلِك. وهؤلاء الموظّفون الذين يحملون اسم فنديكاريي «*fundicarii*» كانت وظيفتهم من بين الوظائف التي شملتها إعادة التنظيم التي قام بها فريدريك الثاني في إطار إصلاحاته السياسية، حيث وقع التأكيد بصفة خاصّة على أن يكون هؤلاء من أهل الثِّقة والاستقامة ومُخْلِصين للمَلِك. فالمداخيل التي تتدفّق من الفَنادق في صِقِلِّية وغيرها من المناطق الأخرى، يمكن أن تكون مُغْرِية وهو ما جعل التشريعات المَلَكِيّة تَسْعى للحَيْلولة دون الفساد سواءٌ في صُفُوف المُشْرفين على الفَنادق أو غيرهم ممن كانت لهم مُهِمّة مُتَّصلة بالفَنادق. فقد كان يجب أن تُسَجَّل كلّ العمليّات وكلّ البضائع التي تمرّ عبر الفُنْداكو من أجل تَجَنُّب أيّ إمكانية للتلاعُب أو فرض لضرائب مُزْدَوجة وأيّ تَهَرُّب من النظام. وقد كان ذلك مُثْبَتاً في مراسيم مالفي وتكرَّر بأشكال مُختلفة في التشريعات المتأخّرة[48].

عندما سيطر شارل دانجو على صِقِلِّية سنة 1266م، واجهته مُهِمّة جَعْلِ البُنْية المُؤسّسية والإدارية تنسجم مع سياسته الخاصّة وبرنامجه الجِبائي[49]. وقد

(47) الوَنْشَرِيسي، المِعْيار، الجزء السادس، ص426.

(48) (Frederick II), *Die Konstitutionen Friedrichs II*, book I, title LXXXIX; Winkelmann (ed.), *Acta Imperii inedita*, 655 (doc. 853). قارن بين أوامر جيمس الأوّل المعاصرة في ممالك الأراغون.

(49) حول هذه وغيرها من الأساليب الاقتصادية الأنجوفية، انظر:

John Pryor, "Foreign Policy and Economic Policy: The Angevins and the Eco-=

كان مَغْنِيّاً كغيره ممن سَبَقُوه خلال القرن الثالث عشر بموارد خَزِينته وحسب جان دينبابين «Jean Dunbabin» "إنه وَرِثَ نظاماً يقوده إثراء الحاكم بالتجاوُزات الجِبائية وبفَرْض الاحتكارات"[50]. وقد كانت الفَنادق عُنْصراً مُهمّاً في هذا النظام وقد ذكر مُؤَرِّخ مُعاصر لتلك الفترة إدارة الفُنْديكاريوس ضِمْن الوظائف القابلة للتقييم ومُراجعة أجْرها في ظلّ النظام الجديد[51]. وكذلك فرض شارل مُراجعة قوانين الفُنْداكو حوالى سنة 1275م، وهو ما قد يكون في إطار مَجْهود لتهدئة التجار المَحَلِّيين. وحسب هذه القوانين لا يمكن أن يُجبر أيّ تاجرٍ على ممارسة نشاطه في الفُنْداكو لكن إذا أراد نقل بضاعته من جِهَة إلى جِهَة أُخرى داخل المَمْلكة يكون فيها فُنْداكو، فعليه أن يعطي تَعَهُّداً للمُشرف على الفُنْداكو في المكان أو الفُنْداكو الذي نَقَلَ منه البضاعة المذكورة بأنه يَنْقُلها إلى أرض أو مكان آخر حيث يوجد فُنْداكو مَلَكي وعليه أن يقدّم للمُشرف على ذلك المكان شهادات تضمن طبيعة السِّلَع التي جُلبت للبيع...[52].

قد تمّ تأكيدُ احتياطات من هذا النوع في دليل (كُتَيِّب) بيغولوتي الخاصّ بالتجار إذ فَسَّرَ بدِقّة القَرارات المُتَّخَذَة في نابولي والتي تقول بأنَّه إذا دُفِعَ المُشْرِف على الفُنْداكو في أحد الفنادق لا يمكن أن يُجْبى ثانيةً في فُنْداكو آخر[53]. وعلى عكس الوثائق الصريحة الصادرة عن مَمْلكة الأراغون فيما يَتَعَلّق بالفُنْدك وبإدارته، فإن المَعْلُومات المُتعلّقة بالمُشْرف على الفُنْداكو في صِقِلّية وفي جنوب إيطاليا لا تُعبّر بوضوح عن المُقابل الذي يحصل عليه المُشْرف على

= nomic Decline of Southern Italy, 1266-1343," in *Principalities, Powers, and Estates, Studies in Medieval and Early Modern Government and Society*, ed. L. O. Frappell (Adelaide: Adelaide University Union Press, 1979) 43-55.

(50) J. Dunbabin, *Charles I of Anjou: Power, Kingship, and State-Making in Thirteenth-Century Europe* (London: Longman, 1998) 163.

(51) يرد هذا المقطع في الملحق المجهول لرواية نيكولو جامسيلا [Niccolo Jamsilla] *De rebus gestis Frederici II imperatoris ejusque filiorum Conradi et Manfredi Apuliae et Siciliae regum*, in Muratori (ed.), *Rerum Italicarum Scriptores*, VIII, 609. Also in Del Re (ed.), *Cronisti e scrittori*, II, 675.

(52) Winkelmann (ed.), *Acta Imperii inedita*, 759 (doc. 999).

(53) Pegolotti, *La pratica della mercatura*, 184.

الفُنْداكو مقابل عمله. فليست هناك وثائق صريحة تتحدّث عن اللَّزْمة على الرَّغم من أنّ هذا الترتيب ربّما كان مَقْصُوداً من خلال وثيقة رسمية صادرة باسم فريدريك الثاني (وقد كان عمره آنذاك ست سنوات) لفائدة جَنَوة، يَمْنَحُها الحَقّ في أحد الفَنادق المَلَكِيّة مقابل عشرة آلاف أوقية ذهبية تُدفع تَقْسيطاً خلال الخَمْس سنوات القادمة[54]. فقد يكون هذا الفُنْدُق خاصّاً لسُكْنَى الجَنَويين وقد يستعملونه في تجارتهم ولكن يمكن أيضاً أن يكون الجَنَويون قد اشْتَرَوا حَقّ جمع الأداءات من تجار آخرين كانوا يستعملون هذه المُنشأة. ففي فترة مُتأخّرة نسبيّاً، كتب فريدريك الثاني سنة 1238م إلى قاضي المالية في منطقة الأبروتسو «Abruzzo» تومازيو دي أكو (عكّا) [Thomasio de Acco] " مُلاحظاً أنه نظراً للمَنْفَعة والرِّبح على السواء "فإنه يَطيب لنا أن يكون الفُنْداكو المَوْجُود في سَلْمُونة «Sulmona» والذي يضع فيه السُّكّان المحلّيون والأجانب بضائعهم. . . تحت إشرافك بحيث يمكنك الاعتناء به بما فيه صلاح مُلْكنا".

فقد أمر فريدريك بأنه يجب على المُشْرف على الفُنْداكو وغيره من موظّفي الملك أن يكونوا جاهزين لتقديم حِسابات عن نَفَقاتهم أمام المَلِك[55]. وكما تبدو هذه القوانين لمَصلحة المَلِك فهي أيضاً لمَصْلحة تومازيو «Thomasio» رغم أن الوثيقة لا تذكر مُرَتَّباً أو نِسْبة مئوية من المداخيل ولا توجد كذلك أية إحالة على أداء يَدْفعه تومازيو للدولة. وفي فترة لاحقة وفي رسالة كتبها شارل أمير سالرنو سنة 1284م إلى المُشْرِفين على الفَنادق في نابولي يأمرهم فيها بأن يُحَوِّلوا الأموال لفائدة بياتريس «Beatrice» ابنة مانفريد لمصاريفها اليومية[56]. فمن غير الواضح مَرَّةً أُخرى مَعْرِفَةُ إلى أين يمكن رَصْدُ هذا المال في ظلّ ظروف طبيعية (ربّما يذهب جزء منه إلى شارل) أو ما إذا كان المُشْرِفون على الفَنادق فقدوا دَخْلاً ربّما كانوا يطالبون به لأنفسهم بطريقة أُخرى.

---

(54) "...in Neapoli, fundicum nostrum quod est in porta Morizini, cum introitibus et exitibus, et omnibus finibus suis": Imperiale di Sant' Angelo (ed.), *Codice diplomatico*, III, 183-186 (doc. 72).

(55) Winkelmann (ed.), *Acta Imperii inedita*, 635 (doc. 818).

(56) Winkelmann (ed.), *Acta Imperii inedita*, 595-596 (doc. 755).

الفَنادق الخاصّة

كان بعض المُشْرِفين على الفَنادق يتقاضَوْن أجْراً يدفعه لهم التاجُ مقابل إشرافهم على المُنشآت المَلَكِيّة، في حين يبدو أنّ البعض الآخر يُسَيِّر فَنادق خاصّة لحسابه. ويمكن الحصول على هذه المباني بواسطة الشراء أو في إطار الكِراء. تذكر وثيقةُ وَقْفٍ تَعُود إلى سنة 1143م، أنّ فُنْدُقاً في بالرمو تمّ شراؤه من قِبَل جورج الأنطاكي من مالكه المسلم حسن بن ناسخ[57]. إنّ المواد التي تتعلّق بالمُعاملات الخاصّة التي تعود إلى العهد النورماني قليلة، ولكنّ هذه الوثائق تسمح باستنتاج أن العديد من المباني التِّجارية ربّما انتقلت من المسلمين إلى المَسِيحيين بالبَيْع بين الخواصّ، ثم تواصل انتقالها بين المسيحيين في الفترات اللاحقة.

خلال القرن الثالث عشر وبغضّ النظر عن جهود فريدريك الثاني في المُطالبة بالمُمْتلكات المَلَكِيّة التي أصبحت بين أيدي الخواصّ، فقد كان العديد من الفَنادق في صِقِلّية وجنوب إيطاليا لا يزال مُؤَسّسات صغيرة يُسَيِّرها أناس عاديون. فمثلاً هناك وضعية قانونية معقّدة حدثت في مَسّينا سنة 1239م تهمّ اقتسام وصِيانة وترميم فُنْدُق يملكه شخصان: أحدهما هو جان شيبولا «Jean Chipulla»، كان قد حصل على نصف المَبْنَى من حَمِيِّهِ في حين كان المالك الثاني هو الأرملة روزا «Rosa» التي كانت قد اشترت النصف الآخر من المُلْكية. فمن الواضح أنّ الفُنْداكو يمكن شراؤه وبيعه وإهداؤه كأيّ عقار آخر. وعندما حَدَث الخلاف كانت الواجهة الشرقية يسكنها جان وفيها غُرَف عديدة بعضها شاسع له نوافذ مُطِلّة على الشارع ومَطْبَخ. وفي الوقت نفسه كان النصف الغربي من المَبْنَى على ملك روزا وقد آل للسُّقُوط وهو الوضع الذي أدّى إلى الخلاف بين المالكَيْن[58]. وكما كانت بعض الفَنادق على ملك الخواصّ فقد كان البعض

---

(57) Johns, *Arabic Administration*, 110.

(58) Léon-Robert Ménager, *Les Actes Latins de S. Maria di Messina (1103-1250)* (Palermo: Istituto Siciliano di studi Bizantini e Neollenici, 1963) 150-158.
يقع هذا الفُنْداكو في جانب من مدينة مسّينا حيث يعيش الغرباء وهو بجانب شارع يعود إلى الجالية البيشانية وكان كذلك قريباً من مبانٍ يمتلكها أناس من أمالفي [Amalfi] ورافيلو [Ravello].

منها أيضاً على مِلْك المُؤسّسات الدينية مثلما رأينا ذلك من خلال الهِبات التي تَمَّت في عهد النورمان وقد كان فرسان الهيكل «the Templars» يملكون بالفعل فُنْداكو في مسّينا سنة 1270م[59].

فكما هو الشأن في أيبيريا المسيحية وفي العالم الإسلاميّ، فقد كانت هذه المنشآت الصغيرة تُوَفّر الفضاءات المُعدّة للسكن والخَزْن والتّجارة في درجة أقل من مُسْتوى الفَنادق المَدْعومة من قبل الدولة. وكنتيجة للطابع الخاصّ لمِثْل هذه المُؤسّسات فإنّ الفَنادق الخاصّة قلّما تَبْرُز في النصوص التشريعية أو في الوثائق الرسمية باستثناء فقرة ضمن نصّ تشريعي يعود إلى سنة 1231م حيث يَرِدُ فيه ذِكْر "نُزَلاء فَنادق الآخرين" في مدينة نابولي عندما تمتلئ الفَنادق المَلَكِيّة[60]. ومن جِهَة أُخرى تَعُجُّ الوثائق الخاصّة والعُقُود بالمعلومات المُتعلّقة بالفَنادق وتبيّن أن هذه المباني كانت تلعب دور الدكاكين للتُّجّار والحِرَفيين وأماكن للسَّكَن[61]. وفي مِثال أخير، تذكر وثيقة تَعُود إلى سنة 1299م أن شاباً من پالرمو تمّ الإعلان عن عدم صلاحيته للخِدْمة العسكرية بعدما أحضر والده شهود عِيان إلى الفُنْداكو الذي كانت تعيش فيه عائلته للتأكُّد من إعاقته "وهو طريح الفراش في الفُنْداكو سابق الذكر"[62]. ربّما كان الفُنْداكو على مِلْك أصحابه منذ فترة طويلة مثلما كان ذلك في المُدُن الأيبيرية وكان الاستعمال المسيحي للكلمة لا يزال قائماً إلى فترة قصيرة. ويمكن أن يبيِّن تحليل الوثائق توجُّهاً مُهماً في استعمال كلمة فُنْداكو في حين أنَّ معلومات أُخرى (مثل الانتقال من الفُنْداكو إلى اللوجيا) تُبيّن أن المُستغلّين المسيحيين كانت لهم قُدرة كبيرة على تغيير اسم لم يتداولوه كثيراً.

---

(59) Bresc and Bresc, "*Fondaco* et taverne," 95 . قارن ذلك بمؤسّسات الهندقا [*alhóndigas*] والفنداك [*fondechs*] التي مُنحت إلى المنظمات الدينية العسكرية في القرن الثالث عشر في أيبيريا.

(60) Winkelmann (ed.), *Acta Imperii inedita*, 620 (doc. 793).

(61) Adamo de Citella, *Imbreviature*, II, 218-219 (doc. 278).

سَجَّل الكاتب العدل نفسه كذلك وضعيات شبيهة في عُقُود أُخرى I, 82-83 (doc. 116), I, 202-203 (doc. 335), II, 160 (doc. 160) : . كما سُجِّل كذلك فُنْداكو آخر على ملك خاصّ في نابولي سنة 1293م (Artizzu [ed.], *Documenti inediti*, I, 30 [doc. 22])

(62) Adamo de Citella, *Imbreviature*, II, 199-200 (doc. 252).

كانت الفَنادق الخاصّة في حالات كثيرة تُذْكَر من باب الصّدفة مثلما هو الحال في عُقُود بَيْع مُمتلكات أُخرى يَرِدُ فيها ذِكْر مُحاذاتها للفَنادق. فمثلاً تذكر وثيقةٌ كتبها الكاتب العدل آدامو دي شِتلّا «Adamo de Citella» سنة 1229م شِراء حديقة وسَبْعة منازل في پالرمو مجاورة "لفُنْداكو بُتْشِي دي ركومانو «Pucii de Riccomanno» وفُنْداكو فرانشيسكي دي باغانو «Francisci de Pagano»". في نصّ آخر يُسجّل كذلك آدامو دي شِتلّا بيع فُنْداكو في حدّ ذاته أو يَذْكر فُنْداكو ضمن قائمة من مُكوّنات مَهْر، وبذلك يبدو واضحاً أنّ هذه المباني كانت ذات قيمة كبيرة تستحقّ اهتمام الناس بها اهتماماً خاصّاً[63].

يذكر العديد من نصوص آدامو دي شِتلّا «Adamo de Citella» أنشطة خاصّة وأنشطة تجارية وحِرَفية تَجِدُ في الفَنادق الخاصّة في پالرمو بما فيها بَيْع الجلد وجلود الأرانب والحدادة وإنتاج القِرْميد[64]. يبدو أنّ هذا النشاط الأخير هو مِيزة عامّة لأن صُنّاع القِرْميد (celamidarii) والقِرْميد (celmidis) نفسه كثيراً ما نجدهما في العُقُود التي حُرِّرت ما بين 1286 و1299م. فبعضها مُتَّصِل بالفَنادق التي يصنع فيها القِرْميد وبعضها مَعْنِيّ ببيع القِرْميد في الفَنادق[65]. ففي شباط/فبراير

---

(63) Sale contract: Adamo de Citella, *Imbreviature*, I, 134 (doc. 215), dated March 1287; dowry lists: *ibid.*, I, 45-46 (doc. 49), January, 1287, I, 208-209 (doc. 345), July 1287, II, 356-357 (doc. 459), June 1299.

(64) أشار أدامو دي شِتلّا [Adamo de Citella] إلى فُنْداكو على مِلْك جَلّاد (تاجر الجلود) (*corridaturus*) (*Imbreviature*, I, 208-209 [doc. 345]) وبيع جلود أرانب في فُنْداكو آخر (*ibid.*, I, 90-91 [doc. 132])، كلاهما في پالرمو. وسجِلّ عَقْد يعود إلى سنة 1307م كِراء جزء من فُنْداكو كذلك في پالرمو لِبَيْطار لممارسة نشاطه (H. Bresc, " In ruga que arabice dicitur zucac...' Les Rues de Palerme [1070-1460]," in *Le Paysage urbain au moyen âge: Actes du XIe Congrès de la Société des historiens médiévistes de l'enseignement supérieur publique* [Lyon, 1980] [Lyon: Presses universitaires de Lyon, 1981] 174).

(65) كِراء فُنْداكو في پالرمو لصنع الآجُرّ (القرميد) في آذار/مارس 1287م (Adamo de Citella, *Imbreviature*, I, 110 [doc. 169]; بيع فُنْداكو لصناعة الآجُرّ شباط/فبراير 1299م، (*ibid.*, II, 196-197 [docs. 248-248a]). اللفظة اللاتينية هي النسخة الصِّقلّية للكلمة اليونانية سيارَميرا [*ciaramira*] وهو نوع من الآجُرّ (*ibid.*, I, 272). يمكن أن تعود العلاقة بين الفُنْداكو وصناعة الآجُرّ إلى القوانين التي سَنَّها شارل دانجو حوالى سنة 1275م والمتعلّقة بالفُنْدُق والتي يرد فيها ذكر ضريبة على أدوات الصباغة والآجُرّ في علاقة بقوانين الفَنادق (Winkelmann [ed.], *Acta Imperii inedita*, 760 [doc. 999]). =

1286م وَعَدَ أحد حِرَفيي القِرْميد بأن يُسلّم 4000 قِرْميدة إلى سيمون دي باكتيس «Simon de Pactis» المُشْرِف على أحد الفَنادق في شهر نيسان/أبريل في الفُنْداكو الذي يعمل به. ينصّ عقد بَيْع حُرِّر سنة بعد ذلك، وهو يخصّ مجموعة أخرى من الناس، على تسليم 2000 قِرْميدة للفُنْداكو الذي يعمل به البائع وفي عَقْد آخر يهمّ بَيْع 2500 قِرْميدة في نيسان/أبريل 1299م يؤكّد على تسليمها إلى "الفُنْداكو الذي يعمل به"[66]. تُبيِّن كلّ هذه المُعاملات أن الفَنادق في بالرمو كانت مراكز مَليئة بالأنشطة الخاصّة والرابحة خلال القرن الثالث عشر. وتبيّن الوثائق المتأخّرة التي جمعها هنري براسك «Henri Bresc» أن هذه المؤسّسة كانت شائعةً في صِقِلّية خلال العُصُور الوُسْطى المُتأخّرة حيث احتفظت بِمَعْنَى مَقَرّ للسَّكَن وحانة وفي بعض الأحيان ماخور، خاصّةً في المناطق الريفية[67].

تبيّن هذه المواد من صِقِلّية وجنوب إيطاليا والتي تمتدّ على طول العَهْدَيْن النورماني والأنجوفي أنّ كلّ هذه الأنواع الثلاثة للفَنادق ـ المَلَكِيّة والجماعية والخاصّة ـ قد ازدهرت في هذه المناطق. إن مختلف الوظائف التي كانت تُوفّرها هذه المُنشآت كان لها ما يقابلها ليس في النَّمُوذج المُبَكِّر في العالم الإسلاميّ وحسب ولكن أيضاً في الفَنادق المُعاصرة لها في المَمالك المسيحية الجديدة في غرب وشرق المتوسّط.

الفُنْدى والفُنْداكو في الإمارات الصليبية

مثلما حدث في أيبيريا وصِقِلّية سُرْعان ما تمّ إدماج الفُنْدُق في السياسة

= العلاقة بين الفُنْداكو وصناعة القرميد (ومن خلاله الأفران)، يمكن أن تكون هي أيضاً ناتجة عن طول الارتباط بين الفَنادق والأفران.

(66) شباط/ – February 1286: "ipsas celamidas dare in fundico in quo ipse laborat" فبراير 1286م في هذه الحالة، ليس واضحاً ما إذا كان المشتري أو البائع يعمل في الفُنْداكو (Adamo de Citella, *Imbreviature*, I, 87 [doc. 125], I, 80-81 [doc. 112] شباط/فبراير 1287 (April, 1299, II, 276-277 [doc. 356]). عَقْد آخر شبيه حُرِّر في شباط/فبراير 1287م (*ibid.*, I, 88-89 [doc. 128]).

(67) Bresc and Bresc, "*Fondaco* et taverne,"; also H. Bresc, *Un Monde méditerranéen. Economie er société en Sicile 1300-1450* (Rome: Ecole français de Rome, 1986), I, 359, 368.

الإدارية المسيحية في الإمارات الصليبية. فقد ظهر الفُنْداكو الذي يُسَيِّره التاج والفُنْداكو الذي تمتلكه جَنَوة في ظلّ الحكم الصليبي وهو يُشبه في كثير من الجوانب الفَنادق الأُخرى في جِهات مختلفة من العالم المتوسّطي. وهناك أيضاً معلومات محدودة عن منشآت معدّة لتجارة مواد مُعَيَّنة مثلما هو الشأن في جهات أخرى ولو أنه يوجد سنة 1172م فُنْدُق للغِلال في اللاذقية وفُنْدُق السكّر في صور (1209م) وفُنْدُق الخَمْر في أنطاكية (1231م)(68).

إنّ التشابُه المَوْجُود يجعل من المُغْري دراسة الفَنادق الصليبية على ضوء ما هو مَوْجُود في جِهات أُخرى من العالم المسيحي. ولكن هناك اختلافات هامّة عديدة وأبرزها تفوُّق التجار الإيطاليين وتعقيد العلاقة بين فَنادقهم والفَنادق المَلَكِيّة. وهناك أيضاً مسألة أسبقية الفَنادق ضمن المؤسّسات التي اندمجت مُبَكِّراً في المسيحية في المُدُن الصليبية. وبالتالي ورُغْمَ احتمال وجود تأثيرات متوسّطية، من خلال العلاقات التجارية، فإنّ التَّسَلْسُل التاريخي يسمح باستنتاج تطوّر خاصّ بالإمارات الصليبية مُستقلّ عن الفُنْدُق وعن الفُنْداكو في دار الإسلام. وهذه الاختلافات قد تأتي من اختلاف ظُروف الإمارات الصليبية وخاصّة من النفوذ النِّسبي لمجموعات التجار الإيطاليين في الموانئ الصليبية وعدم معرفة الصليبيين الأوروبيّين بالمُؤَسَّسات الإسلامية المَحلّية. فقد كان المُلوك الصليبيون الأوائل قادمين من شمال أوروبا مَثَلُهم مَثَلُ معاصريهم من النورمان في صِقِلّية ولكن على عكس مُلُوك قشتالة والأراغون، لم تكن لهم دِراية بالأشكال العُمْرانية والإدارة الجِبائية الإسلامية. ولكنّهم رُغْمَ ذلك استطاعوا التعلُّم بسرعة، وسارعوا إلى اعتماد وتكييف المُؤَسّسات التي كانت لها فائدة واضحة. ومثلما هو الشأن في جِهات مسيحية أُخرى قد حافظت الفَنادق الموجودة كما يبدو على أسمائها

(68) "Fundo fructus ": *cartulaire général de l'ordre des Hospitaliers de St. Jean de Jérusalem*, ed. j. Delaville Le Roulx(Paris: Ernest Leroux, 1894-1906) I,303 (doc.513); "fontica de çucaro " Morozzo della Rocca and Lombardo (eds), *Documenti del commercio*,II, 52 (doc.513); " funde del vin": *Cartulaire général*,II,428 (doc.2001).
كل هذه المواد كانت من البضائع التي يتاجر بها الأوروبيون مع الشرق الأوسط، فقد كانت هناك كمّيات كبيرة من السكر تُنتج في المملكة اللاتينية لتُصَدَّر إلى أوروبا، انظر:
Edna J.Stern, "The Excavations at Lower Ḥorat Manot: A Medieval Sugar-Production Site,"*Atiqot* (2001) 277-308.

ووظائفها في ظلّ الإدارة الجديدة، وفي حالات أُخرى تغيّرت وظائف المباني الإسلامية كما هو الحال مع فُنْدُق فاطميّ تَحَوَّل إلى مستشفى من قِبَل الإسبيتارية[69].

وقد خصَّص الباحثون المُخْتَصّون في الإمارات الصليبية وقتاً كبيراً للتّجارة والمُؤَسّسات الجِبائية في الشرق اللاتينيّ. وتُشير بحُوُثهم إلى تنوُّع ومُرُونة المُصطلحات الإدارية التي تضمّ الفُنْدا funda اللاتينيّ والفُنْدى fonde باللهجة العامية كما تضمّ الفُنْداكو والفُنْتيكوم والفُنْديكوم وغير ذلك من المُصطلحات الشبيهة. تُستعمل هذه الكلمات في بعض الأحيان للتعبير عن مَبانٍ خاصّة أو مؤسّسات إدارية ولكنّها في فترات أُخرى تُستعمل للتعبير عن العديد من الأشياء مادّياً ونَظَرياً على السواء. وقد خَلَقَتْ هذه الضبابية نِقاشاً وصِراعاً لاحقاً يُبرهن عن صعوبة الإقرار بمعنى دقيق وقويّ. ويبدو من المعقول القول بأن هذا التنوُّع الاصطلاحي هو نتيجة تعقيدات لُغوية ودينية واقتصادية لاختلاط الناس في الإمارات الصليبية من نُبلاء فرنسيين ونورمان صِقِلّيين وتجار من شمال إيطاليا ومسلمين. فقد جاءت كلّ مجموعة بفهمها الخاصّ وأسلُوبها المُميّز لتطوير المؤسّسات الصليبية ولكن ليس هناك موجب للاعتقاد بأن التنوُّع اللُّغوي الناتج عن ذلك (الذي حَيَّر الباحثين المُعاصرين كثيراً) كان يُمثّل عائقاً أمام مُواصلة الأعمال في عكّا أو أنطاكية في القرن الثاني عشر أو القرن الثالث عشر. فقد ناقشت دراسةٌ حديثة أصولَ بعض الضرائب والمُؤسّسات الاقتصادية في الإمارات الصليبية للبحث عمّا هو من أصل أوروبيّ وما هو من التقاليد الجِبائية الإسلامية[70]. وفي حالة الفُنْدى الصليبية يُصبح الجواب مُعقّداً جداً بما أن التجربة الخارجية للمُؤسّسة (خاصّة تلك التي جاء بها النورمان والجَنَويون والبنادقة) كانت قد اختلطت بالنُّسخة المَحلّية.

وقد قَدَّم جوناثان رايلي سميث «Jonathan Riley-Smith» تلخيصاً مفيداً لما يمكن أن تعنيه الفُنْدي والفُنْداكو في سوريا اللاتينيّة مشيراً إلى أنّ كلّ المُنشآت كانت تحت السُّلطة المَلَكِيّة من الفُنْدا المَلَكي في القرن الثاني عشر في عكّا إلى

(69) Z. Goldman, " Le Couvent des hospitaliers à Saint Jean d' Acre,"*Bible et terre Sainte* 160 (April 1974) 15.

(70) See, for example, Paul Sidelko, "Muslin Taxation under Crusader Rule," in *Tolerance and Intolerance. Social Conflit in the Age of the Crusades,* ed. Michael Gervers and James powell (Syracuse: Syracuse univercity Press, 2001)65-74.

المخازن التي تمتلكها الجاليات التجارية الإيطالية. فقد كانت بعض مُؤَسَّسات الفُنْدى شديدة الشَّبَه بالفَنادق والخانات المُعاصرة لها تحت الإدارة الإسلامية، تُوَفِّر فضاءات للسَّكَن والخَزْن والتِّجارة.

يبدو أنّ كثيراً منها كان تحت سُلطة المَلِك وكذلك النُّبَلاء والخَواصّ والتنظيمات العسكرية أو المجموعات التجارية الغربية. هناك مؤسّسات فُنْدى أُخرى كانت أسواقاً لأنواع مُعَيَّنة من البضائع (الخَمْر والغِلال وغيرها) أو مبانيَ تضمّ دكاكين عديدة تحت إشراف إدارة واحدة[71]. قد كانت مُؤَسَّساتُ الفُنْدى والفُنْداكو في الإمارات الصليبية مثلما كانت في إسبانيا وصِقِلِّية والعالم الإسلاميّ، أماكنَ للتِّجارة وفرض الضرائب على السِّلَع ومُراقبة المواد المعروضة للتِّجارة. لكنْ هناك قليل من الأدلّة التي تُثبت أنها كانت مخازن رسمية للاحتكارات المَلَكِيّة (مثلاً الحبوب والمِلْح) مثلما هو الشأن في بعض الجهات التي تمّ الاستيلاء عليها من قِبَل المسيحيين. غير أنّ العديد منها لم يكن تحت إشراف مَلَكي مُباشر ومن الواضح أنّ الموظّفين الرسميين كانوا يسهرون على هذه الفضاءات التجارية وما يمكن أن تُوَفِّره من دَخْل.

مؤسّسات الفُنْدى المَلَكِيّة ومُؤَسَّسات النُّبَلاء

ظهرت أوّل فُنْدا ملكية في الوثائق التي تعود إلى عهد بلدوين الأوّل «Baldwin I» (1118-1131م) وتواصلت الوثائق التي تُشير إلى هذه المُنشآت الرسمية إلى أواخر القرن الثالث عشر. من الأكيد أنّ الفكرة مُسْتَوْحاة من فَنادق السُّلطان في الوسط الإسلاميّ المُعاصر. فقد كانت الفُنْدى إحدى مُؤَسَّستين تُشْرِفان على الأنشطة التجارية في الإمارات الصليبية. وقد كانت مُرْتبطة بالسوق وبالبيع، في حين كانت المُؤَسَّسة الأُخرى (كاتينا «Cathena») عادة ما تهتمّ بالبضائع المُصَدَّرة. غير أنّ جوشوا براور «Joshua Prawer» قد بَيَّن "أنَّ العلاقات بين الكاتينا والفُنْدا funda لم تكن دائماً واضحة"[72]. وحسب جوناثان رايلي

(71) J. Riley- Smith, *The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem,1174-1277*(London: Macmillan1973) 70-75, 95-96; also Riley- Smith, "Government in Latin Syria,"115-116. Also Joshua Prawer, *The Crusaders' Kingdom. European Colonialism in the Middle Ages* (New York: Praeger, 1972) 407-415.

(72) لقد ذهب براور [Prawer] إلى القول بإمكان المرء أن يفترض أن الكاتينا [*cathena*]، =

سميث فإنَّ أغلب المواد الواردة على المُدُن الصليبية كانت تُجْلَب بمقتضى القانون على الفُنْدى المَلَكِيّة من أجل الخَزْن والوَزْن والتِّجارة ودَفْع الجِباية. وقد حصل بعض التجار الغربيين على الإعْفاء من هذا الواجب وكانوا يحملون بضائعهم إلى فَنادقهم من أجل البَيْع والخَزْن. وقد لاحظ رايلي سميث فَرْقاً - في مدينة عكّا على الأقلّ - بين الفُنْدى المَلَكِيّة في المَنْبَع داخل المدينة والفَنادق (الفُنْداكو) الموجودة حول المِيناء (التي تُسَمَّى فُنْدى في المَصَبّ) والتي كانت على مُلْك الجاليات الإيطالية. وقد كان الراغبون في الشِّراء بما في ذلك التجار الغربيون والذين يريدون شِراء بعض البضائع من الفُنْدى المَلَكِيّة كان عليهم أن يأتوا إلى هذه المُنشآت للقيام بعمليّات الشِّراء وكان يتمّ تحديد الضرائب على البضائع عند البَيْع[73]. وقد كانت الضرائب المَفْروضة على عدد مُتَنَوِّع من الضرائب المَبِيعة في الفُنْدى مضبوطة بِدِقّة في القرن الثالث عشر وهي قد تُشبه ضريبة الفُنْدُق في صِقِلِّية أو ما سبقها من الضرائب التجارية في العالم الإسلاميّ[74]. وقد كانت المُنشآت المَلَكِيّة مُسَيَّرة إمّا مُباشرة أو في إطار اللِّزْمة وقد كانت رابحة بما فيه الكفاية حتى إنه كان مُتَعارَفاً على أنّ دخلها مَضْمُون.

= وهي سوق بالتأكيد وليست فقط مركزاً جمركيّاً، مجهَّزة للتصدير فقط، والفُنْدا funda للتجارة المحلية. وهذا ليس أكيداً تماماً.

فلو أُعْفِيَ النسّاجون الشاميون في صور من أداء رسم للكاتينا [*cathena*]، بمقتضى مرسوم ملكي، كانوا بخلاف ذلك سيدفعونه في فُنْدى *fonde* البنادقة، فإن العلاقات كانت أكثر تعقيداً مما تشاهده العين' (Prawer, *Crusaders' Kingdom,* 413). See also R.B. Petterson, "The Early Existence of the *Funda and Catena* in the Twelfith-centry Latin Kingdom of Jerusalem", *Speculum* 39 (1964) 474-477.

(73) Riley- Smith, "Government in Latin Syria,"109-122. Also Riley- Smith, *The Feudal Nobility,*74, 95-96.

قد وصف رايلي-سميث [Riley- Smith] العلاقة التي يعتمدها الأوروبيون لاستيراد البضائع التي كانت تُباع في الفَنادق الغربية fondacos حيث لا توجد مُكُوس على البيع، إلا أن السُّلطة كانت تتوفر لها الفرصة لجمع الضرائب من التُّجّار إذا ما خرجوا من المدينة. وإذا ما رغب التُّجّار الغربيون في اقتناء بضائع شرقية كان عليهم المرور بالفُنْدى المَلَكِيّة ودفع مبلغ لما يقتنونه.

(74) *Les Livres des assises et des usages du reaume de Jerusalem*, ed. E.H. Von Kausler (Stuttart: A. Krabbe, 1839)I, 274-287.

وعندما وصل ابن جُبَيْر إلى مدينة عكّا 1184م قادماً إليها من دمشق، وصف مُنشأة تجارية كانت تقريباً بلا شكّ الفُنْدى المَلَكِيّة:

«. . . حُمِلْنا إلى الديوان (الجمارك)، وهو خان مُعَدّ لنُزُول القافلة، وأمام بابه مَصاطب مَفْروشة فيها كُتّاب الدِّيوان من النصارى بمحابر الأَبَنوس المُذَهّبة وهم يكتبون بالعربية ويتكلّمون بها ورئيسهم صاحب الدِّيوان الضامن له يُعْرَف بالصاحِب. . . وكلّ ما يُجْبَى عندهم راجع إلى الضامن، وضمان هذا الديوان بمال عظيم. فأنزل التجار رحالهم ونزلوا في أعلاه، وطُلِب رَحْل من لا سِلْعة له لئلا يحتوي على سِلْعة مَخْبُوءة فيه وأُطلق سبيله فنزل حيث شاء. وكلّ ذلك بِرِفْق وتُؤَدة دون تعنيف ولا حَمْل»[75].

إنّ استعمال ابن جُبَيْر كلمة خان عوضاً عن كلمة فُنْدُق ليس مُهِمّاً لأنّ هاتين الكلمتين مُترادفتان ضِمْنيّاً في اللُّغة العربية في بلاد الشام آنذاك. ولكن ما هو واضح هو أن هذا الخان كانت له وضعية رسمية وكان في إطار لَزْمة للدولة. وقد كان مكاناً لوضع البضائع المُسْتَوردة وتحديد قيمة ضرائبها وكان التجار الوافدون مُشَجَّعِين وليسوا مُجْبَرِين على الإقامة به. وبما أنه كان مُسَيَّراً من قبل مسيحيين يتكلّمون العربية تحت نظر صاحب الديوان وبما أن المُعاملات كانت تتمّ بالعربية فهو تَواصُلٌ لِلُغة المُؤَسَّسات الإسلامية، رغم مُرور قرن تقريباً على الحكم المسيحي. وربّما يكون وصف ابن جُبَيْر السِّمة التي تُمَيِّز تسيير الفَنادق لا في الشرق اللاتينيّ فقط وإنما في غيره من جِهات العالم المتوسّطي في العصر الوسيط.

في فصل مُتَأخّر من كتاب قرارات القدس «Livre des assises de Jerusalem» هناك تأكيد على وُجود كُتّاب من المسلمين ومن الفرنج يشتغلون في الفُنْدى في المُدُن الصليبية.

وبالرغم من أنّ هذه الفقرة من النصّ تُشير إلى المُنشآت التي كانت في حَوْزة الأسياد (النُّبَلاء) وبالتالي لم تكن خاضعة مُباشرة إلى المُراقبة المَلَكِيّة فإن تركيبتها كانت ممّا لا شكّ فيه مُتشابهة.

---

(75) ابن جُبَيْر، الرِّحْلة، ص302-303، الترجمة الإنكليزية، ص317-318.

وقد كان المَؤلّف مُهتماً خُصُوصاً بكون العمليّات المُرْبِحة التي كانت تجري في الفُنْدى قد تُغري الموظَّفين بالسرقة والاختلاس:

"إذا حدث أن كان هُناك كاتب مسلم أو إفرنجيّ في خدمة أحد الأسياد في الفُنْدى وقام ذلك بسرقة السيِّد من حقوقه أو تواطأ ضده مع التجار أو التابعين لاختلاس أموال السيِّد واقتسام المَسْرُوق معهم أو احتفظ لنفسه بالأموال المَقْبوضة لفائدة الفُنْدى. . . وقام بهذا عن طريق تزوير الحسابات أو السِّجلّات. . . وإذا أمكن إثبات جُرْمه بالسَّرقة سواءً من خلال سِجِلّاته أو سِجِلّات التجار، بأن سمح بتصدير البضائع دون دَفْع المعاليم الواجبة إلى السيِّد أو بتخفيض نصف المعاليم التي كان يجب أن تُعطى للسيِّد لأجل النصف الآخر أو الثُّلْث الذي يُدفع نقداً بدون علم السيِّد أو وكيله. . . فسيتمّ شنقه"[76].

فهذه الفقرة لا تصف سوء تصرُّف المحاسبين فقط وإنما تقدّم كذلك أدلّة على البُنية الإدارية للفُنْدى. فهذه الفُنْدى مثل المُنشآت المَلَكِيّة والفَنادق في مختلف الجِهات في المتوسّط المسيحيّ كانت لَزْمة يعطيه السيِّد مُقابل نسبة مئوية من المداخيل سواء بالثُّلث إذا كانت نقداً أو بالنصف إذا كانت عَيْناً [بالسِّلَع]. ويمكن أن تُحِيل الإشارة على الوكيل على أنه الشخص الذي كان يضمن اللَّزْمة وهو الذي يُشَغِّل الكَتَبة وغيرهم من المُوَظّفين الذين يعملون داخل المَبْنَى.

فَنادق (فُنْداكو) التجار الغربيين

كان للتُّجّار الغربيين فَنادق خاصّة بكلّ مجموعة في مختلف الموانئ الصليبية وهي موجودة عادة في الأحياء الخاصّة بهم داخل المُدُن حيث يمكنهم جَلْبُ البضائع من الخارج ومُمارسة التِّجارة. كانت هذه الجاليات التجارية تحصل على المال من النشاط التجاري الذي يُقام في فَنادقها ومن الكِراء وغيره من المداخيل المُتَأتِّية من العَقارات التي تمتلكها في المُدُن الصليبية. وقد كانت الفَنادق الغربية ذاتها إمّا امتيازات مَلَكية أو امتيازات للنُّبلاء تَمّ الحصول عليها في

(76) *Les Livres des assises*, I, 344-345. أخذت الترجمة من Riley- Smith, *The Feudal Nobility*, 55. هناك اختلاف بسيط في النصّ عند وصفه دفع ثُلث المداخيل، فهناك صيغة ـ وهي التي يميل إليها رايلي سميث، تشير إلى أن الدفع يتمّ نقداً، والثانية تشير إلى أن الدفع يتمّ في فترة لاحقة.

إطار المُبادلات الدبلوماسية. فقد مُنِح بعضُها مقابل مُساعدات بحرية أو غيرها بصورة واضحة في حين كان البعض الآخر قد مُنِح لَزْمة للجاليات الأوروبية. ويمكن استنتاج هذه الوضعية الأخيرة في مَرْجِع- مُتَّفَق على أنه في مَصْدر بُنْدقيّ (من البُندقيّة) وبالتالي فهو رُبَّما مُعادٍ ـ تتعلَّق بفُنْدُق (فُنْداكو) البيشانيين (أهل بيزا) بِصُور "كانوا قد اشْتَرَوْه من المَلِك"[77].

وقد كانت الجاليات التجارية الغربية من البُندقيّة وجَنَوة وبيشة تتمتَّع بسُلطة كبيرة في الإمارات الصليبية أكثر مِمّا كان لها في المَناطق الأُخرى حديثة العَهْد بالمسيحية وبالتالي كانت مطالبُها ومُكافآتُها أكثر ممّا هي في أيّ جِهَة أُخرى. فقد كانت السُّفُن الإيطالية شِرياناً حَيويّاً تُوفِّر المَؤُونة والتِّجارة والدعم البحري للمُلُوك الصليبيين وبالمقابل كان هؤلاء يُكافئون تلك الجهود بِمِنَح غير مَسْبُوقة من الأراضي والامتيازات التِّجارية. وبقدر ما كانت الجاليات التجاريّة الغربية تحصل على المباني والمُجَمَّعات العُمْرانية التي تُسَمَّى فَنادق في عَكّا وأنطاكية وبيروت ويافا واللاذقية، فإنّ بعضها كان يُكافأ بأحْياءٍ كاملة داخل المُدُن (مثل ثُلث المدينة) بما في ذلك الدُّور والكَنائس والحَمّامات والمخازن والدكاكين والساحات والشوارع وغيرها من المَرافق الأُخرى[78]. وكما هو الشأن في جهاتٍ أُخرى أصبح الفُنْداكو بصورة مُبَكِّرة من الثوابت ضمن مجموع التنازُلات مثلما يبدو ذلك من خلال وعد فيليب أوغست للجَنَويين سنة 1190م الذي لم يتحقّق قطّ، وهو يتمثَّل في كنيسة وفُنْداكو وفُرْن وحمّام وشارع في أيّ مدينة إسلامية يُساعد الجَنَويون في الاستيلاء عليها لفائدة المَلِك الفرنسي[79].

---

(77) Tafel and Thomas (eds.) *Urkunden*, II, 385.

(78) هناك جُمْلة من العهود والمعاهدات التي تتضمَّن ما حصلت عليه المُدُن- الدول الإيطالية من امتيازات في J.L.La Monte, *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100-1291* (Cambridge, MA: Medieval Academy of Amarica, 1932) 261-275.

انظر كذلك: Robert Kool, "The Genoese Quarter in Thirteenth-century Acre: A reinterpretation of its Layout," *Atiqot 31* (1997) 189-200.

فيما يتعلّق بإطار النشاط الإيطالي في الإمارات الصليبية، انظر:

Marie- Louise Favreau -Lilie, *Die Italiener im Heiligen Land: vom ersten Kreuzzug bis zum Tode Heinrichs von Champagne* (1098-1197) (Amsterdam: Hakkert, 1989).

(79) (Philip Augustus), *Recueil des actes de Phillippe Auguste roi de France*, ed. F. =Delaborde (Paris: Imprimerie Nationale, 1916) I, 448;

لقد كان التجار الغربيون تَوّاقين للحصول على هذه الامتيازات مادامت التطوّرات السياسية والاقتصادية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر قد زادت في نشاط الأسواق وقيمتها في الشام وفلسطين. فقد كانت المواد الثمينة مثل التوابل والحرير تصل بَرّاً إلى موانئ شرق المتوسّط عبر الشام والعراق والخليج العربي وكذلك المواد المحلّية مثل السُّكّر والقُطْن والكَتّان. قد أدّى وصول المَغُول في القرن الثالث عشر إلى اضطراب اقتصاديّ في المنطقة لكنّ التوسُّع اللاحق لإمبراطوريتهم وحلول السِّلْم المَغْولي Pax mongolica حَسَّنا العلاقات البَرّية ما بين الشام والشرق ـ على حساب المُبادلات في مصر والبَحْر الأحمر.

فقد كان التجار الغربيون عادةً مَقْصِيِّين من الأسواق الداخلية في مصر وشمال إفريقيا حيث كانت التِّجارة الداخلية بين يدي مجموعات التجار المَحلّيين. إلّا أنّه يبدو أنّ الأوروبيّين كانوا يعيشون حَرَكِيّة أكبر في بلاد الشام، فلم يَعُدْ نشاطُهم يقتصر على المُدُن الصليبية فقط مثل عكّا وأنطاكية بل أصبح يصل تدريجاً إلى الأسواق الداخلية مثل دِمَشق وحَلَب. فقد لاحظ ابن جُبَيْر "أنه من أعجب ما يُحدَّثُ به أن نيران الفِتْنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونَصارى. . . ورفاق المسلمين والنَّصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم. . . واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير مُنْقَطِع. واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكّا كذلك. وتجار النَّصارى أيضاً لا يُمْنَع أحدٌ منهم ولا يُعْتَرض"[80].

كثيراً ما كان يُفْتَرض أنّ نُفُوذ الجاليات التجارية الغربية ونجاحها في الشرق اللاتينيّ سَمَحا لها بالسيطرة على الحياة الاقتصادية في المُدُن الصليبية كما سَمَحا لها بالمُطالبة بما أرادت من الامتيازات وكثيراً ما كان ذلك يتمّ على حساب

= انظر كذلك: Liber iurium Reipublicae Genuensis, I, clos. 355-356 (doc.362). إن هذه الهِبة المُسبقة لهذه الامتيازات الخاصّة تشبه شبهاً كبيراً الوعود التي منحها ألفونس السابع ملك قشتالة إلى الجنويين سنة 1146م مقابل مساعدتهم على الاستيلاء على ألْمَرِيّة والوعود التي قدمها فريدريك الأوّل لجنوة سنة 1162م على مساعدتهم في صقلية.

(80) ابن جُبَيْر، الرِّحْلة، ص287، الترجمة الإنكليزية، ص300-301. Ibn Jubyr, *Riḥla*, 287; *Travels of Ibn Jubayr*, 300-301. إن ما تورده المصادر المعاصرة حول الفظائع والمذابح يجعل ملاحظات ابن جُبَيْر ملاحظات خاصّة وليست عامّة.

المداخيل المَلَكِيّة. من الأكيد أنّ الفَنادق "الوطنية" التي مُنِحَت للتُّجّار الغربيين في عكّا وغيرها من المُدُن الصليبية كانت مَحلّ تقييد أقل بكثير ممّا تتعرّض له الفَنادق في الموانئ الإسلامية كما تبدو أكثر نجاحاً وأكثر استقلالية من الفَنادق في إسبانيا وصِقِلّية المسيحيتين. ومع ذلك لم تتمكّن الفَنادق الإيطالية من الاستئثار بكلّ العائدات التّجارية دون الخَزينة المَلَكِيّة. فقد كانت الفُنْدى المَلَكِيّة تجمع ما لها من الضرائب وتتعايش في وفاق مع الفَنادق الغربية. كان الحُكّام اللاتين يُذْرِكون جَيِّداً فوائد ـ وفي الحقيقة، ضَرُورة ـ المُحافظة على التجار الغربيين في الأسواق الصليبية، ولكنّهم لم يكونوا غافِلين بأيّ حال من الأحوال عن فُرْصَتهم في تحقيق الأرباح.

لقد كانت العلاقات بين مُختلف الفضاءات التجارية مُعَقَّدة، ولكنّها لم تكن فوضوية. ومع ذلك فإنَّ أيَّ مُحاولة لتبيُّن نَمُوذَج مُنْتظِم كان يَعُوقها تَكَرُّر الكيفية التي تُنْجِز بها كلّ جالية على حِدة صَفَقاتها مع السُّلطة المَلَكِيّة للحصول على إعفاءات جِبائية وعلى حُقُوق تجارية وغير ذلك من الامتيازات. وكما كان الأمر في الأراضي التي تمّ الاستيلاء عليها في جِهات أُخرى، قام الحُكّام المسيحيون الوافدون على الشرق اللاتينيّ بجُهُود من أجل أَقْلَمة المُؤسّسات المحلّية مع نماذجهم الإدارية التي تَصَوَّروها بصورة مُسبَّقة وحاولوا الحِفاظ على مداخيل العَرْش المَلَكي بينما كانوا في الوقت نفسه يحاولون استرضاء الطلبات التي تأتيهم من كلّ جِهَة للحصول على مِنَح وامتيازات خاصّة. وقد كانت النتيجة عَمَليّةً حتى وإن لم تكن لائقة.

تُشير المعلومات المُتَوفّرة من عكّا في القرن الثالث عشر وغيرها من المُدُن الصليبية أنّ كلّاً من المنشآت المَلَكِيّة والأجنبية استفادت من مداخيل التّجارة ومن نشاط التجار[81]. ففي بدايات 1240م كانت محاصيل العَرْش تساوي 50000 ليرة فضّية في السَّنة وهو مبلغ مُتَعدِّد المصادر فيه الضرائب الجُمْركية والأكْرِية ومداخيل اللّزْمة وكذلك مَداخيل الفُنْدى المَلَكِيّة بعكّا[82].

(81) لقد دافع جوشوا براور على أن الفَنادق "الوطنية" في عَكّا كانت سابقة للفُنْدى المَلَكِيّة (Prawer, Crusaders' Kingdom, 412)، ولكن يبدو أن كليهما هام في مُحيطه الخاص.

(82) Riley- Smith, "Government in Latin Syria,"109.

وكانت المداخيل المُتأتّية من هذه الأخيرة كافية للحُكّام ليدفعوا منها رواتب وامتيازات لتابعيهم ولأقرباء المُلُوك، وغيرهم من المُستفيدين[83]. ففي نيسان/أبريل 1229م، مثلاً، مَنَح فريدريك الثاني 3000 بيزون «*bezants*» سَنَويّاً من دخل الفُنْدى المَلَكِيّة بعكّا مقابل مُلْكية أُخرى[84]. وبالمُقارنة يصل دخل البُندقيّة سنويّاً من أكْرِية عقارات بعكّا سَنة 1224م (دون احتساب المَداخيل الأُخرى) حوالى 3500 بيزون «*bezants*» بالإضافة إلى مَبْلغ أقلّ من 200 بيزون «*bezants*» في الشهر مقابل كِراء البيوت في الفُنْداكو وفي مَقرّات سَكَنية أُخرى خلال موسم الإبحار[85].

أنطاكية

مثلما حدث في قشتالة وفي مملكة الأراغون حَصَل التجار الغربيون على امتيازات في المُدُن الصليبية بعد فترة وجيزة من الاستيلاء عليها. ويبدو أنّ أوّلها كان الفُنْداكو الجَنَوي في أنطاكية الذي مَنَحه بوهمند الطارنتي للجَنَويين سنة 1098م، ولكن كان للجَنَويين والبَنادقة أيضاً أحياء في عكّا بعد سُقُوط المدينة

(83) R. Röhricht, *Regesta regeni Hierosolymitani* (Oeniponti: Libr. Acad. Wagneriana, 1904; repr. New York: Burt Franklin, 1962) I, 122 (no.465), 161 (no. 628), 157 (no. 657), 261 (no. 989).

لقد كانت المداخيل من الفُنْدى المَلَكِيّة ومن الكاتينا في عَكّا، مضمونة في بعض الحالات للمُدُن الإيطالية مثلما هو الشأن بالنسبة إلى بيشة سنة 1188م (المرجع نفسه، ص180، رقم 670)، وفي حالات أُخرى كانت المداخيل تذهب إلى التنظيمات الدينية العسكرية. فمثلاً في سنة 1205، فرض بوهمند الرابع للإسبتارية 500 بيزون [bezants] تؤخذ سنويّاً من فُنْدى توجد باللاذقية و316 بيزون أُخرى من فُنْدى طرابلس سنة 1231م. (Cartulaire générale, II, 48 (doc. 1215), II, 428-429 (doc. 2002)).

(84) (Frederick II), *Historia diplomatica*, III, 117-131.

انظر كذلك Röhricht, *Regesta*, I, 263 (no.1002), 264, (no.1004 and 1008), 265, (no.1012). المبلغ الإجمالي 6400، مع 3200 متأتية من الكاتينا المَلَكِيّة و3000 أُخرى من الفُنْدى، والمائتان الباقيتان قد تكونان حذفتا خطأ. ويواصل النصّ بحذر تعداد الموارد والحسابات لتغطية الحدث باعتبار أن الفُنْدى والكاتينا كانا يحصلان على مداخيل غير كافية في سنة معيَّنة.

(85) Tafel and Thomas (eds.) *Urkunden*, II, 390-397.

بقليل سنة 1104م[86]. وما يجدر ذِكْره هو أنّ الفُنْداكو الجَنَوي في أنطاكية كان أوَّل فُنْداكو من نوعه يعود إلى نصف قرن قبل أن تُسَجَّل، لأوَّل مَرّة، فَنادق للتُّجّار المسيحيين في إسبانيا (سنة 1146م) وفي مصر الفاطمية (سنة 1154م) أو تونس (ربّما حوالى سنة 1157م). ويُعتبر من هذه الناحية أمراً ذا معنى أن يكون بوهمند، على خلاف أغلب زُعماء الحملة الصليبية الأُولى، مُتَعَوِّداً على مُؤسّسة الفُنْدُق/الفُنْداكو من خلال عيشه في صِقِلِّية النورمانية، التي كانت قد غُزِيَت مؤخَّراً، وفي جنوب إيطاليا.

إنّ الشكل واللغة اللذين يُميِّزان نصّ الامتياز الذي بمُقتضاه أعطى بوهمند كَنيسةً وفُنْداكو وبئراً ومنازلَ وساحة للجَنَويين، يُشبه الامتيازات التي ستقع فيما بَعْد[87]. لم يكن العدد الضَّخم من المُنشآت في أنطاكية مُطابقاً للمُنشآت التي مُنِحَت في مناطق أُخرى (ينقصها الحَمّام والفُرْن) إلّا أنّ الصِّيغة المألوفة تُفيد بأنها كانت من أُولى المُنشآت التي ستصبح فيما بعد من الثوابت في ما يُمْنَح مع الفُنْداكو سواء في المُحيط الإسلاميّ أو المُحيط المسيحي. ولكن إضافة ثلاثين مَنْزلاً إلى المِنْحة تعني أنه لم يكن هناك سَكَن إجباريّ في هذا الفُنْداكو كما هو الحال في المُدُن الإسلامية.

يبدو مستحيلاً تحديد نَمُوذَج هذه الأمثلة المُبَكِّرة للفَنادق التي مُنِحَت للجاليات التجارية الإيطالية من خلال الوثائق المُتَوفِّرة. قد يكون بوهمند متأثّراً بالأمثلة الصِّقِلِّية أو ربّما كان الجَنَويون قد طلبوا امتيازات مُماثلة لما كانوا يتمتّعون به في جِهات أُخرى رُبَّما في صِقِلِّية أو إسبانيا وربّما في أنطاكية ذاتها. ولربّما اقْتُبِس هذا الفُنْداكو مباشرة من مُنْشأة إسلامية كانت تشتغل في المدينة. فبعد سنة 1140م بقليل حيث كان على رايمون دي بواتيه «Raymond de Poitiers» أن يَمْنح مَبْنًى آخر في أنطاكية لفائدة دَيْر مع الإشارة الصريحة إلى ما كان عليه في السابق إذ كان يُطْلَق عليه باللُّغة العربية اسم "فُنَيْدِق"[88]. إنه مثير

(86) Slessarev, "*Ecclesiae Mercatorum* " 192; D. Jacoby, "Crussader Acre in the Thirteenth Century: Urban Layout and Topography, "*Studi Medievali* 3rd series, 20 (1979) 26, 30.

(87) Imperiale di Saint' Angelo (ed.), *Codice diplomatico*, I, 11-12 (doc. 7).

(88) فُنَيْدِق هو تصغير لفُنْدُق في اللُّغة العربية. Röhricht, *Regesta*, I, 48, (no.195).

للاهتمام أن نَذْكُر أنّ هذه الفَنادق الأولى ظَهَرت في المنطقة نفسها بالضبط التي كانت تُوجد بها البَنْدوكيونات في الفترة القديمة المُتأخّرة وفي المنطقة نفسها التي تبنّاها العرب.

لقد تمّ تأكيد الامتيازات الجَنَوية سنة 1127م من قِبَل بوهمند الثاني الذي مَدَّد لهم في الوقت نفسه الحُقُوق في فُنْداكو آخر وشارع في ميناء اللاذقية[89]. في سنة 1140م حصلت البُندقيّة على الامتيازات نفسها في منازل وفُنْداكو في أنطاكية وظلّت هذه الامتيازات تَتَجَدَّد مع ضمان حقّ البنادقة في محاكم خاصّة بهم في المدينة طوال أواخر القرن الثاني عشر[90].

عكّــا

على الرغم من أنّ عكّا كانت سُوقاً هامّاً خاصّة بالنسبة إلى التّجارة العابرة للأناضول، فإن التجار الغربيين كانوا شديدي الرَّغبة في الحصول على امتيازات في عكّا، أهمّ الموانئ التجارية في المملكة اللاتينية. ورغم أن ميناء عكّا لم يكن عميقاً بما فيه الكفاية ليستقبل السُّفُن الكبيرة، فإنّه كان أفضل من كلّ الموانئ جنوباً (بما في ذلك يافا الميناء الأوّل بالنسبة إلى القُدْس) كما كان يحتلّ مَوْقعاً مُتَمَيِّزاً يخدم عاصمة المَمَلكة ووسط المملكة الصَليبية. لم يُرَكِّز الإيطاليون قطّ مواقع لهم في القُدْس ذاتها ولا في أيّ مدينة صَلِيبية في الداخل. ونظراً لأهمّيتها الاستراتيجية فقد كانت المنطقة المُحيطة بعكّا (وكذلك مُحيط ميناء صُور من الجِهَة الشمالية) تحت السُّلطة المَلَكِيّة مباشرة، كما كانت الأراضي المُحيطة بالقُدْس في حين كانت جِهات أُخرى من المَمْلكة اللاتينية قد مُنِحَت إقطاعيات. كما أنّ الامتيازات التي مُنِحَت للتُّجّار الإيطاليين كانت قد تَمَّت بأمر مَلَكِي. لقد سَقَطَت عكّا في أيدي المسيحيين سنة 1104م ثم أصْبَحت المركز السياسي

---

(89) Imperiale di Sant' Angelo (ed.) *Codice diplomatico*, I, 57 (doc. 47).
قد تمّ تجديد هذا الامتياز سنة 1169م (II, 102 (doc. 49)). من الممكن أنه قد تمّ تحويل الفَنادق الإسلامية في اللاذقية كما في أنطاكية وغيرها من المُدُن الأُخرى، إلى ممتلكات مسيحية متنوّعة. مثلاً، هناك منحة منحها بوهمند الثالث إلى الكنيسة وهي عبارة عن مَبْنًى في اللاذقية حيث، في الواقع، كان يسمّى فُنْدا funda قديماً، (Röhricht, *Regesta*, II, 42 (no. 642 a)).

(90) Tafel and Thomas (eds.) *Urkunden*, I, 102-103, 134, 149, 176.

للمَمْلكة الصليبية بعد استرجاع صلاح الدين للقُدْس سنة 1187م. ورغم أنّ عكّا رَجَعت للمسلمين لفترة وَجيزة في السنة نفسها، فقد استرجعها كونراد دي مونفرا «Conrad de Montferrat» أثناء الحملة الصليبية الثالثة سنة 1190م وبقيت مسيحية قرناً من الزَّمَن إلى سنة 1291م، وقد كانت من آخر الأراضي الصليبية التي سَيْطر عليها الجيش المَمْلوكيّ. تُبيِّن خريطةٌ لمدينة عكّا تعود إلى بداية القرن الرابع عشر تخطيطَ المدينة حوالى سنة 1285م وقد رُسِمَت فيه العديد من الأحياء المُعَدّة للأجانب والفَنادق المُنتظمة في شكل نصف دائري حول الميناء[91].

كان التجار الغربيون في عكّا يعيشون إمّا في منازلهم الخاصّة وإمّا في بيوت يُؤَجِّرونها داخل فُنْدُق الجالية إذا كانت إقامتهم في المدينة قصيرة. ويُبيِّن تَكَرُّر توفير المنازل للجَنَويين والبنادقة وغيرهم أنّ أغلب التجار المُقيمين يفضّلون السَّكَن خارج الفُنْداكو وكان مَسْمُوحاً لهم بذلك[92]. لم تكن الوثائق المَلَكِيّة العديدة التي تمنح بمقتضاها تنازُلات للجاليات التجارية المسيحية تَذْكر الفُنْداكو ولكنّها تَذْكُر عِوَضاً عن ذلك المنازل وغيرها من المُنْشآت الأُخرى. وبالنسبة إلى الجاليات التي كان لها فُنْداكو يبدو أنّ ذلك كان يُستعمل عادة كمقرّ للقنصلية وكذلك يُؤَجّر لِسَكَن التجار العابرين خلال موسم التِّجارة أو مَحلاً لِخَزْن البضائع والبَيْع وغير ذلك من المعاملات.

فقد كانت كلّ مُسْتَعمرة تجارية أوروبية في عكّا وغيرها من المُدُن الصليبية تحت سُلطة قُنْصُل أو كما هو الشأن بالنسبة إلى البنادقة بايبل «*baille*»، له الصّلاحيات القضائية على كلّ أعضاء الجالية ويراقب السَّيْر المالي للفُنْداكو ويُعَيِّن الإداريين. يبدو كثير من مُهِمّات القَناصل الإيطاليين في المُدُن الصليبية ـ على الأقلّ نظريّاً ـ مُخْتَلِفاً عن واجبات نُظَرائهم في المَوانئ الإسلامية. فالقناصل ومُمَثّلو البُندقيّة في عكّا وكذلك قُنْصل البيشانيين في عَكّا وكامل سوريا

(91) تبين هذه الخريطة توجُّهاً بُنْدقيّاً واضحاً، ينعكس في الأحجام المتناسبة للمباني المختلفة والمعالم. وقد تمّ التعرّف إلى مَبْنًى ذي حجم كبير في حيّ البنادقة على أنه فُنْداكو البنادقة. ورغم أنّ المجمّعات الأجنبية كانت تقع قريباً من الميناء، إلا أنّه لم يكن لها منفذ مباشر إليه (Jacoby, "Crusader Acre," 2, 6, 30).

(92) قَدَّر براور [Prawer] عدد التُّجّار الأجانب المقيمين في ذلك الوقت على أنه لم يكن مرتفعاً وربّما لا يتجاوز بضع مئات بالنسبة إلى كلّ جالية (*Crusaders' Kingdom*, 92-93).

في أواخر القرن الثاني عشر كانت لهم عادةً سُلُطات واسعة لمُراقبة القناصل الذين هم أقلّ منهم شأناً والمُسْتعمرات الموجودة في الشرق[93].

كان للفَنادق في عكّا كذلك مُوَظّفون آخرون ولكن هذه المجموعة من الناس لم تكن تُكَوّن مجموعة مُنْغَلِقة أو مُتلاحمة كما كانت في الفَنادق الغربية بالمُدُن الإسلامية. فعلى العكس من ذلك كان التجار والمُوَظّفون أحراراً في التنقُّل داخل المدينة وفي السَّكَن حيثما شاءوا. ففي سنة 1244م، كان يسكن في فُنْداكو البنادقة بعكّا كثيرٌ من المُوَظّفين بما في ذلك مُمَثّل القصر «*Plazarius*» يوهانس غاستالديو «Johannes Gastaldio» الذي نال غُرْفته الصغيرة كجزء من راتبه مع بعض النُّقُود ومِنْحَة لِباس. وهناك غُرفة أُخرى يسكنها رَجُل دِين قد يكون قِسّيساً للبنادقة. وربّما كانت واجباته مَحْدُودة قياساً بواجبات القَسّ تيالدوس «Tealdus» في فُنْداكو الجَنَويين بتُونس بما أنه لم يكن عَدُد رِجال الدين مَحْدُوداً في عكّا[94]. وكما هو الشأن في الفَنادق الموجودة في جِهات أُخرى كان الكُتّاب العُدُول يواصلون نشاطهم في مَبْنَى الفُنْداكو يُسَجّلون عُقُود البيع والشراكة بين المُتعاقدين وكلّ ما من شأنه أن يحدث من مُعاملات داخل الفُنْداكو.

وقد كان البنادقة هم أوّل من حصل على حُقُوق في عكّا بعد ستّ سنوات من الاستيلاء على المدينة. وتمّ توسيع هذه الحُقُوق سنة 1223م بمُقْتَضَى اتفاقية ورمونـدي «*Pactum Warmundi*» التي مَنَحَتْهم الإعفاء الجِبائي والامتيازات القَضائية ومُمْتلكات في صُور (ثُلث المدينة) وعكّا وحقّ استعمال الحمّامات والأفران والكنائس والشوارع والساحات والمطاحن في تلك المُدُن، وحقّ استعمال مكاييلهم وموازينهم لبَيْع الخَمْر والزَّيْت والعَسَل بين أفراد الجالية البُندقيّة. إن امتياز استعمال موازينهم ومكاييلهم يخصّ البَيْع فيما بينهم داخل

(93) Prawer, *Crusaders' Kingdom*, 89; D. Jacoby, "L'Expansion occidentale dans le Levant: les Vénitiens à Acre dans la seconde moitié du treizième siècle,"*Journal of Medieval History 3* (1977) 231-233; Otten-Froux, "Les Pisans en Egypte et à Acre," 165.

(94) Tafel and Thomas (eds.) *Urkunden*, II, 392.
كان هناك قَسّ آخر يسكن في بيت مجاور للفُنْداكو (ص393).

الحيّ الخاصّ بهم، وكلّ العمليّات التجارية التي تقع خارج حيّ الجالية تتمّ باستعمال المكاييل والموازين المَلَكِيّة وتَدْفع ضريبة للفُنْدى المَلَكِيّة[95]. وعلى الرغم من إضافة بعض التضييقات فقد أعاد بلدوين الثاني تأكيد امتيازات سنة 1125م وأصبحت اتفاقية ورموندي النموذج الثابت الذي اعتمده البنادقة وغيرهم من التجار الإيطاليين فيما بعد للتفاوُض في الشرق اللاتينيّ[96].

كان للجَنَويين والبيشانيين وغيرهم من الجاليات التجارية الغربية الأُخرى كذلك مُمْتلكات في عكّا في القرن الثاني عشر رُغْم أنّ ذلك أقلّ إثباتاً مثلما هو الشأن بالنسبة إلى مُمْتلكات البنادقة[97]. قد حصل الجَنَويّون بعد الاستيلاء على عكّا بقليل على الحقّ في أحد أحياء المدينة من قِبلَ بلدوين الأوّل، اعترافاً لهم بمُساعدتهم البَحْرية له في أخذ المدينة ولكن دون أن يُنصّ بصورة خاصّة على فُنْداكو للجَنَويين. وكذلك في آخر القرن لمّا أعاد كونراد دي مونفرا تأكيد امتيازات الجَنَويين في عكّا سنة 1192م (هذه المرة لشُكْرهم على المُساعدة في استعادة المدينة من أيدي الأيّوبيّين خلال الحَمْلة الصليبية الثالثة)، وتتضمّن هذه الامتيازات حقّ "البيع والشراء داخل الفُنْداكو المَلَكي والكاتينا" فقط[98]. وعلى عكس ذلك، حصل البِيشانيون على عُقُود سنوات 1168، 1182 و1187م وقد

---

(95) Tafel and Thomas (eds.) *Urkunden*, I, 84-89؛ قد وصف هذا الامتياز أيضاً وليم الصُّوري [William of Tyre]، *A History of Deeds Done beyond The Sea*, trans. Emily Atwater Babcock (New York: Colombia Univercity Press, 1943) I, 553-555.

(96) Tafel and Thomas (eds.) *Urkunden*, I, 90-91; J. Prawer, "Iveneziani e le colonie venezane nel regno latino di Gerusalemme," in *Venezia e il Levante fino al secolo XV*, ed. Agostino Pertusi (Florence: Leo S. Olschki Editore, 1973) I. 2, 637; Jacoby, "L'Expansion occidentale," 226.

(97) كان لتُجّار مرسيليا كذلك امتيازات في مدينة عَكّا، بينما كانت التجمُّعات التِّجارية الأصغر تمارس نشاطها تحت رعاية الجاليات الكبيرة، انظر:

Hans E. Mayer, *Marseilles Levantehandel und ein akkonensishes Fälscheratelier des 13. Jahrhunderts* (Tübingen: Max Niemeyer Verlag, 1972) 176, 178, 215, etc. Abulafia, "Levant Trade"

(98) *Liber iurium Reipublicae Genuensis*, I, (no.401) cols. 400-401 . يشكّ رايلي سميث في وجود فُنْداكو في ذاته للجنويين بعَكّا ("Government in Latin Syria," 119). وبالمقابل هناك منحة بصُور سنة 1190م تذكر بخاصة فُنْداكو خاصّاً بهم (انظر أسفله).

مُنجوا بمُقْتضى العَقْدين الأخيرين فَنادق وحَمّامات ومطاحن ومنازل وبصورة واضحة فُنْداكو خاصّاً بهم(99).

أصبحت كلّ من الفَنادق المَلَكِيّة وفَنادق الجاليات التّجارية أكثر بُرُوزاً في مدينة عكّا في القرن الثالث عشر، كما أصبحت المدينة تتمتّع بأهمّية كُبْرى على إثر سُقُوط القُدس سنة 1187م. كما يبدو أيضاً أن تَصَوُّر الفُنْداكو نفسه أصبح أكثر تَمَأْسُساً بعد قرن من التَّطَوُّر في ظلّ المُراقبة المسيحية في الشرق اللاتينيّ وفي إسبانيا وصِقِلّية. من المُؤكّد أنّ فريدريك الثاني عندما أصبح وَصِيّاً على الأراضي المُقَدَّسة سنة 1228م باسم وَلَده بعد وفاة زوجته يولندا «Yolanda» مَلِكة القُدْس، قد يكون سَعَى لإرساء نظام الفُنْداكو الصليبي وقد يكون جَلَبَ معه تَصَوُّراً إدارياً صِقِلّياً للمُؤَسّسة إضافة للنَّمُوذج الشرق متوسّطي.

تعطي القائمة الطويلة من المداخيل المُتأتّية من الفُنْداكو وغيره من مُمْتلكات البنادقة في عكّا التي تمّ وضعها لفائدة البايل مرسيليو زيورزي «Marsiglio Ziorzi» سنة 1244م، تفاصيل حول الحَجْم والتخطيط والأرباح. ويتبيَّن من ذلك أنّ الفُنْداكو هو جُمْلة من المباني التي تحتوي على العديد من المَنازل المُختلفة والبُيُوت والغُرَف والإسطبلات والمخازن(100). وقد تكون كذلك للبنادقة مُمْتلكات خاصّة في المدينة كما تعبر عن ذلك عُقُود بَيْع العَقارات(101). فقد كان الفُنْداكو ذاته مُلكاً للبنادقة وكان بذلك تحت مَسْؤولية مجلس مدينة البُندقيّة. ففي سنة 1286م، سمح مجلس شيوخ البُنْدقية بشحن اثنين وسبعين طنّاً من الحِجارة المُهْندمة والزِّفت لترميم الفُنْداكو وبعض المباني الأُخرى التي يملكونها بعكّا، مما يشير ليس فقط إلى أنَّ هذه الأملاك كانت تلقى اهتماماً مستمرّاً، ولكن إلى أنّ مجلس المدينة كان مسؤولاً قانونيّاً عن صيانتها وترميمها(102). وقبل ذلك

(99) Müller (ed), *Documenti sulle relazioni toscane* (docs. 23, 31); D. Jacoby, "L'Evolution urbaine et la fonction méditerranéenne d'Acre à l'époque de croisades," in *Città portuali del Mediterraneo, storia e archeologia. Atti del Convegno Internazionale di Genova, 1985*, ed. Ennio Poleggi (Geonoa: Sagep Editrice, 1989) 97.

(100) Tafel and Thomas (eds.) *Urkunden*, II, 389-398.

(101) Jacoby, "L'Expansion occidentale," 229.

(102) Jacoby, "L'Expansion occidentale," 230; Jacoby, "Crussader Acre," 36.

بِعَقْد، سنة 1277م، حصلت البُندقيّة على ترخيص لشراء ـ أو لبناء ـ فُنْدى للمُعامَلات التجارية بمدينة طرابلس الشام(103).

تتعارض هذه الإشارات مع الوَضْع المُعاصِر في المُدُن الإسلامية في القرن الثالث عشر عندما كان الحُكّام الأيّوبيّون، ومن بعدهم المَماليك، المسؤولين الرئيسيّين عن بناء فَنادق البنادقة وغيرها من الفَنادق الغربية والاعتناء بها.

صُوْر ومُدُن أُخرى

ازدهرت فَنادق البنادقة كذلك في مدينة صُوْر في أواخر القرن الثاني عشر. ورغم أنّ اتفاقية ورموندي قد مُنحت للتُّجّار البنادقة امتيازات عديدة في هذه المدينة لم تكن هُناك إشارة خاصّة إلى فُنْداكو في تلك المدينة إلى حُدُود سنة 1175م لمّا عَيَّن الدوج سيباستيانو زياني «Sebastiano Ziani» وكيلاً جديداً للإشراف على حَيّ البنادقة بما في ذلك الحمّامات والأفران والمَوازين وغيرها من المُمْتلكات الأُخرى(104). واصل البنادقة في سنة 1243م التَّمتُّع بكلّ هذه المرافق المُتَمَثِّلة في فُنْدُقين ومنازل وحمّامات وأفران وحدائق وشوارع. وكما هو الشأن في عكّا كانت هذه المُمْتلكات تُوَفِّر دَخْلاً كبيراً لمَجْلس مدينة البُندقيّة(105). وكان الفُنْداكو الأوّل الذي يحتوي على الموازين والمكاييل الخاصّة بالبُندقيّة، هو الفُنْداكو الخاصّ ببَيْع السِّلَع وهو يُوَفِّر دَخْلاً سنويّاً يبلغ 1900 بيزون «*bezants*» والفُنْداكو الثاني يُذْكَر على أنه يحتوي أدوات موسيقية، وهو ما يثير الاستغراب، كان يوفّر 500 بيزون «*bezants*» فقط في السنة(106). كما كان للجاليات الإيطالية الأُخرى منها جَنَوة وبيشة، مُسْتَعمرات في صُور. فقد أعاد كونراد دي مونفرّا تأكيد حُقُوق البيشانيّين في فَنادق خاصّة بهم (مع منازل وأفران وحمّامات) في

---

(103) Emmanuel Guillaume Rey, *Recherches géographiques et historiques sur la domination des Latins en Orient* (Paris: Typ. Lahure, 1877) 49.

(104) Tafel and Thomas (eds.) *Urkunden*, I, 168.

(105) Tafel and Thomas (eds.) *Urkunden*, II, 351-389.

(106) "Cum tubis et zallmellis, vocinis et tamburis et alijs instrumentis ad ludendum": Tafel and Thomas (eds.) *Urkunden*, II, 385.

صُور ويافا وبعد ثلاث سنوات منح الجَنَويين حقّ "البَيْع والشِّراء في فُنْدُقهم" بمدينة صُور[107].

إنّ أهمّية هذه المُدُن الخاصّة والامتيازات التي حصل عليها التجار الغربيون في أسواقها، كانت تعرف تغيّرات هامّة على مَرّ الزمن مع التغيُّرات السياسية والحُرُوب وسَطْوة مجموعات التجار المختلفة، وقد كان النُّبلاء مثل المُلُوك يَسْعَوْن لاستقبال المُعاملات التجارية في مُدُنهم كجُزْء من استراتيجية أوسع من أجل السُّلطة. ففي سنة 1221م، مَثَلاً، مَنَحَ جون الإيبيلي «John of Ibelin» حاكم بيروت، امتيازات شاسعة للتُّجّار البنادقة في بيروت وبعد سَنَتين من ذلك مَنَح كذلك لتجار مرسيليا استعمال أحد الفَنادق في المدينة نفسها[108].

كانت الامتيازات لفائدة البُندقيّة أمرَيْن معاً: لُعبةً للنُّفُوذ الإقليمي لفائدة الإيبيليين واعترافاً بقوة البُنْدقية في المتوسّط الشرقيّ على إثر الحَمْلة الصليبية الرابعة. وقد كانت مِنحة جون تضمّ حقّ البنادقة في بَيْع جميع أنواع البضائع (منها السُّكّر والصُّوف والبَخُور والدُّرّ والصابون ومواد أُخرى) في فُنْدُقهم دون دَفْع ضرائب. وكذلك كان مَسْمُوحاً لهم تصدير السِّلَع من الفُنْداكو دون دفع أيّ أداء. هذه القائمة للسِّلَع الشرقية والمحلية التي تُباع مُعفاةً من الضرائب في فُنْداكو البنادقة ببيروت تختلف عن النِّظام الأكثر تقييداً والذي فرضته مُؤَسّسات الفُنْدق المَلَكِيّة في مُدُن صليبية أُخرى وهو ما قد يُمثّل بالنسبة إلى حاكم بيروت عَرْضاً استراتيجيّاً من أجل الحُصُول على مَزايا التِّجارة. كان استدراج تِجارة البنادقة خارج صُور وعكّا يستحقّ التضحية ببعض مداخيل الضرائب لأنَّ تَزايُد النشاط التجاري في بيروت سيعود بالنَّفْع على خزينة الإيبيليين. لقد أثَّرت التَّفَرُّعات السياسية والاقتصادية للحَمْلة الصليبية الرابعة سَلْباً على ثَروات الجَنَويين. فمع أنَّ

(107) Pisa: Müller (ed), *Documenti sulle relazioni toscane* 26-29 (docs. 23, 24). Genoa: *Liber iurium Reipublicae Genuensis*, I (no. 374) cols. 357-359.

ولكن تشير وثيقة تعود إلى سبتمبر/أيلول 1195 إلى ممارسة الجنويين للبيع والشراء في الكاتينا والفُنْداكو في صُوْر، وهي جُمْلةٌ تشبه الترتيبات التي تمّت في عَكّا سنة 1192م (*Liber iurium Reipublicae Genuensis*, I, (no.410) cols. 411-412).

(108) Tafel and Thomas (eds.) *Urkunden*, II, 233; Mayer, *Marseilles Levantehandel*, 191-192.

المَلِك الأرميني ليفون كان قد منحهم كنائس ومنازل وفَنادق في مُدُن عديدة سنة 1201م، ولكنّه خَفَضَ من عدد هذه الامتيازات واللافت في ذلك أنه حَذَفَ منها الفَنادق سنة 1215م[109].

بالرغم من العدد الهامّ من الوثائق التي تُشير إلى الفَنادق التي يمتلكها المَلِك أو مُنِحَت للمجموعات التجارية الغربية، هناك نسبيّاً عدد قليل من المَعْلُومات التي تتعلّق بأنواع الفَنادق الأُخرى. فبعضها كان واضحاً أنه تحت سُلْطة الأسياد المَحلّيين مثل جون الإيبيلي أو فيليب دي مونفرّا. ففي سنة 1269م، مثلاً، مَنَحَ هذا الأخير مُلْكية في صُور تُوجَد بين "الفُنْدى التي أَمْتَلكه وفُنْدى البيشانيين"[110]. وكما كان الشأن في قَشتالة ومَمالك الأراغون كانت بعض الفَنادق الأُخرى مملوكةً من قِبَل التنظيمات العسكرية أو من قِبَل الكنيسة. وهكذا، فإنَّ مَجْمُوعاً من أعشار (جَمْع عُشْر) ضريبةً لكنيسة في قَلْعة الإسبيتارية في مَرْقَط سنة 1193م" كانت تضمّ مداخيل من الفُنْدا المحلية[111]، نَجِدُ بعد حوالى قرن تقريباً من ذلك مُنْشآتٍ عديدة بين أيدي رِجال الكنيسة. ففي سنة 1263م، مثلاً، تُؤكّد رسالةٌ صادرة عن البابا أوربان الرابع «Urban IV» تبديلَ مُلْكيّة بين أُسقفين تضمّ فُنْداكو وبعض العقارات الأُخرى في مدينة صُور[112]. وكذلك أخذ أُسْقُف أمالفي لَزْمة فُنْداكو تملكه الكَنيسة المطرانية في طرابلس سنة 1267م[113]. ولكن ليس هناك ما يُفِيد بوجود فَنادق يُشْرِف عليها مواطنون عاديون في المُدُن الصليبية. وهذا يُخالف الوضع في إسبانيا وصِقِلّية حيث تفيد الوثائق المَلَكِيّة وسِجلّات التَّقْسِيم والعُقُود بوجود عدد هامّ من الفَنادق التي يمتلكها الخَواصّ، يبدو أنها كانت تُستعمل للسَّكَن، والصناعات الحِرَفية، وبعض المُعاملات المَحدُودة القِيْمة.

---

(109) Imperiale di Sant' Angelo (ed.) *Codice diplomatico*, III, 190 (doc. 75). *Liber iurium Reipublicae Genuensis*, I, (no.514) cols. 574-576).

(110) *Cartulaire général*, III, 202 (doc. 3346).

(111) *Cartulaire général*, I, 595-596 (doc. 941).

(112) (Urban IV), *Les Registres d'Urbain IV (1261-1264)*, ed. Jean Guiraud (Paris: A Fontemoing, 1904) 22-23 (doc. 1019).

(113) Charles Kohler, " Documents inédits concernant l'Orient Latin et les croisades (XIIe-XIVe siècle) " *Revue de l'Orient Latin 7* (1900) 28-32.

ظهرت كذلك اللوجيات التجارية في المُدُن الصليبية ويبدو أنها وُجِدت بالتزامن مع الفَنادق خلال القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر. ففي امتياز صادِر عن بلدوين الرابع مثلاً، ثَمّة مَنْح لمداخيل مُتَأتِّية في الوقت نفسه من فُنْدى في عَسْقَلان ولوجيا في عكّا "حيث كان يُباع فيهما الخُبْز" سنة 1180م[114]. يبدو كذلك أن اللوجيا بدأت تَحِلّ تَدريجياً محلّ الفُنْداكو في كثير من الجِهات الأُخرى في بداية القرن الرابع عشر إلّا أنّ التَّحَوُّل النهائي من الفُنْداكو إلى اللوجيا لم يكن ليحصل قَطّ في الشرق اللاتينيّ لأن آخر المراكز الخاضعة للمسيحيين قد استعاده المماليك سنة 1291م.

لم يكن اختلاف اللوجيا عن الفُنْداكو واضحاً في مصادر القرن الثالث عشر. فمثلاً هناك لوجيا مَعْدُودة كجُزء من فُنْداكو البَنادقة سنة 1244م، وفي وثيقة مُحَرَّرة "تحت لوجيا البنادقة" sub logia Venetorum بعكّا سنة 1277م وهو ما يعني ربّما أن الكاتب العدل كان يُحَبِّذ أن يكتب في الظِّل"[115]. غير أنّ قائمة تتضمّن مُمْتلكات البنادقة وامتيازاتهم في صُور مؤرّخة هي أيضاً سنة 1277م تَذْكُر تخصيصاً امتلاك لوجيا (وليس فُنْداكو) مع كنيسة وبُرْج لقَرْع النواقيس وحُقُوق في الحصول على أداءات وتِجارة آمنة، وحرية قضائية وتنازُلات أُخرى[116]. والشيء نفسه نجده سنة 1249م في جَرْد للعقارات الجَنَوية في عكّا يحتوي على منازل وحَمّام وطاحونة وفُرْن ودكاكين ومخازن وحدائق وكذلك "قصر لوجيا جماعية"، ولكن ليس هناك ذكر للفُنْداكو[117]. ففي كلتا الحالتين يدلّ هذا الارتباط بين اللوجيا والبلدية نفسها على وُجُود قُدْرة رسمية وتمثيلية على غِرار الفُنْداكو السابق.

---

(114) Röhricht, *Regesta*, II, 37, (no.591).

لقد استبدل الإسبتارية في عَكّا سنة 1149م حقوقهم في الحمّام بحقوقهم في لوجيا توجد بعد كنيسة تخصّ تنظيمهم. ويبدو أن ذلك إشارة إلى مبنى من نوع معيّن وليس إلى تبادل تجاري.

(D. Jacoby, "Les Communes italiennes et les ordres militaires à Acre: aspects juridiques, territoriaux et militaires (1104-1187, 1191-1291), " in *Etat et colonisation au moyen âge et à la Renaissance*, ed. Michel Balard [Lyon: La Manufacture, 1989] 200).

(115) Tafel and Thomas (eds.) *Urkunden*, II, 392; Röhricht, *Regesta*, II, 97,(no.1413c).

(116) Röhricht, *Regesta*, I, 366-367,(no.1413).

(117) Röhricht, *Regesta*, I, 310, (no.1182); Kool, " Genoese Quarter, " 199.

وفي الطرف الآخر من المُتوسِّط كذلك كان الجَنَويون يَسْعَوْن سنة 1249م للحُصُول من فرديناند الثالث على هُنْدِقا بلدية ومنازل وكنيسة وفُرْن في إشبيلية. ولذلك يبدو في ذلك التاريخ أنّ الكلمتين مُترادفتان رُغْمَ أنهما ستتطوَّران مُنْفصلتين طوال نصف القرن القادم.

كانت الانتصارات المَمْلوكية في أواخر القرن الثالث عشر على المَغُول وبقايا اللاتين إيذاناً بنظام سياسي وتجاري جديد في الشرق الأوسط مثلما كانت استعادة البيزنطيّين لسُلطتهم سنة 1261م. فقد تغيَّرت المَسالك التجارية في مصر والشام إلى جانب تَغَيُّر السياسات المُنَظِّمة للمُنشآت الخاصّة بالتجار وغيرهم من المُسافرين. قد تكون المَباني التي كانت تحتضن الفُنْداكو واصلت نشاطها بعد سُقُوط عكّا سنة 1291م، إذ هناك أدلّة أثرية وأدبية على تطوّرها إلى خانات إسلامية غادَرَها ساكنوها من التجار الغربيين منذ وقت طويل[118]. ولكن في نهاية المطاف سيعود التجار الإيطاليون لإنشاء فَنادق جديدة ستكون تحت رقابة المُوَظّفين المَماليك المُشَدَّدة ليس في بيروت والمُدُن المينائية الأُخرى فقط، ولكن كذلك في دمشق وحلب.

وقد تَرَكَ وُجودُ الفَنادق المسيحية (الفُنْداكو) في الإمارات الصليبية وفي غيرها من مناطق الشرق الأوسط، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، أَثَرَهُ على الحياة التّجارية الإسلامية في أواخر العصر الوسيط. وكما ستتمُّ في الفصل التالي مُناقشة ذلك، فإن دَوْر الفُنْدُق والفُنْداكو والخان تَحَوَّل وتَرَسَّخ في العهد المَمْلوكيّ نتيجة للتغيُّرات في المناخ الاقتصادي والسياسي في العالم المتوسّطي. فقد كان المُلُوك والمُوَظّفون سواء من المسيحيين أو المسلمين سريعين في

(118) لقد كان خان الإفْرَنْج المملوكي في عَكّا موجوداً على أنقاض فُنْداكو البنادقة ويعود جزء من المبنى إلى العهد الصليبي. ويفيد اسمه العربي (إفْرَنج، معناه فَرَنكي Frankish) بأصله الأوروبي. وقد ارتبط فُنْداكو البيشانيين في عَكّا بخان الشُّونة وقد كان خان العُمْدان المتأخر قائماً على موقع محكمة السلسلة.

(Jacoby, Crusader Acre, 32, 24; A. J. Boas, *Crusader Archaeology. The Material Culture of the Latin East* (London: Routledge, 1999) 36; P. Pierotti, *Pisa e Accon. L'Insediamento pisano nella città corciata. Il porto. Il fondaco* (Pisa: Pacini Editore, 1987).

التَّحَكُّم في الفضاء التجاري كلّما كان مفيداً لبرامجهم السياسية أو طُمُوحاتهم الاقتصادية. ففي سنة 1300م مع تغيُّر ميزان القِوَى في العالم المتوسّطي أصبحت الدوائر التجارية مُتمايزة جغرافيّاً. ففي الوقت الذي كان فيه التجار الأوروبيّون يسيطرون على النشاط البحري كان المسلمون حُكّاماً وتجاراً يتحكّمون في المَسالك البَرِّية التي تربط موانئ شمال إفريقيا والشرق الأوسط بالمصادر البعيدة للسِّلع الثمينة. واستجابة لذلك، كانت المُنْشآت التجارية في هذه المُدُن المَوانئ، بما في ذلك الفَنادق (فنداكو)، متزايدة التنظيم وأصبحت أكثر أهمّية باعتبارها نُقْطة اللقاء بين مُحِيطَيْن دِينيَّيْن، وسياسيَّيْن، واقتصادِيَّيْن.

الفصل السابع

تغيّر أشكال الفضاء التجاري الإسلاميّ
في أواخر العصر الوسيط

واصلت المُؤَسّسات التجارية الإسلامية التي تَبَلْورت في فترة الإسلام الأُولى تطوُّرها وازدهارها في آخر العصر الوسيط.

إنّ حجم المعاملات الكبير التي تَمُرّ بالفُنْدُق والفُنْداكو وغيرهما من المُنشآت في مصر والشام وبلاد المغرب يَذْكُره عدد ضخم من مختلف المصادر من النصف الثاني من القرن الثالث عشر إلى العُقُود الأولى من القرن السادس عشر. يصف المُؤَرِّخ المَمْلوكيّ، المَقْرِيزيّ (1364-1442م) فُنْدُق بِلال المُغِيثي بالقاهرة "وهو **فُنْدُق يَدَعُ فيه التجارُ وأربابُ الأموال صناديقَ المال. ولقد كنتُ أدخل فيه فإذا بدائرة صناديق مُصْطَفّة ما بين كبير وصغير لا يفصل عنها من الفُنْدُق غير ساحة صغيرة بِوَسَطه، وتشتمل هذه الصناديق من الذهب والفِضّة على ما يجلّ وصفه..**"[1]. كما انبهر كذلك فيلكس فابري، وهو حاجّ ألماني وصل عبر الإسكندرية في سنوات 1480، بتكدُّس البضائع بكمِّيّات ضَخْمة في فَنادق البنادقة التي كانت بالمدينة وقد كان أحد هذه الفَنادق "مَمْلُوءاً بالبضائع حيث تَتَراصّ فيه الأكياس والسِّلَع إلى درجة يصعب فيها السَّيْر داخله وكذلك يوجد به فناء واسع وعدد كبير من الغُرَف". وكذلك كان الفُنْداكو البُنْدقي الثاني «أكثر

(1) المَقْرِيزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص92.

اتساعاً من الأوّل وكانت فيه كَمّيات مُدْهشة من مختلف البضائع منها ما يرغبون في استيراده من مناطقنا ومنها ما يرغبون في تصديره من هنا»[2].

على الرُّغم من النشاط الكثيف الذي لا يزال يَحْدُث عبر الفَنادق والفُنْداكو في أواخر العصر الوسيط، فهناك بعض التطوّرات المُختلفة التي طرأت في استعمال مُصطلح الفضاء التجاري في المُدُن الإسلامية خلال الفترة المَمْلوكية (1250-1517م). وإنّ أهمّ ما يلفت النظر بالنسبة إلى أهداف هذا الفصل من الكتاب، أنّ الفَنادق أصبحت أقلّ انتشاراً في الشرق الأوسط وهو ما أدّى إلى تَراجُع وظيفتها. ورغم أنّ الكلمة ذاتها لم تَنْدَثر في العهد المَمْلوكيّ، فإن عدداً من المَباني التي كانت في السابق فَنادق قد خَرِبَت وهُدِمَت أو تمّ تغيير وظيفتها إلى مُنْشآت تجارية أُخرى عادة ما تكون خانات أو وكالات. تُشير كلّ المواد الإخبارية التي تُوَفّرها المصادر الأدبية ووثائق الوَقْف وغيرها، إلى تَفَوُّق الخانات والوكالات في الأراضي المَمْلوكية، إلى ازدياد الرَّغبة في هذه المُنْشآت على غيرها من الفضاءات التجارية الأُخرى. فعندما وقع تطوير المنطقة الميناتية بِبُولاق بالقاهرة في القرن الخامس عشر، شَيَّد التجار عشرات الوكالات كمراكز لنشاطهم ومخازن لسِلَعهم عِوَضاً عن الفَنادق التي كانت تقوم بالوظائف نفسها في السابق بميناء الفُسْطاط[3]. وكنتيجة لهذا التغيُّر الوظيفي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، لم تَعُدْ كلمة فُنْدُق العربية الحديثة تحمل هذا المزيج الثّري المَعْنَى الذي يجمع بين الإحسان والتنظيم والتّجارة التي كانت تُميِّز المؤسّسة.

ولم يكن الفُنْداكو يشارك الفُنْدُق المصير نفسه، إذ واصل بَدَلاً من ذلك ازدهاره في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وواصل تسهيل المُبادلات الأوروبية في المُدُن الإسلامية في العَهْد العثماني. وعلى الرغم من أن المُؤَسّستين تواصلتا تحت التسمية نفسها، فُنْدُق باللُّغة العربية، هناك اختلاف ما فتئ يتزايد بين وظيفة وتنظيم فَنادق التجار المسيحيين الغربيين وفَنادق التجار من داخل دار

(2) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae*, III, 163 (130b), *Voyage en Egypte*, II,694-695.

(3) Nelly Hanna, *An Urban History of Būlāq in the Mamlūk and Ottoman Periods* (Cairo: Institut français d'archéologie orientale,1983) 89-101.

الإسلام. إن رُسُوخ الفَنادق "الوطنية" الغربية كنقاط وساطة تجارية عابرة للثقافات وانتشارها في أواخر العصر الوسيط كان له تأثير سَلْبي بالغ على وضعية الفَنادق التقليدية في الأراضي المَمْلوكية وعلى وظائفها. ستقع مناقشة دَوْر الفَنادق الغربية في العالم الإسلاميّ في أواخر العصر الوسيط في الفصل التالي.

إن تغيُّر المُصْطلحات التجارية وتَحَوُّل استعمال الفضاء التجاري في المُدُن المَمْلوكية كان نتيجة تمازُج مُعَقَّد بين الاستراتيجيات السياسية والاقتصادية من قِبَل السلاطين الذين راوحت فترات حكمهم بين الهُدُوء والاضطراب، والتغييرات اللُّغوية والديمغرافية المعاصرة وتنامي هَيْمَنة البحرية الغربية على المتوسّط. قد يكون وصول المَماليك الشَّراكِسة إلى الحُكم سنة 1328م مع السُّلطان بَرْقُوق وتخريب بلاد الشام على يدي تيمُوْرلَنْك سنة 1401م، نقطة تحوُّل فاصلة. كما كانت هذه الفترة أيضاً فترة تحوُّلات عميقة ـ وفترة أزمات كذلك ـ في العالم المتوسّطي في العصر الوسيط. فقد وضع التراجع البطيء للحرارة المناخية وتعاقُب المَجاعات والطاعون في القرن الرابع عشر وبعده، حدّاً للنُّمُوّ الديمغرافي والتطوّر الفَلّاحي والتوسُّع التجاري الذي ميّز العالم المتوسّطي في بداية العصر الوسيط. وقد كانت رُدُود الفعل المختلفة أمام هذه التحدِّيات في أوروبا والشرق الأوسط معاً من خلال تطوُّرات جديدة في التِّقْنيّات والأسواق والسياسات الجبائية والنظرة السياسية، أثرت في التِّجارة المتوسّطية وأدّت إلى حدوث تحوُّلات في مُؤَسّساتها التجارية. في الوقت نفسه حدثت فَجْوة عميقة بين مَشْرق الإسلام ومَغْرِبه. وقد أدّى ذلك لا إلى علاقات تجارية مُتفاوتة مع الدول الأوروبية فقط ولكن أيضاً إلى اختلاف في وظائف المَباني التجارية وأسمائها بين طَرَفَي المتوسّط الإسلاميّ. هذا في حين أصبح الفُنْدُق أقلّ انتشاراً في مصر والشام في أواخر العصر الوسيط، فقد واصل ازدهاره في بلاد المغرب عبر العهد العثماني.

فقد كان سلاطين المَمَاليك في الشرق الإسلاميّ حريصين على تنظيم التِّجارة وجَنْي الأرباح من الفُنْدُق وغيره من المُنْشآت التجارية. ونتيجة لذلك كان عَصْرُهم متميِّزاً باستراتيجيا الحماية التجارية بمُضاعفة التنظيمات الخاصّة بالفَنادق الغربية وبتحويل وِجْهة التجار المحليين نحو التِّجارة البَرِّية والبحر الأحمر والمُحيط الهِنْدي. وأملاً في الاستفادة من أنشطة التجار استعمل الحُكّام المماليك

الضرائب والاحتكار والوَقْف ومراقبة التِّجارة وأساليب أُخرى بإقحام أنفسهم في دائرة التِّجارة. ولم تكن كلّ هذه الأمور جديدة فكلّ ما بُني على السياسات الاقتصادية قد تطوّر في العهدين الفاطميّ والأيّوبيّ. فمثلاً فكرة استعمال الوكالة كمُنْشأة رسمية خاصّة بِتِجارة بعض المواد لمُضاعفة الأرباح، تعود جذورها إلى القرن الثاني عشر وربّما إلى ما قبله، ولكن تفضيل الوكالة ازداد بصورة ملحوظة في ظلّ المَماليك. وقد كان لبعض الابتكارات المَمْلوكية، خاصّة منها تجديد نظام البريد، تأثير إيجابي كبير في التِّجارة البَرِّية وفي المواصلات وفي انتعاش نشاط شبكة الخانات الرِّيفية في الشام ومصر. ولكن العديد من الخطط الجبائية المَمْلوكية تميَّزت بقصر النظر: إذ أصبحت تهتمّ بالربح السريع الذي توفّره لخزينة الدولة أو التسريع بترقية بعض السلاطين أو الأمراء أو المجموعات التجارية أو بعض القطاعات التجارية أكثر من اهتمامها بالازدهار الاقتصادي طويل المدى للمَمْلكة. قد شغل المَقْريزيّ خُطّة مُحْتَسِب في القاهرة ممّا جعله على اتّصال مُباشر بالمُنْشآت التجارية في المدينة، وكان شديد النقد للسياسات التجارية التي اتُّبعت بعد التحوُّل السُّلالي سنة 1382م(4).

أدّى وصول المَماليك إلى السُّلطة في مصر والشام سنة 1250م إلى نظام سياسي جديد مَبْنِيّ على الوَلاء وعلى الكفاءة وعلى الترقية المِهْنية وليس على الوِراثة. وقد كان لذلك تأثير عميق في مَسألَتَي الإرْث والوَقْف وفي ازدياد إنشاء المباني التجارية. فقد كان كلّ المَماليك في الأصل عبيداً ولم يكونوا من أصول إسلامية جُلِبُوا إلى مصر صِغاراً وتَمَّت أسْلمتهم وتدريبهم بعناية على فَنّ الحرب والسياسة. وقد كان كلّ مَمْلُوك تحت إمرة أمير ضمن مجموعة من المَماليك ومن كان منهم على كَفاءة وتَمَيُّز يمكنه أن يرتقي في السُّلَّم وبإمكانه أن يصبح هو نفسه أميراً. وفي نهاية الأمر قد يقع اختيار من كانت له مَوْهِبة مُناسبة وعلاقات، ليكون سُلطاناً. وهذا النظام يختلف عن السياسة الأيّوبية التي كانت قبله، حيث ينحدر كلّ السلاطين الأيّوبيّين من سُلالة صلاح الدين. ولم يرتبط المَماليك الأوائل بعلاقات دَمَوية (ولوأن هذا الأمر أصبح عاديّاً فيما بعد). وقد كان لهذا التغيير في

(4) Adel Allouche, *Mamlūk Economics. A Study and Translation of al-Maqrīzī's Ighāthah* (Salt Lake City: Univercity of Utah Press, 1994) 2-4.

مَفْهُوم السُّلالة تأثيره في الوراثة وفي نقل الثَّروة إلى الوَرَثة. فلم يتشجّع السلاطين والأُمراء على نَقْل السُّلطة إلى عَقِبِهم. ولم يكن كذلك مُمْكناً، من الناحية النظرية، توريثُ المُمتلكات مثل الأراضي والعَقارات بما أنها كانت مُوَزَّعة مُؤقّتاً في شكل إقطاعات مقابل خَدَمات. ويمكن تكديسُ الأموال والمُمْتلكات كيفما كان الأمر من أجل الاستعمال الخاصّ ثم تمريرُها لأفراد العائلة. وقد جعلت هذه الإجراءات من الصَّعْب الحصولَ على مداخيل نقدية مُتَأتّية من الأكْرِية والضرائب والرُّسوم ومداخيل الوَقْف وغيرها من مصادر التمويل. وقد كان الفُنْدُق واحداً من المُنْشآت الحَضَريّة العديدة (وهي في العادة تلك الكَوْكَبة من المُؤَسَّسات التي تضمّ الحَمّامات والأسواق والأفران والخانات والوَكالات وغيرها) التي قد تَدُرّ دَخْلاً ناتجاً عن كِراء المُؤَسّسة أو كِرائها في إطار اللِّزْمة وجمع الضرائب والأداءات على الخَزْن والسَّكَن. وقد كان العديد من الفَنادق خاصّة تلك التي كان حَجْم مُعامَلاتها صغيراً والتي كانت تتعامل على نطاق مَحْدُود، يملكها الخواصّ أو مُؤَجّرة لفائدة أُناس عاديين. وقد كان البعض الآخر جُزْءاً من مُؤَسّسات الوَقْف أو تحت إشراف الأمراء والسلاطين مباشرة. وقد كان هؤلاء المستفيدون يحصلون على دخل ثابت مصدره الكِراء أو نِسْبة مئوية من مداخيل المُؤسّسة. وتَبْرُز هذه الترتيبات المالية وتَهافُت المسؤولين المَماليك على المباني التجارية من خلال الوَقْفِيات والعُقُود والروايات التاريخية والمعَالم الحَضَريّة[5].

(5) لم يكن من المُمْكن الاطّلاع على وثائق الوَقْف غير المَنْشورة والموجودة بالقاهرة لإعداد هذا البحث ولا من تَتَبُّع هذا الاتجاه بالكامل في المصادر المَنْشورة. ومن بين النصوص المنشورة انظر ابن حبيب، تَذْكرة النَّبيه، الجزء الثاني، ص427-448). أشكر نيال كريستي [Niall Christie] لتنبيهي إلى هذه المجموعة. وقد وَقَفَ السُّلطان بَرْسباي فُنْدُقاً بالقاهرة سنة 1442م وبَنَى قايتباي (1468-1496م) أربع وَكالات وخانَيْن في المدينة نفسها، وقد نُشِر وَقْف بَرْسباي جزئيّاً من قِبَل أحمد دَرَّاج.

Ahmad Darrāj, *L'Egypte sous le règne de Barsbay 825-841/1422-1438* (Damascus: Institut français de Damas, 1961), and also in Denoix et al., *Le Khān al-Khalīlī et ses environs*, II, appendix, 8-10.

حول وَقْف قايتباي، انظر:

Behrens-Abouseif, "Qāytbāy's Investments" 29. See also Randi Deguilhem, *Le Waqf dans l'espace islamique outil de pouvoir socio-politique* (Damascus: Institut français de Damas, 1995).

تُشير المصادر إلى قِطاع تجاري مُزْدهر في العاصمة المملوكية وإلى مَجْمُوعة واسعة من المُنْشآت التجارية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ويوجد العديد منها اليوم في قلب القاهرة شمال القَلْعة أو في منطقة ميناء بُولاق الجديد عوضاً عن الفُسْطاط أقدم جُزء في جنوب المدينة(6).

تختلف المَعْلُومات حول العدد المُحَدَّد لكلّ نوع من هذه المُنْشآت نظراً لتغيُّر أسماء بعض هذه المُؤَسَّسات عبر الزمن في حين كانت بعض المُؤَسَّسات الأُخرى تُعْرَف بأسماء مُختلفة في الوقت نفسه حتى إنه يمكن أن يكون الخان جُزءاً من قَيْصَرية أو يكون الفُنْدُق عُنْصراً ضمن مجموعة المُؤسّسات التجارية المُتَشابكة فيما بينها مثال خان الخليلي(7). تَسْتَعمل المصادر التاريخية في بعض الأحيان كثيراً من المُصْطلحات حتى ولو كان اختلاف مَعانيها بارزاً للعِيان، لأسباب بلاغية ولتنويع اللُّغة التي يستعملونها. فعندما ذكر المَقْرِيزيّ خانات القاهرة "المَشْحُونة بالواردين والفَنادق المُكْتَظَّة بالسُّكّان" فإنه يصعب أن نعرف ما إذا كان يُفَرّق بين نوعَيْن مختلفَيْن من الفَنادق، أحدهما لِلْعابرِين والثاني لِلْمُقِيمِين لفترة طويلة من الزمن أم أنه يستعمل هذه التَّفْرقة لِجَمالية التعبير(8).

---

(6) On Changes in the city and its topography, see Casanova, *Reconstitution topographique*; Hanna, *An Urban History of Būlāq*; Laila Ibrahim, *Mamlūk Monuments of Cairo* (Cairo: Quaderni dell'Istituto Italiano di Cultura, 1976); Garcin (ed.), *Grandes villes méditerranéennes, 135-156, 177-203;* S. Denoix, " Histoire et formes urbaines (éléments et méthode) ", in *Iténéraires d'Egypte: offerts au Père Maurice Martin*, ed. Christian Découbert (Cairio: Institut français d'archéologie orientale, 1992) 45-70.

(7) لقد ناقش أندريه ريمون وغاستون فيات مسألة المُصْطلحات في مقدّمة كتابهما عن المَقْرِيزي: المَقْرِيزي، أسواق القاهرة، ص1، بَعْضُ المباني التي تُسَمَّى عادة وَكالات أو خانات وُصِفت فقط بأسماء عامّة في دراسة النُّقُوش. فقد سُمِّي خان الخليلي مكاناً أو حِصْناً في ثلاثة نقوش تعود إلى فترة تَرْمِيمه من قِبَل السُّلطان الغُوري (1501-1516م).
(M. Van Berchem (ed), *Matériaux pour un corpus inscripttionum Arbicarum*, xix: Egypte (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1903) part I, 595-596 (nos. 406-408). حول مُنْشآت السُّلطان الغُوري، انظر:
K. A. Alhamzeh, "Late Mamlūk Patronage: Qansuh Ghūrī's *waqf* and his Foundations in Cairo," Ph. D. dissertation (Columbus: Ohio State Univercity, 1993).

(8) المَقْرِيزي، الخِطَط، الجزء الأوّل، ص361.

لم يكن المَقْرِيزيّ، في أغلب الحالات، يستعمل كلاماً عشوائيّاً ولا بلاغيّاً. فقد ذكر العديد من المباني التي تغيّرت تسمياتُها مشيراً إلى أن تسمية مَبْنًى تجاري يمكن أن تتغيّر دون أن يَمَسّ ذلك بهيكله الماديّ، فمثلاً هناك فُنْدُقان في القاهرة في العهد الأيّوبيّ كان يطلق عليهما اسم خان المَسْرُور في مصادر القرن الرابع عشر[9]. كما كانت وَكالة قَوْصُون أيضاً قد بُنِيَت في الأصل فُنْدُقاً حوالى سنة 1330م ولكنّها تحولت إلى وَكالة في نهاية القرن (ولو أن المَقْرِيزيّ يُشير إلى "أنها في معنى الفَنادق والخانات")[10]. والشيء نفسه تجده في وَكالة باب الجَوَّانية وهي مَبْنًى شُيِّد "كفُنْدُق بأعلاه رَبْع" سنة 1391م "ولمّا كَمُلَتْ رَسَم الملك الظاهر بَرْقُوق أن تكون وَكالة يَرِدُ إليها ما يصل إلى القاهرة وما يَرِد من صِنْف مَتْجَر الشام في البحر..."[11] [أي على طول نهر النيل من الإسكندرية].

إنّ استعمال المَقْرِيزيّ كلماتٍ مُحَدّدة للتعبير عن المَرافق الحَضَريّة يشير إلى أن التحوُّلات في المُصطلحات كانت تحوُّلات كُلِّية ومُتكرِّرة وأحادية الاتجاه.

فقد ذكر هو وغيره من المُؤلّفين الفَنادق التي أصبحت خانات أو وَكالات ولكن التحوُّل لم يَقَع في الاتّجاه المعاكس. فمن الواضح أنّ هذه الكلمات لم تكن مُترادِفة ولم تكن مُتبادَلة (بالرغم من عدم التداخُل فيما بينها فإنه يمكن أن يحدث انزلاق من كلمة إلى أُخرى في الاستعمال الشعبي) كما أنّ الفُنْدُق يترك دائماً المَجال للمُؤسّسات المُنافسة له. ولفهم هذه التغييرات فسيتناول هذا الفصل كلّ كلمة على حِدة ويتفحَّص مُختلف معانيها ووظيفتها باحثاً في النماذج المُختلفة التي استُعْمِلت عبر الزمان والمكان مشيراً في كلّ مرة إلى التعديلات الطارئة.

---

(9) المَقْرِيزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص92، قد كان الانزلاق المُصْطلحي من الفُنْدُق إلى الخان شائعاً في العهد الأيوبي ولكنه أصبح أكثر شيوعاً بعد القرن الثالث عشر. [المترجم: في النصّ الأصلي خان مَسْرُور وليس خان المَسْرُور].

(10) المَقْرِيزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص93، يُستنتج هذا التاريخ من نقش من القاهرة يعود إلى سنة 1330 يتعلّق بإنشاء خان (سواء أكان المَبْنَى هو نفسه أم مَبْنًى آخر) قد أنشأه الأمير قَوْصُون (Combe et al. (eds), *Répertoire*, XIV [no. 5580]).

(11) المَقْرِيزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص94، قد يكون هو نفسه المَبْنَى الذي ذكره ابن دُقْماق تحت اسم فُنْدُق الوكالة، كتاب الانتصار، الجزء الرابع، ص40.

ويختتم الفصل بتقديم الأسباب التي كانت وراء هذه التغييرات في الوظيفة وفي درجة أهمّية كلّ من الفُنْدُق والخان والوَكالة في عهد المَماليك.

الفُنْــدُق

لم يكن هناك مجال كبير من الناحية العمليّة لإنشاء أغلب الفَنادق بِمَعْزل عن الفَنادق السابقة التي تعود إلى العهد الأيّوبيّ وما قبله. فما هو مختلف هو أنّ الفُنْدُق أصبح تدريجاً أقلّ شيوعاً وأصبحت العديد من وظائفه مُشتركة ـ وازداد الاستيلاء عليها ـ من قِبَل المؤسّسات التجارية الحَضَريّة الأُخرى[12]. وكما حدث في الماضي تداخلت المفاهيم. يذكر المَقْريزيّ بصورة عَرَضية فُنْدُقاً بالقاهرة سنة 1329م كان يُسمَّى "خان الحَجَر"، وظلّت هذه الازدواجية في المُصطلح قائمة قرناً من الزمن بعد ذلك عندما أعيد ترميم المبنى وتحويله إلى وَقْف من قبل السُّلطان بَرْسباي سنة 1442م[13]. وفي القرن الثامن عشر لم تَعُد هذه المُنشأة فُنْدُقاً أو خاناً وإنما كانت تعرف باسم وَكالة الدَّنُوشَري[14].

تُشير كلمة فُنْدُق على نحو متزايد إلى أجزاء مُعَيَّنة من المَبْنَى فقط وليس بالضّرورة إلى المُجمَّع بأكمله.

(12) ذكر المَقْريزي العديد من الفَنادق التي بُنِيت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر مثل فُنْدُق الصالح الذي بناه ابن السُّلطان قلاوون في بداية سنة 1280م (الخِطَط، الجزء الثاني، ص92-93)، وكذلك عدداً آخر من الفَنادق التي أُنشئت في القرن الرابع عشر. ولم يذكر أي فُنْدُقْ بُنِي تحت هذا الاسم في القرن الخامس عشر. وقبلاً قليلاً، ذكر المؤرخ المُقِلّ ابن دُقماق (توفي سنة 1407م) ست عشرة مُنْشأة في قسم مخصّص لفَنادق القاهرة في كتابه الانتصار، (الجزء الرابع، ص40-41) ولكنه ذكر واحداً وأربعين في الفهرس. وعلى العُموم، تكلّم ابن دُقماق قليلاً عن المُنْشآت الخاصة. وحول ذكر الفَنادق والخانات والوكالات في عمل ابن دُقماق والمَقْريزي، انظر، المَقْريزي، أسواق القاهرة، ص23-24، Aḥmed 'Abd al- Majîd Harîdî (ed.), *index de Hitaṭ Index analytique des ouvrages Ibn Duqmāq et de Maqrīzī, sur le Caire* (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1983).

(13) المَقْريزي، كتاب السُلوك، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص853، Darrāj, *L'Egypte sous le règne de Barsbay;* Denoix et al., *Le Khān al-Khalili et ses environs*, II, appendix, 8-10.

(14) Denoix et al., *Le Khān al-Khalili et ses enverons*, II, 9.

يصف وَقْف بَرْسباي المذكور سابقاً فُنْدُقاً فيه مخازن يتوسَّطه فناءٌ فيه بئر وغُرَف وشِقَق في الطابق العُلوي وكانت تتبعُه مَرافقُ أُخرى ـ دكاكين وفرن للخبز ـ بالقرب منه.

وتبيّن وَقْفِيّات أُخرى الارتباط نفسه بالمُنْشآت الحَضَريّة المذكورة دون أن يكون جميعها مُعتبراً كجزء من الفُنْدُق ذاته. ولم يكن ذلك بالضرورة تطوّراً جديداً لأنَّ المُمارسات والعُقُود تتحدّث حسب التقاليد عن الفَنادق وتوابعها، إلا أنّ تداخُل استعمال العَقارات الحَضَريّة أصبح ضرورة مُلِحّة نظراً للتنامي الكثيف للسكّان والأنشطة التجارية في القاهرة زمن المماليك.

من أهمّ ما أُحْدِث كان الرَّبْعُ وهو مُرَكَّب من الشُّقَق التي بُنِيَت فوق سُطُوح المَباني التِّجارية مثل الفَنادق والوكالات في القاهرة المملوكية. وقد كانت هذه المَساكن المَرْصُوصة المُخَصّصة لفُقْراء الناس يتمّ الوصول إليها عبر مدارج خارجية وليس من داخل الفناء ضماناً للفصل بين فَضَاءِ التِّجارة وفَضَاءِ السَّكَن في المُؤَسّسة نفسها. وفي كثير من الحالات لم يكن التجار المحلّيون والتجار المُتَنقِّلون يسكنون في المَبْنَى نفسه إلى جانب أمتعتهم وإلى جانب شُركائهم مثلما كان الأمر في نظام الفَنادق السابق(15).

ولَئِن تغيَّر استعمال الفُنْدُق فإنّ الهيكل بقي على ما هو عليه. إذ تُبَيِّن وثائقُ الوَقْف وما بقي من المباني مثل بقايا آثار فُنْدُق بناه السُّلطان بَرْسباي في القاهرة سنة 1423م الذي سيحمل اسم الوكالة الأشرفية فيما بعد، تَواصُل الشكل العام الذي يضمّ فناءً ومخازنَ في الطابق الأوّل وفوقها توجد بيوت السَّكَن(16). وكما

---

(15) Hazem Sayed, "The Rab' in Cairo: A Window on Mamlūk Architecture and Urbanism, " Ph.D. dissertation (Cambridge, MA: Massachusetts Institute of Technology, 1987) 95-98, 140-143; André Raymond, "The *Rab'*: A Type of Collective Housing in Cairo during the Ottoman Period", in *Proceedings of Seminar Four in the Series: Architectural Transformations in the Islamic World, held in Fez, Morocco, October 9-12,1979* (Philadilphia: Aga Khan Award for Architecture, 1980) 56.

انظر كذلك ميرفت محمود عيسى، "دراسة في وثائق السُّلطان الملك الأشرف شَعْبان بن حُسَين" المؤرخ المصري، عدد 21، 1999م، ص155-156.

(16) S. Denoix," Topographie de l'intervention du personnel politique à l'epoque mamelouk" in Denoix et al., *Le Khān al-Khalili et ses environs,* I, 42.

سُمّيَت هذه البِنية فُنْدُقاً في نَصّ الوَقْف واعتبرتها دنوا [Denoix] فُنْدُق بَرْسباي.

هو الشأن في المُنشآت الحَضَريّة العديدة كان من الضروريّ أن تقع مُلاءمة شكل المَبْنَى لاستغلال أقلّ ما يمكن من الفَضَاء. فالفُنْدُق الذي سبق ذكره هو فُنْدُق مستطيل الشكل تقريباً وله ثلاثة طوابق، وقد جُعِلَ ملائماً لزاوية شارعَيْن وراء الدكاكين التي تحتلّ الواجهة. يوجد في الطابق الأرضي فناء تُحيط به المَخازن ويمكن الدخول إليه من باب واحد. تَفْتَح بعض الغُرَف التي تُوجد في الطابق الثاني والطابق الثالث على الفناء في حين تفتح غُرَف أُخرى على الشارع. وبعض الدكاكين التي تفتح على الشارع مُلاصِقةٌ للجهة الخلفية للفناء وفوقها تُوجد بعض غُرَف الفُنْدُق العُلوِية ولكنّها ليست مُتّصلة بالفناء. ولكن رغم أنّ هذا المجمّع من دكاكين ومخازن وبيوت للسَّكَن يبدو بناءً واحداً، ولكن رُبما كان الفناء الداخلي والمساحات التي يمكن الوصول إليها من هذا الفضاء هي ما كانت تُعَدُّ جُزءاً من الفُنْدُق(17).

تعطي وثائق الوَقْف فكرة عن العناصر المادّيّة من داخل الفُنْدُق وهي تُبيِّن تغييراً طفيفاً عمّا كان موجوداً في السابق. وهي تُبدي اهتماماً دقيقاً بهيكل المَبْنَى ـ المَدارج والأَزْوقة والسُّقوف والأبواب والمَخازن والغُرَف والمَقاعد والدكاكين- وبالإنارةَ والتهويّة (النوافذ ودخول الضوء) والماء (الآبار والصهاريج) والتدفئة والطبخ (الأفران والمَدافئ) والصَّرف الصحّي (الميازيب والقَنَوات والمَراحيض). وتُشير هذه الوثائق في بعض الأحيان إلى عناصر الزَّخْرفة مثل المَرْمَر والقِرْميد والمَفْروشات(18).

يضيف المَقْريزيّ عند وصفه للفَنادق في عصره بعض المَعْلومات الوظيفية بالإضافة إلى ما تُقَدّمه وثائق الوَقْف. فالأوصاف التي قدّمها عن المباني التي بُنِيَتْ كفَنادق سواء تواصلت تسميتها كذلك أم لا، تؤكّد على استعمالها للتِّجارة والسَّكَن في الوقت نفسه فمثلاً وَكالة باب الجَوَّانِيّة كانت أُنْشِئت في الأصل

(17) Denoix, " Topographie," 44.

(18) هناك أمثلة عديدة، انظر وثائق الوَقْف التي نشرتها دنوا [Denoix] في دراستها بشأن خان الخليلي وما حوله *Le Khān al-Khalili et ses environs*, II, 41-44; appendix, 1-3, 8-10.

وكذلك ابن حبيب، تَذْكرة النَّبِيه، الجزء الثاني، ص427-448، تُعِدُّ نيال كريستي [Niall Christie] دراسة وترجمة عن هذا النصّ الأخير.

كفُنْدُق "وفي أعلاه رَبْعٌ" ولكن تُحيل بقية المعلومات التي قدّمها عن هذا البناء على ميدان التِّجارة[19]. والشيء نفسه بالنسبة إلى وَكالة قَوْصُون فقد بُنيت في البداية فُنْدُقاً واستُعملت للسَّكَن والتِّجارة في الوقت نفسه إلّا أنّ الوظيفة السَّكَنية قد توقّفت. ويقول المَقْرِيزيّ "**يَعْلُو هذه الوكالة رِباع تشتمل على ثلاثمائة وستين بيتاً... عامرة كُلّها... تحوي نحو أربعة آلاف نَفْس ما بين رجل وامرأة وصغير...**"[20] وتفيد الإشارة إلى كلّ هذه العائلات المُقيمة بهذا الفضاء أنها رباع خاصّة بالسكّان المحلّيين وليست بُيوتاً للتُّجّار غير القارّين.

تشير عمليّة المَسح الدقيقة التي قدّمها المَقْرِيزيّ للقاهرة في القرن الرابع عشر إلى أنّ عدداً كبيراً من الفَنادق لا يزال مُسْتَعملاً للتِّجارة وخَزْن البضائع رغم أن البعض من المَباني القديمة قد توقَّف عن العمل عندما كان المَقْرِيزيّ يدوّن مَعْلُوماته. وكما رأينا سابقاً إن فُنْدُق بلال المُغِيثي الذي أُنشئ في أواخر القرن الثالث عشر كان مَليئاً بصناديق التجار وأرباب المال الذين لا يزالون يودعونه أمتعتهم[21]. وهناك فُنْدُق آخر بالقاهرة هو فُنْدُق طُرُنطايِي كان التجار الذين يجلبون زيت الزيتون من بلاد الشام يُودعونه حمولتهم إلى أن دمّره حريق هائل ساعد الزيت الموجود بالفُنْدُق على تغذية ناره وذلك سنة 1321م[22]. وأخيراً فُنْدُق دار التُّفّاح هو مُنشأة موجودة بالفُسْطاط وهي من ضِمْن وَقْف يعود إلى سنة 1340م كانت مُخَصَّصة لبيع "**الفَواكه على اختلاف أصنافها ممّا يَنْبت في بساتين ضواحي القاهرة**" على عكس الفَواكه الواردة من بلاد الشام والتي كانت تُباع في وكالةُ قوْصُون. توجد داخل الفُنْدُق "**حوانيت تُباع فيها الفاكهة... وما بين**

(19) المَقْرِيزي، الخِطَط، الجُزء الثاني، ص94.

(20) المَقْرِيزي، الخِطَط، الجُزء الثاني، ص93، الظاهر أن عدداً قليلاً فقط من هذه الشُّقق ظلّ مسكوناً في عهد المَقْرِيزي.

(21) المَقْرِيزي، الخِطَط، الجُزء الثاني، ص92.

(22) المَقْرِيزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص94، كثيراً ما كانت المباني التجارية عُرْضة للاحتراق وما يترتَّب على ذلك من خسائر اقتصادية وهو ما جعلها جديرة بالذِّكر في المصادر. فقد أوردت رواية النُّوَيْري لهجوم بطرس ملك قبرص على الإسكندرية سنة 1365 أن الفَرَنج أحرقوا العديد من المباني منها الفَنادق والأسواق والقَيْصَريات والوَكالات، النُّوَيْري، كتاب الإلمام، تحقيق أ. كومب وعزيز سوريال عطية، الجامعة العثمانية، حيدرأباد، 1969م، الجزء الثاني، ص166.

الحوانيت مَسْقُوف حتى لا يصل إلى الفَواكه حَرُّ الشمس". ويضيف المَقْريزيّ أن روائح وحُسْن منظر الفَواكه المُنَضَّدة تجعل المَبْنَى كأنه الجَنّة[23]. كما كانت فَنادق أُخرى مُخَصَّصة لتجارة السُّكّر والقُطن والأرُزّ وغير ذلك من السِّلَع أو هي فَنادق مُخصّصة لمجموعات مُعيّنة من التجار[24].

وقد مَرَّ عددٌ من الفنادق بأيام صَعبة في بدايات القرن الخامس عشر. ففي سنة 1418م أمر السُّلطان المُؤيَّد بهدم فُنْدُق دار التُّفّاح لأنه يُعتِمْ على نوافذ مسجد مجاور ولكن كان عليه أن يدفع غالياً مقابل إلغاء وقفيّتِهُ[25]. وقد تعرّض فُنْدُق آخر هو فُنْدُق مَسْرُور إلى المصير نفسه. وقد كان هذا الفُنْدُق في أوْج ازدهاره في العَهْد الأيّوبيّ وبداية العَهْد المملوكيّ يستقبل التجار والبضائع الواردة من الشام ويُباع فيه المماليك الصِّغار بعد جلبهم إلى مصر[26]. إلّا أنّ الأعمال تدهورت "بعد التدمير الذي حصل على إثر غزوة تَيْمُور التي أدّت إلى خراب التِّجارة المصرية وإفلاس العديد من التجار وتراجع إشعاع الخان بسرعة حتى إنه وقع التخلّي عنه بعد فترة قليلة. وتمّ تدميره سنة 1428م[27]. لم تنقرض جميع الفَنادق في بداية القرن الخامس عشر ولكن عددها تقلّصُ مقارنةً بغيرها من المُنشآت التجارية الأُخرى التي كانت أكثر شعبية.

---

(23) المَقْريزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص93، قد بَيَّن كازانوفا موقع فُنْدُق دار التُّفّاح Casanova, *Reconstitution topographique*, 205, 213.

(24) ذكرت إيرا لابيدوس [Ira Lapidus] أن مَعْصَرة سُكّر قد حُوّلت إلى فُنْدُق من قِبَل تاجر كَرِيمي (الذي توفي سنة 1400-1401م (*Muslim Cities*, 212)؛ يظهر فُنْدُق القُطن في إحدى وقفيات قايْتْباي (L. A. Mayer [ed.] *the Buildings of Qāytbāy as Described in his Endowment Deed* ([London: Arthur probsthain, 1938] 31-33)؛ يذكر صُبْحي لبيب فُنْدُق العَنْبَر وهو قد يكون مخصّصاً للعنبر أو مجرَّد مخزن موجود بالقاهرة ("Egyptian Commercial Policy, " 72) انظر حول فَنادق الكريميين في مصر المَمْلُوكية، محمد أشقر، تُجّار التوابل في مصر في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، 1999م، ص206-211.

(25) المَقْريزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص93، يقدّر المَقْريزي كُلفة الهَدْم بثلاثين ألف درهم مُؤَيّدي (سابقاً، كان الفُنْدُق يعطي ألف درهم شَهْرِيّاً للوَقْف).

(26) Doris Behrens-Abouseif et al., "Le Caire," in Garcin (ed.), *Grandes villes méditerranéennes*,192.

(27) المَقْريزي، أسواق القاهرة، ص135.

تصف روايات الرَّحّالة الغربيين في القرن الخامس عشر فَنادق القاهرة ولكنّها تُبيِّن بوضوح بأنّ هذه المُنشآت كانت تُستعمل عادة من قِبَل التجار المسلمين وليس من قبل التجار المسيحيين الأجانب[28].

تُعطي هذه الرِّوايات الغربية شهادة مُعايَنة مُفيدة عن الوظائف المادّيّة والجِبائية للفضاءات التجارية في العاصمة المَمْلوكية. فقد لاحظ أنْسيلم أدورنو «Anselm Adorno» الذي مرّ بالقاهرة سَنَتَيْ 1470-1471م أنّ التجار وأرباب الأعمال في المدينة "كانوا على دَرَجة من الثراء حتى إنهم كانوا بمثابة خزينة سُلطانية وكانوا يُقْرِضون السُّلطان. وقد كان عدد الفَنادق المُخَصَّصة للمسلمين لا يُحْصَى في حين أنه لم تكن هناك فَنادق خاصّة بالمسيحيين الفَرَنج لأنهم ربّما كانوا قليلاً ما يذهبون إلى القاهرة أو ربّما لم يذهبوا إليها قطّ"[29]. وبعد عشر سنوات في سنة 1481م وصف كذلك الرَّحّالة اليهوديّ مِشُلَّم بن مناحيم أصيل مدينة فولتيرا Volterra فَنادق القاهرة التي كانت تحتوي على مُختلف السِّلَع وفيها كان التجار والحِرَفيّون يجلسون أمام دكاكينهم. وقد كانت هذه الدكاكين صغيرة تُعْرض فيها عَيِّنات من السِّلَع وعندما يرغب المرء في شراء البعض منها... كان يؤخذ إلى مَخْزن وهناك كان يمكن أن يشاهد السِّلَع العجيبة التي لديهم حتى إنه كان يصعب على المَرْء أنْ يصدّق أنّ هناك أَلْف مَخْزن أو أكثر في

(28) إن استعمال الكلمة من قبل الزُّوّار الأوروبيين (على عكس الكُتّاب المغاربة مثل ابن بطّوطة أو ليون الإفريقي) يعني أنها ربّما كانت تُسمّى أيضاً فَنادق في اللُّغة العربية المَحَلِّية. وقد لاحظ بيرو طافور، وهو رَحّالة إسباني وجود هُنْدِقا يسكنها الإسبان في القاهرة، 1435-1439م.

(Pero Tafur, *Andanças é viajes de Pero Tafur por deversas partes del mundo avidos [1435-1439]* [Madrid: Imprenta de Miguel Ginesna, 1874] 77).

(29) Anselm Andorno, *Itinéraire d'Anselm Andorno en Terre Sainte(1470-71)*, ed. And trans. J. Heers and G. De Groer (Paris: Centre national de la recherche scientifique, 1978) 188-189.

يبدو شِبْه مؤكّد أن أدورنو يريد أن يقول إن هناك ارتباطاً بين التُّجّار الأغنياء والفَنادق، وثروة السُّلطان، بينما مداخيل الفُنْدُق تُوَفِّر دَخْلاً هامّاً لخزينة الدولة المملوكية. ولكن ربّما ربط ذلك بالنموذج الإيطالي المُعاصر والمُتعلّق بالبنوك عندما وصف هذه المُعاملات كما لو أنها قُرُوض.

كلّ فُنْدُق وليس هناك شيء في العالم لا يمكن العُثُور عليه في الفُنْدُق في مصر حتى ولو كان صغيراً[30].

واصل الفُنْدُق نشاطه أيضاً في الإسكندرية ودمشق وحلب وفي بعض الأسواق الجِهَوية الأُخرى رغم قلّة البيانات حول هذه المُدُن مقارنة بما تتوفّر عليه العاصمة المملوكية. تذكر وثائق أوقاف الإسكندرية وجود فَنادق في المدينة منها وثيقة تعود إلى سنة 1326م لا تصف فُنْدُقاً ضمن الأوقاف فقط وإنما تذكر كذلك فُنْدُقين آخرَيْن متجاورَيْن أحدهما هو فُنْدُق الحرير[31]. كما ذكر النُّوَيري فَنادق عديدة في الإسكندرية سنة 1365م مع تخصيص ما كان منها للمسلمين وما كان منها للمسيحيين[32]. أما المصادر المسيحية فهي تحتوي على كثير من المعلومات التي تتعلّق بالفَنادق الخاصّة بالتجار المسيحيين وبالمُسافرين الموجودة في مدينة الإسكندرية التي تُعدّ آخر محطّة رئيسية بالنسبة إلى المعاملات التجارية الأوروبية في مصر وتذكر في بعض الأحيان المُنشآت التي تحمل الاسم نفسه والخاصّة بغير التجار الغربيين الذين تُطلِق عليهم عادة اسم التُّرك أو المسلمين أو التتار. ولكن تبدو الإشارة إلى الفَنادق في المُدُن الشامية أقلّ انتشاراً خاصّة بعد القرن الثالث عشر حيث أصبحت الخانات تحتلّ نظريّاً مرتبةً مُهيمنة بين المُنشآت التجارية في تلك المنطقة. ولذلك عندما ذكر اللُّغوي الشهير ابن منظور (1311-1312م) أن كلمة فُنْدُق كانت في الأصل موجودة عند أهل الشام فهو كان ينقل من المعاجم القديمة بدلاً من اعتماد ما كان سائداً في عصره[33]. ويشير العدد

---

(30) E.N.Adles (ed. and trans.), *Jewish Travellers* (London: Routledge, 1930) Hebrew 56, English 169-170.

(31) ابن حبيب، تَذْكرة النَّبِيه، الجزء الثاني، ص428-433، Niall Christie, "Reconstructing Life in Medieval Alexandria from an 8th/14th century *Waqf* Document" (unpublished article).

(32) النُّوَيْري، كتاب الإلمام، الجزء الثاني، ص166، انظر كذلك حول فَنادق الإسكندرية Martina Müller-Wiener, *Eine Stadtgeschiche Alexandrias von 564/1169 bis in die Mitte 9.15. Jahrhunderts* (Berlin: Klaus Schwartz Verlag, 1992) esp. 250-252.

(33) ابن منظور، لسان العرب، الجزء العاشر، ص313، ربّما بَنَى ابن منظور هذه المعلومة على القواميس والمعاجم السابقة مثل معجم الأزهري، تهذيب اللُّغة، الجزء العاشر، ص412، وياقوت، معجم البلدان، الجزء الرابع، ص277.

القليل من الفَنادق الواردة في وثائق أوقاف بلاد الشام وفي المصادر إلى تَواصُل وجودها ويبدو أنّ البعض منها كان مُزدهراً. فقد كان فُنْدُق عائشة مثلاً في مدينة حلب في القرن الخامس عشر يحوي عدداً ضخماً من المخازن والدكاكين[34].

يبدو أنّ الفَنادق في بداية العهد المَمْلوكيّ كانت توفّر مداخيل هامّة. فحسب المَقْريزيّ كان الفُنْدُق المعروف بخان الحَجَر يوفّر 3000 درهم كدخل شهريّ سنة 1326م متأتّية من الدكاكين ومن البيوت الموجودة في الطابق العُلوي، في حين كان دخل فُنْدُق دار التُفّاح يصل إلى 1000 درهم في الشهر في بداية القرن الخامس عشر[35]. وكان هذا الدخل السابق يُصْرَف وَقْفاً لفائدة خانقاه بالقَرافة. وكان التجار الواصلون إلى فُنْدُق طُرُنْطايي يدفعون مُكُوساً على زيت الزيتون الذي يبيعونه أو يخزنونه داخل المَبْنَى، حتى إن تاجراً كان عليه أن يدفع 20000 درهم فضّةً مَكْساً عن حمولة زيت ضخمة واردة من الشام[36].

وقد كانت هذه الضرائب تُجْمع من قِبَل صاحب الفُنْدُق الذي يحتفظ لنفسه بنسبة مئوية منها (حوالى 5 بالمئة أو أكثر قليلاً) بالإضافة إلى الأداء على البيع

---

(34) سِبْط بن العَجَمي، كتاب كنوز الذهب في تاريخ حلب، ترجمة جان سوفاجيه J. Sauvaget "*Les trésors d'or" d'Ibn Sibṭ al-'Ajamī,* (Beirut: Institut fraçais de Damas, 1950) 138 [text 88b].
قبل ذلك يشير كتاب في التِّجارة من كُتُب البنادقة كُتِب بعكا سنة 1260م إلى فُنْتيغو [*fontego*] السُّلطان في حلب حيث يُخْزَن القطن مقابل جُمْلة من الضرائب ولكن يبدو أنّ ذلك من العادات الغربية (Jacoby, "A Venetian Manual," 425؛ أشكر داود اليعقوبي [David Jacoby] على نصائحه في هذا الباب. وفيما يتعلّق بالفَنادق في دمشق المملوكية انظر ابن الشِّحْنة، الدُرّ المُنتخَب في تاريخ حلب، ترجمة جان سوفاجيه، [J.Sauvaget] Ibn al- Shiḥnah "*Les Perles choisies " d'Ibn ach-Chihn* (Beirut: Institut fraçais de Damas, 1938) ص187 من النصّ الفرنسي وص242 من النصّ العربي.
H. Sauvaire, "Description de Damas," 7 (1896) 396, 398-399. Combe et al. (eds.) *Répertoire,* XI (1941) (no. 4332) هناك إشارة إلى وجود فُنْدُق بدمشق سنة 1251 في هذه الوثيقة.

(35) المَقْريزي، كتاب السُلوك، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص853، نفس المؤلّف، الخِطَط، الجزء الثاني، ص93.

(36) المَقْريزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص94.

في الفُنْدُق والخزن وكِراء بعض الدكاكين من مُكْتَريها الأصليين والغُرَف والإسطبلات. ويتحمّل صاحب الفُنْدُق مسؤولية تَعَهُّد المَبْنَى ويدفع كِراءً سنوياً. وقد يَؤُول مِيْزان دَخْل الفُنْدُق بما في ذلك الكِراء إلى مِلْكية خاصّة أو إلى وَقْف أو إلى غير ذلك من المُستفيدين(37). تمّ السطو ليلاً على أحد الفَنادق بالقاهرة سنة 1303م ولأنّ صاحب الفُنْدُق كان موجوداً داخل المَبْنَى أُجْبِر على فَتْح المخازن. وكلّ هذه المداخيل النقدية من الذهب والفضّة والنحاس قد أُخِذت وكان مَبْلغٌ من هذه النقود قد خُصّص للأعمال الخَيْرية(38).

لقد كانت أشكال الفَضاء التِّجاريّ واضحة الاختلاف في الغرب الإسلاميّ في تلك الفترة حيث إن الفُنْدُق في المُدُن المَغْربية لم يُعوَّض قطّ بالخان أو بالوكالة. فعلى عكس ذلك تُفيد المُعطيات الموجودة في تونس وفاس وغرناطة وغيرها من مُدُن الغرب الإسلاميّ أنّ الفَنادق بَقِيَت المؤسّسة التجارية المُهيمِنة في بلاد المغرب خلال العصور الوُسطى المتأخّرة. فقد اضطلعت الفَنادق في الغرب الإسلاميّ بوظائف عديدة، فبعضها كان مخصّصاً للخَزْن والبَيْع وبعضها كان خاصّاً بالسَّكَن في حين أصبح البعض الآخر مُنْشآت صناعية وحِرَفية ونسيجية(39).

---

(37) يبدو أن ترتيبات نموذجية توجد مُفَصّلة في عقد كِراء فُنْدُق بالفُسْطاط سنة 1311م، انظر، أمين، فِهرِسْت وثائق القاهرة، ص77.

Niall Christie, "A Rental Document from 8th/14th Century Egypt" (unpublished artical). Also Maya Shatzmiller, "*waqf Khayrī* in Fourteenth-century Fez: Legal, Social, and Economic Aspects, " *Anaquel de Estudios Arabes* (Madrid) 2 (1991) 207.

(38) المَقْرِيزي، كتاب السُلوك، الجزء الرابع، القسم الثالث، ص1053.
[المترجم :إن ما هو وارد في نصّ المَقْرِيزي لا يعني حالة معيَّنة وإنما يشير إلى ظاهرة عامّة فحولتها الباحثة إلى حادثة مُفْرَدة تتعلّق بفُنْدُق واحد. [فالمَقْرِيزي يقول: وصارت تكبس الفَنادق وحواصل الأموال في الليل، فمن وُجِد صاحبه حاضراً فتح مخزنه وأخذ نصف ما يجد من نقود القاهرة وهي الذهب والفضة والفلوس. وإذا لم يجد صاحب المال أخذ جميع ما يجده من النقود] وهو ما جعل الباحثة تقول (النص الاصلي ص244) :
[In 1303, a funduq in Cairo was raided during the night, and the manager, who was present in the building, was forced to open storerooms. All of its cash revenues, in gold, silver and copper coins were lost"]

(39) يبدو ذلك واضحاً من خلال وثائق الوَقْف مثل الوَقْف الذي يوفّر مداخيل متأتية من =

وكما هو الشأن في الفَتَرات الأُولى كان عدد الفَنادق هامّاً في المُدُن الكُبْرى ببلاد المغرب[40]. ففي العصر المَرِيني (1217-1465م) كانت فاس عاصمة الدولة مركزاً تجارياً وثقافيّاً هامّاً ازدهرت فيه المُؤسّسات التجارية والمدارس الدينية وغيرها من المُنشآت الأُخرى. كانت المدارس المَرِينية الجديدة في حالات كثيرة قد أُنشئت بتمويل مباشر من مداخيل الفَنادق المحلية. وكان المدرّسون والطلبة والتجار، مسلمين ومسيحيين، يذهبون إلى المدينة طلباً للعِلْم والتِّجارة وهم يحتاجون إلى أماكن للعمل والإقامة. كما أنّ المُهاجرين المسلمين واليهود الذين فَرُّوا من إسبانيا سَعَوا للإقامة المُؤقّتة في فَنادق المُدُن المَرِينية[41]. فقد أحصى كلّ من ابن أبي زَرْع والجَزْنائي في القرن الرابع عشر 467 فُنْدُقاً في فاس في حين أحصى الأنصاري 360 فُنْدُقاً في سَبتة سنة 1442م[42]. وقد

= دكاكين حِرَفيي النسيج الموجودة في الطابق العُلوي بالفُنْدُق في مدينة تِلِمْسان خلال 1568-1569م.

(Charles Brosselard, "Les Inscriptions Arabes de Tlemcen," *Revue Africaine* 22 [1860] 241-243).

(40) تحظى المُدُن الصغيرة في المنطقة بمثل هذه المُنشآت. يصف الأنصاري في بداية القرن الخامس عشر قرية بن يونس على أنها ليست فيها فَنادق ما خلا فُنْدُقاً واحداً يوجد بجوار الأسوار من الخارج

("Une Description de Ceuta musulmane au XVe siècle. *l'Ihtiṣār al-aḫbār* de Muhammad al-Kāsim ibn Abd al-Malik al-Anṣārī," ed. E. Lvi Provençal, *Hespéris* 22 [1935] 171; French trans. "La Physionomie monumentale de Ceuta: Un hommage nostalgique à la ville par un de ses fils Muḥammad b. al-Qāsim al-Anṣārī," trans. A. M. Turki, *Hespéris-Tamuda* 20-21 [1982-1983] 156).

(41) ربّما توسّع الحي المعروف بفُنْدُق اليهود في فاس حول فُنْدُق للتُّجار اليهود أو ربّما كان خاصّاً بالمهجَّرين من إسبانيا، رغم أنه من الراجح أنّ اليهود لم يعودوا يعيشون في هذا الحي بحلول العصر الوسيط المتأخّر، انظر:

David Corcos, "les Juifs du Maroc et leurs mellahs," in *Studies of the History of the Jews of Morocco* (Jerusalem: Rubin Mass, 1976) 71; also Mercedes García-Arenal, "Jewish Converts to Islam in the Muslim West," in *Dhimmis and Others: Jews and Christians and the World of Classical Islam*, ed. U. Rubin and D. Wasserstein (Winona Lake, IN: Eisenbrauns, 1997) 242.

(42) ابن أبي زَرْع، كتاب الانيس المُطْرِب، ص26، الجَزْنائي، كتاب زهرة الآس، ص33، من النصّ العربي (هناك تحقيق حديث: المطبعة المَلَكِيّة، الرِّباط، 1967م)، وص81 من النصّ الفرنسي، وهو يقدم رقم 469، ص44، الأنصاري، وصف مدينة فاس، ص160 من النصّ العربي وص139 من النصّ الفرنسي.

أحصى ليون الإفريقي في بداية القرن السادس عشر 200 فُنْدُق في فاس ولاحظ أنّ الأمناء يدفع كلّ منهم معلوماً قارّاً لمالك المَبْنَى أو لوالي المدينة مقابل الاستغلال[43].

توفّر الفَنادق الموجودة في المُدُن المَغْربية دخلاً هامّاً للدولة وللملّاكين من الخواصّ وللمؤسّسات الدينية (تستعمل كلمة حَبْس في الغرب الإسلاميّ عوضاً عن كلمة وَقْف). إلّا أنّ المُؤرّخ المَمْلوكيّ، العُمَري (ت1349م) يعتبر أن المَرينيين كانوا أقلّ اعتناءً بإنشاء الأوقاف من خُلَفائهم مِنَ المرابطين والمُوَحّدين، ربّما لم يكن هذا الأمر صحيحاً. فلم يُحْدِث السلاطين المَرينيون العديد من الأوقاف خاصّة في عَهْد ثلاثة من السلاطين المُتعاقبين في الفترة ما بين 1310 و1359م فقط، بل رمّموا الأوقاف القديمة وأعادوا كذلك إحياءها[44]. على الرغم من وجود صعوبات فإنه كان من المُمْكن تغيير موارد وَقْف من الأوقاف خاصّة إذا كانت مِلْكية الوَقْف قد اعتُبرت مَهْجُورة. فقد سئل أبو مُحمّد عبد الله العَبْدُوسي (ت سنة 1446م) أحد قُضاة فاس هل يجوز تحويل أرض حَبُوس مَهْجُورة منذ فترة طويلة إلى فُنْدُق للإنفاق على مسجد الجمعة. فكان الجواب بالإيجاب فتحويل الحَبْس إلى فُنْدُق جائز على شرط أن يكون المَبْنَى المعني بالسؤال هو في حالة من التداعي لا تسمح باستعماله في أغراضه الأولى[45].

والشائع هو أنّ الأحباس الجديدة كانت تُستحدث خارج المُمْتلكات العقارية الخاصّة مثلما هو الشأن في تِلِمْسان عندما تمّ القيام بعمليّة تَحْبيس سنة 1364 تضمّ أرضاً ومبانيَ منها فُنْدُق وحمّامات وأفران وطواحين ودكاكين، كانت مِلْك الأمير الزّيّاني[46].

في بعض الأحيان يَرِد ذِكْر جزء من الفُنْدُق ضمن عمليّات التحبيس وهو دليل على سُهُولة تقسيم الدخل الذي يتكوَّن أساساً من مبلغ مالي. ففي سنة

(43) Leo Africanus, *Description de l'Afrique,* trans. A. Epaulard (Paris, Adrien-Maisonneuve, 1956) 190-191.

(44) Shatzmiller, "Waqf Khayri," 195-199.

(45) الوَنْشَرِيسي، المِعْيار، الجزء السابع، ص57.

(46) Shatzmiller, "Waqf Khayri," 202-205.

1325م أُنشئت مدرسة العَطّارين بمدينة فاس بنفقة تساوي سبعة أجزاء من ثمانية أجزاء تُمثّل دَخْل فُنْدُق ونصف فُنْدُق مع مداخيل جُمْلة من الدكاكين والمنازل. وكذلك وُجد في وصية تتعلّق بالمدرسة المصْباحيّة تنصّ على خمسة أثمان دخل فُنْدُق موجود بالمكان لفائدتها وذلك سنة 1346م. وكان دخل مدرسة الصِّهْرِيج بمدينة فاس سنة 1323م مُتأتّياً من كامل دخل مَبْنَى فُنْدُق ابن خُنُوسة (بالإضافة إلى مُمتلكات عديدة أُخرى) في حين كانت مدرسة أبي الحسن بمدينة سَلا تطالب بنصيب من كامل دخل ثلاثة فَنادق وبربع دخل فُنْدُق رابع[47].

كانت فَنادق عديدة في بلاد المغرب مُختصّة بنوع من السِّلَع وكان دخلها متأتياً من معاليم الخَزْن والبيع والمُكُوس المترتّبة على ذلك. ويبدو أنها حافظت على هذه الوظيفة إلى درجة فاقت معاصريها في الأراضي المملوكية، وذلك راجع بنسبة كبيرة إلى عدم مُزاحمتها من قبل الخانات والوكالات. كانت مداخيل الضرائب تُنفق على الأوقاف في عهد السُّلطان أبي فارس الحَفْصِي (1394-1434م) منها 3000 دينار سنويّاً مُتأتّية من فُنْدُق الخُضار في تونس و1500 من فُنْدُق المِلْح و1000 دينار من فُنْدُق البياض[48]. وسواء عكست هذه المُعطيات المبالغ المالية المُعاصرة أم لم تعكسها فإنه من الواضح أن هذه المُنْشآت كانت

---

(47) مدرسة العَطّارين: Combre et al. (eds.), *Répertoire*, XIV (1954) 204-206 (no. 5500); المدرسة المصْباحِيّة: *ibid.*, XVI (1964) 15-18 (no. 6020) (قد نُشِر هذا النصّ الأخير كذلك من قبل ألفريد بل [Alfred Bel] ضمن "Inscriptions arabes de Fès," *Journal Asiatique* 12 [1918] 256-262)؛ مدرسة الصِّهْرِيج: Combre et al. (eds.), *Répertoire*, XIV (1954) 186-189 (no. 5480) (also in Bel, "Inscriptions arabes de Fès," 10 [1917] 222-231)؛ مدرسة أبي الحسن: Combre et al. (eds.), *Répertoire*, XV (1956) 211-213 (no. 5941).

(48) الزَّرْكَشي، تاريخ الدولتين، ص102 وترجمة فرنسية قام بها أ. فانيون [E. Fagnon] *Chronique des Almohades et des Hafçides, attribuée à Zerkechi, traduction française d'aprés l'édition de Tunis et trois manuscrits*, (Constantine, A. Braham, 1895) 188-189.

[المترجم: لقد فهمت الباحثة ومترجم النصّ العربي (إلى الفرنسية) فُنْدُق البياض على أنه فُنْدُق البيض والحال أنه فُنْدُق البياض ويعني الفحم وهو من أسماء الأضداد. انظر النصّ الأصلي تحقيق حسين اليعقوبي، تونس، 1998م، ص236].

تستقطب مواد عديدة وتسمح بجمع مبالغ مالية هامّة. وتربط بعض الوثائق الأُخرى الفَنادق بتجارة مواد معيّنة في المُدُن المَرِينية. وقد كان أحد الفَنادق المُحْبسة على مدرسة أبي الحسن بمدينة سَلا وقد سبق ذكره، مُرتبطاً بملّاحة وتعود مداخيلها إلى الوقف[49]. كما يضمّ حَبْساً خاصّاً بمدرسة دار المَخْزن بمدينة فاس يعود إلى سنة 1321م سبعة أسهم من ثمانية أسهم مداخيل فُنْدُق مُعَدّ لخزن السلع وبيع القمح[50]. وقد وصف الأنْصاري الذي كان يكتب بعد قرن من الزمن سنة 1422م، الفُنْدُق الكبير بمدينة سَبْتة على أنه مستودع لاختزان الحبوب وفيه اثنتان وخمسون غُرفة للخَزْن منها الهُري والبيوت. وتبلغ طاقة الخَزْن في تِسْع منها الألف قَفِيز من الحبوب وقُدرة الفُنْدُق على الخَزْن لا تُقدّر. وقد كان الفُنْدُق مُتَّسِعاً حتى إنَّ له بابين واحداً يفتح على الفناء والثاني يؤدّي إلى الطابق الثاني. . . ويمكن للجِمال المُحَمّلة أن تدخل من هذين البابين الواسعين والمرتفعين[51].

إن الإشارة إلى فَنادق القَمْح والمِلْح تُذكّر بمُنشآت شبيهة لذلك وليست بالبعيدة في المجال، في جنوب قَشتالة وفي جنوب إيطاليا وفي صِقِلّية حيث كان هُنْدِقا الخُبْز في إشبيلية والمخازن المَلَكِيّة تحتكر تجارة القَمْح والمِلْح ومنها تُجْلَب المداخيل إلى الخزائن المَلَكِيّة.

وعلى عكس ما هو موجود في جنوب أوروبا لم تنحصر فَنادق بلاد المغرب في نوع مُعيَّن من التِّجارة وواصلت دائماً إيواء التجار والمُسافرين والحرفيين فقد ذكر الأنصاري أنّ أكبر فُنْدُق يقيم به التجار وغيرهم في مدينة سَبْتة هو الفُنْدُق

---

(49) Combre et al. (eds.), *Répertoire*, XV (1956) 211-213 (no. 5941).

(50) "فُنْدُق دَرْب الغُرباء الكائن بجُرْنة" Combre et al. (eds.), *Répertoire*, XIV (1954) 157-161 (no. 5441); also Bel, "Inscriptions arabes de Fès," 10 (1917) 159-163. قد ترجم ألفريد بِل جرنة بالمَسْلَخ رغم وجود ملاحظة تبعث على الشكّ، ولكن الكلمة تتعلّق أكثر بالحبوب. R. Dozy (*Supplément aux Dictionnaires arabes* [Leiden: E.J. Brill, 1881] 1, 189) يورد دوزي جُرَيْنة وجَرْوان كأماكن يُخْزَن ويُباع فيها القمح، والجُرْن هو مكان يجفَّف فيه القمح.

(51) al-Anṣārī, «Description de Ceuta» 160 (Arabic), 139 (French). قد شُيِّد هذا المَبْنَى في القرن العاشر في عهد أبي القاسم العَزَفِي (1249-1279م)، انظر كذلك: Christophe Picard, *La Mer et les musulmans d'occident au moyen âge*, XIIIe-XIIIe siècle, (Paris, Presses Universitaires de France, 1997) 144.

المعروف بفُنْدُق غانم. فقد كان يشتمل على ثلاثة طوابق وثمانين غُرفة وتِسْع شِقَق عُلويّة. وهو مَبْنًى قديم يعود إلى العَهْد المُرابطي[52]. وتُشْبه مُواصفات هذا الفُنْدُق مُواصفات فَنادق مدينة فاس مثل فُنْدُق التِطْوانيين ذي الثلاثة طوابق وهو فُنْدُق بُني في القرن الرابع عشر لإقامة التجار الوافدين من مدينة تِطْوان وخَزْن بضائعهم[53]. وقد وصف لِيون الإفريقي، فيما بعد، فَنادق مدينة فاس في بداية القرن السادس عشر (وهي المدينة التي اتّخذها مَوْطناً له) على أنها فَنادق مُتّسعة وجيّدة البناء ولها ثلاثة طوابق وتصل إلى 120 غُرفة وهي تُوفِّر المَأوى للمسافرين الغُرَباء ولمن لا مَسْكَن له ولا مُعيل (ربّما منهم اللاجئون من إسبانيا مثل عائلته). وقد كان المُقيمون بهذا الفُنْدُق مسؤولين عن توفير غِذائهم وفَرشهم وأسَرَّتهم[54]. وبِغَضّ النظر عن ملاحظة ليون الإفريقي من أن الفَنادق تُوفِّر احتياجات من لا مأوى لهم بمدينة فاس فإنه لا توجد إشارات إلى أن المُعْوَزين كانوا يدفعون معاليم الإقامة أم لا، كما أنه ليست هناك إشارة في وثائق الحَبْس المَغْربية إلى أنّ الفَنادق ذاتها يمكن أن تكون أحْباساً كما كان الأمر في مصر الأيّوبية.

وخَلْف مَضِيق جبل طارق واصلت الفَنادق ازدهارها في غَرْناطة النَّصْرِية نتيجة للمُبادلات التجارية من وإلى هذه الدويلة الإسلامية المُحاصَرة. فقد كان كلّ من التجار المسلمين والمسيحيين يتاجرون في مَوانئ المَمْلكة النَّصْرِية خاصّة مالِقة والْمَرِيّة ويجلبون إليها المواد الغذائية خاصّة القَمْح ويُصَدِّرون منها الحرير والفواكه المُجَفَّفة. كما كانت مالقة مَحطّة هامّة بالنسبة للسُّفُن القادمة من المتوسّط والمُتّجهة إلى إشبيلية أو إلى شمال أوروبا والتي كان عليها أن تتوقّف في انتظار الرياح المُناسبة قبل الإقلاع. وبلا شكّ قد كان البحّارة والتجار الذين يبُحرون على مَتْن هذه السُّفُن يستغلّون بالتأكيد السَّكَن والترفيه في فَنادق مالقة في فترة التوقُّف هذه. إنّ الوثائق المُتعلّقة بالفَنادق النَّصْرية ضَنينة نظراً إلى نُدْرة الوثائق

---

(52) "لسُكْنَى الناس مِن التُّجّار وغيرهم"، الأنصاري، وصف مدينة فاس، ص160-161 من النصّ العربي وص140 من النصّ الفرنسي.

(53) حول الوصف المِعْماري لهذا الفُنْدُق وغيره من المُنشآت التجارية في مُدُن بلاد المغرب خاصّة في الفترة المتأخّرة، انظر Scharabi, *Der Bazar*, 182-185, 198, 203-204, passim.

(54) Leo Africanus, *Description de l'Afrique*, 190. فقد لاحظ ليون أيضاً أن عدداً هامّاً من الفَنادق في فاس كان مواخير تُشَغِّل الإناث والذكور لبَيْع الهوى.

العربية في العصر الوسيط المُتأخّر بشبه الجزيرة. فلا نعرف تقريباً أيّ شيء عن الأوقاف النَّصْرية إلّا أنه توجد بعض المعلومات المُتعلّقة بالفَنادق من خلال الروايات والمصادر الفِقْهية. فقد تحدّث ابن الخطيب (ت سنة 1374م) بإيجابية "عن العديد من الفَنادق والمساجد" في مدينة مالقة، وفي قصيدة شعرية من القرن الخامس عشر هناك ذِكْر لإقامة بعض المسافرين في فُنْدُق في هذه المدينة وتمتّعهم بخَمْر تُنْتِجه تلك الجِهَة[55]. كما ذكر أيضاً أنّ تجار جَنَوة وممالك الأراغون كانوا يأكلون ويعيشون ويُمارسون نشاطهم في الفَنادق المسيحية بمُدُن مالقة وألْمَرِيّة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

كما كانت توجد فَنادق في المُدُن الداخلية في مدينة غَرْناطة ذاتها وفي مُدُن صغيرة أُخرى[56]. يُعَدّ الفُنْدُق الجديد بغَرْناطة وهو فُنْدُق من القرن الرابع عشر ويُسَمَّى اليوم كورال دل كربون «Corral del Carbón» واحداً من قليل من فَنادق العصر الوسيط الذي لا يزال موجوداً إلى اليوم ويمكن دخوله بسهولة. تتماشى هندسته المِعْمارية من حيث الحَجْم والزُّخْرُف مع ما تذكره المصادر الوسيطة المتأخّرة عن الفَنادق في جِهات أُخرى من العالم الإسلاميّ. فهذا المَبْنَى الواسع (28 على 30 متراً) له باب كبير يُفتح على فناء تُحيط به ثلاثة طوابق. ولكلّ طابق

(55) ابن الخطيب، مُفاخرات مالقة وسَلا، تحقيق وترجمة Emilio García Gómez, Ibn al-Jaṭīb "El *Parangón entre Málaga y Salé* de Ibn al-jatîb," *al-Andalus* 2 (1934) 191. عبد الكريم القيسي، الديوان، بيت الحكمة، قرطاج-تونس، 1988م، ص253-254 (هُجِّيَت الكلمة هنا فُنْدُوق fundūq). لقد تَمَّت ترجمة هذه القصيدة من قبل Maria Isabel Calero Secall and Virgilio Martínez Enamorado in *Málaga, ciudad de al-Andalus* (Málaga: Universidad de Málaga, 1995) 262-263. لقد عَيَّن المُؤلّفان أيضاً العديدَ من الفَنادق في مالقة الوسيطة وحَدَّدا مواقعها على خريطة للمدينة، (125, 255-256). انظر كذلك F.Guillen Robles, *Málaga musulmana*, (Málaga: Imp. De M. Oliver Navarro, 1880; repr. Editorial Arguval, 1994) 11, 491, 494. انطلاقاً من سنة 1330 تبدو مالقة مُتجاوزة لألْمَرِيّة كأهم ميناء من موانئ الدولة النَّصْرية، انظر: Blanca Garí, "Why Almeria? An Islamic Port in the Compass of Genoa," *Journal of Medieval History* 18 (1992) 228.

(56) تتعلّق فَتْوى صادرة في غَرْناطة عن الفقيه أبي سعيد بن اللُّبّ (توفي سنة 1381) بفُنْدُق في مدينة صغيرة مُشْتَرك بين مالكين (الوَنْشَرِيسي، المِعْيار، الجزء الثامن، ص134).

غُرَف صغيرة مُستقِلّة (إحدى وعشرون غُرفة في الطابق السُّفلي واثنتان وعشرون في كُلٍّ من الطابقين العُلويَّيْن) تفتح إمّا على الفناء أو على شُرُفات صغيرة تُطلّ على الفَضاء المركزي. تتكوَّن الدعائم السُّفْلى لهذه الشُّرُفات من الحِجارة والطوابق العُلوية من خَشَب. لم تكن لهذا المَبْنَى في الأصل نوافذ تفتح على الخارج باستثناء الباب[57]. ومع أنه الآن الأكثر شهرة، إلا أنَّ الكورال دل كربون لم يكن الفُنْدُق الوحيد في غَرْناطة النَّصْرِية. فقد أصبح معروفاً اليوم أن فَنادق عديدة أُخرى قد وجدت مثل فُنْدُق الجَنُويين (فندق الجِنُيِين) الذين يمارسون نشاطهم في المدينة. وقد كانت أغلب فَنادق غَرْناطة، مثلما هو الشأن في جِهات أُخرى، واقعة في قلب المدينة قرب المسجد الجامع والسُّوق[58].

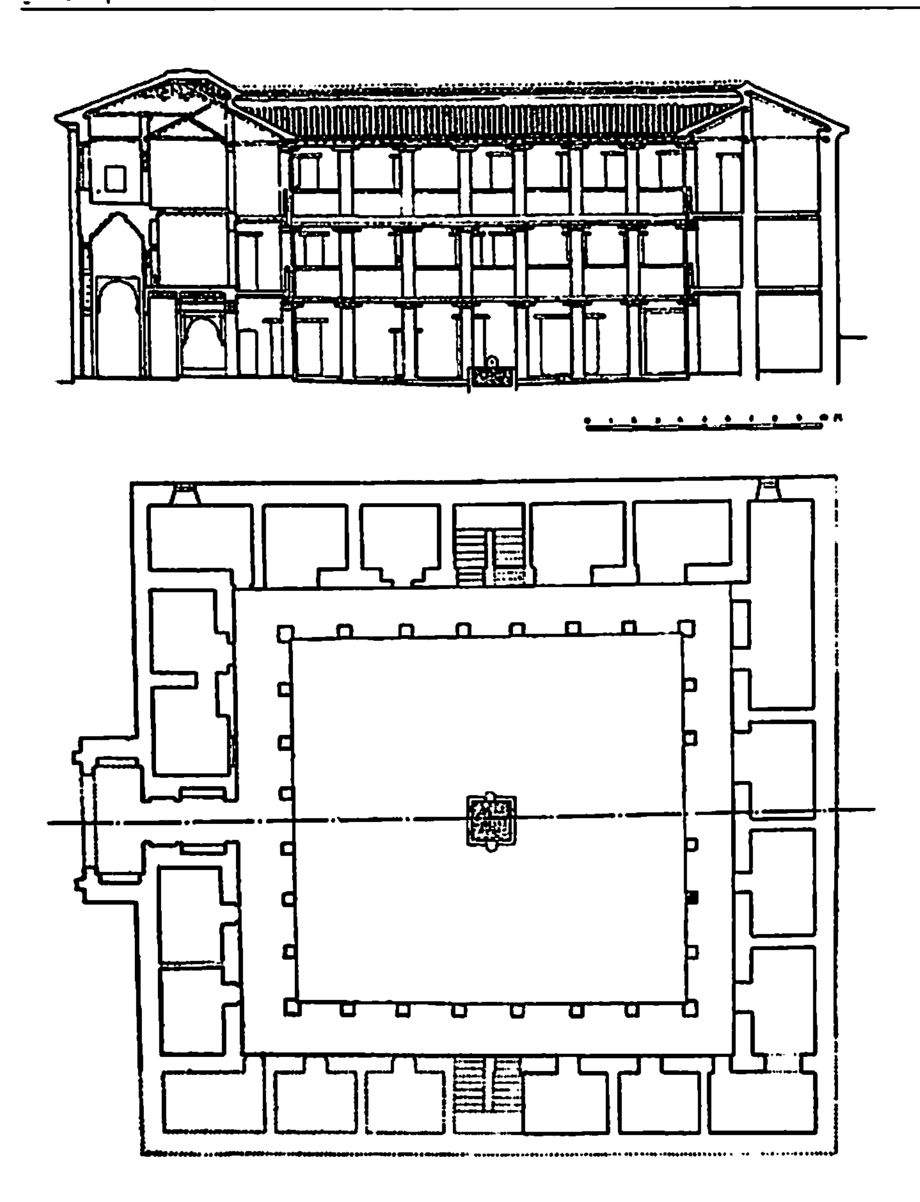
الخـــان

وُجِدت الخانات أيضاً في البلاد الإسلامية منذ العُهُود المُبَكِّرة وقد أصبحت الكلمة عادية في المُدُن الأيّوبية والمملوكية حتى أصبحت هذه المُنْشآت الشكلَ المُهَيْمِن كفضاء للتِّجارة والإقامة في المُتَوسّط الشرقيّ خلال القرن الثالث عشر. وقد كان من بين أسباب هذا التحوُّل النمطُ الجديد للتِّجارة البرِّيَّة التي خَلَقت علاقات مَتِينة بين جِهات الدولة المَمْلوكية (مصر والشام) وبلاد الأناضول والعراق وغيرها من أسواق الشرق التي كانت فيها الخانات هي المُسيطرة. كما أدّت العوامل السياسية والديمغرافية إلى تغيّر التركيبة الإثنية واللُّغة والثقافة. وقد كان تزايد أهمّية الخانات قد ابتدأ بالفعل سنة 1180م عندما أنشأ صلاح الدين فُنْدُقاً في بلاد الشام سُمّي مباشرة بخان السُّلطان في اللهجات المحلية.

وفي الوقت الذي انتشر فيه الخان في المتوسّط الشرقيّ كان الفُنْدُق لا يزال مُعْتَمَداً في الغرب الإسلاميّ. إنّ هذه التفرقة في الاستعمال حسب الجِهات واضحة من خلال مُلاحظات الرَّحّالة المغاربة الذين كتبوا عن تجربتهم في مصر والشام. ويستعملون في وصفهم لهذه المُؤسَّسات كلمة فُنْدُق بالنسبة إلى المباني التي تُسمَّى

(57) إن أحسن وصف لهذا المبنى يوجد في:
Leopoldo Torres Balbás "Las alhóndigas hispanomusulmanas," 459-64.

(58) Luis Seco de Lucena, *Plano de Granada árabe*, (Granada: Imprenta del Defensor de Granada, 1910) 52 and map.



9 – مُخَطَّط وارتفاع كورال دل كربون (الفُنْدُق الجديد) بغرناطة في القرن الرابع عشر
(انظر Torres Balbás, *Las alhondigas hispanomusulmanas*, facing, p.464)

خاناً من قِبَل سُكّان المَجال المَمْلوكيّ. فقد لاحظ ابن بَطُّوطة في النصف الأوّل من القرن الرابع عشر أنه يوجد فُنْدُق في "كل منزل بين مصر والشام وهم يسمّونه الخان، ينزله المُسافرون بدوابّهم"[59]. وبعد أكثر من قرن بعد ذلك في سنة 1481م يذكر كذلك الرحّالة اليهوديّ مِشُلَّم بن مناحيم أصيل مدينة فولتيرا أنه "شاهد في مدينة غَزَّة الفُنْدُق الذي يُسمَّى الخان وهو مكان تتوقَّف فيه القوافل والجيوش"[60]. وفي إطار أكثر مدينية يصف ليون الإفريقي أسواق القاهرة والفُنْدُق الذي يُسمَّى خان الخليلي حيث يقيم التجار الفُرس. ويشبه هذا الفُنْدُق قَصْر أمير كبير: فهو مُرتفع كثيراً متين البُنيان له ثلاثة طوابق، في الطابق الأرضي حُجُرات يستقبل فيها التجار زبائنهم ويتَّجرون في السِلع الثمينة. ولا يملك في هذا الفُنْدُق مُستودعات 'إلاّ التجار الذين لهم موارد عظيمة. وتشتمل سِلَعهم على التوابل والأحجار الكريمة ومَنسوجات الهند كالكَرَنْب"[61].

وقد كان خان الخليلي مشهوراً في أواخر عهد الدولة المَمْلوكية وقد أُعيد بِناؤه بصورة باذخة من قِبل السُلطان الغوري (1501-1516م) قبل وصول ليون الإفريقي إلى القاهرة بقليل[62]. يبدو من خلال نظرة ليون الإفريقي أنه ربّما كان

---

(59) ابن بَطُّوطة، الرِّحْلة، الجزء الأول من الترجمة الفرنسية، ص112، وص71-72 من الترجمة الإنكليزية.

(60) Meshullam ben Manhem, *Masa'Meshullam mi-Volterra be-erez yisrael bi-shnat 1481*, ed. Abraham Yaari (Jerusalem: Mosad Bialik, 1948), 180. رحلة مِشُلَّم من فولتيرا، في أرض إسرائيل بسنة 1481.

(61) Leo Africanus, *Description de l'Afrique*, 504-505؛ توجد ترجمة لهذه القطعة في G. Wiet, *Cairo, City of Art and Commerce*, (Norman, University of Oklahoma Press, 1964) 104-105. يقدم ليون الإفريقي كذلك وصفاً مفصّلاً لمنشآت أُخرى يسميها فُنْدُقاً، خاصّة تلك التي تُباع فيها الأقمشة الرفيعة المُستوردة من الشام و إيطاليا ومملكة الأراغون وغيرها من البلدان الأوروبية (*Description de l'Afrique*, 504-505; Wiet, *Cairo*, 104-105). لقد كُتبت رواية ليون الإفريقي في الأصل بالعربية الأندلُسية إلا أن النصّ وصل إلينا في ترجمة إيطالية معاصرة.

(62) ابن تَغْري بَرْدي، منتخبات من النُجُوم الزاهرة ، ترجمة وليم پوپر [W. Popper] Ibn Taghrî Bardî, *History of Egypt 1382-1469 AD*, (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1954-1960) 1, 106. ربّما تتعلّق كذلك المصادر الخاصّة بخان الخليلي بِمَبْنًى خاصّ أو مُجَمَّع كبير من المباني التجارية التي كان هذا الخان/ الفُنْدُق أحد عناصرها.

يُشبه من حيث وظيفتُه وشكلُه المِعْماري الفُنْدُق الجديد في غَرْناطة، مسقط رأسه أو فُنْدُق التّطوانيين بمدينة فاس حيث استقرّت عائلة ليون الإفريقي بعد فرارها من إسبانيا في السنوات التي تلت سنة 1492م.

إن انتشار كلمة خان جعلها تُستعمل أيضاً للتعبير عن الفَنادق الغربية في الإسكندرية وفي غيرها من المناطق الأُخرى في القرن الرابع عشر. فقد تمّ تحويل جُيُوب البنادقة والجَنَويين في عكّا إلى خانات بعد زوال الحكم المسيحيّ عن المدينة سنة 1291م. وقد كان التوجُّه المُصطلحي نفسه ينطبق على المباني التي لا تزال تقوم بوظائف الفُنْداكو أيّ تلك التي تنظّم التّجارة الغربية وتوفّر الإقامة للتُّجّار الغربيين في المُدُن المَمْلوكية. فقد صدرت سنة 1368م أوامر عن الملك القبرصي لمبعوثي جَنَوة وبيشة تُمكّنهم من بدء المفاوضات مع السُّلطان المَمْلوكيّ بشأن مُنْشأة خاصّة بالتجار القبارصة في الإسكندرية وهو المَبْنَى المتعارف عليه باسم خان موسى[63]. والأكثر طرافةً هو أنه بَعْدَ عَقْدين في سنة 1384م اعتمد الحاجّ فريسكوبالدي «Frescobaldi» اشتقاقاً مُضْحِكاً وهو أنه عند وقت صلاة المسلمين "كان كلّ الفَرَنج المسيحيين يُحْبَسُون في مَبْنىً يطلق عليه كاني «*canie*» (الواضح أنه الخان) وكان المُشْرِف على الكاني cane يُغْلِق عليهم الباب وتأتي هذه التسمية من أننا *cani* (كلاب) في عيونهم[*]"[64]. ويواصل فريسكوبالدي حديثه فيقول بأن المسيحيين المحلّيين (أهل الذمّة) لم يكونوا يُحبَسُون وإنما يلازمون بيوتهم طوال وقت الصلاة.

الخانات خارج المجال الحَضَريّ في الشام ومصر

فبقدر ما كانت الفَنادق موجودة في المُدُن المَمْلوكية فقط، فإن الخانات كانت مُزْدهرة في المراكز الحَضَريّة وعلى طول الطُّرُقات التي تتبعها القوافل بين

(63) Mas Latrie, *Histoire de l'île de Chypre*, 11, 306.

(*) تأتي الطرافة هنا في اللعب على كلمة cane فالحاجّ يظنها اسم الخان، وهي تعني بالإيطالية الكلب وجمعها cani كلاب.

(64) Frescobaldi, et al., *Visit to the Holy Places*, 42.

كما سيكون واضحاً في الفصل التالي، فهذا التقرير عن حظر التجوال يعني أن المَبْنَى هو فُنْداكو خاصّ بالغربيين.

مصر والشام والحجاز. وأينما كان هناك مُسافرون وتجارة وحجّ كانت هناك خانات أو مُنشآت تُشبهها سواء على مشارف القُرى أم على طُول المَسالك التي يمرّ منها المُسافرون. وقد بُني العديد من الخانات الجديدة على طول الطُّرُقات في البادية في العَهْد المَمْلوكيّ خاصّة في الفترة ما بين 1300 و1340م. وقد كانت هذه المشاريع من إنجاز الوُلاة المحليين والأمراء بصورة أساسية ومن قِبَل السُّلطان في بعض الحالات. وقد استفادت الشبكة الجديدة من الفَنادق على الطريق من المُنشآت الأيّوبية السابقة ولكن بينما كانت هذه البُنَى التي تعود إلى القرن الثالث عشر غالباً متوسّطة الحجم والبناء فإن خانات القرن الرابع عشر كانت تميل إلى أن تكون أكبر وصَلْبة البناء[65].

وكان المُحَرِّك الهامّ لتطوير وتعزيز شبكة الخانات هو قُوة السُّلطة المركزية في مصر في عصر المماليك وتأمين المَسالك التي تربط بين الشام ومصر على إثر الانتصار المَمْلوكيّ على المغول سنة 1260م وزوال آخر الإمارات الصليبية سنة 1291م. فقد دعم استتباب الأمن حركة السَّفَر بَرّاً سواء من أجل التِّجارة والحجّ أم المُهِمّات الإدارية. وفي الوقت نفسه أدّى تحسّن نظام البريد إلى الاستفادة من نظام الخانات التي بُنيت على مسافات فاصلة تُراوح بين 20 و30 كلم على طول الطُّرُقات الرابطة بين أهمّ المُدُن، وساهم في تعزيز هذا النظام في الوقت نفسه. ويُعزى للسُّلطان بيبرس (1260-1277م) إحياء نظام البريد وإعادة تنظيمه وأكثر من ذلك ساهمت الأبنية التي أُنجزت في بداية القرن الرابع عشر في ازدياد سرعة الاتّصال. وقد سَمَحت الخانات الكثيرة وقِصَرُ المسافات التي تفصلها بعضها عن بعض بتناوُب عُمّال البريد بنقل الرسائل السُّلطانية بسرعة أكبر من مكان إلى آخر.

---

(65) من بين العديد من الدراسات المتعلّقة بالخانات المملوكية، انظر:
Sauvaget, "Caravansérails syriens"; René. Dussaud, *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*, (Paris: Paul Geuthner, 1927); K. A. C. Creswell, "Two Khāns at Khān Tûmân," *Syria* 4 (1923) 133-139; Elisséeff, "Khān"; Etienne. Combe, «Inscription arabe d'un khan ottoman à Rosette,» *Bulletin de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie* 35 (1943) 114-123; Sims, " Markets and Caravanserais," 97-111; Petersen, " Syrian and Iraqi Hajj Routes," 51-52.
انظر حول نقائش التأسيس Combe al. (eds.), *Répertoire*, XIV (1954) (no. 5235, 5368, 5418) and XVII (1982) (no. 778 010); also L. A. Mayer, "Satura epigraphica," *Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine* (Jerusalem) I (1931) 42-43.

فعلى طُول الطريق بين دِمَشق وحِمْص (حوالى 180كلم) ازداد عدد الخانات من خَمْسة في عهد بيبرس إلى ستة سنة 1300م ثم سبعة حوالى سنة 1340م[66]. وعلى الأقل كان أحد الخانات الخمسة الأصلية، وهو قَرْخان، قد أمر السُّلطان بيبرس بنفسه بتشييده بما أنه يحمل شِعاره المُتمثِّل في نمر يَجْري مَنْقُوشاً على الباب[67].

وقد كان في إمكان السلاطين وعُمّال البريد والناس العاديين على السواء الإقامة في الخانات عندما يكونون على سَفَر وهي حالةٌ تساعد على تجديد الخانات وتحسينها.

فقد أنشأ بيبرس خاناً خارج مدينة القُدْس عندما زارها سنة 1263م وجعله جُزءاً من وَقْف "ليؤَمِّن الخُبْز، والنِّعال، والمال للحُجّاج القادمين إلى الأراضي المقدسة"[68]. وعندما وصل بَرْقُوق إلى دمشق سنة 1394م امتلأت المدينة بحاشيته المصرية الذين تَفَرَّقوا في المَدينة داخل الأسوار وخارجها ونزلوا في البيوت والخانات والإسطبلات[69]. وبعد قرن من الزمن تجوّل قايتباي في بلاد الشام سنة 1477 وتوّقف في الخانات بالقرب من طرابلس وحلب ودِمَشق وغَزّة. وقد أنشأ جنوبَ دمشق خاناً جديداً وأمر بترميم مُنشأة تجارية كان قد بناها الملك الأشرف قبل قرن من الزمن[70].

---

(66) Sauvaget, *La Poste*, 12-13, 31-33, 69-76, 80-82.
قد وضع سوفاجيه خرائط تبيِّن مواقع الخانات المملوكية والمسافات التي تفصل بعضها عن بعض. كما أن المصادر تذكر الخانات بصورة عَرَضية، انظر على سبيل المثال وصف ابن صَصْرَة للمُتمرِّدين المُتمركزين في خان لاجين سنة 1389 (*Chronicle of Damascus*, 1, 19)؛ أو ملاحظة صالح بن يحيى عن أن المسافرين إلى بيروت كانوا يتوقّفون في خان الحُسَيْن في سنوات 1360م. (كتاب تاريخ بيروت، [بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1927]، ص168-169).

(67) Sims, "Markets and Caravanserails," 103.

(68) المَقْرِيزي، كتاب السُلوك، القسم الثاني، (هكذا-المترجم) ص491-521.

(69) ابن صَصْرَة، الدُرّة المُضيئة، الجزء الأوّل، 96 ب [ص130] (إضافة من المترجم).

(70) H. Devonshire, «Relation d'un voyage du Sultan Qāitbāy en Palestine et en Syrie,» *Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale* (Cairo) 20 (1922) 9, 14, 20-21, 28, 31.

وكما كانت الخانات توفّر حاجات المُوظّفين المماليك، فقد كانت كذلك توفّر الإقامة للتُّجّار والحُجّاج وغيرهم من المسافرين.

وقد كان التجار وقوافلهم يستعينون بشبكة خانات الدولة على الأقلّ حتى منتصف القرن الرابع عشر حيث أدّى ارتفاع التكاليف بالدولة إلى تحديد استعمال هذه المُنْشآت من قِبَل التجار. وبعد 1340م كان على التجار المسلمين الحُصُول على ترخيص خاصّ لِنُزول الخانات التابعة للدولة والاستفادة ممّا توفّره[71]. ولتفادي هذه الموانع أنشأ التجار فَنادق خاصّة بهم وبغيرهم. وقد كان أحد أثرياء التجار من دمشق توفي سنة 1445م بعد أن أنفق أكثر من مائة ألف دينار في بناء عدد من الخانات الكبيرة على طول الطريق بين الشام ومصر كما أنشأ عدداً من المُنْشآت لفائدة الحَجيج على طول طريق الحِجاز[72].

قد أُنشئ العديد من الخانات في شكل أوقاف، مثل المُنشأة التي أقامها بيبرس قرب القدس، وكانت توفّر السَّكَن على وجه الإحسان، والصَّدَقات وخدمات أُخرى تقدّم للحُجّاج والمُسافرين. وقد كان خان العَيْش قد بناه والي دمشق في ضاحية المدينة سنة 1291م ووقف عليه مداخيل خان آخر ودكاكين ومسلخ للاعتناء به وترميمه وكذلك لترميم المَسْجد والبئر الموجودة به. . . ولدفع ثمن كلّ ما هو مطلوب من زَيْت وحُصُر ومَصابيح وحِبال ودِلاء للبِئْر ولنفقة الإمام الذي يتقاضى أربعين درهماً في الشهر والمُؤذّن ثلاثين درهماً وحمّال بثلاثين درهماً. كما يجب أن تعطى بعض الأموال للفُقراء الذين يقصدون الخان وكذلك للمُسافرين المُعْوِزين[73].

هناك فُنْدُق آخر وهو خان السبيل الذي أنشأه الملك الأشرف في الشام سنة 1371م وله وَقْف مُماثل للحفاظ على المَبْنَى وتوفير الحُصر وغيرها من المرافق التي يحتاج إليها النُّزَلاء[74]. وهناك مُنْشآت أُخرى مَفْتوحة لكلّ المُسافرين

---

(71) Lapidus, *Muslim Cities*, 124.

(72) Sauvaire, "Description de Damas," (1895) 261-262.

(73) Combe et al. (eds.), *Répertoire*, XIII (1944) (no. 4946). كذلك Sauvaget, «Caravansérails syriens» (1940) 1-3.

(74) Combe et al. (eds.), *Répertoire*, XVII (1982) (no. 773 005)؛ كذلك Sauvaget, «Caravansérails syriens» (1940) 10-12.

العابرين منها خان بُنِيَ سنة 1259م لاستقبال كلّ من يأتي وكلّ من ينتقل من مكان إلى آخر سواء كان مُقيماً أو فارّاً أو مُرْتَحِلاً[75].

وكذلك كان شأنُ الخان الأحمر الذي بُنِي في بيسان سنة 1308م "لاستقبال كُلّ العابرين أيّاً كانوا"[76]. وخان الخَطّاب الذي بناه أمير غَنِيّ قرب دمشق سنة 1325م كان فيما يُقال مُريحاً للمُسافرين وهناك خان آخر صغير الحجم بُنِيَ سنة 1396 ليقيم به أبناء السبيل[77].

تُورِد روايات الحُجّاج المسيحيين الغربيين أنه كان يُرحّب بالمسافرين للإقامة في خانات الدولة بمصر والشام. فقد مَرَّ سيمون سيميونيس «Simon Semeonis» بمدينة غَزّة سنة 1223م ووصف بناية مُسَوَّرة (سمّاها فوندوس fundus) كان يمكن لكلّ المسافرين أن ينزلوا بها في أمان ويجدوا فيها الماء لدوابّهم دون مقابل. وقد هَيّأ السُّلطان ذلك توفيراً للأمن والحماية للمُسافرين[78]. والشيء نفسه سنة 1395م يذكر أوجيه الأنغلوري «Ogier d'Anglure» أنَّه وصَحْبَه نزلوا في فُنْدُق يبعد عن القُدْس حوالى مَرْحلتين، كان قد أعاد السُّلطان بناءه كاملاً لفائدة الحَجِيج وغيرهم من الغُرَباء. وقد كانت هذه الإقامة قريبة من قلعة تُدعى البُرج الأحمر[79]. وقد وصل فيلكس فابري بعد قرن من الزمن إلى ما يمكن أن يكون المَبْنَى نفسه ولكنّه كان في حالة سيِّئة، "ولم يبقَ منه قائماً إلّا

---

(75) Combe et al. (eds.), *Répertoire*, XII (1943) (no. 4446).

(76) Combe et al. (eds.), *Répertoire*, XIV (1954) (no. 5235); Sauvaget, «Caravansérails syriens» (1940) 3-4.

(77) Sauvaire, "Description de Damas," (1895) 236 and 283; Sauvaget, «Caravansérails syriens» (1940) 13-14.

(78) Semeonis, *Itinerarium*, 105. ومع أن سيمون يستعمل الصيغة اللاتينية للفظة فُنْدُق (funtus) إلّا أنّ المصادر العربية تُبيّن بوضوح أن هذا الفُنْدُق هو خان.

(79) Ogier d'Anglure. *The Holy Jerusalem Voyage of Ogier VIII, Seigneur d'Anglure*, trans. Roland A. Brown, (Gainesville, University Presses of Florida, 1975) 38.
على الرغم من اسمه فإنه ليس خان الأحمر الذي سَبَق ذِكْره، ولكنه خانٌ آخر معروف على الطريق بين القُدس وأريحا وعادة ما يرتبط في أذهان الحُجّاج المسيحيين بالبَنْدوكيون الذي زاره السامري الصالح.
(L. A. Mayer, "The Name of Khān el Aḥmar, Beisān," *Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine* (Jerusalem) I (1932) 95-96.

الجدران الأربعة ويبدو أنه كان خاناً ويُسمَّى كذلك المَنْزل الأحمر.. دخلنا هذا المنزل وأضَأناه بالشُّمُوع واتَّخذنا لأنفسنا منه مكاناً بإنارة الطَّريق وَسَط فَضَلات الناس والحيوانات التي تملأ المكان ووضعنا حِجارة للجلوس عليها والنوم كذلك[80].

تُشير تعليقات فيلكس فابري وغيره من الرحّالة إلى تَدَهْوُر واضح في نوعيّة المَرافق في الخانات التي توجد خارج المجال الحَضَريّ في أواخر العهد المَمْلوكيّ. إلّا أنّ هذه المؤسَّسات واصلت تقديم المأوى والماء، وفي أواخر القرن الخامس عشر كانت هذه المُنْشآت تعتمد عدداً قليلاً من العاملين أو لا يوجد فيها أصلاً عاملون ولا تقدّم بالضرورة ما يحتاج إليه المُسافرون من فُرُش وغير ذلك من المَرافق. خلال بداية سنة 1430م كان برتراندون دي لا بروكيار «Bertrandon de la Broquière» يميل إلى مَدْح هذه المُؤسَّسات فوصف خاناً في مدينة الخليل على أنه مأوى بُنِيَ صَدَقةً ليقيم به العابرون من هناك في الظلّ ويصف خاناً آخر قرب دمشق بقوله "وهو من أحسن ما رأيت"[81]. لم يكن فيلكس فابري وغيره من الرَّحّالة في أواخر القرن يجدون ما يستحقّ قوله حول هذه الخانات المُخيفة الموجودة في طريقهم. وقد اشتكى رحّالة يهوديّ إيطالي سنة 1495م من أنه لا توجد خانات نظيفة على طول الطُّرُقات في بلاد الشام وهي ليست كتلك التي توجد في إيطاليا حيث تَتَوفَّر غُرَف فيها أسرّة وطاولات. وفي نهاية اليوم قد وصلوا إلى مَبْنىً مُتداعٍ يسمّى "الهان" اشتروا منه الطعام ولكنّه كان عليهم أن يناموا في الفناء مع دوابهم[82]. تذكر المصادر الإسلامية كذلك تَدَهْوُر الخانات المَملوكية في أواخر القرن الخامس عشر. ويبدو أنّ هذا التَّدَهْوُر كان ناتجاً عن الطاعون وما ترتّب عنه من نقص ديمغرافي وضعف

(80) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae,* 11, 80 [211b].

(81) Bertrandon de la Broquière, *Le Voyage d'outremer*, ed. Charles Scheffer, (Paris: Ernest Leroux, 1842) 19, 54; trans. Galen R. Kline (New York: Peter Lang, 1988) 12, 31.

(82) هذه الملاحظات التي قام بها أحد تلاميذ عوباديا دا برتينورو [Obadiah da Bertinoro] وردت في Hirschberg, Z. *History of the Jews in North Africa*, 474-475 وهذا النصّ قد حرَّره A. Neubauer, in *Jahrbuch für die Geschichte der Juden und des Judentums 3* (1863) 276 الكتاب السنوي لتاريخ اليهود واليهودية.

السُّلطة المركزية المَمْلُوكية والتَّحَوّل السياسي لفائدة الشَّراكسة وغَزَوات البَدْو والنَّهْب الذي قام به تِيمورلَنك في بلاد الشام سنة 1401م.

توجد كذلك خانات خارج حُدُود دولة المماليك في الأناضول السَّلْجُوقي وفي شرق العالم الإسلاميّ خلال القرن الثالث عشر. وقد كان كثير منها يوجد على جوانب الطُّرُقات التجارية من وإلى الأسواق المَمْلوكية. فالتجار الذين يُسافرون إلى بغداد وما وراءها أو تجار العبيد الذين يجلبون حُمُولتهم من مماليك المُستقبل من البحر الأَسْوَد عبر الأناضول وصولاً إلى المتوسّط بما في ذلك مصر يحتاجون إلى فَنادق على طول الطريق. وقد كانت هذه المُؤَسَّسات تُسمّى خانات بلا تمييز وليس هنا أثر لفُنْدُق أو فُنْداكو في الأراضي السلجوقية باستثناء ما تورده النصوص التي كتبها أوروبيّون(83).

هناك انتشار مفاجئ للخانات السَّلْجوقية في بلاد الأناضول خلال القرن الثالث عشر خاصّة في السنوات السابقة لسنة 1250م. وقد بقي العديد من نقائش التأسيس وهو ما يفيد بوجود تسعة خانات أنشأها سلاطين من السلاجقة وسبعة أسستها سُلْطانات وستة أسَّسها أُمراء وأربعة أسَّسها وزراء وثلاثة من تأسيس الخواصّ(84). وقد أُنشئت هذه الخانات من أجل الربح سوى أنه في كثير من

(83) من المؤكد أنه كانت هناك خانات في العراق في ظلّ الحكم المغولي والخان الأكثر شهرة هو خان مِرْجان ببغداد (الذي يُعرف في بعض الأحيان بـ: تِيم). وتثبت النقائش العديدة المتعلّقة بأوقاف المدرسة المِرْجانية في 1357 و1359م في عهد الجلاليّين وجود عدد من الخانات التي تُوفّر مداخيل لهذا الوَقْف (Combe et al. [eds.], *Répertoire*, XVI [1964] [nos. 6283, 6329]). See also Hillenbrand, *Islamic Architecture*, 360-361, 370-371; Scharabi, *Der Bazar*, 173; Guthrie, *Arab Social Life*, 98.

لقد كانت الخانات Caravanserias شائعة أَبْعَدَ شَرْقاً، إلا أن الكلمة قليلاً ما كانت تُسْتَعمل في المجال المتوسطي باستثناء ما يكتبه الرَّحّالة الفُرْس، انظر:

Kiāni and Kleiss, *Kārvānsarāhā-ye Irān.*

(84) Erdmann and Erdmann, *Das anatolische Karavansaray*, 204-205.

عن هذه الإنشاءات انظر Rogers, "*waqf* and Patronage," 74-75. يُمكن الاطلاع على أغلب هذه النقائش في Combe et al. (eds.), *Répertoire*, X (1939) (no. 3838), XI (1941) (nos. 4007, 4021, 4127, 4156, 4162, 4190, 4263, 4311, 4313)؛ هناك أيضاً أوقاف تعود إلى القرن الرابع عشر XIV (1954) (nos. 5277, 5590).

الأحيان كانت لدعم الأوقاف. يبدو كما لو أن هذا التزايُد في حركة البِناء كان نتيجة لتضافُر الجهود من أجل مُواكبة تَزايُد تجارة العبيد التي تمرّ عبر الأراضي السَّلجوقية في أواخر العهد الأيّوبيّ وفي العهد المملوكيّ والاستفادة منها. وقد كانت هذه الخانات ذات المُرَبّعات الحَجَرّية الضخمة مُتناسقة الأشكال وقد كان كثير منها موجوداً على طول الطُّرُقات الرئيسية التي تنطلق من موانئ البحر الأسود خاصّة ميناء سمسون في اتجاه مُدُن علانية أو أنطاليا وعبر سيواس وقَيْصَرية وقونية المتوسّطية[85]. وقد كانت الطُرُق التجارية السَّلجوقية تقتفي النماذج السابقة وهي غالباً ما تتبع تلك التي كان يستعملها التجار الرومان والبيزنطيّون، وقد تكون بعض الخانات السَّلجوقية أعادت استعمال حِجارة الفَنادق القديمة[86]. تواصل بناء الخانات في الأناضول خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر في ظلّ حكم العثمانيين الأوائل رغم أن الأشكال والوظائف أصبحت أكثر تَنَوُّعاً بالنسبة لما كانت عليه المُؤَسَّسات السَّلجوقية في القرن الثالث عشر. وعلى خِلاف شبيهاتها السَّلجوقية قد شُيِّد الكثير من هذه المباني في المُدُن[87].

الخانات الحَضَرية في المُدُن المَمْلوكية

وبالرغم من أنّ الخانات الموجودة خارج المجال الحَضَريّ التي كانت في خدمة البريد المَمْلوكيّ كانت واحدة من أهمّ الإنجازات في مجال الرّحلات طويلة المسافات خلال القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر، فإنَّ أغلب الخانات المَمْلوكية كانت موجودة في مُدُن القاهرة والإسكندرية ودمشق وحلب وغيرها من المُدُن الأخرى[88].

(85) Hillenbrand, *Islamic Architecture*, 349.

(86) Sims, "Markets and Caravanserais," 102.

(87) Elisséeff, "Khān," 1013; Sims, " Markets and Caravanserais," 102-103. Also Gabriel Mandel, *I caravanserragli Turchi*, (Bergamo: Lucchetti, 1988).

(88) لقد تمّ وصف العديد من هذه المُنْشآت ورسمها على خرائط في الأعمال المخصّصة لتاريخ الهندسة المِعْمارية في هذه المُدُن، انظر:

Hanna, *An Urban History of Būlāq*; Dorothée. Sack, *Damaskus: Entwicklug und Structur einer orientalisch-islamischen Stadt*, (Mainz am Rhein: P. von Zabern, 1989) 59-60; Eddé, *Principauté ayyoubide d'Alep*, 511-529.

في المجال الحَضَريّ، كان عَمَل الخانات مشابهاً لعمل الفَنادق والوكالات. ويُمكن أن تكون جميعها مُلْكاً للخواصّ أو للدولة أو وَقْفاً. تلبّي الخانات حاجات التِّجارة الحَضَريّة فهي تلعب دور المخازن والأسواق والمُستودعات كما هي في الوقت نفسه مَقَرُّ إقامة للتُّجّار والحُجّاج والطَّلَبة وغيرهم من المُسافرين. فقد أقام الشيخ الصّوفي الزَّواوي عندما وصل من بِجاية سنة 1451م في خان في جزيرة الروضة أغلب وقت إقامته بالقاهرة. وقد كان هذا الخان يُعرف بخان داود المَغْربي وهو ربّما خان خاصّ بالوافدين من الغَرْب الإسلاميّ[89]. ومثلما هو الشأن بالنسبة إلى الفَنادق المُعاصرة لها فقد حافظت الخانات على علاقة كريهة بالبغاء وشُرْب الخَمْر في الفترة المَمْلوكية. فقد ورد في أحلام الزَّواوي أنه التقى امرأة بَغِيّاً خارج خان آخر بالقاهرة وهو أمر مَعْهُود في الأحلام وفي الواقع[90]. وخِلافاً لكَوْن التصميم المُربَّع هو المَعْهُود في خانات الأرياف، فإنّ الخانات الحَضَريّة تظهر بأشكال وأحجام مُختلفة. ورغم أن البعض منها حافَظَ على الشَّكل التقليدي وعلى الفناء الوَسَطي مع فَضاءات الخَزْن والدكاكين والغُرَف في العُلُوّ، فإنّ الشكل الهندسيّ كانت تتحكّم فيه المباني المُحيطة أو ثَرْوة المُؤَسِّس على السواء. فقد كان السلاطين المَمْاليك بيبرس وبَرْسباي وقايِتْباي والغُوْري منذ القرن الثالث عشر حتى بداية القرن السادس عشر، أصحابَ القرار في مشاريع التوسُّع العُمْراني الذي يضمّ الخانات وغيرها من المَباني التجارية في العاصمة. كما أنّ السلاطين كانوا يَقْتَنُون المُمْتلكات في قَلْب القاهرة من أجل توقيفها وفي بعض الأحيان يُلْغُون أوقافاً قديمة كانت لا تزال قائمة آنذاك. وبما أنّ المُمْتلكات الحَضَريّة المرغوب فيها أصبحت قليلة فقد كان على الذي يرغب في التَّبَرُّع اعتماد استراتيجيات استثمار مختلفة للحصول على العَقارات. فبين 1451 و1456م مثلاً اشترى السُّلطان قايِتْباي عدداً كبيراً من المُمْتلكات الحَضَريّة والريفية لتحويلها إلى أوقاف مُعتمداً على ثَرْوته الخاصّة

(89) Katz, *Dreams, Sufism, and Sainthood*, 106.
كان مُتصوفون آخرون بما في ذلك ابن بَطُّوطة يفضلون الإقامة في الرِّباطات أو الزَّوايا عِوَضاً عن الخانات.

(90) Katz, *Dreams, Sufism, and Sainthood*, 120.

وعلى بَيْت المال على السّواء لتمويل مُشترياته[91]. كما استثمر الأُمراء والموظّفون الصّغار في الخانات وغيرها من الفضاءات التّجارية في القاهرة إلّا أنها عادة ما كانت مشاريع مَحْدُودة الطُّمُوح. ولكنّ الوضع كان مُختلفاً نوعاً ما خارج مصر حيث كان السّلاطين يميلون إلى إنشاء الخانات على طول الطُّرُقات في علاقة بالبريد عِوَضاً عن إنشاء الخانات التّجارية في المُدُن. فقد كانت الخانات الحَضَريّة وغيرها من المُنشآت التجارية في بلاد الشام كثيراً ما يُنْشِئها التجار والأُمراء المحلّيون. وبحسب إيرا لابيدوس «Ira Lapidus» فإنَّ ثلاثة من خمسة خانات كان مُؤَسّسُوها معروفين في دمشق المَمْلوكية قد أنشأها أُمراء واثنان أنشأهما تجار وتسعة خانات في حلب من تأسيس أُمراء[92]. وهناك خان آخر بحلب قد بناه تاجرٌ مَمْلوكيّ غنيّ توفّي سنة 1490م، من عائدات مبلغ كبير من الذهب كان قد حصل عليه وديعة[93].

وكما كان الأمر في الفترات الأُولى، فالأدلّة قاطعة أنّ الخانات مثل الفَنادق يمكن أن توفّر مداخيل هامّة. فقد اشتهر أحد أُمراء دمشق الأغنياء في بداية القرن الرابع عشر بامتلاكه خانات وعَقارات أُخرى تُقَدَّر بأكثر من 2.5 ملايين دِرْهم[94]. وقد كانت المداخيل مُتَأتّية من الكِراء ومن معاليم الإقامة والخَزْن والأداءات على المُعاملات التجارية. ورغم شُيُوع ذلك فإنّ هذه الأداءات قد تؤدّي في بعض الأحيان إلى التّذمُّر. فعندما أراد بيبرس إعادة فرض الضرائب (منها ديناران على الخان الواحد) في دمشق بعد فترة طويلة لم يكن فيها مثل هذا الابتزاز، تَقَبَّل الناس ذلك بامتعاض[95]. وبعد قرن من الزمن نَهَبَ منزلَ أحد

(91) Behrens-Abouseif, "Qāytbāy's Investments," 29-34; Carl Petry, *Protectors or Pretorians? The Last Mamluk Sultans and Egypt's Waning as a Great Power*, (Albany, State University of New York Press, 1994) 198-202; Leonor Fernandes, "Mamluk Architecture and the Question of Patronage," *Mamlūk Studies Review* I (1997) 117-118.

(92) Lapidus, *Muslim Cities*, 59-60.

(93) Sibt Ibn al-'Ajamī, "*Trésors d'or*", 157 [102a].

(94) Lapidus, *Muslim Cities*, 124.

(95) Malcolm Lyons, *The Arabian Epic: Heroic and Oral Story-Telling*, (Cambridge: Cambridge University Press, 1995) I, 33.

الأُمراء في دمشق سنة 1389م مجموعةٌ من الناس الغاضبين وهم يشتكون أنه "أعاد فَرْض المُكُوس عليهم واستثمار الخانات والبساتين والضِّياع" له وحده[96].

ومثلما كان الأمر مع الفنادق، ولكن على خِلاف الخانات الريفية، فإن أسماء الخانات الحَضَرية كثيراً ما كانت متَّصلة بالنشاطات الاقتصادية والحِرَفية. ويبدو ذلك واقعاً خاصّة في بلاد الشام حيث تذكر الروايات التاريخية عَدَداً من الخانات في دمشق مثل خان البيض وخان الحرير وعدد من الخانات الأُخرى التي تحمل أسماء أصحابها أو أسماء الأوقاف التي ارتبطت بها[97]. وقد ازدهرت التِّجارة في حَلَب بصورة خاصّة في النصف الأوّل من القرن الخامس عشر وقد يكون ذلك استجابة لنموّ المبادلات مع العُثمانيين في الشمال كما تمّ بناء العديد من الخانات وغيرها من المباني التجارية الأُخرى في المدينة لتلبية حاجات التِّجارة والتجار. وبوصولنا إلى هذه النقطة، فقد كانت هناك خانات للسَّمَك والحِنّاء واللَّبَن والصَّابون والعَسَل والزَّيْت وخانات للفَحْم والدهّانين والقَوَّاسين وخانات الفاخورة والقَصّابية [العاملون بخيوط الذهب] والخَرّاطين والدقّاقين وخانات أُخرى عديدة بأسماء أقلّ دلالة[98]. ويبدو أنّ العُثمانيين

---

(96) ابن صَصْرَة، الدُّرّة المُضيئة، الجزء الأوّل، ص13، فقرة 25 أ.

(97) بالنسبة الى البَيْض، انظر ابن صَصْرَة، الدُّرّة المُضيئة، الجزء الأوّل، ص41، فقرة (11 ب)، بالنسبة إلى الحرير، انظر ابن طُولُون، "حارات دمشق القديمة" تحقيق ح. الزيات، مجلة المشرق، عدد 35، 1937م، ص33-35، نجد خانات أُخرى في تاريخ الجَزَري، al-Jazarī, *Chronique*, 9 (no. 46); Mayer, (ed.). *The Buildings of Qāytbāy*, 51; Combe et al. (eds.), *Répertoire*, XIII (1944) (no. 5034)، ابن طُولُون، إعلام الوَرَى، ص168 من النصّ العربي وص90 من النصّ الفرنسي *les Gouverneurs de Damas*.

(98) ابن الشِّحْنة، الدُّرّ المُنْتَخَب، ص193-195 [248-250]، سِبْط بن العَجَمي، كتاب كُنوز الذَّهَب، ص53 (39 أ) 137-138 (88 ب) Combe et al. (eds.), *Répertoire*, XVII (1982) (no. 774 010), XV (1956) (no. 5951); Scharabi, *Der Bazar*, 169; Sauvaget, *Alep*, 172-173. هناك أيضاً خانٌ للبَيْض في حلب في منتصف القرن الخامس عشر (Lapidus, *Muslim Cities*, 100). كما توجد خانات أُخرى تدل عليها النقائش، انظر: Combe et al. (eds.), *Répertoire*, XV (1956) (no. 5971); Ernst Herzfeld (ed.). *Matériaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum*, Syrie du Nord, Inscriptions et monuments d'Alep 76, (Cairo: Institut français d'archéologie orientale, 1955) (nos. 194, 271, 275).

احتفظوا بهذا النموذج حيث تُبَيِّن إحصاءات مداخيل مدينة حلب سنة 1583م جَزْءاً للمداخيل المُتأتِّية من بعض الخانات نفسها التي ذكرتها المصادر المَمْلوكية[99]. غير أنَّ السياسة الاقتصادية العُثمانية كانت أقلَّ احتكاراً من سياسة المماليك، وكان العديد من الخانات التي كانت تَتَحَكَّم في مُبادلات بعض السِّلَع قد فقدت دَوْرَها في هذه التِّجارة في مُنتصف القرن السادس عشر[100]. وقد يكون هذا التَّراجُع نتيجةً لتنامي أهمّية الوَكالة في المُدُن في أواخر العَهْد المَمْلوكيّ ومع بداية العَهْد العُثماني وتزايُد مَيْل التجار والحُكّام إلى مثل هذه المُؤَسَّسة.

الوَكالة

لقد كانت الوَكالات موجودة منذ العَهْد الفاطميّ ولكنها أصبحت نَمَط الفضاء التجاري السائد في المُدُن في أواخر العَهْد المَمْلوكيّ وفي العَهْد العُثْماني خاصّة في مصر وكذلك في بلاد الشام وشمال إفريقيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر. لم يذكر المَقْريزيّ وابن دُقْمَاق إلّا عدداً قليلاً من الوَكالات في العاصمة المَمْلوكية في أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر ضمن أغلب المباني الموجودة في قلب القاهرة التِّجاريّ شمالي القَلْعة. يضمّ العديد منها وَكالة قَوْصُون ووَكالة باب الجَوّانِيّة التي كانت في الأصل فَنادق وتمّ تحويلها إلى وَكالات. وقد دعم تطويرُ منطقة المِيناء الجديد بِبُولاق في القرن الخامس عشر بناء وَكالات جديدة أصبحت أُوْلى المُنْشآت التجارية في تلك المَنْطقة. وفي نهاية العَهْد العُثْماني أصبحت الوَكالات هي المُهَيْمِنة في القاهرة حتى إنّ الزُّوّار الأوروبيّين في الفترة الحديثة لاحظوا كثرة عدد الوَكالات في المدينة[101]. ويَرِدُ في وصف مصر الذي طلبه نابوليون سنة 1798م إحصاءٌ

(99) Sauvaget, *Alep*, 254-256.

(100) Lapidus, *Muslim Cities*, 100.

(101) Al-Maqrîzî, *Les Marchés du Caire*, 17. عن الوَكالات العُثْمانية في مصر و الشام، انظر كذلك: Scharabi, *Der Bazar*, 192-196; André Raymond, *The Great Arab Cities in the 16th-18th Centuries. An Introduction*, (New York: New York University Press, 1984) 44. B. S. Hakim, *Arabic-Islamic Cities. Building and Planning Principles*, (London: Routledge & Kegan Paul, 1986) 82.

لـ 206 من الوَكالات في المدينة ولكن يُوجد 13 خاناً فقط ولا يوجد فُنْدُق واحد[102].

كانت الفُرُوق المِعْمارية والمالية طَفِيفَةً وبذلك يصعب التفريق بين هذه الأنواع الثلاثة من المُنْشآت التجارية في مُستوى الطابق الأرضي على الأقل، فقد كانت الوَكالات مثل الفَنادق والخانات الحَضَريّة مَبانيَ كان الدخول إليها مَحْدُوداً لأسباب أمْنية ولها بوَّابٌ يحرس بابها الوحيد ويُغْلقه ليلاً. يحتوي الطابق الأرضي على مخازن فردية يمكن غَلْقها ويكتريها التجار. وقد كانت وكالة قَوْصُون التي (كانت فُنْدُقاً في الأصل) تحتوي عدداً من المَخازن المُحيطة بالفناء وقد اشترط مُنْشئُها **"أن لا يُؤَجَّر كلّ مَخْزَن إلاّ بخمسة دراهم من غير زيادة على ذلك وألاّ يُخرَج أحدٌ من مَخْزَنه، فصارت هذه المَخازن تُتَوارث لقلّة أجرتها وكثرة فوائدها"**[103]. وقد كان فناؤها يُستغلّ للتِّجارة وتبادل السِّلَع عادة بالجُمْلة أكثر منها بالمُفَرَّق.

بالرغم من اضطلاع الوكالات بِدَوْر مُماثل للفَنادق والخانات على مُستوى الوظائف التِّجارية فإنها كانت مُرتبطة بصورة خاصّة بالسَّكَن والضِّيافة. لم تكن طوابقها العُليا مُتَّصلة بالجَناح التجاري من المَبْنَى. وفي أغلب الحالات كانت الرِّباع التي توجد فوق مَخازن الوَكالة مَعْزُولة عن الطابق الأرضي ويمكن الوصول إليها عَبْر مَدارج توجد خارج المَبْنَى. وعادة ما تُوَفِّر الوكالات دخلاً عَيْنِيّاً إلى الأوقاف ولكنها على خلاف الفَنادق والخانات لم تكن توفّر السَّكَن مجّاناً للمسافرين الفُقراء وللحَجيج المُعْوِزين.

يمكن العودة بالفَصل بين الأعمال الاقتصادية والضِّيافة إلى أصول الفُنْدُق والخان والوَكالة. ففي حين كان الفُنْدُق والخان منذ بدايتهما يُوفِّران كلّاً من السَّكَن وفَضاءً للتِّجارة، فقد تطوّرت الوكالة من رَحِم النشاط التجاري المَحْض.

---

(102) *Description de l'Egypte* (Paris: Imprimerie Imperiale, 1809-1828); tally cited by André Raymond, *Artisans et commerçants au Caire au XVIII siècle*, (Damascus, Institut français de Damas, 1973) 254.

يذكر رايموند في أماكن أُخرى 360 وَكالة في القاهرة في بداية العصر الحديث (*Great Arab Cities*, 46).

(103) المَقْريزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص93-94.

وكما تمّت مُناقشته في الفصول السابقة فإن دار الوَكالة ووكيل التجار كانا مَوْجُودَيْن في العَهْد الفاطميّ لتوفير حاجات التّجارة والتجار في مصر.

ولوقت بعيد، كانت الوَكالة مرتبطة ليس فقط بعمليّات التّجارة، بل كذلك بالتنظيم الرسمي للنشاط التجاري في مصر وفي جِهات أُخرى. وقد كانت هذه الوظيفة التنظيمية موجودة أيضاً في الخان والفُنْدُق ولكنّها أكثر وضوحاً بالنسبة إلى الوَكالة خاصّة في مُستوى مراقبة المواد المُستوردة. وقد كان هذا الأمر واقعاً منذ القرن الثاني عشر. ففي سنة 1123م أمر أحد الوزراء الفاطميّين ببناء دار الوَكالة في القاهرة لفائدة التجار الوافدين من الشام والعراق[104]. ويبدو كذلك الطابع الرسمي والقانوني لهذه المباني من خِلال وثيقة من وثائق الجِنِيْزة تعود إلى سنة 1141م وتُشير إلى أن عمليّات الشراكة لا يمكن أن تكون صالحة إلّا إذا تمّ عَقْدُها بدار الوَكالة[105]. وبرهن أحد وزراء السُّلطان الملك الكامِل (1218-1238م) في فترة لاحقة على فائدة هذه المُنشآت لتجميع الضرائب لفائدة السُّلطان عندما أمر بإغلاق كلّ الفَنادق والوكالات التي يُباع فيها الكتّان وسِلَع أُخرى بقصد تحويل بَيْعهما في دار وَكالة السُّلطان[106].

لقد مارس السّلاطين المَماليك أكثر من سَلَفِهم، وكذلك أكثر من مُعاصِريهم في الغرب الإسلاميّ، فَرْضَ احتكار الدولة لبعض السِّلَع وعملوا على توجيه التِّجارة عبر مسالك مُعَيَّنة نحو أسواق مُحَدَّدة. وقد مثّلت الوَكالة الأداة المُثلى لتحقيق هذه الطُمُوحات الجِبائية التنظيمية وأصبحت من الأدوات المُفَضَّلة لجمع المَداخيل من التِّجارة لفائدة السلاطين ولأوقافهم أو لفائدة خَزينة الدولة[107]. وقد كان هذا التَّوَجُّه من المُمَيّزات الخاصّة بالعهد المملوكيّ المتأخّر

---

(104) ابن مُيَسَّر، أخبار مصر، ص62، Goitein, *A Mediterranean Society*, 1, 188.

(105) ENA 4020, f. 2; Goitein, *A Mediterranean Society*, 1, 188.

(106) Sāwîrus ibn al-Muqaffa' *Patriarchs of the Egyptian Church*, IV. I, (1974), 32-33 (Arabic), 68 (English).

(107) قد يضطلع الفُنْدُق أيضاً بهذا الدور ويهدف الى الشيء نفسه وعزّز فعلاً أهدافاً مماثلة في القُرُون السابقة إلا أنه في العَهْد المَمْلوكي كان العديد من الفَنادق يُستعمل في أغراض أُخرى وربّما كان مرتبطاً بوَقف. ويبدو أن الفَنادق في بلاد المغرب في الفترة نفسها واصلت دورها في القيام بوظيفة تنظيمية كانت تتمثّل في القرن الخامس عشر خاصّة في =

إذ فرض السُّلطان بَرْسباي احتكار الدولة لتِجارة الفُلْفُل سنة 1429م محقّقاً بذلك الأرباح لحسابه الخاص[108].

وقد كانت مثلُ هذه الاستراتيجيات ردودَ فِعْل أكثر منها حَرَكات اسْتِباقية، هدفُها تحقيق الرِّبح الآني أكثر منها تعزيز المنافع الاقتصادية على المَدَى الطويل. تعاظمت وظيفة الوَكالة لتُصْبح من المَرافق الأساسية التي من خلالها سَعَى السلاطين لمُراقبة تِجارة سِلَع مُعَيَّنة مثل الغِلال والفُلْفُل والسُّكَّر والحرير والكَتّان والقُطْن والصّابُون والقمح. وقد ميز المَقْريزيّ بين فُنْدُق دار التفّاح في الفُسْطاط الذي تُجلب إليه الغلال المَحلّية للبيع ووكالة قَوْصُون بالقاهرة التي كانت تَلْعَب نفس دور الفُنْدُق أو الخان، ولكنّها عُنِيَت "**بضائع بلاد الشام مثل زيت الزيتون والشَّيرَج والصابون والدُّبْس والفُسْتُق والجَوْز واللّوْز والخَرْنُوب والرُّبّ ونحو ذلك**"[109]. وقد كان يتمّ بَيْع هذه البضائع بالجُمْلة في هذه المُنشآت أو يقع توزيعها لتُباع في أسواق مصر وربّما منها فُنْدُق التُّفّاح[110]. وقد مرّت هذه المُنْشآت في بداية القرن الخامس عشر بصعوبات جَرّاء تقلُّب الحالات السياسية والاقتصادية. وقد يكون تدهورها أدّى إلى تدعيم مداخيل وَكالة أُخرى، هي وكالة باب الجَوّانية، التي أُنشئت في بداية سنة 1390م من قِبَل السُّلطان بَرْقُوق كمُستودع للبضائع الشامية التي تَرِدُ على العاصمة بواسطة المراكب[111].

واللافت للنظر أنه عندما كانت هذه المُنْشآت تحمل غالباً أسماء الأُمراء والرسميين مثل مَسْرُور وقَوْصُون وطُرُنْطايي وغيرهم، فقد كان العديد من المُجمَّعات التجارية الكبيرة في أواخر العهد المَمْلوكيّ يحمل أسماء السلاطين

= مُراقبة المُبادلات التجارية المُتعلّقة بالقمح ولم تزدهر وَكالات المِلح في الغرب الإسلامي إلا في فترة متأخّرة.

(108) Labib, "Egyptian Commercial Policy," 77.

(109) المَقْرِيزي، **الخِطَط**، الجزء الثاني، ص93.

(110) نفس المصدر وانظر كذلك المَقْرِيزي، **أسواق القاهرة**، ص141-142. انظر التعليق في Labib, "Egyptian Commercial Policy," 72.

(111) المَقْرِيزي، **الخِطَط**، الجزء الثاني، ص93-94، لقد كانت مداخيل وكالة باب الجَوّانية تذهب إلى وَقْف أقامه السُّلطان.

مثل وكالة قايْتباي وقد بُنيت سنة 1480م ووكالة الغُوري وقد بُنيت في 1504-1505م. ولكنّ ذلك لا يعني أنّ كلّ الوَكالات في الشرق كانت مِلْك السلاطين، بل على العكس من ذلك أدّت أهمّيتها ومُرُونتُها كمُنْشأة تِجارية رابحة إلى تطوُّرها ليس كمُنْشأة تحت تَصَرُّف الدولة فقط ولكن أيضاً كفَضَاء تِجاريّ يملكه الخواصّ. فقد كان العديد من الوَكالات من إنشاء التجار ومن مُمْتلكاتهم وكانت تُستعمل ليس للتِّجارة فقط ولكن أيضاً للخَزْن وللإنتاج الحِرَفي، كما أنّ العديد منها كان مُنْدمجاً في الأوقاف الخاصّة. وقد وَفَّر تطوُّر ميناء بُولاق فُرصة سانحة لهذه المُنْشآت الجديدة حيث ركّز التجار مَقَرّات تجارتهم ووكالاتهم في هذه الناحية من المدينة. وقد اختار تاجر كَريمي، نُور الدين الطَّنْبدي (ت سنة 1432م) هذه المنطقة كموقع لوكالته الجديدة في بداية القرن الخامس عشر قبل أن يُضَيِّق السُّلطان بَرْسباي على أنشطة تجار الكريمي بقليل(112). وقد تواصلت الوَكالة كفَضاء للنشاط التِّجاريّ الخاصّ ولاسيّما في ظلّ الإدارة العُثْمانية وليس في مصر فقط ولكن كذلك في الشام وبلاد المغرب(113).

يعكس استعمال الفَضاء التِّجاريّ في المُتوسّط الإسلاميّ في العصر الوسيط المُتأخّر من نواحٍ مُختلفة النماذج التي تركّزت في القرون السابقة. وقد تواصل وُجُود مُنْشآت التِّجارة والسَّكَن الأساسية ـ الفُنْدُق والخان والوَكالة ـ ولكن التَّفوُّق النِّسْبي والمَرْتبة الوظيفية وعلاقات هذه المُؤسّسات فيما بينها تغيّرت بصورة واضحة في القرن الخامس عشر. فقد أصبح الفُنْدُق في المَجال المَملوكيّ في الشرق الإسلاميّ أقلّ شيوعاً، إذ تغيّرت تَسْميات العديد منها لتصبح خاناً أو وَكالة كما أصبحت هاتان المُؤسَّستان مُسَيْطرتَيْن كمُنْشآت للسَّكَن والخَزْن والتِّجارة في مُدُن مصر والشام. في حين واصلت الفَنادق ازدهارها في بلاد المغرب غير أنها أصبحت تقوم بدور السَّكَن والعمل الحِرَفي أكثر ممّا كانت تقوم به من قبل. فالخانات كانت دائماً نادرة في الغرب الإسلاميّ وبالرغم من أن الوكالات

(112) Hanna, *An Urban History of Būlāq*, 22-23.

(113) Nelly Hanna, *Making Big Money in 1600: The Life and Times of Ismā'īl Abū Ṭaqīyya*, (Syracuse: Syracuse University Press, 1998) 127-133. Hanna, *An Urban History of Būlāq*, 17; M. Callens, «L'Hébergement à Tunis: fondouks et oukalas,» *Institut des Belles Lettres Arabes* (Tunis) 70 (1955) 257-271.

أُدخلت بنجاح في المُدُن المَغْربية فهي لم تكن شائعة قطّ هنالك مثلما هو الحال في مصر. لا يمكن تفسير تَزامُن تراجُع مُؤَسّسة الفُنْدُق وبروز مُؤسَّستي الخان والوَكالة في المجال المَمْلوكيّ بسبب واحد وإنما لِعِدّة أسباب، منها ما هو طبيعيّ ومنها ما هو مَقْصود، تضافرت فيما بينها لتؤدّي إلى هذا التحوُّل التدريجي. ويمكن تفسير تغيُّر المُصطلحات التجارية، جزئيّاً بالتغيّر في مُستوى اللُّغة. وكلّما شاعت كلمة تُقَلِّص استعمال كلمة أُخرى ولو أن كلّاً منهما يُعبّر عن المَبْنَى نفسه الذي له تقريباً الوظائف نفسها. ولكن يبدو أنّ الوضع كان أكثر تعقيداً من أفضلية لُغوية بسيطة. فعندما يقول المَقْرِيزيّ إنّ هذا المَبْنى أو ذاك قد بُني في الأصل فُنْدُقاً ثم تمّ تحويله بعد فترة قصيرة إلى وَكالة بأمر من السُّلطان فإنه من الواضح أنّ الأمر يتجاوز مسألة التسمية. فقد عرفت الوظائف نفسها تغيُّراً تماشياً مع تغيُّر التسمية.

فعلى الصعيد السياسي، كان بلا شكّ لتغيُّر نظام الحُكْم سنة 1250م دلالته، فقد وضع السلاطين المَماليك تنظيمات جديدة ووضعوا التجار والفضاءات التجارية تحت مراقبتهم. وكانت هذه الأساليب الجديدة للمُراقبة قد اعتمدت على النماذج السابقة خاصّة تلك التي طوَّرها الأيّوبيّون وقد زاد عليها الحُكّام المَماليك ووسّعوا من دائرة إشرافهم على التّجارة والتجار. فقد افتتحت الدولة خلال القرن الأوَّل من الحُكْم المَمْلوكيّ شبكة من الطُّرُقات والفَنادق والطُّرُقات البَرِيّة والمُواصلات أكثر انسجاماً وأكثر اندماجاً وبذلك أصبحت الاتّصالات بين المِحْوَر السياسي بالقاهرة والمُدُن الإقليمية بالشام أكثر أمناً. وقد كان هذا التطوّر في جزء منه نتيجة لهزيمة المَغُول في عَيْن جالوت سنة 1260م وسُقُوط آخر إمارة صليبية بعكّا سنة 1291م وهي من الأحداث التي مكّنت المماليك من السيطرة على كامل بلاد الشام بما في ذلك أسواق حلب ودمشق الهامّة. وقد ساعدت إعادة تنشيط نظام البريد على تدعيم السُّلطة المَمْلوكية في بلاد الشام وأدّت إلى إنشاء الخانات على طول الطُّرُقات. وقد أدّى ضبط الطُّرُقات الرابطة بين مصر والشام والأناضول والعراق والمناطق الشرقية البعيدة إلى إضفاء حيوية جديدة على الخانات الموجودة على طول المسالك البرية في أواخر القرن الثالث عشر وخلال القرن الرابع عشر.

وفي الوقت نفسه لعبت التحوُّلات الديمُغرافية والتغيُّرات اللُّغوية دورها في تغيُّر المُصطلحات التجارية والمِعْمارية. فقد أدّى وصول المماليك إلى السُّلطة إلى ازدياد استعمال اللُّغة التُّركية في الشام ومصر من قبل النُّخبة الحاكمة التي كان من مشاريعها المِعْمارية تأسيس الخانات. كما ازدادت شعبية الخانات نتيجة للتواصُل مع المناطق المُجاورة التي كانت تحت حُكْم السلاجقة وغيرها من الإمارات التركية الأُخرى بمنطقتي الأناضول والعراق. كما لَعِبَت الأزمات الديمُغرافية الناتجة عن المجاعات وعن الطاعون دوراً في تدعيم التحوُّلات المُتَرتِّبة عنها في مُستوى استعمال الفضاءات التجارية. فقد تضرّرت الفَنادق والأسواق سنة 1348م لأنها، كأيّ مكان يجتمع فيه الناس، أصبحت مصدراً للأوبئة. فيذكر المَقْرِيزيّ أنّ **"المَساجد والفَنادق والحوانيت في بِلْبَيْس قد امتلأت بالمَوتى ولم يجدوا من يدفنهم"** وفي الإسكندرية **"غُلقت دار الوكالة وغُلقت الأسواق لعدم الواصل إليها... وصارت الفَنادق لا تجد من يحفظها"**[114].

وبعد انتهاء الأزمة، فُتِحَت هذه المُنْشآت من جديد ولكن كالعادة فقد مهّدت هذه الأزمة الطريق أمام التحوُّلات. قد تكون الحاجة إلى الرَّقابة المُشدّدة وإلى المُراقبة في فترة النُّشوء، أدّت إلى قَبُول عامّ للتنظيمات الصارمة التي سنّتها الدولة لمُراقبة المُنْشآت التجارية. وقد يكون من المُرَجَّح أن المُنْشآت الناجحة فقط أو تلك التي تدعمها الدولة هي التي فتحت أبوابها للنشاط في أعقاب إغلاقات الطاعون.

أدّى النظام السياسي الجديد والمُمارسات الاقتصادية الاحتكارية في أواخر القرن الرابع عشر وخلال القرن الخامس عشر إلى بداية مُبادلات مُؤسَّسية بين مصر والشام. وقد رأى المَقْرِيزيّ أنّ السِّياسات الماليّة والجِبائية الجديدة التي تمّ اتّباعها بعد وصول الشَّراكسة إلى الحكم سنة 1382م قد أثّرت سَلْبيّاً في الاقتصاد المِصْري. فمن الأكيد أنّ أعمال السلاطين بَرْقُوق والمُؤَيَّد وبَرْسباي وغيرهم في أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر قد أثّرت في التِّجارة وفي المُنْشآت التجارية. وهذا أمر واضح من خلال فرض سياسة الاحتكار والقضاء

(114) المَقْرِيزي، كتاب السُّلوك، الجزء الثاني، القسم الثالث، ص777-779.

على تجار الكريمي وهَدْم بعض المباني التجارية (الفَنادق خاصّة) وبناء مبانٍ أُخرى (عادةً ما تكون وَكالات).

ربّما كانت هذه المحاولات السُّلطانية في كثير من الحالات ردّ فعل على واقع اقتصاديّ أوسع لسلطنة المَماليك وليس مُجَرَّد نزوات سُلطانية أو رغبة في الإثراء الشخصي. فهناك تغييرات بعيدة المَدى بدأت منذ أواخر القرن الرابع عشر مثل الخَراب الذي خلّفته حَملات تيمورلنك العسكرية في بلاد الشام وتدهور "السلم المغولي" في آسيا وتفشّي الطاعون وظهور الإمارات العُثمانية والتِّجارة في الأناضول والهَيْمنة المُفترَضة للأوروبيّين الغربيين من خلال سيطرتهم على المسالك البحرية في المتوسّط وتحوُّل الاهتمامات التجارية الإسلامية الناتجة عن ذلك نحو المُبادلات البَريّة والبحر الأحمر والمُحيط الهندي. فقد أدّت كلّ هذه العوامل إلى إعادة هيكلة المُنْشآت التجارية في المُدُن المَملوكية.

وفي النهاية تتمثّل أهمّ أسباب تدهور مُؤسّسة الفُنْدُق في تزايد أهمّية التجار الغربيين وفَنادقهم. وقد زاد في انتشار الفَنادق الغربية أن التجار المسيحيين الأجانب والحُكّام المسلمين قد استفادوا من هذه المُؤسَّسات. ولم يكن الحاجّ الألماني فيلكس فابري هو الوحيد الذي أذهلته كَثْرُة البضائع وعدد الناس الذين يُتاجرون من خلال الفَنادق في الإسكندرية في أواخر القرن الخامس عشر. ولئن كانت الفَنادق الغربية مُنْحصِرة في موانئ المُدُن الإسلامية ولئن كانت ضرورية لمَسار التِّجارة العابرة للثقافات، فقد أدّى ازدهارها إلى بداية تآكل هُويّة الفُنْدُق الإسلاميّ. وسوف يُدْرَس توسُّع انتشار الفَنادق الغربية (فُنْداكو) في العصر الوسيط المُتَأَخِّر في الممالك المَمْلوكيّة وفي بلاد المغرب وأثرها في الفَنادق الإسلامية (الفُنْدُق) في الفصل التالي.

الفصل الثامن

التِّجارة المسيحية وتدعيم نظام الفُنْداكو

لقد ازدهرت الفَنادق المُخَصَّصة للتُّجّار الأوروبيّين خلال العصر الوسيط المتأخّر في المُدُن المِيْنائية في العالم الإسلاميّ إلى جانب المُنْشآت التجارية المُخَصّصة للتُّجّار المَحلّيين. فقد ظلّت الفَنادق عاملاً مهمّاً في مفاوضات العلاقات بين التجار الأوروبيّين والمسلمين وتشهد المصادر الإسلامية والمسيحية على السواء على وُجود هذه المُنْشآت الغربية. ولا يمكن اعتبار تنامي التِّجارة العابرة للمتوسّط خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر كمُجَرَّد مُنْحَنَى تصاعدي. ففقد أدّت الحُرُوب المُتقطّعة والقَرْصنة والموانع الدينية التي تقف ضدّ التفاعُل وانقطاع العلاقات الدبلوماسية جميعها إلى تقديم مظهر أكثر حدة لهذا التنامي. وقد كان عدد التجار الغربيين المُتعاملين مع الموانئ الإسلامية يتغيَّر بصورة معبِّرة من سنة إلى أُخرى وكذلك حَجْم تجارتهم. وعلى الرغم من تَذَبْذُب النشاط في المُنْشآت الخاصّة أو في بعض الجِهات، تمكّن الفُنْداكو من البقاء والازدهار إلى حُدُود القرن السادس عشر، في الوقت الذي تقلّص فيه وجود الشكل القديم للفُنْدُق خاصّة في المُدُن المَمْلوكية. وفي الواقع يمكن أن يكون تدعيم نظام الفُنْداكو كأداة وساطة في التِّجارة الإسلامية ـ المسيحية في بلاد المغرب ومصر والشام، قد ساهم في تراجع المُؤَسَّسات التي انْبَثَق عنها. ويتناول هذا الفصل بالدرس أسباب تواصُل ازدهار الفُنْداكو في العصر الوسيط المتأخّر ويبحث دوره في تيسير التِّجارة العابرة للثقافات في العالم المتوسّطي إلى بداية العهد العثماني.

لقد كانت مُؤسَّسات الفُنْداكو مُماثلة في الشكل والوظيفة للمُؤسَّسات الشبيهة لها والتي سبقتها في القرنين الثاني عشر والثالث عشر[1]، إلّا أن الظروف السياسية والاقتصادية لكليهما كانت مُغايرة. فمثلاً، ساهمت العديد من العوامل، التي أدّت إلى تراجع الفُنْدُق في العصر المملوكيّ المُتأخّر مثل فرض المُراقبة الرسمية على التّجارة في تحوُّل مسالك التّجارة في مصر والشام وفي تنامي أهمّية الفُنْداكو بالتوازي مع تزايُد التّجارة الأوروبية وهَيْمَنة الأوروبيّين البحرية على المتوسّط. توجد كذلك اختلافات في تسيير الفُنْداكو في شرق المُتوسّط وغربه نتيجة اختلاف المناخ السياسي والدبلوماسي في الأراضي الخاضعة للإدارة المملوكية وفي المَمْالك الحَفْصِية والمَرِينية والنَّصْرِية.

ظلّت مُؤسّسات الفُنْداكو في أواخر الفَتْرة الوسيطة مرغوباً فيها جداً ورابحة لكلّ من الحُكُومات وتجارهم سواء من المسلمين أو المسيحيين. وقد كان التجار الغربيون في حاجة إلى دخول أسواق العالم الإسلاميّ حيث يمكنهم اقتناء المواد الثمينة الواردة من الهند والشرق الأقصى وكذلك المواد المحلية كالقُطْن والكَتّان والسُّكّر وغير ذلك من المواد الأُخرى. فقد كانوا يبادلون ذلك بالسِّلَع الأوروبية نُقُوداً وأسلحة وعَبْيداً مَجْلُوبين من مناطق شمال البحر الأسود. وقد شجّع الحُكّام الأوروبيّون هذه التّجارة رغم قرارات المَنْع البابوية الظَّرْفية نظراً لما يحصلون عليه من فوائد من التّجارة والضرائب وكذلك من مُؤَسَّسات الفُنْداكو ذاتها. إنّ المبالغ المُتَأتّية للجَنَويين من الفُنْداكو الذي يملكونه بالإسكندرية كانت تُعادل تقريباً نصف المداخيل التي يحصلون عليها من بيرا «Pera» مستعمرتهم الوحيدة بالبحر الأسود وتفوق كذلك رُبْع ما يحصلون عليه من ميناء جَنَوة ذاته[2]. كما أنّ السُّلطة المَمْلوكية استفادت هي أيضاً من مُؤَسَّسات الفُنْداكو الأجنبية سواء من الضرائب المَفْروضة على التّجارة الدولية أو من نظام الفُنْداكو الذي يمنع التجار

(1) لهذا السبب لن تُناقَش العديد من الخصائص الأساسية في هذا الفصل لأنه تمّ تناوُلها في الفصل الرابع. سوف يقع التركيز هنا على التطورات الجديدة المتعلّقة بوظيفة الفَنادق وإدارتها في الموانئ الإسلامية في أواخر العصر الوسيط.

(2) R. S. Lopez, *Commercial Revolution of the Middle Ages, 950-1350*, (Cambridge, Cambridge University Press, 1976) 100.

الغربيين من الوصول إلى الأسواق الداخلية والأسواق الإسلامية المَحْمِيّة من المُنافسة في البحر الأسود والمُحيط الهندي.

وقد كانت الإسكندرية إلى حدّ ما وتونس ودمشق هي آخر النقاط التي يصلها شَتَات التجار الأوروبيين. فقد كان التجار الغربيون يمارسون نشاطهم من وإلى هذه الأسواق لكنْ قَلَّما يتوغّلون داخل الأراضي الإسلامية إذ كان نظام الفُنْداكو أساسيّاً في الإبقاء على مثل هذا النموذج. وقد كانت الإسكندرية أهمّ المناطق التي يقصدها التجار الأوروبيون في عالم المتوسّط الشرقيّ، في جزء كبير، منه بسبب عمل الحكومة المَمْلوكية على توجيه النشاط التجاري المسيحيّ مُباشرة نحو المدينة وفَنادقها. ولم يكن هناك تشجيع للتُّجّار الأوروبيّين على الذهاب إلى القاهرة عَلاوةً على عدم وُجُود فَنادق في العاصمة المَمْلوكية. وقد أكّد الحاجّ الفلامنكي يوس فان غيستاله «Joos van Ghistele» الذي زار الإسكندرية في بداية 1480م على دور الوساطة التجاري الذي تلعبه المدينة وهي في الوقت نفسه المركز والحدّ للتِّجارة العابرة للثقافات. فقد "كانت مدينة تجارية توجد على ساحل البحر. وهي بمثابة نُقطة حُدُودية تزخر بالتجار الأغنياء الذين ينحدرون من كلّ الأُمم من تُرْك ومغاربة وإسبان وجَنَويين وبنادقة وإيطاليين وقَطَلانيّين وأحباش وتتار وفُرْس ووثنيين وعرب وأمم أُخرى لا يمكن حصرها"[3].

كانت مباني الفُنْداكو الموضوعة على ذِمّة الغربيين تمتلكها الحكومة المَمْلوكية وتُسَيِّرها وقد كان هناك وُضُوح أكثر للتأثير الرسمي والمُراقبة على هذه المُؤسّسات في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ممّا كانت عليه في الفترات السابقة. وقد كان من المفروض أن يظلّ التجار الغربيون في الفُنْداكو مثلما كان الأمر بالنسبة للحُجّاج الغربيين ولا يغامرون بالخروج خارج الأسوار دون أن يصطحبوا دليلاً أو تُرْجُماناً مُعْتَرَفاً به من قبل الدولة. فتحدّ رقابة التُّرْجُمان من حرية التجوال في المدينة وربّما يطّلعون على فضاءات مَمْنُوعة لأسباب دينية أو

(3) Joos van Ghistele, *Le Voyage en Egypte de Joos van Ghistele, 1482-1483*, trans. Renée Bauwens-Préaux, (Cairo: Institut français d'Archéologie orientale, 1976) 113 [176-177].

عَسْكرية (كان بعض الحُجّاج والتجار الغربيين يشتغلون جواسيس). وقد كان التُّرْجُمان مسؤولاً عن توفير الأمن للأجانب الذين كانوا في عُهْدَته، ففي بعض الحالات قد يتعرّض الرَّحّالة المسيحيون الذين لم تكن لهم حِماية إلى الرَّجْم بالحِجارة أو السَّرِقة أو المُضايقة من قِبل الأهالي أو ربّما يُنْهَبُونَ في زَحْمة مدينة لا يعرفونها مثلما حدث لفيلكس فابري الذي اضطرّ لطلب المُساعدة ليصل إلى الفُنْداكو الذي يقيم فيه(4). يصف الحاجّ الأيرلندي سيمون سيميونيس سنة 1323م الطريقة التي تمكّن بها "من الحصول بوساطة تُرْجُمان السُّلْطان على أمان يسمح لي بالسفر حُرّاً آمناً في مصر والأراضي المقدّسة... وشهادة على ذلك زَوَّدَنا السُّلطان بجوازٍ يحمل خَتْمه وطوله ذِراع وعَرْضه نصف ذِراع"(5).

تؤكّد المُعاهداتُ الدبلوماسية وكلُّ العُقُود التجارية بين القناصل الغربيين والسلاطين المَماليك على دِقّة هذه العناصر التنظيمية لنشاط الأوروبيّين في الإسكندرية ودُمْياط وغيرها من المُدُن الأُخرى التي توجد فيها فَنادق للغربيين. فالمعلومات الإلزامية هي التي يمكن البحث عنها من خلال الوثائق الرسمية، غير أن هناك إشارات إلى وُجُود بعض الأوروبيّين الذين اندمجوا أكثر من غيرهم في الحياة المِصْرية وكانوا يعملون خارج قِطاع الفُنْداكو. يبدو على سبيل المِثال أنّ البيشاني سرجيو مالبيليو «Sergio Malpilio» كان يسكن سنة 1285م منزلاً على مُلْكه بمدينة دُمْياط(6). كما عُرِفَ أن بعض الجَنَويين كانوا في خِدمة السُّلطان في بداية القرن الرابع عشر، وبعد قرن من الزمن تؤكّد معرفة إيمانويل بيلوتي «Emmanuel Piloti» باللهجة العربية والحياة اليومية المِصْرية وسَعَة رحلاته

---

(4) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae* , III, 174 [134b], *Voyage en Egypte*, II, 715.

(5) Semeonis, *Itinerarium*, 97.

وقد لاحظ بعده جيورجيو غوشي [Giorgio Gucci] أن السُّلطات المَمْلوكية فرضت على الحُجّاج أن يتنقلوا مع مترجمين "من أجل الحفاظ على أمن المسيحيين والحُجّاج حتى لا يقتلوا أو يتعرَّضوا للسرقة" (Frescobaldi et al, *Visit to the Holy Places*, 95).

(6) Otten-Froux, «Les Pisans en Egypte et à Acre,» 189 (doc. 15). وقد كان هذا المنزل موجوداً بالقرب من فُنْدُق آخر يُسَمَّى فُنْداكوم بَدِري [*fundachum Bederi*] (*ibid.*, 188-189 [docs. 14, 15])، وليس واضحاً من الاسم إذا كانت هذه المؤسّسة مِلْك مُسْلم أو مسيحي.

وامتلاكه للمُمْتلكات بمصر أنّ تجاربه لم تقتصر على الحياة داخل الفُنْداكو(7). وبما أنّ المُؤرِّخ المَمْلوكيّ المَقْريزيّ يتحدّث عن مُنْشأة في القاهرة خاصّة لإقامة الجُنُود الفَرَنج (وهي إمّا سِجْن أو ثُكْنة) فذلك دليل على الحضور الغربي بمصر(8).

وقد يكون هؤلاء الأوروبيّون استثناءً للقاعدة ولكنّهم كانوا دلالة على أنَّ جُدْران الفُنْداكو كانت نَفّاذة وأنَّ الأبواب لم تكن دائماً مُغْلَقة. إنّ فَهْمَنا لِنظام الفُنْداكو على أنه نِظام مُحْكَمٌ يجب تعديله دائماً انطلاقاً من الجوانب العَمَليّة (البراغماتية) للتِّجارة والطبيعة البشرية.

أهو جُزْء صغير من أوروبا؟ وَصْف المباني والامتيازات والتضييقات والمَسار

تُقدّم لنا رِوايات الحُجّاج الغربيين وَصْفاً عِيانيّاً حيّاً للفَنادق في الإسكندرية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ويعبِّر إجماع أغلب الرّوايات على ما وَرَدَ فيها من أخبار عن صِحَّتها. إنَّها رِوايات مُنْبَهِرة بِحَجْم الفَنادق وبِعَدَدِها ولكنّها عادةً ما تكون رَجْع صَدَى لمُلاحظات الرحّالة السابقين وهي توحي كما لو أنه رغم التحوُّلات السياسية ورغم تطوّر حجم التِّجارة الأوروبية أن المميّزات الأساسية لنظام الفُنْدُق المصري ظلّت ثابتةً على مَرِّ الزمن. فلم يلحظْ زُوّار

(7) M. Tahar Mansouri, "Les Communautés marchandes occidentales dans l'espace mamlouk (XIIIe-XVe siècle), in *Coloniser au moyen âge*, ed. Michel Balard and Alain Ducellier, (Paris: Armand Colin, 1995) 99; Piloti, *Traité*, xx, xxiii,-xxvi, 181 (50v).
كتاب بيلوتي [Piloti] الثَّريّ بالمعلومات عن التِّجارة المصرية، كان موجّهاً للبابا يوجين الرابع [Eugene IV] وكُتِبَ لحثّ البابا على تنظيم حملة صليبية جديدة. وقد تَمَّ الكتاب سنة 1438.

(8) المَقْريزي، الخِطَط، الجزء الثاني، ص188، أشكر كارل بيتري [Carl Petry] على هذه الإحالة.
[المترجم: ما يقوله المَقْريزي مخالف لقراءة الباحثة، فقد ذكر أن "...خزانة البُنود.... احترقت في سنة إحدى وستين وأربعمائة، فَعُمِلت بعد حريقها سِجناً يُسجَن فيه الأمراء والأعيان إلى أن انقرضت الدولة فأقرها ملوك بني أيوب سِجْناً ثم عُمِلت منزلاً للأمراء من الفَرَنج يسكنون فيها بأهاليهم وأولادهم في أيام الملك الناصر محمد ابن قلاوون بعد حضوره من الكَرك، فلم يزالوا بها إلى أن هدمها الأمير الحاجّ آل ملك الجوكندار نائب السلطنة بديار مصر في سنة أربع وأربعين وسبعمائة...."]

الإسكندرية وجود فنادق (فُنْداكو) خاصّة بالتجار الغربيين وحسب ولكن كذلك وجود مثلها بالنسبة للتُّجّار المسلمين واليهود والوَثَنيين الذين يُمارسون نشاطهم التجاري في المدينة. وربَّما يعكس استعمالهم لكلمة فُنْداكو أنّ كلمة فُنْدُق العربية تُطلق على المُنْشآت الخاصّة بالتجار الأجانب والمَحلّيين في الوقت نفسه[9]. ولكن من المُرَجَّح أن كلمة فُنْداكو في أواخر العصر الوسيط أصبحت الكلمة المُسْتَعملة في اللُّغات الأوروبية للتعبير عن هذه المُنْشآت الموجودة في ما وراء البحار لضمان الإقامة ومُمارسة التِّجارة. فقد ذكر الرَّحّالة اليهوديّ مِشُلَّم بن مناحيم أصيل مدينة فولتيرا سنة 1481م "أربعة فَنادق (فُنْداكو) كُبْرى للفَرَنج: واحد للتُّجّار القَطَلانيّين وواحد للجَنَويين وقُنْصُلهم وفُنْدُقان للبنادقة وقنصلهم وقد كان جميعهم على يَمِين الشارع بالنسبة إلى الداخل إلى الإسكندرية ويقابلهم على الجِهَة الأُخرى الفُنْداكو الكبير الخاصّ بالإسماعيليين"[10]. كما ذكر مُعاصِرُه الرَّحّالة الألماني فيلكس فابري سنة 1483م، أربعة فَنادق غربية (فُنْداكو) رئيسية، واحد لكلّ من القَطَلانيّين والجَنَويين وفُنْدُقان للبنادقة فضلاً عن تلك التي كانت للأتراك والمغاربة والتتار. تذكر رِوايات أُخرى عدداً أكبر من الفَنادق الأوروبية (فُنْداكو) ذاكرة مُنشآت خاصّة بالتجار من بيشة وقُبْرُص وبالرمو وأنكونا ونابولي ومرسيليا وغايتا [Gaeta] ومونبليه وكانديا ونَرْبونة وأفينيون وقَشتالة وفلورنسا وغيرها من الجِهات الأُخرى[11].

---

(9) يُفهم من نصوص المُعاهدات مُزْدَوجة اللُّغة أن الفُنْدُق والفُنْداكو يعنيان الشيء نفسه في الترجمة المباشرة، انظر على سبيل المِثال مُعاهدة 1429م بين السُّلطان بَرْسباي وألفونس الخامس ملك الأراغون.

(R. Ruiz Orsatti, "Tratado de paz entre Alfonso V de Aragón y el sultán de Egipto, al-Mālik al-Ashraf Barsbāy," *al-Andalus* 4 [1936] 343, 363).

ومعاهدة 1489م بين فلورنسا والسُّلطان قايتباي (Amari [ed.], *Diplomi arabi*, 208-209).

(10) Meshullam ben Menahem, *Masa'*, 49; trans. in Adler, (ed.). *Jewish Travellers*, 162. يُشير مِشُلَّم إلى الفُنْداكو (fondaco) بـ فونيكي (foniki) رُبّما لتكييف الصيّغة الإيطالية fonnechi في العبريّة. وهو يستعمل كذلك لفظة فُنْدُقي في أماكن أُخرى.

(11) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae* , III, 149-150 [126b], 163-164 [130b-131a], *Voyage en Egypte*, II, 668, 694-697 . يُمَيِّز الدبلوماسي والرَّحّالة الفرنسي جلبير دي لانوي [Ghillebert de Lannoy] الذي زار الإسكندرية سنة 1422م بين المُنشآت الأكبر =

قد كان لبعض هذه الجِنْسيات حُضُور عابر أكثر من غَيْرها. ففي حين حافظت بعض المَجْمُوعات التجارية، خاصّة الجَنَويين والبنادقة، على جاليات ثابتة نِسْبيّاً في مدينة الإسكندرية لفترات تتجاوز القُرُون فقد كان التجار من الجِنْسيات الأُخرى يذهبون ويأتون وَفْقاً لرِياح الديبلوماسية والسياسة والحَرْب ونجاح الأنشطة التجارية. فقد أدّى انتقال السُّلطة من الأيّوبيّين إلى المَماليك سنة 1250م بالعديد من الدول الأوروبية بما في ذلك جَنَوة والبُندقيّة، إلى التَّباري لِرَبط علاقات تجارية مع السُّلطة المصرية الجديدة رغم أنّ الظَّرْف كان مُتوتّراً جِدّاً بسبب الخَسائر العسكرية التي أدّت إلى سُقُوط ما تبقّى من الإمارات الصليبية بين يدي الجيش المَمْلوكيّ. ففي سنة 1254م مباشرة بعد هُدُوء الأوضاع على إثر وصول المَماليك إلى السُّلطة، دخلت البُندقيّة في مفاوضات مع السُّلطان أيبك من أجل الحُصُول على فُنْدُقين خاصّين بالبنادقة في مدينة الإسكندرية يُسَيِّرهما قُنْصل ومُشْرِف على الفُنْداكو حسب "ما جرت به العادة" في عهد الأيّوبيّين[12]. في حين كانت بعض الأنظمة التجارية أبطأ بعض الشيء في التفاوُض، فقد انتظر جيمس الأوّل حتى سنة 1262م ليرسل تاجراً من مدينة مونبليه للتفاوض بشأن أوّل فُنْداكو للأراغونيين في الإسكندرية، وقد نَجَح في ذلك ولو أنه بعد مرور اثنتي عشرة سنة أوقف المعاملات التجارية مع مصر استجابة لتحريم البابا هذه المُعاملات[13]. إن طبيعة سَيْر العلاقات التجارية بين مَمالك الأراغون وقَطَلونيا مع مصر المَمْلوكية مُوثّقة من خلال مجموعة من الرسائل المكتوبة باللُّغة العربية والتي تعود إلى القرن الرابع عشر والمَحْفُوظة في أرشيف الأراغون[14]. في حين

= التي تُسمّى فَنادق fondachi والتي على مِلْك البنادقة والجَنَويين والقَطَلانيين والفَنادق الأصغر conchiers التي على ذِمّة التُّجّار الوافدين من مرسيليا ونابولي وأنكونا وبالرمو والقُسطنطينية (وهذا الأخير لم يكن مسكوناً) (*Œuvres de Ghillebert de Lannoy*, ed. Charles Potvin [Louvain: Imprimerie de P. et J. Lefever, 1978] 109-110).

(12) Tafel and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 483-489.

(13) Elyahou Ashtor, *Levant Trade in the Later Middle Ages*, (Princeton: Princeton University Press, 1983) 12.

(14) A. S. Atiya, *Egypt and Aragon: Embassies and Diplomatic Correspondence between 1300 and 1330 AD*, (Leipzig: F. A. Brockhans, 1938). كان مُلُوك الأراغون مثل غيرهم من مُلُوك جنوب أوروبا قد سَعَوا لتوطيد العلاقات التجارية مع =

لم تصلنا أيّ مُعاهدة جَنَوية-مَمْلوكية قبل سنة 1290م تاريخ إرسال جَنَوة سفيراً إلى السُّلطان قَلاوُون ساعياً صراحة إلى إعادة الامتيازات السابقة[15]. وقد انتظرت أغلب المُدُن الأُخرى طويلاً قبل أن ترتبط بعلاقات تجارية مع المماليك الذين لم تَبْرُز فَنادقهم للوجود إلّا في القرن الرابع عشر أو بعده. وقد كانت فلورنسا بالخصوص هي آخر من دخل الحَلبة وربّما لم يكن لها فُنْداكو في الإسكندرية حتى سنة 1422م[16].

لم تَكُن الأحداث التي عرفها العالم الإسلاميّ وحدها هي التي أثَّرت في التِّجارة بل كذلك التغييرات السياسية في أوروبا وقرارات التحريم الصادرة عن البابوية. ففي سنة 1267م مثلاً وبعد عشر سنوات من دُخُول مرسيليا تحت سُلْطة الأنجوفيين أعاد شارل دانجو تأكيد امتيازات المدينة في مناطق ما وراء البحار خاصّة في عكّا والإسكندرية[17]. وقد أثَّرت الأنشطة العسكرية أيضاً على النشاط

= مُختلف جِهات العالم المُتَوسطي وليس مع مصر فقط، رغم أن الإسكندرية كانت لها مكانة بارزة. وقد فَهْرَسَ شارل ديفور [Charles Dufourcq] وثائق الديوان الأراغوني من سنة 1360م إلى سنة 1386م مُشِيراً إلى القَناصل الأراغونيين في العديد من المُدُن الأجـنـبـيـة. ("Catalogue chronologique et analytique du registre 1389 de la chancellerie de la Couronne d'Aragon, intitule Sarracenorum 1367-1386' [1360-1386]," *Miscelánea de Textos Medievales* 2 [1974] 65-166).

انظر كذلك López de Meneses, "Los Consulados catalanes." ومع أن قُنصلية أراغونية كانت موجودة في الإسكندرية في عهد جيمس الأوّل، فإنَّ أوَّل إشارة إلى مُنْشأة قَطَلونية مُنْفَصِلة، (وربّما المُنْشأة نفسها تحت اسم جديد) لا تَظهر حتى حدود سنة 1347م (López de Meneses, "Los Consulados catalanes," 93).

(15) Heyd, *Histoire du commerce du Levant*, 1, 416-417; Jacoby, «Les Italiens en Egypte» 86.

(16) Amari, (ed.), *Diplomi arabi*, 333. لم يكن لفلورنسا فُنْداكو في مصر في العهد الأيوبي، وقد نشر أماري (المصدر نفسه) العديد من المعاهدات الفلورنسية-المملوكية وكذلك جون فانسبروه، على سبيل المثال:

J. Wansbrough, "A Mamlūk Commercial Treaty Concluded with the Republic of Florence 894/1489," in Stern [ed.], *Documents from Islamic Chanceries*, 39-79).

(17) Heyd, *Histoire du commerce du Levant*, 1, 329. قد كانت لمرسيليا فَنادق في الإسكندرية في القَرْن الثالث عشر وحافظت على ذلك في القَرْن اللاحق (Lesage, *Marseille angevine*, 152).

التجاري ولعلّ أهمّ مثال على ذلك حملة بُطْرس الأوّل ملك قُبْرُص على الإسكندرية سنة 1365م (وهي حسب تعبير رايلي سميث أكثر قليلاً من أن تكون عمليّة كَرّ وفَرّ)[18]. وقد وصف المُؤرّخ المعاصر لهذه الأحداث النُّوَيْري [الإسكندراني] (توفي سنة 1372م) حَمْلة بُطْرس الأوّل على المدينة فذكر أن "الفَرَنج المَلاعين" لم يُحْرِقوا فقط المُنْشآت الإسلامية ولكن كذلك فَنادق القَطَلانيّين والجَنَويين والتجار المَرْسيليين. كما أشعلوا النار في فُنْدُق البنادقة ونَهَبُوا البضائع المُودَعة في هذه المباني[19]. وقد أدّت حَمْلة بُطْرُس مباشرة إلى ردود فعل ضدّ التجار الأوروبيّين بمصر رغم أنهم كانوا قد تَضَرَّروا هم أنفسهم من هذه الهَجْمة. ثم أعادت أغلب هذه الأمم نشاطها التجاري مع المماليك في حَيِّز قصير من الزمن[20].

إنه من الصعب أن نقدّر عدد التجار الذين كانوا ينشطون في فَنادق الإسكندرية، بالرغم من أن إلياهو أشتور «Eliyahu Ashtor» قد حاول تركيب الأرقام السَّكَنيّة في الفَنادق بالاعتماد على وثائق العُدُول. فقد اعتبر أنه كان يوجد ما بين خمسة وعشرين وخمسة وثلاثين تاجراً بُنْدقيّاً يشتغلون بالمدينة سنة 1450م وحوالى تسعة أو عشرة جَنَويين. وبعد عقدين أيّ في سنة 1470م أصبح هناك ما بين خمسة وثلاثين وخمسين بُنْدقيّاً وما بين عشرة وخمسة عشر جَنَوياً[21]. تبدو

(18) Jonathan Riley-Smith, *Oxford Illustrated History of the Crusades*, (Oxford: Oxford University Press, 1997) 272.

(19) النُّوَيْري، كتاب الإلمام، الجزء الثاني، ص171، هناك مَبْنًى آخر وهو فُنْدُق المُوزة، قد نُهِب رغم أن هذا الفُنْداكو كان يُعْرَف في بعض الأحيان بفُنْدُق القَبارصة (see Combe, «Inscription arabe,», 115).

[المترجم: إن قراءة الباحثة لنصّ النُّويري الإسكندراني لا تتطابق مع النصّ فالفُنْدُق المقصود بفُنْدُق التُّجّار المَرْسيليين هو في الواقع فُنْدُق المَوْسلين كما أن الحديث عن فُنْدُق البنادقة لا أساس له من الصّحة لأن صاحب النصّ يتحدَّث عن أن النار أخذت في البُنْدُق، والبُنْدُق هو نوع من الخَشَب (لسان العرب، كلمة بُنْدُق). . . . انظر نصّ النُّوَيْري الإسكندراني في صيغته العربية في M.Tahar Mansouri, *Chypre dans les sources arabes médiévales*, Nicosie, 2001, pp.209-210.]

(20) Lapidus, *Muslim Cities*, 24; López de Meneses, "Los Consulados catalanes," 99-100.

(21) Ashtor, *Levant Trade*, 483-484.

هذه الأرقام مُنخفضة نِسبيّاً خاصّة إذا ما قارنّاها بروايات الحُجّاج التي تتحدّث عن كثافة حركة المُرُور لكنّ المعلومات قليلة ولا تسمح بالتعمُّق في هذه النُّقطة. ممّا لا شكّ فيه أنّ عدد التجار كان يتغيَّر بحسب فصول السنة وبحسب حركة السُّفُن ذهاباً وإياباً وكذلك حسب الظروف الاقتصادية والدبلوماسية والحَرْب. إنَّ الشكل الذي اقترحه أشتور قد لا يتعلّق بالمُقيمين لفترة طويلة مثل القُنْصُل وأعوانه (الخبّازين والعُدُول والقَساوسة وغيرهم...) ولا بالحُجّاج الأوروبيّين العابرين.

ورغم أنّ التجار عادة ما يَمْكُثُون في فَنادق خاصّة بهم حَسَب انتماءاتهم الجغرافية كان هناك تفاعُل مهمّ وتبادُل بين مختلف المُنْشآت التجارية. فإذا كان هناك تاجرٌ يَنْتمي إلى أمّة ليس لها فُنْداكو فعليه أن يتدبّر الأمر ليقيم في فُنْداكو دولة صديقة مثلما هو الشأن بالنسبة إلى التجار أصيلي سان جيمينيانو وفلورنسا فقد كانوا يطالبون بأن يُعْتَبروا من أهل بيشة حوالى سنة 1270م وذلك من أجل الإقامة بفُنْداكو البيشانيين والتمتُّع بالامتيازات التي يتمتّع بها البيشانيون الذين كانت لهم حَظْوة في مصر[22]. وفي فترة لاحقة سيستعمل تاجر آخر من فلورنسا كان يُقيم بفُنْدُق البيشانيين في الإسكندرية سنة 1336م ذلك الفُنْداكو عنواناً له لتصله حمولة من الخَمْر والجُبْن كانت قد أُرسلت إليه من قبل أحد شركائه من البيشانيين الذي كان مُستقرّاً بكانديا[23]. غير أنه كانت تنشأ بين التجار في الإسكندرية مثلما هو الشأن في مختلف الجِهات نِزاعات ولكن يقلّ فيها الحديث عن العُدْوانية وعن السلوك العنيف داخل الجاليات المسيحية الأجنبية. وهذا أمر مُختلف عن تفشّي العِراك والنَّهْب بين مجموعات التجار المتنافسين في المُدُن المسيحية مثل مسّينا وعكّا. إنه من المعقول القول بأنّ وضع الأقلية والخَوْف من الأغلبية الإسلامية المَحلّية قد أدّى إلى بناء لحُمْة بين الجاليات الغربية التي تعيش في الفَنادق.

(22) Ashtor, *Levant Trade*, 14-15.

(23) R. Morozzo della Rocca, (ed.). *Lettere di mercanti a Pignol Zucchello (1336-1350)*, (Venice: Comitato per la Pubblicazione delle Fonti Relative alla Storia di Venezia, 1957) 9.

وقد كان وصف فيلكس فابري لفَنادق الإسكندرية في أواخر القرن الخامس عشر مُفَصَّلاً بشكل استثنائي وشهرته مُبَرَّرة[24]. فقد أقام فيلكس فابري وَمَنْ معه خلال فترة إقامته بالإسكندرية بفُنْداكو القَطَلانيّين "حيث يقيم التجار القَطَلانيّون ويَخْزنون بضائعهم. وقد كان هذا الفُنْداكو للقَطَلانيّين ومَأْوَى لكلّ الحُجّاج المسيحيين وإذا لم يتوفّر امتياز خاصّ من قِبَل البنادقة والجَنَويين، فإنّ إقامة الحُجّاج في فُنْداكو القَطَلانيّين كانت مَضْمُونة"[25]. يواصل فليكس فابري وصفه بالقول "إن المَبْنَى كان شاسعاً ويحتوي على غُرَف عديدة في شكل دائري يشبه الدَّيْر". وبعد أن عرّفهم القُنْصُل على غُرَفهم التي كانت من غير شكّ في الطابق العُلْويّ، يقول فابري "نزلنا إلى فناء الفُنْدُق ونقلنا أمتعتنا إلى غُرفنا"[26].

وما إن استقرّوا حتى قام فيلكس فابري ورفاقه من الحُجّاج بجولة في فَنادق الأوروبيّين الآخرين بِصُحبة تُرْجُمانهم:

---

(24) هناك العديد من روايات الحُجّاج التي تعود إلى هذه الفترة (خاصّة روايات بريدنباخ [Breydenbach] وأرنولد فون هارف [Arnold von Harff]) قد تكون اعتمدت على معلومات فيلكس فابري Bernard de Breydenbach, *Les Saintes pérégrinations de Bernard de Breydenbach (1483)*, ed. F. Larrivaz (Cairo: Imprimerie nationale, 1904) 31 (Latin), 67-68 (French); Arnold von Harff, *The Pilgrimage of Arnold von Harff*, trans. M. Letts, Hakluyt Society, second series, 94, ([1946]; repr. Millwood, NJ: Kraus, 1990), 93.

(25) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae*, III, 149 [126a], *Voyage en Egypte*, II, 666-667.
يبدو أنه كان شائعاً لواحد أو أكثر من الفَنادق في الإسكندرية أن يُؤْويَ الحُجّاج فقبل رحلة فيلكس بقَرْن صدر مرسوم في برشلونة في 1381 ينصّ على أنه لا ينبغي للتُّجّار غير القَطَلانيين الاستفادة من الفُنْداكو القَطَلاني بالإسكندرية، إلا أن المَرْفَق كان دائماً مفتوحاً للحَجيج وغيرهم من المُسافرين، (Capmany, *Memorias*, 11, 321) وتفيد مصادر أخرى بأن فَنادق مرسيليا ونَرْبُونة تقبل الحُجّاج للإقامة ربّما لأن السفن المحملة بالحُجّاج ترسو في مصر بعد الانطلاق من جنوب فرنسا، انظر:
Mas Latrie, *Histoire de l'Île de Chypre*, II, 294 (n. I), Bernard Doumerc, «Les Marchands du Midi à Alexandrie au XVe siècle,» *Annales du Midi* 97 (1985) 271.

(26) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae* , III, 149-150 [126b], 163 [130b], *Voyage en Egypte*, II, 668, 694.

"بعد مغادرة فُنْداكو القَطَلانيّين ذهبنا إلى فُنْداكو الجَنَويين. وهو منزل كبير وجميل فيه فناء شاسع وبقربه حديقة فيها نباتات نادرة. وقد رأينا بداخل الفُنْداكو كثيراً من التجار وأصنافاً عديدة من البضائع وعدداً كبيراً من الحيوانات التي لم نألفها من قبل"(27).

وقد ازدادت دهشة فيلكس عندما اقترب من فُنْدُقي البنادقة الأصغر أوّلاً ثم الأكبر، فوجدهما أيضاً مُكَدّسَيْن بالبضائع ومكتظّين بالتجار وبالحيوانات العجيبة كما هو الحال في بيت التّجارة الجَنَوي. وبعد زيارة فُنْداكو البنادقة "ذهبوا لزيارة فُنْداكو أتراك القُسطنطينية [كانت العاصمة البيزنطية قد سَقَطت بين أيدي العُثْمانيين منذ ثلاثين عاماً في ذلك الوقت]. وهناك شاهدنا أنواعاً مختلفة من البضائع والأتراك أنفسهم كانت قاماتهم طويلة وسَحْناتهم تُعبّر عن الرَّصانة والوَقار. وبعد ذلك ذهبنا إلى فُنْداكو التتار ودخلناه ورأينا، حقيقةً، أثمن البضائع". وهذا المَبْنَى الأخير، كما أكمل راوياً، كان أساساً سوق العبيد(28). وقد لَفَت كذلك فُنْداكو التتار الخاصّ بتجارة العبيد انتباه أرنولد فون هارف «Arnold von Harff» الذي يُفْتَرَضُ أنه زار الإسكندرية سنة 1490م، وقد كتب فيما بعد ذاكراً بسُخْط مَيْلَ الناس للمُجُون "لأنه كان يُباع يومياً في ذلك الفُنْداكو مسيحيون رجالاً ونساءً وفتياناً وبناتٍ صغيرات السِّنّ اختُطفوا في الأراضي المسيحية مقابل حفنة من النقود حوالى خمس عشرة أو عشرين أو ثلاثين قطعة نقدية دوقية «ducats»، وفقاً لتصنيفهم. فقد كان في البداية تُفْحَص جميع أطرافهم لمعرفة ما إذا كانوا في صِحّة جيّدة وأقوياء أو مَرْضَى أو بهم عَيْب أو ضَعْف ثم يتمّ شراؤهم"(29). لقد كان العبيد وخاصّة الأطفال الذُكُور منهم أساسيين بالنسبة إلى النظام الاجتماعي

(27) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae* , III, 163 [130b], *Voyage en Egypte*, II, 694.
إنه تأكيد نادر للعُرْف الدبلوماسي أن تُمْنَح حديقة مع الفُنْداكو وغيره من المُنْشآت.

(28) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae*, III, 164 [131a], *Voyage en Egypte*, II, 697.
تؤكد لابيدوس أن العُثْمانيين حافظوا على فُنْدُق في الإسكندرية في تلك الفترة Lapidus, (*Muslim Cities*, 42).

(29) Arnold von Harff, *Pilgrimage*, 95. قد يكون في رحلات فون هارف [von Harff] كثير من الخيال. See C. F. Beckingham, "The *Riḥla:* Fact or Fiction?" in *Golden Roads: Migration, Pilgrimage, and Travel in Medieval and Modern Islam*, ed. Ian R. Netton, (Richmond: Curzon Press, 1993) 92-93.

والاقتصادي والسياسي المَمْلوكيّ، وقد كان كثير منهم يُؤْتَى به من أراضي التتار في روسيا وبلاد الشَّرْكس والقَوْقاز. كان أغلبهم من الوثنيين ولكنّ البعض منهم كانوا من المسيحيين الأرثوذكس. وقد كان التجار الجَنَويون أكثر المُشتغلين في تجارة العبيد الذين كان يذهب الكثير منهم عبر المستعمرة الجَنَوية بكافا ثم يعبرون البحر الأسود عبر الأناضول ثم يصلون في النهاية بحراً إلى مصر. وحسب بيلوتي كان الجَنَويون بكافا يسائلون العبيد عن مُعْتقدهم ويُخْرِجون منهم من يدركون أنه مسيحيّ قبل أن يُسَلِّموا البقية إلى أعوان المَماليك (البعض منهم جَنَويون) لِنَقْلهم[30]. وقد كانت هذه التِّجارة سهلة نظراً لوجود شبكة من الخانات السَّلجوقية والعُثْمانية في منطقة الأناضول وكذلك لوجود الفَنادق. فقد كتب كاتب عَدْل جَنَوي سنة 1274م، يعمل بمدينة سيواس وهي مدينة داخلية تقع على الطريق جَنُوبي طَرابزون، عَقْدين في فُنْدُق يمتلكه تاجر مسلم ويوجد عقد آخر من مدينة سيواس يعود إلى سنة 1280م كان قد كُتِب "في فُنْدُق كمال الدين الذي يسكنه الجَنَويون"[31].

لنعد إلى جولة فيلكس، فقد كانت تعليقاته على فُنْداكو البنادقة وعن الحيوانات التي توجد فيه تستحقّ مزيداً من الدراسة. فلم تكن ملاحظاته غير مَسْبُوقة، فقد ذكر غيره ممن سبقوه هذه الحيوانات الغريبة في الفَنادق. فمثلاً قبل عشر سنوات من ذلك، اندهش أنسيلم أدورنو من وجود غَزالة ونَعامة في فُنْداكو الجَنَويين بالسُّوس[32]. وربما كان البعض من هذا النعام والفهود والببغاوات مُتّجهاً إلى المعارض الأوروبية في حين قد يكون البعض الآخر مُعدّاً لغذاء

---

(30) Piloti, *Traité*, 143 (39r-v).

(31) George I. Bratianu, *Recherches sur le commerce génois dans la Mer Noire au XIIIe siècle*, (Paris: Paul Geuthner, 1929) 166, 168; also 301-302 (docs. 1, 2); 314-315 (docs. 12, 13).

تُشير عُقُودٌ أُخرى إلى جَنَويين كانوا يسكنون منازل عادية وهم على ما يبدو غير مُلْزمين بالإقامة في الفَنادق. غير أنه لما زار ابن بَطُّوطة أنطاليا السَّلجوقية على ساحل البحر الأبيض المتوسّط في آخر الطريق البرية انطلاقاً من البحر الأسود في بدايات 1330م لاحظ أنه كان للتُّجّار المسيحيين مَقَرّ إقامتهم الخاصّ بالقُرْب من الميناء وهو مسكن مُحاط بِسُور له أبواب تُغْلَق في الليل وفي أوقات صلوات الجمعة وهي تضييقات تُذَكِّر بنظام الفُنْداكو في أماكن أخرى، ابن بَطُّوطة، الرِّحْلة ، الترجمة الإنكليزية، ص418.

(32) Adorno, *Itinéraire*, 142-145.

المُقيمين بالفُنْداكو. في رواية فيلكس هناك حيوان واحد على الأقلّ يبدو أنه بقدر ما جُعِل لإغضاب الناس بقدر ما جُعِل لإطعام سُكّان البُندقيّة.

وحسب ما يرويه فيلكس أنهم وجدوا في فُنْدُق البنادقة الكبير "حيواناً وهو بالنسبة إلينا حيوان مألوف ولكنّه مُرْعِب بالنسبة إلى المسلمين. فقد كان خِنْزيراً ضَخْماً يتجوَّل في فناء الفُنْدُق وما فاجأنا كثيراً هو أن المسلمين يشعرون نحوه بكَراهية مُميتة ويعتبرون الخنازير نَجاسة شأنهم في ذلك شأن اليهود، ولا يحتملون أن يكون بينهم خِنْزير وهو ما يُفسِّر أننا لم نَرَ غيره طوال إقامتنا. وقد أعلمونا أنّ البنادقة قد دفعوا مبلغاً هامّاً للسُّلطان للحصول على ترخيص لذاك الخِنْزير وإلّا لما سمح المسلمون بوجوده وربّما هدموا البيت من أجله".

واستمرّ يقول إنّ هذا الخنزير كان عنيفاً وعُدوانيّاً تجاه المسلمين ولكنّه لطيف للغاية تجاه المسيحيين خاصّة إذا كانوا غُرباء[33].

إنّ وجود مثل هذا الحَيَوان مع تواتُر القرارات التي تمنع وجُوُد الخنازير في فَنادق الغربيين يُعبِّر عن كونها قضية مستمرّة[34]. وكذلك تُشير التضييقات المُتعلِّقة بجلب الخَمْر وشُرْبه إلى المصالح الاقتصادية والجوانب العمليّة المتأصّلة في العلاقات الإسلامية المسيحية. فقد كانت إحدى وظائف نظام الفُنْداكو منذ العُهُود الأُولى الضمان للزوّار الأجانب خاصّة الأوروبيّين المسيحيين حقّ ممارسة شرائعهم وديانتهم وطُرُق تغذيتهم عندما يكونون في مدينة إسلامية. ويتجلّى هذا الاهتمام من خلال عبارات تفيد السماح بِشُرْب الخَمْر وبيعه داخل الفُنْداكو. وقد

---

(33) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae*, III, 163-164 [130b-131a], *Voyage en Egypte*, II, 695.

(34) من المُمْكن أن يكون خِنْزير البنادقة من وَحْي خيال فابري. وبالرغم من أن روايته لرحلة حَجِّه تعتبر عادة موثوقاً بها، فلم يكن فوق مُستوى مُعَيَّن من المُبالغة ليُثبِتَ وِجهة نظره غير أن منع امتلاك الخنازير في الفَنادق كان يتكَرَّر في الوثائق الدبلوماسية وقد يكون ذلك التكرار رداً على مُشْكل قائم. فقد كانت الخنازير ممنوعة منعاً باتاً في الفَنادق المسيحية بتونس الحَفْصِية .(Brunschvig, *La Berbérie orientale*, 11, 225)، ففي القرن الثالث عشر مُنِع المُشرفون على فَنادق خاصّة بتُجّار مرسيليا من تربية الخنازير Méry and Guindon [eds.], *Histoire*) ("nec possint ibi tenere fundegarii porcos") .(*de Marseille*, 1, 352

وقع درس هذه المسألة في الفصل الرابع وسنعود إليها مرة أُخرى فيما سيأتي. كما أنّ التعرّض الدائم إلى مسألة الأفران المُعَدّة للخُبْز قد ذُكِر. رُغم أنه لا يوجد مانع من أن يشترك المسلمون والمسيحيون في فُرْن إذا كان مُعدّاً فقط للخُبْز، فقد اهتمّ بعض الفُقهاء المسلمين بإمكانية تدنيس الأفران إذا طُبِخ فيها لحم الخِنْزير. وبغضّ النظر عن خطر الحرائق فقد كان من الأسلم على الإطلاق أن توجد أفران المسيحيين داخل الفَنادق وهو أيضاً مُريح أكثر للسُّكّان بما أن المباني تُغْلق ليلاً. وزيادة على المُلاءمة والتمييز فإنّ هذه الامتيازات لها تشعّبها الاقتصادي. فقد كان مُمْكناً إخضاعُ الخنازير والخَمْر والأفران للضرائب أو قد تُرَخّص الأمر الذي يُوفِّر مداخيل هامّة بالنسبة إلى السُّلطة الإسلامية المَحلِّية[35].

وقد كان لوجود خِنْزير البنادقة أيضاً رَمْزيّته. فهو يشير إلى النُّفُوذ والحَصانة التي يتمتّع بها البنادقة داخل جُدران الفُنْداكو، ما دام وجود هذا الحَيَوان مسموحاً به بمقتضى ترخيص سُلْطاني فقط فهو يؤكّد على أنّ فُنْداكو البنادقة يوجد بناءً على رغبة السُّلطان. فالمَبْنَى نفسه مِلْك للحكومة المَمْلُوكية التي تحافظ عليه وتُوفّر بعضاً من موظّفيه. يشكّل السُّكّان المَحلّيون خارج أسوار الفُنْداكو خطراً محتملاً فهم قادرون على تدمير الفُنْداكو إذا لم يكن تحت الحماية السُّلطانية. فتعبّر عدوانية الخِنْزير نفسه بالنسبة لفيلكس عن حُضُور دائم لعدوانية مكتومة بين المسلمين والمسيحيين. وقد تمّ التغلُّب على هذه العدوانية بسبب التِّجارة والمصالح الاقتصادية لكلّ من البنادقة والسُّلطة المَمْلُوكية الذين عملوا على ضمان بقاء نظام الفُنْداكو وازدهاره. وبعد كلّ شيء كانت للبنادقة إمكانيات عديدة لدفع الأموال في شراء وثائق الأمان أو الترخيص لخِنْزيرهم أو لاقتناء مواد كثيرة أخرى.

إن قصّة خِنْزير البنادقة تُعدّ مِثالاً لشبكة معقّدة من الامتيازات والقيود التي تميّز الحياة اليومية في فَنادق الأوروبيّين بالإسكندرية. فقد كان مسموحاً للمُقِيمين بجلب مواد مختلفة لجعل حياتهم هانئة ومألوفة وقد كان مَتاعهم الخاصّ (على عكس السِّلَع) معفيّاً بالتحديد من الضرائب. فكان يمكن للقناصل والتجار أن

(35) Labib, "Egyptian Commercial Policy," 74.

يُحْضروا معهم ألبسة وفُرُشاً وصناديق وبعض الهدايا الصغيرة داخل الفُنْداكو وخارَجه بدون تضييقات[36]. كما كان يمكنهم أيضاً أن يجلبوا إلى الفُنْداكو كَمّيّات كبيرة من الخُمُور المعفيّة من الضرائب بزعم أنّها لاستهلاكهم الخاصّ.

إنّ مسألة الخَمْر تبدو مُوَثّقة أكثر خلال فترة طويلة من الزمن من مسألة خِنْزِير البنادقة. فقد كان استعمال الخَمْر مسموحاً به عادةً في الطُّقُوس الدينية بالنسبة إلى أهل الذِّمّة من المسيحيين وهي ثغرة يُمْكِن من خلالها جلبها إلى الفَنادق. ففي أواخر القرن الثالث عشر، مثلما رأينا ذلك في الفصل الرابع، كان بيع الخَمْر يُعَدّ جُزءاً من التنازُلات التجارية المُعْتَرَف بها داخل الفَنادق الأوروبية في تونس الحَفْصِية رغم أنّ بيع الخَمْر واستهلاكه كان أكثر تنظيماً في مصر. مع ذلك هناك على الأقلّ بعضٌ من الخَمْر كان يُجْلَب إلى الفَنادق الغربية بالإسكندرية خلال العهد الأيّوبيّ وتَواصَلَ ذلك في ظلّ المَمْاليك. ففي سنة 1254م مثلاً ضَمِنت مُعاهدة أمضاها البنادقة مع السُّلطان الجديد عزّ الدين أيبك، السماح للإيطاليين "بجلب الخَمْر إلى فَنادقهم على حسب ما جرت به العادة وبيعه داخل هذه المُؤَسّسات[37]. يبدو خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر أن التضييقات المِصْرية قد خفّت في الواقع، رغم أنه من الناحية الرسمية لا يزال منع الكحول سارِياً، فقد كان الخَمْر موجوداً فعليّاً داخل الفَنادق وخارجها في مدينة الإسكندرية.

وكما هو الشأن بالنسبة إلى الخِنْزير، فقد كان التجار الغربيون يحصلون على ترخيص لتوفير الخَمْر في فَنادقهم مقابل دفع ضريبة (أو رشوة وهو ربّما الأكثر تداولاً) للموظّفين المماليك[38]. وعندما كَرَّر الملك الصالح سنة 1354م الموانع المُعتادة ضد المسيحيين الذين يبيعون الخَمْر فمن المرجّح أنه كان يستجيب لمُمارسة شائعة[39]. والشيء نفسه قد يكون حقيقيّاً في سنوات 1381

(36) John Wansbrough, "A Mamlūk Ambassador to Venice in 913/1507," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 26 (1963) 529.

(37) Tafel, and Thomas (eds.), *Urkunden*, 11, 483-489

(38) Jacoby, «Les Italiens en Egypte,» 83; Heyd, *Histoire du commerce du Levant*, 11, 434.

(39) Mentioned by Qalqashandî, *Ṣubḥ al-a'shā*, XIII, 378-379.

و1386م عندما عُيِّن قنصل القَطَلانيِّين على رأس فُنْدُق القَطَلانيِّين بالإسكندرية كان عليه أن يُقسم ألّا يستورد وألّا يبيع الخَمْر هناك ولا يسمح للنساء أو للأحداث ذوي السُّمْعة المشبوهة أن يقيموا داخل المَبْنَى[40]. يذكر عَقْد مُوَثَّق ومُؤَرَّخ في سنة 1362م وجود حانة في فُنْدُق مرسيليا، وفي سنة 1384م اشترى الحاجّ فراسكوبالدي الخَمْر من فُنْدُق البنادقة بالإسكندرية[41]. وقد كان تُرْجُمانه المسلم يأتي إلى البيت الذي يسكنه ليشرب الخَمْر ويضيف الكاتب الحاجّ ممتعضاً أنه "أرسل برميلنا المملوء من خَمْر مالمسي الجَيِّد الحُلْو إلى بيته ولم يترك لنا سوى برميلين صغيرين"[42].

إن خمر مالمسي [Malmsey] هو خَمْر مُستورد من جزيرة كريت وكان الخَمْر المُحَبَّذ في مصر. يقول إيمانويل بيلوتي سنة 1420م إنّ كمّيات كبيرة من الخَمْر كانت تُجْلَب إلى الإسكندرية حيث كان الناس يشربونها في السرّ بالرغم من أن قوانينهم تمنع ذلك[43]. فقد ولد بيلوتي في جزيرة كِريت حوالى سنة 1371م وقضى حياته كتاجر في مصر خلال القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر. وتُفيد كتابته أنه قد يكون تعلّم اللُّغة العربية العامّيّة ويبدو أنه كان على علاقة طيبة بالسُّلطان فرج بن بَرْقُوق وخليفته من بعده السُّلطان المُؤَيَّد. فقد منحه هذا الأخير ترخيصاً لاستيراد خمسة أحمال من هذا الخَمْر في كلّ شهر

---

(40) Capmany, II, 321 (Nov. 19, 1381), II, 337-338 (Jan. 9, 1386). López de Meneses, "Los Consulados catalanes", 103-104, 131.

(41) Ashtor, *Levant Trade*, 85; Frescobaldi et al., *Visit to the Holy Places*, 42.

(42) Frescobaldi et al., *Visit to the Holy Places*, 52. وكان كثير من الحُجّاج يحملون معهم الخَمْر للاستهلاك الخاصّ أو للقيام بالطُّقُوس الدينية وكانت هذه المؤونة إما تقع مصادرتها وإما تغريمها من قبل المسؤولين المُسلمين. فقد ذكر توماس بيرغ [Thomas Byrgg] ضريبة بـ 35 دوقا [ducats] على قارورتين من خَمْر كانديا تمّ جلبها إلى القاهرة سنة 1392م ("Itinerarium ad Sanctam Sepulcram'," ed. P. Riant, *Les Archives de l'Orient Latin* 2 [1882] 387) وبعده بقرن من الزمن يصف فيلكس فابري كيف أنه، بعد الرُّسُوّ بميناء يافا: "أخذنا جَرّتين صغيرتين من الخَمْر كنا خبأناهما في كيسين لكي لا يراهما المُسلمون لأنهم لا يقبلون بحمل الخَمْر علناً، ولأنهم لو رأوهما لكسروهما إذا ما قدروا على ذلك". (*Evagatorium in terrae sanctae*, 1, 193-194 [74b]).

(43) في الظاهر تمنع قوانينهم شرب الخَمْر ولكنهم يشربونها سِرّاً. Piloti, *Traité*, 158-9 (42r).

معفيّة من أداء الضريبة إلى مدينة الإسكندرية(44). وقد يتمتّع آخرون بامتيازات مُماثلة، فقد منح السُّلطان بَرْسباي سنة 1422م تجار فلورنسا وقنصلهم ترخيصاً لجلب الخَمْر والحبوب والجُبْن لاستعمالهم الخاصّ دون دفع أيّ ضريبة(45).

وفي بعض الأحيان يُغَضّ الطَّرْف عن بيع الخَمْر بالمُفَرَّق. وفي السنة نفسها، أي سنة 1422م كُتِب عَقْد في فُنْدُق البنادقة الكبير فيه ذِكْر لتاجر يهوديّ شَحَن ستين حِمْلاً من الخَمْر الكريتي لفائدة ثلاثة تجار مسيحيين (واحد من نابولي واثنان من مدينة أنكونا) وهم تجار مُفَرِّق بالإسكندرية. وقد وعد البائع بالحِفاظ على هذه الحُمُولة على متن السفينة إذا كان وصوله خلال شهر رمضان. وتُشير هذه الحُمُولة أنّ عمليّات بيع الخَمْر كانت متقلِّبة للغاية، ففي سنة 1429م أُجْبر تاجر يهوديّ آخر على العَوْدة إلى كريت مع الخَمْر الذي حمله لأن السُّلطان كان قد منع استيراد الخَمْر(46). إلّا أنّ الارتباط بتجارة الخَمْر قد لا يكون عائقاً أمام النجاح، بل ربّما العكس. فقد عُرِف عن رجل عُيّن قُنْصُلاً لتجار نابولي ما بين 1427 و1434م أنه كان مُسَجَّلاً كصاحب حانة في المدينة في بداية سنوات 1420م(47).

وفي بداية القرن التالي، في سنة 1512م دفع بعض التجار البنادقة ضريبةً على الخَمْر المَجْلُوب إلى الإسكندرية وهو أمر مشروع ما دام مَجْلُوباً إلى الفُنْداكو وكذلك على الخَمْر الذي أُرسل إلى القاهرة وهو على ما يبدو كان موجّهاً إلى مُسْتهلكيه من المسلمين(48). وقد يذهب المسلمون إلى الفَنادق بالإسكندرية للانغماس في وَلَعِهم بالخَمْر المالمسي. وقد ذكر بريدنباخ «Breydenbach» أن "المسلمين والمسيحيين يأكلون ويشربون معاً [في الفُنْداكو] فلا فَرْق بينهم"(49). ممّا لا شكّ فيه أن الفُنْداكو كان مفتوحاً في النهار للأنشطة

(44) Piloti, *Traité*, 209 (60v).

(45) Amari, (ed.), *Diplomi arabi*, 339.

(46) Elyahu Ashtor, "New Data for the History of Levantine Jewries in the fifteenth Century," *Bulletin of the Institute of Jewish Studies* 3 (1975) 77-79, 94-97.

(47) Ashtor, *Levant Trade*, 354.

(48) M. Reinart, "Traités de commerce entre la République de Venise et les derniers sultans mamloucs d'Egypte,» *Journal Asiatique*, series I, 4 (1829) 44.

(49) Breydenbach, *Saintes pérégrinations*, 35-36 (Latin) 74-75 (French).
لم يذكر بريدنباخ بصورة خاصّة أن المُسلمين يشربون الخَمْر.

العابرة للثقافات ومن المعقول أن نتصوّر أنّ الاتفاقات تُبْرَم حول كأس من المالمسي، ولكنّ أبواب الفُنْداكو تُغْلَق ليلاً - وهي بذلك تفصل بين المسلمين والمسيحيين - من المُحتمل بمُجرَّد انتهاء شرب الخَمْر لذلك تفيد رواية بيلوتي عن شرب المسلمين للخَمْر سِراً (بعبارت أُخرى داخل بيوتهم) أو رواية فراسكوبالدي السابقة عن تُرْجُمانه الذي أخذ برميلاً من الخَمْر إلى منزله، تبدو أكثر احتمالاً من الاستهلاك المَكشوف في الفُنْداكو وفي وَضَح النهار.

بينما يكون من المُضلّل تضخيم الامتيازات التي مُنحت للفَنادق الغربية فمن الواضح أنّ المُفاوضات الثُنائية بين الحكومات المسيحية والدولة المَمْلوكية هي التي سمحت بتطوّر الامتياز الوحيد لمؤسّسة لا تزال مُقيَّدة، فهي مختلفة جداً عن قريبها الفُنْدُق الذي يتمتّع بحرية أكثر في العمل. إن الامتيازات الخاصّة التي تتمتّع بها الفَنادق كانت تسير يداً بيد مع القُيُود المُوَجَّهة، ومعاً أدّت هاتان القُوَّتان إلى خلق حاجز خفيّ حول المباني.

إنّ هذا الحاجز النظري يعكس واقع جُدْران المباني المَلْمُوس وأبوابها التي كانت تُغلق بإحكام في الليل وفي وقت صلاة الجمعة. وكما وقع ذكره سابقاً لا يعدّ غلق الأبواب أمراً غير عادي في مدينة العصر الوسيط فالأمن كان دائماً أمراً مهماً في الفَنادق وفي فَنادق الغربيين (دون أن نذكر مُنْشآت أُخرى لخَزْن بضائع قَيّمة). ومع ذلك هناك أمر ثابت وهو أنّ المُمارسات في العهد الأيّوبيّ قد أصبحت أكثر تصلُّباً في ظلّ دولة المماليك وأبواب الفَنادق النى كانت تُغلق بإحكام من الداخل خلال القرن الثاني عشر أصبح عاديّاً أن تُغلق من الخارج في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. فقد كتب السُّلطان قلاوون (1280-1290م) في أواخر القرن الثالث عشر إلى والي الإسكندرية "ويؤكّد عليه في حِفْظ فَنادق الفَرَنج وحِفْظ مفاتيحها في الليل وفي وقت صلاة الجُمعة"[50].

---

(50) Bodleian MS Marsh 424, 86r-v.
لقد نُسِبَ هذا النصّ إلى شافع بن علي في فهرس مكتبة البودليان سنة 1787م، أشكر كولن وايكفيلد [Colin Wakefield] من مكتبة البودليان على مساعدته بهذا المخطوط.
[المترجم: لقد نُشِرَ كتاب الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور من طرف عبد السلام التدمري، بيروت 1998 كما نشر ببولونيا من طرف P. B. Lewicka ضمن منشورات Orientalia Polona, Academic Publishing House, Dialog, Warsaw, 2000].

إنّ تَواتُر روايات الأوروبيّين في مصر تُبيِّن أنّ قرارات قلاوون لم تكن هي الوحيدة. ففي سنة 1323م يروي سيمون سيميونيس "أن المسلمين بالإسكندرية قد حَمَوا مدينتهم بعناية فائقة خاصّة يوم الجمعة وقت الصلاة عندما يُمنَع مَنْعاً باتّاً على المسيحيين من كلّ الفئات أن يغادروا منازلهم التي يُغلقها المسلمون من الخارج"[51]. يبدو أنّ سيمون قد عاين ذلك بنفسه من داخل أسوار فُنْداكو مرسيليا حيث كان يقيم، رغم أن معرفته بِمُعاملة المسيحيين المَحلِّيين تنقصها المِصْداقية. وبعد قرن ونصف يقدّم فيلكس فابري صورةً مماثلة- فقد صَوَّر كيف نَزَلَ ذات يوم من الطابق العُلْويّ لِيَتْلُوَ صَلواته فوجد "باب الدار، [ويقصد بالدار فُنْداكو القَطَلانيّين]، لا يزال مُوصداً. فالمسلمون هم الذين يفتحونه ويغلقونه من الخارج حسب مشيئتهم وهو مِثلما هو معمول به مع كلّ دُوْر المسيحيين الأُخرى [والمقصود هنا يبدو أنه الفَنادق] في مُختلف الجهات حيث يحتفظون بالمفاتيح عِوَضاً عن السُّكّان المسيحيين. ويحدث الشيء نفسه حيثما وُجد تجار من البُندقيّة. فقد كانوا يُغلقون كلّ الدُّور التي يوجد بها مسيحيون في الليل فلا يمكن لأحد أن يدخل أو يخرج وذلك للوقاية من الأذى الليلي. فانتظرتُ هناك إلى أن جاء البوّاب المسلم وفتح الباب على مصراعيه"[52].

وقد ذكر الحاجّ الفلامنكي يوس فان غيستاله Joas van Ghistele المعاصر لفيلكس الرواية نفسها حيث "إنه في فجر كلّ يوم يأتي خدم الأمير ووالي المدينة لفتح باب الفُنْداكو"، وتتكرَّر هذه الرواية في النصوص الأوروبية العديدة الأخرى[53]. وقد يُؤدّي كذلك تأمين الفُنْداكو إلى قيامه بدور السِّجْن (مثلما كان يحدث في السابق مع الفَنادق funduqs العادية) ففي مُعاهدة مُطَوَّلة باللُّغة العربية

(51) Semeonis, *Itinerarium*, 51.

(52) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae* , III, 154 [128a], *Voyage en Egypte*, II, 677.

(53) Joos van Ghistele, *Voyage en Egypte*, 113-114 [177].

إن وَصْف حَظْر التَّجْوال ليلاً كان معتاداً لاسيّما في القرن الخامس عشر. ففي سنوات 1480م قَدَّم الرَّحّالة اليهودي عبوديا دا برتينورو [Obadiah da Bertinoro] معلومات مُماثلة عن حَجْز المسيحيين في الليل ويوم الجُمْعة، انظر (Adler, [ed.], *Jewish Travellers*, 223). وقد لاحظ الدبلوماسي غيلبير دي لانوي [Ghillebert de Lannoy] منذ نصف قرن قبل ذلك حَجْز المسيحيين في الفنادق في الليل وفي وقت صلوات الجمعة (*Oeuvres*, 109-110).

بين ألفونس الخامس ملك الأراغون والسُّلطان الملك الأشرف بَرْسباي سنة 1430م، تتضمَّن فصلاً يقضي بعدم حشر التجار الأراغونيين في سُجُون المسلمين وإنما يُوْدَع المساجين في الفُنْدُق أو في أيّ مكان آخر صالح للسَّكَن، ويجب أن يعاملوا مُعاملةً حَسَنة ولا يجب أن يُصَفَّدوا في الأغلال ولا أن تُكَبَّل أيديهم(54).

تُشير المصادر المسيحية بصورة دائمة إلى مُشاركة السُّكّان المحلِّيين في النشاط اليومي للمباني انطلاقاً من الوالي إلى الحَمّالين والتَّراجِمة. وقد كانت الحُكُومة المَمْلُوكية تتحمّل مصاريف البناء والترميم ولو إنَّ المسيحيين الأجانب كانوا يُشْرِفون على تحديد مواقع المباني وعلى بنائها لتتلاءم مع حاجاتهم. وإذا كان مثل هذا الإجراء موجوداً في القُرُون السابقة فهو مُثْبَتٌ بوضوح أكثر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ففي المُعاهدة القَطَلانيّة المَمْلوكية التي سَبَق ذِكْرُها مثلاً، تتضمَّن فصلاً فاعلاً فيه "أنَّ مولانا السُّلطان يرسم بِعَمارة فُنْدُق للكَتَيلان [القَطَلانيّين] وببنائه من غير أن يكلّفوا التجار ولا القُنْصُل بشيء من ذلك"(55).

يبدو أنّ بعض الأوروبيّين قد حصلوا على امتيازات خارج الفُنْداكو غير أنه لا يُعْرَف شيء عمّا كان يحدث لهؤلاء عند حَظْر التَّجْوال. فبيلوتي «Piloti» الذي يقدّم نفسه على أنه حالة خاصّة، كان يمتلك دُكّاناً قريباً من مقرّ الديوانة (الجمارك) سنة 1420م(56). وقبل ذلك بسنوات يَذْكُر عَقْدٌ يعود إلى سنة 1416م

(54) Alarcón (ed.), *Documentos árabes diplomáticos*, 372-390 (doc. 153, art. 13). ولاحظ رويز أرساتي ذلك أيضاً Ruiz Orsatti, Reginaldo. "Tratado de paz", 345-362. تتشابه هذه الفقرات من حيث المعلومات التي تتعلّق باستعمال الفُنْدُق كأمكنة للحَجز في القرن الثالث عشر في إشبيلية، انظر: ابن عَبْدُون، رسالة، ص18، [المترجم: يقول الفصل الثالث عشر من المعاهدة ما نصه: إن التُّجّار أو أحد من رعية ملك أركون لا يمكن أحد أن يحبسهم في حَبْس المُسلمين إلا بأمرِ مُعطىً به وإذا لم يكن مُعْطىً لا يحبسونهم إلا في الفُنْدُق أو في مكان يكونوا مأويين فيه بعد قيام ضمان معتبرين، وإذا قاموا ضمان معتبرين لا يقيدوا ولا يُحَدّدوا ويعاملهم بالرفق (هكذا)].

(55) من غير أن يكلّفوا التُّجّار ولا القُنْصُل من ذلك Alarcón (ed.), *Documentos árabes diplomáticos*, 372-390 (doc. 153, article 24). ولاحظ رويز أرساتي ذلك أيضاً Ruiz Orsatti "Tratado de paz", 349-366.

(56) Piloti, *Traité*, 181 (50v).

دَفْعَ قُنْصُل البنادقة لمبلغ 600 فلوران [florins] إلى أحد المسؤولين المحلِّيين مقابل كِراء سَنَة لدُكّان كبير يوجد قريباً من باب فُنْداكو البنادقة[57]. ومن المُمْكن أيضاً أن توجد إشارات إلى دكاكين ومنازل ومخازن ودكاكين كبيرة كمُنْشآت مُكْتَراة من السُّلطة المَمْلوكية ولكنّها توجد خارج أسوار الفُنْداكو.

وهكذا كان المسيحيون الأجانب في الإسكندرية يتمتّعون بِحُرِّيّات واسعة وتَسامُح، ومع ذلك فإنهم كانوا في النهاية تحت رَقابة الإدارة المملوكية. وبخلاف ما هو الشأن بالنسبة إلى القُنْصُلية أو السِّفارة في الفترات الحديثة، لم تكن تُوجد حَصانة دبلوماسية في نظام الفُنْداكو بينما كانت هنالك امتيازات دبلوماسية. فلم يكن يُنْظَر قَطّ إلى مباني الفُنْداكو على أنها "أرض أجنبية"، وعليه فإنّ المَسْجُون في الفُنْداكو قد يكون مُمْتناً على مثل هذا الحَبْس المُريح ولكن، رغم ذلك، كان يُعَدُّ فعلاً سجين الدولة وفي نهاية الأمر هو خاضعٌ - بحسب الجُرْم - لأحكام القضاء المملوكيّ.

القناصل والسلاطين: مجالا النُّفُوذ الخارجيّ والمَحلّيّ

وكما كانت تُفاوِضُ من أجل الفَنادق، فإنَّ المُعاهدات بين الدول المسيحية والسُّلطة المَمْلوكية كانت مُهتمَّة بتحديد شُرُوط النشاط الاقتصادي وتحديد السُّلْطة القانونية على كلّ من الطرفين. فيبدو من خِلال الخُطُوط العريضة للامتيازات وُجُود استقرار عبر الزمن. وهو يدلّ على أكثر من الجُمُود الدبلوماسي ويُوحي أنّ كِلا الطَّرفين كان راضياً بالنموذج العام. إلّا أنه توجد بعض التطوّرات الجديدة التي بدت واضحة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

إنَّ كلَّ جالية مسيحية أجنبية مع فُنْداكو كان يشرف عليهما قُنْصُل، كما كان الأمر منذ أوّل ظهور لنظام الفُنْداكو في الموانئ الإسلامية. وقد كان البعض من هؤلاء القَناصل مُعيَّنين من قِبَل مُدُنِهم الأصلية التي أرسلتهم، ولكن، وبتزايُدٍ، كان كثير منهم يُعيَّنون عَمَلِيّاً من قِبَل جماعة التجار في الخارج، أو حَتَّى بواسطة السُّلُطات الإسلامية. وقد كان التأييد المَحلّي مهمّاً في بعض الحالات، فقد

(57) Labib, "Egyptian Commercial Policy," 71.

انتصر أحد المُتَرَشّحين لوظيفة قُنْصُل الفرنسيين بالإسكندرية على خَصْمِه سنة 1352م باستظهاره رسائلَ تأييد مكتوبة بالعربية(58). وقبل ذلك بسنتين، في سنة 1350م رفضت السُّلُطات الإسلامية المحلّية رغبة تاجر كان يزعم أنّه القُنْصل المُعَيَّن الجديد لمَمْلكة الأراغون بتونس، بِحُجّة أنّ رسالة تعيينه من قِبَل الإدارة المَلَكِيّة الأراغونية كانت مُزيّفة لأنها لم تكن تحمل خَتْماً رسمياً. ونتيجة لذلك اختار التجار القَطَلانيّون مرشّحهم الخاصّ ليشغل تلك الوظيفة(59).

ومن المُحتمل أن تكون وظيفة القُنْصُل مَحَلَّ لَزْمة، ورغم أنه تُوجد معلومات قليلة حول هذا الموضوع باستثناء تجربة جَيْمس الأوّل الذي حاول -دون نجاح كبير- أن يتحكّم في فُنْداكو القَطَلانيّين بالإسكندرية على غِرار الفَنادق التي كانت تابعة له بتونس وبَلَنْسية(60). أمّا القناصل القَطَلانيّون المُتأخّرون في القرنين الرابع عشر والخامس عشر فكانوا يتقاضَوْن أُجُوراً بحسب كمّيات السِّلَع التي تمرّ عبر الفُنْداكو إذ كانوا يأخذون نِسْبة مئوية عن كلّ قِنْطار(61). وقد كان القناصل كذلك يحصلون على معلوم (تسمّيه النصوص الإيطالية جيميكيا) من السُّلطة المَمْلُوكية وهو تَحَوُّل واضح بالنسبة للسياسات السابقة سنناقشه فيما سيأتي.

إنّ مُدّة مُمارسة القناصل لوظائفهم كانت لا تتجاوز العامين أو الثلاثة، هذا على الأقلّ ما تقوله قوانين المُدُن الأوروبية التي يمثّلونها. قد تكون هذه الفترة الوجيزة نسبياً لتولّي هذا المنصب مُحاولة تَحُول دون اندماج القُنْصُل في الوسط المحلي أو دون اندماجه في الشُؤون التّجارية(62). ومع ذلك كان لِمُعظمهم تَجْربة تِجارية في شرق المتوسّط، وبعضهم، مثل إيمانويل بيلوتي (الذي اشتغل لفترة

---

(58) Doumerc, «Marchands du Midi,» 272.

(59) Robert Brunschvig, "Documents inédits sur les relations entre la Couronne d'Aragon et la Berbérie orientale au XIVe siècle," *Annales de L'Institut d'Etudes Orientales* (Paris) 2 (1936) 244.

(60) Capmany, *Memorias*, II, 37; López de Meneses "Los Consulados catalanes," 85.

(61) López de Meneses "Los Consulados catalanes," 115, 121.

(62) Capmany *Memorias*, II, 320; Jacoby, «Les Italiens en Egypte» 83.

انظر كذلك: López de Meneses "Los Consulados catalanes"، والمدّة المحدودة تسمح بالبيع المتكرّر للمنصب أو بإعادة توزيع حصصه.

قصيرة كقُنْصُل البنادقة)، كانوا يعرفون اللُّغة العربية. فقد ذكر فراسكوبالدي أنه التقى أحد القناصل في الإسكندرية سنة 1384م وقد كان فرنسيّاً متزوّجاً من مسيحية شرقية "ليس فيهما أكثر من ذرّة إيمان"[63]. وقد كانت زوجة قُنْصُل القَطَلانيّين في سنوات 1480م مسيحية يونانية (وفي هذه المَرّة فإن هذه المرأة كان يُشار إلى كَرَمها التَّقَوِيّ)[64]. تُشير هاتان الزِّيجتان إلى أنه لم يكن من الغريب أن يوجد قَنَاصلُ أوروبيّون أسَّسوا جُذُوراً طويلة المَدَى في الشرق الأوسط.

لقد كان القُنْصُل مسؤولاً عن سير الأعمال والسَّكَن والخَزْن داخل الفُنْداكو والسَّهَر على جاليته. فقد ذكر سيمون سيميونيس لَمّا زار الإسكندرية في بداية القرن الرابع عشر أنّ كلّ فُنْداكو كان تحت مسؤولية قُنْصُل "ولم يكن يَسمح لأيّ تاجرٍ من بَنِي قومه أن يدخل المدينة ببضاعته دون حضوره ودون إذنه. فقد كان يجلس في باب المدينة مع مُمَثّلي الإدارة الإسلامية... ويستقبل تجار بلاده وبضاعتهم لا غير. وكان يطالب من هذه البضائع بكمّيّة مُحدّدة عند وصول التجار وعند مغادرتهم كان يحاسبهم على ذلك"[65]. وقد نَصَّت في القرن التالي المُعاهدة المَمْلوكية الفلورنسية سنة 1430م على أنّ القُنْصُل مسؤول عن الفُنْداكو ونشاطه وهو يمارس ذلك في حريّة وبعيداً عن أيّ تدخّل من أيّ كان ولأيّ سبب كان"[66].

وقد فسّر فيلكس فابري بعد خمسين سنة من ذلك "أن قناصل الفَنادق كانوا ذوي نُفُوذ. فإليهم تَعود المَشُورة وتخفيض الأداءات على البضائع وتوفير حاجات الفُنْداكو والحِفاظ على السِّلْم ومع غيرهم من القناصل الآخرين يسعون لتطوير تجارة بلدانهم بتقديم النُّصح"[67].

(63) Frescobaldi et al., *Visit to the Holy Places*, 38.

(64) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae*, III, 203 [144a], *Voyage en Egypte*, II, 771-772.

(65) Semeonis, *Itinerarium*, 49-51.

(66) Ruiz Orsatti, "Tratado de paz", 351, 367 (clause 30).

(67) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae* , III, 162 [130b], *Voyage en Egypte*, II, 693-694.

وقد كان مُشرف على الفُنْداكو يساعد القُنْصُل في بعض الأحيان ويضطلع بالمهامّ اليومية التي تهمّ الفُنْداكو منها خاصّة جَمْعُ المُكُوس والضرائب(68).

قد كان القضاء الخاصّ بالجالية وجهاً آخر من أنشطة القُنْصُل ويُلحّ التجار على حقّهم في المُثُول أمامه لطرح قضاياهم. فمثلاً "عندما يحصل داخل الجالية الفلورنسية خلاف أو مشاحنة أو كان لأحدهم طلب ضد فلورنسي آخر لا يمكن لممثّل السُّلطان ولا أيّ قاضٍ من المسلمين أو التجار أن يحكم بين المتنازِعَيْن فالقُنْصُل وحده يقوم بذلك على حسب عادتهم"(69). وقد تُعرض قضايا تافهة بين إيطاليين أو بين أوروبيّين من مختلف الجنسيات على أحد القناصل هذا إذا لم يحملها أحد المتقاضين لسبب من الأسباب أمام القضاء الإسلاميّ. ويبدو أن التوجّه الأخير هو الذي نجده في المعاهدات العديدة من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر وهو ما يُفيد بأن التجار الغربيين يفضّلون في كثير من الحالات هذا المَسار(70). وبالمقابل فإنّ كلّ الخلافات التي تنشأ بين مسلمين ومسيحيين وفي كلّ الحالات التي يكون فيها المسيحيون الأجانب متّهمين بارتكاب جرائم خطيرة كانت تُحال على القاضي المسلم(71). وفي الحالات التي يكون فيها أحد الطرفَيْن غير راضٍ عن قرار القاضي قد يُرفع الأمر إلى السُّلطان(72).

وقد يكون للتُّجّار في بعض الحالات بعض الاحترازات حول نظام الفُنْداكو ومن خلاله حول القُنْصُل وهي احترازات تتعلّق بما يؤخذ من مُكُوس حول

(68) Jacoby, «Les Italiens en Egypte», 83.

(69) من معاهدة فلورنسية - مملوكية من عام 1430 (Wansbrough, "A Mamlūk Commercial Treaty", 66 [art. 14]).

(70) L. T. Belgrano, "Trattato del sultano d'Egitto col Commune di Genova nel MCCLXXXX," (معاهدة بين السُّلطان المصري وجمهورية جَنَوة في 1290) *Atti de la Società Ligure di Storia Patria* (Genoa) 19 (1887) 168; Wansbrough, "A Mamlūk Commercial Treaty," 68 (art. 26).

(71) Belgrano, "Trattato", 168 . هناك مثالٌ آخر لهذه الفقرة المعتادة في معاهدة من سنة 1430 بين ملك الأراغون والسُّلطان المملوكي *Documentos árabes diplomáticos*, 383 [doc. 153]

(72) Wansbrough, "A Mamlūk Commercial Treaty", 67 (art. 20).

البضائع التي تُخزن في الفُنْداكو أو تُباع فيه. وقد رفع تاجران من منطقة اللانغدوك «Languedoc» سنة 1399م قضية لهما أمام قنصل الجَنَويين ووقع النظر فيها في فُنْداكو المَرْسيليين بحضور قُنْصُل الفرنسيين. فقد رفض أحد أرباب السفن الجَنَويين تسليم بضاعة المُتَشاكيَيْن بحُجّة أنهما لم يدفعا ما عليهما من مُكُوس للفُنْداكو من قِبَل تجار غير جَنَويين. وبالمقابل احتجّ التاجران أنه يمكن إعفاؤهما من الضريبة لأن زُملاءهما وهم أيضاً من مدينة مونبليـه، قد أفلتوا من دفع الضريبة بإعلانهم أنهم من رعايا جَنَوة. وقد حصلوا في نهاية الأمر على الإعفاء نفسه[73]. وقُدمت شكوى أُخرى سنة 1406م من قبل تجار من مرسيليا ضد قُنْصَل الجَنَويين وسُجّلت لدى أحد عُدُول البنادقة بحضور تجار من فلورنسا ومايورقة وبَلَنْسية. وقد اعتبر التجار الفرنسيون أنّ القُنْصُل الجَنَويّ قد استغلّ نفوذه لمّا طلب منهم مُكُوساً في فُنْداكو الجَنَويين والحال أنّ البضائع لم تكن بضائع جَنَوية ولا تَجِبُ عليهم ضريبةٌ إلّا للقُنْصُل الفرنسي في فُنْداكو الفرنسيين[74]. تُبيِّن هذه الحالاتُ وَضْعَ القُنْصُل لا كقاضٍ فقط وإنما في وضعية المُتقاضي وتفيد بأن القُنْصُل لم يكن فوق الشُّبُهات فهو قد يستغلّ موقعه من أجل مصالحه الخاصّة.

كما يمثّل القناصل جالياتهم أمام السُّلْطة المَمْلوكية. فقد شملت المُعاهدات فُصُولاً تعطي للقَناصل حقَّ السفر إلى القاهرة في رحلات منتظمة (عادة ما تكون مرة في الشهر) لتقديم احترازاتهم أو شكاواهم أمام السُّلطان الذي ينظر في كلّ حالة بنفسه. كما يحدث أن يُجلب القُنْصُل إلى العاصمة للإجابة عن عمليّات القَرْصَنة أو غيرها من الأفعال التي تُنسَب إلى جاليته، وقد يدفع شخصيّاً ثمن ذلك. وتُبيّن المواد المصدرية التي تعود إلى العُقُود الأولى من القرن الثالث عشر هَشاشة وضعيةِ القُنْصُل كوسيط في العلاقات الدبلوماسية. يشتكي دوق البنادقة في رسالة موجّهة إلى السُّلطان المَمْلوكيّ سنة 1411م أنّ قُنْصُل البنادقة وعدداً كبيراً من تجار البُندقيّة قد أُوقفوا وحُمِلُوا إلى القاهرة مُصَفّدين بالحديد قبل عام ويرى

(73) Doumerc, «Marchands du Midi», 276.

(74) Bernard Doumerc, "Documents commerciaux en langue d'oc energistrés à Alexandrie par les notaires vénitiens (fin XIVe-début Xve siècle)", *Annales du Midi* 99 (1987) 240.

في ذلك إهانة للبُندقيّة. وذكر في رسالته بأنّ السُّلطان كان قد وعد باحترام وحماية القُنْصُل وبقية رعايا البُندقيّة المُقِيمين في مَمْلكته[75]. وذكر بيلوتي سنة 1420م أنّ قُنْصُل البنادقة قد اسْتُدعي مَرّات عديدة إلى القاهرة بسبب نشاط القَراصنة البنادقة وبَيْع المسلمين عَبِيداً إلى دوق ناكسوس Naxos. وقد أُرسل بيلوتي للتفاوض من أجل الحصول على إخلاء سبيل القُنْصُل وتحرير الأسرى المسلمين. ويبدو أنّ الطرفين قد قَبِلا هذا المَخرج وهو ما يفسّر سَمَاح المُؤَيِّد لبيلوتي بجلب خَمْر المالمسي مُعْفىً من الجباية[76]. وهناك أحداث أُخرى لم تَعرف نهايةً سعيدة. فقد ذكر بيلوتي أنه تمّ جَلْد وطَرْد قُنْصُل آخر بعد تجريده من مُمْتلكاته وبضائعه كردّ فعل على أعمال القَرْصنة التي تقوم بها سُفُن البُندقيّة وعلى سَعْيه لإعلام التجار البنادقة بأنه قد تتمّ مصادرة بضائعهم. فتعطلت على إثر ذلك المُبادلات بين البُندقيّة والموانئ المَمْلوكية لسنوات عديدة[77]. وقد يتجاوز الغضب الرسمي في بعض الأحيان شخص القُنْصُل. مثلما حين رأى برتراندون دي لا بروكيير «Bertrandon de la Broquière» مَبْعوثاً رسمياً على ظهر جَمَل سِباق يقترب من دمشق في بداية سنة 1430م، فأعلمه تُرْجُمانه أن ذلك "الرجل قادم ومعه أمر سُلطاني بإيقاف كلّ القَطَلانيّين والجَنَويين الذين بدمشق وكامل بلاد الشام لأن سفينة وقاربَيْن تابعين لأمير تارنت «Tarante» قد استولوا على سفينة مليئة بالمسلمين قرب طرابلس الشام"[78]. اللافت أنه على الرغم من هذه الأعمال العدائية والانتقامية من الجانبين، فقد تواصل نظام الفُنْداكو وظلّ القناصل على استعداد لخدمته. ومن غير شكّ إن الحوافز الاقتصادية وغيرها من الفوائد الأُخرى لهذا النظام كانت تَفُوق ما يواجهه من مخاطر.

---

(75) Henri Lammens, "Correspondances diplomatiques entre les sultans mamlouks d'Egypte et les puissances chrétiens", *Revue de l'Orient Chrétien* 9 (1904) 363-365.

(76) Piloti, *Traité*, 201-207 (47v-60r).

(77) Piloti, *Traité*, 230-233 (67r-68r).

(78) la Broquière, *Voyage d'Outremer*, 55 (trans. 31-32).

ربّما كان القناصل، بسببٍ من هشاشة موقفهم، يعملون على طمأنة السُّلطات المحلّية. ففي سنة 1498، ساهم القناصل الأجانب في دمشق بصورة نشطة في الاحتفالات التي تمّت على شرف السُّلطان الغُوري عندما زار المدينة واستقبلوه في باب المدينة وقدَّموا إليه الهدايا (Mansouri, "Les Communautés marchandes occidentales", 91).

وعلى الرغم من أنّ الشكل الأساسي للفَنادق وإدارتها يبدو مألوفاً من العُهُود الأولى، ففي نهاية الأمر حَصَلَ تغيّر مدهش في أجور القناصل. فبحلول القرن الخامس عشر، كان القناصل يحصلون بانتظام على مكافأة مالية من السُّلطان المَمْلوكيّ يبدو أنّها عَلاوة على ما يحصلون عليه من مداخيل الفُنْداكو ومن الأموال التي يجمعونها مقابل السَّكَن والتِّجارة. تتضمّن المُعاهدات الفُلورنسية والأراغونية في القرن الخامس عشر فصولاً تؤكّد على وجوب حصول قناصلهم على الأجر نفسه من الديوان الشريف على عادة البنادقة وغيرهم من القناصل الآخرين بالإسكندرية[79]. ليس هناك ما يفيد متى دَخَلَ دفع رواتب القناصل حَيِّز التنفيذ. فقد يكون ذلك محاولة من محاولات (المماليك) البُرْجِيّة في بداية عهدهم (بعد 1382م) من أجل التَّحكُّم في الحياة الاقتصادية والتلاعُب بها.

إنّ حُصُول القناصل على أجْر من الدولة يزيد في إضعاف موقفهم والتأثير في علاقتهم بالسُّلطان[80]. فقد أشار بيلوتي إلى حساسية العلاقة من خلال حديثه عن القُنْصُل الذي أُحضِر أمام السُّلطان المُؤَيَّد ليُجيب عن تُهمة البنادقة بالقَرْصنة وعن مُراسلاته السرِّيّة. فعندما أُحضر القُنْصُل أمامه، سأله المُؤَيَّد "لماذا تتمتّع بحمايتي وتعيش في مملكتي؟" فأجاب القُنْصُل "سيدي إني موجود لمساعدة تجار بلادي والسَّهَر على راحتهم ولجلب بضائع تستفيد منها مملكتكم". عندها أخرج السُّلطان رسالة تمّ حَجْزُها كان قد كتبها القُنْصُل إلى البنادقة بدمشق يطلب منهم مُغادرة البلاد ببضائعهم للإفلات من المُصادرة ورُدُود الفِعْل الأُخرى.

ونتيجةً لذلك جُلِد القُنْصُل وطُرِد من مصر[81]. يُمكن أن يُفهم ردّ فعل السُّلطان الغاضب بسهولة نظراً لكون القُنْصُل، إلى حدٍّ ما، موظّفاً في الإدارة المَمْلُوكية. وقد وجد القناصل أنفسهم في وضعية صَعْبة لأنهم يعملون لفائدة سَيِّدَيْن، مُدُنِهم الأصلية والدولة المَمْلُوكية، وكلاهما يأمل الحصول على المداخيل الجِبائية وغيرها من الأرباح المُتأتِّية من الفُنْداكو.

---

(79) Amari, (ed.), *Diplomi arabi*, 339, 343; John Wansbrough, "Venice and Florence in the Mamlūk Commercial Privileges", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 28 (1965) 514; Wansbrough, "A Mamlūk Commercial Treaty", 65; López de Meneses "Los Consulados catalanes", 116, 117 (art. 28).

(80) Mansouri, "Les Communautés marchandes occidentales", 101.

(81) Piloti, *Traité*, 231-232 (67r-v).

يوفّر الفُنْداكو مكاناً يلتقي فيه التجار المَسِيحيون والمسلمون واليَهُود ويمارسون فيه نشاطهم وإن كان التجار المسيحيون هم وحدهم الذين ينامون داخل أسواره[82]. يقصده المسلمون المحلّيّون من أجل التِّجارة. فقد لاحظ فيلكس فابري متحدّثاً عن أحد مباني البنادقة "أن أعيان البنادقة كانوا يجلسون... برفقة وُجَهاء من المسلمين يتحاورون في شؤون التِّجارة". وشهد فيما بعد خصومة بين تاجر بُنْدقي وآخر مسلم ضَرَب خلالها البُنْدقيُّ المسلم مَرّات عديدة ثم دفعه خارج الفُنْداكو. ولم يترتّب على هذه الحادثة أيّ ردة فعل، وهي إشارة من قبل فيلكس إلى تمتُّع البنادقة بنُفُوذ غير مَسْبُوق[83]. كما كان اليهود الأوروبيّون يتاجرون داخل الفُنْداكو كما يبرز ذلك من خلال عَقْد بَيْع خَمْر من قِبَل تاجر يهوديّ في أحد فَنادق البنادقة بالإسكندرية حُرِّرَ سنة 1422م، ومن خلال عَقْد آخر حُرِّرَ بعده بثلاث سنوات في فُنْداكو الأنكونيين «fontico Anconitanorum» بين مجموعة من التجار البنادقة وتاجر يهوديّ من منطقة أبوليا «Apulia»[84].

رغم أنه كان في وِسْع اليهود البنادقة الإقامة في فُنْداكو البنادقة، فلم تكن كلّ فَنادق الأوروبيّين تمنح مثل هذا الامتياز للرعايا الأوروبيّين من غير المسيحيين.

ويبدو أنّ بعض اليهود الأوروبيّين كانوا يُقيمون بالإسكندرية[85]. فقد كتب

---

(82) لقد حَظَرت قرارات مدينة برشلونة الصادرة سنة 1381م على القناصل بالإسكندرية إكراء غُرَف للنوم أو بيت أو دُكّان لمُسلم أو ليهودي مهما كانت الأسباب (Capmany *Memorias*, 11, 321). وعمّا إذا كان هذا القرار ذا مفعول باقٍ أو قد مضى بتقادم الزمن يبقى سؤالاً مطروحاً.

(83) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae* , III, 163-165 [130b-131a], *Voyage en Egypte*, II, 694-697.

(84) Ashtor, «New Data,» 77-79, 94-99; D. Jacoby, "Venice and the Venetian Jews in the Eastern Mediterranean", in *Gli ebrei e Venezia (secoli XIV-XVIII) a cura di G. Cozzi*, (Milan, Edizione di Comunità, 1987) 36.

تتعلّق معاهدة مُبْرَمة بين السُّلطان الحَفْصِي وبطرس الرابع ملك الأراغون سنة 1360م برعايا الملك الأراغوني من المسيحيين واليهود الذين لهم معاملات مع تونس تحت سُلطة القُنْصُل الأراغوني (Alarcón [ed.], *Documentos árabes diplomáticos*, 313 (doc. 140).

(85) إن الحُجّة في وجود فُنْدُق خاصّ باليهود ليست قوية ولكن ذلك ليس مستحيلاً حسب المصادر السابقة حول فُنْدُق اليهود في مصر. ويشير الرَّحّالة الغربيون في بعض الأحيان إلى فَنادق اليهود. وهذا ربّما كان يتعلّق بالتُّجّار اليهود من داخل دار الإسلام وربّما =

سنة 1380م بطرس الرابع ملك الأراغون إلى قُنْصُل القَطَلانيّين يطلب منه أن يبحث عن يهوديّ اسمه أستروخ صلادي «Astruch Saladi» أصيل كاستلون دي أمبورياس «Castellon de Ampiurias» لأنه هَجَرَ زوجته ويبدو أنه يعيش بمصر. يُوحي هذا الطلب بأنّ هذا الرجل قد يكون على اتّصال بالجالية القَطَلانيّة بالإسكندرية ولو أنه لم يكن مُقيماً بالفُنْداكو(86). هناك القليل من الأدلّة حول مُشاركة اليهود المحلّيّين في أنشطة الفَنادق الغربية(87). وكما كان يوجد تجار مسلمون كان هناك تَنَوُّعٌ من السُّكّان المحلّيّين الآخرين في دُوْر الديوان (الجمارك) وفي الفَنادق لتسهيل العمليّة التجارية عندما يتمّ تفريغ السُّفن الأوروبية أو عند شَحْنها. ومن بين هؤلاء هناك المَسْؤولون عن الوَزْن والكَيْل وتَسْعِير البضائع. يحتاج كثير من البضائع إلى إعادة وزنها مَرّات عديدة والتثبُّت من أن أصحابها قد دفعوا ما عليهم من ضريبة وليس هناك ما أضيف أو أنقص من الحُزَم أو الصناديق أو الأكياس. فلما زار فيلكس فابري أرْصِفة ميناء الإسكندرية شاهدها "وقد غُطّيت بالحُزَم التي مُلئت بضائعَ في الفُنْداكو وقد تمّ وَزْنُها بحضور مُمثّلي السُّلطات الإسلامية ثم أعيد وَزْنُها وتمّ تفقّدُها قبل شَحْنها في السفينة وذلك للتأكّد من أنّ المُحتوى لم يطرأ عليه تغيير"(88). فقد كانت البضائع تُوزن بِدِقّة قبل نقلها سواء إلى الفُنْداكو للخَزْن أو منه للسفينة للشَّحْن(89). ونظراً لأن عمليّة الوَزْن وإعادة الوَزْن كان يقوم بها السُّكّان المَحلّيّون، فقد كان التجار الأوروبيّون المُرْتابون مُحتاطين دائماً من الخِدَع المُرِيبة. فقد نَبَّهت معاهدةٌ بين البنادقة والمماليك تعود إلى سنة 1507م إلى "أن التوابل التي يشتريها تجارنا يجب أن تُغربل كما يجب أن تُوزَن بموازين سليمة ومن حقّ تجارنا أن يختاروا

= سَكَنها اليهود الأوروبيون. فقد لاحظ أشتور [Ashtor] أن كاتب عَدْل من البُنْدقية حَرَّر عقداً في فُنْدُق اليهود في الإسكندرية سنة 1405م (81 «New Data,»)؛ كما ذكر داود اليعقوبي وجود فُنْدُق في البُنْدقية، انظر: (Jacoby "Venice and the Venetian Jews", 49).

(86) López de Meneses "Los Consulados catalanes", 102, 151.

(87) هناك مترجم يهودي في الإسكندرية [انظر أسفله، (هامش 99)] ربما كان مصرياً ولكن الأرجح أنه كان ذا جُذور أوروبية.

(88) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae*, III, 170-171 [133a], *Voyage en Egypte*, II, 708.

(89) Tafel, and Thomas (eds.), *Urkunden*, II, 485-486.

من الوَزّانين المسلمين من يناسبهم كما يمكنهم الاحتفاظ بالموازين في الفُنْداكو من أجل إعادة عمليّة الوَزْن ليتثبتوا من أن الوَزّان لم يَخْدَعهم كما أن إعادة الوَزْن لا تُمنَع عنهم من أيّ طرف. وبالمقابل لا يمكن للتُّجار المسلمين الاحتفاظ بالغرابيل في فَنادقهم ولكن يجب أن تُودَع لدى المُقَدَّم [الخاصّ] ويجب أن يفحصها قُنْصُلنا ويختمها بختمه. ويجب أن تُغربل التوابل في فناء الفُنْدُق وهو مفتوح الباب وليس في المخازن المغطّاة حتى تضمن حُقُوق الجميع»[90].

لم تكن كلّ البضائع مُخَزّنة في فَنادق الأوروبيّين، ربّما بسبب كثرة البضائع التي تتجمّع في الإسكندرية. فقد تُنْقَل بعض المواد إلى مخازن أو مقرّ الديوان (وكلمة الديوان أو الديوانة قد تُستعمل للتعبير عن المكان الذي تُخزن فيه البضائع قبل دفع الضرائب المُسْتَحَقّة وعن ديوان جمع الضرائب)، حيث يُحتفظ بها في مكان مُغلق ويُحتفظ بالمِفتاح. وقد تعرّضت مُعاهدة بين الجَنَويين والمماليك سنة 1290م إلى هذه الوضعية مشيرة إلى أنه يجب أن يكون للجَنَويين كاتب بالديوان ليقوم بشؤونهم وليتأكّد من أنّ كلّ البضائع الجَنَوية قد تمّ تسجيلها بدقّة. كما يُمكن للتُّجّار الحصولُ على ما يحتاجون من المخازن في المَبْنَى ويمكنهم أخذ المفاتيح مَعَهم[91].

يحتفظ مُوَظّفو الإدارة المَمْلوكية بمسار كلّ البضائع فعندما تصل السِّلَع إلى الفُنْداكو أو إلى المخازن يوجد مُوَظّفون رسميون «ليحضروا عمليّة العَدّ والوزن حتى لا يضيع شيء من مستحقّات الديوان»[92]. يحدث أن تضيع بعض الأشياء رغم أنّ المَبْنَى ذاته مُغْلق من قِبَل رسميين مسلمين. ففي بداية القرن الخامس عشر يُفاخِر بيلوتي كيف استطاع ذات مرة أن يدخل مخازن الديوان عبر نَفَق من مَبْنًى مُجاور كان فُنْدُقاً للجَنَويين» ونقل منه كمّيّة كبيرة من البضائع التي تعود إليه

(90) Wansbrough, "A Mamlūk Ambassador", 528-529.

(91) "Magasenos in dugana bonos et sufficientes, et claves eorum": Belgrano, "Trattato", 169-171.

في أواخر القرن الثاني عشر اشتغل والد عالم الرياضيات ليوناردو فيبوناتشي [Leonardo Fibonacci] كاتباً في الديوان البيشي في بجاية (Fibonacci, *Scitti* 1).

(92) Wansbrough, "A Mamlūk Commercial Treaty," 63 هذه المعاهدة مؤرخة في 1489.

وإلى آخرين دون أن يدفع أية ضريبة عن ذلك" . فعلاوة على الضرائب التي تُدفع عن البضائع هناك معاليم الخَزْن التي تُدفع عن استعمال الفُنْداكو أو مَخْزَن وهي ضرائب تَهَرَّب منها بيلوتي بسرقته تلك[93].

كان التجار يدفعون ضريبة للديوان وأخرى لموظّفين مختلفين كالوُسَطاء والتَّراجِمة. ففي سنة 1489م، كان على التجار الفلورنسيين الواصلين إلى مدينة الإسكندرية أو غيرها من الموانئ المَمْلوكية الأُخرى أن ينقلوا "بضائعهم إلى فَنادقهم أو مخازنهم حيث يُمكنهم بيعها مُقايَضة أو نَقْداً لمن يشاءون وبعد ذلك يدفعون للديوان الشريف أربعة عشر ديناراً عن كلّ مائة قبضوها من البيع يدفعونها نقداً أو عَيْناً دون مدفوعات السَّمْسَرة والترجمة" . إذا تجاوز الموظّفون في عمليّة التقويم وجمع الضرائب المُناسبة ثلاثة أيام وهي المُهْلة التي تُعتبر تعطيلاً للنشاط التجاري فإنه من حقّ الفلورنسيين أن يشتكوا للمُحْتسب[94]. وبالمقابل كان موظّفو الديوان في مدينة الإسكندرية وغيرها من المُدُن الأُخرى مُطالَبين بتقديم حسابات مداخيل الضرائب إلى ديوان السُّلطان بالقاهرة.

وكانت الحكومات الإسلامية والمسيحية مُستفيدة من مداخيل الفَنادق، وكذلك بالنسبة إلى قناصلهم ومُوَظّفيهم والتجار الذين يمارسون نشاطهم عبر هذه المُنشآت.

والمجموعة الوحيدة التي كانت خاسرة ماليّاً، وبالتالي الأكثر صَخَباً في شكاواهم، هي مجموعة الحَجيج الذين يسكنون في الفَنادق. تذكر رواياتهم باستمرار شكاواهم من غلاء الأسعار ومطالب الرَّشوة والمُكُوس التي يواجهونها في كلّ طريق، وهم يُسلّطون بذلك الضوء على مختلف الطُّرُق الصغيرة ولكنّ المُربحة التي بواسطتها يُنمّي القناصل الأوروبيّون مداخيلهم. فقد ذكر حاجّ

(93) Piloti, *Traité*, 180-181 (50v); Gual Camarena, (ed.), *El primer manual (siglo XIV)*, 132. تُسمَّى الضريبة هنا fondeguatgue وقد أشار فرانشسكو بالدوشي بيغولوتي [Francesco Balducci Pegolotti] إلى ضريبة على الخزن مشابهة fondacaggio في الموانئ الأوروبية والإسلامية على السواء خلال القرن الرابع عشر، (*La Pratica della mercatura*, 162, 183 ff., 210 ff.).

(94) Wansbrough, "A Mamlūk Commercial Treaty," 63-64.

فلورانسي يدعى جيورجيو غوتشي «Giorgio Gucci» قائمةً دقيقةً في مصاريفه مسجّلاً أن كلّ حاجّ يدفع دوقة «ducat» للقُنْصُل مقابل السَّكَن مع الإضافات الأُخرى "كالخَمْر والبسكويت اللذين يوفّرهما القُنْصُل أثناء الإقامة"(95). وعندما تهيّأت مجموعة فيلكس فابري لمغادرة فُنْداكو القَطَلانيّين طلب القُنْصُل 6 دوقات «ducats» من كلّ واحد من الحَجيج وهو مبلغ لم يكن فيلكس قادراً على توفيره. وبعد استغاثة خَفيّة بزوجة القُنْصُل اليونانية تدخّلت هذه الأخيرة لصالحه لدى زوجها الذي أعفاه من المبلغ على مَضَض(96). لم تكن هذه الضرائب على الحَجيج عامّة، فقد ذَكَر يوس فان غيستاله معاصر فيلكس فابري، الذي أقام بأحد فَنادق البنادقة "أن القُنْصُل أحسن استقباله هو ورفاقه ولم يدفعوا أيّ شيء مُدّة إقامتهم هناك"(97).

افتراضيّاً كان النشاط التجاري بين التجار الأوروبيّين والمماليك يتمّ بمساعدة التَّراجِمة، وحتى الغربيون الذين كانوا يعرفون شيئاً من اللُّغة العربية (أو المصريون الذين كانوا يعرفون لُغة غربية) كانوا، على الأرجح، مُجْبَرِين على اعتماد وُسَطاء أو سَماسِرة. فالتُّرْجُمان شخصية دائمة الحُضُور ويبدو أن من يمارسون هذه المِهْنة يأتون من مُختلف مناحي الحياة. بعضهم من أهل البلاد وبعضهم الآخر من أصول أوروبية.

يمكن للقناصل، بمُقْتَضى المُعاهدات، أن يختاروا تراجمة رسميين لفَنادقهم لحُضُور شراء وبيع البضائع داخل مباني الفُنْداكو وخارجها، ولكنّه يجب أن يقع اختيارهم ضمن قائمة تمّت الموافقة عليها مُسبقاً من قِبَل الديوان(98). وقد مارس الترجمة في الفَنادق مسيحيون ومسلمون ويهود حتى ولو

(95) Frescobaldi et al., *Visit to the Holy Places*, 150, 153.

(96) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae*, III, 203 [144a], *Voyage en Egypte*, II, 771-772.

(97) Joos van Ghistele, *Voyage en Egypte*, 113 [177].

(98) يعود هذا إلى مُعاهدة سنة 1430م بين ملك الأراغون والسُّلطان بَرْسباي (Alarcón [ed.]), *Documentos árabes diplomáticos*, [doc. 153, art. 29], 376 [Arabic], 387-378 [Spanish]).

أنهم ربّما لم يكونوا على قدم المُساواة. ففي سنة 1470م كان هناك يهوديّ يعمل كتُرْجُمان ويُدْعى موسى في فُنْداكو الجَنَويين بالإسكندرية وكان يتقاضى 3 دوقات في الشهر مقابل خدماته في حين كان رئيسه أحد المسيحيين المُسَمَّى لوديزيوس «Lodisius» (قد يكون أكثر خِبْرة منه في المِهْنة) يتقاضى راتباً شهريّاً بأربعة دوقات[99]. ففي حين كان تَراجِمة مثل موسى ولوديزيوس يحصلون على راتب شهري محدَّد، كان أولئك الذين يُرْشِدون الحُجّاج يتقاضون مقابلاً لخدماتهم بحسب الأفراد ولمّا وصل فيلكس فابري ورفاقه أخذهم تُرْجُمان مسلم يُدعى شامبك Schambek (بحسب إملاء فيلكس) على عاتقه، وكان يتكلّم اللُّغة الإيطالية بطلاقة وقادهم عبر مسالك الهِجْرة المعقّدة. ولكن في النهاية انزعجت المجموعة لأن شامبك طلب 13 دوقة عن كلّ حاجّ (وهو أكثر من ضِعْف التعريفة العادية التي تساوي 6 دوقات) مقابل امتياز المرور، فدفعوا ذلك المَبْلغ على مَضَض بما أنه أثبت أنه أمين وِثقة[100]. ومن مهامّ التُّرْجُمان هو التأكُّد أن الحَجِيج المسيحيين الأجانب لا يتيهون داخل المدينة دون مُراقبة خاصّة في المناطق الحسّاسة غير أن فيلكس يبدو أنه أفلت من مُراقبيه في ذلك اليوم الذي طلب فيه المُساعدة للعودة إلى الفُنْداكو.

كثيراً ما يشير الرحّالة إلى أن التَّراجِمة الذين اعترضوهم في القاهرة كانوا من أصول أوروبية وقد اعتنقوا الإسلام. فقد ذكر سيمون سيميونيس سنة 1323م أنَّ مُترجِمَيْه الرئيسيَّيْن في المدينة، كان أحدهما راهباً سابقاً على المذهب الروماني Roman ex-friar والآخر كان من فرسان الهيكل Templar السابقين وقد تزوَّجا[*]. وقد كان كلاهما "مرتدّاً عن دينه في الظاهر" ولو أنه يقول بأنهما حافظا على مسيحيَّتهما سراً. وقد كان زميلاهما الأصغر منهما سِنّاً إيطاليَّين من اليعاقبة[101]. وقد ذكر رحّالة آخرون المعلومات نفسها. ففي سنة 1384م على

(99) Ashtor, «New Data», 89.

(100) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae* , III, 147-148 [125b], 152-153 [127b], *Voyage en Egypte*, II, 663, 673-674.

(*) يُفترض بالراهب الكاثوليكي وفارس المعبد ألّا يتزوَّجا (المترجم).

(101) Semeonis, *Itinerarium*, 97-99.

سبيل المثال، استأجر جيورجيو غوتشي وليوناردو فراسكوبالدي تُرْجُماناً "كان من البنادقة الذين تخلّوا عن دينهم وتزوّج من ابنة أحد إخواننا الفلورنسيين المُتخَلّين عن دينهم" وبعد قرن من الزمن، كان دليل فيلكس فابري أحدَ الأحبار الصِّقلّيين الذي اعتنق المسيحية في مرحلة أُولى ثم اعتنق الإسلام. ويذكر مُعاصِره يوس فون غيستاله أنّ تُرْجُمان السُّلطان الرئيسيّ كان من مسيحيي بَلَنْسية ثم أسلم[102]. وفي سنة 1501م، أقام بالقاهرة سفير إسباني أرسله فرديناند وإيزابيلا إلى مصر، بصحبة تُرْجُمان يدعى لويس دي برات دي مونبلانش «Luis de Prat de Montblanch» وهو قَطَلانيّ كان قد اعتنق الإسلام[103]. تُضفي هذه الروايات تعقيدات على لوحة العلاقات العابرة للثقافات في عهد المماليك مؤكّدة على أن عدداً من الأوروبيّين كانوا يعيشون ويعملون في مصر وأن اعتناقهم للإسلام كان جِسْر نجاحهم.

خارج الإسكندرية: التجار المسيحيُّون المُقيمون في مُدُن إسلامية أُخرى

لقد تَمَحْوَر النقاش إلى الآن حول الفَنادق في الإسكندرية المملوكية ولكن التجار المسيحيين كانوا يذهبون أيضاً إلى دمشق وتونس ومالقة وأسواق إسلامية هامّة أُخرى في العصر الوسيط المتأخّر. وباعتبار الفُنْداكو معدّاً للتُّجّار المسيحيين يوضح مدى تأثّر تطوّر الفضاءات التجارية في مختلف الجِهات بحاجات وضُغُوطات السياسات المحلّية وتخصّص المسالك التجارية وخُصُوصيات المجمُوعات التجارية. وفوق كلّ هذه الاعتبارات، فقد ظلّ نظام الفُنْداكو مُتناسقاً عبر الفضاء المتوسّطي وربّما لأن هذه المُنشآت كانت من الْمَرِيّة إلى دمشق تحت إشراف تجار من عدد محدود من الدول الأوروبية المسيحية. ومن ناحية أُخرى فإنّ العلاقات الدبلوماسية والعسكرية كانت مختلفة من دولة إلى أُخرى وهو ما يؤدّي إلى تنوُّع لنظام الفُنْداكو حسب الجِهات.

---

(102) Frescobaldi et al., *Visit to the Holy Places*, 44-45, 106; Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae*, III, 20 [80b-81a], *Voyage en Egypte*, II, 401-403; Joos van Ghistele, *Voyage en Egypte*, 16-17.

(103) López de Meneses "Los Consulados catalanes", 122-123.

بلاد الشـــام

إن أشكال نشاط التجار الغربيين في بلاد الشام كانت مختلفة نوعاً ما عن تلك التي توجد في مصر رغم أن المنطقتَيْن كانتا وثيقتي الارتباط سياسيّاً واقتصاديّاً. فالاختلافات الجُغْرافية واختلافات وسائل الاتّصال تساعد على تفسير تطوّر أشكال التِّجارة. فقد كانت كلّ من مصر والشام في عصر المماليك مُجَهَّزتين بصورة جيّدة بالأسواق الداخلية. ولكنّ مصر كانت لها طريق تجارية مباشرة لا مَحِيد عنها عبر وادي النيل وهي تربط بين المِيناء الرئيسيّ بالإسكندرية والعاصمة، رغم أن القاهرة كانت مرتبطة بعدد محدُود من المسالك البرية الأُخرى. وقد أدّت هذه الظروف إلى تسهيل عمليّة المُراقبة المُشدّدة على المُبادلات عبر القاهرة مثلما هو الشأن كذلك بالنسبة إلى الإسكندرية. أدَّت نُدْرة الموانئ الهامّة على طول الساحل الشامي خاصّة بعد انتهاء الحُضُور الصليبي بعكّا وكذلك غياب النقل النَّهري، إلى بروز وضع مختلف حقيقة في بلاد الشام. فقد كانت كلّ من حلب ودمشق سوقاً هامّة وهما مرتبطتان بشبكة من الطُّرُقات البَريّة تجعل جاذبيتهما التجارية تفوق جاذبية أيّ مدينة مينائية في الجِهَة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وقد يختار التجار تجنُّبهما إذا كانت ظروفهما الاقتصادية تبدو غير مُلائمة. وعلى خلاف المدينة المينائية حيث تكون حركة المُبادلات مُراقبة فإن الأسواق الداخلية تعتبر نِقاط رَبْط تجارية تَبني ازدهارها لا على الموقع فقط بل كذلك على العوامل والدوافع الاقتصادية. زيادة على ذلك فإن التنظيم الصارم لهذه الأسواق يفتح أمام التجار إمكانية ممارسة نشاطهم في مكان آخر. وكما رأينا فقد كان القناصل الغربيون في الإسكندرية في اتّصال وثيق مع بني جِنْسهم من التجار في دمشق. ورغم وجود نُوّاب للقناصل للإشراف على شؤون التجار بالشام فإنّ القناصل بمصر مسؤولون عن أعمال جميع بني جِنْسهم في كامل المجال المملوكيّ. إلّا أنّ فَنادق دِمَشق وحَلَب وطَرابلس وبيروت لم تكن منظّمة بالطريقة نفسها التي كانت عليها فَنادق الإسكندرية ولم يكن التجار الغربيون في الشام موضوع قُيُود شديدة في مجال التِّجارة والتنقُّل مثلما هو الشأن في مصر[104].

(104) تتعلَّق أغلب معلوماتنا بحَلَب ودِمَشق؛ فهناك قليل من المعلومات عن الفَنادق في المُدُن المينائية الشامية. وعن الجانب غير الرسمي للشبكة التجارية في الشام في القرن الخامس =

ولعلّ هذا التوجّه نحو تعريف وتنظيم أقلّ رسمية ناتج عن كون الفَنادق الشامية كانت بعيدة عن القاهرة ومن الصعب الإشراف عليها ونظراً للموقع الداخلي لحلب ودمشق وهو ما يَصْعُب معه أن يتدعَّم دورها لتكون محطّات تجارية نهائية.

وقد أصبحت كلمة خان في بلاد الشام أكثر استعمالاً من كلمتَي الفُنْدُق والفُنْداكو خلال القرن الرابع عشر وكثيراً ما تستعمل المصادر العربية الشامية هذه الكلمة للتعبير عن المُنشآت الخاصّة بالتجار الغربيين. وفي جَرْدٍ للخانات عدّ ابن الشِّحْنة ستة وعشرين خاناً في حَلَب في مُنتصف القرن الرابع عشر وذَكَر خان الشَّيْباني على أنه "خان الفَرَنج"[105]. وقد يكون هو نفسه الخان الذي تحدَّث عنه ابن الحَنْبَلي (ت سنة 1564م) وقال إنه "خُصِّص للفَرَنج وقُنْصُلهم" في مدينة حَلَب، الذي اتُّهِم ساكنوه بإسدال الأقمشة المُزَينة بالصليب على جدرانه الخارجية ممّا أدّى إلى اضطراب مُرَوِّع في المنطقة[106].

ويذكر ابن صَصْرَة خانات يسكنها التجار الفَرَنجة ووصف "**الحريق الذي اندلع في المدينة سنة 1396م الذي لم يَرَ أحد مثله. . .وبلغ سوق الكَتّان وخان الحَبّالين. . . وراح للناس فيه شيء كثير لا يقدر أحد على حصره ونُهِبَ لهم فيه شيءٌ كثير، واحترق للإفْرَنج فيه شيء كثير فإنهم كانوا ساكنين في تلك الخانات**"[107]. وقد لاحظ برتراندون دي لا بروكيير سنة 1430م أن التجار الغربيين في دمشق كانوا يضعون بضائعهم في خان بَرْقُوق للمحافظة عليها ويضيف أنَّ هذا المَبْنَى الخاصّ قد نجا من تدمير تَيْمُور احتراماً لمؤسّسه، السُّلطان بَرْقُوق[108].

= عشر، انظر: E. Congdon, «Venetian Merchant Activity within Mamlūk Syria (886-893/1481-1487), *al-Masāq: Studia Arabo-Islamica Mediterranea* 7 (1994) 1-33.

(105) ابن الشِّحْنة، الدُّرّ المُنتخَب، ص193-194 [248-249]، قد يكون هذا هو "خان الصيباني" [Can Sibani] الذي يوجد في وثائق البُنْدقية في العصر الحديث المبكِّر أو ربّما هو خان الصابون. في القرن السادس عشر كان هذا الخان مُسْتَعملاً كفُنْدُق للتُّجّار الفرنسيين في مدينة حلب (Scharabi, *Der Bazar*, 169). وقد كان الخان الڤينيسي (البندقي) يُسمّى أيضاً خان البنادقة. (Concina, *Fondaci*, 95).

(106) Sauvaget, *Alep*, 1, 173.

(107) ابن صَصْرَة، الدُّرَة المُضيئة، الجزء الاول، 173 أ.

(108) Broquière, *Voyage d'Outremer*, 35-6 (trans. 21). قد ذُكِر هذا المَبْنَى بدمشق من قِبَل رَحّالة أوروبيين آخرين (Heyd, *Histoire du commerce du Levant*, 11, 462).

من اللافت للنظر أنّ الإشارة إلى الفَنادق (الفُنْداكو) في بلاد الشام في أواخر القرن الخامس عشر لا تَرِد إلّا في المصادر الأوروبية وليس في المصادر العربية. وهو ما يشير إلى أنّ الكلمة كانت استعمالاً غربياً مستورداً مطّرِداً ضمن الاستعمال الغربي مثلما ميَّز ذلك سفير البُندقيّة جوسافات بربارو «Giosafat Barbaro» عندما كان يصف خاناً بمدينة تَبْرِيز سنة 1474م على أنه "نُزُل، هو ثانٍ" للفُنْتيغو خاصتنا" «un caversera, cioé secondo noi fontego»[109].

وفي الفترة نفسها أشار كلّ من أنسيلم أدورنو الواصل إلى دِمَشق في بدايات سنوات 1470 وأرنولد فون هارف «Arnold von Harff» الواصل إليها في سنوات 1490م إلى فُنْداكو البنادقة (وربّما كان يُسمَّى خاناً في اللهجة المحلّية) حيث يقيم البنادقة وغيرهم من المسافرين الغربيين وفيها يُمارسون التِّجارة[110].

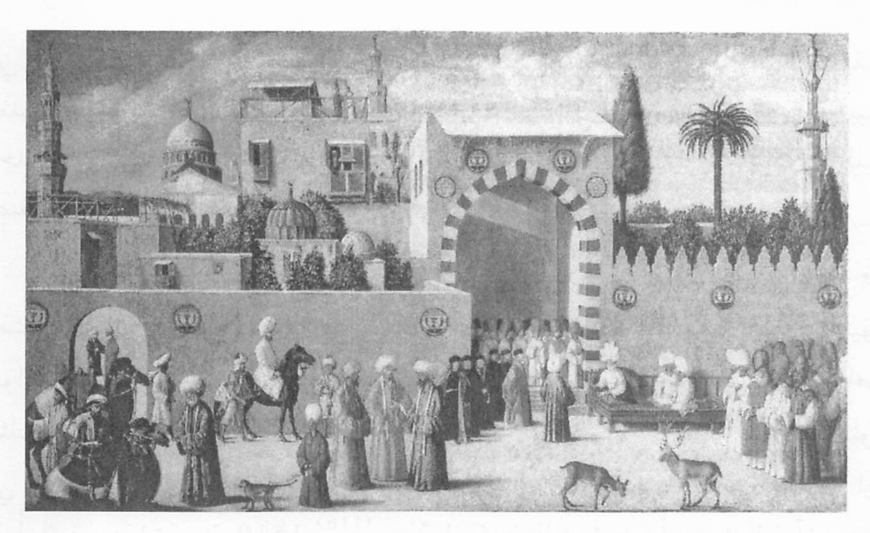
وكذلك تَضْمن مُعاهدةٌ بين البنادقة والمماليك تمّ إمضاؤها سنة 1512م الأمنَ بالنسبة إلى التجار البنادقة "في فُنْدُقنا" (فُنْداكو) بِحَلَب[111]. وهذا الاستعمال لم يكنْ مختلفاً عن استعمال البنادقة لكلمة فُنْداكو بالقُسطنطينية بعد الحَمْلة الصَّليبية الرابعة رغم أن الأحياء الأجنبية في العاصمة البيزنطية لم تكن قطّ تعتمد هذه التسمية في اللُّغة اليونانية. ويظهر استعمال بُنْدقي مُماثل ليس في محلِّه في بداية القرن السادس عشر في الترجمة الإيطالية لرحلة ماركو بولو حيث يوجد مقطع أضاف فيه جوفاني باتيستا راموزيو «Giovanni Battista Ramusio» (والذي توفّي في البُندقيّة سنة 1557م) وصف "العديد من الفَنادق (الفُنْداكو) [في عاصمة المَغُول] مخصّصة لإقامة التجار من مختلف أنحاء العالم حيث تختصّ كلّ أمة من الأمم بإقامة خاصّة بها كأن نقول هناك مراكز خاصّة باللُّمْبارديين

---

(109) L. Lockhart, R. Morozzo della Rocca, and M. F. Tiepolo (eds.). *I Viaggi in Persia degli ambasciatori veneti Barbaro e Contarini*, (Rome: Istituto Poligrafico dello Stato, 1973) 118.

(110) Adorno, *Itinérarire*, 337; Arnold Von Harff, *Pilgrimage*, 230. إن الظاهرة ذات المفارقة التاريخيّة نفسها واضحة في الأدب الإيطالي المبكّر. وهكذا، فإنّ بوكاتشيو [Boccaccio] (توفي سنة 1375م) كان يعكس الاستعمال التوسكاني عندما جعل قصصه تدور في عَكّا، حيث وجدت البطلة صُدفةً، [وهي متنكّرة في زيّ التُّجّار] مَقَرّ إقامة لبعض التُّجّار البنادقة «un fondaco di mercanti viniziani» (*Decameron*, 1, 246, trans., 216).

(111) Reinart, M. «Traités,» 47.



حفل استقبال سفراء البندقية في دمشق

مدرسة جنتيلي بلّيني [Gentile Bellini] في بدايات 1490م، باريس، متحف اللوفر.

تبين الصورة منظراً من مناظر دمشق كما يُرى من فنداكو البنادقة

وأُخرى للجرمان وأُخرى للفرنسيين"[112]. من الواضح أنه عندما تَرَاجَعَ استعمال كلمة فُنْدُق في العالم الإسلاميّ وخارجه كانت تُعَوَّض بكلمات خان وكَرَفانْسيراي وفُنْداكو، بقيت كلمة فُنْداكو مُحَبَّذة في الاستعمال الإيطالي (خاصّة لدى البنادقة) للتدليل على البلاد التي تُمارَس فيها التِّجارة العابرة للثقافات.

وفي الوقت نفسه ربّما تكون الكلمة الإيطالية تعني عادة المَخْزَن، (كما كان يُفْهَم في إيطاليا المعاصرة)، بِقَدْر ما أو أكثر ممّا تعني مَقَرّ السَّكَن. وبالإضافة إلى المصادر التي تتحدّث عن التجار الغربيين الذين يستعملون الفَنادق والخانات في المُدُن الشامية، فإن هناك أدلّة على أن كثيراً من التجار كانوا يستأجرون منازل عادية في دِمَشق وغيرها بحُلُول القرن الخامس عشر[113]. إذ ربما كانت الفَنادق والخانات مُسْتَعملة أكثر لمُمارسة التِّجارة وخَزْن البضائع أكثر من السَّكَن إلّا بالنسبة للذين يُقِيمون لفترة قصيرة جداً. فقد أشار برتراندون دي لا بروكيير الذي سافر عبر بلاد الشام في بدايات سنوات 1430م أن الحُجّاج ينزلون في الخانات

(112) Marco Polo, *The Book of Ser Marco Polo,* ed. and trans. Henry Yule (London: John Murray, 1903) I, 96, II, 412, 415.

(113) Ashtor, *Levant Trade*, 407.

في حين يقيم التجار في منازل خاصّة بهم. فقد استدعيا تاجر من البُندقيّة يقيم بمدينة حماه برتراندون إلى بيته وعندما اكتشف السُّكّان المحليون أنه يقيم في بيت أحد الأوروبيّين ألَحُّوا عليه في استدعائهم لتناول الشراب. غير أنه عاد في الليل بصحبة رفيقه إلى الخان"[114].

ذَكَر أدورنو كذلك حَظْر التَّجْوال في الليل ملاحظاً أنّ التجار البنادقة في دِمَشق" يعيشون جميعهم معاً في المكان نفسه وقد كان المسلمون يغلقون عليهم أبواب بيوتهم ليلاً"[115] . ولكن عوضاً عن أن يكونوا مَحْصورين في مَبْنىً خاصّ مثلما هو الشأن في مِصْر، يبدو أن الأوروبيّين في دِمَشق وحَلَب كانوا يسكنون في حيّ داخل المدينة له أبواب يمكن غلقها مثل "حارة الغرباء" التي يذكرها ابن طُولُون في دِمَشق سنة 1510م[116]. وربّما يكون ذلك تجديداً حدث في آخر عهد المماليك أو في بداية عهد العُثْمانيين، إذ يشتكي ابن الحَنْبلي في أواخر القرن السادس عشر من أن الفَرَنج الذين كانوا يسكنون عادة في الخانات فقط، أصبحوا على عهده يسكنون المنازل" في حَلَب[117].

لدينا مِثالٌ نادرٌ وجميل لمشهد من الحياة الأوروبية في دِمَشق من خلال لَوْحة، تُنْسَب في بعض الأحيان إلى جنتيلي بلِّيني، تُصوّر استقبال سفراء البُندقيّة عند أحد أبواب دِمَشق في أواخر القرن الخامس عشر. تُبيّن اللوحة التي نعرف أنها وصلت إلى البُندقيّة حوالى سنة 1495م، صورة لحمّام خاصّ وكذلك المَسْجد الأُمويّ وفيه الصَّوْمَعة التي أُضيفت في عهد السُّلطان قايتباي سنة 1488م. ويؤكّد هذا التاريخ وجود شعارات المماليك مرسومة على جدران المدينة[118]. وبالرغم من عدم توفّر كثير من المعلومات حول اللوحة، فقد لاحظ

---

(114) Broquière, *Voyage d'Outremer*, 77-80.

(115) Adorno, *Itinérarire*, 333.

(116) ابن طُولُون، إعلام الوَرَى، ص211 من النصّ العربي وص127 من النصّ الفرنسي.

(117) Sauvaget, *Alep*, 173. يُشبه هذا نظام الفصل بين الجاليات في المُدُن الصليبية وفيما بعدها في النظام المِلّي العثماني.

(118) رأى البعض أن اللوحة تُبيّن حفل استقبال نَظّمه السُّلطان الغُوري سنة 1512م. إلّا أن جان سوفاجيه يُعارض ذلك («Une Ancienne representation de Damas au Musée du Louvre,» *Bulletin d'Etudes Orientales. Institut Français de Damas* II [1945-1946]=

جوليان رابي «Julian Raby» "أنّ الذي رسم اللوحة يجب أن يكون قد زار دِمَشق ورسم منظر المَسْجد والحَمّام من الطابق العُلْوي لفُنْداكو البنادقة الذي يوجد داخل السوق جَنُوبيّ المَسْجد الكبير"[119]. من المؤكّد أنّ الصورة العامّة صحيحة من الجِهَة التي توجد بها مَرَافق الأوروبيّين التّجارية ومقرّات إقامتهم[120].

إنّ الصورة نفسها تُبَيِّن خليطاً من الأشياء الرسمية وغير الرسمية فيما يتعلّق بالناس وبالهندسة المِعْمارية وهي تعكس لا الموضوع المباشر فقط ولكن أيضاً واقع الحياة الأوروبية في المدينة المَمْلوكية. كان السُّفراء البنادقة الستة يقفون أمام شخص جالس وعلى رأسه عمامة رائعة، قد يكون السُّلطان قايتباي نفسه في حين كانت مجموعة من الخَدَم والرسميين يشهدون الاستقبال. وهناك شخص آخر واقف يدير ظهره إلى المشاهد وهو ملتفت إلى السُّفراء والسُّلطان الذي يركّز نظره عليه، فقد يكون التُّرْجُمان وهو يترجم تبادل العبارات الدبلوماسية. في حين كان هناك عدد آخر من الناس يتجاذبون أطراف الحديث وينظرون في شؤونهم في الشارع نفسه غير مُكْترثين للمشهد الرسمي. ويبدو بعيداً في الشارع نفسه ثلاثة أشخاص ربما كُنّ نساءً، اثنتان تتحدّثان على السطح والأُخرى تنظر من النافذة. كما تَبْرز حيوانات كثيرة في الصورة، إبِل وأيل وقِرْد أليف، وهي تذكّر بِصُور الوحوش العجيبة المُعاصرة التي شاهدها فيلكس فابري في فُنْداكو البنادقة بالإسكندرية[121].

فقد جَمَعَ الفنّان بين الظُّرُوف العَرَضية لِلَّوْن الإنساني المحلّي وشَكْلِيّات الاستقبال الدبلوماسي والمُخَطَّط الهندسي وقِباب المِعْمار الحَضَريّ.

= (5-6, 8-9). وقد ثُنّي على ذلك الرأي وتوسَّع فيه جوليان رابي Julian Raby, *Venice, Durer, and the Oriental Mode*, (Totowa, NJ: Islamic Art Publications, 1982) 55-65. انظر كذلك: Sylvia Auld, «The Mamluks and the Venetians Commercial Interchange: the Visual Evidence,» *Palestine Exploration Quarterly* 123 (1991) 91.

(119) Raby, *Venice, Durer, and the Oriental Mode*, 55.

(120) ذكر سوفاجيه هذه النقطة ورسم تخطيطاً بَيَّن فيه المسجد والحمّام وكذلك الموقع المحتمل لفُنْداكو البنادقة ("Ancienne representation," 9, also fig. 3).

(121) يورد ابن صَصْرَة قصة كاملة حول وجود قِرْد أليف في الخان بدمشق في نهاية القرن الرابع عشر، الدُّرّة المُضيئة، الجزء الاول، ص39-40، فقرات 9 ب و 10 ب.

يعكس المشهد ثُنائية التِّجارة والدبلوماسية بين المسلمين والمسيحيين في العصر الوسيط. فمن جِهَة كانت العلاقات مَحْكُومة بالبروتوكول والتنظيم والحواجز التي تمثّلها اللُّغة والأبواب المُغْلقة. فهذا الفصل الشكليّ يؤكّده الوصف الواعي للغرائبية وألوان اللوحة الزاهية التي يبدو فيها البنادقة، وقد ارتدى خَمْسة منهم اللون الأسود، وُضعوا بِمَعْزِل على أنهم عنصر الاعتدال الوحيد. ومن جِهَة أخرى يتغلّب الجانب العَمَليّ والواقع التجاري على هذه المُعَوِّقات، مثلما يبدو الناس مع حيواناتهم ومَتاعهم وهم يتحدّثون ويختلطون غير مُكْترثين، مُنْصرفين إلى شؤونهم سواء في أبنية الفُنْداكو أو في المَشْهد الذي تقدّمه اللوحة.

شمال إفريقيا وغَرْناطة النَّصْرِية

مثلما كان الفُنْدُق أهمّ مكان للإقامة والتِّجارة في مُدُن بلاد المغرب في أواخر العصر الوسيط، كذلك استمرّ الفُنْداكو بوصفه المجال الخاصّ بنشاط التجار الأوروبيّين. كما أنّ الإشارة إلى الخانات كانت نادرة في غَرْب المتوسّط إلّا على ما يبدو من خلال استعمالات الأجانب العَرَضية. فقد سعى التجار الأوروبيّون منذ القُرُون الأولى إلى تركيز محطّاتهم التجارية في أيّ ميناء مَغْربي يبدو واعداً من الناحية الاقتصادية رغم أنّ الأنشطة الاقتصادية تعطّلت في بعض الحالات بسبب الاضطرابات السياسية المحلّية. وخلافاً لشرق المتوسّط حيث كانت مصر والشام تحت سُلطة المماليك لقرنين ونصف القرن من الزمن، فقد كانت مُدُن عديدة من شمال إفريقيا في ظلّ دُوَل في تقلّب مستمرّ طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. رغم أن تونس ذاتها كانت لا تزال إلى حدّ ما موحّدة تحت نفوذ العائلة الحَفْصِية فإنّ الصراعات العائلية واقتسام الحُكْم ربما كان يُعرّض المُعاهدات وما ترتّب عنها فيما يتعلّق بالفَنادق إلى الخَطَر. وفي الناحية الغربية التي تضمّ مُدُناً مثل تِلِمْسان ووَهْران وحُنَيْن، فقد يؤدّي تغيّر الحدود بين الدول المُتنافسة مثل الحَفْصِيين والزَّيانيين والمَرِينيين إلى تعريض المُفاوضات الدبلوماسية للتقويض[122]. فقد كان المَرِينيون في المغرب يتحكّمون في البلاد

(122) بشأن هذه الموانئ انظر:

see Dufourcq, "Les Espagnols," 5-128; A. Khelifa, "Le Port de Hūnayn au moyen =âge,» in *Histoire et archéologie de l'Afrique du Nord: Actes du Ve Colloque inter-*

بثبات إلى حُدُود النصف الثاني من القرن الخامس عشر حيث تركوا السُّلطة لفائدة الوَطّاسيين. وفي الوقت نفسه حافظت غَرْناطة النَّصْرية على نُفُوذ متآكل على جزء صغير متبقٍّ من الأنْدلُس إلى سنة 1492م. وعلى الرغم من خُضُوع الدولتين الإسلاميّتين في كلّ من غَرْناطة والمَغْرب إلى ضُغُوط عسكرية متعدّدة من القَشْتاليين، فقد كانوا يُفاوضون من أجل معاهدات تجارة وصداقة مع التجار المسيحيين. وقد كان الأمر في الواقع عبر إقليم المَغْرب متميِّزاً بعدم الاصطفاف بين ما توفّره الحَرْب وما توفّره التّجارة من ثَرَوات[123].

أثّرت السياسات المسيحية والأنماط التجارية في تدبيرِ ما يتعلّق بالفَنادق من ترتيبات في المتوسّط الغربي. فقد كان تجار مملكة الأراغون (من بَلَنْسية وبَرْشَلونة ومايُورقة وصِقِلّية) ناشطين بصورة خاصّة في الموانئ المَغْربية مثلما كان التجار الجَنَويون والبيشانيون كذلك. فقد ذكرت معاهدة بيشانية تعود إلى سنة 1353م وجود فَنادق للبيشانيين في مُدُن عديدة من مُدُن السلطنة الحَفْصِية[124]. وعلى العَكْس من ذلك فقد ركّزت البُندقيّة نشاطها في المتوسّط الشرقيّ ولو أنها حافظت على بعض الفَنادق في قليل من مُدُن المَغْرب الشرقية خاصّة في تُونس وطَرابلس إلى حُدُود القرن الرابع عشر[125]. كما سيطرت جَنَوة على نسبة عالية من التّجارة عبر إشْبِيلية وكان تجارها يتردّدون إلى فَنادق غَرْناطة في طريقهم نحو المُحِيط الأطلسي وعند العودة منه مُرُوراً بمَضِيق جَبَل طارق.

قد أدَّى عدم الاستقرار السياسي في شمال إفريقيا وتزايد القوة البحرية

= *national réuni dans le cadre du 115ᵉ Congrès national des sociétés savantes, Avignon, 9-13 avril 1990*, (Paris: Editions du Comité des travaux historiques et scientifiques, 1992, 379-392.

(123) María Dolores López Pérez, «Las Relaciones diplomáticas y comerciales entre la Corona de Aragón y los estados norteafricanos durante la baja edad media,» *Anuario de Estudios Medievales* 20 (1990) 153, 158, 167.

(124) Amari, (ed.), *Diplomi arabi*, 101, 304. يوجد العديد من الفَنادق البيشانية في معاهدة سابقة سنة 1313م (*ibid*, 88).

(125) لقد نشر أماري العديد من المُعاهدات الدبلوماسية التي كرَّسَت وجَدَّدَت الحصول على مُنْشآت تجارية في موانئ بلاد المَغْرب خلال القَرْنَيْن الرابع عشر والخامس عشر Amari, (ed.), *Diplomi arabi*, Mas Latrie, (ed.), *Traités de paix et de commerce*, Capmany, *Memorias*.

والعسكرية المسيحية إلى إبرام مُعاهدات تجارية فيها كثير من الامتيازات من وجهة النظر الأوروبية أكثر ممّا كان مُمْكناً في مِصْر المَمْلوكية. فقد واصل مُلوك الأراغون حتى القرن الرابع عشر مُطالبة السلاطين الحَفْصِيّين بدفع إتاوة كانت قد فُرضت منذ قرن من قبل في عهد جَيْمس الأوّل. وسواء كانت هذه الإتاوة قد دُفِعت فعلاً أم لا فهي مَحلّ شكّ، لكن من المؤكّد أنها دخلت اللُّغة الدبلوماسية. كما يبدو أن الفَنادق القَطَلانيّة بتُونس وبِجاية تواصلت كمُؤسّسات رابحة بالنسبة إلى التاج كما هو الشأن في الفترات السابقة كما أن النصوص واصلت استعمال عبارات التملُّك "فَنادقنا" التي بدأها جَيْمس الأوّل.

وليست هُناك غَرابة في ضَعْف المادّة التي تعبّر عن نظام فُنْداكو منظّم (كما رأيناه في الإسكندرية) في ظلّ وضع مَغْربي مُتَهرّئ وربّما كان التجار الغربيون يتمتّعون بامتيازات أكبر وخِيار أوسع في المُفاوضات وحُرّية أكثر في التنقّل.

إلّا أن هناك العديد من الفَنادق خاصّة في المجال الحَفْصِي التي لم يكن تسييرُها وتنظيمُها مثلَ فَنادق الفترات السابقة. تُبيِّن المصادر الدبلوماسية أن التجار الأوروبيّين قد واصلوا الحصول على الترخيص التقليدي في استعمال الفُنْداكو والحَمّام والفُرْن والدَّكاكين والكَنِيسة في المُدُن الحَفْصِية، وفي بعض الحالات المَخازن والمَدْفَن، خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وقد كانت هذه المُعاهدات صريحة في القول بأن الفَنادق كانت مقرّات للسَّكَن حيث يمكن للتُّجّار الغربيين أن يعيشوا حسب عاداتهم. فذكروا الغُرْف المُعدّة للسَّكَن وكذلك المَخازن والدَّكاكين للبضائع[126]. تؤكّد مُعاهدة نَمَطية أُمْضيت بين جَيْمس الثاني ملك الأراغون ومُحمّد الثاني سنة 1301م على أن يكون للتُّجّار الأراغونيين "قُنْصُل وربّما اثنان للدفاع عن حقوقهم في الديوان وخارجه وللبتّ في القضايا التي تَحْدُث بين الأراغونيين والقَطَلانيّين المَسِيحيين... ويسكنون في فَنادقهم على عادتهم"[127].

(126) Aragonese-Ḥafṣid treaty from 1360 (Las Cagigas «Un Traité de paix,» 71).

(127) "يسكنون في فَنادقهم على عادتهم": Alarc (ed.), *Documentos árabes diplomáticos*, 249-253 (doc. 116).

قد ظلّ التذكير بالعادات القديمة قويّاً بعد قرنين من الزمن في سنة 1504م حيث تذكر معاهدة جَنَوية مع الحَفْصِيين العادات في علاقة بفُنْداكو الجَنَويين وغيره من الفَنادق الأُخرى بتونس(128).

وعلى عكس مصر حيث حوّلت الاستراتيجيا السياسية المملوكية التِّجارة الغربية نحو الإسكندرية، توجد فَنادق في المُدُن الساحلية العديدة بإفريقيا الشمالية مثل تونس وبِجاية وعنابة (بونة) وصَفاقس وقابِس وسُوسة وتِلِمْسان وطرابلس وقُسْطَنَطينة. وتسمح العديد من المعاهدات بالتردُّد إلى المُنْشآت الموجودة بأيّ مدينة داخل السلطنة يرغب التجار في الذهاب إليها. تُوحي كثرة الفَنادق ذات الطابع المُنْفتح بأن الفصل بين المُنْشآت الخاصّة بالتجار الأجانب والمُنْشآت الخاصّة بالتجار المحلّيين يبدو أقلّ وضوحاً في بلاد المغرب منه في الشرق الأوسط.

وهذا، من الناحية النظرية، يمنح التجار الأوروبيّين الحُرّيةَ في اختيار الوجهة التي يرغبون فيها بحسب تغيّرات المناخ الاقتصادي وحسب العرض والطلب. وقد كانت تونس أهمّ الموانئ الحَفْصِية بالنسبة للنشاط الأوروبيّ غير أنّ مُدُناً أُخرى مثل بِجاية وتِلِمْسان وغيرهما يمكن أن تكون مربحة. وفي الواقع كثيراً ما يتداخل السياسي والتجاري والدبلوماسي في هذه الترتيبات. فقد تضطرب الامتيازات الاقتصادية في بِجاية وغيرها من موانئ الساحل الغربي بسبب الصراعات السياسية داخل العائلة الحَفْصِية والمُنافسات مع الزَّيّانيين جيرانهم. وهذا ما كان يدفع، في كثير من الحالات، الدُّوَلَ الأوروبية إلى الدخول في مفاوضات منفردة مع المُدُن من أجل إمضاء مُعاهدات تجارية.

تَواصَلَ امتلاك مباني الفَنادق في مدينة تونس والاعتناء بها من قِبَل السُّلُطات الإسلامية في أواخر العصر الوسيط كما كان الأمر في الفترات السابقة. ففي سنة 1445م، مثلاً، كان "على صاحب الديوان أن يمكّنهم [أي التجار البيشانيين والفلورنسيين] من فُنْدُقهم... ويفرش ويصلح جميع ما فيه الإصلاح ويُحَصِّن من

(128) Emilio Marengo, *Genova e Tunisi 1388-1515*, (Rome, Tipografia Artigianelli di San Giuseppe, 1901) 214.

غير أن يلزمهم في ذلك شيء"[129]. يمكن للجاليات الأجنبية تعيين الموظّفين المباشرين لهم بِمَا في ذلك البَوّابون والحَمّالون حسب ما يناسبهم ويمكنهم أن يأمروا هؤلاء بطرد كلّ من لا يرغبون في دخوله للمَبْنى حتى المسلمين المَحلّيين[130].

إن القُرْب النسبي لتُونس من إيطاليا يجعلها أكثر ملاءمة من مِصْر بالنسبة إلى الشركات التجارية الإيطالية لربط علاقات مع شركاء في المدينة لفترات طويلة من الزمن. كما أنّ الفَنادق في تُونس ساهمت في توفير أرضية لاستقرار الجاليات لفترة طويلة أكثر من نظرائها في مِصْر[131].

تُشير فصولٌ من المعاهدات التونسية إلى منافسة شديدة بين الأُمم التجارية في تُونس أكثر ممّا هو الحال في مصر وقد يعود ذلك إلى الأهمّية العددية للتُّجّار وإلى النفوذ العسكري والاقتصادي الأوروبيّ في الدولة الحَفْصِية. وتُقَدِّم المعاهدات باعتياد ما يُؤكّد الاستعمال المُنْفرد للفَنادق من قِبَل كلّ جالية ومَنْع إسكان أيّ كان دون إذن خاص[132]. ترغب كلّ مجموعة أن تتأكّد من أن غيرها لا يتمتّع بامتياز تجاري خاصّ. فقد أُضيف فصل خاصّ في اتفاق بين جيمس الثاني ملك الأراغون والحَفْصِيين في سنة 1323م فيه "لن يكون لأحد [شروط] أفضل، لا للجَنَويين ولا لغيرهم"[133]. وفي سنة 1301م نجد الاهتمام نفسه في

(129) Amari, (ed.), *Diplomi arabi*, 174-175 (art. 13).
إن فصولاً من هذا النوع كانت شائعة. ففي سنة 1433م تنصّ معاهدة بين جَنَوة وتُونس على أن أي مصاريف تتعلّق بإعادة البناء أو ترميم الفُنْداكو تكون على عاتق الديوان (Mas Latrie, ed., *Traités de paix et de commerce*, 135). وبالأسلوب نفسه ردّ سُلطان تونس على شكوى تتعلّق بالأفران سنة 1308م ويؤكّد على أن الفُرْن قد أُعِيرَ للجالية المسيحية وليس هِبَةً وعليهم أن يستعملوه للطبخ وليس للكِراء من أجل تحصيل الأرباح. (Alarcón [ed.], *Documentos árabes diplomáticos*, 266-270 [doc. 120]).

(130) Amari, (ed.), *Diplomi arabi*, 126, 320, 327, etc.; Mas Latrie, (ed.), *Traités de paix et de commerce*, 135.

(131) Fernández-Armesto, *Before Colombus*, 137.

(132) فمثلاً في عقد بيشاني-حَفْصِي سنة 1313م "فُنْداكو مُعَدّ بصورة خاصّة لِسُكناهم" ومن اتفاق حَفْصِي-ميورقي من السنة نفسها "لا يُساكِنهم أحد من غير رَغْبتهم" (Mas Latrie, [ed.], *Traités de paix et de commerce*, 51-52, 189).

(133) «De mellors ni ha, de genoveses d'altra gent»: Capmany, *Memorias*, II, 168 (art. 4).

مُعاهدة أُخرى بين الأراغونيين والحَفْصِيين حيث يكون للقَطَلانيّين "كاتب خاصّ بهم حتى لا تختلط شؤونهم بشؤون غيرهم"[134].

وقد أصبح التجار من مختلف الجهات، بعد توسّع الإمبراطورية الأراغونية، يتنافسون فيما بينهم حتى إن البَلَنْسيين والمايورقيين والقَطَلانيّين والصقلّيين أصبحوا يُناوِرُون من أجل الامتيازات التجارية ومن أجل الحصول على فَنادق خاصّة بهم. تعكس المُراسلات بين تونس والبلاط الأراغوني في بعض الأحيان حَيْرة الحَفْصِيين وهم يحاولون تلبية ما تطلبه هذه المجموعات بالتساوي[135].

فقد كان أمْراً عاديّاً أن تتنافس هذه المجموعات التجارية من أجل إمضاء مُعاهدات وإنشاء فَنادق في موانئ مُتنافسة فمثلاً كان التجار المايورقيون يُحبِّذون التعامل مع بِجاية في القرن الرابع عشر في حين واصل القَطَلانيّون تحقيق أرباح هامّة في تونس[136].

وقد كانت كلّ فَنادق الغربيين مُجَمَّعة في حيّ واحد في الجِهَة الشرقية من وسط المدينة المُسوَّرة خارج باب البَحْر[137]. كانت البضائع تنقل بواسطة الحمّالين من الميناء إلى الفَنادق حيث يتمّ وزنها وتسجيلها قبل خَزْنها[138]. وإذا ما تَلِفَت البضائع على أرصفة الميناء فإنه يمكن للتُّجّار مطالبة الديوان بالتعويض

(134) Alarcón (ed.), *Documentos árabes diplomáticos*, 249-253 (doc. 116).

(135) Alarcón (ed.), *Documentos árabes diplomáticos*, 306-308 (doc. 138). Also, López, «Las relaciones diplomáticas,» 164; Abulafia, *Mediterranean Emporium*, 160-161.

(136) انظر الوثائق في Antoni Riera Melis, *La Corona de Aragón y el reino de Mallorca en el primer cuatro del siglo XIV*, (Madrid and Barcelona: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1986).

(137) ذَكَر الرَّحّالة ومن ضمنهم أنسيلم أدورنو [Anselm Adorno] وليون الأفريقي هذه الفَنادق في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، رغم أنهما لم يذكرا التفاصيل ذاتها التي قدَّماها عن المُنشآت في الإسكندرية (Adorno, *Itinérarire*, 103; Leo Africanus, *Description de l'Afrique*, 382).

(138) يُورد كتاب قَطَلاني في التّجارة من القرن الرابع عشر أن هناك ضريبة تُدفع على الحيوانات التي تحمل البضائع إلى فَنادق تونس (Gual Camarena, *El primer manual [siglo XIV]*, 175-196).

عن أيّ شيء فُقِد أو تضرّر قبل الوصول إلى الفَنادق[139]. وعندما يرغب التجار "في مغادرة تونس. . . يُرْسِل الديوان شاهداً إلى الفُنْداكو ليشهد أنّ الصناديق والبضائع الأخرى هي لهم، وبعد ذلك يمكن أن تُحزَم البضائع وتُشحن دون أن يُعاد تفقّدها لا في الديوان ولا في أيّ مكان آخر"[140]. يُشير إدراج مثل هذا الفصل في المُعاهدة الجَنَوية سنة 1433م إلى أنّ عمليّة المُغادرة قد تتعطّل بسبب التفتيش والمُساءلة في الديوان. وكما هو الشأن في مِصْر فقد كانت كلّ هذه العمليّات والاتّصالات المكتوبة مُتيسِّرة بواسطة المترجمين سواء كانوا تراجمة أو كُتّاباً يعملون في الفَنادق. يبدو أن بييرو دي بانيوزو «Piero di Pagnuzo» وهو مواطن من بيشة يقدّم نفسه على أنه تُرْجُمان كان يعيش في فُنْدُق البيشانيين بتونس، قد مارس الوظيفتين معاً عندما ترجم وكتب النسخة العربية واللاتينية لمعاهدة 1397م بين بيشة والسُّلطان الحَفْصِي أبي فارس[141].

وقد يمارس التجار الأوروبيّون أعمالهم بتونس في فضاءات تجارية مختلفة وليس في فَنادقهم فقط، بل كذلك في الفَنادق المخصّصة لبيع الجُمْلة لبعض المواد المُعيَّنة وهي من الأمور المَعْهُودة في الغرب الإسلاميّ. فقد كانت مثل هذه الفَنادق موجودة في قلب المدينة التجاري وليس في ضواحيها[142]. وفي اتفاق بين جَنَوة وأبي فارس بتاريخ 1433م تمّ غضّ النظر عن الممارسات القديمة التي كان بمقتضاها التجار الجَنَويون يبيعون الصُّوف والجلود وجُمْلةً من المواد الأخرى للتُّجّار المسلمين في الفَنادق حيث كانت هذه المواد تُباع عادة" في حين ينقلون بضائع أُخرى لمخازنهم لخزنها[143]. وفي بداية القرن الخامس عشر شجّع الفقيه الأبِّي (ت سنة 1425م) على البيع في الأسواق والفَنادق الموجودة داخل المدينة ومَنَعَ عادة ممارسة التِّجارة في فَنادق المسيحيين قرب الميناء. وقد أشار إلى أنه لا يجب على التجار المسلمين في تونس الذهاب إلى فَنادق المسيحيين خارج باب

(139) Mas Latrie, (ed.), *Traités de paix et de commerce*, 51-52.

(140) Mas Latrie, (ed.), *Traités de paix et de commerce*, 139.

(141) Amari, (ed.), *Diplomi arabi*, 325.

(142) انظر، على سبيل المثال، موقع فُنْدُق الحَرير في تونس في القرن الخامس عشر (Garcin, [ed.]*Grandes villes méditerranéennes* خرائط غير مُرَقَّمة في آخر الكتاب).

(143) Mas Latrie, (eds.), *Traités de paix et de commerce*, 139.

البَحْر لشراء المواد المستوردة كما كان ذلك من قبل، كما لا ينبغي تلقّي القوافل الصحراوية قبل وصولها إلى المدينة من أجل اقتناء البضائع بأسعار زهيدة(144).

إنّ مثل هذه التعليقات لم تكن لأجل دعم التّجارة العادلة والشريفة فقط ولكنّها تريد كذلك أن تُعيق التّجارة غير الخاضعة للمُراقبة بين أناس من ديانات مختلفة داخل فَنادق الغربيين.

فقد كان الأُبّي مهتماً كذلك ببعض المُغْريات الموجودة داخل فَنادق المسيحيين حيث لا تزال الخَمْر متوافرة بدون حساب كما كانت في العهود السابقة. وكما هو الشأن في مِصْر، كانت المُعاهدات المُبْرَمة مع الحَفْصِيين تسمح للقناصل الأجانب بجلب بعض الكمّيّات من الخَمْر مُعفاة من الضرائب. رغم أن هذه الخَمْر كانت مجلوبة في الظاهر للاستعمال الخاصّ داخل الفَنادق، فقد وجدت طريقها كما يبدو لمن يقتنيها من المسلمين(145). وقد كان بيعها، على الأقلّ من الناحية العمليّة، مشروعاً بما أنّ السُّلطة تحصل على ضريبة الخَمْر إلّا أنّ بعض السلاطين قد حاول وضع حدّ لمثل هذه التسوية الرابحة. في سنة 1398 حسب ما يرويه الزَّرْكَشي أمر أحد السلاطين الحَفْصِيين (قد يكون أبا فارس) **"بهدم الفُنْدُق الذي كانت تُباع فيه الخَمْر بباب البحر، وكان مَجْباه عشرة آلاف في العام، فترك ذلك وأمر ببنائه زاوية ومدرسة..."**(146).

أبْعَدَ غَرْباً، هناك القليل من المعلومات حول الفَنادق الغربية في المُدُن المَرِينية بعكس المادّة الهامّة حول فَنادق المسلمين. وقد يكون ذلك بسبب قلّة نشاط التجار الأوروبيّين في الأسواق المَغْربية التي يوجد أغلبها بعيداً في داخل البلاد حيث يصعب وصول التجار المسيحيين إليها. مع ذلك هناك بعض التجار المسيحيين الذين ينشطون في المُدُن المَرِينية كما تشهد على ذلك وصية أحد التجار الميورقيين تُوفي في فاس سنة 1387م. فلعدم وجود كاتب عدل لاتيني فقد كتب النصّ الأخ خاكمه أُلزينا «Jacme Olzina» الذي كان مرتبطاً بكنيسة سانتا ماريّا

---

(144) عبد الرحمان عون، أبو عبد الله الأُبّي وكتابه الإكمال، الدار العربية للكتاب، طرابلس 1983م، ص418، كما ذكر ذلك برنشفيغ أيضاً. Brunschvig, *La Berbérie orientale*, 11, 254.

(145) Mas Latrie, (ed.), *Traités de paix et de commerce*, 143-144.

(146) الزَّرْكَشي، تاريخ الدولتين، الترجمة الفرنسية *Chronique des Almohades*، ص194.

دي لا دوانا دل ميركاديرس «Sancta Maria de la Duana dels mercaders» كنيسة القديسة ماريا من دوانا شفيعة التجار الموجودة في المدينة[147]. ليست هناك إشارات لوجود فُنْداكو في هذا النصّ ولا في مُعاهدة السِّلْم المعاصرة والمُمْضاة بين بطرس الرابع ملك الأراغون (1336-1387م) والسُّلطان المَرِيني التي تُشير فقط إلى وجود تجار أراغونيين يتنقلون داخل البلاد "ويقيمون في المُدُن المَغْربية"[148]. تنصّ معاهدة بين بيشة وأبي عِنان فارس سنة 1358م على أنه يجب أن يكون للتُّجّار البيشانيين فُنْدُق (فُنْداكو) وإذا لم تتوفّر مثل هذه المُنْشَأة يمكنهم الحصول على منزل مثلما هو الشأن بالنسبة لغيرهم من المسيحيين[149].

وبعد قرنين من الزمن عندما وصل دييغو دي تورّيس «Diego de Torres» إلى المغرب في منتصف القرن السادس عشر في عهد الوَطّاسِيِّين وَجَدَ هُنْدُقا للمسيحيين في ميناء مدينة أسفي التي نزل بها ووصف فيما بعد هُنْدقا التجار المسيحيين في فاس. كما أشار كذلك إلى أنه أقام بمثل هذه المؤسّسات الأُخرى دون أن يذكر أنها مسيحية عندما كان يتجوّل عبر البلاد لافتداء الأسرى المسيحيين ما بين 1546 و1556م[150]. وهو ما يُفيد أنه ربّما كان الوَطّاسيون قابلين لمبدإ الفَنادق الغربية أكثر من أسلافهم المَرينيين ربّما نتيجة للضغط العسكري الذي أعقب سقوط غَرْناطة سنة 1492م وسوء العلاقات بين المسيحيين والمسلمين خلال القرن السادس عشر. ومن جِهَة أُخرى قد يعكس استعمال دييغو دي تورّيس لكلمة هُنْدُقا الاستعمال الإسباني وهو ربّما يكون ترجمة بسيطة لكلمة فُنْدُق التي كانت لا تزال هي النموذج السائد للسكن والتِّجارة في مُدُن المغرب في ذلك الوقت.

---

(147) Gabriel Llompart, "Testamentos de mercaderes mallorquines rogados entre musulmanes (1374-1388)", *Hispania* 44 (1984) 425.

(148) Alarcón (ed.), *documentos árabes diplomáticos*, 240 (doc. 114).

(149) Amari, (ed.), *Diplomi arabi*, 310-311.

(150) Diego de Torres, *Relación del origen y suceso de los xarifes y del estado de los reinos de Marruecos, Fez y Tarudante*, ed. Mercedes García-Arenal, (Madrid: Siglo Veintiuno, 1980) 151, 192-193.

انظر كذلك: James Monroe, *Islam and the Arabs in Spanish Scholarship (Sixteenth Century to the Present)*, (Leiden: E. J. Brill, 1970) 18.

وقد بقي نظام الفُنْداكو حَيّاً في غَرْناطة النَّصْرية حتى استيلاء فرديناند وإيزابيلا على المنطقة في أواخر القرن الخامس عشر. وقد كانت الموانئ على طول سواحل جنوب أيبيريا محطّات ضرورية للسفن المُبْحِرة من إيطاليا وجنوب فرنسا وممالك الأراغون نحو المُحيط الأطلسي أو لعبور مضيق جبل طارق في اتجاه المغرب. كان التجار الأوروبيّون يجلبون الحبوب وبضائع أُخرى من الشرق إلى الأسواق الغَرْناطية وكانوا يشترون الحرير والفواكه المجفّفة وغيرها من المواد المحلية. إنّ أقدم معاهدة بين النّصريّين وجَنَوة تعود إلى سنة 1278 أو 1279م وتضمن للإيطاليين فَنادق وحمّامات وأفراناً ومخازنَ ومُنْشآت أُخرى في كامل المملكة في الموانئ وفي المُدُن الداخلية[151]. وبعد عقدين من ذلك التاريخ في سنة 1296م مُنِحَ القَطَلانيّون كذلك فَنادق مع حقّ "اختيار قنصل في الأماكن التي يوجد بها ديوان". وقد كان هناك قناصل قَطَلانيّون وفَنادق في كلّ من ألْمَرِيّة ومالقة خلال القرن الرابع عشر[152]. وقد استمرّت هذه المرافئ الممتازة والمواقع الاستراتيجية لهذه الموانئ في جعلها مجالاً للفَنادق الجَنَوية والميورقية في تلك الفترة[153]. وقد كان قُرابة العشرين تاجراً جَنَوياً يقيمون بمالقة بصورة شبه دائمة في منتصف القرن الخامس عشر[154] . غير أنه على عكس الفَنادق في

(151) Lisciandrelli, *Trattati e negoziazioni* (no. 409); *Liber iurium Reipublicae Genuensis,* I (no. 989, cols. 1485-6); Garí, "Why Almería?" 226-228; Rachel Arié, *L'Espagne musulmane au temps des Nasrides (1232-1492)*, (Paris: E. De Boccard, 1973) 360-361.

(152) Alarcón (ed.), *Documentos árabes diplomáticos*, 1-3 (doc. 1).
لقد تمّ تجديد أغلب فصول هذه المعاهدة سنة 1321 و1326م (وثيقة 15 و27) ولو بدون الفصل المتعلّق بالفنادق، انظر كذلك María Dolores López Pérez, *La Corona de Aragón y el Maghreb en el siglo XIV (1331-1410)*, (Barcelona: Consejo Superior de Investigaciones Científicas, 1995) 188، مع الإشارة إلى فَنادق القطلانيين في مالقة وألمريّة سنوات الأربعينيات والخمسينيات من القرن الرابع عشر الميلادي.

(153) لقد تمّ التعرُّض إلى حالة التاجر جوم مانفريه [Jaume Manfré] في الفصل الرابع. هناك رسالة تعود إلى الفترة نفسها كُتِبَت سنة 1344م صادرة عن حاكم ميورقة إلى الملك النَّصْري وتتعلّق بتاجر ميورقي مَحْجُوز في فُنْدك [*fondech*] ألْمَرِيّة (Pablo Cateura, «Notas sobre las relaciones entre Mallorca y el reino de Granada en la década de 1339-1349,» *Bolleti de la Societat Arqueològica Luliana 830-831 [1979] 158)*.

(154) Fernández-Armesto, *Before Colombus*, 107.

الشرق المملوكيّ، ربّما لم تكن المُنْشآت في غَرْناطة أمكنةَ السكن الحصرية المحدَّدة، ليس بحلول القرن الخامس عشر على الأقل، ففي هذا القرن قدّم الجَنَويون جُمْلةً من الشكاوى للسُّلطة النَّصْرية سنة 1452م تحتوي إشارات إلى بيوت ومنازل ومخازن للجَنَويين في غرناطة[155]. فقد تكون فَنادق الجَنَويين بمالقة (سيسمّى فُنْدُق الجَنَويين بمالقة فيما بعد قلعة الجَنَويين) وفي غَرْناطة (فُنْدُق الجَنَويين) معدّة أساساً للخزن المأمون وربّما كذلك لحماية التجار شخصيّاً بما أن المَبْنَيَيْن كانا شديدَي التحصين[156]. وقد تمّ تحويل فُنْدُق الجَنَويين بغَرْناطة لفترة قصيرة إلى سِجْن بعد انتقال المدينة إلى السُّلطة المسيحية كما لاحظ ذلك أحد الرحّالة الألمان الذي زار المدينة ما بين 1494 و1495م[157]. وقد واصل الجَنَويون وغيرهم من التجار الغربيين بعد 1492م اقتناءَ الأراضي والمنازل في أراضي النّصْريين سابقاً مثلما فعلوا في جِهات أُخرى من مملكة قشتالة خاصّة وأن المنطقة الساحلية كانت لا تزال منطقة استراتيجية للعبور نحو المُحيط الأطلسي[158].

لقد أدّى تزايد أهمّية التّجارة والبحرية الأوروبيّتَيْن في المتوسّط في أواخر العصر الوسيط إلى إعادة ترتيب المجال التجاري وتغيير طبيعة الفضاءات التجارية في المُدُن الإسلامية. فقد حَقَّقَتْ السفن المسيحية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر هيمنة حقيقية على أغلب المسالك المتوسّطية سواء تلك التي تربط بين جنوب أوروبا والموانئ الإسلامية أو تلك التي تربط بين المتوسّط والمُحيط الأطلسي وشمال أوروبا عبر مضيق جبل طارق. وفي الوقت نفسه ركّز التجار في العالم الإسلاميّ نشاطهم على التِّجارة الداخلية أو على النشاط البَحْري في البَحْر

(155) Gabriela Airaldi, *Genova e Spagna nel secolo XV: Il «Liber damnificatorum in regno Granate» (1452)*, (Genoa: Università di Genova, 1966) 36, 55, etc.

(156) Calero Secall and Martínez Enamorado. *Málaga*, 252; *Lopez de Coca Castañer*, "Comercio exterior," 349; Seco de Lucena, *Granada árabe*, 52; Torres Balbás, "Las Alhóndigas hispanomusulmanas," 449.

(157) Jerónimo Münzer, *Viaje por España y Portugal (1494-1495)*, ed. and trans. Ramón Alba, (Madrid: Ediciones Polifemo, 1991) 135.

(158) J. E. López de Coca Castañer, and Maria Teresa López Beltrán. «Mercaderes genoveses en Málaga (1487-1516). Los Hermanos Centurión e Ytalian,» *Historia, Instituciones, Docuentos* 7 (1980) 103.

الأحمر والمُحيط الهندي. ونتيجةً لذلك فقد أصبح الساحل المتوسّطي خلال القرن الثالث عشر منطقةً حدودية بقدر أكبر ممّا كان عليه في الفترات السابقة. وليس ذلك من مَنْظُور الاقتصاد والتّجارة فقط ولكن أيضاً من وجهة نظر الدين والسياسة، فقد أصبحت هذه المنطقة واجهة تقابل بين مجالَيْن منفصلَيْن.

مثّلت الفَنادق الأوروبية في الإسكندرية ودمشق وتونس وألْمَرِيّة وغيرها من الجِهات الأُخرى مناطق هامّة للتواصُل والتبادُل بين هذين المجالَيْن خاصّة من الناحية الاقتصادية. وهناك أيضاً أشكال أُخرى من التواصُل إذ كان مسموحاً للحُجّاج والرَّحّالة الأوروبيّين بالتنقُّل عبر الأراضي الإسلامية وفي بعض الأحيان كان الغربيون يعيشون ويعملون في المُدُن الإسلامية خارج أسوار الفَنادق المُغْلَقة. غير أنّ الفَنادق كانت تُراقب التِّجارة الأجنبية وتوجّه التجار الأوروبيّين نحو بعض الأسواق وفي الوقت نفسه تُبعدهم عن أسواق أُخرى.

لم تكن هذه التنظيمات من إبداع المماليك، فقد كانت هذه الأشكال من خصائص الفَنادق الإسلامية والأوروبية على السواء، فقد كان كلّ منهما مستفيداً من حاجات الجاليات التجارية والفُرَص المُتاحة لها والمسالك التي تتبعها. ورغم ذلك قد أدّى الدَّمج بين التِّجارة البَحْرية الأوروبية الناشئة ونهاية الوجود الصليبي والسياسة التجارية الجديدة للمماليك إلى خلق وضع جديد في القرنَيْن الرابع عشر والخامس عشر. فقد جعل فُقْدان الفَنادق الموجودة بمدينة صور وعكّا وغيرهما من المُدُن الصليبية الأُخرى التجار الغربيين أمام صعوبة اختيار الجهات التي يمكنهم التوجّه إليها في المتوسّط الشرقيّ نظراً لمحدوديتها. وعوضاً عن ذلك أصبحت نشاطاتهم التجارية مقتصرةً على عدد ضئيل من الأسواق حيث يمكنهم مُمارسة نشاطهم في فَنادق خاصّة وبعدها يعودون إلى أوطانهم. ورغم الأدلّة التي تُشير إلى أن بعض التجار، خاصّة البنادقة، كان باستطاعتهم مُمارسة نشاطهم بحرية أكثر في الأسواق الشامية، كان نشاط الأوروبيّين في مصر مقتصراً عموماً على مدينة الإسكندرية. ومن الواضح أنّ الوضع كان مختلفاً نوعاً ما في الغرب الإسلاميّ، حيث توجد أنظمة سياسية مختلفة تُفْسح المجال أمام التجار الغربيين وتوفّر حرية أكثر لمُمارسة التِّجارة ومن ورائها للفَنادق.

إنّ دعم وظيفة الفُنْداكو كمُنْشأة للتفاعُل الثقافي كان تقريباً مؤثّراً في فهم

الفُنْدُق في الأراضي المملوكية وغيرها. ولم تكن هناك تفرقة بين الكلمتين في اللُّغة العربية، لذلك قد يعني الفُنْدُق إمّا مقرّاً للإقامة ومستودعاً بالنسبة للسكّان المحليين وإما مكاناً معزولاً خاصّاً بالتجار الأجانب. ويبدو من المُرَجَّح أنّه بينما كان هذا المعنى الأخير قد حاز أهمّية ـ نظراً لسعي المَزِيد من التجار الأوروبيّين للوصول إلى عدد قد أصبح محدوداً من الموانئ الإسلامية ـ فإن المعنى الأوَّل للكلمة قد تراجع. وقد أصبح واضحاً أكثر أنّ الفضاءات التجارية والسكنية الخاصّة بالتجار المسلمين والتي تسهّل معاملاتهم وخزن بضائعهم ودفع الضرائب تغيّرت تسميتها لتصبح خاناً ووكالة.

لم يؤثّر ازدهار نظام الفُنْداكو في الإسكندرية وتونس وغيرهما من الأسواق الأخرى في تطوّر الفضاءات التجارية في هذه المُدُن الإسلامية فقط، ولكنّه أثّر أيضاً في المُنْشآت الحَضَرِيّة بجنوب أوروبا. فقد بدأت الفَنادق تظهر خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر في البُندقيّة وجَنَوة وبيشة ومرسيليا وراغوزة وفي موانئ متوسّطية أُخرى. وقد كانت هذه المُنْشآت مختلفة عن تلك التي توجد في إسبانيا وصِقِلّية حيث تمّ الاستيلاء على المُدُن من قِبَل الجيوش المسيحية وتمّ دَمْج أشكالها الحَضَريّة في النظام الجِبائي المسيحي. بدلاً من ذلك فقد كانت الفَنادق الجديدة التي تجذّرت في مُدُن شمال إيطاليا وفي أماكن أُخرى ظاهرةً مَزْرُوعةً دخيلة. فقد كانت كلّ من الفكرة والكلمة مستوردة من قبل نفس التجار الذين وجدوا تلك المُنْشآت في مُحيط إسلاميّ.

ومع ذلك فقد نجحت عمليّة الزَّرْع وتجذّرت كلمة فُنْداكو بمختلف أشكالها في اللُّغات الأوروبية معبّرة عن المُنْشآت المحلية وقد تغيّر معناها باجتيازها لحدود الثقافات. وفي كلّ الحالات كانت وظائف الفَنادق في جنوب أوروبا مختلفة عن المُنْشآت المعاصرة لها في الموانئ الإسلامية. ومع الوقت، وعلى نحوٍ لا يُخالف عَصْرَنة كلمة فُنْدُق في العربية، كانت النُّسخ الأوروبية للفُنْدُق قد فقدت الكثير من معانيها الوسيطية المعقّدة. فالفُنْداكو الإيطالي الحديث والهُنْدُقا القَشْتالية هما على التوالي مستودع ومخزن للحبوب ولم يعودا مقرّاً للإقامة أو سُوقاً تجارياً أو مركزاً للتفاعل الثقافي. وستقع دراسة انزياحهما عن هذه المعاني في الفصل التالي.

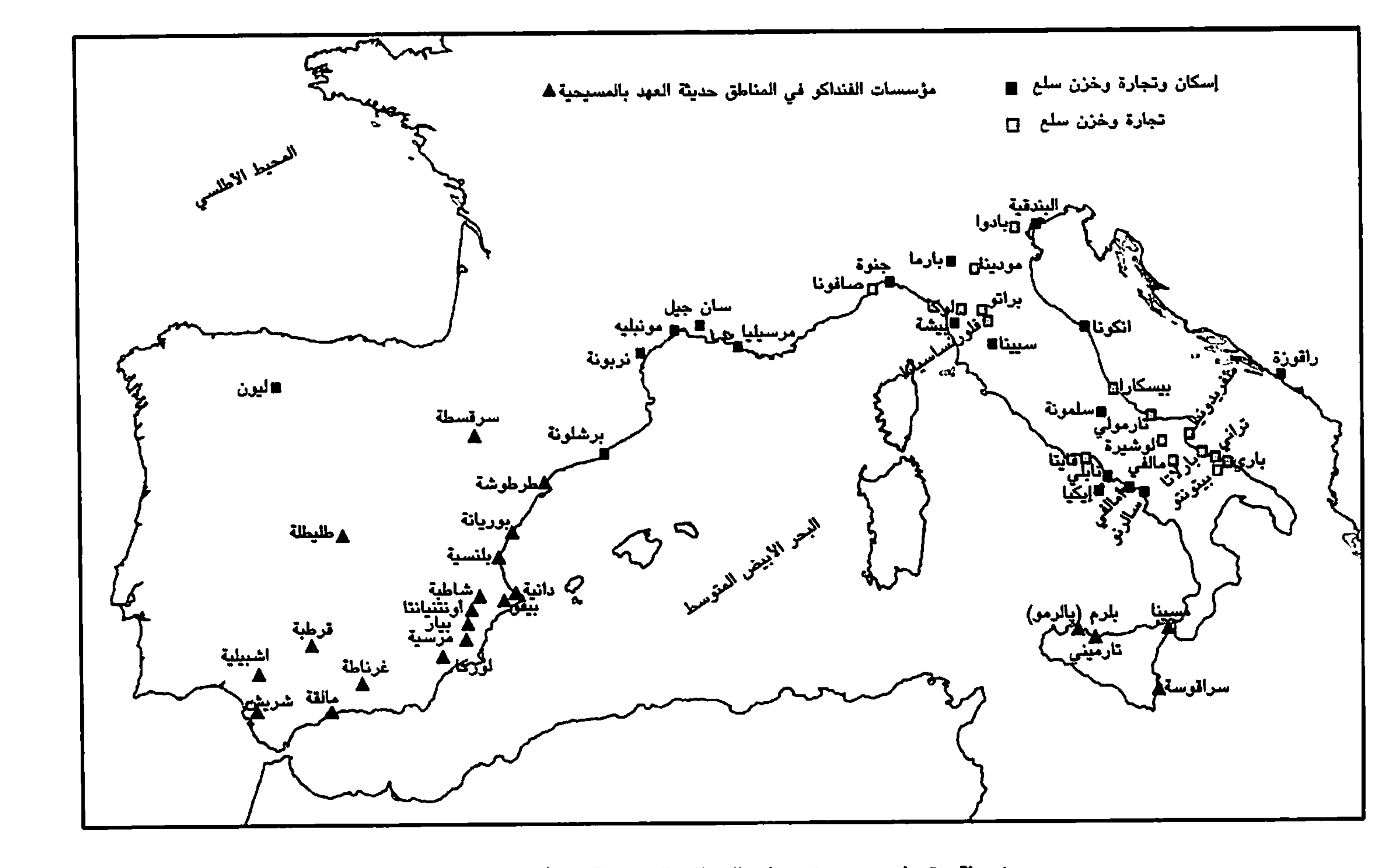
الفصل التاسع

الفُنْداكو في أوروبا المتوسّطية

لقد مرّ فيلكس فابري، كغيره من الحُجّاج الألمان، بالبُندقيّة في طريقه إلى الأرض المقدّسة وعند عودته منها. فقد كانت هذه المدينة مَعْبَراً طبيعيّاً نحو البحر الأدرياتيكي ونحو المتوسّط بالنسبة إلى التجار والحُجّاج القادمين من مُدُن جنوب الإمبراطورية الجرْمانية. فقد مَكَثَ فيلكس في فُنْدُق طوال إقامته في المدينة الجزيرة سنوات 1480م، ولكنّه لاحظ بأنه كان "للتُّجّار الألمان منزل في البُندقيّة يسمّونه فُنْدُقاً «*fonticum*». وهو يحتوي على العديد من البيوت وغُرَف النوم التي يقيم بها التجار ويخزنون بها بضائعهم. وتُرْسَل من ذلك الفُنْدُق كمّيات هائلة من البضائع ما لا يمكن تصديقه، وفي كلّ سنة تجمع البُندقيّة أكثر من ثلاثين ألف دوقا «ducats» ضرائب على تلك الصادرات"[1]. ولا غرابة في أن يكون الوصف الذي قدّمه فيلكس لفُنْداكو الألمان استحضاراً لمذكّراته حول الفَنادق الأوروبية التي شاهدها بالإسكندرية. من الأكيد أن وجود ذلك المقرّ المُخصّص للإقامة والتّجارة بالنسبة إلى التجار الألمان بالبُندقيّة لم يكن محض مُصادفة. فعلى عكس ذلك وهو ما سيُبَيِّنه هذا الفصل، فقد كان ذلك مثالاً للطرق المختلفة التي اندمجت من خلالها مؤسّسة الفُنْدُق/الفُنْداكو الإسلامية في الحياة العُمْرانية المسيحية الوسيطة في أوروبا المتوسّطية.

ففي القرن الثالث عشر وجدت كلمات شبيهة مثل فُنْتيكوم وفُنداكو طريقها لا إلى اللُّغة اللاتينية فقط ولكن أيضاً إلى لهجات أوروبا الجنوبية. إن تعدُّد هذه

(1) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae* , I, 83 [32a], III, 432 [220a].



خريطة رقم 4: توزع مؤسسات الفنداكو المسيحية في أوروبا المتوسطية
من القرن الحادي عشر إلى القرن الخامس عشر

الكلمات وتعدُّد معانيها يدلّ لا على تبنّيها بصورة مُجَزَّأة فقط وإنما أيضاً على كيفية فهم هذه المُنْشآت. فمثلاً قد تعني كلمة فُنْداكو في اللُّغة الإيطالية في العصر الوسيط من بين ما تعنيه، مَخْزَناً أو مستودعاً خاصّاً أو مستودعاً عامّاً أو شركة تجارية أو مستودعاً لجمع الضرائب أو مُنْشأة للإقامة أو ديواناً للتنظيم والكيل وخَزْن المؤونة. كما انتشرت كلمات شبيهة مثل فُنْداكايو «fondacaio» وفندكاري «fondacare» وفُنْدكاتو «fondacato» وفُنْداكِتّو «fondachetto» وهكذا دواليك[2]. تُشير كلّ الدلائل إلى أن هذه الكلمات تنحدر من كلمة فُنْدُق العربية وليس من كلمة بَنْدوكيون اليونانية مباشرة وهي كلمة قليلة الانتشار رغم أنها لم تكن مجهولة في أوروبا الوسيطة[3].

---

(2) ذُكِر العديد منها في Edler, *Glossary*, 126-128، وللاطلاع على الاستعمالات العديدة الأخرى في الإيطالية الوسيطة انظر Opera del Vocabolario Italiano التي أعدها مركز دراسات اللّغة الإيطالية .(http://www.lib.uchicago.edu/efts/ARTFL/projects/OVI/)

(3) ذكر الكُتّاب اليونان البَنْدوكيونات [*pandocheions*] في إيطاليا في الفترة الرومانية المُبكِّرة ولكن الكلمة نادراً ما ظهرت في اللاتينية الكلاسيكية أو الوسيطة. فقد ذكر دي كانج [Du Cange] عدداً قليلاً من الكلمات ضمن *Glossarium mediae et infimae latinitatis* (Paris: Librairie des sciences et des Arts, 1938) VI, 127. والاستعمالات القريبة في اللاتينية الوسيطة المتأخِّرة التي اعتمدها كُتّاب من أوروبا الشمالية ربما كانت إعادة إحياء. وقد استعمل فابري في سنوات 1480م لفظة بندوكيوم لوصف خان بائس في يافا وبيت للأكل في كورفو [Corfu] (*Evagatorium in terrae sanctae*, 1, 195 [75b]; 111, 348 [193a]).، ويبدو أنه لم يربط بين هذه الكلمة بـ فُنْديكوم *fundicum*، في حين بقي ارتباط شرب الخَمْر بهذه المؤسّسة عدة قرون، وقد ظهرت لفظتا بندوكساندو [*pandoxando*] وبندوكاتريكس [*pandocatrix*] في القرن السابع عشر بإنكلترا للتعبير بالتعاقُب عن حريّة تخمير وصُنع المِزْر (الجعة) وعن صاحبة حانة المِزْر (Thomas Blount, *Nomo-lexicon* [London: Herringman, Newcomb, Chiswel, and Bently, 1691], "pandocatrix," no page number). وقد تتبع بلونت [Blount] لفظة بندوكاتريكس إلى القرن الثاني عشر. وفي مقابل نُدْرة وجود بندوكيون *Pandocheion*، كانت كسينودوكيون معروفة جدّاً في أوروبا خاصة في سياق المؤسَّسات الخيرية الدينية في الأديرة تماماً كما كانت في الشرق الإغريقي. استطاعت لفظة كسينودوكيون عبور الحدود من اليونانية إلى اللاتينية بسهولة وربّما سَهَّل لها ذلك العبور ارتباطها بالإطار المسيحي، انظر:

Szabó "Xenodochiza"; Kislinger, "Kaiser Julian".

ومع ذلك ورغم أنّ الفَنادق الأوروبية (fondacos) تشترك مع الفَنادق (funduqs) والفنادق (fondacos) في المُدُن الإسلامية في الخصائص فإنّ الكثير منها قد اضطلع بوظائف جديدة. في الواقع، كان فُنْداكو الألمان بالبُندقيّة مِثالاً غير اعتيادي أبداً في عمليّة التفاعُل الثقافي.

فقد كان استعمال الفَنادق في أغلب مُدُن أوروبا الجنوبية بما في ذلك البُندقيّة يعكس المصالح الخاصّة للتُّجّار المحلِّيين وللمسؤولين الإداريين. فقد كان هؤلاء يملكون السُّلطة والإمكانيات التي تسمح لهم بتطوير أو بإحداث المؤسّسات حسب احتياجاتهم الخاصّة بما في ذلك مشاريع المخازن وبيوت الإقامة والإدارات في المُدُن التي يمارسون فيها نشاطهم[4].

عندما التقى التجار الأوروبيّون بالفَنادق في المُدُن الإسلامية، فلا بدّ أنهم لاحظوا تعدُّد وظائفها من إقامة للتُّجّار وفضاءات لخزن البضائع والبيع وتحديد الضرائب على المُعاملات التجارية. ولم تكن كلّ هذه الوظائف ضرورية أو مُناسبة للمؤسّسات الأوروبية المسيحية كما وقع تبيان ذلك بالنسبة إلى إسبانيا وصِقِلّية والإمارات الصليبية التي كانت تحت حكم المسيحيين. كان الطابع التنظيمي للإقامة، بالخصوص، يميل إلى الزوال في المناطق التي تنعدم فيها التِّجارة العابرة للثقافات والتي تَسُود فيها الإقامات المحلية والتي بإمكان التجار غير المحلِّيين الاختلاط بالسكّان المحلِّيين.

ففي هذه المناطق هناك تأكيد أكثر على مُراقبة السِّلَع واستخراج المداخيل من الاحتكار ومن المُكُوس على البضائع. فقد كانت هناك فضاءات محدودة خاصّة في داخل مملكة الأراغون والأدرياتيك التابع للبُندقيّة تشجّع فيها السياسات والجغرافيا على مواصلة مراقبة بعض المجموعات التجارية وبضائعها على السواء.

فقد كانت الفَنادق الأوروبية الجديدة تشترك جميعها في كونها أداة تجارية وجِبائية صِرْفة. فلم يكن في مستوى الفهم الأوروبيّ للفُنْداكو جانب خَيْري أو معنى ديني على عكس ما هو موجود في الفَنادق العربية بدلاً من ذلك كانت

(4) Edwin Hunt, *The Medieval Super-companies. A Study of the Peruzzi Company of Florence*, (Cambridge: Cambridge University Press, 1994) 99.

المعاني المختلفة لهذه المؤسّسة تتعلّق بالخَزْن والمال والتجار والضرائب أو الأعمال التجارية. فقد وصف فرانشيسكو بيغولوتي «Francesco Pegolotti» بعضها خلال القرن الرابع عشر في دليله للتُّجّار والمُصطلحات الجِهَوية المتعلّقة بالتِّجارة ونعتها بأنها فضاءات تجارية تُباع فيها السِّلَع داخل المُدُن. فقد كانت تُسمّى بتسميات مختلفة "مركاتو «Mercato» في لهجة أهل توسكانة «Toscane» وبيازا «piazza» في اللهجات العديدة الأُخرى وبازار «bazar» أو رابا «raba» في اللهجة الجَنَوية وفُنْداكو «fondaco» في العديد من اللُّغات وفوندا «fonda» في قبرص وسوقاً في اللُّغة العربية. وقد ذهب في وصفه إلى القول: "بأن جميع أنواع المواد الغذائية وكلّ ما هو ضروريّ لحياة الناس والحبوب والمواد الحيوانية يمكن اقتناؤه في مثل هذه الأماكن"[5]. وفي الوقت نفسه وضع الفُنْداكو ضمن مُصطلحات تتعلّق بالأمكنة "التي يضع فيها الواحد البضائع لحفظها والتي يتجه إليها التجار وغيرهم من الناس للبقاء في أمن وفيها تُحْرَس بضائعهم وأمتعتهم وفيها تكون سجلّات حساباتهم وغير ذلك من الأشياء"[6].

يؤكّد تحليل الوثائق التي تتحدّث عن الفُنْداكو في إسبانيا في أواخر العصر الوسيط وفي جنوب فرنسا وإيطاليا وساحل دلماسيا ما لاحظه بيغولوتي حول استعمالها التجاري. سيحاول هذا الفصل كذلك دراسة ثلاثة أدوار أساسية أُنيطت بالفَنادق في جنوب أوروبا بالنظر أوّلاً في تواصل طاقتها كإقامة للتُّجّار وكمُنْشآت رسمية لتركيز الجاليات التجارية (يبقى المِثال الواضح هو مِثال فُنْداكو الألمان في البُنْدقيّة) وبالنظر ثانياً في وظيفتها كفضاءات عُموميّة أو فضاءات مُعَدّة للتِّجارة وبالنظر ثالثاً في تطوّرها إلى محطّات لخزن البضائع ولأعمال التجار.

وعبر هذا النِّقَاش سيكون واضحاً أنّ كلمة فُنْداكو الوسيطية كانت منحصرة أساساً في جنوب أوروبا وخاصّة في إيطاليا وإسبانيا. وباستثناء بعض الحالات المحدودة لا توجد كلمة فُنْداكو في الوثائق الوسيطة في شمال أوروبا أو في أيّ مكان آخر بعيداً عن المتوسّط. وقد يكون ذلك بسبب وجود مؤسّسات مَحَلّية في بلدان الشمال مُوازية أو شبيهة، مثلما هو الشأن في مساكن الهانزا (النقابات) في

---

(5) Pegolotti, *La Pratica della mercatura*, 17.

(6) *ibid.*

ألمانيا أو في منطقة البلطيق ولندن، تقوم بالوظائف نفسها. أو ربّما يكون ذلك بسبب أن قَدْراً مُعيَّناً من الأُلفة بالمؤسسات الإسلامية والقُرْب منها كان ضرورياً لتسهيل الانزراع في تُرْبة مسيحية. إن أخذ التَّوَزُّع الجغرافيّ للفُنْداكو والعلاقات الوظيفية بين مختلف تَنَوُّعات المؤسّسة في الاعتبار يلقي الضوء على الطريقة والغاية في اعتماد هذه المؤسّسة بنقلها من مُحيطها الإسلاميّ إلى المُحيط المسيحي.

إقامة التجار والجماعات والفَنادق

لقد كانت الفَنادق منذ ظهورها في العالم الإسلاميّ تُؤوي المُسافرين وخاصّة التجار حيث محطُّ رحالهم، وقد واصلت الفَنادق الأوروبية عادة إيواء الجاليات التجارية الأوروبية الأجنبية في المُدُن الإسلامية. وقد تمّ نقل هذه الخاصّيّة إلى أوروبا الوسيطية من قِبَل المجموعات التجارية نفسها التي تعرَّفت على هذه المؤسّسة في الموانئ الإسلامية إلّا أنّ وظيفتها السكنية وخاصّة وظيفة السكن بالنسبة للجماعات لم تُعَمِّر طويلاً في الإطار الأوروبيّ الجديد. وقد كان ذلك نتيجة لأسباب عديدة:

أوّلاً هناك العديد من المساكن الأُخرى مثل الدُّور الخاصّة والمساكن المُرتبطة بالأديرة وما شابهها من المُنْشآت التي توفّر ما يحتاج إليه التجار وغيرهم من المُسافرين للسكن وهي مساكن تحمل أسماء عديدة منها *diversorium, hospitium, albergo, hostelerie, ostalaggio, meson, and Posada*[7]. وهناك مثل معروف ذكره أحد التجار في رسالة إلى شريكه بمدينة براتو «Prato» يقول: "الذي يسعى باكراً يحقّق أرباحاً جيّدة ويمكنه قضاء الليل في فُنْدُق all'albergo"[8]. لذلك كان من الصعب على الفُنْداكو أن يجد رُكْناً مناسباً داخل هذه الأوضاع الثابتة. ثانياً،

---

(7) كُتِب كثير حول الخانات وكَرَم الضِّيافة في أوروبا الوسيطة، انظر:

Noël Coulet, "Inns and Taverns," *Dictionary of the Middle Ages*, ed. J. R. Strayer (New York: Scribner, 1982-1989), VI, 468-477; Francis Garrison, "Les Hôtes et l'hébergement des étrangers au moyen âge. Quelques solutions de droit comparé," *Etudes d'histoire du droit privé offerts à Pierre Petot*, (Paris: Librairie générale de droit et de jurisprudence, 1959) 199-222 ; N. Coulet, "Les Hôtelleries en France et en Italie au bas moyen âge," in *L'Homme et la route en Europe occidentale au moyen âge et aux temps modernes*, (Auch : Centre Culturel de l'Abbaye de Flaran, 1982) 181-205.

(8) Iris Origo, *The Merchant of Prato*, (New York: Alfred A. Knopf, 1957) xiii.

باستثناء البُندقيّة وجِهات قليلة أُخرى لم يكن الدافع للحفاظ على التضامن والتميز بالنسبة إلى الجاليات التجارية الأجنبية قويّاً في الحالات التي يكون فيها كلّ من الزُوّار والمُضِيفين مسيحيين. ورغم أنّ أغلب المُدُن ـ الدُوَل الإيطالية الهامّة كان لها رعايا وأملاك في مُدُن أُخرى، وكان شائعاً أن تُوجد مبانٍ خاصّة لاستعمال الجاليات التجارية الأجنبية، ولكنّها لم تكن تُسمّى عادة بالفُنْداكو(9). بدلاً من ذلك، كان يُطلق عليها عادة اسم مَنْزِل (domus) أو نُزُل (hospitia) أو لوجيا «loggia» وهي تسمية أصبحت شائعة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر(10).

وحتى في البُندقيّة حيث كان يوجد عدد كبير من التجار الأجانب إضافة إلى التجار الألمان، يأتون من جِهات مختلفة من إيطاليا (من لومبارديا وميلانو وجَنَوة) ومن منطقة الأدرياتيك وشرق المتوسّط (من راغوزا وألبانيا واليونان) فقد كان هؤلاء يتمتعون بأحياء خاصّة في المدينة أو في أجوارها يملكون فيها منازل وغيرها من العقارات الأُخرى(11).

قد ظهرت الفَنادق كإقامة للتُّجّار في فترة مُوْجَزة في بعض المناطق من أوروبا الجنوبية خلال القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر في الوقت الذي كانت فيه مثل هذه المُنْشآت تنمو في المُدُن الإسلامية والصليبية. وقد كانت هذه الفَنادق الجماعية الأولى تتميّز بارتباطها بمجموعات تجارية مُعَيَّنة مثل فُنْداكو البيشانيين أو فُنْداكو السيانيين، ولكن ليست هناك إشارة إلى أنها كانت منظّمة

(9) David Nicholas, *The Growth of the Medieval City*, (London: Longman, 1997) 172-173.

(10) لقد تمّت مُناقشة تطوُّر اللوجيا [*loggia*] في الفصول الرابع والخامس والسادس. وعن اللوجيا الإيطالية، انظر:

Sexton, "Renaissance Civic Loggias"; Charles Burroughs, "Spaces of Arbitration and the Organization of Space in Late Medieval Italian Cities," in *Medieval Practices of Space*, ed. B. Hanawalt and M. Kobialka, (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2000) 64-100.

(11) Susan M. Stuard, *A State of Deference: Ragusa/Dubrovnik in the Medieval Centuries*, (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1992) 173-174; Deno Geanakoplos, *Byzantine East and Latin West: Two Worlds of Christendom in Middle Ages and Renaissance*, (Oxford: Basil Blackwell, 1966) 113; Giorgio Fedalto, "Le minoranze straniere a Venezia tra politica e legislazione," *Venezia centro di mediazione tra oriente e occidente (secoli XV-XVI): aspetti e problemi*, (Florence: Leo S. Olschki Editore, 1977) I, 152, 159; Brünehilde Imhaus, *Le minoranze orientale a Venezia: 1300-1510*, (Rome: Il Veltro, 1997) 37-83.

مثلما هو الشأن في المُدُن الإسلامية. فهي تشبه فَنادق التجار الإيطاليين في صِقِلّية وإشبيلية والشرق اللاتينيّ وهي توفّر السكن والفَضاء التجاري، ويكاد يكون من المُؤكَّد أنها مكان ملائم لجمع الضرائب من قبل السُّلطات المَحلّية. ويرجّح أن تكون هذه الفصيلة الأوروبية مرحلة وُسْطى بين الفُنْداكو كمقرّ إقامة منظّم خاصّ بمجموعة مُعيَّنة كما هو موجود في المُدُن الإسلامية والفُنْداكو كمستودع عام أو خاصّ مثلما سيكون ذلك في إيطاليا في أواخر العصر الوسيط. وممّا تجدر ملاحظته هو أن الفَنادق التي كانت مرتبطة بمجموعات تجارية معيَّنة قد انقرضت من أغلب المُدُن الإيطالية ومُدُن جنوب أوروبا خلال القرن الرابع عشر.

يبدو أن فكرة الفُنْداكو كمقرّ للإقامة قد تكون وصلت عبر وساطة التجار الإيطاليين. إذ تسمح مُعاهدة بين جَنَوة ونَرْبُونة تعود إلى سنة 1133م للتُّجّار الجَنَويِّين باستعمال فُنْداكو، على ضفاف نهر الأوده «Aude». وبعد عقد من ذلك وعُد الجَنَويون والبيشانيون بفَنادق في مدينة مونبليه مكافأة لهم على مساعدتهم لإخماد الثورة ومساندة وليم السادس ضد كونت تولوز[12]. وفي فترة لاحقة مَنَحَ ريمون الخامس صاحب نَرْبونة وتولوز سنة 1174م الجَنَويين منزلاً لاستعماله كفُنْداكو في سان جيل "حيث يمكنهم السَّكَن وخزن بضائعهم وممارسة نشاطهم مقابل الدعم البحري"[13].

وقد كانت هذه المِنَح مشابهة تماماً للضمانات التي حصلت عليها جَنَوة من قِبَل الحكّام المسلمين والمسيحيين في إسبانيا[14].

(12) Alexandre Germain, *Histoire du commerce de Montpellier*, (Montpellier: Imprem-erie de Jean Martel Ainé, 1861) 1, 92-94; Schaube, *Handelgeschichte*, 553, 559; Kathryn Reyerson, "Patterns of Population Attraction and Mobility: The Case of Montepellier, 1293-1348," *Viator* 10 (1979) 259-260.

(13) *Liber iurium Reipublicae Genuensis*, 1, cols. 296-300 (no. 310).
لقد حصل الجَنَويون على امتيازات ومنازل في سان جيل [St. Gilles] سنة 1108م (*Epstein, Genoa and the Genoese*, 48).

(14) انظر مناقشة الوعود التي قُدِّمت لجنوة سنة 1146م من قبل ألفونس الرابع ملك قشتالة ورامون بيرنغر الرابع البرشلوني [Ramon Berenguer IV of Barcelona] في الفصل الرابع كما تمت مناقشة المعاهدات التي أُبرمت مع حُكّام الأندلُس في الفترة ما بين 1149 و1188م في الفصل الثالث.

فقد كان جيمس الأوّل في القرن الثالث عشر يتوق إلى التحكُّم في الفَنادق في أراضيه القَطَلانيّة والجنوبية الأوروبية مثلما كان يفعل ذلك بِبَلَنْسية وتونس. فقد احتوى وَعْدٌ، قدم لمبعوثي جَنَوة سنة 1263م، فُنْداكو في مدينة مونبليـه يكون للتُّجّار الجَنَويين يقيمون ويمارسون فيه أعمالهم ويخزنون بضائعهم ولكنّهم لا يستطيعون رهنه ولا تأجيره لغيرهم(15). ولم يكن الجَنَويون وحدهم على الساحة في تلك الفترة فقد حَصل منذ عقدين من قبل تجار من نَرْبونة على فُنْداكو في طَرْطُوشة في الوقت الذي كان فيه تجار قَطَلانيّون يتمتّعون سنة 1270م بفُنْداكو في نَرْبونة وكان البيشانيون يسعون للحصول على الامتياز نفسه(16).

وبالرغم من هذه الإشارات المُبَكِّرة فلم يتمكّن مفهوم الفُنْداكو كمقرّ لإقامة التجار الأجانب من التجذُّر في جنوب فرنسا لفترة طويلة. وكما لاحظت كاترين ريارسون «Kathryn Reyerson» "أنّ فَنادق القرن الثاني عشر قد اندثرت" في بداية القرن الرابع عشر من مدينة مونبليـه ويبدو أن هذا قد حدث أيضاً في أماكن أخرى(17). قد ظلّت المباني قائمة وحافظت على اسمها مثلما يبدو ذلك لما أجّرت أرملة صائغي فضّة بمونبليـه منزلاً و"فُنْداكو البيشانيين لزائر من نوفارا «Novara» سنة 1333م، وتفيد هذه العمليّة الخاصّة أن المبنى لم تكن له وظيفة رسمية منذ مدّة(18). كما ظهرت وظيفة المُشْرف على الفُنْداكو «*fondiguier*» في المؤسّسات الحَضَريّة الفرنسية ولكن كمشرف على مستودع خاصّ أو عام لخزن البضائع(19). وعوضاً عن الإقامة في الفَنادق، كانت تتوفّر للمسافرين في أواخر العصر الوسيط في جنوب فرنسا اختيارات عديدة. ففي منتصف القرن الرابع عشر كانت كلّ من مرسيليا ومونبليـه تحتوي على عشرين مقرّاً للإقامة في كلّ واحدة

---

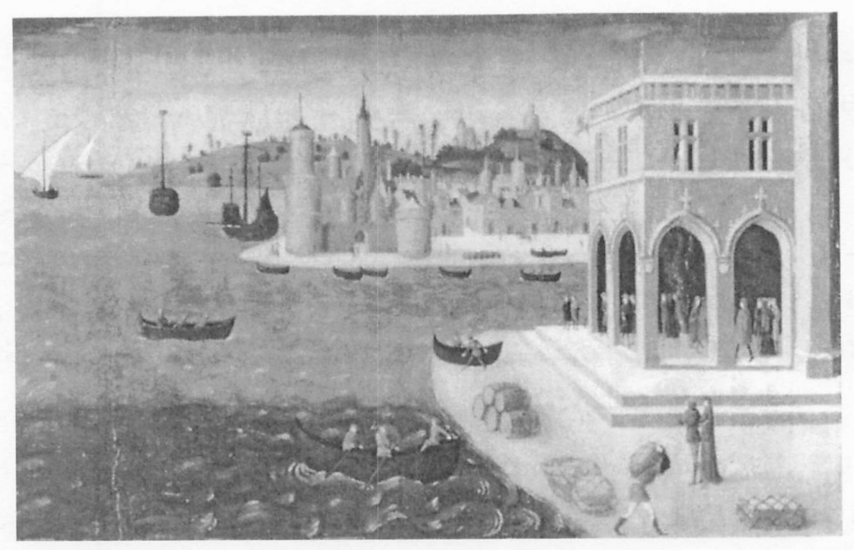
(15) (James I of Aragón). *Documentos de Jaime I de Aragón*, V, 49 (doc. 1342).

(16) Germain Mouynès, (ed.). *Inventaire des archives communales antérieures à 1790* (Narbonne: E. Caillard, 1877) 11, 36-37 (doc. 21), 154-156 (doc. 93).

(17) Reyerson, "Patterns of Population," 278.

(18) Kathryn Reyerson, "Land, Houses, and Real Estate Investment in Montpellier: A Study of the Notarial Property Transactions, 1293-1348," *Studies in Medieval and Renaissance History 6* (1983) 80.

(19) Noël Coulet, "Propriétaires et exploitants d'auberges dans la France du Midi au bas moyen âge," in *Gastfreundschaft, Taverne und Gasthaus im Mittelalter*, ed. H. C. Peyer (Munich and Vienna: R. Oldenbourg Verlag, 1983) 121.



تُجّار يفرغون حمولة في لوجيا وقد يكون ذلك في مدينة بربينيان حوالى سنة 1489
شكري لِـ لاري موتّ الذي لَفَتَ انتباهي إلى هذه اللوحة
Maestro de Canapost, Retable de la Trinité, Musée Hyacinth Rigaud, Perpignan

ويوجد في أفينيون حوالى ستة عشر مقرّاً للإقامة. ووُجِد في تولوز في القرن التالي حوالى ثلاثين مقرّ إقامة وتحتوي مدينة آرل «Arles» على ثماني عشرة إقامة[20]. كما بدأت تظهر اللوجيا كذلك في منطقة البروفانس في القرن الرابع عشر بالتوازي مع ظهورها في بعض الموانئ المسيحية الأُخرى.

لقد عُثِر على نموذج مماثل في المُدُن الإيطالية الغربية ورغم أنه مُتأخّر فإنّ الفَنادق قد أصبحت عادية في جَنَوة وبيشة وفلورنسا وغيرها من المُدُن الأُخرى وذلك منذ القرن الثالث عشر ولكن سُرْعان ما تطوّرت من مقرّات للإقامة إلى

(20) Coulet, "Les hôtelleries," 189; Philippe Wolff, «L'Hôtellerie, auxiliaire de la route. Notes sur les L'hôtellerie toulousaines au moyen âge," *Bulletin Philologiques et Historique (jusqu'à 1610) du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques* (Paris) I (1960) 189-205. لقد أُحصي 169 شخصاً في أفينيون [Avignon] كفُنْدُقيِّين سنة 1371م. (Joëlle Rollo-Koster, "Mercator Florentinensis and Others: Immigration in Papel Avignon," in *Urban and Rural Communities in Medieval France,* ed. K. Reyerson and J. Drendel, [Leiden: E. J. Brill, 1998] 96-97).

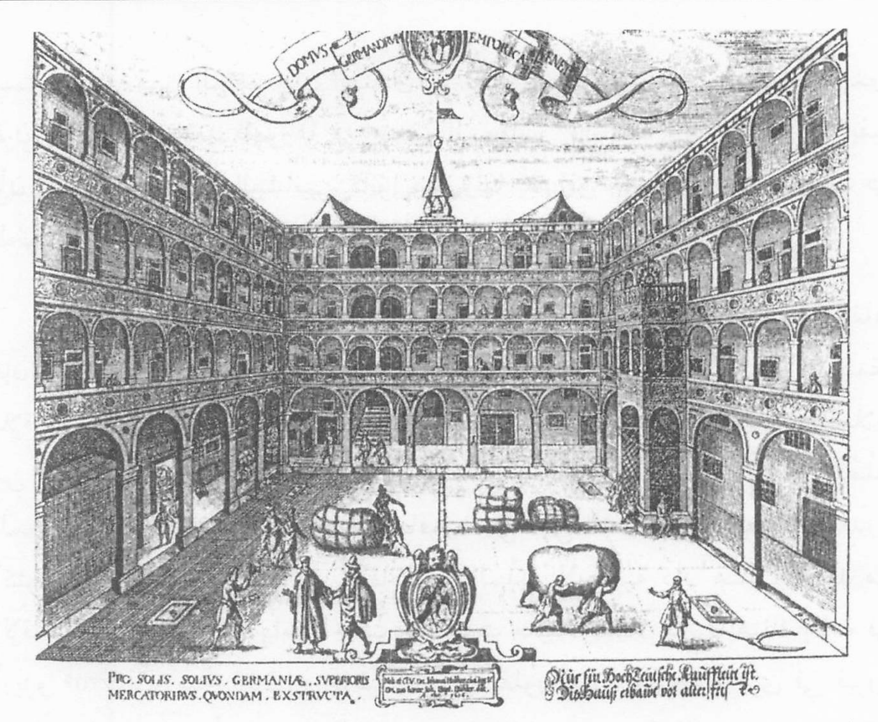
مستودعات. فمن الواضح أنّ الفَنادق لم تظهر في إيطاليا الغربية إلّا في حدود قرن ونصف قرن بعد ظهورها في منطقة البروفانس وإسبانيا وصِقِلّية وهو ما يفيد بأن التجار الجَنَويين والبيشانيين كانوا يعتبرونها كَمَرافق مناسبة للراحة والمبيت في الخارج فقط.

وبما أنّ فُنْداكو الألمان كان مُزْدَهِراً في البُندقيّة سنة 1220م (انظر أسفله) فإن ذلك يؤكّد الانطباع بأن أغلب الإيطاليين كانوا ينظرون إلى الفُنْداكو كمقرّ للإقامة بالنسبة إلى التجار الذين يمارسون نشاطهم بعيداً عن أوطانهم- انطلاقاً من وضعهم في الإسكندرية وتونس وإشبيلية ومونبليه وليس انطلاقاً من المُدُن المجاورة. ومع ذلك عندما كان المسافرون من أهل الأعمال من إيطاليا يبتعدون أكثر من اللازم لحاجتهم إلى الإقامة في المُدُن الإيطالية كان هناك العديد من الإقامات التي تتناسب واحتياجات جماعات معيَّنة. فمثلاً كانت هناك إقامة في أريزو «Arezzo» سنة 1203م خاصّة بالزوّار الفلورنسيين. وتوجد أُخرى في فيرونا «Verona» توصف بأنها منزل التجار سنة 1216م. ويشترط قانون بمدينة ميلانو سنة 1340م أن يمكث التجار الأجانب في إقامات خاصّة عندما يكونون بصدد مُمارسة أعمالهم في المدينة وهو شرط عام يوجد في المُدُن الأُخرى[21].

قد كانت بيشة في بداية القرن الثالث عشر من أُولى المُدُن الإيطالية الغربية التي تبنَّت مُصطلح فُنْداكو للتعبير عن الإقامة الخاصّة بالجماعات وستظلّ هذه الكلمة شائعة في الفترات اللاحقة رغم اختلاف معناها. فقد كان للتُّجّار الفلورنسيين فُنْداكو للإقامة في مدينة بيشة سنة 1214م كما سيكون الشيء نفسه بالنسبة للتُّجّار الوافدين من سان جيمينيانو [«San Gimignano» سنة 1238م[22]. وفي الفترة نفسها تقريباً، وصف المؤرّخ سَليمبانه دي آدام «Salimbene de Adam» بيتاً للسكن في بيشة خاصّاً بتجار مدينة بارما «Parma» فقال "إن هذه المُنْشأة

(21) Antonio Noto, (ed.). *Lber datii mercantie communis mediolani. Registro del secolo XV*, (Milan: Universitá Commerciale Luigi Bocconi, 1950) 62-63.

(22) Amintore Fanfani, "Note sull'industria alberghiera italiana nel medio evo," *Saggi di storia economica italiana* (Milan: Società Editrice "Vita e Pensiero," 1936) 116; Schaube, *Handelgeschichte*, 655, 759; Szabó, "Xenodochia," 83.



تُجّار وبضائع في فناء فنداكو الألمان بالبندقية. يمكن أن نلاحظ الشكل التقليدي للمبنى.
حَفْر رفائيل كوستوس (Raphael Custos) (النصف الأول من القرن السابع عشر.
مجموعة كُبفرستيشكابينت (Kupferstichkabinett) غُرْفة عرض المحفورات النحاسية، برلين

كانت تسمّى بالفُنْداكو عند البيشانيين "[23]. يبدو أن العبارة كانت شائعة كثيراً في سنة 1278م إذ طالب تجار نَرْبونة بفُنْداكو في بيشة على نحو ما يتمتّع به التجار أصيلو البروفانس وجَنَوة وقَطَلونيا[24]. تَعَرَّض قسم بِرُمّته من مداولات تجار بيشة

(23) "Mercatores Parmenses domum habetant ad hospitandum, quam Pisani fundicum appellant": Salimbene de Adam. *Cronica*, ed. Ferdinando Bernini (Bari: G. Laterza & Figli, 1942) 1, 61. إن ما دفع سَليمبانه [Salimbene] للتوضيح هو ربّما أن عبارة فُنْداكو لم تكن مُسْتَعملة عندما كان يكتب، ومع ذلك يبدو أن تُجّار بارما [Parma] كانوا يعرفون هذه اللفظة. ففي سنة 1247م عندما تملّك فريدريك الثاني مدينة بارما "لم يجرؤ أحد على دخول المدينة لأن الذين دخلوا (وهم على ما يبدو تُجّار) قد وقع أسرهم وهم يقتربون بعرباتهم وأمتعتهم أو تمّ القبض عليهم فيما بعد في الفَنادق (الفنداكو)" (*Chronicon Parmense*, in Muratori [ed.], *Rerum Italicarum sciptores*, IX, 772).

(24) Port, *Essai*, 87, 90, 110. كما وقعت الإشارة إلى ذلك من قبل، يبدو أن تُجّار نَرْبونة ربما كانوا على أُلفة بالفُنْداكو في مدينتهم.

سنة 1305م إلى فُنْداكو تجار مدينة سيينا «Siena» ورغم أنه ليس واضحاً إن كان ذلك الفُنْداكو خاصّاً بالسكن أو مُنْشأة تجارية صِرْفة[25]. وفي جُملة من الأحكام الأخرى الصادرة عن بيشة في السنة نفسها قرار بتأسيس فُنْداكو بيشاني بجَنَوة ليكون مركزاً للإقامة والعمل[26]. من الواضح أنّ نموذج الفُنْداكو الجماعيّ قد تواصل في بيشة وجَنَوة إلى بداية القرن الرابع عشر في الوقت الذي انقرض فيه بجنوب فرنسا منذ مدّة طويلة. غير أنّ هذه الفَنادق الإيطالية الغربية لم تكن قطّ محلّ تنظيم مُحْكَم مثلما هو مَفْرُوض على معاصريها في البُندقيّة أو الموانئ الإسلامية.

فقد كان الأمر أنّ أغلب التجار المسيحيين لا يحتاجون كثيراً إلى فَنادق جماعية منظّمة في المُدُن المسيحية وقليل من الحكّام كان يمكنهم أن يحافظوا عليهم. لذلك كثيراً ما فقدت هذه المُنْشآت وظيفتها الإسكانية في جنوب أوروبا بعد قرن ونَيِّف من تجريبها. يبقى الاستثناء البارز هو فُنْداكو الألمان بالبُندقيّة والفَنادق الخاصّة بالتجار المسلمين الذين يزورون ممالك الأراغون.

البُندقيّة وفُنْداكو الألمان

في الوقت الذي كانت فيه الفَنادق بجنوب أوروبا تعمل باختلاف عن نَمُوذجها في العالم الإسلاميّ، ظلّ فُنْداكو الألمان بالبُندقيّة مثالاً لاعتماد مؤسّسة مباشرة من مُحيط إسلاميّ إلى مُحيط مسيحي. فقد كانت هذه الإقامة والمَخْزَن التجاري الخاصّ بالتجار الألمان الذين ينشطون في البُندقيّة واحدة من المُسْتوردات الشرقية العديدة التي أثّرت في جمالية البُندقيّة وفي ثقافتها في أواخر العصر الوسيط[27]. تشبه فَنادق البُندقيّة نُظَراءها في الإسكندرية ليس من حيث

(25) Bonaini, (ed.), *Statuti*, III, 79-80.

(26) Bonaini, (ed.), *Statuti*, III, 390.

(27) Deborah Howard, "Venice and Islam in the Middle Ages. Some Observations on the Question of Architectural Influence," *Architectural History* 34 (1991) 68-69.
أشارت هوارد إلى أن العديد من الباحثين لاحظوا "وجود جوّ شرقي متميّز بالبُنْدقية" وقد تمّت مقارنةُ المدينة "بسُوق كبير". وأظهرت مُدُن إيطاليا الغربية مثل جَنَوة وبيشة وفلورنسا قليلاً من التاثير المِعْماري الشرقي (البيزنطي والإسلامي معاً) في حين أن ذلك ظاهر في البُنْدقية (*Ibid* 59).

الشكل الهندسي فقط ولكن أيضاً من حيث التسيير والتنظيم. فقد كان التجار وبضائعهم، مثلما هو الشأن في مصر، مُضْطَرِّين للإقامة في الفُنْداكو وقد كان هذا الشرط المتعلّق بالإقامة مرتبطاً بالأصول الجِهَوية. لم يكن التجار الألمان يجلبون إلى البُندقيّة بضائع الشمال فقط بل كانوا أيضاً ينقلون المُنتجات المحلّية وغيرها من البضائع التي تمرّ عبر الفُنْداكو إلى ألمانيا. وقد كانت سُلُطات البُندقيّة تُشرف على كلّ ما يحدث في الفُنْداكو وتدفع أُجُور المسؤولين عنه وتفرض رسوماً باهظة مقابل السكن والضرائب[28].

يبدو اليوم أنّ فُنْداكو الألمان ربما كان أفضل مِثال معروف في العالم المتوسّطي. أُنشئ لأوّل مَرّة في القرن الثالث عشر وازدهر حتى بداية الفترة الحديثة وبقي على ملك السُّلطة البُندقيّة إلى سُقُوط الجمهورية سنة 1797م. وحديثاً أصبح المَبْنَى (وهو حاليّاً مركز البريد الرئيسيّ في البُندقيّة) موضوعَ بحوث يقوم بها مُؤرّخو الفنّ والهندسة المِعْمارية المُحْدَثون وذلك في جزء منه بسبب الجُدران الجديدة التي أُضيفت إليه من قبل تيتيان «Titian» وجورجوني «Giorgione» بعد احتراقه في بداية القرن السادس عشر[29].

---

(28) إن التشابُه بين فُنْداكو الألمان والفَنادق الغربية بمصر مع المصادر الكثيرة التي تتعلّق ببيت التُّجّار الألمان يُغري باستعارة المعلومات من البُنْدقية لتسليط الضوء على الحياة اليومية في فَنادق الإسكندرية التي تفتقر إلى وثائق. إلاّ أنّ هذه الاستعارة محفوفة بالمخاطر خاصّة على ضوء الاختلاف الموجود بين الشكلين، إذ لم تكن هناك اختلافات دينية بين التُّجّار الألمان والبنادقة على الأقل إلى فترة الإصلاح الديني. ومع ذلك من المُجْدِي أن نتذكّر أن الوثائق الجيّدة التي تهمّ الإدارة والمالية والصيانة وغيرها من الأعمال اليومية في فُنْداكو الألمان يمكن أن تساعد على فهم فَنادق ما وراء البحار.

(29) إن الدراسة الأساسية التي تهمّ هذه المُنْشأة هي دراسة: Henry Simonsfeld, *Der Fondaco dei Tedeschi in Venedig und die Deutsch-Venetianischen Handelbeziehungen* (Stuttgart: Neudruck der Ausgabe, 1887). وكذلك من الدراسات الهامّة G. M. Thomas's edition of the *Capitolare dei visdomini del Fontego dei Tedeschi in Venezia (Capitular des deutshen Hauses in Venedig)* (Berlin: A. Asher & Co., 1874)، فهي تحتوي على القرارات التي تتعلّق بإدارة فُنْداكو الألمان. ونظراً لأن تاريخ هذا المبنى ووثائقه قد دُرِست بشكل جيّد مقارنة بغيرها فليس من الضروري أن نقدم هنا أكثر من نظرة سريعة. انظر كذلك: also Karl-Ernst Lupprian, *Il Fondaco dei* =*Tedeschi e la sua funzione di controllo del commercio tedesco a Venezia* (Venice:

إنّ الإشارة إلى فُنْداكو خاصّ بالتجار الألمان ظهرت لأوّل مرة سنة 1220م رغم أنّ هذه المُنْشأة ربما كانت موجودة قبل ذلك التاريخ. إنّ ظهور هذه المؤسّسة في بداية القرن الثالث عشر له مَعْنًى لا بسبب تزايُد النشاط في المتوسّط وحركية التجار الألمان في أواخر القرن الثاني عشر فقط ولكن أيضاً بسبب الطُّمُوحات السياسية والاقتصادية لكلّ من الألمان والبنادقة. فقد شجّعت معاهدة السِّلْم التي أمضتها البُندقيّة مع فريدريك بربروس المُبادلات التجارية ووضعت أسس إنشاء بيت للتِّجارة[30]. كما كانت البُندقيّة أيضاً ترغب في مراقبة حركة التِّجارة في البحر الأدرياتيكي وشرق المتوسّط على إثر الحملة الصليبية الرابعة.

ومع دخول القُسطنطينية ومنطقة بحر إيجه بقوة في دائرة التِّجارة البُنْدُقيّة بعد 1204م، وحضور التجار البنادقة القوي في فَنادق الإسكندرية الأيّوبية وفي عكّا الصليبية، لم تَعُد البُندقية ترغب في السماح للتُّجّار الآخرين (من غير منافسيهم المُعتادين جَنَوة وبيشة وبَرْشلونة)، أن يقتحموا مَجال التِّجارة البحرية في شرق المتوسّط. فالقوانين التي أملتها هذه الظُّروف في القرن الثالث عشر استمرَّ تطبيقها في فترات لاحقة، حتى بعد العودة الباليولوغية «Paleologan»، وحتى في فترات متأخِّرة أكثر، بَعْد استيلاء العثمانيين على القُسطنطينية.

وقد استفاد التجار الألمان من فُنْدُقهم. ففي الوقت الذي وصل فيه فيلكس فابري إلى البُندقيّة كان التجار والحُجّاج الألمان قد دخلوا البُندقيّة منذ قرون[31].

= Centro Tedesco di Studi Veneziani, 1978), Concina, *Fondaci*, 125-217; Manlio Dazzi, and Mario Brunetti. *Il Fondaco Nostro dei Tedeschi* (Venice: Ministro delle Comunicazioni, 1941). انظر حول تيتيان [Titian] وجورجوني [Giorgione] Juergen Schulz, "Titian at the Fondaco dei Tedeschi," *Burlington Magazine* 143 (2001) 567-569.

(30) (Frederick I), *Diplomata*, Diplomata, X, III, 218-222 (doc. 695), 242-243 (doc. 708).

(31) لقد كان التُّجّار الألمان يتعاملون مع البُنْدقية منذ بداية العصور الوسطى كما بَيّن ذلك: Michael MaCormick (*Origins of the European Economy*, 678-687)، ولكن حجم المُبَادلات تزايد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وفي أواخر العصور الوسطى لا بد أن يكون عديد من التُّجّار من الشمال قد أَلِفُوا المراكز الهنسية (الهانزية) ومراكز التِّجارة الإنكليزية وهي مُنْشآت كانت مشابهة في بعض وظائفها لفُنْداكو الألمان.

إنّ الملامح الجُغرافية للمَمَرّات الجبلية والمسالك التجارية تجعل من المدينة وجهة واضحة بالنسبة إلى أهل الشمال الباحثين عن مَمَرّات نحو المتوسّط وبضائع المتوسّط. وقد أعاد قرار صادر سنة 1475م قبل وصول فيلكس إلى البُندقيّة بقليل تأكيد الأحكام السابقة التي تقول "بأن يُمْنَع على أيّ تاجر ألماني وبأية حُجّة أن يسكن في مكان آخر غير دار التجار ومن يخالف ذلك يدفع غرامة قدرها خمسون دوقا «ducats» والغرامة نفسها يدفعها من أسكنه"[32]. وتشمل كلمة "ألماني Tedeschi" (عادةً teutonicus, alemanus في اللاتينية) الإيطالية التجار القادمين من المُدُن الشمالية العديدة سواء كانت مُدُناً من الإمبراطورية الجرمانية أو مُدُناً مستقلّة من ألمانيا ومن خارجها. يذكر مرسوم 1475م تجاراً من بولونيا ومن بوهيميا والمجر "وتجاراً آخرين من رعايا الإمبراطور" الذين "عليهم أن يدفعوا هم وبضائعهم أداءً في دارنا التجارية"[33]. فالتجار القادمون من رانزمبرغ وكولونيا وأولم ونورمبرغ ولُوبِك وغيرها من المُدُن، يسكنون جميعاً في فُنْداكو الألمان رغم أن المنافسات الموجودة بينهم تؤدّي في بعض الأحيان إلى مُشَادّات. فقد نشب خلاف بين تجار من نورمبرغ وآخرين من كولونيا وبلغ ذروته سنة 1429م ويكشف وصف هذا الخلاف أن المجموعتين تعوَّدتا استعمال مطبخَيْن منفصلَيْن ولهما فضاء خاصّ بكلّ منهما لتناول العشاء داخل الفُنْداكو. فبعد هذه الحادثة قرّر المسؤولون البنادقة أن يكون هناك مطبخ واحد فقط رغم تواصل وجود فرنَيْن وطَبّاخَيْن، واحد لكلّ مجموعة[34].

لم يكن كُلّ الألمان الذين يذهبون إلى البُندقيّة تجاراً رحّالة كما لم يكن جميعهم مُلْزَمين بالإقامة بالفُنْداكو. فقد كان الألمان المُقيمون لمدّة طويلة (الخبّازون ووكلاء التجار والحِرَفيون) مَعْفِيّين من ذلك ولعلّ ذلك راجع إلى أن

---

(32) Thomas, *Capitolare*, 228-229; English translation in David Chambers and Brian Pullin (eds.). *Venice: A Documentary History 1450-1650* (Oxford: Blackwell, 1992) 328.

(33) Thomas, *Capitolare*, 227; Chambers and Pullin (eds.). *Venice: A Documentary History*, 328.

(34) Dazzi and Brunetti. *Il Fondaco Nostro dei Tedeschi*, 57-58.

إن فصل الفُرْنَيْن للجاليتين الألمانيتين يُذَكِّر بالشروط بالنسبة إلى الأفران الخصوصية المُلْحَقة بالفنادق في المُدُن الإسلامية.

الإيرادات والدخل الضريبي المُحتمَل لهؤلاء التجار الصِّغار كانت زهيدة بالنسبة إلى المدينة. كما كان مسموحاً للحُجّاج بالإقامة في أيّ مكان بالمدينة، فعندما أراد فيلكس فابري الحصول على مكان في الفُنْداكو، "رافق مجموعته أحد الألمان إلى فُنْدُق سان جورج لأنه أوسع وأكثر احتراماً وأحسن سُمْعة"[35]. وعندما مرّ بالبُندقيّة في نهاية رحلته، مكثَ فيلكس بسان جورج مرة ثانية. وعندما توقّف بفُنْداكو الألمان للسؤال عن مجموعة التجار الذين وصلوا حديثاً من مدينته أولم «Ulm» ألحّ عليه تاجر شاب من المجموعة أن يأخذ مفتاح غرفته، وأنَّ عليه أن يغادر الفُنْدُق الذي كان يقيم به وأن يتحول إلى الفُنْداكو ليأكل وينام معهم[36].

يوجد فُنْداكو الألمان بالقرب من جسر الريالتو «Rialto» وهو حيٌّ من أهمّ الأحياء التجارية في البُندقيّة الوسيطية وهو موقع يؤمّه التجار معاً من جهات مختلفة محمّلين بشتى أنواع البضائع. ويبدو أنّ الأرض المعدّة لهذه المُنْشأة قد اقتنتها البلدية سنة 1222م بمساعدة تاجر ألماني هو برناردوس تيوتونيكوس «Bernardus Teotonicus» وهو صديق حميم للدوج بييترو زياني «Pietro Ziani»[37].

تعود أوّل إشارة واضحة إلى المبنى إلى شهر ديسمبر/كانون الأول 1228م إدارةُ فُنْداكو يخصّ بلدية البُندقيّة لإسكان الألمان" من قِبَل المدينة مقابل 1100 دوقا تُدْفع على ثلاث دفعات[38]. وفي فترة وجيزة بعد ذلك تذكر وثيقة تعود إلى شهر كانون الثاني/يناير سنة 1229م أنه تمّ كِراء الفُنْداكو لفائدة المسمّى أبيلينوس تيوتونيكوس «Abilinus Teotonicus» وواضحٌ أنه ألمانيّ الجنسية[39]. يبدو أن مشروع الكِراء لم يكن ناجحاً على الأقل من وجهة نظر إدارة المدينة بما أنها

---

(35) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae*, I, 31 [11b].

(36) Fabri, *Evagatorium in terrae sanctae*, III, 388 [207b].

(37) Wolfgang Von Stromer, *Bernardus Teotonicus e i rapporti commerciali tra la Germania Meridionale e Venezia prima della instituzione del Fondaco dei Tedeschi* (Venice: Centro Tedesco di Studi Veneziani, 1978) 9, 32.

(38) *Liber communis detto anche plegiorum del R. Archivio generale di Venezia*, ed. R. Predelli (Venice: Tipografia del Commercio di Marco Visentini, 1872) 68 (no. 249) and 161 (no. 685).

إن نصّ 1228 منشور أيضاً في Simonsfeld, *Der Fondaco dei Tedeschi*, 1, 1-2 (doc.2).

(39) Lupprian, *Il Fondaco dei Tedeschi*, 7.

أصبحت تُسيِّره مباشرة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر[40]. وقد كان لكلّ من النموذجين الجِبائيين أسلاف في جهات أُخرى من العالم في المُدُن الإسلامية والمسيحية، وقد كانت البُندقيّة تتبع تقليداً راسخاً عند سُلُطات حَضَرية ومَلَكِية تُحقِّق الأرباح من وجود الفَنادق تحت سُلطتها.

وفي فترة لاحقة استفادت مدينة البُندقيّة بصورة أساسية من فُنْداكو الألمان من خلال الضرائب والمُكُوس على العمليّات التجارية التي تتمّ داخل المبنى. وقد ذكرت مبالغ المداخيل بصور مختلفة في أواخر القرن الخامس عشر في حدود 20000 دوقة «ducats» في السَّنَة (حسب رواية فيلكس فابري في بدايات 1480م) وبلغت مليون دوقة حسب مصدر يعود إلى سنة 1470م أو 100 دوقة في اليوم حسبما هو مسجَّل في سنوات 1493 و1499م[41]. يضيف المؤرّخ البُنْدقي مارينو سانودو «Marino Sanudo» الذي ذكر الرقم الأخير "أن ذلك كان نتيجة للموقع المتميّز للمكان وحجمه وملاءمته في وسط الريالتو" القلب التجاري للمدينة[42]. هناك مداخيل أُخرى مرتبطة بالفُنْداكو، فقد كانت البيوت تؤجّر بمقابل محدّد، وعلى الضيوف إضافة بعض المبالغ الصغيرة للمشرف على البيت من أجل العناية بالمبنى[43]. ورغم هذه الأداءات التي يدفعها التجار الألمان إلى البُندقيّة، فقد استفادوا هم أيضاً من الفُنْداكو كما يظهر من خلال المصادر أنهم كانوا يرغبون ويستطيعون ـ ولو أن ذلك يقع تحت نوع من الإكراه ـ دفع ما يجب للوصول إلى موقع المُنْشأة واستعمال مرافقها.

(40) *Ibid*. هناك جدل لا يزال قائماً حول ما إذا كان فُنْداكو الألمان في الأصل تحت سلطة الدولة سواء أكان مؤجَّراً أو مُسَيَّراً بصورة مباشرة، أو إذا ما كان، في وقت ما، مؤسّسة خاصة.

(41) Lupprian, *Il Fondaco dei Tedeschi*, 9.

بعد مرور قرن، أشار تحليل فردينان بروديل إلى تغيُّرات موسمية في التجارة عبر فندق الألمان. وكما يبدو، فإن هذا يؤكد تقديرات القرن الخامس عشر. وقد تراوح حجم ما حصلت عليه المدينة سنتي 1561-1562م ما بين 2000 دوقا شهريّاً خلال أشهر مارس وأبريل ومايو وديسمبر إلى 4000 دوقا تقريباً في أشهر يونيو ويوليو وأغسطس وأكتوبر ويناير وارتفع إلى 5000 دوقا من الضرائب التي تمّ تحصيلها في فبراير. (*Mediterranean World*, 1, 266)

(42) Marino Sanudo, *Laus urbis Venetae*, in Chambers and Pullin (eds.), *Documentary History*, 9-10.

(43) Simonsfeld, *Der Fondaco dei Tedeschi*, 11, 12.

لم تكن سُلُطات البُندقيّة تسمح للتُّجّار الألمان بممارسة نشاطهم خارج البُندقيّة ولا كِراء السفن للانتقال عبر الأدرياتيكي نحو المتوسّط (رغم أن ذلك كان ممكناً بالنسبة إلى الحُجّاج الألمان مثل فيلكس فابري). عِوَضَ ذلك كان على التجار أن يظلّوا في الفُنْداكو يمارسون نشاطهم تحت نظر سُلطات المدينة وجُباة الضرائب قبل العودة إلى الشمال محمّلين بالبضائع المحلية وغيرها من البضائع المتوسّطية الأُخرى. كما كان ممنوعاً على البنادقة أيضاً التعامل التجاري مع التجار الألمان خارج المدينة سواء في بادوا «Padua» أو تريفيس «Treviso» أو في غيرهما من الجهات غير التابعة للبُندقيّة، كما كان ممنوعاً على البنادقة أن يسافروا إلى الشمال لممارسة التِّجارة في المُدُن الألمانية (ولا يشمل هذا المنع الفلاندر «Flanders» وإنكلترا أو غيرهما من الأسواق الشمالية الأُخرى التي يتاجر فيها البنادقة عادة بانتظام)[44].

كان التجار الألمان يجلبون أنواعاً مختلفة من بضائع الشمال إلى البُندقيّة، بينها المواد العديدة القادمة من روسيا وإسكندينافيا ومناطق البلطيق، مثل الصوف والأقمشة القطنية والمعادن (الفضّة والنحاس والقصدير والزنك والرصاص والذهب والحديد) والفرو والجلود وأدوات مصنوعة من قرون الحيوانات والجلود المدبوغة. وقد انبهر فيلكس فابري بكمّيات المواد التي تُعْرَض للتِّجارة في فُنْداكو الألمان، وبعد عشر سنوات من ذلك زعم الحاجّ بييترو كازولا «Pietro Casola» أن محتوياته "تكفي وحدها لتلبية حاجات إيطاليا بأسرها من خلال ما يأتيه ويخرج منه من البضائع"[45]. ثُمَّ يعود التجار الألمان إلى بلادهم محمّلين بالبضائع المتوسّطية كالتوابل والفلفل والعقاقير والقطن والسكّر والحرير.

---

(44) لقد وُجد الحظر على تجارة البُنْدقية في وقت مُبكّر يعود إلى حدود سنة 1272م (Von Stromer, *Bernardus Teotonicus*, 4-5; Simonsfeld, *Der Fondaco dei Tedeschi*, II, 31-32). وكما هو منصوص عليه في قانون سنة 1475م "لا يمكن لأي مواطن من البُنْدقية أو رعية من رعاياها أن يذهب إلى ألمانيا أو أي جِهَة من جهاتها ... ليشتري سلعة أو يبيع سلعة إلى أي ألماني وكل من يخالف ذلك صُودر منه ما باعه أو اشتراه ويدفع غرامة تعادل قيمة البضاعة المخالفة" (Chambers and Pullan [eds.], *Documentary History*, 328).

(45) Pietro Casola, *Canon Pierto Casola's Pilgrimage to Jerusalem in the Year 1494*, ed. and trans. Margaret Newett (Manchester: Manchester University Press, 1907) 129.

لم تكن الرقابة المشدّدة على التّجارة الألمانية نابعة فقط من رغبة الإدارة في البُندقيّة ومن تجار البحر وإنما كذلك من قبل الرابطات المهنية المحلية التي كانت تشعر بأنّ نشاطها أصبحت تهدّده الواردات الألمانية. فقد ألحّت إحدى الشكاوى المرفوعة من قِبَل رابطة البزّازين بالبُندقيّة حوالى سنة 1446م على أن يكون التجار الألمان تحت سُلطتها لأن تجارتهم قد تحطّمت بسبب التجار الأجانب الذين "يختزنون ويبيعون البَزّ على جسر الريالتو... وإذا لم يتمّ اتخاذ إجراءات فإن البزّازين المذكورين سيفلسون عما قريب". ثم يعطي هذا النصّ لمحةً عن نوعيّة البضائع الألمانية التي تمرّ بفُنْداكو الألمان في منتصف القرن الخامس عشر والتي منها "الأحواض الكبيرة وغيرها من الأواني النُّحاسية والحديد والقصدير والأقفال والمرايا وزُجاج المرايا والقُبّعات والقُفّازات من الصوف أو الجلد والأكواب وحُزَم من الأقمشة والمِجَزّات والمقصّات والأباريق ومسابح الصلاة والنظارات وأمواس الحلاقة والفؤوس والأحزمة والأمشاط من قرون الحيوانات أو من الخشب والوسائد والأقمشة الخشنة وكلّ أنواع الأقمشة". "كما أنّ الألمان كانوا يصنعون الأحزمة والحقائب الكبيرة وقبعات من الصوف أو من القشّ والمَحافِظ وأوراق اللعب والقبعات والجلد المصبوغ لصنع الأحزمة أو الحقائب"[46].

هناك انشغالات أُخرى تتعلّق بالتجار الألمان وبأنشطتهم. فقد كان بعض الإيطاليين يَرَوْن أنهم موضع سخرية، معتقدين أنّ مراقبة الجودة الألمانية لا ترقى إلى مستوى نظيرتها الإيطالية. ففي سنة 1434م، تمكّن تاجر من البُندقيّة هو أندريا برباريغو «Andrea Barbarigo» من بيع حُمُولة من القُطْن من نوع دون المستوى في فُنْداكو الألمان، مع أنّها اعتُبِرت من كلّ من كان هناك "سلعة سيّئة فاسدة وكريهة جداً"[47].

وارتفعت أصوات أُخرى لتقدّم شكاوى أُخرى ضد التجار الألمان، فقد رفضت عائلة الميدتشي «Medicis» (التي كانت لها علاقات مباشرة مع أسواق

(46) من سجلّ البزّازين (ASF Arti, b. 312, ff. 10r-14r)، وقد تُرجم ضمن Chambers and Pullan (eds.). *Documentary History*, 281-284.

(47) F. C. Lane, *Andrea Barbarigo, Merchant of Venice 1418-1449* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1944) 106.

الشمال) أن تتعامل مع التجار الألمان في فُنْداكو الألمان لأنه يصعب على الديوان تتبُّع التجار غير المخلصين إذا ما عادوا إلى بلادهم[48].

عندما مرّ فيلكس فابري بالبُندقيّة في أواخر القرن الخامس عشر كان الحضور الألماني في الفُنْداكو قد مرَّت عليه فترة طويلة من الزمن. وقد كان عدد التجار في تزايد مستمرّ ممّا أدّى إلى إحداث تجديدات وتوسيع في المبنى سنة 1319م (على إثر حريق شبّ به قبل سنة)، وفي سنة 1372 و1401م[49]. وقد تمّ توسيع الشارع الذي يُوصِل إلى الفُنْداكو وجسر الريالتو خلال سنوات 1340م. وفي هذا إشارة أُخرى إلى الجهود المبذولة لتلبية حاجات التِّجارة المتزايدة في تلك الجِهَة من المدينة. وقد اندلع حريق آخر في كانون الثاني/يناير 1505م اشتعل طوال ليلة كاملة واليوم الذي يليها ممّا أدّى إلى إعادة بناء الفُنْداكو بصورة كاملة. وقد تطلّب البناء، وقد تمَّ هذه المرَّة بالحجارة، ثلاثَ سنوات، وقد سمح مجلس العشرة ببنائه من مداخيل احتكار الملح التابع للمدينة[50]. وقد كان التجار الألمان في ذلك الوقت يقيمون في مبانٍ أُخرى إلى أن أصبح الفُنْداكو الجديد، وهو أجمل وأوسع، جاهزاً لاستقبالهم. وهناك لائحة بالإيجارات للغرف والمخازن وُضعت في 1508م، حين فتح المبنى الجديد أبوابه، وقد أفادت (اللائحة) أن هناك ثلاثة طوابق فيها ثمانٍ وستون غرفة مشغولة، وثمانٍ شاغرة، وخمسة وعشرون مخزناً. كان بإمكان التجار استئجار الغُرَف لمدّة سنة يُدفَع أجرها للمدينة مع الضرائب المختلفة الأُخرى المترتّبة على الخدمات والبقشيش. وبالإضافة إلى ذلك هناك سِتّ غُرَف بالطابق الثالث "لا يمكن حجزها لفائدة تجار معيَّنين وإنما لفائدة المسافرين وبائعي الأقمشة الرخيصة حتى لا يسكنوا بفَنادق خارج بيت التِّجارة لأنهم لو فعلوا ذلك يتسبّبون بخسارة لفائدة حكومتنا الجليلة"[51].

---

(48) Raymond de Roover, *The Rise and Decline of the Medici Bank, 1397-1494* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1963) 245.

(49) Benjamin Kedar, *Merchants in Crisis: Genoese and Venetian Men of Affairs and the Fourteenth-century Depression* (New Haven: Yale University Press, 1976) 14; Simonsfeld, *Der Fondaco dei Tedeschi*, 1, 21, 98, 135.

(50) Dazzi and Brunetti. *Il Fondaco nostro dei Tedeschi*, 59-60. خلافاً لما هو موجود في صقلية وأبوليا فإن تجارة الملح التي تقوم بها البُنْدقية لم تكن تمرّ بالفُنْداكو.

(51) Simonsfeld, *Der Fondaco dei Tedeschi*, 1, 363-364; Chambers and Pullan (eds.). *Documentary History*, 329-330. تنصّ هذه القواعد الداخلية للفُنْداكو في سنة 1508م =

قد يكون فُنْداكو الألمان بحلول سنوات 1480م قد وفّر السكن لأكثر من 120 تاجراً، عادة لفترة قصيرة، غير أنّ العدد قد تراجع عندما حاول بعض التُّجار الاحتفاظ بمفاتيح غُرفهم حتى ولو لم يكونوا مقيمين به[52]. وبعد قرن من الزمن عندما زار ممثّل البابا مدينة البُندقيّة سنة 1580م قدَّر عدد الألمان بالمدينة بحوالى 900 شخص (أغلبهم من البروتستانت). ورغم أنّ البعض كانوا خدماً يعملون في المنازل الخاصّة وأصحابَ مِهَن وحِرَفيين، كان الآخرون "إمّا تجاراً أو من الناس المَيْسُورين أو وكلاءهم أو أعوانهم" هم الذين يعيشون في فُنْداكو الألمان. ويواصل قائلاً: "إذا ما تمّ احتساب الرسميين والخدم فهناك حوالى مائتي شخص يعيشون في ذلك المبنى الكبير. فهم يعيشون كما لو كانوا في مدرسة كلّ شيء مشترك بينهم ويأكلون في مكان بسيط في وقت محدّد وهو ما يؤكّد تلاؤم ذلك مع أعمالهم"[53]. وقد أبْلَغ ممثّل البابا عن شائعات بوجود هرطقة وانحلال وفسق في الفُنْداكو مستدرجاً الكلام بشكل غير مقصود إلى المواضيع القديمة التي تتحدّث عن الخطايا والآثام الدينية والأخلاقية المتفشّية بين جدران مثل هذه المؤسّسات.

= كذلك "على أن الغُرَف في الطابق الأوّل والطابق الثاني تؤجر مقابل 12 دوقا سنويّاً للغُرفة الواحدة والغُرَف التي توجد في الطابق الثالث بـ 8 دوقات تدفع لـ سان مارك، على اتفاق أن التُّجّار يجب أن يدفعوا بالاضافة إلى ذلك كلّ الأداءات والنفقات الأُخرى التي اعتادوا دفعها كما عليهم أن يدفعوا المبالغ المعتادة للمشرف على بيت التِّجارة". وقد وُجدت الخطوط العريضة لهذه التنظيمات في منتصف القرن الرابع عشر رغم أن الأكْرِية يبدو أنها ارتفعت بصفة كبيرة في النصف الأوّل من القرن الخامس عشر (Simonsfeld, *Der Fondaco dei Tedeschi*, 11, 12-13, 15).

(52) P. Braunstein, "Appunti per la storia di una minoranza: la popolazione tedesca di Venezia nel medioevo," *Structure familiari, epidemie, migrazioni nell' Italia medievale*, ed. R. Comba, G. Piccinni, and G. Pinto (Naples: Edizioni Scientifiche Italiane, 1984) 516; P. Braunstein, «Remarques sur la population allemande de Venise à la fin du moyen âge,» *Venezia centro di mediazione tra oriente e occidente (secoli XV-XVI) : aspetti e problemi* (Florence: Leo S. Olschki Editore 1977) I, 233-236.
ناقش سمونسفلد [Simonsfeld] مشكلة غياب مفاتيح الغُرَف غير المشغولة وإلى أي مدى قلّص ذلك من الفضاء المُعَدّ لاستقبال الوافدين الجدد. (*Der Fondaco dei Tedeschi*, 11, 13).

(53) Aldo Stella, *Chiesa e stato nelle relazioni ei nunzi pontifici a Venezia* (Vatican City: Biblioteca Apostolica Vaticana, 1964) 279.
توجد الترجمة الإنكليزية في Chambers and Pullan (eds.). *Documentary History*, 330.

وبحلول النصف الثاني من القرن السادس عشر أخذ الفُنداكو يضطلع بمهمة جديدة بعد الإصلاح الديني البروتستانتي، وفي الحقيقة أصبح يشبه نُظَراءَه في العالم الإسلاميّ بصورة أقرب ممّا كان عليه في السابق. فقد أصبح العديد من التجار الألمان الذين يعيشون في الفُنْداكو متميِّزين من الناحية الدينية بالنسبة إلى السكّان البنادقة المحليين مثلما كان الأمر بالنسبة إلى التجار المسيحيين في فَنادق الإسكندرية وتونس ودمشق وغيرها من المُدُن الإسلامية الأُخرى. وحتى قبل حركة الإصلاح الديني كان فُنْداكو الألمان يستجيب للحاجات الدينية لسكّانه مثلما كان يفعل الفُنْداكو على الضفّة الأُخرى من المتوسّط. فقد أُعدّ مذبح في الفُنْداكو في منتصف القرن الرابع عشر لكي يمارس الألمان عباداتهم معاً داخل مقرّ إقامتهم بدون المخاطرة بحضور القُدّاس داخل الكنائس المحلية[54]. ولم تعد هذه الوضعية مريحة فقط ولكنّها ضرورية بالنسبة إلى التجار الألمان البروتستانتيين في البُندقيّة.

يعتبر فُنْداكو الألمان الفُنْداكو الوسيطي الوحيد الذي تتوفّر حول إدارته وموظّفيه وثائق مفصّلة. فقد وضع المسؤولون البنادقة تنظيمات للفُنْداكو تعود إلى سنة 1242م تمّ تنقيحها سنة 1268م ثم أعيد تأكيدها في التشريعات المتأخّرة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر[55]. وتُشير الأحكام المتعلّقة بالفُنْداكو إلى رغبات سُلطة البُندقيّة في الحصول على مداخيل الفُنْداكو وإلى الردّ على تظلُّمات التجار الألمان أو الاستجابة لشكاوى التجار المحلِّيين والرابطات التجارية من تراجع نشاطها لفائدة الأجانب.

وكما تلحّ التنظيمات على مراقبة سُلطة المدينة للمبنى ذاته من خلال وضعه تحت مراقبة مجلس العشرة، فإنها عَيَّنت مسؤولين رسميين عن المبنى منهم ثلاثة مراقبين منتخبين، وكاتِبَيْ عدْل وإلى حدود الثلاثين من الأعوان والسماسرة، ومشرفاً على الفُنْداكو مسؤولاً عن الجوانب المالية والتسيير اليومي للمبنى، ووزّاناً

(54) Simonsfeld, *Der Fondaco dei Tedeschi*, 11, 11.

(55) وقد نُشرت من قبل ضمن Thomas, *Capitolare*. بما في ذلك القوانين اللاتينية التي تعود إلى ما بين سنوات 1242 و1281م وكذلك التشريع الإيطالي، المتعلّق بالفُنْداكو، المعمول به من سنة 1268 إلى سنة 1499م.

والعديد من الوظائف الدُّنيا الأُخرى. وقد كان هؤلاء يتقاضَوْن أجراً سنويّاً تدفعه لهم المدينة ويُمنع عليهم المشاركة في أيّ معاملة مالية تقع في الفُنْداكو مثل البيع والشراء والإهداء أو الارتشاء ولكن يُسمح لهم بقبول الصَّدَقات(56).

فالحقيقة أن جميع المُسَيِّرين للفُنْداكو من الموظّفين المحلّيين تستخدمهم بلدية البُندقيّة بدلاً من التعيين من قِبَل الألمان المقيمين، الأمر الذي يعدّ ابتعاداً عن نموذج الفَنادق التي توجد في الخارج، ففي الإسكندرية وتونس رغم أن مبنى الفُنْداكو كان على ملك الإدارة الإسلامية فإنّ القُنْصُل والمُشْرِف على الفُنْداكو والعُدُول كانوا دائماً من الأوروبيّين، وعادة ما يقع اختيارهم إمّا من قبل حكومة بلادهم أو من قبل التجار الغربيين الذين يمارسون نشاطهم في الفُنْداكو المعني. يُعدّ هذا التجديد في البُندقيّة تأكيداً متزايداً على نفوذ المدينة تجاه التجار الألمان الذين كانوا يرغبون في مواصلة نشاطهم حتى ولو كانت تواجههم بعض الشروط غير الملائمة.

تؤكّد التنظيمات على مُمارسة ثابتة ومعاملات نزيهة وعلى دقّة في حفظ السجلّات. فقد كان يجب وزنُ كلّ البضائع بواسطة موازين رسمية عندما يتمّ جلبها إلى المبنى ومرة ثانية عندما يتمّ إخراجها منه ولا يمكن بيع أو شراء شيء دون تقويم. كما كانت كلّ المعاملات التي تتمّ في الفُنْداكو وكلّ البضائع التي تمرّ منه تُسَجَّل في دفاتر رسمية من قبل المُشْرِف على الفُنْداكو أو من قبل أحد الكُتّاب العُدُول ولهذا الغرض كان الكاتبان يتناوبان كلّ واحد مرة في الشهر حيث ينام المناوب هناك ليكون جاهزاً عند الحاجة. وفي كلّ شهر يعرض سجلّ الحساب على المُشْرِفين(57). وعندما يصل تاجر إلى الفُنْداكو يكلّف به المشرف على الفُنْداكو أحد الثلاثين عوناً ليرافقه وينصحه طوال مدّة إقامته وهو يشبه ظاهريّاً ما يقوم به التُّرْجُمان في الفَنادق الشرقية(58). وفي كلّ شهر كذلك يذهب المُشْرِف على الفُنْداكو وأحد العَدْلين (ولا يذهب وحيداً أبداً) لشراء الخَمْر

(56) Thomas, *Capitolare*, xii. عموماً تبدو هذه الترتيبات مُرْضية ما عدا بعض الحالات. فمثلاً سنة 1386م أدت المصاعب المالية للمدينة إلى حَسْم 50 بالمائة من أجور السماسرة الذين يعملون في الفُنْداكو .(Lupprian, *Il Fondaco dei Tedeschi*, 19).

(57) Thomas, *Capitolare*, xiii.

(58) Lupprian, *Il Fondaco dei Tedeschi*, 13-14.

للفُنْداكو الذي يخضع بيعه وسعره إلى مراقبة مشدّدة. ويحصل الخمّار داخل الفُنْداكو كغيره من الموظّفين على أجر من الدولة وعليه أن يبيع الخَمْر للمقيمين المسجّلين في ساعات محدّدة بالقانون. وكثيراً ما كان التجار الألمان يطالبون بتمديد ساعات بيع الخَمْر إلّا أنّ القوانين كانت صارمة وكلّ خَمّار يضبط مخالفاً يكون عُرضة للفصل من عمله. تعبّر القرارات العديدة والأوامر المتعلّقة ببيع الخَمْر في الفُنْداكو عن أهمّية الموضوع المستمرّة كمصدر ربح للمدينة وطلب الزَّبائن على السواء[59].

وتذكّر بعض التنظيمات الأُخرى بالمُعَوّقات التي تعترض التجار في فَنادق العالم الإسلاميّ منها غلق فُنْداكو الألمان ليلاً وفتحه صباحاً من قِبَل البنادقة. ففي سنة 1330م كان على أحد التجار من مدينة أوغسبورغ أن يبرّر إقامته خارج الفُنْداكو لأنه وصل إلى المدينة بعد غلق أبواب الفُنْداكو. فلم تقبل سُلطات البُنْدقية هذا المبرِّر على أساس أنه يتعاطى التِّجارة منذ وقت طويل وكان عليه أن يَعْلَمَ بذلك[60]. وكما لُوحظ في أماكن أُخرى لم تكن الفَنادق وحدها هي التي تفرض حَظْر التجوال ليلاً، فقد كانت المُدُن والمخازن والمنازل الخاصّة في العصر الوسيط عادة ما تغلق أبوابها ليلاً. ولكنَّ هناك فروقاً بين إبعاد اللصوص عن الفُنْداكو وإقفاله على المقيمين فيه. وكما هو الحال في المُدُن الإسلامية، فإن مراقبة الدخول إلى فُنْداكو الألمان من قِبَل السُّلطات في البُندقيّة وليس من قِبَل التجار الألمان يعني توفير الأمن للناس وتأمين البضائع في الوقت نفسه.

إنّ الأدلّة على التشابه بين فُنْداكو الألمان بالبُندقيّة وفَنادق الجاليات الأوروبية بالإسكندرية وغيرها من المُدُن الإسلامية هي أدلّة دامغة وفريدة من نوعها. فلا توجد أية مدينة أُخرى في جنوب أوروبا قد حافظت بنجاح على مُنْشأة مثل هذه لتنظيم التِّجارة وتحركات أناس ينتمون إلى مجموعة معيَّنة من التجار الأجانب أو لتحقيق أرباح واضحة من خلال أعمالهم. فلماذا كان فُنْداكو الألمان

---

(59) Thomas, *Capitolare*, xiii; Simonsfeld, *Der Fondaco dei Tedeschi*, II, 17 (also, I, 77 [doc. 185a]); Dazzi and Brunetti. *Il Fondaco Nostro dei Tedeschi*, 59.
مرة أُخرى تذكّر هذه التنظيمات المتعلّقة بالخَمْر بالتضييقات التي كانت موجودة في الفَنادق الأوروبية بالمُدُن الإسلامية.

(60) Thomas, *Capitolare*, xvi; Simonsfeld, *Der Fondaco dei Tedeschi*, 11, 16.

بالبُندقيّة نسخةً مطابقةً لما هو موجود في العالم الإسلاميّ في حين كانت الفَنادق المعاصرة له في كلّ من جَنَوة وفلُورنسا وبيشة ومونبليه ومَرْسيليا وغيرها من جهات المتوسّط الغربي مختلفة عن ذلك؟ تكمن أسباب ذلك في تمازُج جُمْلة من العوامل منها الجغرافيا والمسالك التجارية وظهور التِّجارة الألمانية وطلب المستهلكين لنوعيّة معيَّنة من البضائع وفوق كلّ ذلك كان للبُندقيّة النموذج الذي يمكن النسج على منواله ولها القُدرة على اتِّباعه على السواء. فقد كانت البُندقيّة واحدة من قِلّة من الموانئ الأوروبية التي لها القُدرة والطبوغرافيا لفرض مراقبتها على مجالها بالطريقة نفسها التي كانت للسلاطين الأيّوبيّين والمماليك الذين كان باستطاعتهم فرض هيمنتهم على التِّجارة والتجار في مصر.

فهي توجد على الطرف الشمالي لبحر الأدرياتيك مع وجود جُمْلة من المسالك البرية التي تمرّ عبر الجبال (خاصّة برنَّر «Brenner») وسهل البو، تصل من الشمال والغرب نحو مرفئها الجيّد. فهي في موقع يراقب المُبادلات التجارية عبر مينائها إلى درجة يستحيل وجودها في المُدُن المحاذية للسواحل الإيطالية والفرنسية. فموقعها الجَزيري لا يسمح بوجود ضواحٍ ولا بوجود منافسة تجارية ويسمح بمراقبة أكثر على زُوَّار المدينة ووصولهم إلى أسواقها ممّا هو الحال في المُدُن القارية رغم أسوارها وأبوابها كما يلعب البحر الأدرياتيكي دور القناة التي تمرّ منها المُبادلات مع المتوسّط من البُندقيّة وإليها. ويبرز دور هذا البحر في تطوّر فُنْداكو الألمان من اعتماد موانئ أدرياتيكية أُخرى إضافة إلى البُندقيّة مثل أنكونا وراغوزا نموذج الفُنْداكو الجماعيّ المنظّم ولكن دون أن يتواصل بالنجاح نفسه[61].

(61) Ancona: F. Braudel, *Civilization and Capitalism 15th-18th Century* (New York: Harper & Row, 1981) III, 480؛ لقد كان لمدينة راغوزا [Ragusa] فُنْداكو كبير منظم في منطقة مينائها في القرن الخامس عشر (Stuard, *A State of Deference*, 47-48). لقد كانت هناك فَنادق في راغوزا في نهاية الأمر منذ القرن الثالث عشر (*Liber statutorum civitatis Ragusii compositus anno 1272*, ed. V. Bogisic and C. Jirecek [Zagreb: Societas Typographica, 1904); new ed., *Statut Grada Dubrovnik, 1272* [Dubrovnik: Historijski Arhiv Dubrovnik 1990] 199). عندما وصل فيلكس فابري إلى هناك في سنوات 1480م، لاحظ بالخصوص انعدام مسكن للمسافرين ولم يذكر أي فُنْدُق .[13a] (*Evagatorium in terrae sanctae*, I, 35

فقد كان الطريق عبر البُندقيّة للوصول إلى أسواق المتوسّط الشرقيّ بالنسبة إلى التجار الألمان وغيرهم من تجار الشمال لا مَحِيد عنه. وعلى عكس ذلك فقد كان يمكن للتُّجّار والحُجّاج الذاهبين إلى الجنوب عبر مسالك تمرّ بعيداً نحو الغرب، أن يختاروا وجهتهم إمّا عبر مرسيليا أو جَنَوة أو بيشة أو غيرها وذلك بحسب ظروف الطُّرُقات والتِّجارة والسياسة. كما كان يمكن للمسافرين أن يمروا عبر فرنسا باتِّباع وادي الرون إلى المتوسّط أو عبر الممرّات الجبلية العديدة التي تؤدّي إلى بحيرة كومو «Como» وميلانو ومن هناك يمكنهم اختيار أحد الموانئ الليغورية أو التوسكانية. ولكن لا يوجد من هذه الطُّرُقات ما هو أكثر ملائمة من المرور عبر البُندقيّة.

وقد جاء تأسيس البُندقيّة لفُنْداكو الألمان من إدراكها لأهمّية موقعها التجاري والجبائي. فهي على عكس موانئ أوروبا الجنوبية الأُخرى، كانت تتمتّع في الوقت نفسه بوجود النموذج والموقع الجغرافيّ المناسب لتركيز منشأة من ذلك النوع. بالرغم من غياب الأدلّة التي تُشير بأن فُنْداكو الألمان كان منظّماً بصورة مباشرة على شاكلة فَنادق الإسكندرية فإنّ التشابه الإداري كان واضحاً إلى حدّ لا يستبعد هذا الاحتمال. وكما تمّ توضيحه فيما سبق فقد كان مطلوباً من التجار الألمان أن يمارسوا نشاطهم من خلال الفُنْداكو وعليهم أن يبقوا هناك ويخزنوا بضائعهم داخل أسواره. وقد كان المبنى على مُلْك المدينة التي تعيِّن الموظّفين وتدفع أجورهم وتتدبّر الجوانب الأمنية وتفرض حظر التجوال ليلاً. وهو ما يشبه وضع الأوروبيّين الذين كان يمنع عليهم ممارسة التِّجارة داخل البلاد بعيداً عن الإسكندرية، فقد كان ممنوعاً على التجار الألمان أن يغامروا خارج ذلك السوق والذهاب إلى المجال التجاري في البحر الأدرياتيكي وشرق المتوسّط.

تقع الفَنادق في المدينتين على حدود شَتات تجاري حيث تُجْبَر مجموعة من التجار بفعل الجغرافيا والقانون في الوقت نفسه على وضع تجارتها بين أيدي مجموعة أُخرى. فقد كانت فَنادق البُندقيّة والإسكندرية تربط ثلاث شبكات تجارية : فالتجار الألمان يتحكّمون في التِّجارة البرّيّة داخل الإمبراطورية وفي شرق أوروبا والبنادقة يطمحون إلى السيطرة على التِّجارة البحرية في شرق المتوسّط، بينما كانت التِّجارة الداخلية بين أيدي التجار المحليين من مسلمين ويهود في مصر والشام. فقد كانت كلّ من الإسكندرية والبُندقيّة في موقع جغرافيّ

يجعل منهما محطّات تجارية نهائية يلتقي فيها التجار ويتبادلون البضائع ويدفعون الضرائب ثم يعودون إلى بلدانهم. فالبنادقة والألمان كانوا يلتقون في البُندقيّة ويلتقي البنادقة والمصريون في الإسكندرية، وكانت الإمكانيات التجارية للمدينتين مستغلّة من قبل حُكّامهما. فالسلاطين المصريون وحكّام البُندقيّة قد أدركوا الفرص الجبائية التي يوفّرها التحكّم في الفَنادق لذلك أعاروا أهمّية لهذه المنشآت.

وقد برهنت على هذه الحالة الفريدة للبُندقيّة في بداية القرن الخامس عشر محاولةُ كلّ من جَنَوة وميلانو إنشاء فَنادق على شاكلة فَنادق البُندقيّة والعالم الإسلاميّ ولكنهما فشلتا لأنهما لم تكونا قادرتين أو أنهما لم تكونا راغبتين في اعتماد المراقبة المفروضة في كلّ من البُندقيّة والإسكندرية. ففي سنة 1417م توتّرت العلاقات بين الألمان والبُندقيّة بسبب الهجمات ضد دلماسيا وكان من نتائجها أن قرّر سيجيسموند [Sigismond] إمبراطور المَجَر منع التجار الألمان من التعامل مع البُندقيّة. فتراجع النشاط الألماني في البُندقيّة نتيجة لذلك ولو أنه لم ينقرض كليّاً، ومباشرة سعى التجار الألمان للبحث عن مسالك أُخرى للنفاذ إلى المتوسّط[62]. فقد وصل تجار من مدينة كونستانس «Constance» إلى جَنَوة بحثاً عن امتيازات تجارية وقد كانت جَنَوة أكثر من مَسْرُورة للاستجابة لذلك. وفي أواخر سنة 1419م زار سُفَراء من جَنَوة العديد من المُدُن الألمانية منها أوغسبورغ ونورمبرغ وميونيخ مع الوعد بضمان التعامل الصادق مع حرية الأسعار وتوفير السفن الجَنَوية لنقل البضائع الألمانية إلى الموانئ الأُخرى في المتوسّط الشرقيّ والغربي على السواء. وقد كانت هذه الامتيازات التحررية المتعلّقة بالأسعار والنقل تهدف لإبراز الفارق مع الرقابة الشديدة التي تفرضها البُندقيّة على البيع والنقل ولكنّ جَنَوة ذهبت أبعد من ذلك مندّدةً بحبس البُندقيّة للتُّجّار وبضائعهم ودوابهم في الفُنْداكو ليلاً، متعهدةً بأنّ ذلك لن يحصل في جَنَوة[63].

(62) Genoese-German negotiations in the 1420s are outlined by P. Dollinger, «Projets d'un Fondaco dei Tedeschi à Gênes et à Milan au XVe siècle,» *Byzantinische Forschungen* 12 (1987) 675-688.

(63) Aloys Schulte, *Geschichte des mittelalterlichen Handels und Verkehrs zwischen Westdeuschland und Italien mit Ausschlufs von Venedig* (Leipzig: Verlag von Duncker & Humblot, 1900) 1, 256-259.

ويبدو أنّ جَنَوة اعتمدت هذا المخطّط بما أن هناك إشارة إلى الإنفاق على الفُنْداكو سنة 1424م وتؤكّد المصادر بعد ذلك إنشاء منزل لإقامة التجار الألمان في المدينة. وقد تمّ تأجير الفُنْداكو للجالية الألمانية لقاء 80 ليرة في السنة وهو مبلغ تجمعه الديوانة (الجمارك) الجَنَوية[64].

كما طلب التجار الألمان أيضاً امتيازات تجارية من ميلانو سنة 1422م، ربّما تكون مبنيّة على علاقات المصاهرة بين عائلة فيسكونتي «Visconti» ودوقات بافاريا. فحصلوا على حقوق التمتّع بمنزل يمكنهم الإقامة فيه، بدون دفع ضرائب، مع عائلاتهم وخدمهم. كما حصلوا في الوقت نفسه على حقّ ممارسة قضائهم فيما بينهم ما عدا جرائم القتل[65]. وتعكس مثل هذه الحقوق القانونية ما كان معمولاً به في فَنادق الجاليات الأجنبية في العالم الإسلاميّ ولكنّها لم تكن مضمونة للتُّجّار الألمان في البُندقيّة.

وعلى الرغم من هذه الامتيازات الواسعة التي قُدّمت للتُّجّار الألمان في كلّ من جَنَوة وميلانو، فقد أدّت إعادة فتح سوق البُندقيّة أمام التجار الألمان سنة 1430م إلى إعاقة تطوّر الفَنادق الألمانية الأُخرى فيما بعد في شمال غرب إيطاليا. فقد استمرّت بعض النشاطات التّجارية، خاصّة تلك التي تهمّ التجار الراغبين في الذهاب إلى أسواق غرب المتوسّط، فأعاد التجار الألمان طلبهم في الحصول على امتيازات في جَنَوة سنة 1466م وميلانو سنة 1472م. وقد كانت هذه الفترة بالذات هي فترة تَزايَدَ فيها النشاط عبر فُنْدُق الألمان بالبُندقيّة بسرعة فائقة مِمّا تطلّب توسيع المنشآت وزيادة عدد المشتغلين في الفُنْداكو. ولكن رغم أنّ التوثيق يُشير إلى القوانين الصارمة التي تتعلّق بالفُنْداكو وإلى تكرار شكاوى التجار الألمان من عدم ملاءمته ومن الضرائب والقواعد فقد كان نظامه ناجحاً.

فمع كلّ هذه القيود، فإنّ الموقع الجغرافيّ للبُندقيّة ومزاياها التجارية يفوقان السياسة التحررية التي انتهجتها كلّ من جَنَوة وميلانو. وتُشير إعادة بناء فُنْداكو

---

(64) Dollinger, " Projets," 684.

(65) Noto, (ed.). *Liber datii mercantie*, 1; Dollinger, " Projets," 682-683.
لم تكن المُنْشأة في ميلانو تسمّى بصورة خاصّة فُنْداكو رغم التشابه الإداري. ولم يكن واضحاً ما إذا كان الألمان قد حصلوا على ذلك البيت في ميلانو.

الألمان وتوسيعه بعد حريق سنة 1505م إلى تواصل نموّ التِّجارة الألمانية في البُندقيّة رغم التحولات الاقتصادية والسياسية التي جدّت على الساحة العالمية: ازدياد النفوذ العُثماني، توحيد الإمبراطوريتين الإسبانية والجرمانية من قِبَل أسرة الهابسبورغ واكتشاف الطُّرُقات البحرية نحو الهند والعالم الجديد. وكما يوضح مثال فُنْداكو الألمان أن نجاح الفُنْداكو ووظيفته كمكان منظَّم للوساطة في مستوى التِّجارة الدولية وبين التجار هو رهين ظروف جغرافية واقتصادية وسياسية معيَّنة. فبوضعها في الظروف المناسبة يمكن للفَنادق أن تلعب دوراً هامّاً كنقاط التقاء تجاري لمختلف الجاليات التجارية وكبوابة للتثاقُف. لم يكن التجار الألمان الذين يمارسون نشاطهم في البُنْدقية وحدهم المستفيدين، بل أيضاً التجار غير المسيحيين الذين كانوا يرغبون بالوصول إلى مرافئ وأسواق في أوروبا الجنوبية، وقد استفادوا جميعاً من مزايا دَوْر الفُنْداكو كمركز (قلب) التي فاقت التقييدات الحقيقية التي فرضها (الفُنْداكو).

فَنادق التجار غير المسيحيين

إنّ عدد التجار المسلمين الذين زاروا الأسواق المسيحية خارج شبه الجزيرة الأيبيرية خلال العصر الوسيط المتأخر كان قليلاً، ولم تكن هناك فَنادق خاصّة بهم في مَرْسيليا وجَنَوة وفلُورنسا وغيرها من الموانئ الأوروبية في غرب المتوسّط. وكما سنرى، فقد كانت مَرَّة أُخرى الموانئ القَطَلانيّة ـ الأراغونية وموانئ الأدرياتيك حالة استثنائية. وتبدو أسباب غياب التجار المسلمين في أغلب موانئ جنوب أوروبا معقّدة، ودائمة التغيُّر. فممّا لا شكّ فيه أنّ العوامل الاقتصادية كانت هامّة، فقد كانت المسافات البعيدة لا تتناسب مع الرغبة في البضائع الأوروبية والإسلامية خاصّة وأن التجار المسيحيين ـ والسفن المسيحية ـ قد فرضوا هيمنتهم على المسالك التي تؤدّي إلى ما وراء المتوسّط خلال القرن الثالث عشر بجلبهم للبضائع وممارستهم للتِّجارة عبر الموانئ الإسلامية. كما أنّ العوامل اللوجستية والثقافية والدينية قد لعبت دوراً، مع غياب مقرّات إقامة مناسبة للتُّجّار المسلمين وغياب غيرها من المُنْشآت في جُلّ الموانئ المسيحية ـ في عدم تشجيعهم على السفر والمتاجرة في تلك الأسواق. إلّا أنّ هذه الاعتبارات لم تكن عامّة ولم يكن من الصعب تخطّيها.

لماذا لم تكن هناك فَنادق للتُّجّار المسلمين في أغلب الموانئ الأوروبية؟ فبغضّ النظر عن كلّ ذلك فقد كان معترفاً بالفَنادق على أنها مُنْشآت تسهِّل التِّجارة عبر الثقافات المختلفة وكانت موجودة كذلك في بعض الجهات (مملكة الأراغون والبُندقيّة) حيث أثبتت فوائدها وجدواها الاقتصادية. فالجواب عن ذلك يأخذ في الاعتبار التدرُّج الزمني والمنافسة والطبوغرافيا. فالنمط كان قائماً بالفعل منذ بداية العصر الوسيط حيث قلَّما زار التجار المسلمون الموانئ الفرنسية أو الإيطالية حتى قبل هيمنة البحرية المسيحية على المتوسّط.

فليس هناك على ما يبدو ما من شأنه أن يستهوي التجار المسلمين للذهاب إلى أوروبا لكنّ هناك عَدَداً من العوامل ـ بما فيها انعدام الرغبةِ والمُلاءَمةِ ـ لإبعادهم. فباستثناء المناطق التي استولى عليها المسيحيون لم تكن هناك فَنادق في أوروبا اللاتينية إلى حدود القرن الثاني عشر ولم يكن التجار المسلمون يجدون المُنْشآت التي تلبّي حاجاتهم في السكن الجماعي وممارسة الدين والتقاليد القانونية والغذاء. وفي الفترات اللاحقة دخل مفهوم الفُنْداكو في الذهنية الأوروبية مع تطوّر النفوذ التجاري المسيحيّ ولكنّ هذه الثورة التجارية قد أنشأت المنافسة. ولم يكن مرغوباً في التجار المسلمين في الموانئ المسيحية إلّا إذا كان نشاطهم وتحركاتهم تحت الرقابة المشدّدة. وفي المناطق القليلة التي كان فيها ذلك ممكناً، إما حيث تمتزج الظروف بالتقاليد القديمة كما هو الشأن في ممالك الأراغون وإما حيث توجد المزايا الجغرافية مثلما هو الشأن بالنسبة إلى البُندقيّة، ظهرت فَنادق منظّمة قابلة لاحتضان التِّجارة الإسلامية. فقد كانت هذه المنشآت توازن بين احتياجات الحكومات المحلية والتجار من جِهَة ومتطلبات التجار الأجانب من جِهَة أخرى. وفي مناطق أُخرى خاصّة في جنوب فرنسا وشمال غرب إيطاليا، حيث لم يكن هناك حضور إسلاميّ تقليدي ولا ظروف طبيعية مناسبة لتوجيه التِّجارة وحمايتها، لم تتطوّر الفَنادق كمُنْشآت للتِّجارة العابرة للثقافات.

ففي ممالك الأراغون وُجدت فَنادق خاصّة لإسكان التجار والمسافرين المسلمين منذ غزوات جيمس الأوّل في القرن الثالث عشر وهي تؤكّد إلى أيّ مدى يمكن اعتبارها محطّات للوساطة التجارية والتفاعل الثقافي. فقد ازدهرت الفَنادق في الأحياء الإسلامية بِبَلَنْسية وغيرها خلال القرنين الرابع عشر والخامس

عشر واعتباراً لما توفّره من دخل هامّ للخزينة المَلَكِيّة فقد ساهم ذلك في تواصل حمايتها بشكل رسمي ووضعها تحت نظر السُّلطة. وقد كانت هذه الفَنادق المَلَكِيّة تؤجّر عادة لمدّة سنتين أو أربع سنوات وما انفكّ كراؤها (وقيمته) يتزايد عبر الزمن[66]. وسمح الاحتكار المَلَكي للأحياء الإسلامية في كلّ من بَلَنْسية وشاطِبة وسَرَقُسْطة وغيرها من المُدُن الأُخرى، للملك بأن يقرر أنه على أيّ مسلم أجنبي يؤمّ تلك الأسواق، أن يقيم في الفُنْدُق وأن يدفع ما عليه من الرسوم. وقد استثنى من ذلك الأسياد المسلمين وكذلك كلّ من كان له أهل في مدينة ما من المُدُن[67]. وقد تمّ اعتماد النظام نفسه بعد استيلاء فرديناند وإيزابيلا على غَرْناطة بإنشاء الهُنْدِقا الخاصّة بالزوّار من المسلمين سنة 1498م[68]. ويبدو أنه قد تمّ اعتماد هذا النموذج على منوال الفَنادق التي كانت موجودة في الممالك الأراغونية القَطَلانيّة تحت تأثير الملك فرديناند نظراً لأن هذا النظام لم يكن معهوداً في المُدُن القَشْتالية.

قد كانت الفَنادق والأحياء الإسلامية في القرن الخامس عشر في ممالك الأراغون معروفة جيّداً على أنها مواقع السُّكْرِ والقمار والدّعارة وكلّ ما كان تحت نظر الملك ويحتاج إلى ترخيص مُسبق مقابل أداءات محددة. وتعني جاذبية هذه الأنشطة أنّ الفَنادق قد أصبحت أماكن يؤمّها المسيحيون والمسلمون معاً ليس للتّجارة فقط وإنما كذلك من أجل السُّكْرِ والقمار والجنس[69]. ففي سنة

---

(66) F. Vendrell Gallostra, (ed.). *Rentas reales de Aragón de la época de Fernando I (1412-1416)* (Barcelona: Instituto Universitario de Estudios Medievales, 1977) 20, 34, 41-42, 50, 57, 60; Meyerson, *Muslims of Valencia*, 154-155, 286.

(67) Barceló Torres, *Minorias islámicas*, 97; Meyerson, *Muslims of Valencia*, 155.

(68) Manuel Espinar Moreno, «Del urbanismo musulmán al urbanismo Cristiano. II: Andalucía oriental," in *Ponencias y comunicaciones* (Zaragoza: Institución Fernando el Católico, 1991) 229-230.

ما تبقّى من الجالية الإسلامية في المدينة نُفِيَ إلى ضاحية ألبَيّسين [Albaicin].

(69) Meyerson, *Muslims of Valencia*, 49, 155, 227. Also M. Meyerson, "Prostitution of Muslim Women in the Kingdom of Valencia: Religious and Sexual Discrimination in a Medieval Plural Society," in *The Medieval Mediterranean: Cross-Cultural Contacts*, ed. K. Reyerson and M. Chiat (St. Cloud, MN: North Star Press, 1988) 87-89, 91.

1495م اشتكت الجالية الإسلامية بشاطبة من أنه بعد تجديد الفُنْدُق "أصبح الشُّبّان المسيحيون يتسلّلون إلى الفُنْدُق عبر إحدى نوافذه ويقضون الليل في الحيّ الإسلاميّ"[70]. ونتيجةً لمثل هذه الأنشطة أصبحت سُمْعة الفُنْدُق سيِّئة وصار يَبْرُز باستمرار في سجلّات المحاكم البَلَنْسية كمكان للخصومات والانحراف الأخلاقي.

لم تكن هذه الحالة شاملة إذ لا يزال يُنْظَر إلى الفُنْدُق كمكان محترم للإقامة. ففي سَرَقُسْطة مثلاً كان على المسلمين الذين يذهبون بصحبة عائلاتهم إلى المدينة للعمل هناك أن يُسكنوا بناتهم في الفُنْدُق لِعَزْلِهِن "حتى لا تُساء معاملتهن ويُجْبَرن على الزواج" مثلما يبدو ذلك في فتوى تعود إلى سنة 1496م[71]. وقد يكون الفُنْدُق نفسه في سَرَقُسْطة الذي كان كراؤه قد وهبه ملك الأراغون فرديناند الأوّل لراهبات دير بِرَمان «Peramán» في بداية القرن الخامس عشر[72]. فمن المؤكّد أنّ هذه المِنْحة تبدو في غير محلّها لو كان الفُنْدُق معروفاً بأنشطة محرّمة.

من الممكن كذلك أن تكون الموانئ الأدرياتيكية قد أنشأت فَنادق من أجل الزوّار المسلمين ولكن ليس قبل سقوط القُسْطَنطينية سنة 1453 وبداية النشاط الدبلوماسي والتجاري العُثْماني في شرق المتوسّط. فقد أنشأت مدينة أنكونا فُنْداكو سنة 1514م لفائدة "التجار الأتراك وغيرهم من المسلمين" وبعد قرن من الزمن أُنشئ فُنْداكو الأتراك في البُندقيّة ليسكنه التجار القادمون من الإمبراطورية العثمانية. وربّما وُجد فُنْداكو للتُّجّار المسلمين بالبُندقيّة قبل ذلك ولكن لم يبقَ أيّ أثر لهذه المُنْشأة[73]. وبالرغم من الخروج عن الإطار الزمني لهذه الدراسة فإن

= بالرغم من أنَّ هذه الأنشطة تذكِّر بالبغاء الذي كان موجوداً في البَنْدوكيونات القديمة، فإنَّ هذا يبدو من التطوُّرات الجديدة في ممالك الأراغون انطلاقاً من القرن الثالث عشر.

(70) Meyerson, *Muslims of Valencia*, 156.

(71) Meyerson, *Muslims of Valencia*, 250.

(72) Vendrell Gallostra, (ed.). *Rentas reales*, 72. بِـرَمـان [Peramán] وهـو ديـر فـي بِنْسِكي، [Pinseque] وكان قد انضمَّ إلى دير سانتا إيناس [Santa Inés] في سرقسطة سنة 1406م، أشكر بريان كاتلوس [Brian Catlos] على هذه المعلومة.

(73) Braudel, *Civilization and Capitalism*, III, 480; Agostino Sagredo, *Fondaco dei Turchi in Venezia* (Milan: Stabilmento di Giuseppe Civelli, 1860) 25.

حول الهندسة المِعْمارية لهذه المنشأة بالبُنْدقية، انظر: =

إنشاء فُنْداكو الأتراك بعد انتصار البُندقيّة في معركة ليبانتو «Lepanto» سنة 1571م، يشير إلى تواصل المقدرة الاقتصادية والسياسية للبُندقيّة الحديثة في البواكير للاستفادة من نموذج الفُنْداكو المُنْفصل (العازل).

فمثلما كان فُنْداكو الألمان، ومثلما كانت الفَنادق المعاصرة له في العالم الإسلاميّ، فقد تمَّ تطبيق حظر التجوال ليلاً بالنسبة إلى فُنْداكو الأتراك مع الإلحاح على أن يظلّ جميع التجار الأتراك داخل أسوار الفُنْداكو مع بضائعهم. وهناك تأكيد خاصّ على الخصوصية والتفرقة مع الاحتياط بأن لا تطلّ على فناء الفُنْداكو المباني المجاورة. ولم يكن مسموحاً بالسلاح داخل المبنى ولا أية "امرأة ولا أيّ أمْرَد من المسيحيين"[74].

لم يكن التجار المسلمون وحدهم الذين يحتمل أن يكونوا "أجانب" في مُدُن جنوب أوروبا. فقد كانت المواقف تجاه الجاليات اليهودية المحلية والزوّار من اليهود تؤكّد هي أيضاً على الفصل من خلال الأحياء الخاصّة ومقرّات الإقامة ولو أنها لم تكن تُسمّى فَنادق. فعندما سافر بنيامين التُّطَيْلي عبر السواحل المتوسّطية في أواخر القرن الثاني عشر كان ضيفاً على أبناء الجاليات اليهودية في المُدُن التي مَرَّ بها. ولكنْ كانت هناك دُوْرٌ خاصّة باليهود العابرين في أواخر العصر الوسيط وبداية الفترة الحديثة. يذكر نصّ يعود إلى سنة 1328م وجود مقرّ للإقامة المؤقّتة في الحيّ اليهوديّ بطَرْطوشة ويوجد مثله في مدينة بولونيا الإيطالية في بداية القرن التالي. كما كان يوجد فُنْدُق لليهود بميلانو سنة 1575م حيث يمكن لليهود الذين يزورون المدينة، أن يقيموا به لمدّة تصل إلى

= J. Schulz, "The Original Appearance of the Fondaco dei Turchi at Venice," *Abstracts of Papers delivered in Art History Sessions* (Los Angeles: College Art Association of America Annual Meeting, 1977) 27.

ربما كانت هناك مُنْشآت خاصّة بإقامة التُّجّار المُسلمين في البُنْدقية على مر الزمن، انظر: Concina, *Fondaci*, 219-246; Alethea Wiel, «The Demolition of the Warehouse of the Persians in Venice,» *Burlington Magazine* (1980) 221-222; Auld, "Commercial Interchange," 93.

(74) إنَّ التنظيمات التي وُضِعَت من قِبَل تشنكوي سافي ألّلا مركانتسيا [Cinque Savi alla Mercanzia] (الحُكماء الخمسة للسوق) في أيار/مايو 1621م، قد تُرْجِمَت ضمن Chambers and Pullan (eds.), *Documentary History*, 350-352.

ثلاثة أيام[75]. وقد كانت اليقظة التي تتميّز بها إدارة مدينة البُندقيّة واضحة فيما يتعلّق باليهود المقيمين بها. كان مسموحاً لقلّة من اليهود أن يعيشوا في البُندقيّة قبل القرن الرابع عشر، ولو أنه كان مسموحاً لهم بالقيام ببعض المعاملات لفترة وجيزة داخل المدينة. ولكن يبدو أنه في القرن الخامس عشر كان هناك عدد من اليهود يسكنون المدينة وازداد عددهم بصورة كبيرة بعد طرد اليهود من إسبانيا سنة 1492م. وللتحكّم في هذا التدفُّق، اتّبعت البُندقيّة سياسة الفصل السَّكَني التي كانت موجودة بالنسبة للجاليات الأصيلة في المدينة في ما وراء البحار مثلما كان موجوداً في كانديا حيث يسكن اليهود في حيّ خاصّ بهم يُطلق عليه اسم اليهودية «Judaïca». وقد وفّر الحيّ اليهوديّ الجديد «Ghetto Nuovo» الذي أُنشئ بالبُندقيّة سنة 1516م فضاءً سكنيّاً منفصلاً لفائدة الجالية اليهودية التي ما فتئ عددها يتزايد[76]. وكما كان الشأن بالنسبة إلى فُنْداكو الألمان الذي أُعيدَ بناؤه وتمّ توسيعه على إثر حريق 1505م، سمح الحيّ اليهوديّ الجديد بتوفير إقامة منظّمة لجالية تحت نظر إدارة البُندقيّة التي كانت تسمح لهذه الجالية بالنشاط وبالاحتفاظ بمفاتيح الحيّ لديها. وعلى عكس الفُنْداكو فقد كان الحيّ اليهوديّ يستضيف المقيمين الدائمين بدلاً من العابرين ولكن كلا المؤسّستين (الحي اليهوديّ والفُنْداكو) تخضعان لاهتمام السُّلطة بتنظيم ومراقبة حضور «الآخرين» داخل مجال جزيرتها.

الفُنْداكو: مركز تجاري ومخزن

لقد كانت كلّ الفَنادق في مختلف جهات أوروبا المتوسّطية تسير على مِنْوال النمط الأصلي الذي وجده الحكّام والتجار الأوروبيّون في الموانئ الإسلامية أو في المُدُن الإسلامية التي استولوا عليها ثم تطوّرت لتستجيب لحاجات جِبائية

(75) Antoni Rubio y Lluch, *Documents per l'historia de la cultura catalana mig-eval* (Bercelona: Institut d'Estudis Catalans, 1980) 88 (doc. 71); W. Baron, *The Jewish Community, its History and Structure to the American Revolution* (Philadelphia: Jewish Publication Society of America, 1945) 11, 11 (Baron translates the Hebrew *maḥanot* as *fondachi*); Hirschberg, *History of the Jews in North Africa*, 474; Shlomo Simonsohn, *The Jews in the Duchy of Milan* (Jerusalem: Israel Academy of Sciences and Humanities, 1982) III, 1609-1610 (doc. 3658).

(76) Jacoby, "Venice and the Venetian Jews," 30, 37-38.

وتجارية متنوّعة. وعلى عكس المُنْشآت التجارية التي تمّ التعرّض إليها سابقاً، فقد كانت أغلب الفَنادق التجارية الأوروبية مُنْشآت معدّة لخزن البضائع ومراقبتها أكثر منها لمراقبة الناس. وتربط أغلب المصادر بين الفُنْداكو التجاري والمال والسلع والعمليّات التجارية وليس بالجاليات التجارية وسكنها.

فقد برز في أوروبا صنفان أساسيان للفُنْداكو التجاري في النصف الثاني من القرن الثالث عشر: يتمثّل الصنف الأوّل في مستودعات تسيّرها سُلطة أو مدينة وهي عادة ما تعمل على تطبيق الضرائب أو احتكار بعض المواد والثاني يتمثّل في فَنادق يمسكها بعض التجار أو الشركات التجارية. وفي كلتا الحالتين أصبحت الكلمة التي تعني المَبْنَى في شكله المادّي تُطَبَّق مجازيّاً على مفاهيم أكثر تجريدية مثل إدارة جمع الضرائب على مواد معيّنة أو فرع من فروع إحدى الشركات أو دفتر محاسبة. يوحي هذا التنوُّع والمُرُونة في الاستعمال أنّ التجارب الجارية دعمت التطوّر السريع للفُنْداكو في إطاره الأوروبيّ الجديد.

الفَنادق الرسميّة والاحتكارات المَلَكِيّة

كانت الفَنادق الأوروبية مثلما هو موجود في العالم الإسلاميّ نقاطاً مناسبة لمراقبة الأسعار والتوزيع، وقد كان الكثير منها مرتبطاً بنوع معيّن من السلع أهمّها الحبوب والملح والزيت والحديد والمنسوجات في حين كان البعض منها يوفّر فضاءً عاماً لبيع الجُمْلة. وتوجد الفَنادق المرتبطة بالاحتكارات المَلَكِيّة في المناطق التي كانت في السابق تحت نفوذ المسلمين في كلّ من إسبانيا وصِقِلِّية وكذلك في جنوب إيطاليا. ففي سنة 1317م، مثلاً وجّه روبير ملك نابولي «Napoli» (1309-1343م) مذكّرة في هذا المضمار إلى المُشرفين على فنادق الدولة[77]. وفي قَشتالة بعد الاستيلاء على مالقة بقليل سنة 1487م اعتمد فرديناند وإيزابيلا مِثال سابقيهما فرديناند الثالث وجيمس الأوّل ووضعا الهُنْدِقا الرئيسية (والتي قد تكون بالفعل مستودع المدينة للحبوب) ومركز الديوانة (الجمارك) تحت

(77) A. Zambler and F. Carabellese. *Le Relazioni commerciali fra Puglia e la Repubblica di Venezia dal secolo X al XV*, [1898] new ed. Bologna: Arnaldo Forni, 1991) 135-136 (no. 49).

السُّلطة المَلَكِيّة[78]. وربّما كانت المُدُن-الدول تشرف هي أيضاً على الفَنادق التجارية. وقد نشأت هذه الفَنادق التجارية في كلّ من بيشة وجَنَوة والبُندقيّة وراغوزا وفي موانئ أُخرى كان فيها التجار والسُّلطات الحَضَريّة قد تعودوا مثل هذه الممارسات في الموانئ الإسلامية. وقد كان أحسن مثال من هذا النوع من المُنْشآت التي تتوافر حولها كثير من المعلومات في بورتو بيزانو «Porto Pisano» الذي تتجمّع فيه المواد العديدة التي تَرِد إلى بيشة وهو دائم الحضور في مداولات المدينة منذ أواخر القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر[79].

تُبيِّن التنظيمات التي تتعلّق بهذه المنشآت الخاصة والعامّة أنّ الخصائص الجوهرية للفُنْدُق التجاري الإسلاميّ قد اعْتُمِدَتْ في الاستعمال المسيحي. فقد كانت الفَنادق في جنوب أوروبا مستودعات معدّة لاستقبال المواد المستوردة والمواد التي تُجلب من المناطق المجاورة أو من مناطق بعيدة لخزنها قبل البيع. وقد كانت الفَنادق في حالات عديدة تُنْقَل إليها المواد الخام قبل تحويلها مثل الحبوب لطحنها وإعداد الطحين للخُبْز والحديد للتطريق والصوف للغَزْل والصباغة. وتعدّ أغلب المعاملات في هذه المواقع مُبادلات بالجُمْلة بين التجار أنفسهم أو بين التجار وممثّلي السُّلطة ولا يوجد فيها بَيْع بالتفصيل (بالمُفَرَّق). وبالفعل كان البيع بالتفصيل في كثير من الأحيان ممنوعاً صراحة. ففي بيشة سنة 1305م كان يُمْنَع على أيّ مُشرف على فُنْداكو للمنسوجات "أن يسمح ببيع أيّ سلعة بالمفرَّق أو بالقطعة" في مُنْشآته[80]. وقد وصف بوكاتشيو «Boccaccio»

---

(78) Francisco Bejarano Robles, (ed.). *Los Repartimientos de Málaga* (Málaga: Universidad de Málaga, 1985) 101.

(79) ذكر باولينو بييري [Paolino Pieri] في تاريخه أنه في سنة 1291م هاجمت الجيوش الجَنَوية والفلورنسية بيشة وميناءها فدمرت منطقة الميناء بما في ذلك الفُنْداكو (Paolino Pieri, *Cronica di Paolino Pieri Fiorentino delle cose d'Italia dall'anno 1080. fino all'anno 1305*, ed. A. F. Adami [Rome: Stamperi di Giovanni Zempel, 1755] 54).

(80) Bonaini, (ed.), *Statuti*, 111, 102. كانت هناك تفرقة مماثلة في مملكة نابولي سنة 1450م بين بيع الحديد بالمفرَّق والبيع في الفَنادق المَلَكِيّة (J.Ametller y Viñas, *Alfonso V de Aragón en Italia y la crisis religiosa del siglo XV* [Gerona: P. Torres, 1903] 690 [art. 17]).

بصورة جيّدة نشاط هذه الفَنادق الرسمية التي كان يعرفها لأنه عمل في شبابه صانعاً في إحدى الشركات التجارية بمدينة نابولي في سنوات 1330م:

"اقتضت العادة، وربّما لا تزال مستمرة، أن كلّ تاجر في أيّ ميناء من موانئ البلدان المحاذية للبحر عندما يصل ببضاعته ويفرغ حمولته، عليه أن يحملها إلى الفُنْداكو الذي يُسمَّى في أماكن عديدة ديوانة وهو تحت إشراف سُلطة المدينة أو أيّ سُلطة رسمية. وبعد تقديم جَرْد مكتوب للحمولة وقيمتها للمسؤولين يُعطى مخزناً حيث توضع بضاعته تحت القفل والمفتاح. وبعد ذلك يسجّل المسؤولون كلّ التفاصيل في دفاترهم تحت اسم التاجر المعني بالأمر كلما حلّ التاجر أو نقل بضاعته كليّاً أو جزئيّاً يطالبونه بدفع ما عليه من الرسوم. وبالرجوع إلى هذه الدفاتر يتمكّن السماسرة في أغلب الأحيان من معرفة كمّية البضائع المخزونة في الديوانة (الجمارك) وقيمتها وعلى اسم صاحبها. وعندما تتوفّر فرصة مناسبة فإنهم يتصلون بالتجار ويسعون للمقايضة أو المُبادلة أو البيع أو التخلّص من بضائعهم"[81].

وعلى الرغم من الطابع الروائي الخيالي لقصة بوكاتشيو، فإن روايته مؤكّدة بالقوانين المَدِينية المعاصرة وغيرها من الوثائق، وكلّها تروي بروتوكولاً مماثلاً بالتفصيل. ففي بداية القرن الرابع عشر مثلاً، كان يحق لكلّ سفينة تجارية تصل إلى بورتو بيزانو (ميناء بيشة) الحصول على مفتاح دُكّان أو مخزن في فُنْداكو المدينة ويكون من واجب كاتب السفينة أو غيره من الموظّفين أن يُعيده فيما بعد، قبل رحيل السفينة، حتى يتسنّى تخصيص الفضاء لسفينة أُخرى[82].

---

(81) Boccaccio, *Decameron*, Eighth day, tenth story, 4-6, II, 348, trans., 666-667.
حول تتلمُذ بوكاتشيو كصانع في نابولي، انظر: V. Branca, *Boccaccio. The Man and his Works* (New York: New York University Press, 1976), 16-27. حين كان في نابولي، فإنّ بوكاتشيو ربما كان يقيم في الفُنْداكو الفلورنسي (*ibid.*, 16-17). الدوغانه، مثل الفُنْداكو كانت كلمة (من الديوان) مشتقّة من العربية. فالديوان العربي مؤسّسة لمراقبة البضائع وجمع الضرائب وغيرها من المُكُوس الأُخرى، كان يتداخل مع بنية الفُنْدُق/الفُنْداكو في الموانئ الإسلامية، فلا يُسْتَغْرَب تداخل الكلمتين في الإطار المسيحي.

(82) Bonaini, (ed.), *Statuti*, III, 427. مثلما هو الشأن في فُنْداكو الألمان بالبُنْدقية، يحدّد الموظّفون في بيشة مفاتيح وفضاءات معيّنة في الفُنْداكو ولا يسمحون للتُّجّار الغائبين بالاحتفاظ بحقوقهم في غُرَف أو في دكاكين معيّنة.

كانت السُّلطات المَلَكِيّة والمدنية مهتمّة بانتقال البضائع التجارية وليس ذلك من باب الاهتمام الجِبائي فقط، حيث الإمكانيات المالية هامّة، ولكن كذلك من جانب الاهتمام بتوفير الاحتياجات العُموميّة وتعديل الأسعار خاصّة عند حدوث مجاعة أو نقص في المواد ومراقبة التحرُّك المحتمل لنقل المواد العسكرية. فقد لا يكون مستغرباً أن نجد أنَّ المواد الغذائية الهامّة (الحبوب والملح والزيت وغيرها) والمعادن (الحديد والفولاذ والنحاس) والمنسوجات الهامّة بالنسبة إلى الاقتصاد المحلّي (الصوف والحرير) كانت أهمّ المواد التي تمرّ عبر مراقبة نظام الفُنْداكو مثلما كان الحال في العالم الإسلاميّ بالضبط. فقد ظلّ هذا النموذج موجوداً في الفَنادق الأوروبية خلال العصر الوسيط المتأخّر. وكانت تصل إلى الفَنادق مجموعة هامّة من المواد الأُخرى ولكن قليلاً ما تكون ضمنها مواد ثمينةٌ مثل التوابل والعقاقير أو المعادن الثمينة التي يرد ذكرها في علاقة مع هذه المُنْشآت الرسمية.

الحديد والملح

في صِقِلّية وجنوب إيطاليا يمكن أن يُباع الحديد والملح والقَطْران والأصباغ وبعض المواد الأُخرى من خلال الفَنادق المَلَكِيّة أو، في بعض المُدُن الأُخرى، من خلال بعض الفَنادق التي تمتلكها مجموعات معيَّنة من التجار[83].

---

(83) لقد كانت فَنادق البنادقة في أبوليا كأمثالها في صقلية وجنوب إيطاليا تُستعمل للإقامة وخزن السلع وبيعها. وقد نصَّت التنظيمات المتَّخَذة سنة 1347م فيما يتعلّق بفُنْداكو البنادقة بمدينة تْراني [Trani] "أنه لا يحق لمواطن من مدينة تراني أو غيره من دون البنادقة أن يقيم في الفُنْداكو المذكور ولا يكون له بيت أو مخزن في ذلك الفُنْداكو ما لم يكن بُنْدقيّاً، باستثناء العاملين في الفُنْداكو المذكور، وكذلك يُستثنى بيت البلدية المخصَّص عادة للأجانب ومن غير شكّ باستثناء بيوت ومخازن القبالة المَلَكِيّة الخاصّة بالحديد والملح ومواد الصباغة
(Zambler and Carabellese. *Relazioni commerciali*, 136-152 [no. 50]).
وقد تواصل حقّ البنادقة في استعمال الفَنادق في نابولي وتراني خلال سنوات 1450م، انظر:

(Alfonso I of Naples), *Diplomatico aragonese Re Alfonso I (1435-1458)*, ed. Eustacio Rogadeo, Codice diplomatico barese, II (Bari: Vecchi, 1931) 238-239, 258-259; (Alfonso I of Naples), *Il "Codice Chigi". Un registro della Cancelleria di Alfonso I d'Aragona, re di Napoli, per gli anni 1451-1453*, ed. J. Mazzdeni (Naples: L'Arte Tippografica, 1965) 100-102, 163-164.

ففقد كان الملح هاماً بصورة خاصّة لأنه حافِظ للسمك واللحم، وقد كانت هناك فَنادق للملح في بيسكارا «Pescara» وبارلِتّا «Barletta» ولوشيرا «Lucera» ومنفريدونيا «Manfredonia» وترمولي «Termoli» وباري «Bari» وفي مُدُن أُخرى. كما كانت هناك مستودعات للحديد بنابولي وغايتا «Gaeta» وتْراني «Trani» ومنفريدونيا وبالِتّا ومِلفي «Melfi» فضلاً عن وجود مُنْشآت أقلّ تخصّصاً لمواد عامّة[84]. وقد كانت الفَنادق واحتكاراتها تحت نظر مسؤولين مَلَكِيِّين يُعرفون باسم الكُتّاب «*secreti*» ويُشْرِف على سَيْرها اليومي مُشْرِفون على الفَنادق «*dohanerius, fondicarius*». وتفيد الإشارات المُتكرِّرة في المصادر إلى المفاتيح إلى أهمّية عمليّة دخول الفُنْدُق والمسألة الأمنية المتعلّقة بذلك. وفي كلّ الفَنادق يتمّ دفع الرسوم على شكل ضريبة الثُّلْث «*terzaria*» أو المُكُوس إلى السُّلطة المَلَكِيّة عند البيع. وتمثل ضريبة الثلث (وهي ثُلْث قيمة البضاعة) الفارق بين ما دفعته السُّلطة المَلَكِيّة لاقتناء الحديد (عادة 4 دوقات في القنطار) وسعره (وهو 6 دوقات) في الفُنْداكو المَلَكي. وزيادة الـ 50 بالمئة هذه كانت تُطبَّق على بقية المواد الخاضعة للاحتكار المَلَكي مثل الفولاذ رغم أن بعض المواد كانت توفّر ربحاً منخفضاً[85]. في حين تتمثّل القبالة أو حقّ الفُنْداكو في ضريبة محدَّدة بنسبة 3 بالمئة من قيمة البضاعة عند البيع وهي موظّفة على جُمْلة كبيرة من المواد. ففي بداية عهد جوانا الأولى Joanna (1343-1382م) مثلاً كان التجار البنادقة يدفعون ضريبة حقّ الفُنْداكو على الزَّيْت واللَّحْم المُمَلَّح والجُبْن وشَحْم الخِنْزِير وغير ذلك من المواد التي كانت تُباع داخل الفُنْداكو أو تُوزَن بموازينه[86]. يرى بيغولوتي (كان يكتب ما بين 1310-1340م) أنه إذا أراد تاجر من أبوليا «Apulia» أن يصدّر الزَّيْت أو مواد أُخرى، يتفاوض في الفُنْداكو

(84) (Alfonso I of Naples), *Diplomatico aragonese*, 171-174, 176-182, 236-238, 371-372; (Alfonso I of Naples), *Il "Codice Chigi"*, 54-55, 81-82, 262-263.
لقد كانت تجارة الملح كذلك منظّمة منذ عهود الملوك السابقين بما في ذلك فريدريك الثاني وشارل دانجو.

(85) Alan Ryder, *The Kingdom of Naples under Alfonso the Magnanimous. The Making of a Modern State* (Oxford: Clarendon Press, 1976) 357.

(86) Zambler, and Carabellese. *Relazioni commerciali*, 136-152 (no. 50).

أو في المكان الذي ترك فيه بضاعته ويدفع معلوماً معيَّناً لإخراجها من هناك[87]. فقد كانت كلمة قبّالة مُسْتَعملة أيضاً للحصول على حقّ جمع الضرائب. وبما أن الضرائب على بعض المواد توفِّر مبالغ ضئيلة، فقد كانت السُّلطة المَلَكِيّة تؤجّر حقّ جمع الضرائب سنويّاً إما بالنسبة إلى مادّة مفردة أو إلى مجموعة من المواد. وفي صورة عدم توفّر عروض مُناقَصة معقولة للحصول على حقّ جمع القبالة فإن الكُتّاب المَلَكيين ينطلقون لجمع مختلف القَبالات من الفَنادق المحلّية وغيرها من المصادر[88]. كانت إدارة الفَنادق المَلَكِيّة المعدّة لبيع وتوزيع الحديد والملح مختلفة قليلاً في القرن الخامس عشر في عهد ألفونس الشهم عما كانت عليه في القرن الثالث عشر في عهد فريدريك الثاني. ولكن كان هذا إلى حدّ ما نتيجة إحياءً أكثر منه استمرارية. ففي الفترة الفاصلة في عهد الأنجوفيين كان قد تمّ الاستيلاء على احتكارات عديدة كانت تابعة للسُّلطة المَلَكِيّة من قِبَل القوى العديدة الأُخرى وخاصّة النبلاء. فعمل ألفونس الشهم على القضاء على هذا التعدي وطلب سنة 1446م أن يثبت النبلاء حقوقهم في جمع الضرائب المتعلّقة بالحديد والقَطْران والفُولاذ التي تُباع في ضياعهم[89]. ومن بين الأشياء الأُخرى فقد أراد ألفونس أن يراقب هذه المداخيل لصرفها في أغراض أُخرى كتوفير ربع مداخيل الفُنْدُق المحلي من الضرائب لفائدة الكنيسة في بارلِتّا سنة 1442م[90].

تُشير الشكاوى والوثائق القانونية التي تعود إلى القرن الخامس عشر إلى وجود بعض الخَلَل في نظام الفُنْداكو خاصّة فيما يتعلّق بالتوزيع. من المؤكّد أن هناك نقصاً في التزوُّد بالحديد والملح المتوفّر بالنسبة للفَنادق الموجودة في المناطق البعيدة وهو ما يُحدث اضطرابات محلّية وتقييماً غير سليم للأسعار. فتؤدّي النُّدْرة وكلفة النقل إلى أن تكون أسعار الملح والحديد مرتفعة في الفَنادق

(87) هذا المبلغ لم يُنَصّ على أنه قبالة. Pegolotti, *La Pratica della mercatura*, 163

(88) Ryder, *The Kingdom of Naples*, 358.

(89) Ryder, *The Kingdom of Naples*, 356. P. Gentile, "Lo Stato napoletano sotto Alfonso I d'Aragona," *Archivio Storico per la Province Napoletane* (Naples) n.s. 24 (1938) 10-19.

(90) (Alfonso I of Naples), *Diplomatico aragonese*, 92-94.

الريفية أكثر ممّا هي بالنسبة إلى المُدُن الكبرى، وكذلك تكون المداخيل محدودة حتى أنها لا تفي في بعض الأحيان بتسديد أُجُور الموظّفين. ولكن عندما أراد خازن المالية لكلابريا «Calabria» إغلاق فُنْدُق الملح بمدينة مونتيليوني «Monteleoni»، اعترضت المدينة على ذلك بحُجّة أنّ الفُنْداكو كان قد أُنشئ "منذ أزمنة سحيقة"[91]. وفي ظروف أُخرى سعى سُكّان الأرياف إلى تجاوز نظام الفُنْداكو المحلي لأنه عادةً ما كان يَصْعُب الحصول على الحديد أو لأن سعره كان باهظاً هناك. ففي سنة 1450م تقبّل ألفونس عريضة من رعاياه بمملكة نابولي يطلبون فيها أن يسمح لهم بشراء الحديد من أيّ فُنْداكو مَلَكي ويدفعوا قيمته ثم يبيعوه بالتفصيل (بالمُفَرَّق) في مناطقهم لأن "هناك نقصاً في الحديد في الفنادق (الفُنْداكو) المحلية ولا يوجد فيها ما يكفي للبيع". وقد تؤدّي هذه العمليّة إلى إعفاء أغلب السكّان من السفر بعيداً للحصول على الحديد[92]. وقد برزت مشاكل مماثلة في فَنادق الملح منذ سنة خَلَت، ففي سنة 1449م وجد أحد المفتّشين المَلَكيين فُنْدُق الملح في بيتونتو «Bitonto» فارغاً. ويشير المصدر بوضوح إلى أنّ المبنى كان مغلقاً أو مخازنه هي التي كانت مغلقة، لأنه اضطرّ إلى طلب المفتاح قبل اكتشاف وضعية الفُنْداكو. وقد احتجَّ المشرف المحلّي على الفُنْداكو بأنه حاول مراراً عديدة التزوُّد بكمّيّات جديدة من الفُنْداكو بمدينة باري ولكن دون جدوى[93].

الحبوب والزيت والمواد الغذائية

تعمل الهُنْدِقا في قشتالة أيضاً كمستودع للمواد المحتكرة خاصّة الحبوب والملح. وكما هو الشأن في صِقِلّية وجنوب إيطاليا تُشير المصادر التي تعود مباشرة إلى ما بعد الاستيلاء المسيحيّ على تلك المناطق، أن هذه الوظائف قد تمّ أخذها مباشرة من التقاليد الإسلامية وأصبحت مندمجة ضمن سياسة جبائية مَلَكية أوسع. وقد ظلّت هذه السياسات المَلَكِيّة على حالها خلال عهد فرديناند

(91) Ryder, *The Kingdom of Naples*, 355.

(92) Ametller y Viñas, *Alfonso V de Aragón*, 690 (art. 17).

(93) Francesco Carabellese, *La Puglia nel secolo XV da fonte inedite* (Bari: commissione Provinciale di Archeologia e Storia Patria, 1901) 110-111.

وإيزابيلا وخلال القرن التالي أصبحت الهُنْدِقا المعدّة للخزن تظهر عبر المُحيط الأطلسي في إسبانيا الجديدة.

لقد انكمش نظام الهُنْدِقا في قَشتالة في القرن الخامس عشر ليقتصر على بضع مُنْشآت متمركزة في المُدُن الرئيسية، وهناك قليل من الأدلّة مثلما هو واضح بالنسبة إلى جنوب إيطاليا، حول تدرّج شبكة المخازن المَلَكِيّة لتصبح أماكن للتوزيع الجِهَويّ وتحديد الضرائب. وعلى خلاف ذلك أصبح هُنْدِقا الخبز في إشبيلية محوراً لتبادل الحبوب في الأندلُس كما كان يوجد في الوقت نفسه هُنْدِقا الحبوب في مالَقة وغَرْناطة وطُلَيْطلة وغيرها من المُدُن القَشْتالية الأُخرى ولكنّها لم تصل إلى مستوى تفوق هذه المُنْشأة في إشبيلية[94]. ويبدو هذا النموذج منطقيّاً لأن إشبيلية كانت من الناحية الجغرافية إلى حدود 1490م، أهمّ ميناء في جنوب قشتالة وهي توجد في واحدة من أهمّ المناطق الزراعية الفلاحية في البلاد. فقد كان لا بدّ للحبوب أو أيّ منتوج آخر يأتي من الجنوب أو يصدر منه أن تمرّ من إشبيلية إلى أن تمّ الاستيلاء على المُدُن الساحلية حتى إلى غَرْناطة في أواخر القرن الخامس عشر، عند ذلك فُتِحَت قنوات أُخرى للوصول إلى السواحل.

يُفْتَرض بموجب القانون أن تنقل كلّ الحبوب المستوردة عبر إشبيلية إلى هُنْدِقا الخبز رغم أنّ المصادر تُشير إلى أن ذلك لم يفرض بالكامِل[95].

---

(94) كان فُنْدُق القمح موجوداً عندما تمّ الاستيلاء على المدينة (Calero Secall and Martínez) (Enamorado, *Málaga*, 125). وقد تكون هذه الهُنْدِقا هي نفسها التي استأثر بها فردينان وإيزابيلا لفائدتهما عند تقسيم المدينة (Bejarano Robles, [ed.]. *Repartimientos de Málaga*, 101). يذكر تورّس بالباس [L. Torres Balbás] أنه كان يوجد في غَرْناطة في بداية القرن السادس عشر هُنْدِقا لكلّ من القمح والعسل والخشب والجبن والتين والزيت وغيرها من المواد الأُخرى ("Las alhóndigas hispanomusulmanas," 452). وتذكر قوانين طُلَيْطلة سنة 1562م أنه على قائد المدينة أن يحتفظ بمفاتيح الهُنْدِقا التي يوجد بها القمح والطحين المُعَدّ للخزن. ويجب أن يكون هذا المبنى نظيفاً (E. Saez, "Aranceles de Toledo," *Anuario de la Historia del Derecho Español* 14 [1942-1943] 549).

(95) في سنوات 1467-1469، على سبيل المِثال، يبدو أن رُبْع القمح المستورد فقط كان يأتي عبر الهُنْدِقا (Rosario Marchena Hidalgo, «Economía sevillana en la baja edad media: una crisis de subsistencia,» *Archivo Hispalense* 54 [1971] 197).

وكما كان يحدث في الفَنادق في كلّ الجهات، كان التجار يحاولون التهرُّب من التنظيمات وما يترتَّب عليها من أداءات خاصّة في الحالات التي لم يحصلوا فيها على امتيازات هامّة (خاصّة حقّ الإقامة) تماشياً ونظام الفُنْداكو. فقد كان التجار الجَنَويون الذين يتعاملون مع إشبيلية الإسلامية قبل سنة 1248م يرغبون بشدّة في الحصول على فُنْداكو لأنه الفرصة الوحيدة التي يُمكنهم من خلالها ممارسة أعمالهم في المدينة. وقد كانت هذه الرغبة القديمة في الحصول على هُنْدِقا هي مطلبهم المباشر في إشبيلية المسيحية بعد الغزوات التي قام بها فرديناند الثالث في منتصف القرن الثالث عشر. ولكن سرعان ما أصبح واضحاً أنّ الحصول على هُنْدِقا لم يعد ضرورياً في مدينة مسيحية وسرعان ما أصبحت مؤسّسات الهُنْدِقا أدوات للسُّلطات المَلَكِيّة والمدنية أكثر منها مؤسّسات للتِّجارة. فقد أصبح التجار الجَنَويون في القرن الرابع عشر يسعون إلى البحث عن الطُّرُق التي يتفادَوْن بها نقل حبوبهم إلى هُنْدِقا الخبز، وتبيّن المادّة المصدرية التي تعود إلى سنة 1467م التجار الجَنَويين وهم ينقلونها إلى اللوجيا الجَنَوية عوض نقلها إلى الهُنْدِقا[96]. كما سعى تجار الحبوب في مدينة بورغوس «Burgos» سنة 1496م (ونجحوا في ذلك) للحصول على الإعفاء من الهُنْدِقا المَلَكِيّة مطالبين بأن يكون ممنوعاً على المشرفين عليها أن يطلبوا ضرائب ومبالغ إضافية[97].

في أواخر القرن الخامس عشر أصدر فرديناند وإيزابيلا جُمْلة من القوانين لإصلاح وتطوير الهُنْدِقا في قَشْتالة وخاصّة هُنْدِقا الخُبْز. ففي مرسوم صادر سنة 1478م عَبَّرا عن حاجات الدعاية المَلَكِيّة بقدر ما عَبَّرا عن ضرورة دعم التزوُّد بالحبوب، وعن نيَّتهما في إصلاح القوانين التي تتحكّم في الهُنْدِقا حتى "لا يحرج

(96) Rowena Hernández-Múzquiz, "The Alhóndiga of Seville and the Challenge of Recurring Food Crises in the late Medieval Period," (Unpublished paper delivered at the Thirty-third International Congress on Medieval Studies, Kalamazoo, MI, May 10, 1998) 4-5. هُنْدِقا الخُبْز هو أيضاً موضوع أطروحتها "Economy and Society in Late Medieval and Early Modern Seville (1391-1506): A Study of the *Abastecimiento* (Provisioning) of an Iberian Urban Center," Ph.D. Dissertation (New York: Columbia University, 2003). أشكر لها تعليقها على هذا الفصل.

(97) Marchena Hidalgo, «Economía sevillana," 194.

شعب" إشبيلية بدفع أكثر من المعقول لشراء الخُبْز[98]. وقد كان اهتمام المَلِكين الكاثوليكيَّين بهذا الموضوع ناتجاً عن نقص في المواد الغذائية في سنوات 1467-1469م وربّما كانا يرغبان في اتخاذ التدابير اللازمة لمقاومة المجاعة[99]. فكانت الهُنْدِقا بعد إصلاحها مهيّأة لتكون مستودعاً للحبوب يتمّ منه التوزيع في أوقات الشدّة بأسعار محدّدة ومنه يُباع الدقيق والحبوب غير المطحونة.

كان المُشْرِفُون على هُنْدِقا الخُبْز يمسكون دفاتر حسابات مفصّلة فيها أسعار الحبوب والمشتريات والمُؤَن وأسماء المزوِّدين والتجار والتوزيع. وتوفّر هذه الحساباتُ الدقيقة الخاصّة بهُنْدِقا الخُبْز في إشبيلية مثل معاصريها كفُنْداكو الألمان بالبُندقيّة، معلوماتٍ حول هذين الفُنْدُقين في أواخر العصر الوسيط واللذين ليس لهما نظير في أيّ مكان آخر سواء في أوروبا أو في العالم الإسلاميّ.

وبغضّ النظر عن الأسلوب البلاغي للتجديد الذي تضمّنه مرسوم سنة 1478م، فإن التماثل الواضح بين هُنْدِقا الخُبْز في أواخر القرن الخامس عشر والنماذج السابقة سواء في العالم الإسلاميّ أو المسيحي، يعبّر عن تجديد وإصلاح وليس عن ابتداع. فقد كان في إشبيلية هُنْدِقات للحبوب منذ الاستيلاء عليها في القرن الثالث عشر وهي، بشبه تأكيد، تَلَت الفَنادق الإسلامية السابقة. يبدو هذا التواصل الواعي من خلال أوامر ألفونس العاشر في وثيقة رسمية تعود إلى سنة 1253م، تنصّ على أن يواصل المسلمون الذين يتاجرون على ظهور البغال، نقل حبوبهم إلى الهُنْدِقا المَلَكِيّة بإشبيلية" مثلما كانوا يفعلون" في عهد الحكم الموحّدي[100]. إن الأدلّة على وجود فَنادق للحبوب في سَبْتة وغيرها من المُدُن المَغْربية المعاصرة تؤكّد هذه العلاقة[101]. كما كان يوجد هُنْدِقا للدقيق أو الحبوب في إشبيلية في القرن الرابع عشر مثلما يبدو من أمر صادر عن المدينة سنة 1344 باستعمال الموازين والمكاييل المَلَكِيّة في هُنْدِقا الفرينة (الطحين)

---

(98) Hernández-Múzquiz, "The Alhóndiga of Seville," 5-6؛ وكذلك Guichot, *Ayuntamiento*, 354.

(99) Hernández-Múzquiz, "The Alhóndiga of Seville," 2-3.

(100) Fernández Gómez et al. (eds.), *Privilegios de Sevilla*, 148.

(101) al-Anṣārī, "Description de Ceuta," 160. انظر مناقشة ذلك في الفصل السابع.

«alhóndiga de la farina»[102]. وكما هو الأمر بالنسبة للنماذج السابقة كان الهُنْدِقا المَلَكي مؤجّراً خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر لمستأجر يدفع معلوماً للمَلِك مقابل نسبة مئوية من المداخيل[103]. يُعتبَر هؤلاء المستأجرون عنصراً هامّاً من السياسة الجِبائية المَلَكِيّة وقد كان هذا النظام ملائماً ولو أنه يؤدّي إلى التجاوزات.

لذلك سعى فرديناند وإيزابيلا سنة 1478م إلى إعادة المراقبة المَلَكِيّة على مؤسّسة أصبح التجار والمُزَوِّدون من بارعين في تجنُّبها. ويشبه موقفهما موقف عَمِّ فرديناند، ألفونس الشهم، في سعيه منذ عشرات السنين من قبل لاسترجاع الاحتكارات المَلَكِيّة التي أصبحت بين أيدي الخواصّ في مملكة نابولي. وإنه لَمُعَبِّر أن تقع هذه العمليّة في قَشْتالة التي كان هُنْدِقا الحبوب فيها ثابتاً وليس في مملكة فرديناند الأراغونية حيث أخذ الفُنْدُق صِبْغة أُخرى.

ومثل الفَنادق المَلَكِيّة الخاصّة بالحديد والملح في إيطاليا الجنوبية وفَنادق الحبوب في إفريقيا الشمالية وغيرها، فقد كان الهُنْدِقا يعمل على تلبية الحاجات العُموميّة والجباية المَلَكِيّة على السواء. إنّ تحكّمه في تجارة الحبوب يقي من الزيادات الباهظة في فترات القلّة رغم أنه قد يحافظ على أسعار عالية بصورة مصطنعة في فترات الوفرة. فالأسعار في الهُنْدِقا مثل الفَنادق والفُنْداكو عادة ما تكون أرفع منها في أيّ سوق مفتوح يمكن تصوّره نتيجة لمراقبة التزوُّد وفرض الضرائب والضرائب على القيمة المُضافة على هذه المادّة.

فقد تمّ إنشاء هُنْدِقات مَلَكية للحبوب أيضاً في مالَقة وفي غَرْناطة بعد الاستيلاء عليهما بقليل. وهذا يبيِّن في الوقت نفسه تواصل الإدارة النصرية وفهم الملوك الكاثوليكيين الواضح أن الهُنْدِقا كان أداة صالحة للبيروقراطية المَلَكِيّة وسخائها. دَخَلَ الهُنْدِقا في مالقة تحت الإشراف المَلَكي المباشر ولكن في

(102) Carande, *Sevilla*, 114.

(103) لقد كان معلوم هذا الكِراء محدداً بنسبة 22 بالمائة من سنة 1441م إلى سنة 1454م ثم 11 بالمائة من سنة 1455م إلى سنة 1458م (Miguel Angel Ladero Quesada, "Almojarifazgo sevillano y comercio exterior de Andalucía en el siglo XV," *Anuario de Historia Economica y Social* 2 [1969] 82-86).

غُرْناطة حيث كان الفُنْدُق الجديد مستودعاً لبيع الحبوب، تمّ بيع هذه المُنْشأة (أو ربّما تأجيرها) إلى كونت أوروينا «Uruena» سنة 1493م[104]. وربّما كانت غَرْناطة أقلّ أهمّية من ميناء مالَقة كمركز للتوزيع[105]. وقد كانت الفَنادق الخاصّة بالحبوب وغيرها من المواد الغذائية منتشرة في إيطاليا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وكذلك في مُدُن الساحل الشرقيّ الأدرياتيكي والمجر[106]. إنّ أهمّية الحبوب وغيرها من المواد الأساسية الأُخرى مثل الزيت والخُضَر تتطلّب هي أيضاً تنظيماً في تلك المناطق حتى إن مسؤولي المُدُن كانوا يراقبون تنقّل المواد الفلاحية بين الريف والأسواق الحَضَريّة[107]. وتذكر المصادر فُنْداكو للحبوب في راغوزا سنة 1272م وبادُوا سنة 1301م وفُنْداكو للحبوب في نابولي سنة 1323م[108]. وتذكر القرارات البلدية في بيشة سنوات 1324 و1330م فُنْداكو للزيت وكذلك لوشيرا عندما كانت تحت سُلطة البيشانيين سنة 1348م كان بها فُنْداكو رسمي لمراقبة المعاملات الخاصّة بالحبوب والطعام والزيت والخَمْر والخُضَر وتحديد الضرائب الخاصّة بها[109]. وقد يكون في البُندقيّة مستودع للحبوب منذ القرن الثاني عشر. وحسب ما رواه مؤرّخ البُندقيّة مارينو سانودو في

---

(104) Torres Balbás, "Las alhóndigas hispanomusulmanas," 460-461.
تشير وثيقة تعود إلى سنة 1494م كذلك إلى أن كورال دل كربون [the Corral del Carbón] قد استُعمل كمنشأة للسكن .(ibid., 448-449).

(105) والغريب هو أنه لا دليل على وجود هندقا للحبوب في ألْمَرِيّة الميناء النَّصْري الرئيسي الآخر والذي أصبح تحت السيطرة المسيحية.

(106) Concina, *Fondaci*, 115, 117, 120.

(107) Nicholas, *The Growth of the Medieval City*, 177.

(108) *Liber statutorum civitatis ragusii*, 135, 195; *Regimina Paduae*, in Muratori (ed.). *Rerum Italicarum Scriptores*, VIII, 427; Arrigo E. Castellani, «Una lettera pisana del 1323,» in *Saggi di linguistica e filologia italiana e romanza (1946-1976)* (Rome: Salerno Editrice, 1980) 11, 310.

(109) Bonaini, (ed.), *Statuti*, II, 531, 1167. تلزم تنظيمات بيشة سنة 1305م المشرف على الفُنْداكو بأن لا يقبل ولا يسمح ببيع الزعفران المغشوش في الفُنْداكو، ولا الممزوج ولا الرديء بطرق أخرى. وعليه أن يصادره ويعلم بذلك قناصل التُّجّار (*ibid.*, 111, 101-102). Lucca: Salavatore Bongi (ed.). *Bandi lucchesi del seclo decimoquarto, tratti dai registri del R. Archivio di Stato in Lucca* (Bologna: Tipografia del Progresso, 1863) 196-199.

القرن السادس عشر كان هناك فُنْداكو للحبوب على جسر الريالتو سنة 1172م في عهد الدوج سيباستيانو زياني[110].

وهذا أوّل ذِكْر لفُنْداكو للحبوب في أوروبا اللاتينية، ولكنّ تاريخه في القرن الثاني عشر يبدو غير معقول نظراً لعلاقات البُنْدقيّة بكلّ من العالم الإسلاميّ وبيزنطة (التي أُنشئ فيها فُنْداكس للحبوب في منطقة رودستو في القرن الحادي عشر) وتأسيس فُنْداكو الألمان بعد عدة عُقُود فقط. من المؤكّد أنه كان هناك العديد من الفَنادق الخاصّة بالمواد الغذائية في البُنْدقيّة سنة 1278م، إذ تذكر قوانين الرابطات الحِرَفية بالمدينة فصلاً يتعلّق بالمُشْرف على الفُنْداكو الذي يراقب شراء وبيع القمح والخُضَر في الفُنْداكو وفي دهليز الفُنْداكو[111].

المنسوجات

كانت المنسوجات من البضائع الأُخرى التي تُباع وتُوْدَع في الفَنادق في مُدُن أوروبا الجنوبية. ومنذ سنة 1203م تمّ تسجيل عقد في جَنَوة "في الفُنْداكو الذي تُخزَن فيه البضائع" لشراء القُطْن، وأصبحت الفَنادق الخاصّة باللباس عامّة في المُدُن الإيطالية خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر[112]. وخلافاً للمُنْشآت الخاصّة بالملح والحبوب، كان مالكو الفَنادق الخاصّة بالصوف والكتّان

(110) M. Sanudo, *Vite de'Duchi (Life of the Doges)*, in Muratori (ed.). *Rerum Italicarum Scriptores*, XXII, 508. لاحظ أنيو كونشينا [Ennio Concina] أن بيانات سانودو [Sanudo] حول فُنْداكو الحبوب وعلاقته بمصالح المدينة في الإشراف على تجارة الحبُوب قد تكون ناتجة عن إدراك مؤخَّر، خاصةً في ضوء بناء فُنْدُق جديد للحبوب في البُنْدقية سنة 1492م (Concina, *Fondaci*, 145-146).

(111) Giovanni Monticolo (ed.), *I capitolari delle arti venezione sottoposto alla giustizia e poi alla giustizia vecchia dalle origini al MCCCXXX* (Rome: Tipografi del Senato, 1896), I, 4, 181-182. إن الفصل نفسه يحمل عنوان "وثائق ستاريوس [Capitularies de starios] وهو يبين أهمية الديوان في كيل وتنظيم البضائع، انظر أيضاً:

Alberto Tenenti and Ugo Tucci, "Magazzini, fondaci, dogane," in *Storia di Venezia temi. Il mare*, ed. Alberto Tenenti and Ugo Tucci (Rome: Istituto della Enciclopedia Italiana, 1991) 789-817.

(112) Giovanni di Guiberto, *Giovanni di Guiberto (1200-1211)*, ed. M. W. Hall-Cole, H. G. Kreuger, R. G. Reinert, and R. L. Reynolds (Genoa: Deputazione di Storia Patria per la Liguria, 1939) 342 (no. 717).

وغيرهما من الملابس ومسيِّروها متغيِّرين. وهناك أمثلة للفَنادق الرسمية التي يسيِّرها موظّفون بلديون تهدف إلى مراقبة واردات المنسوجات وصادراتها إلى أسواق حَضَريّة معيَّنة ولكنّ الفَنادق الأُخرى كانت على ملك الرابطات الحِرَفية والشركات التجارية أو الخواصّ. يفترض أن أهمّية وتنوّع الطبيعة الرِّبْحية لصناعة النسيج هي التي دعمت هذا التطوّر المتنوِّع.

تشتغل الفَنادق المعدّة للمنسوجات في بعض المُدُن الإيطالية كنقاط تجلب إليها المنسوجات غير المصبوغة من خارج المدينة ويقع تحويلها تحت ظروف مُراقَبة إلى المصابغ المحلّية. وقد يُقيم التجار غير المحلّيين في هذه المُنْشآت مثلما تُشير إلى ذلك مُصطلحات مثل "مُضِيف *hospes*" و"ضيوف *hospites*" التي تتضمّنها بعض القرارات البلدية[113]. وفي الوقت نفسه تستعمل بعض المُدُن الأُخرى الفَنادق لبيع وإيداع المنسوجات المحلّية فقط، وتُقْصي المنسوجات المستوردة منها، أو لتمييز إنتاجات الجِهات بعضها عن بعض. ففي مدينة سيينا «Siena» في القرن الرابع عشر مثلاً لم يكن مسموحاً لأيّ سِمْسار مكلَّفٍ بأحد فَنادق المدينة من قبل إحدى الرابطات الحِرَفية المختصّة في تجارة الصوف من راديكوندولي «Radiocondoli» (في منطقة سيينا) أن "يأخذ أو أن يكون له في الفُنْداكو المذكور أيّ منسوجات أو أيّ بقايا منسوجات إلّا تلك التي صُنعت في قرية راديكوندولي"[114]. وفي هذه الحالة تكون المُبادلات في الفُنْداكو مراقبة جداً ولكن هناك إشارات أُخرى أقل وضوحاً. فقد كانت المنسوجات الفرنسية التي تمرّ عبر جَنَوة في اتجاه مسّينا سنة 1346م تُودَع في أحد الفَنادق، ربّما يكون فُنْداكو على مِلْك الخَواصّ، كما كانت المنسوجات الفرنسية تُباع في مدينة سافونا «Savona» سنوات 1324-1325م ولكن ليست هناك أدلّة على أنّ ذلك كان يتمّ نتيجة توكيل رسمي أكثر منه للملاءمة[115].

(113) As in Pisa in 1305 (Bonaini, [ed.], *Statuti*, 111, 26, 101).

(114) Luciano Banchi (ed.), *Statuti senesi scritti in volgare ne'secoli III^{e} XIV^{e} pubblicati secondo i testi del R. Archivio di Stato in Siena* (Bologna: Gaetano Romagnoli, 1871) 11, 187.

(115) Léone Liagre-De Sturler, *Les Relations commerciales entre Gênes, la Belgique et l'Outremont d'après les archives notariales génoises (1320-1400)* (Brussels and Rome: Institut historique belge de Rome, 1969) 14 (no.9), 21 (no.15), 244 (no.195).

كانت إدارة مدينة بيشة تسعى لكي لا يقع الخَلْط بين المنسوجات المحلّية والمواد المستوردة وأن لا تُباع هذه الأخيرة بصورة حُرّة في الأسواق المحلّية. وقد كان المسؤولون المكلّفون بالفَنادق يعملون وفي أذهانهم هذه الفكرة، وكان مطلوباً منهم أن يكونوا حذرين عند تسجيل المنسوجات التي يُؤتى بها للخزن في مؤسّساتهم فيسجلوا مصدرها ولمن تمّ بيعها وما هي الألوان التي سَتُصْبغ بها. فعندما كانت المنسوجات الصّوفية تُنقل إلى فَنادق بيشة من قِبَل التجار الأجانب كان يجب إعلام المُشْرِفين على الفَنادق في خلال ثمانية أيام بلون الصِّباغة الذي يجب أن تُصْبغ به هذه المنسوجات[116]. وكان على كلّ المنسوجات التي تصل إلى الفُنْداكو أن تُوزَن وتُقاس بالأذْرُع الرسمية والموازين المُصادَق عليها من قِبَل المدينة ولا يَسمح أيّ مُشْرِف على أحد الفَنادق للمنسوجات بأن تغادر الفُنْداكو إلّا بعد أن تُقاس جميعها"[117]. وفي سنة 1305م طُلب من أحد المُشْرِفين على فُنْداكو في بيشة أن يُقْسم أنه "إذا قام أحد بقياس أو وزن أيّ شيء من البضائع في الفُنْداكو المذكور ثانية... وإذا كانت هذه الأشياء أو البضائع على ملك المقيمين عندي أو أيّ شيء آخر حصلت مقابله على المال، فإنني لن أقبل ولن أسمح بذلك القَيْس أو الوَزْن حتى تتمّ إعادته من قبل السِّمْسار الذي يستعمل الموازين البيشية الصحيحة والموازين العُموميّة"[118]. لقد كانت نِسَب الأداءات محدّدة من قِبَل المدينة وعادة ما يكون معها أداء على القيمة تدفعه الرابطات الحِرَفية مقابل الخزن والصباغة ولم يكن مسموحاً للمُشْرِفين على الفَنادق أن يأخذوا أكثر من المبلغ المحدّد[119].

= في عقد متأخر، حُرِّر سنة 1386 في الفُنْداكو نفسه وهو يتعلّق بكِراء سفينة من جَنَوة إلى الفلاندرز، ليس هناك ذكر لمنسوجات رغم أن المسلك المُتَّبَع يوحي بأن هذه هي الحمولة العائدة المقصودة (*ibid.*, 645 [no. 490]).

(116) Bonaini, (ed.), *Statuti*, III, 101, also 35, 231-232.

(117) Bonaini, (ed.), *Statuti*, III, 99-100. تؤكد المراسيم الرسمية بصورة دائمة على استعمال المكاييل والموازين الرسمية دون غيرها وتكرّر هذا الطلب في مَواطن عديدة (*ibid.*, 39, 107).

(118) Bonaini, (ed.), *Statuti*, III, 99.

(119) Bonaini, (ed.), *Statuti*, III, 231-232. The *Breve consulem curie mercatorum Pisanae civitatis* (1305) يتضمَّن قائمة طويلة عن رُسُوم خزن وحِفْظ البضائع، وتشمل المنسوجات =

كانت الأداءات تُدفع على خزن المنسوجات وبيعها في فَنادق بيشة باستثناء المواد المُعْفاة من الضرائب ويمكن أن يُطلب من التجار دفع رسوم أُخرى. فعندما وصل تاجر نسيج من فلورنسا حوالى سنة 1320م، كان عليه أن يدفع كلفةَ خزن بضائعه وربّما أيضاً معلوم الإقامة في أحد الفَنادق ودَفْع معلوم الحراسة إضافة لذلك. تبدو القوانين البيشية مهتمَّة بصفة خاصّة بتنظيم الفَنادق والحصول على مداخيلها لأنه ليس هناك ما يؤكّد ذلك في مُدُن أُخرى. وفي الرّحلة نفسها، على سبيل المِثال، فقد دُفِّعَ هذا التاجر الفلورنسي *ostellaggio* (إقامة في فندق) أي تعرفة الإقامة وربّما معلوم الخزن في مدينتَيْ كان «Caen» وباريس كما دَفَع في الوقت نفسه معلوماً آخر مقابل السَّكَن *Casatico* بمدينة نِيْس[120].

وخلافاً لفَنادق الحبوب والملح أو الحديد التي كانت تعمل كمخازن مستقلّة ومتمركزة، مع تخصّص في بضاعة واحدة في المدينة، قد تكون هناك مُنْشآت عديدة خاصّة بالمنسوجات في أيّ مدينة. تُشير قرارات مدينة بيشة سنة 1305م إلى "الفُنْداكو أو الفَنادق التي تُباع فيها المنسوجات في مدينة بيشة"[121]. وفي هذه الحالة قد تكون هناك مُنْشآت متراتبة لأن التشريعات المعاصرة في بيشة تفرّق بين الفُنْداكو الرسمي في بورتو بيزانو الذي تسيّره المدينة والفَنادق الأُخرى في المدينة ذاتها والتي قد تعود بالنظر إلى الرابطات الحِرَفية والتجار الخواصّ[122]. تُورد المصادر معلومات عن مُنْشآت عديدة. فمثلاً يصف تاريخ بارم «*Chronicon Parmense*» معركة دارت في فلورنسا سنة 1304م "احترقت خلالها كلّ الفَنادق التي فيها بضائع وستائر وغيرها من البضائع الأُخرى"[123]. كان جيوفاني فيلاني «Giovanni Villani» أكثر تحديداً في تقديمه للأرقام، فهو

= والمواد الغذائية والمعادن والتوابل (*ibid.*, 130-106) كما يورد بيغولوتي فصلاً مُطوَّلاً حول معاليم الضرائب الخاصّة بالفُنْداكو وغيرها من الضرائب الأُخرى التي تُجْبَى في بيشة (*La pratica della mercatura*, 203-214).

(120) Armando Sapori, *Una Compagnia di calimala ai primi del trecento* (Florence: Leo S. Olschki, 1932) 95-96.

(121) Bonaini, (ed.), *Statuti*, III, 26.

(122) Bonaini, (ed.), *Statuti*, III, 412.

(123) *Chronicon Parmense*, in Muratori (ed.), *Rerum Italicarum Scriptores*, IX, 850.

يذكر أنه كان هناك، في سنوات 1330م، عشرون فُنْدُقاً في فلورنسا تتجمّع فيها البضائع الفرنسية وكلّ ما يأتي من وراء جبال الألب «les alpes» من المنسوجات. ويزعم أن 10000 قطعة من القماش تمرّ سنوياً عبر هذه الفَنادق وتبلغ قيمتها 300000 فلوران «florins» إذا ما بيعت في أسواق فلورنسا[124]. وبعد قرن ونصف قرن من الزمن سنة 1472م عدّ المؤرّخ الفلورنسي بنيديتو داي «Beneditto Dei» اثنين وثلاثين دُكّاناً في فَنادق المدينة " تُفَصَّل فيها وتُقصّ أقمشة متعدّدة الألوان"[125]. وقد يكون بعض هذه الفَنادق على ملك الرابطات الحِرَفية مثل رابطة كاليمالا «Arte di Calimala» في حين قد يكون البعض الآخر على ملك الشركات التجارية مثل شركة باردي «Bardi» وبيروزي «Peruzzi» التي تعجّ دفاتر حساباتهما بالإشارة إلى فَنادقهم المختصّة في النسيج واللباس[126]. يميِّز التوزيع الجغرافيّ لهذه الفَنادق الخاصّة بالمنسوجات وإدارتها، وكذلك كثرتها، بينها وبين نظيراتها الأكثر تنظيماً مثل فَنادق الحبوب والملح والحديد. وهي توجد أساساً في مُدُن شمال غرب إيطاليا وخاصّة منطقة توسكانة وليس في المناطق التي أخَذت فيها الفَنادق من النماذج الإسلامية ولا في الموانئ الأدرياتيكية. فقد حافظت على تنظيم مميّز عن تنظيم الفَنادق التجارية في المناطق الأُخرى وربّما كانت تحت نظر السُّلطات الحَضَريّة مثلما يبدو ذلك من خلال وعود مسيّري المدينة بإصلاح نظام الفَنادق وتدقيق أعمال المشرفين عليها. ومن ناحية أُخرى هناك قليل من الفروق التي تسمح بالتمييز بين الفَنادق الرسمية والفَنادق الخاصّة والمستودعات التي ازدهرت في فلورنسا وبيشة وجَنَوة وغيرها من المُدُن الأُخرى. ومن الممكن أن تكون فَنادق المنسوجات مرحلة انتقالية ربطت بين الفَنادق الأولى التي كانت تحت رقابة الدولة والتي ظهرت في بعض

---

(124) Villani, *Cronica*, VI, 185.

(125) Benedetto Dei, *La Cronica dall'anno 1400 all'anno 1500*, ed. Roberto Barducci (Florence: Francesco Papafava Editore, 1984) 83.

(126) Armando Sapori, *Libro giallo della compagnia dei Covoni* (Milan: Istituto Editoriale Cisalpino, 1970) 171, 174; Sapori, *La Crisi delle compagnie mercantili dei Bardi e dei Peruzzi* (Florence: Leo S. Olschki, 1926) 281; A. Sapori (ed.), *Libri di commercio dei Peruzzi* (Milan: Treves, 1934) 85-87, 260, 269.

المُدُن الأوروبية والمستودعات الخاصّة غير المنظّمة التي تُسمّى هي الأُخرى فَنادق والتي أصبحت عادية.

ولكن يرجّح بالقَدْر نفسه أن تكون فَنادق المنسوجات عبارة عن اعتماد آخر على النماذج الإسلامية التي عرفها التوسكانيون في تونس والإسكندرية وإسبانيا. وعلى عكس الفَنادق الكبيرة المخصّصة لإقامة الجاليات التجارية الأجنبية، فقد كان العديد من فَنادق المنسوجات الإيطالية تشبه الفَنادق الصغيرة المعدّة للتّجارة والسَّكَن في المُدُن الإسلامية وهي عادة ما تكون غير منظّمة. في منتصف القرن الثاني عشر، على كل حال، يزعم الجغرافيّ الإدريسيّ أنه كان يوجد حوالى الألف فُنْدُق في ألْمَرِيّة أكبر مركز للنسيج وغيره من المواد. وربّما كان البِيشانيون والجَنَويون متعودين كثيراً حياة الأعمال في ألْمَرِيّة وغيرها من الموانئ الإسلامية حيث كانت لهم فَنادقهم الخاصّة للإقامة بها في تلك الفترة وربّما استوردوا المفهوم إلى مُدُنهم الأصلية.

مَنْصِب المُشْرِف على الفُنْدُق

تُوضح القوانين المدنية الخاصّة بالفَنادق في مدن جنوب أوروبا أنّ الموظّفين الرسميين المكلّفين بهذه المباني كانوا محلّ تدقيق من قِبَل الإداريين الذين يعملون لصالح المدينة والرابطات الحِرَفية أو السُّلطة المَلَكِيّة. رغم أنّ المشرفين الذين يسيّرون مُنْشأة حكومية كانوا أكثر تنظيماً من نظرائهم الذين يعملون لصالح الخواصّ كما يبدو ذلك من خلال قرارات بيشة التي تتعلّق بالمُشْرف على الفُنْداكو في بورتو بيزانو، فإنّ كلّ مُشْرِف على فُنْداكو كان قابلاً للتخطئة أو العزل من وظيفته إذا أخلّ بالالتزام بالقَوانين المتعلّقة بالفُنْداكو. وتؤكّد وثائق أُخرى الوجود الشخصي للمُشْرِفين على الفَنادق في المُدُن المسيحية المتوسّطية. وتشهد صفة الفُنْدُقاني في اسم وليالموس الفُنْدُقاني Wlilielmus Fundigarius الذي تَقَدَّم كشاهد في وصية في جَنَوة منذ سنة 1191م وهذه الصفة أصبحت عادية في القرون اللاحقة[127]. فقد

(127) Guglielmo Cassinese. *Guglielmo Cassinese (1190-1192)*, ed. M. W. Hall-Cole, H-G. Kreuger, and R. L. Reynolds (Genoa: Deputazione di Storia Patria per la Liguria, 1938) 185-186 (no. 467).

ظهر غويدو فونديغاريو «Guido Fondegario» في العُقُود العديدة التي سُجِّلت فماغوصة «Famagouste» سنة 1301م، وذُكِر ميكوس دي لوكا «Michus de Lucha» كمشرف على الفُنْداكو في راغوزا سنة 1358م[128]. قد كان للمُشْرِفين على الفَنادق مَثَلُهم مَثَلُ الصَّبّاغين والسَّماسِرة وغيرهم من العاملين في القطاع التجاري، رابطات حِرَفية خاصّة بهم، وقد كانوا مُصَنَّفين ضمن الأصناف المهنية في البُندقيّة (سنة 1278م) وفي بيشة (سنة 1321م)[129]. وتذكر قائمة قناصل الرابطات الحِرَفية بمدينة مونبليه أنه في كلّ سنة يَنُوب واحد أو اثنان منهم ليُمَثِّلا المشرفين على الفنادق التجارية بالمدينة ما بين سنوات 1353 و1393م[130]. إن إعادة تأكيد التشريعات المدنية التي تتعلّق بمنصب المُشْرِف على الفُنْداكو تُسَلِّط الضوء على إمكانية إساءة استخدام هذه الوظيفة في أيدي الجشعين الذين لا أخلاق لهم من المُمْسكِين بهذا المنصب، وهو ما يؤدّي إلى خسارة ضريبية للمدينة واستغلال التجار. ورغبة في القضاء على هذه المساوئ تُلِحّ القوانين المتعلّقة بالفَنادق على نظام الحفاظ على البضائع ووزنها وعلى الكاتب العدل في جمع الضرائب وعلى دِقّة مَسْك الدفاتر وعلى ضرورة نزاهة المُشْرِف على الفُنْدُق. ففي سنة 1286م، مثلاً اشتُرِط على المشرفين على الفَنادق في بيشة أن يكونوا ناضجين وأعمارهم ما بين الأربعين والستين سنة ولهم خِبْرة في تجارة ما وراء البحار. وكان مطلوباً منهم أن يقيموا بمبنى الفُنْداكو مع عائلاتهم، ولو أنه كان يُسمح لرجل

---

(128) Polonio, Valeria (ed.), *Notai genovesi in Oltremare*, 554; *Monumenta Ragusina*, comp. Ivan Krstitelj Tkakic, Petar Budmani, and Josip Gelcic, *Monumenta spectantia historiam Slavorum meridionalium*, 13 (Zagreb: Academie Scientiarum et Artum, 1882) 222.

(129) Monticolo (ed.), *Capitolari delle arti veneziane*, I, 4; Bonaini, (ed.), *Statuti*, III, 225-226.

(130) Jean Combes, «Hôteliers et hôtelleries de Montpellier à le fin du XIVe siècle et au XVe,» in *Hommage à André Dupont (1897-1972). Etudes médiévales languedociennes* (Montpellier: Fédération historique du Languedoc Méditerranéen et du Roussillon, 1974) 57. في بعض السَّنوات، أُدرِج المشرف على الفُنْداكو [*fondiguiers*] والمشرف على النُّزُل [*alberguiers*] معاً، ربما يُشير ذلك إلى خصيصة إقامة متطوِّرة للفُنْداكو.

أعزب أن يمارس هذه المهنة، كما كان المنصب قابلاً للتجديد في كلّ سنة حسب إرادة السُّكّان وقُنْصُل البحر[131]. وقد كان هذا الأمر لا يزال نافذاً في سنة 1305م في فُنْداكو بورتو بيزانو، ولكن كان على المرشَّحين الآخرين فقط أن يكونوا قد بلغوا سنّ الخامسة والعشرين، مع أنه كان عليهم أن يكونوا مقيمين في المدينة لعشر سنوات على الأقلّ، ولم يكونوا موظَّفين مَلَكيين، وأن يجيدوا القراءة والكتابة[132]. وكانت القرارات البلدية في مدينة راغوزا بدءاً من سنة 1272م، واضحة، في أنه على المُشْرف على الفُنْداكو أن يكون مقيماً بفُنْدُقه فكلّ صاحب منصب، وكلّ مُشرف على ديوان الفُنْداكو يتغيَّب لمدّة تفوق الخمسة عشر يوماً عن المدينة يفقد وظيفته[133].

كما كانت معرفة القراءة وبشكل أخصّ الحساب من المهارات المهمة المطلوبة من مُوَظَّفي الفُنْداكو. تفرض التشريعات المدينية معرفة القراءة والكتابة لأجل مسك الحسابات، ولكنها سمحت بأن يقوم بهذه المهمّة أحد الكُتّاب العُدُول عوضاً عن المُشْرِف على الفُنْداكو نفسه. ويبيِّن ما سيأتي أن على المشرف، في بيشة سنة 1305، التعهُّد بما يلي: "إن كلّ عمليّات البيع التي تتمّ تحت إشرافي أو أيّ شيء آخر تحت نظري، سأكتب (أو أحد الكُتّاب من الذين لهم دُرْبة في الكتابة) في الدَّفتر الأُستاذ أنّ عندي وأحتفظ بِـ، أو أيّ شخص آخر يحتفظ ويُبقي لي، للفَنادق العامّة التجارية، أي الكمّياتِ [المحدّدة] والمقاييس والأوزان والأسعار. وأسجّل اليوم الذي اتَّفق فيه المتعاقدون، يوم الشراء والبيع وأن يكون ذلك بحضور البائع والمشتري. وإذا كنت لا أعرف كيف أكتب، عندئذٍ يكون معي في الفُنْداكو للكتابة وفقاً للشروط المذكورة أعلاه كتابةً، مَنْ [يحسن كيف يكتب] ويكون عمره أكثر من عشرين سنة ومُصادقاً عليه من قبل قناصل التجار"[134].

إن أهمّية الكتابة مؤكّدة من خلال تكرار ذكرها في وثائق التجار ودفاتر

(131) Bonaini, (ed.), *Statuti*, I, 188-189.

(132) Bonaini, (ed.), *Statuti*, III, 412, 25-26, 75-76. قد وقع تكرار أغلب هذه التنظيمات سنة 1321م (*ibid.*, 275).

(133) *Liber statutorum civitatis ragusii*, 208.

(134) Bonaini, (ed.), *Statuti*, III, 98-99.

الحسابات الخاصّة بالفَنادق وبكرائها والمبالغ المالية المُودَعة لدى المشرفين على الفَنادق. كان أجر الكاتب العدل مقابل عمله في الفُنْداكو يساوي 30 ليرة سنويّاً في بيشة سنة 1286م وكما كان الأمر بالنسبة للعدول في فُنْداكو الألمان، كان عليه أن يسكن في الفُنْداكو طوال مدّة عمله لكي يكون حاضراً عند الحاجة[135]. بعد سنة 1324م، كان المشرف على الفُنْداكو في بيشة يدفع أداء للمدينة مقابل الحصول على حقّ جمع القبالة وهو تحوُّل يعبّر عن التعديل الجاري في مستوى الترتيبات المالية الخاصّة بالفُنْداكو[136]. بخلاف استلام الراتب وجمع ضرائب معيّنة، لم يكن مسموحاً للمشرف على الفُنْداكو أن يحقّق أرباحاً لفائدته من الفُنْداكو وأنشطته. فقد كان الموظّف الرسمي المكلّف بفُنْداكو الدولة في بورتو بيزانو يحصل على أجر سنوي قدره 40 ليرة سنة 1286م[137]. وقد كانت مهمّة المشرف على الفُنْداكو في بيشة تتمثّل في تسهيل المعاملات التجارية في الفُنْداكو، ولكن لا يحقّ له أن يشارك في ذلك بالبيع والشراء ولا يمكنه كِراء بعض الفضاءات للمصلحة الشخصية.

وربّما نظراً لما يمكن أن تحدثه الحيوانات من الفَوْضَى والفَساد أو لتفادي المنافسة مع تجار الحيوانات المحلّيين لم يكن مسموحاً للمُشْرِف على الفُنْداكو أن يربي الدجاج والحمام والبطّ والخنازير في الفُنْداكو[138].

من المؤكّد أن الفُنْداكو يعتبر، في العديد من مُدُن أوروبا الجنوبية، أداة هامّة للتنظيم الرسمي للتِّجارة وخاصّة المعاملات التي تهمّ مواد معيّنة. ففي بعض المُدُن وأهمها البُندقيّة وإشبيلية وبيشة وراغوزا واصلت الفَنادق لعب دور هامّ في إدارة التِّجارة الحَضَريّة خلال العصر الوسيط المتأخّر. وقد تابعت الفنادق الرسمية التي ترعاها السُّلُطات ووسَّعت العمليات التنظيمية التي كانت قد ترسَّخت في العالم الإسلامي. ولكن لم يكن هذا، بأيّ حال، نموذجاً موحَّداً، لأنه ليس

---

(135) Bonaini, (ed.), *Statuti*, I, 188-189.

(136) Bonaini, (ed.), *Statuti*, II, 1162.

(137) Bonaini, (ed.), *Statuti*, I, 188-189.

(138) Bonaini, (ed.), *Statuti*, III, 100, 553. يختلف هذا عن الخنازير وغيرها من الحيوانات الأخرى التي لُوحِظت في فنادق الإسكندرية.

هناك ما يؤكّد وجود هذه المنشآت الرسمية في العديد من المُدُن المسيحية المتوسّطية الأخرى. فعوضاً عن ذلك تطوّرت الفَنادق في أغلب المُدُن الإيطالية وفرنسا الجنوبية مُتَّبِعةً اتجاهاً مختلفاً لتصبح مستودعات خاصة أو مملوكة من قِبَل الخواصّ والشركات التجارية. ولم يكن أمراً غير عاديّ أن يوجد النوعان في المدينة نفسها وهو ما يعبّر عن مُرُونة بين النوعين وما يعكس مرة أُخرى الأشكال الإسلامية السابقة.

الفَنادق فضاءات تجارية للرابطات الحِرَفية والتجار

لم تكن القوانين المدينية تُعنى بالفَنادق الرسمية فقط ولكنّها تهتمّ أيضاً بأنواع عديدة من المنشآت الأُخرى التي تحمل التسمية نفسها. فمثلاً تحتوي قائمة التنظيمات الخاصّة بقناصل التجار في بيشة سنة 1321م على عدد من الفَنادق المختلفة في المدينة إلى جانب الفُنْداكو الموجود في بورتو بيزانو وهي على ملك تجار من سان منياتو وسيينا «San Miniato et Siena» وفَنادق بيع الأقمشة وعدد من الفَنادق الأُخرى المذكورة في علاقة بأشخاص معيّنين[139]. فكلا النوعين من المُنْشآت الرسمية والمنشآت الخاصّة يمكن أن يكونا موضوع جِباية ومراقبة ولكن يمكن التفريق بينهما بنوعيّة الإدارة والوظيفة والمستفيدين. توفّر فَنادق الحبوب والملح والمنسوجات دخلاً للمدينة أو للحاكم وهي مسيّرة من قِبَل موظّفين تابعين للمدينة أو الحاكم. في حين تُكَوِّن الفَنادق التي يملكها أشخاصٌ أو مجموعاتٌ فضاءاتٍ تجارية يستعملها هؤلاء لمعاملاتهم ولفائدتهم الخاصّة.

كان العديد من الفَنادق في المُدُن الإيطالية بين يدي الخواصّ أو الرابطات الحِرَفية. فقد كانت العائلات التِّجارية الهامّة وشركات الأعمال في جَنَوة وسيينا وفلورنسا وفي غيرها من المُدُن تملك فَنادقها الخاصّة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وتوجد الإشارات إلى هذه المباني في مراسلات التجار ودفاتر حساباتهم وعُقُودهم ومن خلال وصف طبوغرافيا المُدُن وإداراتها. كما أنّ أقدم

(139) "Fundaco di casa Gaytani, et di Guido Marignani et dei consorti; et dei filioli Conchi, et dei filioli Ardecase; et quello dei Senesi, et dei filioli Turchi di Mercato, et Garfagnini" (Bonaini, [ed.], *Statuti*, III, 226-228).

رابطة حِرَفية في فلورنسا وهي رابطة كاليمالا «Calimala» للتُّجّار المختصين في بيع الأقمشة والملابس تمتلك أو تستأجر الفَنادق للقيام بمعاملاتها التجارية[140]. فقد تكون هذه الفَنادق عبارة عن مبانٍ أو غُرَف معدّة للمعاملات والخَزْن، ولكنّ الكلمة تُستعمل أيضاً، ولو بطريقة غير ملموسة، للتعبير عن شركة تجارية أو عن مؤسّسة مالية (كأن يقال "أُرْسِلت إليه الأموال في حسابه بالفُنْداكو")[141]. عادة ما يكون المعنيان المادّي والاصطلاحي يتماشيان معاً ويشير كلّ منهما إلى الشراكة نفسها وموقع الأعمال.

إن شراء أو كِراء الفضاءات التجارية وما يترتّب عن ذلك من دفوعات كان الثمن لممارسة الأعمال محلياً وفي الخارج. قد يكون الفُنْداكو باهظ الثمن وفي بيشة كلّ مُشترٍ محتمل عليه أن يكون على استعداد لتوفير الضمانات والتكاليف أو تقديم أناس ثُقات مستعدين لتأمين البيع[142]. وعادة ما تحتوي دفاتر حسابات التجار على ذكر معاليم كِراء الفَنادق وهي معاليم تُحْسَب كلّ ستة أشهر أو كلّ سنة[143]. وعادة ما يكون الدفع نقداً ولو أن كِراء أحد الفَنادق الصغيرة بمدينة فلورنسا كان يشمل إوزّة سمينة في يوم "عيد جميع القِدّيسين" بالإضافة إلى مبلغ

---

(140) Guilds in Pisa owned *fondacos* as early as the late twelfth century (G. Volpe, *Studi sulle istituzioni comunali a Pisa* [Florence: Sansoni, 1970] 264). حول فَنادق الشركات التجارية، انظر:

L. Grossi Bianchi and E. Poleggi, *Una Citta portuale del medioevo: Genova nei secoli X-XVI* (Genoa: Sagep, 1979) 128, 236, 332; *Costituto del comune di Siena, volgarizzato nel MCCCIX-MCCCX* (Siena: Tip. e Lt. Sordmuti di L. Lazzero, 1903) 43, 297; E. Poleggi and P. Cevini. *Genova* (Rome and Bari: Editore Laterza, 1981) 59; Donato Velluti, *La Cronica domestica: scritta fra il 1367 e il 1370* (Florence: Sasoni, 1914) 141, 143.

(141) هذا الاستعمال هو استعمال شائع في المصادر الإيطالية المتعلّقة بالتّجارة، انظر على سبيل المثال A. E. Castellani, (ed.). *Nuovi testi fiorentini del dugento* (Florence: Sansoni, 1952) 604-617.

(142) Bonaini, (ed.), *Statuti*, III, 358.

(143) إن الوثائق التي تذكر أكْرِية الفَنادق هي وثائق كثيرة الشيوع. وإضافةً إلى ما سيُذكر أدناه، انظر Sapori (ed.), *Libri giallo*, 179, 185; *Libro del dare e dell'avere di Gentile de'Sassetti e suoi figli* in Castellani (ed.), *Nuovi testi fiorentini del dugento*, 294, 303.

مالي يدفع سنوياً بالعُملة المحلّية الذهبية (الفلوران)[144]. وربّما يقع كِراء المنشآت التجارية باطنيّاً أو كراؤها لمستأجر آخر[145]. وفي جَنَوة تمّ استئجار مَبْنىً سنة 1310م كفُنْدُق ومقرّ إقامة ثم أُعيدَ كراؤه بمقابل باهظ بعد تجديده من أسّه سنة 1347م[146]. وغالباً ما يتحمّل المستأجر تكاليف التجديد وغير ذلك من المصاريف الأُخرى التي ينفقها على أعضاء الرابطة الحِرَفية (منها شراب وعشاء أعضاء الرابطة الحِرَفية أو الشركاء) ضمن معاليم إيجار المباني التجارية. استأجرت رابطة كاليمالا سنة 1319م في فلورنسا فُنْدُقاً في المدينة كان في حالة إهمال وتَمَّ الاحتفاء بالحدث بتنظيم عشاء احتفالي لأعضاء الرابطة. وكان على أعضاء الرابطة، إضافة إلى دفع 45 فلوراناً مقابل كِراء سنوي، أن يوفّروا ما يمكّنهم من ترميمه[147]. وعندما كان الشُّرَكاء في شركة داتيني «Datini» يحتاجون إلى العمل خارج فلورنسا أو براتو «Prato» كانت هناك ترتيبات خاصّة بالشركة لتغطية المصاريف التي أُنفقت على الشركاء أو ممثّلي الشركة في الأكل والشرب وكِراء المنازل أو الفَنادق. . . ولكنّ المصاريف التي يقوم بها الشركاء أو ممثّلو الشركة في شؤون خاصّة فإنه عليهم دفعها من أموالهم الخاصّة. وعندما يكون الشركاء المذكورون في فلورنسا ويحتاجون إلى الإقامة بفُنْداكو لتسيير أعمال الشركة فإن معاليم الكِراء تُدفَع على حساب الشركة[148].

لم يعد الفُنْداكو في كثير من الحالات، مَبْنىً مستقلّاً بذاته بل أصبح عنصراً من بُنْية كبيرة أو من مُرَكَّب فيه العديد من المخازن أو المستودعات المرتبطة

---

(144) Bartolomeo Masi, *Ricordanze di Bartolomeo Masi, calderaio fiorentino dal 1478 al 1526*, ed. G. O. Corazzini (Florence: G. C. Sansoni, 1906) II. هذا السجلّ يعود إلى 1485.

(145) Sapori, *Compagnia di calimala*, 46.

(146) Grossi Bianchi and Poleggi, *Una citta portuale del medioevo*, 222.

(147) Sapori, *Compagnia di calimala*, 41-43.

(148) هذا المثال مأخوذ من عقد مؤرخ سنة 1367م، إن التمييز بين المنزل والفُنْداكو يعني تمايزاً في الوظائف والفصل بين فضاءي السَّكَن والعَمَل:

Enrico Bensa, *Francesco di Marco da Prato: notizie e documenti sulla mercatura italiana del secolo XIV* (Milan: Fratelli Treves, 1928) 289.

بأنشطة المؤسّسة سواء كانت فُنْدُقاً أو مستودعاً خاصّاً. وربّما كانت هذه وضعية المَلَكِيّة الجَنَوية التي ذُكرت أعلاه والتي تمّ كراؤها كفُنْدُق ومقرّ إقامة سنة 1310م والتي قد تكون لعبت دور المَسْكَن والمَخْزَن في الوقت نفسه(149). في فترة لاحقة يتضمّن جَرْدٌ لمحتويات نُزُل بـ باذوا «Padua» سنة 1400م جُمْلةً من الأثاث منها صناديق ورفوف وأرائك. فهذا الأثاث للتخزين يختلف عن المواد التالية مثل الأسِرّة والفُرُش والموائد والكراسي التي تمّ جَرْدُها داخل غُرَف المعيشة وغُرَف النوم، وهو ما يفيد بوجود فصل عَمَليّ بين الفضاءين(150). يذكر فرانكو ساكِتّي «Franco Sacchetti» الكاتب التوسكاني الذي عاش في القرن الرابع عشر قصّة كوميدية تدور أحداثها في البُندقيّة وفيها قامت مجموعة من التجار الفلورنسيين بمُزاح عَمَليّ مع بعض أصحابهم بسرقة قطعة ممتازة من اللحم وهو يُطبخ في منزل جيوفاني دوتشي «Giovanni Ducci» (أحد الفلورنسيين) ثم وضعوا عِوَضاً عنها قُبعة من الجلد في قِدْر الطبخ. ولإلهاء الطبّاخة وإخراجها من المطبخ للقيام بعمليّة تبديل اللحم بالقبعة، طلبوا منها مِفْتاح الفُنْداكو لفحص بضائعهم. فذهبت لفتح باب الفُنْداكو وبقيت تنتظر في حين كانوا يقلبون البالات والحُزَم زاعمين أنهم يقومون بفحصها. في حين كان أحدهم يُسَبِّب الأذى في المطبخ(151).

في بعض الأحيان تؤدّي غُرَف الخزن غَرَضاً إضافيّاً كغُرَف نوم خاصّة عندما يكون ممثّل الشركة مسؤولاً عن حماية البضائع في حفظه. يُشيرُ التداخل في الوظائف إلى مَخاطر محاولة زيادة توصيف استعمال الفضاء. غير أنّ الحضور الظَّرْفي لبعض الخدم الغُفْل يختلف عن الإقامة المعتادة والمنظّمة لمجموعات كاملة من التجار. تُشير قرارات الرابطة الحرفية كاليمالا بفلورنسا إلى أن ممثّلي الشركات الثقات عليهم أن يناموا في الفُنْداكو، وعلى هذا الأساس، فإنّ هذا

---

(149) Grossi Bianchi and Poleggi, *Una citta portuale del medioevo*, 222.
عادة تكون الفَنادق مغلقة، لذلك هناك إشارة إلى أن مِفْتاح فُنْداكو النسيج كان يحمله أحد المنتمين إلى شركة تجارية في فلورنسا في القرن الرابع عشر (Sapori, *Crici*, 281).

(150) Vittorio Lazzarini, «L'albergo del 'Bo' nel 1399,» *Archivio Veneto-tridentino* (Venice) 1 (1922) 300. هناك نُزُل آخر في مُدينا [Modena] له مُشْرِف خاصّ (Coulet, "Inns and Taverns," 471-472. See also Coulet, "Les hôtelleries," 194.

(151) Franco Sacchetti, *Il Trecentonovelle*, ed. E. Faccioli, G. Einaidi (Turin, Giulio Einaidi, 1970) 254-260 (no. 98).

الفضاء يجب أن يوفّر سريراً آخر مستعملاً وحَشِيَّتين وثلاث وسائد وغطاءين صوفيين وثلاثة ملاحف[152]. ويذكر كتاب العادات الحميدة في القرن الرابع عشر لصاحبه باولو دا شيرتالدو «Paolo da Certaldo» إمكانية أن يقضي ممثّل الشركة، عندما يكون مسافراً، ليلة كاملة في الفُنْداكو وفي هذه الحالة عليه أن يبذل جهداً لتدبّر أمره إلى أقصى حدود الملاءمة طوال مدّة إقامته[153]. ولكن، وبشكل عامّ، فإن الإقامة في الفُنْداكو صارت نادرة أكثر فأكثر.

يمكن أن يكون الفُنْداكو أيضاً مثل دُكّان bottega، خاصةً في منطقة توسكانة، مع أن الفُنْداكو يمكن أن يكون مَبْنًى يحتوي على مجموعة من الدكاكين كما كان شائعاً في جَنَوة أو يمكن أن يكون للدُكّان فُنْداكو للخزن مثلما كان موجوداً في سيينا سنة 1343م[154]. ويذكر بيغولوتي أن الكلمتين مترادفتان وقد كانت هذه الكلمات تذكر بكثرة بالتوازي بصيغة الفُنْداكو أو الدكان في جهات أُخرى أو كبدائل لبعضها[155]. وقد كانت تهيئة مساحات للبيع بالمفرَّق واضحة من خلال ترميم أحد الفَنادق في فلورنسا سنة 1319م وذلك بتوفير أرضيّات من الخشب وأثاث وموازين ومكاييل ومساحة خارجية لعرض البضائع[156]. وفي فترة لاحقة، ربطت قرارات رابطة حِرَفيي الكَتّان في فلورنسا سنة 1357م الدكاكين والفَنادق معاً كمراكز لتجارة القماش[157]. وفي سنة 1331م لَمّا احتاجت إحدى الكنائس في فلورنسا إلى الترميم سعت المدينة إلى طُرُق مختلفة لجمع الأموال الضرورية لذلك، ومن بين ما فعلته أن وضعت صناديق صغيرة في «كل فُنْداكو

(152) Sapori, *Compagnia di calimala*, 44.

(153) Paolo da Certaldo, *Libro di buoni costumi*, ed. Alfredo Schiaffini (Florence: Le Monnier, 1945) 141-142.

(154) Grossi Bianchi and Poleggi. *Una citta portuale del medioevo*, 100, 136, 222; Q. Senigaglia, (ed.). "Statuto dell'arte della mercanzia senese," *Bullettino Senese di Storia Patria* 15 (1908) 137.

(155) Pegolotti, *La Pratica della mercatura*, 17; Certaldo, *Libro di buoni costumi*, 96; Banchi, (ed.), *Statuti senesi*, 323.

(156) Sapori, *Compagnia di calimala*, 41-43.

(157) Giuseppe Mastursi, (ed.). "Statuto dell'Æarte dei rigattieri e venditori di panni lini e lino de Firenze del 1357," *Bollettino dell'Opera del vocabolario italiano* 3 (1998) 358, 366, 374-376.

ودُكّان» لجمع الصَّدَقات[158]. فمن الواضح أنها كانت أماكن يمرّ بها الناس ومن ضمنهم الذين لهم بعض الأموال للتصدّق بها من أجل الأعمال الخَيْرية.

كما كانت الفَنادق أماكن يتمّ فيها تسجيلُ المعاملات التِّجارية ومَسْكُ الدفاتر الخاصّة بذلك وتوجد فيها دواوين للكَتَبَة وقاعات للِّقاءات التِّجارية وغير ذلك من المعاملات. وتُشير الجُمَل الختامية لعدد من العُقُود إلى أن الكُتّاب العُدُول كانوا يعملون في الفَنادق. وقد ظهر ذلك أوّلاً في بداية القرن الثالث عشر عندما كان الفُنْداكو لايزال، نسبيّاً، مؤسّسة حديثة في أوروبا الجنوبية. وفي أحد الأمثلة الأُولى يوجد عقد لانتداب خَبّاز في فُنْداكو الجَنَويين بالإسكندرية تمّ تسجيله في أحد الفَنادق في جَنَوة سنة 1200م. وبعد سنوات قليلة عندما اشترك شخصان من عائلة بيديكولا «Pedicula» الجَنَوية مع مُمَوِّل آخر للقيام برحلة إلى الشرق سنة 1203م، تمّ إمضاء العقد في فُنْداكو الشركة الجَنَوية[159]. إن التسجيلات من هذا النوع كانت نموذجية بالنسبة إلى الفنادق في ما وراء البحار سواء في المُدُن الإسلامية أو المستعمرات الجَنَوية في البحر الأسود ولكنّها كانت أقلّ حُدُوثاً في أوروبا حيث يوجد العديد من الأماكن الأكثر ملاءمةً التي يمكن أن يجلس فيها الكُتّاب العُدُول للعمل. ومع هذا، فإن التقليد استمرّ بشكل متقطّع حتى العصور الوسيطة المتأخرة، وهو ما يشير إلى تواصل وجود الفَنادق التجارية الخاصّة كأماكن للعمل. يضمّ دفتر حسابات شركة بيروجي الفلورنسية سنة 1346م ثمن الطعام والشرب والشموع التي تمّ إنفاقها على الكُتّاب العُدُول في فُنْداكو الشركة[160].

---

(158) Villani, *Cronica*, V, 244.

(159) Origone, «Genova,» 312; Giovanni di Guiberto. *Giovanni di Guiberto*, 310-331 (no. 653). يظهر الفُنْداكو نفسه أو ربّما فُنْدُق آخر يخصّ أفراد عائلة بيديكولا [Pedicula] سنة 1186م حيث تذكر الوثائق الدبلوماسية الجَنَوية "فُنْداكو أوبرتي بيديكولا" ["fundici Oberti Pedicule"] الذي يوجد قرب سوق القديس جورج (Imperiale di Sant'Angelo (ed.), *Codice diplomatico*, I, 293-295 (no. 151). كذلك تمّ تحرير جُمْلة من العُقُود بمرسيليا في سنوات 1219 و1227 و1230م في فَنادق خاصة، كان يملك أحدها تاجر جَنَوي (Louis Blancard [ed.], *Documents inédits*, I, 15 (no. 11), 20 (no. 15), 31 (no. 23).

(160) Sapori (ed.), *Libri di commercio dei Peruzzi*,181; Liagre-De Sturler, Léone. *Les Relations commerciales*، تتضمّن هذه الوثائق عُقُوداً تمّ تحريرها في الخارج في فَنادق =

قد كانت الفَنادق في فلورنسا وغيرها من المُدُن الإيطالية مرتبطة خلال القرن الرابع عشر بالبنوك والقروض والمحاسبة. وأصبحت شديدة الارتباط بادّخار الأموال وخَزْن البضائع التجارية على السواء[161]. وهناك إشارات لا تُحصى في دفاتر حسابات التجار في العصر الوسيط المتأخّر إلى "قبض الأموال في الفُنْداكو" أو "دفع الثمن في الفُنْداكو" أو "إرسال الأموال إلى الفُنْداكو". ويبدو واضحاً في بعض المراحل أنّ الفَنادق المعنية بذلك لا تزال مباني يمكن أن توضع فيها الأموال والبضائع وتنقل إليها وتُسحب منها. وهناك حكاية أُخرى رواها ساكِتّي تتعلّق بأحد المحتالين الذي حاول التحايل للحصول على بعض الأموال من أحد الفَنادق في بورتا روزا «Porta Rosa» بفلورنسا فطلب من الصرّاف الذي يوجد هناك بأن ينظر في حسابه ويدفع له 200 فلوران مستحقة له هناك. وعندما لم يجد الصرّاف أيّ حساب باسمه أحدث المحتال ضجة إلى حدّ أن موظّفاً من الفُنْدُق المجاور جاء لاستطلاع الأمر وقد تمكن مُوَظّفا الفُنْداكو من إحباط ومعاقبة السارق المحتمل[162]. فمن الواضح أنه توجد فَنادق عديدة في هذه المنطقة من فلورنسا في القصة (التخييلية) وفي الواقع، إذ ذكر كذلك دوناتو فلوتي «Donato Velluti» فُنْداكو في هذا الشارع، وتُبَيِّن دفاتر حسابات شركة باردي أن أحد شُركائها كان قد وضع بضائع في فُنْداكو مُسْتَأجَر في بورتا روزا في بداية القرن الرابع عشر[163].

يبدو استعمال المصطلح في حالات أُخرى غيرَ مَلْمُوس، مثلاً عندما أشار إلى حساب مصرفيّ (حيث إن هناك مبلغاً «كان مسجّلاً في فُنْدُقنا وجوباً»)[164]، أو عندما تقع الإشارة إلى شراكة تجارية أو فرع تجاري من فروع الشركة الذي يوجد خارج المدينة. وقد ظهر هذا الاستعمال الأخير في إطار الحديث عن شريك غير

= جَنَوية في سنوات 1346 و1386م ([244 [no. 195], 645 [no. 490])، وفي صافونا سنوات 1324 و1325م ([14 [no. 9], 21 [no. 15]).

(161) لا يمكن اعتبار ذلك تطوراً جديداً. فقد كان الأمن في الفَنادق في المُدُن الإسلامية يسمح باستعمالها لِحِفْظ النقود.

(162) Sacchetti, *Il Trecentonovelle*, 501-506 (no. 174).

(163) Velluti, *La Cronica domestica*, 141; Sapori, *Compagnia di calimala*, 31.

(164) Armando Sapori (ed.), *Libri degli Alberti del Giudice* (Milan: Garzanti, 1952) 168.

رئيسيّ أو عن ممثّل للشركة عُيِّن لِـ فُنْداكو بعينه، وقد كان ذلك أمراً شائعاً في الاستعمال التوسكاني في أواخر العصر الوسيط. وعلى سبيل المثال، يذكر بوكاتشيو قصّة أرملة أرسلت ابنها إلى باريس للعمل لدى شركة (فُنْداكو) في حين توجد في قصّة أُخرى أن تاجراً فلورنسيّاً في باريس قرر أن لا يرسل ابنه للعمل في مهنة رجال الأعمال "في أيّ فُنْداكو"[165]. وفي مثال آخر ورد في رسالة رِياضيّات فلورنسية كُتبت حوالى سنة 1374م تطرح مسألةً حسابيّة فيها أن أحد ممثّلي الشركات (فُنْداكو) كان قد استُخدم لمدّة ثلاث سنوات بأجر مختلف في كلّ سنة[166]. وقد أنشأت شركة داتيني خلال أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر عدداً من الفَنادق في مُدُن إيطاليا وفرنسا الجنوبية وممالك الأراغون يختصّ كلّ واحد منها بتجارة مادّة معيَّنة ويسيّرها ممثّلو شركة داتيني[167]. ويبدو أن عائلة الميدتشي «Médicis» قد اعتمدت الأسلوب نفسه في الفترة نفسها باعتماد ممثّلين في عدد من فروعها تضمّ منشآت في بروج «Bruges» والبُندقيّة وروما وكانت تُعْرَف هي نفسها بالفَنادق (فُنْداكو) أو كانت فنادق (فُنْداكو) مدمجة كجزء من مؤسَّسُتهم[168].

كما كانت الفَنادق المَمْلُوكة أو المُسْتَأْجَرة من قِبَل الشركات التجارية أو من قِبَل التجار موجودة خارج إيطاليا سواء في فرنسا الجنوبية وفي إسبانيا ولكن هناك إشارات محدودة لتأكيد وجود هذه المُنْشآت وربّما يعود ذلك إلى قلّة عدد سِجِلّات التجار المسجَّلين أو ربّما في بعض الجهات لقلّة تَرَسُّخ الثقافة التجارية لدى السكّان المحلّيين. تُبيِّن سِجِلّات تقسيم مالقة والْمَرِيّة وغيرهما من مُدُن إسبانيا الجنوبية التي استولى عليها فرديناند وإيزابيلا أن الهُنْدِقا كانت لا تزال

(165) Boccaccio, *Decameron*, I, 457-458; II, 206.

(166) Paolo Dagomari, *Trattato d'aritmetica*, ed. Gino Arrighi (Pisa: Domus Galilaeana, 1964) 149 (no. 187).

(167) Corsani, *I fondaci e i banchi* 35, 91-92, 102.

(168) Armand Grunzweig, (ed.). *Correspondance de la filiale de Bruges des Medici, Ire partie* (Brussels: M. Lamertin, 1931) 56; Raymond de Roover, *The Rise and Decline of the Medici Bank*, 218, 240.

حتى دو روفر [de Roover] كان في حَيْرة مع المعنى الدقيق للفُنْداكو في هذا الإطار. فعندما ذكر أن "تاجراً كان ينشط في الفُنْداكو" في روما، زاد بأن قال "ربّما يعني «الشُعبة التجاريّة» The merchandising department".

تُمنح إلى الخواصّ في أواخر القرن الخامس عشر أكثر ممّا كانت الحالة في القرن الثالث عشر ولو بأعداد قليلة. وعلى خلاف العدد الكبير للفَنادق، فقد ورد ذكر الهُنَدِقا في بَلَنْسية وشَرِيش بعد استيلاء جيمس الأوّل وألفونس العاشر عليها حيث يبرز عدد محدود منها في تقسيم مالقة وألْمَرِيّة ونعرف أيضاً عدداً قليلاً في غَرْناطة. ويبدو أنّ البعض منها قد حُوّل إلى مقرّات للإقامة غير التجارية مثل ما وقع مع مؤسّستي هُنْدِقا تمّ منحهما كمنازل لرجال الدين في كاتدرائية مالقة سنة 1495م. وغالباً ما تبرز هذه المؤسّسات في هذه النصوص كمبانٍ ترسم الحدود بين الملكيات التي منحها الملوك[169]. وربّما نظراً لامتلاكها من قبل الدولة فقد كانت مؤسّسات الهُنْدِقا هامّة من الناحية التجارية في قَشْتالة وممالك الأراغون في أواخر القرن الخامس عشر ممّا صرف الاهتمام عن المنشآت الصغيرة التي يملكها الخواصّ. ومن المحتمل أيضاً أنّ بعضاً من الفَنادق تُؤوي التجار الإيطاليين في الموانئ النَّصْرية وقد كان اقتصاد غرناطة محدوداً في أواخر العصر الوسيط لا يحتمل انتشار الفَنادق التي كانت عادية في القرون السابقة. لذلك كان عدد المُنْشآت التي يمكن تقسيمها قليلاً بعد الاستيلاء على المُدُن النَّصْرية.

ورغم ما كان فيها من بعض التشابُه مع معاصريها في العالم الإسلاميّ فقد كانت الفَنادق في مُدُن أوروبا الجنوبية عامّة تتمتّع بهُوِيّة جديدة بعد ترسيخها في الإطار المسيحي. فقد تطوّرت الفَنادق في أغلب المُدُن الفرنسية والإيطالية لتصبح مراكزَ جِبائية وتجارية جديدة كمستودعات حكومية وكمُنْشآت لخَزْن السلع وفضاءات للأعمال الخاصّة. ولم تواصل الفَنادق القيام بمهمة إسكان التجار الأجانب خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر إلّا في قليل من الجهات التي تساعد فيها الجغرافيا والسياسة على القيام بذلك. وقد كان تطوّر الفَنادق في أوروبا الجنوبية، أكثر من أيّ جِهَة أُخرى من جهات العالم المتوسّطي في العصر الوسيط، مَدِيناً في ذلك للمُصادفة، والنفعية التجارية والمبادرة الإنسانية. لم

---

(169) Bejarano Robles, (ed.), *Repartimientos de Málaga*, 138, 275; M. D. Aguilar García, «Dotación de casas de la mesa capitular: su proyección urbana,» *Jábega: Revista de la Diputación Provincial de Málaga* 56 (1987) 12; Cristina Segura Graiño (ed.). *Libro del Repartimiento de Almería* (Madrid: Universidad Complutense, 1982) 256, 317.

تتطوّر الفَنادق في المُدُن الأوروبية حسب مشيئتها كما لو أن بذور تلك المؤسسة نقلتها الرياح عبر البحر المتوسط. وخلافاً للتطوّر الأوَّلي للبَنْدوكيون والفُنْدُق في شرق المتوسّط وجنوبه، فإنه لم يقع اكتشاف الفَنادق الفرنسية والإيطالية في مواقعها، بعد غزو عسكري أو أيّ تغيير سياسي آخر وهي لم تكن تواصل تطوّرها في المنطقة نفسها في إطار نظام ثقافي وديني ولغوي جديد. بل بالعكس كان مفهوم الفُنْداكو مفهوماً استورده التجار وغيرهم من المسافرين إلى أوروبا عن قصد. وبعد الازدِراع تطوَّرت المؤسسة حسب مصالح وطموحات أولئك الناس ومعاصريهم.

وعلى العموم، فإنّ فكرة الفُنْداكو قد تمّ جلبها إلى أوروبا من قِبَل التجار لاستعمالها من قِبَل التجار. غير أنه أمام انتشار الثقافة التجارية للمُدُن-الدول الإيطالية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (وهي الفترة التي بدأت تظهر فيها الفَنادق في أوروبا الجنوبية) أصبحت مصالح التجار وثيقة الارتباط بمصالح السُّلطات الحَضَريّة في مُدُنهم. وفي كثير من الحالات كان مُسَيِّرو المُدُن أنفسهم تجاراً أو لهم معرفة بالتِّجارة من خلال القنوات الدبلوماسية التي ربطتهم بنظام الفُنْداكو في الإسكندرية وتونس وغيرهما من الموانئ الإسلامية الأُخرى. لذلك تمّ اعتماد خصائص الفُنْداكو في الدوائر الرسمية والخاصّة على السواء، كلّما كانت تخدم الأهداف الجِبائية والتجارية والتنظيمية للأوروبيّين وحكوماتهم. وختاماً فقد كان الفهم الأوروبيّ للفَنادق كذلك نابعاً من الدَّوْر الذي لعبته هذه المنشآت في الموانئ الإسلامية وقد كانت هذه الجوانب فقط هي التي كانت صالحة للتُّجّار المسيحيين والإداريين في الإطار الأوروبيّ وهي التي جعلتها تظلّ حَيّة بعد عبورها للمتوسّط.

خاتــمة

عالم متغيّر: شعوب ومؤسّسات جديدة في بداية العصر المتوسّطي الحديث

على مرّ القرون ـ من البَنْدوكيون الذي ورد في إنجيل لوقا إلى الفُنْداكو في رواية ديكاميرون «*Decameron*» لبوكاتشيو ـ كلمة واحدة أصبحت متعدّدة ومؤسّسة واحدة تفرّعت إلى أسرة ممتدّة من مؤسّسات مُتَّصِل بعضها ببعض. وكما في كلّ عائلة، نمت تلك المؤسّسات منفصل بعضها عن بعض ومع مرور الزمن وعبر المسافات تفرَّعت إلى أغصان أصبح بعضها مختلفاً عن بعض. غير أنه في أغلب الحالات ظلّت ملامحها المشتركة بارزة للعيان. كما ظلّت تُعَرِّف بتجار العصر الوسيط وبالرَّحالة الذين وجدوا هذه الفَنادق والمستعمرات والمخازن حول المتوسّط. وقد ازدهرت الفَنادق ومؤسّسات الفُنْداكو في أغلب المُدُن المتوسّطية سواء في المناطق الإسلامية أو المسيحية (باستثناء بيزنطة) خلال العصر الوسيط. احتفظت هذه المجموعات المؤسّسية دائماً بخصائص متوسّطية أساسية. وبغضّ النظر عن انتشارها عبر الحدود السياسية والدينية واللُّغوية فقد ركّزت جذوراً ثابتة في هذه المنطقة المحاذية لهذا البحر.

أدّت ثقافة التِّجارة والرّحلة المشتركة في العالم المتوسّطي في العصر الوسيط إلى كَوْنِيّة انتشار هذه المؤسّسات. وقد سهّلت البَنْدوكيونات والفَنادق ومؤسّسات الفُنْداكو بدورها مهمّة التجار والرحّالة والحُجّاج وغيرهم من عابري السبيل. قد اهتمّ البَنْدوكيون بضيوفه من جميع جوانب الحياة، وقد كان فضاءً مشتركاً بين الوثنيين واليهود والمسيحيين عبر المتوسّط الشرقيّ خلال الفترة القديمة المتأخرة. وقد أدّى وجود الفَنادق والخانات في المُدُن عبر دار الإسلام بعد القرن السابع، إلى تحديد هُوِيّة هذه المراكز الحَضَرِيّة "كمُدُن" ودعمت هذه

الفَنادق تطوّر مشروع تجاري متنام لتربط بين مختلف جهات العالم الإسلاميّ في العصر الوسيط. وفي فترة لاحقة كان تطوّر الفَنادق الخاصّة بالتجار المسيحيين الغربيين في المُدُن الإسلامية أداة استطاعت من خلالها التِّجارة البحرية الأوروبية أن تنمو في العالم المتوسّطي. وقد جعل نظام الفَنادق المُعَدَّة للإقامة في الموانئ الإسلامية التِّجارة العابرة للثقافات ممكنة بتسهيل عمل التجار الغربيين الذين يمارسون نشاطهم في الخارج. وحتى في أوقات الحرب طوال فترة الحروب الصليبية وخلال التوسُّع العسكري اللاتينيّ في إسبانيا وصِقِلِّية تواصلت التِّجارة المتوسّطية وظلّ الفُنْداكو يوفّر التنظيم والأمن والربح للتُّجّار المسيحيين ومستقبليهم من المسلمين على السواء. لم يؤدِّ صلاح ونفعية الفَنادق ومؤسّسات الفُنْداكو فقط إلى حمايتها في المناطق الإسلامية التي أصبحت خاضعة للحكم المسيحيّ، ولكن أدّى أيضاً إلى استيرادها إلى مُدُن فرنسا الجنوبية وإيطاليا الشمالية التي كانت دائماً بين أيدي الحكم المسيحي. إن ظهور الفَنادق في بيشة والبُندقيّة وفلورنسا ومُدُن أُخرى خلال العصر الوسيط المتأخّر لهو دليل على ما تمثّله هذه المؤسّسة من قيمة.

وعلى الرغم من ازدهار هذه العائلة المؤسّسية في فترة تزيد على الألف سنة في العالم المتوسّطي، فقد أصبح الفُنْدُق والفُنْداكو الوسيطيان بعيدين عن احتياجات واهتمامات عالم يتغيّر في بداية العصر الحديث. فالمقارنة بين القرون الطويلة التي ازدهرت خلالها هاتان المؤسّستان من جِهَة وتدهورهما الواضح من جِهَة ثانية تعبّر عن التحوُّل الجوهري الذي عرفته القِيَم الاقتصادية والثقافية في العالم المتوسّطي. فانطلقت حوالى سنة 1500م مؤسّسات أُخرى، مثل الوكالة والخان واللوجيا والحيّ الخاصّ باليهود (الغيتو)، وأصبحت تقوم بالبعض من المهامّ الأولى التي كان يقوم بها الفُنْدُق والفُنْداكو. وتطوّرت المؤسّسات الأُخرى لتلبي الحاجات الاجتماعية والتجارية الجديدة في إطار بداية العصر الحديث. حدثت تطوّرات هامّة في الممارسات التجارية بالتوازي مع تطوّرات أُخرى كان لها عميق الأثر في المؤسّسات الموجودة من قَبْل وفي الفضاءات التجارية. ومن بينها هناك نظرة جديدة للانتماءات الدينية والسياسية: فَهْمٌ متعصّب للهُوِيّات الجماعية خلق أشكالاً جديدة من التضامن وأدّى في الوقت نفسه إلى العزل

والإقصاء، تطوّرات تقنيّة في مجال البحرية ومجال التقنيّات العسكرية، التوسّع الأوروبيّ للحضور غرب المتوسّط وعلى الساحل الشرقيّ للمُحيط الأطلسي في اتجاه أمريكا وفي الشرق إلى المُحيطين الهادئ والهندي. وظهور مصالح سياسية واقتصادية جديدة في المتوسّط غَيَّرت خريطة العلاقات الدبلوماسية والتجارية عبر البحر. فاصطدمت الهيمنة البُندقيّة والجَنَوية والقَطَلانيّة القديمة بسياسة العثمانيين والهابسبورغ وبالقوة البحرية في بداية القرن السادس عشر. وفي الوقت نفسه أنشأ التجار الفرنسيون والإنكليز والألمان حضوراً تجارياً متنامياً في المتوسّط وأدخلوا الأفكار والمؤسّسات التجارية الشمالية إلى المنطقة. فمثلاً وجد التجار الإنكليز والألمان، الذين كانوا متعوّدين على "نظام المصنع" في المُدُن الهانسياتية «Hanseatic»، الوظائف الموازية لها في نظام الفُنْداكو[1]. وقد يكون لهؤلاء المتدخّلين الأوروبيّين الشماليين الجُدُد في المجال المتوسّطي بعض من الحاجات الأساسية نفسها التي كانت لنظرائهم من قبل ولكنّهم جاءوا كذلك بتوقّعات اقتصادية وتقنيّات بحرية وممارسات تجارية مختلفة جداً. كما جاءوا أيضاً بفهمهم الخاصّ لذواتهم ولغيرهم[2]. فطوَّرت العديد من الدول الأوروبية وبصورة تدريجية سياسات أكثر عدوانية وأكثر استغلالية تجاه جهات أُخرى من العالم وهو توجّه سيكون أكثر بروزاً في العالم المتوسّطي والهند وآسيا والعالم الجديد على السواء.

عندما بدأت أشتغل على هذا الموضوع كنت أعتبر أن الفُنْداكو كان تعبيراً مُبَكِّراً عن الحركة التي ستكوّن الاستعمار الأوروبيّ فيما بعد. فهذه المستعمرات

(1) Curtin, *Cross-Cultural Trade*, 4.

(2) عن تأثير العناصر التجارية الجديدة على مستوى المتوسط، انظر مناقشة مولي غرين [Molly Greene] لمثال جزيرة كريت في بداية العصر الحديث ضمن Molly Greene, *A Shared World: Christians and Muslim in the Early Modern Mediterranean* (Princeton: Princeton University Press, 2000)؛ وكذلك: Molly Greene, «Beyond the Northern Invasion: The Mediterranean in the Seventeenth Century», *Past and Present* 174 (2002) 44-71. وحول تغيُّر النظرة إلى الآخر المختلف دينيّاً في المتوسط في بداية العصور الحديثة، انظر:

Benjamin Braude, «The Sons of Noah and the Construction of Ethnic and Geographical Identities in the Medieval and Early Modern Periods», *William and Mary Quarterly* 54 (1997) 103-42.

المسيحية الغربية تبدو كأنها نماذج أصلية للتوسّع الأوروبيّ فيما بعد نحو استغلال اقتصاديّ لأراضٍ أجنبية. فحتى الكلمات الوسيطة مثل قنصل يبدو أنّ لها صلة مباشرة بالعلاقات الدولية الحديثة والمُعاملات الدبلوماسية. ولكنني واصلت بحثي وخاصّة عندما أخذ هذا الكتاب يتشكّل، أيقنت أن حكاية الفُنْدُق ليست القصّة التي كنت أتصوّرها.

ومن غير شكّ أصبحتُ أكثر اقتناعاً بأن مصادري تتناقض مع روايات الفترة السابقة مباشرةً للاستعمار. فقد كانت مؤسّسات الفُنْداكو مستعمرات غربية في المُدُن الإسلامية ولكنّها مستعمرات بدون مظاهر الاستعمار وأجهزته. كذلك كان وجودها مفيداً لكلّ من المسيحيين الأجانب والمسلمين المحلّيين ويسهّل التفاعل التجاري بين الطرفين وكان الجانب المادّي في المبنى عادة تحت إشراف السُّلطات المحلّية والتجار الأجانب يمكنهم الإقامة به فقط وممارسة نشاطهم في الفُنْداكو حسب رغبة الحكّام المحلّيين. وفوق كلّ ذلك، لم تكن هناك علاقات فرضتها هيمنة عسكرية وتقنيّة أوروبية. فحتى في الإمارات الصليبية، وهي منطقة عادة ما تُذْكَر على أنها تعبير مُبَكّر عن الطموحات الاستعمارية الأوروبية، لم تأخذ الفَنادق شكلاً يتفق مع ما يمكن أن يطلق عليه صفة "استعماري".

تزامن تدهور الفُنْدُق والفُنْداكو في العالم المتوسّطي مع أوّل تعبيرات الاستعمار كما كان متصوّراً تقليدياً. ربّما أصبح هذان النمطان للوساطة الاقتصادية والسياسية بين المحلّيين والأجانب غير ملائمين. إذ يبدو أنّ أنماط التفاعل بين مختلف شعوب العالم المتوسّطي في العصر الوسيط لم تعد هي نفسها التي أصبحت من خصائص بداية الفترة الحديثة والفترة الحديثة نفسها.

وهذه ملاحظة هامّة تدعم النظرية التي تقول بأن التحوّلات الجوهرية حدثت على مستوى التصوّر الأوروبيّ للذات وللآخر وبداية الدولة تقريباً في القرن السادس عشر. وفي الوقت نفسه كانت مواقف العثمانيين تجاه هذه المفاهيم قد بدأت تأخذ شكلاً جديداً مُحْدِثة نظريات تتعلّق بالمجال والسُّلطة والإدارة وهي مختلفة عن الفكر الإسلاميّ قبل ذلك. وكنتيجة، وبغضّ النظر عن واقع الأمد الطويل البروديلي في البعض من جوانبه، تطوّر العالم المتوسّطي الحديث بشكل مختلف عن نظيره الوسيط.

فحتى في المناطق التي ظلّت فيها الفَنادق أدوات للتِّجارة والدبلوماسية إلى بداية الفترة الحديثة، تغلّبت مظاهر القطيعة على مظاهر التواصل. ففي تونس مثلاً على الرغم من تواصل وجود الفَنادق في القرنين السابع عشر والثامن عشر، فإنها أصبحت في خدمة زبائن جُدُد قادمين من الشمال. فقد ذكر رحّالة فرنسي وجود ثلاثة فَنادق في المدينة سنة 1666م: واحد يشترك فيه التجار الإنكليز والألمان وآخر عبارة عن مستودع للتُّجّار اليهود (الذين يعيشون في منازل خاصّة في أماكن أُخرى من المدينة) وفُنْدُق ثالث يسكنه الفرنسيون[3].

يعبّر حضور تجار من الدول الأوروبية الشمالية واختفاء التجار البنادقة والجَنَويين والبروفانسيين والقَطَلانيين الذين هيمنوا في السابق على التِّجارة في تونس، عن تحوُّل كبير في التحكّم في التِّجارة المتوسّطية والمسالك التجارية. فقد كان الإنكليز والهولنديون قد قدموا حديثاً إلى المجال المتوسّطي وكان القناصل الفرنسيون (وهم يختلفون عن البروفانسيين) أوّل من استقرّ بتونس وقد أقرهم هنري الثالث رغم معارضة الهابسبورغ وذلك بعد استيلاء العثمانيين على البلاد التونسية سنة 1574م[4]. لم يكن حضور القُنْصُل الفرنسي يحتاج في الأصل إلى وجود فُنْداكو رغم أن أحد الرحّالة كان قد ذكر وجود وكالة فرنسية في تونس بعد حوالى قرن تقريباً من ذلك سنة 1659م[5]. ومع ذلك بُني فُنْداكو فرنسي جديد سنة 1660م داخل أسوار المدينة في الوقت الذي أُعيدَ فيه فتح تونس أمام التِّجارة الأوروبية في عهد البايات المُراديين سنة 1665م[6]. وقد كان هذا المَبْنَى مماثلاً في هيكله لمباني الفَنادق القديمة ولكنّ موقعه يعبّر عن قطع واضح مع أشكال البروتوكول في الماضي[7]. فقد كان الفُنْداكو الفرنسي الجديد قد بُنِيَ

---

(3) Jacques Revault, *Le Fondouk des français et les consuls de France à Tunis (1660-1860)* (Paris: Editions Recherche sur les Civilisations, 1984) 26.

(4) Revault, *Le Fondouk des français*, 11-12.

(5) Revault, *Le Fondouk des français*, 25.

(6) Abun-Naser, *History of the Maghrib*, 179.

(7) Revault, *Le Fondouk des français*, 21;

قد أطلق أندريه ريمون على هذا المبنى صفة "الأكثر نموذجية" مما بقي من مباني فنادق (فُنْداكو) تونس. André Raymond (*Great Arab Cities*, 44-46).

داخل المدينة ذاتها في حين كانت الفَنادق المسيحية توجد دائماً خارج الأسوار بالقرب من الميناء. وسهّل هذا الفُنْداكو خلال القرنين اللاحقين الحضور الدبلوماسي والتجاري الفرنسي في البلاد التونسية وربّما وفّر الأرضية للاستعمار.

ولكن تمّ تعويضه ببناء قنصلية جديدة سنة 1859م قبل عقدين من فرض الحماية الفرنسية سنة 1883م[8]. وقد تواصل كذلك نظام الفُنْداكو في شرق المتوسّط بعد انتصار الإدارة العثمانية في مصر سنة 1516م. وكان هناك تواصل أكثر ممّا كان في تونس. فقد ذكر غرافين أفاغارت «Greffin Affagart» وهو رحّالة أوروبيّ زار الإسكندرية سنة 1533م، أربعةَ فَنادق أوروبية في المدينة اثنان يتصرف فيهما البنادقة وواحد يتصرف فيه الجَنَويون والآخر يتصرف فيه الفرنسيون (وكانوا قد أخذوه عن الإسبان)[9]. وربما كان هذا التغيير تغييراً حديثاً نسبيّاً لأنه كان لا يزال هناك قُنْصُل قَطَلانيّ في مصر سنة 1525م[10]. وفي فترة لاحقة في القرن السادس عشر أقام رحّالة آخر هو كارليه دي بينون «Carlier de Pinon» في فُنْدُق للبنادقة في رَشِيد سنة 1579م[11]. وبعد عقدين من ذلك عندما زار كريستوف هاران «Christophe Harant» مصر سنة 1598م وصف الفَنادق وقناصلها بالصيغة نفسها التي استعملها الملاحظون الأوروبيّون من قبل[12].

ومع ذلك توقّف استعمال كلمة فُنْداكو مع مرور الزمن في مصر. وذكر زائر ألماني سنة 1634م أنَّ قنصل البُندقيّة في رشيد كان يسكن مبنى "يطلق عليه

---

(8) Revault, *Le Fondouk des français*, 40 . كان هناك كذلك فَنادق إسلامية عاديّة في تونس في الفترة الحديثة وهي تستعمل كمخازن ودكاكين للحِرَف ومقرّات سَكَن، انظر Callens, “L’Hébergement à Tunis,” 257-271.

(9) Greffin Affagart, *Relation de Terre Sainte (1533-1534)*, ed. J. Chavanon (Paris: Librairie Victor Lecoffre, 1902) 50.
يصف الكاتب نفسه الفَنادق التجارية بالقاهرة ولكن ليس فيها ما هو على ملك المسيحيين الغربيين (*ibid.*, 175).

(10) López de Meneses, «Los Consulados catalanes,» 123.

(11) Combe, «Inscription arabe,» 119-120.

(12) Christophe Harant, *Voyage en Egypte* (Cairo: Institut français d’archéologie orientale, 1972) 35-38, 260, 274-275.

الأتراك اسم هان" في حين سمّاه رحّالة فرنسي سنة 1647م وكالة[13]. تعدّ هذه الملاحظات صدى لتلك التي أوردها الرحّالة المسلمون الذين لاحظوا تدهور الفُنْدُق وتراجعه أمام منافسه التقليدي الخان وكذلك الوكالة. وأصبحت هذه الأخيرة الفضاء التجاري المُحَبَّذ في مصر المملوكية وتواصلت هيمنتها في ظلّ الحكم العثماني كما بُنيت وكالات تجارية عديدة في القاهرة وبولاق في القرنين السادس عشر والسابع عشر[14]. وفي الفترة التي وصل فيها نابوليون إلى مصر وطلب إجراء مسح للبلاد سنة 1798م لم يكن هناك فُنْدُق واحد في القاهرة[15]. يبدو أن الفُنْداكو قد اتّبع المسار نفسه.

في الشام العثماني وفي الأناضول، دعمت مفردات التِّجارة والسكن تفضيل الخان في القرن الخامس عشر وأصبحت كلمتا الفُنْدُق والفُنْداكو قليلة الاستعمال. إن تزايد استعمال اللُّغة التركية كانت له أسباب ليكون كذلك، ولكن التوجّه نفسه كان واضحاً في اللُّغة العربية. ففي ظلّ بداية الحكم العثماني في اسطنبول ودمشق وحلب كان الدبلوماسيون والتجار المسيحيون الغربيون يمارسون نشاطهم في الخانات وفي فضاءات تجارية أُخرى وليس في الفَنادق. تتضمّن معاهدة مُبرَمة بين جَنَوة والسُّلطان مُحمّد الثاني (مُحمّد الفاتح) الحقّ في منازل ودكاكين ومستودعات وعقارات أُخرى في حيّ غالاتا «Galata» ولكنّها لا تذكر الفَنادق[16]. وإن كان ذلك حقيقة بالنسبة للمدينة البيزنطية رغم أنه كانت بها فضاءات تجارية تشبه الفَنادق القديمة في الشكل والوظيفة فإنها لم تكن تحمل الاسم نفسه. لذلك عندما زار الرحّالة الإيطالي جيوفاني ماريا دالي أنجيوللو «Giovanni Maria degli Angiolello» العاصمة العثمانية الجديدة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، شبه البادستان «*Bedestan*» في البازار «*Bazaar*» الرئيسيّ بفُنْداكو الألمان في البُندقيّة[17]. بدأ انتهاج العثمانيين لسياسات تجارية جديدة

(13) Combe, «Inscription arabe,» 119-120.

(14) Hanna, *An Urban History of Būlāq*, 29-32, 87; Hanna, *Making Big Money in 1600*, 128-131.

(15) Raymond, *Artisans et commerçants*, 254.

(16) Sanguinetti, (ed.), *Relazioni di Genova coll'Impero Bizantino*, 562.

(17) Concina, *Fondaci*, 138.

خلال القرن السادس عشر يُحوّل التّجارة الأوروبية في المتوسّط الشرقيّ عن النماذج السابقة[18]. وهو ما يتضمّن الابتعاد عن البروتوكول الوسيط الذي كان موجوداً لفترة طويلة في خدمة التّجارة والتجار عبر الثقافات المختلفة.

توضح كلّ من المصادر العربية والأوروبية أنّ المجموعات التجارية الأوروبية في الشام كانت تمارس نشاطها في الخانات وليس في الفَنادق في بداية الفترة الحديثة. وقد كانت وظيفة هذه الخانات كفضاءات للتِّجارة عوضاً عن مقرّات للإقامة المُنْفَصِلة في ازدياد. وقد تذمّر الفقيه ابن الحَنْبلي (ت سنة 1564م) من "أن الفرنج الذين كانوا عادة يسكنون في الخانات أصبحوا الآن يقيمون بصورة عادية في المنازل" بمدينة حلب. إلّا أنه ذكر أنّ خاناً "مُنح للفرنج وقنصلهم" في المدينة[19]. وقد يكون هذا الخان هو خان الشَّيْباني وهو مَبْنًى يُعَرَّف محلياً كذلك على أنه "خان الفرنج" (وعندما ذهب الفرنسيسكان إلى حلب سنة 1570م يبدو أنهم أقاموا بذلك المبنى أو بالقرب منه)[20]. أيضاً يستعمل الكُتّاب الأوروبيّون عادة عبارة خان (أو هان) في إشارة إلى تجارة الشام باستثناء البنادقة الذين واصلوا تفضيل عبارة فُنْداكو إلى القرن السابع عشر. يُبيِّن ذلك تأثير تواصل وجود فُنْداكو الألمان في بلادهم في مدينة البُندقيّة[21]. على أنه عندما تُشير وثيقة من البُندقيّة من الشام سنة 1614م إلى بضائع "الفُنْداكو" فقد يعني هذا الاستعمال حسب المعنى الإيطالي المعاصر لتلك الفترة، "شركة تجارية" أو "مستودعاً" عِوَضاً عن مقرّ للإقامة[22]. وكما كان الأمر في مختلف جهات المتوسّط كانت المجموعات التجارية الجديدة يدعم بعضها بعضاً في الأسواق الشامية في بداية الفترة الحديثة. فكان التجار الألمان والإنكليز والفرنسيون يشتركون في الفضاء القُنْصُلي والإداري في خان واحد كبير بحلب. ولكنّ تزايد

(18) Kate Fleet, *European and Islamic Trade in the Early Ottoman State: The Merchants of Genoa and Turkey* (Cambridge: Cambridge University Press, 1999) 133.

(19) Sauvaget, *Alep*, 173.

(20) ابن الشِّحْنة، الدُرّ المُنْتَخَب، ص193-194.

(21) بقي فُنْداكو الألمان موجوداً إلى أن خضعت جمهورية البُنْدقية لـ نابليون سنة 1797م.

(22) «Merci di fondaco»: G. Berchet, *Relazioni dei consoli veneti nella Siria* (Turin: G. B. Paravia, 1866) 158; Sauvaget, *Alep*, 201.

أعمالهم مع مرور الزمن أدّى إلى الانتقال إلى خانات وإقامات منفصلة[23]، حتى إن الإنكليز استأجروا مَبْنًى يُعْرَف في سنة 1803م بخان الإنكليز[24].

ما الذي حدث للفُنْدُق والفُنْداكو؟ لقد قامت هذه الدراسة بتتبُّع وجود هذه المؤسّسات المذكورة وتطوّرها وتواصلها في العالم المتوسّطي عبر فترة تمتدّ على مئات السنين وهي اليوم لا تعدو أن تكون سوى ظلّ لشكلها الكوني والمعقّد الذي كان موجوداً في العصر الوسيط. فقد بقيت كلمة فُنْدُق في اللُّغة العربية المعاصرة للتعبير عن النُّزُل ولكنّها فقدت التشابك التجاري والجماعي والخَيْري الذي كانت تُنْعَت به على أنه من خصائص تلك المؤسّسة. وخلال إقامتي الحديثة في نُزُل hotel بلندن قرأت لافتةً باللُّغة العربية في غُرفتي تتمنّى لي أن أنعم بإقامتي في ذلك الفُنْدُق. فلو كان ابن جُبَيْر أو ابن بَطُّوطة هو الذي كتب ذلك فهل كانا سيستعملان كلمة فُنْدُق؟ ربّما كان ذلك نظراً لعدم وجود تعبير أفضل. ورغم أن الفُنْدُق الحديث يوفّر الأسرّة للمسافرين (وليس على طريقة البَنْدوكيون في العصر القديم) فهو لا يوفّر فضاءً للخزن أو لبيع المواد التجارية وليس هناك معنى للجماعة بين النُّزَلاء ولا حزام أمني وقليل من الرقابة من قبل السُّلطة الحَضَريّة[25]. كما أنه لا يقوم بأعمال خَيْرية مثلما كان يقوم بها الفُنْدُق في العصر

(23) Sauvaget, *Alep*, 217-219.

(24) Abdul-Karim Rafeq, «Ownership of Real Property by Foreigners in Syria, 1869-1873," in *New Perspectives on Property and Land in the Middle East*, ed. Roger Owen (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2000) 229-230.

(25) ما زالت بعض الفَنادق الحديثة تحافظ على السُّمعة المُريبة التي كانت قد مَيَّزت البَنْدوكيونات والعديد من فَنادق العصر الوسيط. ففي سنة 1927م ذكر أحد الرحالة البولونيين الذي زار الجزائر أن الفَنادق "تعجّ بالمغنيات والراقصات من مختلف الأعـمـار" (Judy Mabro, *Veiled Half-Truths. Western Travellers' Perceptions of Middle Eastern Women* [London: I. B. Tauris, 1991] 209). كما لاحظ روجيه لو تورنو [Roger Le Tourneau] أن التُّجّار بفاس في القرن العشرين يتجنبون عادة الإقامة في الفَنادق نظراً إلى سمعتها غير اللائقة ولقذارتها وعدم مناسبتها للراحة. كما ان هذه الفَنادق كانت تُستعمَل للخزن أو تؤجّر للحِرَفيين (*Fès avant le Protectorat. Etude économique et sociale d'une ville de l'occident musulman* [Casablanca: Publications de l'Institut des hautes études marocaines, 1949] 190-191, 317).

الوسيط إذ يوفّر الإقامة للمسافرين المُعْوِزين أو يوفّر الأموال لأعمال خَيْرية أخرى. وقد عرفت كلمة فُنْداكو المسار نفسه نحو التفكُّك. فبعدما استُعملت هذه الكلمة للتعبير عن مُنْشأة كانت هامّة في المُبادلات التجارية بين المُدُن الإسلامية والمسيحية وأُدمجت فيما بعد في إطار أوروبا الجنوبية، فهي اليوم تعني مستودعاً في اللُّغة الإيطالية الحديثة. أما ابن عمّها القَشْتالي، الهُنْدِقا، فهو يشير ببساطة إلى مخزن حبوب. إن مؤسّسات الفُنْدُق والفُنْداكو لم تندثر بعد العصر الوسيط في العالم المتوسّطي، ولكنّها فقدت ثراء وظيفتها وأهمّيتها والاعتراف الذي كانت تتمتّع به لقرون عديدة.

ببليوغرافيا مختارة

المصادر والمراجع الأجنبية والعربية المترجمة

'Abd ar-Rāziq, Aḥmad. "La *ḥisba* et le *muḥtasib* en Egypte au temps des Mamlūks," *Annales Islamologiques* 13 (1977) 115–178.

Abdi, Kamyar. Review of Kiāni and Kleiss, *Kārvānsarāhā-ye Irān, al-'Usur al-Wusta* 8 (1996) 57–58.

Abellán Pérez, Juan. "Del urbanismo musulmán al urbanismo cristiano. 1: Andalucía occidental," *Ponencias y communicaciones*, Institución Fernando el Católico, Zaragoza, 1991, 189–202.

Abū Ṣāliḥ. *The Churches and Monasteries of Egypt and Some Neighboring Countries*, trans. B. T. A. Evetts, Anecdota Oxoniensia, Oxford, 1895.

Abū Shāmah, 'Abd al-Raḥmān. *Al-Bā'ith 'alā inkār al-bida' wa al-ḥawādith*, Dār al-Rayah, Riyadh, 1990.

Abulafia, David. "The Anconitan Privileges in the Kingdom of Jerusalem and the Levant Trade of Ancona," in *I comuni italiani nel regno crociato di Gerusalemme*, ed. G. Airaldi and B. Kedar, Istituto di Medievistica, Genoa, 1986, 525–570.

"The Crown and the Economy under Roger II and his Successors," *Dumbarton Oaks Papers* 27 (1983) 1–14.

Frederick II: A Medieval Emperor, Oxford University Press, New York, 2nd ed., 1992.

"From Privilege to Persecution: Crown, Church and Synagogue in the City of Majorca, 1229–1343," in *Church and City, 1000–1500*, ed. D. Abulafia et al., Cambridge University Press, Cambridge, 1992, 111–126.

"The Levant Trade of the Minor Cities in the Thirteenth and Fourteenth Centuries: Strengths and Weaknesses," *Asian and African Studies* 22 (1988) 183–202.

A Mediterranean Emporium. The Catalan Kingdom of Majorca, Cambridge University Press, Cambridge, 1994.

"Pisan Commercial Colonies and Consulates in Twelfth-century Sicily," *English Historical Review* 93 (1978) 68–81.

The Two Italies. Economic Relations between the Norman Kingdom of Sicily and the Northern Communes, Cambridge University Press, Cambridge, 1977.

"A Tyrrhenian Triangle: Tuscany, Sicily, Tunis, 1276–1300," *Studi di storia economica toscana nel Medioevo e nel Rinascimento in memoria di Federigo Melis*, Pacini, Pisa, 1987, 53–75.

Abu-Lughod, Janet. *Before European Hegemony. The World System AD 1250–1350*, Oxford University Press, New York, 1989.

Abun-Nasr, Jamil N. *A History of the Maghrib*, Cambridge University Press, Cambridge, 1975.

Acta Philippi et Acta Thomae. ed. Maximilianus Bonnet, *Acta Apostolorum Apocrypha*, II.2, Leipzig, 1903 (repr. Georg Olms Verlag, Hildesheim, 1990).

Adamo de Citella. *Le imbreviature del notaio Adamo de Citella a Palermo*, ed. Pietro Burgarella, Centro de Ricerca, Rome, 1981.

Adler, Elkan N. (ed. and trans.). *Jewish Travellers*, George Routledge & Sons, London, 1930.

Adorno, Anselm. *Itinéraire d'Anselme Adorno en Terre Sainte (1470–71)*, ed. and trans. Jacques Heers and Georgette de Groer, Centre national de la recherche scientifique, Paris, 1978.

Aelian. *Historical Miscellany*, ed. and trans. N. G. Wilson, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1997.

Aeschines. *The Speeches of Aeschines*, ed. and trans. Charles Darwin Adams, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1988.

Affagart, Greffin. *Relation de Terre Sainte (1533–1534)*, ed. J. Chavanon, Librairie Victor Lecoffre, Paris, 1902.

Agapius of Manbij. "Kitāb al-ʿUnvān (Histoire universelle, écrite par Agapius de Menbidj)," ed. A. A. Vasiliev, *Patrologia Orientalis* (Paris) 8 (1912) 397–550.

Aguilar García, Maria D. "Dotación de casas de la mesa capitular: su proyección urbana," *Jábega: Revista de la Diputación Provincial de Málaga* 56 (1987) 3–12.

Agus, Irving A. *Urban Civilization in Pre-Crusade Europe*, Yeshiva University Press, New York, 1965.

Ahrweiler, Hélène. "Encore à propos du Funduq," *Itinéraires d'orient: hommage à Claude Cahen*, *Res Orientales* 6 (1994) 195–196.

Airaldi, Gabriella. *Genova e Spagna nel secolo XV: Il "Liber damnificatorum in regno Granate" (1452)*, Università di Genova, Genoa, 1966.

Alarcón y Santón, Maximiliano A. (ed. and trans). *Los documentos árabes diplomáticos del Archivo de la Corona de Aragón*, Publicaciones de las Escuelas de Estudios Árabes de Madrid y Granada, Madrid, 1940.

Alcalá, Pedro de. *Petri Hispani de lingua Arabica libri duo*, ed. Paul de Lagarde, Arnoldi Hoyer, Göttingen, 1883.

(Alfonso I of Naples). *Il "Codice Chigi". Un registro della Cancelleria di Alfonso I d'Aragona, re di Napoli, per gli anni 1451–1453*, ed. Jole Mazzoleni, L'Arte Tipografica, Naples, 1965.

Diplomatico aragonese Re Alfonso I (1435–1458), ed. Eustacio Rogadeo, Codice diplomatico barese, II, Vecchi, Bari, 1931.

(Alfonso III of Aragón). *Documentos del reinado de Alfonso III de Aragón, relativos al antiguo reino de Valencia y contenidos en los registros de la corona de Aragón*, ed. Rafael Gallofre Guinovart, Institución Alfonso el Magnánimo, Valencia, 1968.

(Alfonso X of Castile). *Diplomatario andaluz de Alfonso X*, ed. Manuel González Jiménez, Seville, Caja de Huelva y Sevilla, 1991.

Fueros y privilegios de Alfonso X el Sabio al reino de Murcia, ed. Juan Torres Fontes, Colección de documentos para la historia de Murcia 3, Academia Alfonso X el Sabio, Murcia, 1973.

Las Siete partidas, in *Los códigos españoles*, II–V, 2nd ed., Madrid, 1872; trans. Samuel Parsons Scott, *Las Siete Partidas*, Commerce Clearing House, Inc., Chicago, 1931 (new ed., ed. R. I. Burns, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 2001).

Alhamzeh, Khaled A. "Late Mamlūk Patronage: Qansuh Ghūrī's *Waqf* and his Foundations in Cairo," Ph.D. dissertation, Ohio State University, Columbus, 1993.

Allen, Nigel. "Hospice to Hospital in the Near East: An Instance of Continuity and Change in Late Antiquity," *Bulletin of the History of Medicine* 64 (1990) 446–462.

Allouche, Adel. *Mamluk Economics. A Study and Translation of al-Maqrīzī's Ighāthah*, University of Utah Press, Salt Lake City, 1994.

Amari, Michele (ed.). *I diplomi arabi del R. archivio fiorentino*, Tipografia di F. Le Monnier, Florence, 1863.

Ametller y Viñas, Josép. *Alfonso V de Aragón en Italia y la crisis religiosa del siglo XV*, P. Torres, Gerona, 1903.

Amin, M. M. *Fihrist wathā'iq al-Qāhirah ḥatta nihāyat 'aṣr salāṭīn al-mamālīk*, al-Ma'had al-'Ilmī al-Faransī lil-Athar al-Sharqīyah, Cairo, 1981.

Amin, M. M. and Laila Ibrahim. *Architectural Terms in Mamlūk Documents*, American University in Cairo Press, Cairo, 1990.

al-Anṣārī, Muḥammad b. al-Qāsim b. 'Abd al-Malik. "Une Description de Ceuta musulmane au XVe siècle. L'*Iḥtiṣār al-aḥbār* de Muḥammad al-Kāsim ibn 'Abd al-Malik al-Anṣārī," ed. E. Lévi-Provençal, *Hespéris* 22 (1935) 145–176; French trans. A. M. Turki, "La Physionomie monumentale de Ceuta: un hommage nostalgique à la ville par un de ses fils, Muḥammad b. al-Qāsim al-Anṣārī," *Hespéris-Tamuda* 20–21 (1982–1983) 113–162.

Antoniadis-Bibicou, Hélène. *Recherches sur les douanes à Byzance, Cahiers des Annales* 20, Centre national de la recherche scientifique, Paris, 1963.

Appianus of Alexandria. *Bellorum civilium*, I, ed. Emilio Gabba, La "Nuova Italia" Editrice, Florence, 2nd ed., 1967; trans. Horace White, *The Roman History of Appian of Alexandria*, Macmillan, New York, 1899.

Arbel, B. "Venetian Trade in Fifteenth-century Acre: The Letters of Francesco Bevilaqua (1471–1472)," *Asian and African Studies* 22 (1988) 227–288.

Arié, Rachel. *L'Espagne musulmane au temps des Nasrides (1232–1492)*, E. De Boccard, Paris, 1973.

Artemidorus Daldianus. *Artemidori Daldiani Onirocriticon libri V*, ed. Roger A. Pack, Teubner, Leipzig, 1963; trans. Robert White, *On the Interpretation of Dreams*, Original Books, Torrance, CA, 1990.

Le Livre des songes. Traduit du grec en arabe par Ḥunayn b. Isḥāq, ed. Toufic Fahd, Institut français de Damas, Damascus, 1964.

Artizzu, Francesco (ed.). *Documenti inediti relativi ai rapporti economici tra la Sardegna e Pisa nel medioevo*, Casa Editrice Dott. Antonio Milani, Padua, 1962.

Ashqar, Muhammad'Abd al-Ghanī. *Tujjār al-tawwābil fī Miṣr fī al-'Aṣr al-Mamlūkī*, al-Hay'ah al-Miṣriyyah al-'Ammāh lil-Kutub, Cairo, 1999.
Ashtor, Eliyahu. *History of the Jews in Egypt and Syria under the Rule of the Mamlūks*, 3 volumes, Mossad Harav Kook, Jerusalem, 1944–1970.
Levant Trade in the Later Middle Ages, Princeton University Press, Princeton, 1983.
"New Data for the History of Levantine Jewries in the Fifteenth Century," *Bulletin of the Institute of Jewish Studies* 3 (1975) 67–102.
Atiya, Aziz Suryal. *Egypt and Aragon: Embassies and Diplomatic Correspondence between 1300 and 1330* AD, F. A. Brockhaus, Leipzig, 1938.
"An Unpublished XIVth Century *Fatwā* on the Status of Foreigners in Mamlūk Egypt and Syria," *Studien zur Geschichte und Kultur des Nahen und Fernen Ostens Paul Kahle*, E. J. Brill, Leiden, 1935, 55–68.
Attaleiates, Michael. *La Diataxis de Michel Attaliate*, Institut français d'études byzantines, Paris, 1981.
Auld, Sylvia. "The Mamluks and the Venetians Commercial Interchange: the Visual Evidence," *Palestine Exploration Quarterly* 123 (1991) 84–102.
'Awn, 'Abd al-Raḥmān. *Abū 'Abd Allāh al-Ubbī wa kitābuhu "al-Ikmal,"* al-Dār al-'Arabiyah lil-Kitāb, Tripoli, 1983.
al-Azdī, Yazīd ibn Muḥammad. *Tā'rīkh al-Mawṣil*, al-Majlis al-'Alā li-l-Shu'ūn al-Islāmiyyah, Cairo, 1967.
al-Azharī, Muḥammad ibn Aḥmad. *Tahdhīb al-lughah*, al-Dār al-Miṣriyah lil-Ta'līf wa al-Tarjamah, Cairo, 1964–1967.
al-Bakrī, Abī 'Ubaid Allāh ibn 'Abd al-'Azīz. *Kitāb al-ma'rūf bi-al-masālik wa al-mamālik*, ed. De Slane, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1965.
al-Balādhurī, Aḥmad ibn Jābir. *Kitāb futūḥ al-buldān*, ed. M. J. de Goeje, E. J. Brill, Leiden, 1866; trans. Philip K. Hitti, *The Origins of the Islamic State*, Khayats, Beirut, 1966.
Balard, Michel. *Gênes et l'outre-mer*, Mouton, Paris, 1973.
"L'Organisation des colonies étrangères dans l'empire byzantin (XIIe–XVe siècle)," *Hommes et richesses dans l'empire byzantin (VIIIe –XVe siècle)*, ed. Vassiliki Kravari, P. Lethielleux, Paris, 1991, II, 261–276.
"I pisani in Oriente dalla Guerra di Acri (1258) al 1406," *Studi di storia pisana e toscana in onore del Prof. Cinzio Violente*, Pacini, Pisa, 1991, 1–16.
Balard, Michel (ed.). *Notai genovesi in Oltremare. Atti rogati a Cipro da Lamberto di Sambuceto (11 Ottobre 1296–23 Giugno 1299)*, Collana Storica di Fonti e Studi, Universitá di Genova, Genoa, 1983.
La Romanie génoise (XIIe–début du XVe siècle), Ecole française de Rome, Rome, 1978.
Ballesteros y Baretta, Antonio. *Sevilla en el siglo XIII*, Establecimiento Tipográfico de Juan Pérez Torres, Madrid, 1913.
Balletto, Laura. "Da Chiavari al Levante ed al Mar Nero nei secoli XIII e XIV," *Atti del Convegno Storico Internazionale per l'VIII centenario dell'urbanizzazione de Chiavari (8–10 Novembre 1978)*, Azienda Autonoma Soggiorno e Turismo, Chiavari, 1980, 229–298.

Banchi, Luciano (ed.). *Statuti senesi scritti in volgare ne'secoli* XIII *e* XIV *e pubblicati secondo i testi del R. Archivio di Stato in Siena*, II, Gaetano Romagnoli, Bologna, 1871.
Barceló Torres, Maria del Carmen. *Minorías islámicas en el país valenciano. Historia y dialecto*, Instituto Hispano-Árabe de Cultura, Valencia, 1984.
Baron, Salo Wittmayer. *The Jewish Community, its History and Structure to the American Revolution*, Jewish Publication Society of America, Philadelphia, 1945.
Bauckham, Richard. "The Scrupulous Priest and the Good Samaritan: Jesus' Parabolic Interpretation of the Law of Moses," *New Testament Studies* 44 (1998) 475–489.
Beckingham, C. F. "The *Riḥla*: Fact or Fiction?" in *Golden Roads: Migration, Pilgrimage, and Travel in Medieval and Modern Islam*, ed. Ian Richard Netton, Curzon Press, Richmond, 1993, 86–94.
Bedjan, Paul (ed.). *S. Martyrii, qui est Sahdona quae supersunt omnia*, Otto Harrassowitz, Leipzig, 1902.
Behrens-Abouseif, Doris. "Qāytbāy's Investments in the City of Cairo: Waqf and Power," *Annales Islamologiques* 32 (1998) 29–40.
Bejarano Robles, Francisco (ed.). *Los Repartimientos de Málaga*, Universidad de Málaga, Málaga, 1985.
Bel, Alfred. "Inscriptions arabes de Fès," *Journal Asiatique* 10 (1917) 82–170, 215–267, 303–329; 12 (1918) 189–276, 337–399; 13 (1919) 5–87.
Belgrano, L. T. "Documenti riguardanti la colonia genovese di Pera," *Atti de la Società Ligure di Storia Patria* (Genoa) 13 (1877–1884) 97–336, 931–1004.
"Trattato del sultano d'Egitto col Commune di Genova nel MCCLXXXX," *Atti de la Società Ligure di Storia Patria* (Genoa) 19 (1887) 162–175.
Bell, Harold Idris. *The New Gospel Fragments*, British Museum, London, 1955.
Benjamin of Tudela. *The Itinerary of Benjamin of Tudela*, ed. and trans. Marcus Nathan Adler, Henry Frowde, London, 1907.
Bensa, Enrico. *Francesco di Marco da Prato: notizie e documenti sulla mercatura italiana del secolo* XIV, Fratelli Treves, Milan, 1928.
Berchet, Guglielmo. *Relazioni dei consoli veneti nella Siria*, G. B. Paravia, Turin, 1866.
Beylié, Léon Marie Eugène. *L'Habitation byzantine: recherches sur l'architecture civile des Byzantins et son influence en Europe*, E. Leroux, Paris, 1902.
Blancard, Louis (ed.). *Documents inédits sur le commerce de Marseille au moyen-âge*, Baralatier-Feissat père et fils, Marseille, 1884–1885.
Blason-Berton, Mirella. "Brevi note sul consolato veneto delle Baleari," VIII *Congreso de historia de la Corona de Aragón: Valencia, 1 a 8 de octubre de 1967*, Sucesor de Vives Mora, Valencia, 1969, II, 295–313.
Bloom, Jonathan M. "Funduq," *Dictionary of the Middle Ages*, V, 312–313.
Boas, Adrian J. *Crusader Archaeology. The Material Culture of the Latin East*, Routledge, London, 1999.
Boccaccio, Giovanni. *The Decameron*, Istituto Geografico de Agostini, Novara, 1962; English trans. G. H. McWilliam, Penguin Books, Harmondsworth, 1972.

Bofarull y Mascaró, Próspero de (ed.). *Procesos de la antiguas cortes y parlamentos de Cataluña, Aragon, y Valencia*, D. José Eusebio Monfort, Barcelona, 1849.

Repartimientos de los reinos de Mallorca, Valencia, y Cerdaña, Imprenta del Archivo, Barcelona, 1856.

Bofarull y de Sartorio, Manuel de (ed.). *Rentas de la antigua Corona de Aragón*, Imprenta del Archivo, Barcelona, 1871.

(*Book of the Eparch*). *Das Eparchenbuch Leons des Weisen*, ed. Johannes Koder, Verlag der Österreichischen Akademie der Wissenschaften, Vienna, 1991; *Le Livre du préfet*, ed. Jules Nicole, H. Georg, Libraire-Editeur, Geneva, 1893; trans. A. E. R. Boak, in "Notes and Documents: The Book of the Prefect," *Journal of Economic and Business History* 1 (1928–1929) 597–619.

Bon, Moretto. *Moretto Bon, notaio in Venezia, Trebizonda e Tana, 1403–1408*, ed. Sandro De'Colli, Comitato per la Publicazione delle Fonti Relative alla Storia di Venezia, Venice, 1963.

Bonaini, Francesco (ed.). *Statuti inediti della città di Pisa del XII al XIV secolo*, Presso G. P. Vieusseux, Florence, 1854–1870.

Bongi, Salvatore (ed.). *Bandi lucchesi del secolo decimoquarto, tratti dai registri del R. Archivio di Stato in Lucca*, Tipografia del Progresso, Bologna, 1863.

Bonvicinus de Rippa. "De magnalibus urbis Mediolani," ed. F. Novati, *Bullettino dell'Istituto Storico Italiano* 20 (1898) 67–114.

Borghesi S. and L. Banchi (eds.). *Deliberazione del consiglio della Campana riguardante la fabbrica del fondaco buio degli Ugurgieri, nuovi documenti per la storia dell'arte senese*, Torrini, Siena, 1898, 31–36.

Borsari, Silvano. *Il dominio Veneziano a Creta nel XIII secolo*, Fausto Fiorentino Editore, Naples, 1963.

Borsari, Silvano. "Pisani a Bisanzio nel XII secolo," *Studi di storia pisana e toscana in onore del Prof. Cinzio Violente*, Pacini, Pisa, 1991, 59–75.

Bosch Vilá, Jacinto. *La Sevilla islámica 712–1248*, Universidad de Sevilla, Seville, 1988.

Boswell, John. *The Royal Treasure. Muslim Communities under the Crown of Aragon in the Fourteenth Century*, Yale University Press, New Haven, 1977.

Bouayed, Mahmoud-Agha. "Le Port de Hunayn, trait d'union entre le Maghreb Central et l'Espagne au moyen âge," *Relaciones de la Península Ibérica con el Maghreb (siglos XIII–XVI)*, ed. M. García-Arenal and M. J. Viguera, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1988, 325–359.

Bowsky, William M. *The Finances of the Commune of Siena, 1287–1355*, Clarendon Press, Oxford, 1970.

Branca, Vittore. *Boccaccio. The Man and his Works*, New York University Press, New York, 1976.

Bratianu, George Ioan. *Etudes byzantines d'histoire économique et sociale*, Paul Guethner, Paris, 1938.

"L'Expérience d'économie dirigée: le monopolie du blé à Byzance au XIe siècle," *Byzantion* 9 (1934) 643–662.

Recherches sur le commerce génois dans la Mer Noire au XIIIe siècle, Paul Geuthner, Paris, 1929.

Bratianu, George Ioan (ed.). *Actes des notaires génois de Péra et de Caffa de la fin du treizième siècle (1281–1290)*, Cultura Nationala, Bucharest, 1927.
Braude, Benjamin. "The Sons of Noah and the Construction of Ethnic and Geographical Identities in the Medieval and Early Modern Periods," *William and Mary Quarterly* 54 (1997) 103–142.
Braudel, Fernand. *Civilization and Capitalism, 15th–18th Century*, Harper & Row, New York, 1981.
The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, Harper & Row, New York, 1972.
Braunstein, Philippe. "Appunti per la storia di una minoranza: la popolazione tedesca di Venezia nel medioevo," *Strutture familiari, epidemie, migrazioni nell'Italia medievale*, ed. R. Comba, G. Piccinni, and G. Pinto, Edizioni Scientifiche Italiane, Naples, 1984.
"Remarques sur la population allemande de Venise à la fin du moyen âge," *Venezia centro di mediazione tra oriente e occidente (secoli xv–xvi): aspetti e problemi*, ed. H. G. Beck, M. Manoussacas, and A. Pertusi, Leo S. Olschki Editore, Florence, 1977, 1, 233–243.
Bresc, Henri. *Un Monde Méditerranéen. Économie et société en Sicile 1300–1450*, Ecole français de Rome, Rome, 1986.
"'In ruga que arabice dicitur zucac' . . . Les Rues de Palerme (1070–1460)," in *Le Paysage urbain au moyen âge: Actes du xie Congrès de la Société des historiens médiévistes de l'ensegnement supérieur publique (Lyon, 1980)*, Presses Universitaires de Lyon, Lyon, 1981, 155–186.
Bresc, Henri and Geneviève. "*Fondaco* et taverne de la Sicile médiévale," *Hommage à Geneviève Chevrier et Alain Geslan. Etudes médiévales*, ed. Joëlle Burnouf et al., Centre d'archéologie médiévale de Strasbourg, Strasbourg, 1975, 95–106.
Breydenbach, Bernard de. *Les Saintes pérégrinations de Bernard de Breydenbach (1483)*, ed. F. Larrivaz, Imprimerie Nationale, Cairo, 1904.
Broquière, Bertrandon de la. *Le Voyage d'Outremer*, ed. Charles Scheffer, Ernest Leroux, Paris, 1842; English trans. Galen R. Kline, Peter Lang, New York, 1988.
Brown, Horatio F. "The Venetians and the Venetian Quarter in Constantinople to the Close of the Twelfth Century," *The Journal of Hellenic Studies* 40 (1920) 68–88.
Brunschvig, Robert. *La Berbérie orientale sous les Ḥafṣides. Des origines à la fin du xve siècle*, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1940.
"Documents inédits sur les relations entre la Couronne d'Aragon et la Berbérie orientale au xive siècle," *Annales de l'Institut d'Etudes Orientales* (Paris) 2 (1936) 235–265.
Bulliet, Richard W. *The Camel and the Wheel*, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1975.
Burns, Robert Ignatius. "Baths and Caravanserais in Medieval Valencia," *Speculum* 46 (1971) 443–458.
The Crusader Kingdom of Valencia. Reconstruction on a Thirteenth-century Frontier, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1967.

Medieval Colonialism. Postcrusade Exploitation in Islamic Valencia, Princeton University Press, Princeton, 1975.
Burns, Robert Ignatius (ed.). *Diplomatarium of the Crusader Kingdom of Valencia*, 3 volumes, Princeton University Press, Princeton, 1985–2001: I *Society and Documentation in Crusader Valencia*; II *Foundations of Crusader Valencia: Revolt and Recovery, 1257–1263*; III *Transition in Crusader Valencia: Years of Triumph, Years of War, 1264–1270*.
Burroughs, Charles. "Spaces of Arbitration and the Organization of Space in Late Medieval Italian Cities," in *Medieval Practices of Space*, ed. B. Hanawalt and M. Kobialka, University of Minnesota Press, Minneapolis, 2000, 64–100.
Byrgg, Thomas. "Itinerarium ad Sanctam Sepulcram," ed. P. Riant, *Les Archives de l'Orient Latin* 2 (1882) 380–388.
Cabestany Fort, Joan F. " 'Consols de Mar' y 'Consols d'Ultramar' en Cataluña (siglos XIII–XV)," in *La Genti del Mare Mediterraneo*, ed. Rosalba Ragosta, Lucio Pironti Editore, Naples, 1981, 397–425.
Caffaro. *Annali Genovesi di Caffaro e de'suoi continuatori*, ed. Luigi Tommaso Belgrano and Cesare Imperiale di Sant'Angelo, 3 volumes, Istituto Sordo-Muti, Genoa and Rome, 1890–1923.
Cahen, Claude. *L'Islam des origines au début de l'empire ottoman*, Bordas, Paris, 1970.
Makhzūmiyyāt. Etudes sur l'histoire économique et financière de l'Egypte médiévale, E. J. Brill, Leiden, 1977.
"Un Texte peu connu relatif au commerce oriental d'Amalfi au xe siècle," *Archivo Storico per le Province Napoletane*, n.s. 34 (1953–1954) 3–8.
Calero Secall, María Isabel and Virgilio Martínez Enamorado. *Málaga, ciudad de al-Andalus*. Universidad de Málaga, Málaga, 1995.
Callens, M. "L'Hébergement à Tunis: fondouks et oukalas," *Institut des Belles Lettres Arabes* (Tunis) 70 (1955) 257–271.
Canard, Marius. "Les Relations politiques et sociales entre Byzance et les Arabes," *Dumbarton Oaks Papers* 18 (1964) 33–56.
Canivet, Pierre and Jean-Paul Rey-Coquais (eds.). *La Syrie de Byzance à l'Islam: VIIe–VIIIe Siècles*, Institut français de Damas, Damascus, 1992.
Capmany y de Monpalau, Antonio de. *Memorias históricas sobre la marina, comercio y artes de la antigua ciudad de Barcelona*, A. de Sancha, Madrid, 1779–1792 (annotated reedition, Cámara Oficial de Comercio y Navegación, Barcelona, 1962).
Carabellese, Francesco. *La Puglia nel secolo XV da fonte inedite*, Commissione Provinciale di Archeologia e Storia Patria, Bari, 1901.
Carande, Ramón. *Sevilla, fortaleza y mercado*, Universidad de Sevilla, Seville, 1972.
Caro Baroja, Juan. *Una Visión de Marruecos a mediados del siglo XVI. La del primer historiador de los "xarifes", Diego de Torres*, Instituto de Estudios Africanos, Madrid, 1956.
Cartulaire général de l'Ordre des Hospitaliers de St. Jean de Jérusalem, ed. J. Delaville Le Roulx, 4 volumes, Ernest Leroux, Paris, 1894–1906.

Casanova, Paul. *Essai de reconstitution topographique de la ville d'al Fouṣṭāṭ ou Miṣr*, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1919.

Casola, Pietro. *Canon Pietro Casola's Pilgrimage to Jerusalem in the Year 1494*, ed. and trans. Margaret Newett, Manchester University Press, Manchester, 1907.

Castellani, Arrigo Ettore. "Una lettera pisana del 1323," *Saggi di linguistica e filologia italiana e romanza, 1946–1976*, Salerno Editrice, Rome, 1980, II, 308–310.

Castellani, Arrigo Ettore (ed.). *Nuovi testi fiorentini del dugento*, Sansoni, Florence, 1952.

Cateura, Pablo. "Notas sobre las relaciones entre Mallorca y el reino de Granada en la década de 1339–1349," *Bolletí de la Societat Arqueològica Luliana* 830–831 (1979) 151–165.

Centlivres, Pierre. *Un Bazar d'Asie centrale: forme et organisation du bazar de Tashgurghan (Afghanistan)*, L. Reichert, Wiesbaden, 1972.

Certaldo, Paolo da. *Libro di buoni costumi*, ed. Alfredo Schiaffini, Le Monnier, Florence, 1945.

Chabot, Jean Baptiste. *Index alphabétique et analitique des inscriptions grecques et latines de la Syrie publiées par Waddington*, E. Leroux, Paris, 1897.

Chabot, Victor. "Antiquités de la Syrie du Nord," *Bulletin de Correspondance Hellénique* 26 (1902) 161–208.

Chalandon, Ferdinand. *Histoire de la domination normande en Italie et en Sicilie*, A. Picard et fils, Paris, 1907.

Chalmeta Gendrón, Pedro. "Organización artesano-comercial de la ciudad musulmana," *Ponencias y comunicaciones*, Institución Fernando el Católico, Zaragoza, 1991, 93–111.

Chambers, David and Brian Pullan (eds.). *Venice: A Documentary History 1450–1650*, Blackwell, Oxford, 1992.

Chartres, John A. "The English Inn and Road Transport before 1700," in *Gastfreundschaft, Taverne und Gasthaus im Mittelalter*, ed. Hans Conrad Peyer R. Oldenbourg Verlag, Munich and Vienna, 1983, 153–176.

Chevallier, R. *Les Voies romaines*, Picard, Paris, 1997.

Choniates, Niketas. *Historia*, ed. J. L. van Dieten, Walter de Gruyter, Berlin, 1975; trans. Harry J. Margoulias, *O City of Byzantium, Annals of Niketas Choniatēs*, Wayne State University Press, Detroit, 1984.

Christie, Niall. "Reconstructing Life in Medieval Alexandria from an 8th/14th Century *Waqf* Document," unpublished article.

"A Rental Document from 8th/14th Century Egypt," unpublished article.

Chronicle of Montecassino. ed. Hartmut Hoffman, MGH, Scriptores 34, Hahnsche Buchhandlung, Hannover, 1980.

Chrysostom, John. Sermon 45, in *Acta Apostolorum*, *Patrologiae Graecae* LX, ed. J. P. Migne, Paris, 1862.

Chrysostomides, Julian. "Venetian Commercial Privileges under the Palaeologi," *Studi Veneziani* 12 (1970) 267–356.

Ciggaar, Krijnie N. *Western Travelers to Constantinople: The West and Byzantium 962–1204*, E. J. Brill, Leiden, 1996.

Clement of Alexandria. *Stromatum III, PG,* VII; John Ferguson, *Stromateis, Books One to Three*, Catholic University of America Press, Washington, DC, 1991.

Clementi, Dione. "Calendar of the Diplomas of the Hohenstaufen Emperor Henry VI concerning the Kingdom of Sicily," *Quellen und Forschungen aus italienischen Archiven und Bibliotheken* 35 (1955) 86–225.

Clerget, Marcel. *Le Caire. Etude de géographie urbaine et d'histoire économique*, Imprimerie E. et R. Schindler, Cairo, 1934.

Cohen, Mark R. "Jewish Communal Organization in Medieval Egypt: Research, Results and Prospects," in *Judeo-Arabic Studies: Proceedings of the Founding Conference of the Society for Judeo-Arabic Studies*, ed. Norman. Golb, Harwood Academic Publishers, Amsterdam, 1997, 73–86.

Collantes de Terán Sánchez, Antonio. *Sevilla en la baja edad media. La ciudad y sus hombres.* Publicaciones del Excmo. Ayuntamiento, Seville, 1977.

Combe, Etienne. "Inscription arabe d'un khan ottoman à Rosette," *Bulletin de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie* 35 (1943) 114–123.

Combe, Etienne, Jean Sauvaget, and Gaston Wiet (eds.). *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe*, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1931–.

Combes, Jean. "Hôteliers et hôtelleries de Montpellier à le fin du XIVe siècle et au XVe," in *Hommage à André Dupont (1897–1972). Etudes médiévales languedociennes*, Fédération Historique du Languedoc Méditerranéen et du Roussillon, Montpellier, 1974, 55–81.

Concina, Ennio. *Fondaci. Architettura, arte e mercatura tra Levante, Venezia e Alemagna*, Marsilio, Venice, 1997.

Congdon, Eleanor A. "Venetian Merchant Activity within Mamluk Syria (886–893/1481–1487)," *al-Masāq: Studia Arabo-Islamica Mediterranea* 7 (1994) 1–33.

Conrad, Lawrence I. "Syriac Perspectives on Bilād al-Shām during the 'Abbāsid Period," *Proceedings of the Fifth International Conference on the History of Bilād al-Shām*, History of Bilād al-Shām Committee, Amman, 1991, 1–44.

Constable, Olivia Remie. "Genoa and Spain in the Twelfth and Thirteenth Centuries: Notarial Evidence for a Shift in Patterns of Trade," *Journal of European Economic History* 19 (1990) 635–656.

Trade and Traders in Muslim Spain: The Commercial Realignment of the Iberian Peninsula, 900–1500, Cambridge University Press, Cambridge, 1994.

Constantelos, Demetrios J. *Byzantine Philanthropy and Social Welfare*, Rutgers University Press, New Brunswick, NJ, 1968.

Contardo, Inghetto. *Disputation*, ed. Ora Limor, in *Die Disputationen zu Ceuta (1179) und Mallorca (1286)*, MGH, Quellen zur Geistesgeschichte des Mittelalters 15, Munich, 1994; also ed. Gilbert Dahan, *Disputatio contra iudeos (Controverse avec les juifs)*, Les Belles lettres, Paris, 1993.

Corcos, David. *Studies of the History of the Jews of Morocco*, Rubin Mass, Jerusalem, 1976.

Cornaro, Flaminio. *Ecclesiae Venetae antiquis monumentis nunc etiam primum editis illustratae ac in decades distributae*, Typis Jo. Baptiste Pasquali, Venice 1749.

Corsani, Gaetano. *I fondaci e i banchi di un mercante pratese del trecento: contributo alla storia della ragioneria e del commercio, da lettere e documenti inediti*, La Tipografica, Prato, 1922.

Costituto del comune di Siena, volgarizzato nel MCCCIX–MCCCX, Tip. e Lt. Sordmuti di L. Lazzeri, Siena, 1903.

Coturri, Enrico. "Strade e ostelli per mercanti nell'Italia mediovale," *Mercanti e consumi organizzazione e qualificazione del commercio in Italia del XII al XX secolo (I° Convegno Nazionale di Storia del Commercio in Italia)*, Istituto Formazione Operatori Aziendali, Bologna, 1986, 275–284.

Coulet, Noël. "Les hôtelleries en France et en Italie au bas moyen âge," in *L'homme et la route en Europe occidentale au moyen âge et aux temps modernes*, Centre Culturel de l'Abbaye de Flaran, Auch, 1982, 181–205.

"Inns and Taverns," *Dictionary of the Middle Ages*, VI, 468–477.

"Propriétaires et exploitants d'auberges dans la France du Midi au bas moyen âge," in *Gastfreundschaft, Taverne und Gasthaus im Mittelalter*, ed. Hans Conrad Peyer, R. Oldenbourg Verlag, Munich and Vienna, 1983, 119–136.

Crawford, Patricia. "A Building in the West *Vicus* of al-Lejjūn," in *The Roman Frontier in Central Jordan: Interim Report of the Limes Arabicus Project, 1980–1985*, ed. S. Thomas Parker, B. A. R., London, 1987, 385–398.

Creswell, K. A. C. *Early Muslim Architecture*, Clarendon Press, Oxford, 2nd ed., 1969 (repr. Hacker Art Books, New York, 1979).

"Two Khāns at Khān Ṭūmān," *Syria* 4 (1923) 133–139.

(Cuenca). *Forum Conche* (*Fuero of Cuenca*), ed. George H. Allen, *University Studies* (University of Cincinnati) series 2, 4 (1910); trans. James F. Powers, *The Code of Cuenca*, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 2000.

Cupane, Carolina and Ewald Kislinger. "Xenon und Xenodocheion im spätbyzantinischen Roman," *Jahrbuch der österreichischen Byzantinisti* (Vienna) 36 (1986) 200–206.

Curtin, Philip. *Cross-Cultural Trade in World History*, Cambridge University Press, Cambridge, 1984.

Cusa, Salvatore (ed.). *I diplomi Greci ed Arabi di Sicilia*, Stabilimento Tip. Lao, Palermo, 1868.

Dagomari, Paolo (Paolo dell'Abbaco). *Trattato d'aritmetica*, ed. Gino Arrighi, Domus Galilaeana, Pisa, 1964.

Darrāj, Aḥmad. *L'Egypte sous le règne de Barsbay 825–841/1422–1438*, Institut français de Damas, Damascus, 1961.

Davidsohn, Robert. *Forschungen zur Geschichte von Florenz*, Ernst Siegfried Mittler & Sohn, Berlin, 1900.

Dawes, Elizabeth and Norman H. Baynes. *Three Byzantine Saints. Contemporary Biographies translated from the Greek*, Basil Blackwell, Oxford, 1948.

Dazzi, Manlio and Mario Brunetti. *Il Fondaco Nostro dei Tedeschi*, Ministro delle Comunicazioni, Venice, 1941.

Deguilhem, Randi. *Le Waqf dans l'espace islamique outil de pouvoir socio-politique*, Institut français de Damas, Damascus, 1995.

Dei, Benedetto. *La Cronica dall'anno 1400 all'anno 1500*, ed. Roberto Barducci, Francesco Papafava Editore, Florence, 1984.

Del Re, Giuseppe (ed.). *Cronisti e scrittori sincroni della dominazione normanna nel regno di Puglia e Sicilia*, Stamperia dell'Iride, Naples, 1868 (repr. Scientia Verlag, Aalen, 1975).

Delahaye, H. "Une Vie inédite de Saint Jean l'Aumonier," *Analecta Bollandiana* 45 (1927).

Delgado Valero, Clara. "Estructura urbana de Toledo en época islámica," *Ponencias y comunicaciones*, Institución Fernando el Católico, Zaragoza, 1991, 321–341.

Demosthenes. *De Falsa Legatione*, ed. and trans. C. A. Vince and J. A. Vince, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1953.

Denoix, Sylvie. *Décrire le Caire Fusṭāṭ-Miṣr d'après Ibn Duqmāq et Maqrīzī*, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1992.

"Histoire et formes urbaines (éléments de méthode)," *Itinéraires d'Egypte: mélanges offerts au Père Maurice Martin*, ed. Christian Découbert, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1992, 45–70.

"Topographie de l'intervention du personnel politique à l'époque mamelouk," in Denoix et al., *Le Khan al-Khalili et ses environs*, 1, 33–50.

Denoix, Sylvie, Jean-Charles DePaule, and Michel Tuchscherer. *Le Khan al-Khalili et ses environs. Un centre commercial et artisanal au Caire du XIIIe au XXe siècle*, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1999.

Dentzer, Jean-Marie. "Khāns ou casernes à Palmyre? A propos de structures visibles sur des photographies aériennes anciennes," *Syria* 71 (1994) 45–112.

Derrett, J. Duncan M. "Law in the New Testament: Fresh Light on the Parable of the Good Samaritan," *New Testament Studies* 11 (1964–1965) 22–37.

Desimoni, Cornelio (ed.). "Actes passés à Famagouste de 1299 à 1301 par devant le notaire génois Lamberto di Sambuceto," *Archives de l'Orient Latin* 2 (1884) 3–120.

"Quatre titres des propriétés des Génois à Acre et à Tyr," *Archives de l'Orient Latin* 2 (1884) 213–230.

Deverdun, Gaston. *Marrakech, des origines à 1912*, Editions techniques nord-africaines, Rabat, 1959.

Devonshire, H. "Relation d'un voyage du Sultan Qāitbāy en Palestine et en Syrie," *Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale* (Cairo) 20 (1922) 1–43.

al-Dhahabī, Muḥammad ibn Aḥmad. *Kitāb al-duwal al-Islām (Les dynasties de l'Islam)*, French trans. Arlette Nègre, Institut français de Damas, Damascus, 1979.

Dichter, B. *The Maps of Acre: An Historical Cartography*, Municipality of Acre, Acre, 1973.

Dictionary of the Middle Ages, ed. Joseph Reese Strayer, 13 volumes, Scribner, New York, 1982–1989.

Diem, Werner. *Arabische Geschäftsbriefe des 10. bis 14. Jahrhunderts aus der Österreichischen Nationalbibliothek in Wien*, Harrassowitz, Wiesbaden, 1995.

al-Dimashqī, Abū Faḍl Ja'far ibn 'Alī. *Kitāb al-Ishāra ilā maḥāsin al-tijāra*, Dār Alif Ba'lil-Tiba'ah wa-al-Nashr wa-al-Tawzi', Beirut, 1983.

al-Dīnawarī, Abū Ḥanīfah. *al-Akhbār al-Ṭiwāl*, Dār al-Fikr, Beirut, 1988.

Dobiáš, Josef. "Une Nouvelle inscription palmyrénienne," *Listy Filologické* 58 (1931) 1–19.

Dollinger, Philippe. *The German Hansa*, trans. D. S. Ault and S. H. Steinberg, Stanford University Press, Stanford, CA, 1964.
"Projets d'un Fondaco dei Tedeschi à Gênes et à Milan au xve siècle," *Byzantinische Forschungen* 12 (1987) 675–688.
Donahue, John R. "Who is my Enemy? The Parable of the Good Samaritan and the Love of Enemies," in *The Love of Enemy and Nonretaliation in the New Testament*, ed. W. M. Swartley, Westminster/John Knox Press, Louisville, KY, 1992, 137–156.
Doumerc, Bernard. "Documents commerciaux en langue d'oc enregistrés à Alexandrie par les notaires vénitiens (fin xive–début xve siècle)," *Annales du Midi* 99 (1987) 227–244.
"Les Marchands du Midi à Alexandrie au xve siècle," *Annales du Midi* 97 (1985) 269–284.
Dufourcq, Charles-Emmanuel. "Les Activités politiques et économiques des Catalans en Tunisie et en Algérie orientale de 1262 à 1377," *Boletín de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona* 19 (1946) 5–95.
"Catalogue chronologique et analytique du registre 1389 de la chancellerie de la Couronne d'Aragon, intitule 'Guerre Sarracenorum 1367–1386' (1360–1386)," *Miscelánea de Textos Medievales* 2 (1974) 65–166.
"Les Consulats catalans de Tunis et de Bougie au temps de Jacques le Conquérant," *Anuario de Estudios Medievales* 3 (1966) 469–479.
L'Espagne catalane et le Maghrib aux xiiie et xive siècles, Presses Universitaires de France, Paris, 1966.
"Les espagnols et le royaume de Tlemcen aux xiiiè et xivè siècles," *Boletín de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona* 21 (1948) 5–128.
Dunbabin, Jean. *Charles I of Anjou: Power, Kingship, and State-Making in Thirteenth-century Europe*, Longman, London, 1998.
al-Duri, Khidr J. "Society and Economy of Iraq under the Seljuqs (1055–1160 AD) with special reference to Baghdad," Ph.D. dissertation, University of Pennsylvania, Philadelphia, 1971.
Dussaud, René. *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*, Paul Geuthner, Paris, 1927.
Eddé, Anne-Marie. *La Principauté ayyoubide d'Alep (579/1183–658/1260)*, Franz Steiner Verlag, Stuttgart, 1999.
"Les Relations commerciales entre Alep et Venise au viie/xiiie siècle," *Revue des Etudes Islamiques* 59 (1991) 165–186.
Edler, Florence. *Glossary of Medieval Terms of Business, Italian Series 1200–1600*, Medieval Academy of America, Cambridge, MA, 1934.
El-Cheikh, Nadia M. "An Ambivalent Image: Byzantium Viewed by the Arabs," in *Images of the Other: Europe and the Muslim World before 1700*, ed. David R. Blanks, Cairo Papers in Social Science 19 (1996) 122–135.
El-Hawary, Hassan Mohammed and Gaston Wiet (eds.). *Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum*, 4th part: Arabia, 1 (1), cix, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1985.
Elisséeff, Nikita. "Khān," *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed., iv, E. J. Brill, Leiden, 1990, 1010–1017.

"Manzil," *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed., VI, E. J. Brill, Leiden, 1991, 454–456.

Epictetus. *The Discourses as reported by Arrian*, ed. and trans. W. A. Oldfather, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1959–1961.

The Enchiridion, ed. Henricus Schenkl, B. G. Teubner, Leipzig, 1916; English trans. Thomas W. Higginson, Bobbs-Merrill, New York, 1955.

Epstein, Steven. *Genoa and the Genoese, 958–1528*, University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1996.

Erdmann, Kurt and Hanna Erdmann. *Das anatolische Karavansaray des 13. Jahrhunderts*, Gebr. Mann Verlag, Berlin, 1976.

Escobar Comacho, José Manuel. *Córdoba en la baja edad media (evolución urbana de la ciudad)*, Caja Provincial de Ahorros de Córdoba, Córdoba, 1989.

Espinar Moreno, Manuel. "Del urbanismo musulmán al urbanismo cristiano. II: Andalucía oriental," in *Ponencias y comunicaciones*, Institución Fernando el Católico, Zaragoza, 1991, 203–251.

Evetts, B. "History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria (Agatho to Michael I)," *Patrologia Orientalis* (Paris) 5 (1910) 3–344.

Fabri, Felix. *Evagatorium in terrae sanctae, Arabiae et Egypti peregrinationem*, ed. C. D. Hassler, 3 volumes, Soc. Lit. Stuttgardiensis, Stuttgart, 1843–1849; French trans. Jacques Masson and Gisèle Hurseaux, *Le Voyage en Egypte de Félix Fabri, 1483*, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1975; English trans. Aubrey Stewart, *The Wanderings of Felix Fabri*, Palestine Pilgrims' Text Society, VII–X, London, 1892–1897 (repr. AMS Press, New York, 1971).

Fanfani, Amintore. "Note sull'industria alberghiera italiana nel medio evo," *Saggi di storia economica italiana*, Società Editrice "Vita e Pensiero," Milan, 1936, 111–121.

Favreau-Lilie, Marie-Louise. *Die Italiener im Heiligen Land: vom ersten Kreuzzug bis zum Tode Heinrichs von Champagne (1098–1197)*, Hakkert, Amsterdam, 1989.

Fedalto, Giorgio. "Le minoranze straniere a Venezia tra politica e legislazione," *Venezia centro di mediazione tra oriente e occidente (secoli XV–XVI): aspetti e problemi*, ed. H. G. Beck, M. Manoussalas, and A. Pertusi, Leo S. Olschki Editore, Florence, 1977, I, 143–162.

Fernandes, Leonor. *The Evolution of a Sufi Institution in Mamluk Egypt: The Khanqah*, Klaus Schwarz Verlag, Berlin, 1988.

"Mamluk Architecture and the Question of Patronage," *Mamluk Studies Review* 1 (1997) 107–120.

Fernández-Armesto, Felipe. *Before Columbus: Exploration and Colonisation from the Mediterranean to the Atlantic, 1229–1492*, Macmillan, London, 1987.

Fernández Gómez, Marcos, Pilar Ostos Salcedo, and María Luisa Pardo Rodríguez. *El libro de privilegios de la ciudad de Sevilla*, Ayuntamiento de Sevilla, Seville, 1993.

(Fernando III of Castile). *Reinado y diplomas de Fernando III*, ed. Julio González, III: *Documentos (1233–1253)*, Caja de Ahorros de Córdoba, Córdoba, 1986.

Ferrer i Mallot, Maria Teresa. "Documents sobre el consolat de Castellans a Catalunya i Balears," *Anuario de Estudios Medievales* 1 (1964) 599–605.

Festugiére, André-Jean (ed.). *Vie de Théodore de Sykéon*, Subsidia Hagiographica 48, Société des Bollandistes, Brussels, 1970.

Fibonacci, Leonardo. *Scritti di Leonardo Pisano: mathematico del secolo decimoterzo*, ed. B. Boncompagni, Tipografia delle Scienze Mathematiche e Fisiche, Rome, 1857.

Filangieri di Candida, Riccardo (ed.). *Codice diplomatico amalfitano*, Vecchi, Trani, 1951.

Firebaugh, W. C. *The Inns of Greece and Rome*, Pascal Covici, Chicago, 1927.

Fitzmyer, Joseph, A. *The Gospel According to Luke*, Anchor Bible Series, Doubleday & Co., Garden City, 1981.

Fleet, Kate. *European and Islamic Trade in the Early Ottoman State: The Merchants of Genoa and Turkey*, Cambridge University Press, Cambridge, 1999.

Foote, Rebecca, "The Caravanserai," in "The Humeima Excavation Project: Preliminary Report of the 1991–1992 Seasons," ed. J. P. Oleson, *Annual of the Department of Antiquities of Jordan* 37 (1993) 484–486.

"Umayyad Markets and Manufacturing: Evidence for a Commercialized and Industrializing Economy in Early Islamic Bilād al-Shām," Ph.D. dissertation, Harvard University, Cambridge, MA, 1999.

Forteza, Guillem. "El cicle arquitectònic de les nostres llotges medievals," *Revista de Catalunya* (Barcelona) 14 (1934) 221–248.

Foss, Clive. "Syria in Transition, AD 550–750: An Archeological Approach," *Dumbarton Oaks Papers* 51 (1977) 189–269.

(Frederick I). *Friderici I. Diplomata*, ed. Heinrich Appelt, MGH, Diplomata, Hahnsche Buchhandlung, Hanover, 1979–1985.

(Frederick II). *Historia diplomatica Friderici Secundi, sive constitutiones, privilegia, mandata, instrumenta quae supersunt istius Imperatoris et filiorum ejus*, ed. Jean Louis Alphonse Huillard-Bréholles, 7 volumes, Henri Plon, Paris, 1852–1860.

The Liber Augustalis or Constitutions of Melfi Promulgated by the Emperor Frederick II for the Kingdom of Sicily in 1231, trans. James Powell, Syracuse University Press, Syracuse, NY, 1971.

Die Konstitutionen Friedrichs II. für das Königreich Sizilien, ed. Wolfgang Stürner, MGH, Hahnsche Buchhandlung, Hanover, 1996.

Die Konstitutionen Friedrichs II. Von Hohenstaufen für sein Königreich sizilien, ed. Hermann Conrad, Thea von der Lieck-Buyken, and Wolfgang Wagner, II, Böhlau Verlag, Cologne and Vienna, 1973.

Frescobaldi, Lionardo di Niccolò, Giorgio Gucci, and Simone Sigoli, *Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine, and Syria in 1384*, trans. T. Bellorini and E. Hoade, Franciscan Press, Jerusalem, 1948.

Friedländer, Ludwig. *Darstellungen aus der Sittengeschichte Roms in der zeit von August bis zum ausgang der Antonine*, S. Hirzel, Leipzig, 1919–1921; trans. Leonard Magnus, *Roman Life and Manners under the Early Empire*, Arno Press, New York, 1979.

Fuller, Michael and Neathery Fuller. "Artuqid, Zengid, and Ayyūbid Coins from Tell Tuneinir, Syria," in *Turkoman Figural Bronze Coins and their Iconography*,

Volume II, The Zengids, ed. William F. Spengler and Wayne G. Sayles, Clio's Cabinet, Lodi, WI, 1996, 128–143.

García-Arenal, Mercedes. "Jewish Converts to Islam in the Muslim West," in *Dhimmis and Others: Jews and Christians and the World of Classical Islam*, ed. Uri Rubin and David Wasserstein, Eisenbrauns, Winona Lake, IN, 1997, 227–248.

Garcin, Jean-Claude (ed.). *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, Ecole français de Rome, Rome, 2000.

Garí, Blanca. "Why Almería? An Islamic Port in the Compass of Genoa," *Journal of Medieval History* 18 (1992) 211–231.

Garrison, Francis. "Les Hôtes et l'hébergement des étrangers au moyen âge. Quelques solutions de droit comparé," *Etudes d'histoire du droit privé offerts à Pierre Petot*, Librairie générale de droit et de jurisprudence, Paris, 1959, 199–222.

Garufi, C. A. (ed.). *I Documenti inediti dell'epoca normanna in Sicilia*, Società Siciliana per la Storia Patria, Palermo, 1899.

Gazagnadou, Didier. "Une Précision sur l'origine du mot arabe funduq," *Studia Islamica* 64 (1986) 165–167.

Geanakoplos, Deno J. *Byzantine East and Latin West: Two Worlds of Christendom in Middle Ages and Renaissance*, Basil Blackwell, Oxford, 1966.

Gentile, P. "Lo stato napoletano sotto Alfonso I d'Aragona," *Archivio Storico per la Province Napoletane* (Naples) n.s. 24 (1938) 1–56.

Georgopoulou, Maria. *Venice's Mediterranean Colonies: Architecture and Urbanism*, Cambridge University Press, Cambridge, 2001.

Germain, Alexandre. *Histoire du commerce de Montpellier*, Imprimerie de Jean Martel Ainé, Montpellier, 1861.

Gil, Moshe (ed.). *Documents of the Jewish Pious Foundations from the Cairo Geniza*, E. J. Brill, Leiden, 1976.

A History of Palestine, 634–1099, trans. E. Broido, Cambridge University Press, Cambridge, 1992.

"Maintenance, Building Operations, and Repairs in the Houses of the Qodesh in Fusṭāṭ. A Geniza Study," *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 14 (1971) 136–195.

Giménez Soler, Andrés. "El commercio en tierra de infieles durante la edad media," *Boletín de la Real Academia de Buenas Letras de Barcelona* 5 (1909–1910) 171–199, 287–298, 521–524.

Giovanni di Guiberto. *Giovanni di Guiberto (1200–1211)*, ed. M. W. Hall-Cole, H. G. Kreuger, R. G. Reinert, and R. L. Reynolds, Deputazione di Storia Patria per la Liguria, Genoa, 1939.

Glick, Thomas F. *From Muslim Fortress to Christian Castle: Social and Cultural Change in Medieval Spain*, Manchester University Press, Manchester, 1995.

Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages, Princeton University Press, Princeton, 1979.

Goitein, Shelomo Dov. *Letters of Medieval Jewish Traders*, Princeton University Press, Princeton, 1973.

A Mediterranean Society. The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza, 5 volumes, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 1967–1988.
Palestinian Jewry in Early Islamic and Crusader Times in Light of the Cairo Geniza Documents, Yad Izhak ben Zvi Publications, Jerusalem, 1980.
Goldman, Z. "Le Couvent des hospitaliers à Saint Jean d'Acre," *Bible et Terre Sainte* 160 (April 1974) 8–18.
Gómez-Moreno, M. *Iglesias mozárabes. Arte español de los siglos* IX *a* XI, Centro de Estudios Históricos, Madrid, 1919.
González, Julio (ed.). *Repartimiento de Sevilla. Estudio y edición*, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1951.
González Gallego, I. "El libro de los privilegios de la nación Genovesa," *Historia, Instituciones, Documentos* 1 (1974) 275–358.
González Jiménez, Manuel. "Genoveses en Sevilla (siglos XIII–XV)," *Presencia Italiana en Andalucia siglos* XIV–XVII. *Actas del I Coloquio Hispano-Italiano*, Escuela de Estudios Hispano-Americanos de Sevilla, Seville, 1985, 114–130.
"El puerto de Santa Maria en tiempos de Alfonso X (1264–1284)," *Gades* (Cádiz) 9 (1982) 209–242.
"Repartimientos andaluces del siglo XIII. Perspectiva de conjunto y problemas," in *De al-Andalus a la sociedad feudal: los repartimientos bajomedievales*, ed. Manuel Sánchez Martínez, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Barcelona, 1990, 95–117.
González Jiménez, Manuel and Antonio González Gómez (eds.). *El Repartimiento de Jerez de la Frontera: estudio y edicion*, Instituto de Estudios Gaditanos, Cadiz, 1980.
González Jiménez, Manuel, Mercedes Borrero Fernández, and Isabel Montes Romero-Camacho. *Sevilla en tiempos de Alfonso X*, Biblioteca de Temas Sevillanos, Seville, 1987.
González Palencia, Angel. *Los Mozárabes de Toledo en los siglos* XII *y* XIII, Instituto de Valencia de Don Juan, Madrid, 1930.
Goodenough, Erwin R. *Jewish Symbols in the Greco-Roman Period*, 1: The Archeological Evidence from Palestine, Princeton University Press, Princeton, 1953.
Gorce, Denys. *Les Voyages, l'hospitalité et le port des lettres dans le monde chrétien des IVe et Ve siècles*, Editions Auguste Picard, Paris, 1925.
Gottheil, Richard and William W. Worrell, *Fragments from the Cairo Genizah in the Freer Collection*, Macmillan, New York, 1927.
Gourdin, Philippe. "Le 'Partege' du Maghreb entre l'Aragón et la Castille au traité de Monteagudo (1291)," in *Le Partage du Monde. Echanges et colonisation dans la Méditerranée médiévale*, ed. Michel Balard and Alain Ducellier, Publications de la Sorbonne, Paris, 1998, 399–409.
Grabar, Oleg. "Preliminary Report on the Third Season of Excavations at Qasr al-Ḥayr al-Sharqi," *Annales Archeologiques Arabes Syriennes* 20 (1970) 45–54.
"Qasr al-Ḥayr al-Sharqi. Preliminary Report on the First Season of Excavations," *Les Annales Archeologiques de Syrie* 15 (1965) 106–120.
"Umayyad Palaces Reconsidered," *Ars Orientalis* 23 (1993) 93–108.

Grabar, Oleg, Renata Hood, James Knustad, and William Trousdale. *City in the Desert. Qasr al-Hayr East*, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1978.

La Gran conquista de Ultramar que mando escribir el Rey don Alfonso el Sabio, ed. Pascual de Gayangos, Biblioteca de los Autores Españoles 44, Ediciones Atlas, Madrid, 1951.

Greene, Molly. "Beyond the Northern Invasion: The Mediterranean in the Seventeenth Century," *Past and Present* 174 (2002) 44–71.

A Shared World: Christians and Muslims in the Early Modern Mediterranean, Princeton University Press, Princeton, 2000.

Greer, Rowan A. "Hospitality in the First Five Centuries of the Church," *Monastic Studies* 10 (1974) 29–48.

Gregory Abū al-Faraj (Bar Hebraeus). *The Chronography of Gregory Abū'l Faraj*, ed. and trans. Ernest A. W. Budge, Oxford University Press, London, 1932.

Griffith, Sidney H. "The Gospel in Arabic: An Inquiry into its Appearance in the First 'Abbāsid Century," *Oriens Christianus* 69 (1985) 126–167.

"Greek into Arabic: Life and Letters in the Monasteries of Palestine in the Ninth Century; the Example of the *Summa Theologiae Arabica*," *Byzantion* 56 (1986) 117–138.

Grossi Bianchi, Luciano and Ennio Poleggi. *Una Citta portuale del medioevo: Genova nei secoli x– xvi*, Sagep, Genoa, 1979.

Grunzweig, Armand (ed.). *Correspondance de la filiale de Bruges des Medici, 1re. partie*, M. Lamertin, Brussels, 1931.

Gual Camerena, Miguel. "El hospedaje hispano-medieval. Aportaciones para su estudio," *Anuario de Historia del Derecho Español* 32 (1962) 527–542.

"Tarifas hispano-lusas de Portazgo, Peaje, Lezda y Hospedaje (siglos xi y xii)," *Anuario de Estudios Medievales* 9 (1974–1979) 365–392.

Gual Camerena, Miguel (ed.) *El primer manual hispanico de mercaderia (siglo xiv)*, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Barcelona, 1981.

Guérin, Alexandrine. "Some Features of Village Architecture in Transition from Antiquity to Islam," *al-Usur al-Wusta* 11 (1999) 49–52.

Guglielmo Cassinese. *Guglielmo Cassinese (1190–1192)*, ed. M. W. Hall-Cole, H. G. Kreuger, and R. L. Reynolds, Deputazione di Storia Patria per la Liguria, Genoa, 1938.

Guichot y Parody, Joaquín. *Historia del excmo. ayuntamiento de la muy noble, muy leal, muy heróica é invicta ciudad de Sevilla*, 1, Tipografía de La Región, Seville, 1896.

Guillen Robles, F. *Málaga musulmana*, Imp. De M. Oliver Navarro, Málaga, 1880 (repr. Editorial Arguval, Málaga, 1994).

Guthrie, Shirley. *Arab Social Life in the Middle Ages: An Illustrated Study*, Saqi Books, London, 1995.

Hakim, Besim Selim. *Arabic-Islamic Cities. Building and Planning Principles*, Routledge and Kegan Paul, London, 1986.

Halkin, François. "Une Nouvelle vie de Constantin dans un légendier de Patmos," *Analecta Bollandiana* 77 (1959) 63–107.

Haneda, Masashi and Toru Miura. *Islamic Urban Studies: Historical Review and Perspectives*, Kegan Paul International, London, 1994.
Hanna, Nelly. *Making Big Money in 1600: The Life and Times of Isma'īl Abū Taqīyya*, Syracuse University Press, Syracuse, 1998.
An Urban History of Būlāq in the Mamluk and Ottoman Periods, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1983.
Harant, Christophe. *Voyage en Egypte*, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1972.
Harīdī, Aḥmad 'Abd al-Majīd (ed.), *Index des Ḫiṭaṭ. Index analytique des ouvrages d'Ibn Duqmāq et de Maqrīzī sur le Caire*, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1983.
al-Ḥarīrī al-Baṣrī, Abū Muḥammad al-Qāsim ibn 'Alī. *Maqāmāt*, Dār Ṣādar, Beirut, 1958.
Hendy, Michael F. *Studies in the Byzantine Monetary Economy c.300–1450*, Cambridge University Press, Cambridge, 1985.
Hernández-Múzquiz, Rowena. "The Alhóndiga of Seville and the Challenge of Recurring Food Crises in the late Medieval Period," Unpublished paper delivered at the Thirty-third International Congress on Medieval Studies, Kalamazoo, MI, May 1998.
"Economy and Society in Late Medieval and Early Modern Seville (1391–1506): A Study of the *Abastecimiento* (Provisioning) of an Iberian Urban Center," Ph.D. dissertation, Columbia University, New York, 2003.
Herrin, Judith. "Ideals of Charity, Realities of Welfare: The Philanthropic Activity of the Byzantine Church," in *Church and People in Byzantium: Society for the Promotion of Byzantine Studies Twentieth Spring Symposium of Byzantine Studies, Manchester, 1986*, ed. Rosemary Morris, University of Birmingham Press, Birmingham, 1990, 151–164.
Herzfeld, Ernst (ed.). *Matériaux pour un corpus inscriptionum arabicarum*, Syrie du Nord, Inscriptions et monuments d'Alep 76, Insitut français d'archéologie orientale, Cairo, 1955.
Heyd, Wilhelm. *Le Colonie commerciali degli Italiani in Oriente nel Medio Evo*, E. Antonelli e L. Basadonna, Venice and Turin, 1866.
"Les Consulats établis en Terre Sainte au moyen-âge pour la protection des pèlerins," *Archives de l'Orient Latin*, 2 (1884) 355–363.
Histoire du commerce du Levant au moyen-âge, Otto Harrassowitz, Leipzig, 1885–1886.
Hibbert, A. B. "Catalan Consulates in the Thirteenth Century," *Cambridge Historical Journal* 9 (1947–1949) 352–358.
Hillenbrand, Robert. "'Anjar and Early Islamic Urbanism," in *The Idea and Ideal of the Town between Late Antiquity and the Early Middle Ages*, ed. G. P. Brogiolo and B. Ward-Perkins, E. J. Brill, Leiden, 1999, 59–98.
Islamic Architecture: Form, Function, and Meaning, Columbia University Press, New York, 1994.
"Khan," *Dictionary of the Middle Ages*, VII, 237–238.
Hippolytus. *Refutatio omnium haeresium*, ed. Miroslav Marcovitch, Walter de Gruyter, Berlin, 1986.

Hirschberg, H. Z. *History of the Jews in North Africa*, I, E. J. Brill, Leiden, 1974.
Hodges, Richard. *Dark Age Economics. The Origins of Towns and Trade,* AD *600–1000*, Duckworth, London, 1982.
Holt, Peter. "Qalāwūn's Treaty with Genoa in 1290," *Der Islam* 57 (1980) 101–108.
Howard, Deborah. "Venice and Islam in the Middle Ages. Some Observations on the Question of Architectural Influence," *Architectural History* 34 (1991) 59–74.
Hunt, Edwin. *The Medieval Super-companies. A Study of the Peruzzi Company of Florence*, Cambridge University Press, Cambridge, 1994.
Husson, Geneviève. "L'Hospitalité dans les papyrus byzantins," *Akten des XIII. Internationalen Papyrologenkongresses. Marburg/Lahn, 2.–6. August 1971*, ed. E. Kiessling and H. A. Rupprecht, C. H. Becks'che Verlagsbuchhandlung, Munich, 1974, 169–177.
Huxley, George. "Geography in the *Acts of Thomas*," *Greek, Roman, and Byzantine Studies* 24 (1983) 71–80.
Ibarra Rodríguez, Eduardo. "La industria del hospedaje en el reinado de los Reyes Catolicos," *Las Ciencias* 6 (1940) 981–993.
Ibn 'Abd al-Ḥakam. *Futūḥ Miṣr*, ed. C. Torrey, Yale University Press, New Haven, 1922.
Ibn 'Abd al-Ra'ūf. *Risāla*, in *Documents arabes inédits sur la vie sociale et économique en occident musulman au moyen âge: trois traités hispanique de ḥisba*, ed. E. Lévi-Provençal, Institut français d'archeologie orientale, Cairo, 1955, 67–116.
Ibn 'Abdūn, Muḥammad b. Aḥmad. *Risāla fī al-qaḍā' wa al-ḥisba*, in *Documents arabes inédits sur la vie sociale et économique en occident musulman au moyen âge: trois traités hispaniques de ḥisba*, ed. E. Lévi-Provençal, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1955, 1–65; Spanish trans. E. Lévi-Provençal and E. García Gómez, *Sevilla a comienzos del siglo* XII; *el tratado de Ibn 'Abdūn*, Moneda y Crédito, Madrid, 1948.
Ibn Abī Zar' al-Fāsī, 'Alī ibn 'Abd Allāh. *Kitāb al-anīs al-muṭrib rawḍ al-qirṭās fī akhbār muluk al-maghrib wa ta'rīkh madīna al-Fas (Annales regum Mauritaniae a conditio Idrisidarum imperio ad annum fugae 726)*, ed. C. J. Tornberg, Litteris academicis, Uppsala, 1843–1845.
Ibn al-'Adīm, Kamāl al-Dīn 'Umar b. Aḥmad. *Bughyat al-ṭalab fī tārīkh Ḥalab*, [s.n.], Damascus, 1988.
Ibn al-Rāmī, Muḥammad. *Kitāb al- i'āln bi aḥkām al-bunyān*, Markaz al-Dirāsāt wa-al-I'lām, Dār Ishbīliya, Riyadh, 1995.
Ibn Baṭṭūṭa. *Voyages d'Ibn Battuta*, ed. C. Défrémery and B. R. Sanguinetti, 4 volumes, l'Imprimerie Nationale, Paris, 1853–1858 (repr. Editions Anthropos, Paris, 1968–1969); trans. H. A. R. Gibb, *The Travels of Ibn Baṭṭūṭa* AD *1325–1354*, Hakluyt Series 110 and 117, Hakluyt Society, Cambridge (1958[I] and 1962[II]).
Ibn Duqmāq, Ṣārim al-Dīn. *Kitāb al-intiṣār li-wāsiṭat 'aqd al-Amṣār (Description de l'Egypte)*, Impr. Nationale, Cairo, 1893 (repr. The Trading Office [al-Maktab al-Tijārī], Beirut, 1966).
Ibn Habīb. *Tathkirat al-nabih fī ayyam al-manṣūr wa-banih*, ed. Muhammad M. Amin, National Library Press, Cairo, 1982.

Ibn al-Ḥājj al-'Abdarī. *al-Madkhal*, al-Maṭba'ah al-Miṣrīyah, Cairo, 1929.
Ibn Ḥawqal. *Kitāb ṣūrat al-'arḍ*, ed. M. J. de Goeje, Bibliotheca geographorum arabicorum 2, E. J. Brill, Leiden, 1873 (repr. E. J. Brill, Leiden, 1967); French trans. J. H. Kramers and Gaston Wiet, *Configuration de la terre*, Editions Maisonneuve, Paris, 1964.
Ibn Ḥazm, 'Alī b. Aḥmad. *Ṭawq al-ḥamāmah*, ed. T. A. Makki, Dār al-Ma'ārif, Cairo, 1975; English trans. A. J. Arberry, *The Ring of the Dove*, Luzac & Co., London, 1953.
Ibn al-Jawzī, Abū al-Faraj. *Talbīs al-Iblīs*, Idārah al-Ṭibā'ah al-Munīrah, Cairo, 1966.
Ibn Jubayr, Muḥammad b. Aḥmad. *Riḥla*, ed. William Wright, rev. M. J. de Goeje, E. J. Brill, Leiden, 1907; trans. R. J. C. Broadhurst, *The Travels of Ibn Jubayr*, Jonathan Cape, London, 1952.
Ibn Khāqān, Abū Naṣr al-Fataḥ. *Qalā'id al-'iqyān*, Dār al-Tūnisiyya lil-Nashr, Tunis, 1990.
Ibn al-Khatīb. "El *Parangón entre Málaga y Salé* de Ibn al-Jaṭīb," trans. Emilio García Gómez, *al-Andalus* 2 (1934) 183–196.
Ibn Manẓūr, Muḥammad ibn Mukarram. *Lisān al-'arab*, Dār al-Sādar, Beirut, 1968.
Mukhtaṣar Ta'rīkh Dimashq li-Ibn Asākir, Dār al-Fikr, Damascus, 1984.
Ibn Mughīth al-Ṭūlayṭulī, Aḥmad. *al-Muqni' fī 'ilm al-shurūṭ (Formulario notarial)*, ed. Francisco Javier Aguirre Sádaba, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1994.
Ibn Muyassar. *Annales d'Egypte (les khalifes fâtimides)*, ed. Henri Massé, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1919.
Ibn Ṣāḥib al-Salāh, 'Abd al-Malik ibn Muḥammad. *Ta'rīkh al-mann bi-al-imāmah*, Dār al-Andalus, Beirut, 1964.
Ibn Ṣaṣrā, Muḥammad b. Muḥammad. *A Chronicle of Damascus 1389–1397*, ed. and trans. William M. Brinner, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 1963.
Ibn Shaddād, Yūsuf b. Rāfi. *Sīrat Ṣalah al-Dīn*, Mu'ssasat al-Khānijī, Cairo, 1962; trans. C. R. Conder, *The Life of Saladin*, Palestine Exploration Fund, London, 1897.
Ibn al-Shiḥnah, Muḥibb al-Dīn Muḥammad b. Muḥammad. "*Les Perles choisies*" *d'Ibn ach-Chihna*, trans. Jean Sauvaget, Institut français de Damas, Beirut, 1938.
Ibn Taghrībirdī, Abu al-Maḥasin Yusuf. *History of Egypt 1382–1469* AD, trans. William Popper, 7 volumes, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 1954–1960.
Ibn Ṭūlūn, Shams al-Dīn Muḥammad b. 'Alī. *Les Gouverneurs de Damas sous les mamlouks et les premiers ottomans*, ed. and trans. Henri Laoust, Institut français de Damas, Damascus, 1952
"Ḥārāt Dimashq al-qadīma," ed. H. Zayāt, *al-Mashriq* 35 (1937) 33–35.
I'lām al-warā biman waliya nā'iban min al-'atrāk bi-dimashq al-shām al-kubrā, Dār al-Fikr, Damascus, 1984.
Ibn Wāṣil. *Mufarrij al-kurūb fī akhbār Bānī Ayyūb*, Wizārat al-thaqāfa wa al-irshād al-qawmī, Cairo, 1953–1960.

Ibrahim, Laila 'Ali. *Mamluk Monuments of Cairo*, Quaderni dell'Istituto Italiano di Cultura, Cairo, 1976.
al-Idrīsī, Muḥammad b. Muḥammad. *Kitāb nuzhat al-mushtāq fī ikhtirāq al-'afāq*, ed. Enrico Cerulli et al., 9 volumes, Istituto universitario orientale di Napoli, Rome and Naples, 1970–1984 (repr. in two volumes, 'Alim al-Kutub, Beirut, 1989); partial French trans. R. Dozy and M. J. de Goeje, *Description de l'Afrique et d'Espagne par Edrīsī*, E. J. Brill, Leiden, 1866 (repr. E. J. Brill, Leiden, 1968).
Igual Luis, David. *Valencia e Italia en el siglo* XV. *Rutas, mercados y hombres de negocios en el espacio economico del Mediterraneo occidental*, Bancaixa Fundació Caixa Castelló, Valencia, 1998.
Imhaus, Brünehilde. *Le minoranze orientale a Venezia: 1300–1510*, Il Veltro, Rome, 1997.
Imperiale di Sant'Angelo, Cesare (ed.). *Codice diplomatico della repubblica de Genova*, Fonti per la Storia d'Italia 77, 79, 89, Tipografia del Senato, Rome, 1936 (I), 1938 (II), 1942 (III).
Inalcik, Halil. "An Outline of Ottoman–Venetian Relations," in *Venezia centro di mediazione tra oriente e occidente (secoli* XV–XVI): *aspetti e problemi*, ed. H. G. Beck, M. Manoussacas, and A. Pertusi, Leo S. Olschki, Florence, 1977, I, 83–90.
Insoll, Timothy. *The Archaeology of Islam*, Blackwell, Oxford, 1999.
'Isā, Mirfat Maḥmūd. "Dirāsa fī wathā'iq al-Sultān al-Malik al-Ashraf Sha'bān ibn Ḥusayn: al-Munsha'āt al-tijāriyya wa aḍwā' jadīda 'alā al-takhṭīṭ al-mi'mārī lil-fanādiq wa al-ribā' fī al-'aṣr al-mamlūkī," *al-Mu'arrikh al-Miṣrī* 21 (1999) 129–202.
Isaac, Benjamin. *The Limits of Empire. The Roman Army in the East*, rev. ed., Clarendon Press, Oxford, 1992.
Isidore of Seville. *Etymologies*, ed. W. M. Lindsay, Clarendon Press, Oxford, 1911.
al-Istakhrī, Abū Isḥāq al-Fārisī. *Kitāb al-masālik wa al-mamālik*, ed. M. J. de Goeje, Bibliotheca geographorum Arabicorum 1, E. J. Brill, Leiden, 1870 (repr. E. J. Brill, Leiden, 1967).
Izeddin, M. "Un Texte arabe inédit sur Constantinople byzantine," *Journal Asiatique* 246 (1958) 453–457.
Jacoby, David. "Les Communes italiennes et les ordres militaires à Acre: aspects juridiques, territoriaux et militaires (1104–1187, 1191–1291)," in *Etat et colonisation au moyen âge et à la renaissance*, ed. Michel Balard, La Manufacture, Lyon, 1989, 193–214.
"Conrad, Marquis of Montferrat and the Kingdom of Jerusalem (1187–1192)," in *Atti del Congresso Internazionales "Dai feudi monferrini e dal Piemonte ai nuovi mondi oltre gli Oceani" Alessandria, 2–6 Aprile 1990*, ed. Laura Balletto, Società di Storia, Arte e Archeologia, Alessandria, 1993, 187–238.
"Crusader Acre in the Thirteenth Century: Urban Layout and Topography," originally published in *Studi Medievali* 3rd series, 20, Spoleto, 1979, 1–45; repr. with corrections in *Studies on the Crusader States and on Venetian Expansion*, Variorum, Northampton, 1989.

"L'Evolution urbaine et la fonction méditerranéenne d'Acre à l'époque des croisades," in *Cittá portuali del Mediterraneo, storia e archeologia. Atti del Convegno Internazionale di Genova, 1985*, ed. Ennio Poleggi, Sagep Editrice, Genoa, 1989, 95–109.

"L'Expansion occidentale dans le Levant: les Vénitiens à Acre dans la seconde moitié du treizième siècle," *Journal of Medieval History* 3 (1977) 225–264.

"Italian Privileges and Trade in Byzantium before the Fourth Crusade: A Reconsideration," *Anuario de Estudios Medievales* 24 (1994) 349–369.

"Les Italiens en Egypte aux XIIe et XIIIe siècles: du comptoir à la colonie?" in *Coloniser au moyen âge*, ed. Michel Balard and Alain Ducellier, Armand Colin, Paris, 1995, 76–89, 102–107.

"The Migration of Merchants and Craftsmen: A Mediterranean Perspective (12th–15th Century)," in *Le migrazioni in Europa, secc. XIII–XVIII*, ed. Simonetta Cavaciocchi, Le Monnier, Florence, 1994, 533–560.

"Nuovi e mutevoli orizzonti: verso ed oltre l'Oriente mediterraneo," in *Storia d'Europa*, III: *Il Medioevo*, ed. Gherardo Ortalli, Einaudi, Turin, 1995, 1143–1192.

"Les Quartiers juifs de Constantinople à l'époque byzantine," *Byzantion* 37 (1967) 167–227.

"The Rise of a New Emporium in the Eastern Mediterranean: Famagusta in the Late Thirteenth Century," in *Meletai kai hypomnemata, Hidryma Archiepiskopou Makariou III*, Hidryma Archiepiskopou Makariou, Leukosia, 1984, I, 145–179.

"A Venetian Manual of Commercial Practice from Crusader Acre," in *I communi italiani nel regno crociato di Gerusalemme*, ed. Gabriella Airaldi and Benjamin Kedar, Collana Storici di Fonti e Studi, Genoa, 1986, 403–428.

"Venice and the Venetian Jews in the Eastern Mediterranean," *Gli ebrei e Venezia (secoli XIV–XVIII) A CURA DI G. COZZI*, Edizione di Comunità, Milan, 1987, 29–58.

(James I of Aragón). *Documentos de Jaime I de Aragón*, ed. A. Huici Miranda and M. D. Cabanes Pecourt, 5 volumes, Anubar, Valencia and Zaragoza, 1976–1988.

Janin, R. *La Géographie ecclésiastique de l'empire byzantine: Première partie, Le Siège de Constantinople et le patriarcat oecuménique*, III, Institute français d'études byzantines, Paris, 1969.

"Les Sanctuaires des colonies latines à Constantinople," *Revue des Etudes Byzantines* 4 (1946) 163–177.

Jarry, Jacques. "Inscriptions syriaques et arabes inédites du Ṭur 'Abdin," *Annales Islamologiques* 10 (1972) 207–250.

Jaussen, J. A. "Inscription arabe du Khān al-Aḥmar à Beïsān," *Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale* 22 (1923) 99–103.

al-Jazarī. "Jawāhir al-sulūk fī al-ḥulafā wa al-mulūk" (unpublished manuscript), Bibliothèque Nationale de France, MS Arabe 6739.

al-Jazarī, Muḥammad b. Ibrāhīm. *La Chronique de Damas d'al-Jazari (années 689–690 H)*, trans. Jean Sauvaget, Librairie Ancienne H. Champion, Paris, 1949.

al-Jazīrī, 'Alī b. Yaḥyā. *al-Maqṣad al-maḥmūd fī talkhīṣ al-'uqūd (Proyecto plausible de compendio de fórmulas notariales)*, ed. Asunción Ferreras, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1998.
al-Jaznā'ī, Abū al-Ḥasan 'Alī. *Kitāb zahrat al-ās fī binā' madīna Fās (Zahrat al-ās [La Fleur du myrte] traitant de la fondation de la ville de Fès)*, ed. Alfred Bel, J. Carbonel, Algiers, 1923; also new ed., Al-Maṭba'a al-Malakiya, Rabat, 1967.
Jerome, Saint. *Sancti Eusebii Hieronymi Epistulae*, ed. I. Hilberg, F. Tempsky, Vienna, 1910 (repr. Verlag der Österreichischen Akademie der Wissenschaften, Vienna, 1996).
Johns, Jeremy. *Arabic Administration in Norman Sicily*, Cambridge University Press, Cambridge, 2002.
Johnson, Allen Chester and Louis C. West. *Byzantine Egypt: Economic Studies*, Princeton University Press, Princeton, 1949.
Joinville, Jean de. *Histoire de Saint Louis*, Jules Renouard, Paris, 1868.
Joos van Ghistele. *Le Voyage en Egypte de Joos van Ghistele, 1482–1483*, trans. Renée Bauwens-Préaux, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1976.
Josephus Flavius. *Jewish Antiquities*, ed. and trans. H. St. J. Thackeray and Ralph Marcus, Harvard University Press, Cambridge MA, 1934 (repr. 1998).
(Joshua the Stylite). *The Chronicle of Joshua the Stylite, Composed in Syriac AD 507*, trans. William Wright, Cambridge University Press, Cambridge, 1882.
Kaczynski, Bernice M. "Some St. Gall Glosses on Greek Philanthropic Nomenclature," *Speculum* 58 (1983) 1008–1017.
Katz, Jonathan G. *Dreams, Sufism, and Sainthood: The Visionary Career of Muhammad al-Zawāwī*, E. J. Brill, Leiden, 1996.
Kaufmann, Carl Maria. *Handbuch der altchristlichen Epigraphik*, Herdersche Verlagshandlung, Freiburg im Breisgau, 1917.
Kedar, Benjamin. "Mercanti genovesi in Alessandria d'Egitto negli anni sessanta del secolo XI," *Miscellanea di studi storici II*, ed. Geo Pistarino, Collana storica di fonti e studi, 38, Genoa, Università di Genova, 1983, 21–30.
Merchants in Crisis: Genoese and Venetian Men of Affairs and the Fourteenth-century Depression, Yale University Press, New Haven, 1976.
Kellenbenz, Hermann. "Pilgerspitäler, Albergues und Ventas in Spanien (Spätmittelalter – frühe Neuzeit)," in *Gastfreundschaft, Taverne und Gasthaus im Mittelalter*, ed. Hans Conrad Peyer, R. Oldenbourg Verlag, Munich and Vienna, 1983, 137–152.
"Las Relaciones económicas y culturales entre España y Alemania meridional alrededor de 1500," *Anuario de Estudios Medievales* 10 (1980) 545–554.
Kennedy, Hugh. "Antioch: From Byzantium to Islam and Back Again," in *The City in Late Antiquity*, ed. J. Rich, Routledge, London, 1992, 181–198.
Kervran, Monique. "Caravansérails du delta de l'Indus. Réflexions sur l'origine du caravansérail islamique," *Archéologie Islamique* 8–9 (1999) 143–176.
Khamis, Elias. "Two Wall-Mosaic Inscriptions from Umayyad Bet-Shean," *Cathedra* 85 (1997) 45–64.

Khelifa, Abderrahmane. "Le Port de Hūnayn au moyen âge," *Histoire et archéologie de l'Afrique du Nord: Actes du Ve Colloque international réuni dans le cadre du 115e Congrès national des sociétés savantes, Avignon, 9–13 avril 1990*, Editions du Comité des travaux historiques et scientifiques, Paris, 1992, 379–392.
Kiāni, Mohammad-Yousef and Wolfram Kleiss. *Kārvānsarāhā-ye Irān* [*Iranian Caravansarais*], Iranian Cultural Heritage Organization, Tehran, 1995.
King, G. R. D. "Caravanserais," *The Oxford Encyclopedia of Archeology in the Near East*, ed. Eric Meyers, Oxford University Press, Oxford, 1997, I, 422–423.
Kislinger, Ewald. "Kaiser Julian und die (christlichen) Xenodocheia," *Byzantios. Festschrift für Herbert Hunger zum 70. Geburtstag*, Ernest Becvar, Vienna, 1984, 171–184.
Kohler, Charles. "Documents inédits concernant l'orient latin et les croisades (XIIe –XIVe siècle)," *Revue d l'Orient Latin* 7 (1900) 1–37.
Kool, Robert. "The Genoese Quarter in Thirteenth-century Acre: A Reinterpretation of its Layout," *'Atiqot* 31 (1997) 189–200.
Kubiak, Wladyslaw. *al-Fusṭāṭ. Its Foundation and Early Urban Development*, American University in Cairo Press, Cairo, 1987.
Labib, Subhi. "Egyptian Commercial Policy in the Middle Ages," in *Studies in the Economic History of the Middle East from the Rise of Islam to the Present Day*, ed. Michael A. Cook, Oxford University Press, Oxford, 1970, 63–77.
Ladero Quesada, Miguel Angel. "Almojarifazgo sevillano y comercio exterior de Andalucia en el siglo XV," *Anuario de Historia Economica y Social* 2 (1969) 69–115.
Historia de Sevilla: la ciudad medieval (1248–1492), Universidad de Sevilla, Seville, 2nd ed., 1980.
Lagardère, Vincent. *Histoire et société en occident musulman au moyen âge. Analyse du* Mi'yār *d'al-Wansarīsī*, Collection de la Casa de Velázquez and the Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1995.
La Mantia, Giuseppe (ed.). *Codice diplomatico dei re Aragonesi di Sicilia*, Scuola tip. "Boccone del Povero," Palermo, 1917 (repr. Società Siciliana per la Storia Patria, Palermo, 1990).
La Monte, John L. *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem 1100–1291*, Medieval Academy of America, Cambridge, MA, 1932.
Lammens, Henri. "Correspondances diplomatiques entre les sultans mamlouks d'Egypte et les puissances chrétiens," *Revue de l'Orient Chrétien* 9 (1904) 151–87, 359–92.
Lane, Frederick C. *Andrea Barbarigo, Merchant of Venice 1418–1449*, Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1944.
Venice. A Maritime Republic, Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1973.
Lannoy, Ghillebert de. *Oeuvres de Ghillebert de Lannoy*, ed. Charles Potvin, Imprimerie de P. et J. Lefever, Louvain, 1878.
Lapidus, Ira Marvin. *Muslim Cities in the Later Middle Ages*, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1967.
Las Cagigas, Isidro de. "Un Traité de paix entre le Roi Pierre IV d'Aragon et le Sultan de Tunis Abū Isḥāq II (1360)," *Hespéris* 18 (1934) 65–77.

Lazzarini, Vittorio. "L'albergo del 'Bo' nel 1399," *Archivio Veneto-tridentino* (Venice) 1 (1922) 284–305.

Leccisotti, Tommaso (ed.). *Le colonie cassinesi in Capitanata*, IV: Troia, Miscellanea Cassinese, Montecassino, 1957.

Leclercq, H. "Hôpitaux, hospices, hôtelleries," *Dictionnaire d'archéologie chrétienne et de la liturgie* 6.2 (1925) 2748–2770.

Leo Africanus, John. *Description de l'Afrique*, trans. A. Epaulard, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1956.

Lesage, Georges. *Marseille angevine*, E. de Boccard, Paris, 1950.

Le Tourneau, Roger. *Fès avant le protectorat. Etude économique et sociale d'une ville de l'occident musulman*, Publications de l'Institut des hautes études marocaines, Casablanca, 1949.

Fez in the Age of the Marinids, University of Oklahoma Press, Norman, 1961.

"Funduk," *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed., II, E. J. Brill, Leiden, 945.

Lévi-Provençal, Evariste. *Histoire de l'Espagne musulmane*, 3 volumes, G.-P. Maisonneuve, Paris, 1950–1953.

Levine, Lee. *The Ancient Synagogue. The First Thousand Years*, Yale University Press, New Haven, 2000.

Levy, Reuben. *A Baghdad Chronicle*, Cambridge University Press, Cambridge, 1929.

Lewis, Archibald R. "Northern Sea Power and the Staits of Gibraltar, 1031–1350 AD," in *Order and Innovation in the Middle Ages: Essays in Honor of Joseph R. Strayer*, ed. W. C. Jordan, B. McNab, and T. F. Ruiz, Princeton University Press, Princeton, 1976, 139–164.

Lewis, Bernard (trans.). *Islam from the Prophet Muhammad to the Capture of Constantinople*, Harper, New York, 1974.

Liagre-De Sturler, Léone. *Les Relations commerciales entre Gênes, la Belgique et l'Outremont d'après les archives notariales génoises (1320–1400)*, Institut historique belge de Rome, Brussels and Rome, 1969.

Liber communis detto anche plegiorum del R. Archivio generale di Venezia, ed. R. Predelli, Tipografia del Commercio di Marco Visentini, Venice, 1872.

Liber iurium Reipublicae Genuensis, Historiae Patriae Monumenta 7, 9, Turin, Ex Officina regina, 1854, 9, 1857.

Liber statutorum civitatis Ragusii compositus anno 1272, ed. V. Bogisic and C. Jirecek, Societas Typographica, Zagreb, 1904 (new ed., *Statut Grada Dubrovnika, 1272*, ed. Ante Cvitanic, Historijski Arhiv Dubrovnik, Dubrovnik, 1990).

Lisciandrelli, Pascuale. *Trattati e negoziazioni politiche della Repubblica di Genova (958–1797)*, Atti della Società Ligure di Storia Patria, Genoa, 1960.

Les Livres des assises et des usages dou reaume de Jerusalem, ed. Eduard H. von Kausler, A. Krabbe, Stuttgart, 1839.

Llompart, Gabriel. "Testamentos de mercaderes mallorquines rogados entre musulmanes (1374–1388)," *Hispania* 44 (1984) 411–431.

Lockhart, L., R. Morozzo della Rocca, and M. F. Tiepolo (eds.). *I viaggi in Persia degli ambasciatori veneti Barbaro e Contarini*, Istituto Poligrafico dello Stato, Rome, 1973.

Lopez, Robert Sabatino. *The Commercial Revolution of the Middle Ages, 950–1350*, Cambridge University Press, Cambridge, 1976.

"Du Marché temporaire a la colonie permanente: l'évolution de la politique commerciale au moyen âge," *Annales: Economies, Sociétés, Civilisations* 4 (1949) 387–405.

"The Silk Industry in the Byzantine Empire," *Speculum* 20 (1945) 1–42.

Storia delle colonie genovesi nel Mediterraneo, Nicola Zanichelli, Bologna, 1938.

Lopez de Coca Castañer, José-Enrique. "Comercio exterior del reino de Granada," *Actas del II Coloquio de Historia Medieval Andaluza. Hacienda y comercio (Sevilla, 8–10 de Abril, 1981)*, Excma. Diputación Provincial de Sevilla, Seville, 1982, 334–377.

López de Coca Castañer, José-Enrique and Maria Teresa López Beltrán. "Mercaderes genoveses en Málaga (1487–1516). Los hermanos Centurión e Ytalian," *Historia, Instituciones, Documentos* 7 (1980) 95–123.

López de Meneses, Amada. "Los Consulados catalanes de Alejandria y Damasco en el reinado de Pedro el Ceremonioso," *Estudios de Edad Media de la Corona de Aragon* (Zaragoza) 6 (1956) 83–183.

López Pérez, María Dolores. *La Corona de Aragón y el Maghreb en el siglo XIV (1331–1410)*, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Barcelona, 1995.

"Las relaciones diplomáticas y comerciales entre la Corona de Aragón y los estados norteafricanos durante la baja edad media," *Anuario de Estudios Medievales* 20 (1990) 149–169.

Lupprian, Karl-Ernst. *Il Fondaco dei Tedeschi e la sua funzione di controllo del commercio tedesco a Venezia*, Centro Tedesco di Studi Veneziani, Venice, 1978.

Luz, Nimrod. "The Construction of an Islamic City in Palestine. The Case of Umayyad al-Ramla," *Journal of the Royal Asiatic Society*, series 3, 7, 1 (1997) 27–54.

Lyons, Malcolm C. *The Arabian Epic: Heroic and Oral Story-Telling*, Cambridge University Press, Cambridge, 1995.

Mabro, Judy. *Veiled Half-Truths. Western Travellers' Perceptions of Middle Eastern Women*, I. B. Tauris, London, 1991.

MacAdam, Henry I. "Epigraphy and Village Life in Southern Syria during the Roman and Early Byzantine Periods," *Berytus* 31 (1983) 103–115.

Mack, Rosamond. *Bazaar to Piazza: Islamic Trade and Italian Art, 1300–1600*, University of California Press, Berkeley, 2002.

MacKenzie, Neil D. *Ayyūbid Cairo. A Topographical Study*, American University in Cairo Press, Cairo, 1992.

Magdalino, Paul. *Constantinople médiévale: études sur l'évolution des structures urbaines*, De Boccard, Paris, 1996.

Magoulias, Harry J. "Bathhouse, Inn, Tavern, Prostitution and the Stage as Seen in the Lives of the Saints of the Sixth and Seventh Centuries," *Epeteris Hetaireias Vyzantinon Spoudon* 38 (1971) 233–252.

Makdisi, George. *The Rise of Colleges: Institutions of Learning in Islam and the West*, Edinburgh University Press, Edinburgh, 1981.

Mālik b. Anas. *Kitāb al-Muwaṭṭa'*, Mu'assasat al-Risālah, Beirut, 1993.

Malpica Cuello, Antonio. "De la Granada nazarí al reino de Granada," in *De al-Andalus a la sociedad feudal: los repartimientos bajomedievales*, ed. Manuel Sánchez Martínez, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Barcelona, 1990, 119–153.

Maltezou, Chryssa A. "Las Italiens propriétaires '*Terrarum et casarum*' à Byzance," *Byzantinische Forschungen* 22 (1996) 177–191.

Mandel, Gabriel. *I caravanserragli Turchi*, Lucchetti, Bergamo, 1988.

Mango, Cyril. "A Late Roman Inn in Eastern Turkey," *Oxford Journal of Archaeology* 5 (1986) 223–231.

Manni, Paola (ed.). "Il libro del dare e dell'avere dei figli di Stefano Soderini (1306–1325)," *Studi di Filologia Italiana* 36 (1978) 67–155.

Mansouri, Mohamed Tahar. "Les Communautés marchandes occidentales dans l'espace mamlouk (xiiie–xve siècle)," in *Coloniser au moyen âge*, ed. Michel Balard and Alain Ducellier, Armand Colin, Paris, 1995, 89–101, 107–111.

"Consuls et consulats en Terre d'Islam: l'Egypte mamlouk et le Maghreb au moyen-âge," *Consolati di Mare and Chambers of Commerce. Proceedings of a Conference held at the Foundation for International Studies (Valletta, 1998)*, ed. Carmel Vassallo, Malta University Press, Valletta, 2000, 151–162.

al-Maqdisī (Muqaddasi), Shams al-Dīn Abū 'Abd Allāh Muḥammad. *Aḥsan al-taqāsīm fī ma'rifat al-aqālīm*, ed. M. J. de Goeje, Bibliotheca geographorum Arabicorum, 3, E. J. Brill, Leiden, 1877 (repr. E. J. Brill, Leiden, 1967).

al-Maqrīzī, Taqī al-Dīn Aḥmad. *Khiṭaṭ*, Dār al-Tiba'ah al-Miṣriyah, Būlāq, 1853.

Kitāb al-sulūk li-ma'rifat duwal al-mulūk, 4 volumes, National Library Press, Cairo, 1936–1973; partial French trans. Etienne Marc Quatremère, *Histoire des sultans mamlouks de l'Egypte*, Oriental Translation Fund, 2 parts in 4 volumes, Paris, 1845; partial English trans. R. J. C. Broadhurst, *A History of the Ayyūbid Sultans of Egypt*, G. K. Hall & Co., Boston, 1980.

Les Marchés du Caire. Traduction annotée du texte de Maqrīzī, ed. A. Raymond and G. Wiet, Textes arabes et études islamiques, 14, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1979.

Marçais, Georges. *Manuel de l'art musulman. L'Architecture, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile*, Editions Auguste Picard, Paris, 1927 (rev. ed. Arts et Métiers Graphiques, Paris, 1954).

Tunis et Kairouan, Laurens, Paris, 1937.

Marchena Hidalgo, Rosario. "Economía sevillana en la baja edad media: una crisis de subsistencia," *Archivo Hispalense* 54 (1971) 189–201.

Marengo, Emilio. *Genova e Tunisi 1388–1515*, Tipografia Artigianelli di San Giuseppe, Rome, 1901.

Marín, Manuela. "El viaje a Oriente de Abū Marwān al-Bāŷī (m. 635/1237)," in *Estudios onomásticos-biográficos de al-Andalus*, ed. M. Marín, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1994, vi, 273–304.

Martin, M. E. "The Venetian–Seljuk Treaty of 1220," *English Historical Review* 95 (1980) 321–330.

Martínez Ferrando, Jesús Ernesto. *Catálogo de la documentación relativa al antiguo reino de Valencia*, Imprenta Góngora, Madrid, 1934.

Mas Latrie, M. L. de. *Histoire de l'île de Chypre sous le règne des princes de la maison de Lusignan*, 4 volumes, Imprimerie Nationale, Paris, 1852–1873 (repr. Les Editions L'Oiseau, Famagusta, 1970).

Nouvelles preuves de l'histoire de Chypre sous le règne des princes de la maison de Lusignan, J. Baur et Détaille, Paris, 1873 (repr. Les Editions L'Oiseau, Famagusta, 1970).

Mas Latrie, M. L. de (ed.). *Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge*, Henri Plon, Paris, 1865.

Masi, Bartolomeo. *Ricordanze di Bartolomeo Masi, calderaio fiorentino dal 1478 al 1526*, ed. G. O. Corazzini, G. C. Sansoni, Florence, 1906.

Mastursi, Giuseppe (ed.). "Statuto dellÆarte dei rigattieri e venditori di panni lini e lino de Firenze del 1357," *Bollettino dell'Opera del Vocabolario Italiano* 3 (1998) 335–382.

al-Mas'ūdī, 'Alī ibn Ḥusayn. *Les Prairies d'or*, ed. and trans. Casimir Barbier de Meynard, Imprimerie Nationale, Paris, 1877.

Mayer, Hans Eberhard. *Marseilles Levantehandel und ein Akkonensisches Fälscheratelier des 13. Jahrhunderts*, Max Niemeyer Verlag, Tübingen, 1972.

Mayer, L. A. "The Name of Khān el Aḥmar, Beisān," *Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine* (Jerusalem) 1 (1932) 95–96.

"Satura epigraphica," *Quarterly of the Department of Antiquities in Palestine* (Jerusalem) 1 (1931) 37–43.

Mayer, L. A. (ed.). *The Buildings of Qāytbāy as Described in his Endowment Deed*, Arthur Probsthain, London, 1938.

McCormick, Michael. *The Origins of the European Economy: Communications and Commerce AD 300–900*, Cambridge University Press, Cambridge, 2001.

McDonald, W. A. "Villa or Pandokeion?" in *Studies Presented to David Moore Robinson*, ed. George E. Mylonas, Washington University Press, St. Louis, 1951, 365–373.

McNamara, Elmer A. "Because there was no Room for them in the Inn," *The Ecclesiastical Review* 105 (1941) 433–443.

Ménager, Léon-Robert. *Les Actes latins de S. Maria di Messina (1103–1250)*, Istituto Siciliano di Studi Bizantini e Neollenici, Palermo, 1963.

Menéndez Pidal, Ramón. *La España del Cid*, Espasa-Calpe, Madrid, 5th ed., 1956.

Méry, Louis and F. Guindon (eds.). *Histoire analytique et chronologique des actes et des délibérations du corps et du conseil de la municipalité de Marseille, depuis le xme siècle jusqu'à nos jours*, Feissat aîné et Demonchy, Marseille, 1841.

Meshullam ben Menahem of Volterra. *Masa' Meshullam mi-Volterra be-erez yisrael bi-shnat 1481*, ed. Abraham Yaari, Mosad Bialik, Jerusalem, 1948.

Messier, Ronald. "The Christian Community of Tunis at the Time of St. Louis' Crusade, AD 1270," in *The Meeting of Two Worlds: Cultural Exchange between East and West during the Period of the Crusades*, ed. Vladimir P. Goss, Medieval Institute Publications, Kalamazoo, MI, 1986, 241–255.

Metzger, Bruce M. *The Early Versions of the New Testament*, Clarendon Press, Oxford, 1977.

Meyerson, Mark D. *The Muslims of Valencia in the Age of Fernando and Isabel: Between Coexistence and Crusade*, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 1991.
"Prostitution of Muslim Women in the Kingdom of Valencia: Religious and Sexual Discrimination in a Medieval Plural Society," in *The Medieval Mediterranean: Cross-Cultural Contacts*, ed. K. Reyerson and M. Chiat, North Star Press, St. Cloud, MN, 1988, 87–95.
Mez, Adam. *The Renaissance of Islam*, Luzac & Co., London, 1937.
Miller, Timothy S. *The Birth of the Hospital in the Byzantine Empire*, Johns Hopkins University Press, Baltimore, 1985.
"The Samson Hospital in Constantinople," *Byzantinische Forschungen* 15 (1990) 101–135.
Millet, Gabriel. "Sur les sceaux des commerciaires byzantines," *Mélanges offerts à M. Gustave Schlumberger*, II, Librairie Orientaliste Paul Guethner, Paris, 1924, 303–327.
Miquel, André. *La Géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du IIe siècle*, Ecole des hautes Etudes en sciences sociales, Paris, 1967.
Miret i Sans, Joaquim (ed.). *Itinerari de Jaume I "El Conqueridor"*, Institut d'Estudis Catalans, Barcelona, 1918.
Miret i Sans, Joachim and Moise Schwab. "Documents sur les juifs catalans aux IXe, XIIe, et XIIIe siècles," *Revue des Etudes Juives* 68 (1914) 174–197.
Mones, H. (ed.). "Waṣf al-jadīd li-Qurṭuba al-islamiyya," *Ma'had al-Dirasāt al-Islamiyya* (Madrid) 13 (1965–1966) 164–181.
Monticolo, Giovanni (ed.). *I Capitolari delle arti veneziane sottoposto alla giustizia e poi alla giustizia vecchia dalle origini al* MCCCXXX, Tipografi del Senato, Rome, 1896.
Monneret de Villard, Ugo. *Introduzione allo studio dell'archeologia islamica. Le origini e il periodo omayyade*, Istituto per la Collaborazione Culturale, Venice, 1966.
Monroe, James. *Islam and the Arabs in Spanish Scholarship (Sixteenth Century to the Present)*, E. J. Brill, Leiden, 1970.
Montefiore, C. G. and H. Loewe (eds.). *A Rabbinic Anthology*, Macmillan & Co., London, 1938.
Monumenta Asiae Minoris Antiqua, III, ed. Josef Keil and Adolf Wilhelm, Manchester University Press, Manchester, 1931.
Monumenta Ragusina, comp. Ivan Krstitelj Tkakic, Petar Budmani, and Josip Gecic, Monumenta spectantia historiam Slavorum meridionalium, 13, Academie Scientiarum et Artum, Zagreb, 1882.
Morán Martín, Remedios. "La Organización de un espacio de la Orden de Calatrava en el siglo XII: la Alcarria," in *Espacios y fueros en Castilla–La Mancha (siglos XI–XV). Una perspectiva metodológica*, ed. Javier Alvarado Planas, Ediciones Polifemo, Madrid, 1995, 255–293.
Morozzo della Rocca, Raimondo (ed.). *Lettere di mercanti a Pignol Zucchello (1336–1350)*, Comitato per la Pubblicazione delle Fonti Relative alla Storia di Venezia, Venice, 1957.

Morozzo della Rocca, Raimondo and A. Lombardo (eds.). *Documenti del commercio Veneziano nei secoli* XI–XIII, Istituto Storico Italiano per il Medio Evo, Rome, 1940.

Moschus, John. *Pratum Spirituale*, *PG*, LXXXVII.3, 2879–2880; trans. John Wortley, *The Spiritual Meadow*, Cistercian Publications, Kalamazoo, MI, 1992.

Mottahedeh, Roy. "The Transmission of Learning: The Role of the Islamic North-east," in *Madrasa. La Transmission du savoir dans le monde musulman*, ed. Nicole Grandin and Marc Garborieau, Editions Arguments, Paris, 1997, 63–72.

Mouterde, René and A. Poidebard. "La Voie antique des caravanes entre Palmyre et Hit au II^e^ siècle AP. J.-C.," *Syria* 12 (1931) 101–115.

Mouynès, Germain (ed.). *Inventaire des archives communales antérieures à 1790*, 2 volumes, E. Caillard, Narbonne, 1871–1877.

Müller, Joseph (ed.). *Documenti sulle relazioni delle città toscane coll'Oriente cristiano e coi Turchi fino all'anno* MDXXXI, M. Cellinie, Florence, 1879.

Müller-Wiener, Martina. *Eine Stadtgeschichte Alexandrias von 564/1169 bis in die Mitte 9.15. Jahrhunderts*, Klaus Schwartz Verlag, Berlin, 1992.

Muñoz y Romero, Tomás (ed.). *Colección de fueros municipales y cartas pueblas de las reinos de Castilla, León, Corona de Aragón, y Navarra*, Madrid, 1847 (repr. Ediciones Atlas, Madrid, 1978).

Münzer, Jerónimo. *Viaje por España y Portugal (1494–1495)*, ed. and trans. Ramón Alba, Ediciones Polifemo, Madrid, 1991.

Muratori, Ludovico Antonio (ed.). *Rerum Italicarum Scriptores*, Typ. Societatis Palatinae, Milan, 1723–1751.

Mutgé Vives, Josefa. "Algunas noticias sobre las relaciones entre la corona Catalano-Aragonesa y el reino de Tunez de 1345 a 1360," in *Relaciones de la Península Ibérica con el Maghreb* (*siglos* XIII–XVI), ed. M. García-Arenal and M. J. Viguera, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1988, 131–164.

Nāṣer-e Khosraw. *Taḥlīl-i Safarnāmah*, Nashr-i Qatrah, Tehran, 1992; trans. W. M. Thackston, *Nāṣer-e Khosraw's Book of Travels (Safarnāma)*, Persian Heritage Series 36, State University of New York Press, Albany, 1986.

Neuvonen, Eero K. *Los arabismos del español en el siglo* XIII, Societa Orientalis Fennica, Helsinki, 1941.

(Nicholas the Monk). *Vita*, AASS Novembris Propylaeum, Synaxarium Ecclesiae Constantinopolitanae, 1902, 341–344.

Nicholas, David. *The Growth of the Medieval City*, Longman, London, 1997.

Niẓām al-Mulk. *Siyāsat-nama*, Shirkat-i Intish ar at-i Ilm va Farhangi, Tehran, 1994; trans. H. Drake, *The Book of Government or Rules for Kings*, Routledge & Kegan Paul, London, 1978.

Noto, Antonio (ed.). *Liber datii mercantie communis mediolani. Registro del secolo* XV, Universitá Commerciale Luigi Bocconi, Milan, 1950.

al-Nuwayrī, Muḥammad b. Qāsim. *Kitāb al-ilmām*, ed. E. Combe and A. S. Atiya, Osmania University, Hyderabad, 1969.

Ogier d'Anglure. *The Holy Jerusalem Voyage of Ogier VIII, Seigneur d'Anglure*, trans. Roland A. Brown, University Presses of Florida, Gainesville, 1975.
Origo, Iris. *The Merchant of Prato*, Alfred A. Knopf, New York, 1957.
Origone, S. "Genova, Constantinopoli e il regno di Gerusalemme (prima metà sec. XIII)," in *I Comuni italiani nel regno crociato di Gerusalemma: atti del Colloquio The Italian Communes in the Crusading Kingdom of Jerusalem (Jerusalem, May 24–May 28, 1984)*, Collana Storica di Fonti e Studi 48, ed. Gabriela Airaldi and Benjamin Z. Kedar, Universita di Genova, Genoa, 1986, 281–316.
Otten-Froux, Catherine. "Les Pisans en Egypte et à Acre dans la seconde moitié du XIIIe siècle: documents nouveaux," *Bollettino Storico Pisano* 52 (1983) 163–190.
Ouéchek, Emilie E. *Index général de la "Description de Damas" de Sauvaire*, Institut français de Damas, Damascus, 1954.
Padoan, Emilio. "Il Fondaco dei Tedeschi a Venezia," *Emporium* 90 (1939) 287–292.
Pantin, W. A. "Medieval Inns," in *Studies in Building History*, ed. E. M. Jope, Odhams Press Limited, London, 1961, 166–191.
Paolucci, Giuseppe. "Le finanze e la corte di Federico II di Svevia," *Atti della Reale Accademia di Scienze, Lettere e Belle Arti di Palermo*, 3rd series, 7 (1904) 3–52.
Pastor de Togneri, Reyna. "La Sal en Castilla y León. Un problema de la alimentación y del trabajo y una política fiscal (siglos X–XIII)," *Cuadernos de Historia de España* 37–38 (1963) 42–87.
Patterson Robert, B. "The Early Existence of the *Funda* and *Catena* in the Twelfth-century Latin Kingdom of Jerusalem," *Speculum* 39 (1964) 474–477.
(Paul of Latros). *Vita*, ed. Theodor Wiegand in *Der Latmos*, G. Reimer, Berlin, 1913.
Pavoni, Romeo (ed.). *Notai genovesi in Oltremare. Atti rogati a Cipro da Lamberto di Sambuceto (Gennaio–Agosto 1302)*, Università di Genova, Genoa, 1987.
Pegolotti, Francesco Balducci. *La Pratica della mercatura*, ed. Allan Evans, Medieval Academy of America, Cambridge, MA, 1936.
Pellet, Pierre. *Caravansérails*, Edifra, Paris, 1990.
Percy, William A. "The Indirect Taxes of the Medieval Kingdom of Sicily," *Italian Quarterly* 85 (1981) 73–85.
"The Revenues of the Kingdom of Sicily under Charles I of Anjou, 1266–1285 and their Relationship to the Vespers," Ph.D. dissertation, Princeton University, Princeton, 1964.
Perez-Embid, Florentino. "Navigation et commerce dans le port de Séville au bas moyen âge," *Le Moyen Age* 75 (1969) 263–289, 479–502.
Petersen, Andrew. "The Archeology of the Syrian and Iraqi Hajj Routes," *World Archeology* 26 (1994) 47–56.
Petersen, Hans. "A Roman Prefect in Osrhoene," *Transactions of the American Philological Association* 107 (1977) 265–282.
Petrosyan, Yuri et al. (eds.). *Pages of Perfection. Islamic Paintings and Calligraphy from the Russian Academy of Sciences, St. Petersburg*, ARCH Foundation, Lugano, 1995.
Petry, Carl F. *Protectors or Pretorians? The Last Mamluk Sultans and Egypt's Waning as a Great Power*, State University of New York Press, Albany, 1994.

(Philip Augustus). *Recueil des Actes de Phillippe Auguste roi de France*, ed. François Delaborde, Imprimerie Nationale, Paris, 1916.
Philo. *Supplement 1. Questions and Answers on Genesis*, ed. and trans. Ralph Marcus, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1953.
Philostratus. *The Life of Apollonius of Tyana*, ed. and trans. F. C. Conybeare, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1912.
Phrynichus Arabius. *The New Phrynichus, Being a Revised Text of the Ecloga of the Grammarian Phrynichus*, ed. W. Gunion Rutherford, Macmillan, London, 1881.
Picard, Christophe. *La Mer et les musulmans d'occident au moyen âge, XIIIe–XIIIe siècle*, Presses Universitaires de France, Paris, 1997.
Pieri, Paolino. *Cronica di Paolino Pieri Fiorentino delle cose d'Italia dall'anno 1080. fino all'anno 1305*, ed. A. F. Adami, Stamperia di Giovanni Zempel, Rome, 1755.
Pierotti, Piero. *Pisa e Accon. L'Insediamento pisano nella città crociata. Il porto. Il fondaco*, Pacini Editore, Pisa, 1987.
Piferrer y Fábregas, Pablo. *Islas Baleares*, D. Cortezo, Barcelona, 1888.
Piloti, Emmanuel. *Traité d'Emmanuel Piloti sur le passage en Terre Sainte (1420)*, ed. Pierre-Herman Dopp, Editions E. Nauwelaerts, Louvain and Paris, 1958.
Pines, Shlomo. "The Jewish Christians of the Early Centuries of Christianity according to a New Source," *Proceedings of the Israel Academy of Sciences and Humanities* (Jerusalem) 2 (1966) 1–74.
Pistarino, Geo. "Presenze ed influenze italiane nel sud de Spagna (secc. XII–XV)," *Presencia italiana en andalucia siglos XIV–XVII. Actas del* I *Coloquio Hispano-Italiano*, Escuela de Estudios Hispano-Americanos de Sevilla, Seville, 1985, 21–51.
"Les Symboles de Gênes dans les établissements d'outre-mer," in *Coloniser au moyen âge*, ed. Michel Balard and Alain Ducellier, Armand Colin, Paris, 1995, 299–309.
Pistarino, Geo (ed.). *Notai genovesi in Oltremare: atti rogati a Chilia da Antonio di Ponzò (1360–61)*, Università di Genova, Genoa, 1971.
Notai genovesi in Oltremare: atti rogati a Tunisi da Pietro Battifoglio (1288–1289), Civico Instituto Colombiano, Genoa, 1986.
Plutarch. *Moralia*, ed. and trans. Frank Cole Babbitt, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1956.
Poindebard, A. *La Trace de Rome dans le désert de Syrie*, Paul Geuthner, Paris, 1934.
Poleggi, Ennio and Paolo Cevini. *Genova*, Editore Laterza, Rome and Bari, 1981.
Polo, Marco. *The Book of Ser Marco Polo*, ed. and trans. Henry Yule, John Murray, London, 1903.
Polonio, Valeria (ed.). *Notai genovesi in Oltremare: atti rogati a Cipro da Lamberto di Sambuceto*, Università di Genova, Genoa, 1982.
Polyaenus. *Strategematon, Libri* VIII, ed. Edward Woelfflin, B. G. Teubner, Stuttgart, 1970.
Polybius. *The Histories*, ed. and trans. W. R. Paton, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1922.

Pomjalovskij, I. (ed.). *Žitie iže vo svjatych otca našego Feodora archiepiskopa Edesskogo*, Tip. Imp. akademii nauk, St. Petersburg, 1892.
Port, Cèlestin. *Essai sur l'histoire du commerce maritime de Narbonne*, Durand, Paris, 1854.
Pournaropopoulos, G. C. "A Brief History of Hospitals in Greece in Ancient Times and the Middle Ages," *Atti del Primo Congresso Europeo di Storia Ospitaliera*, Centro Italiano di Storia Ospitaliera, Reggio Emila, 1962, 1031–1041.
Powell, James M. "Genoese Policy and the Kingdom of Sicily," *Mediaeval Studies* 28 (1966) 346–354.
"Medieval Monarchy and Trade: The Economic Policy of Frederick II in the Kingdom of Sicily," *Studi Medievali*, 3rd series, 3 (1962) 420–524.
Pozza, Marco (ed.). *I Trattati con Aleppo, 1207–1254*, Il Cardo, Venice, 1990.
Pozza, Marco and Giorgio Ravegnani (eds.). *I Trattati con Bizanzio*, Il Cardo, Venice, 1996.
Prawer, Joshua. *The Crusaders' Kingdom. European Colonialism in the Middle Ages*, Praeger, New York, 1972.
"I Veneziani e le colonie veneziane nel regno latino di Gerusalemme" in *Venezia e il Levante fino al secolo* XV, ed. Agostino Pertusi, Leo S. Olschki Editore, Florence, 1973, I.2, 625–656.
Pryor, John. "Foreign Policy and Economic Policy: The Angevins and the Economic Decline of Southern Italy, 1266–1343," in *Principalities, Powers, and Estates. Studies in Medieval and Early Modern Government and Society*, ed. L. O. Frappell, Adelaide University Union Press, Adelaide, 1979, 43–55.
Ptolemy. *Tetrabiblos*, ed. and trans. F. E. Robbins, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1980.
Publications of the Princeton University Archaeological Expeditions to Syria in 1904–5, ed. William Kelly Prentice, III, Section B, Greek and Latin Inscriptions, Northern Syria, Part I, E. J. Brill, Leiden, 1908.
Publications of the Princeton University Archaeological Expeditions to Syria in 1904–5 and 1909, ed. Howard Crosby Butler, II, Section A, Architecture, Southern Syria, E. J. Brill, Leiden, 1919.
Publications of the Princeton University Archaeological Expeditions to Syria in 1904–5 and 1909, ed. Howard Crosby Butler, II, Section B, Architecture, Northern Syria, E. J. Brill, Leiden, 1920.
Publications of the Princeton University Archaeological Expeditions to Syria in 1904–5 and 1909, eds. Enno Littmann, David Magie, and Duane Reed Stuart, III, Section A, Greek and Latin Inscriptions, Southern Syria, E. J. Brill, Leiden, 1921.
Publications of the Princeton University Archaeological Expeditions to Syria in 1904–5 and 1909, ed. Enno Littman, IV, Semitic Inscriptions, E. J. Brill, Leiden, 1943.
al-Qaysī, 'Abd al-Karīm. *Dīwān*, Bayt al-Ḥikmah, Tunis and Carthage, 1988.
al-Qalqashandī, Aḥmad. *Ṣubḥ al-a'shā*, 14 volumes, Maṭba'ah al-Amīriyah, Cairo, 1913–1920.
Queller, Donald E. *Early Venetian Legislation on Ambassadors*, Librairie Droz, Geneva, 1966.

Rabbat, Nasser. "Ribāṭ," *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed., VIII, E. J. Brill, Leiden, 1993, 493–506.

Raby, Julian. *Venice, Durer, and the Oriental Mode*, Islamic Art Publications, Totowa, NJ, 1982.

Racine, P. "Les Débuts des consulats italiens outre-mer," in *Etat et colonisation au moyen âge*, ed. Michel Balard, La Manufacture, Lyon, 1989, 267–276.

Rafeq, Abdul-Karim. "Ownership of Real Property by Foreigners in Syria, 1869–1873," in *New Perspectives on Property and Land in the Middle East*, ed. Roger Owen, Harvard University Press, Cambridge, MA, 2000, 175–240.

Raymond, André. *Artisans et commerçants au Caire au XVIIIe siècle*, Institut français de Damas, Damascus, 1973.

The Great Arab Cities in the 16th–18th Centuries. An Introduction, New York University Press, New York, 1984.

"The Rab': A Type of Collective Housing in Cairo during the Ottoman Period," *Proceedings of Seminar Four in the Series: Architectural Transformations in the Islamic World, held in Fez, Morocco, October 9–12, 1979*, Aga Khan Award for Architecture, Philadelphia, 1980, 55–62.

Redi, Fabio. "Le strutture produttive e di distribuzione nell-edilizia e nel tessuto urbano di Pisa medievale: fonti documentarie, iconografiche, materiali," in *Mercati e consumi: organizzazione e qualificazione del commercio in Italia dal XII al XX secolo.* I *Convegno Nazionale di Storia del Commercio in Italia (Regio-Emilia and Modena, June 1984)*, Edizioni Analisi, Bologna, 1986, 647–670.

Régné, Jean. *History of the Jews in Aragón (Regesta and Documents, 1213–1327)*, The Magnes Press, Jerusalem, 1978.

Reinard, M. "Traités de commerce entre la République de Venise et les dernièrs sultans mameloucs d'Egypte," *Journal Asiatique*, series 1, 4 (1829) 22–51.

Reinert, Stephen W. "The Muslim Presence in Constantinople, 9th–15th Centuries: Some Preliminary Observations," in *Studies on the Internal Diaspora of the Byzantine Empire*, ed. H. Ahrweiler and A. Laiou, Dumbarton Oaks, Washington, DC, 1998, 125–150.

Revault, Jacques. *Le Fondouk des français et les consuls de France à Tunis (1660–1860)*, Editions Recherche sur les Civilisations, Paris, 1984.

Rey, Emmanuel Guillaume. *Recherches géographiques et historiques sur la domination des Latins en Orient*, Typ. Lahure, Paris, 1877.

Reyerson, Kathryn L. "Land, Houses, and Real Estate Investment in Montpellier: A Study of the Notarial Property Transactions, 1293–1348," *Studies in Medieval and Renaissance History* 6 (1983) 39–112.

"Montpellier and the Byzantine Empire: Commercial Interaction in the Mediterranean World before 1350," *Byzantion* 48 (1978) 456–476.

"Patterns of Population Attraction and Mobility: The Case of Montpellier, 1293–1348," *Viator* 10 (1979) 257–281.

Riera Melis, Antoni. *La Corona de Aragón y el reino de Mallorca en el primer cuatro del siglo XIV*, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid and Barcelona, 1986.

Riley-Smith, Jonathan. *The Feudal Nobility and the Kingdom of Jerusalem, 1174–1277*, Macmillan, London, 1973.

"Government in Latin Syria and the Commercial Privileges of Foreign Merchants," in *Relations between East and West in the Middle Ages*, ed. Derek Baker, Edinburgh University Press, Edinburgh, 1973, 109–132.
Oxford Illustrated History of the Crusades, Oxford University Press, Oxford, 1997.
Risse, Guenter B. *Mending Bodies, Saving Souls: A History of Hospitals*, Oxford University Press, New York, 1999.
Robbert, Louise Buenger. "Rialto Businessmen and Constantinople, 1204–1261," *Dumbarton Oaks Papers* 49 (1995) 43–58.
Rogers, J. M. "*Waqf* and Patronage in Seljuk Anatolia. The Epigraphic Evidence," *Anatolian Studies* 26 (1976) 69–103.
Röhricht, Reinhold. *Regesta Regni Hierosolymitani*, Libr. Acad. Wagneriana, Oeniponti, 1893–1904 (repr. Burt Franklin, New York, 1962).
Rollo-Koster, Joëlle. "Mercator Florentinensis and Others: Immigration in Papal Avignon," in *Urban and Rural Communities in Medieval France*, ed. K. Reyerson and J. Drendel, E. J. Brill, Leiden, 1998, 73–100.
Roover, Raymond de. *The Rise and Decline of the Medici Bank, 1397–1494*, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1963.
Rosenqvist, Von Jan Olof. "Der Text der Vita Theodori Syceotae im Cod. Atheniensis BN 1014," *Eranos* 78 (1980) 163–174.
Rosenthal, Franz. "Sedaka, Charity," *Hebrew Union College Annual* 23 (1950–1951) 411–430.
Rostovtzeff, M. "Les Inscriptions caravanières de Palmyre," in *Mélanges Gustave Glotz*, Presses Universitaires de France, Paris, 1932, II, 793–811.
Roth, Norman. *Jews, Visigoths, and Muslims in Medieval Spain: Cooperation and Conflict*, E. J. Brill, Leiden, 1994.
Royse, James R. "A Philonic Use of Pandocheion (Luke x 34)," *Novum Testamentum* 23 (1981) 193–194.
Ruiz Orsatti, Reginaldo. "Tratado de paz entre Alfonso V de Aragón y el sultán de Egipto, al-Mālik al-Ashraf Barsbāy," *al-Andalus* 4 (1936) 333–389.
Russian Primary Chronicle, ed. and trans. Samuel Hazard Cross, Medieval Academy of America, Cambridge, MA, 1953.
Ryder, Alan. *The Kingdom of Naples under Alfonso the Magnanimous. The Making of a Modern State*, Clarendon Press, Oxford, 1976.
Sacchetti, Franco. *Il Trecentonovelle*, ed. Emilio Faccioli, Giulio Einaidi, Turin, 1970; trans. Mary Steegmann, *Tales from Sacchetti*, J. M. Dent, London, 1908.
Sacerdoti, Alberto. "Il consolato veneziano del regno hafsida di Tunisi (1274–1518)," *Studi Veneziani* 11 (1969) 531–535.
Sack, Dorothée. *Damaskus: Entwicklung und Structur einer orientalisch- islamischen Stadt*, P. von Zabern, Mainz am Rhein, 1989.
Saez, E. "Aranceles de Toledo," *Anuario de la Historia del Derecho Español* 14 (1942–1943) 546–560.
Sagredo, Agostino. *Il Fondaco dei Turchi in Venezia*, Stabilmento di Giuseppe Civelli, Milan, 1860.
Ṣāliḥ ibn Yaḥyā. *Kitāb ta'rīkh Bayrūt*, al-Maṭba'ah al-Kāthūlikiyya, Beirut, 1927.

Salimbene de Adam. *Cronica*, ed. Ferdinando Bernini, G. Laterza & Figli, Bari, 1942.
Sánchez Martínez, Manuel. "Mallorquines y genoeveses en Almería durante el primer tercio del siglo xiv: el proceso contra Jaume Manfré (1334)," *Miscellània de Textos Medievales*, iv: *La frontera terrestre i marítima amb l'Islam*, Consell Superior d'Investigacions Científiques, Barcelona, 1988, 103–162.
Sanguinetti, Angelo (ed.). *Nuovi serie di documenti sulle relazioni di Genova coll'Impero Bizantino*, Atti de la Società Ligure di Storia Patria 28, Società Ligure di Storia, Genoa, 1897, 339–573.
Santamaría, Alvaro. "La Reconquista de la vías marítimas," *Anuario de Estudios Medievales* 10 (1980) 41–133.
Sapori, Armando. *Una Compagnia di calimala ai primi del trecento*, Leo S. Olschki, Florence, 1932.
La Crisi delle compagnie mercantili dei Bardi e dei Peruzzi, Leo S. Olschki, Florence, 1926.
Sapori, Armando (ed.). *Libri degli Alberti del Giudice*, Garzanti, Milan, 1952.
Libri di commercio dei Peruzzi, Treves, Milan, 1934.
Libro giallo della compagnia dei Covoni, Istituto Editoriale Cisalpino, Milan, 1970.
al-Saqaṭī, Abī 'Abd Allah Muḥammad b. Abī Muḥammad. *Kitāb al-faqīh al-ajall al-'ālim al-'ārif al-awḥad (Un manuel hispanique de ḥisba)*, ed. G. S. Colin and E. Lévi-Provençal, Librairie Ernest Leroux, Paris, 1931; Spanish trans. P. Chalmeta Gendrón, "El kitāb fī ādāb al-ḥisba de al-Saqatī," *al-Andalus* 32 (1967) 125–162, 359–397 and 33 (1968) 143–195, 367–434.
Sauvaget, Jean. *Alep. Essai sur le développement d'une grande ville syrienne, des origines au milieu du xixe siècle*, Paul Geuthner, Paris, 1941.
"Une Ancienne representation de Damas au Musée du Louvre," *Bulletin d'Etudes Orientales. Institut Français de Damas* 11 (1945–1946) 5–12.
"Caravansérails syriens du moyen-âge," *Ars Islamica* 6 (1939) 48–55 and 7 (1940) 1–19.
"Inventaire des monuments musulmans de la ville d'Alep," *Revue des Etudes Islamiques* 5 (1931) 59–114.
La Poste aux chevaux dans l'empire des mamelouks, Adrien-Maisonneuve, Paris, 1941.
"Un Relais du barīd mamelouk," *Mélanges offerts à Gaudefroy-Demombynes par ses amis et anciens élèves*, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1935–1945, 41–48.
Sauvaire, Henry (ed. and trans.). "Description de Damas," *Journal Asiatique*, 9th series, 3 (1894) 251–318, 385–501; 4 (1894) 242–331, 460–503; 5 (1895) 269–315, 377–411; 6 (1895) 221–313, 409–484; 7 (1896) 185–285, 369–459.
Sāwīrus ibn al-Muqaffa'. *History of the Patriarchs of the Egyptian Church*, ed. Antoine Khater and O. H. E. Burmester, 4 volumes, P. Fages, Paris, 1904–1943 (vol. ii–iv published by the Société d'archéologie copte, Cairo, 1943).
Sayed, Hazem. "The *Rab'* in Cairo: A Window on Mamluk Architecture and Urbanism," Ph.D. dissertation, Massachusetts Institute of Technology, Cambridge, MA, 1987.

Sayous, André E. *Commerce des Européens a Tunis depuis le* XIIe *siècle jusqu'à la fin du* XVIe, Société d'éditions géographiques, maritimes et coloniales, Paris, 1929.
Schacht, Joseph and Max Meyerhof. *The Medico-Philosophical Controversy between Ibn Butlan of Baghdad and Ibn Ridwan of Cairo. A Contribution to the History of Greek Learning among the Arabs*, Egyptian University, Cairo, 1937.
Scharabi, Mohamed. *Der Bazar. Das traditionelle Stadtzentrum im Nahen Osten und siene Handelseinrichtungen*, Verlag Ernst Wasmuth, Tübingen, 1985.
Schaube, Adolf. *Handelgeschichte der romanischen Völker des Mittelmeergebiets bis zum Ende der Kreuzzüge*, R. Oldenbourg, Munich and Berlin, 1906.
Schlumberger, Daniel. "Les Fouilles de Qasr el-Heir el-Gharbi (1936–1938). Rapport préliminaire," *Syria* 20 (1939) 195–238.
Qasr al-Heir el Gharbi, Paul Geuthner, Paris, 1986.
Schneemelcher, Wilhelm (ed.). *New Testment Apocrypha*, trans. R. M. Wilson, Westminster Press, Philadelphia, 1965.
Schulte, Aloys. *Geschichte des mittelalterlichen Handels und Verkehrs zwischen Westdeutschland und Italien mit Ausschluß von Venedig*, Verlag von Duncker & Humblot, Leipzig, 1900.
Schulz, Juergen. "The Original Appearance of the Fondaco dei Turchi at Venice," *Abstracts of Papers delivered in Art History Sessions*, College Art Association of America Annual Meeting, Los Angeles, 1977, 27.
"Titian at the Fondaco dei Tedeschi," *Burlington Magazine* 143 (2001) 567–569.
Seco de Lucena, Luis. *Plano de Granada árabe*, Imprenta del Defensor de Granada, Granada, 1910.
Seco de Lucena Paredes, Luis. *La Granada nazarí del siglo* XV, Patronato de la Alhambra, Granada, 1975.
Segura Graiño, Cristina (ed.). *Libro del repartimiento de Almería*, Universidad Complutense, Madrid, 1982.
Sella, Quintino (ed.). *Pandetta delle gabelle e dei diritti della curia di Messina*, Stamperia Reale, Turin, 1870.
Semeonis, Simon. *Itinerarium Symonis Semeonis ab Hybernia ad Terram Sanctam*, ed. and trans. Mario Esposito, Scriptores Latini Hiberniae 4, Dublin Institute for Advanced Studies, Dublin, 1960.
Senigaglia, Q. (ed.). "Statuto dell'arte della mercanzia senese," *Bullettino Senese di Storia Patria* 15 (1908) 99–139, 141–186.
Sexton, Kim Susan. "A History of Renaissance Civic Loggias in Italy from the Loggia dei Lanzi to Sansovino's Loggeta," Ph.D. dissertation, Yale University, New Haven, 1997.
Shāfi' ibn 'Alī (attrib.). "Digna gloria virtus," unpublished manuscript, Bodleian Library, MS Marsh 424.
Sharon, M. "A Waqf Inscription from Ramlah," *Arabica* 13 (1966) 77–84.
Shatzmiller, Maya. "On Fatwas and Social History," *al-'Usur al-Wusta* 9 (April 1997) 20–21.
"Waqf Khayrī in Fourteenth-century Fez: Legal, Social, and Economic Aspects," *Anaquel de Estudios Arabes* (Madrid) 2 (1991) 193–217.

Shinnie, P. L. *The African Iron Age*, Clarendon Press, Oxford, 1971.
Shokoohy, Mehrdad. "The Sasanian Caravanserai of Dayr-i Gachīn, South of Ray, Iran," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 46 (1983) 445–461.
Sibṭ Ibn al-ʿAjamī, Abū Dharr Aḥmad ibn Ibrāhīm. *"Les Trésors d'or" d'Ibn Sibṭ al-ʿAjamī*, trans. Jean Sauvaget, Institut français de Damas, Beirut, 1950.
Sidelko, Paul. "Muslim Taxation under Crusader Rule," in *Tolerance and Intolerance. Social Conflict in the Age of the Crusades*, ed. Michael Gervers and James Powell, Syracuse University Press, Syracuse, 2001, 65–74.
Simonsfeld, Henry. *Der Fondaco dei Tedeschi in Venedig und die Deutsch–Venetianischen Handelbeziehungen*, Neudruck der Ausgabe, Stuttgart, 1887.
Simonsohn, Shlomo. *The Jews in the Duchy of Milan*, Israel Academy of Sciences and Humanities, Jerusalem, 1982.
Sims, Eleanor. "Markets and Caravanserais," in *Architecture in the Islamic World*, ed. Ernst Grube and George Michell, Thames & Hudson, London, 1984, 97–111.
Siroux, Maxime. *Caravansérails d'Iran et petites constructions routières*, Institut français d'archéologie orientale, Cairo, 1949.
Slessarev, Vsevolod. "*Ecclesiae Mercatorum* and the Rise of Merchant Colonies," *Business History Review* 41 (1967) 177–197.
Smith, Colin. *Christians and Moors in Spain*, Aris & Phillips, Warminster, II, 1989.
Soverini, L. "Il 'Commercio nel tempio': osservazioni sul regolamento dei χάπηλο a Samo (seg. XXVII, 545)," *Opus* 9–10 (1990–1991) 59–121.
Sperber, Daniel. *The City in Roman Palestine*, Oxford University Press, New York, 1998.
Steiger, Arnald. *Contribución a la fonética del hispano-árabe y de los arabismos en el ibero-románico e el siciliano*, Librería y Casa Editorial Hernando, Madrid, 1932.
Stein, Robert H. "The Interpretation of the Parable of the Good Samaritan," in *Scripture, Tradition, and Interpretation: Essays Presented to Everett F. Harrison*, ed. W. Ward Gasque and William Sanford LaSor, William E. Eerdmans Publishing Company, Grand Rapids, MI, 1978, 278–295.
Stella, Aldo. *Chiesa e stato nelle relazioni ei nunzi pontifici a Venezia*, Biblioteca Apostolica Vaticana, Vatican City, 1964.
Stern, Edna J. "The Excavations at Lower Ḥorat Manot: A Medieval Sugar-Production Site,"' *Atiqot* 42 (2001) 277–308.
Stern, S. M. (ed.). *Documents from Islamic Chanceries*, Oriental Studies 3, Bruno Cassirer, Oxford, 1965.
Sternberg, Thomas. *Orientalium More Secutus. Räume und Institutionen der Caritas des 5. bis 7. Jahrhunderts in Gallien*, Aschendorff, Munster, 1991.
Stillman, Norman. "Charity and Social Service in Medieval Islam," *Societas* 5 (1975) 105–115.
Strabo. *The Geography of Strabo*, ed. and trans. Horace Leonard Jones, Harvard University Press, Cambridge, MA, 1988.
Strack, H. L. and Günter Stemberger. *Introduction to the Talmud and Midrash*, Fortress Press, Minneapolis, 1992.

Stuard, Susan Mosher. *A State of Deference: Ragusa/Dubrovnik in the Medieval Centuries*, University of Pennsylvania Press, Philadelphia, 1992.
al-Subkī, Tāj al-Dīn. *Ṭabaqāt al-shāfi'iyya al-kubrā*, Hajar lil-Ṭibā'ah wa al-Nashr, Cairo, 1992.
Sukenik, E. L. *Ancient Synagogues in Palestine and Greece*, British Academy, London, 1934.
Symeon Magister. *Chronographia*, ed. I. Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, Bonn, 1838.
Szabó, Thomas. "Xenodochia, Hospitäler und Herbergen – kirchliche und kommerzielle Gastung im mittelalterlichen Italien (7. bis 14. Jahrhundert)," in *Gastfreundschaft, Taverne und Gasthaus im Mittelalter*, ed. Hans Conrad Peyer, R. Oldenbourg Verlag, Munich and Vienna, 1983, 61–92.
al-Ṭabarī, Abū Ja'far Muḥammad b. Jarīr. *Ta'rīkh al-rusul wa al-mulūk*, Dār al-Kutub al-'Alamiyya, Beirut, 1415/1995; English trans. project ed. Ehsan Yar-Shater, *The History of al-Ṭabarī*, State University of New York Press, Albany, 1985–.
Tabbaa, Yasser. *Constructions of Power and Piety in Medieval Aleppo*, Pennsylvania State University Press, University Park, PA, 1997.
Tafel, G. L. F. and G. M. Thomas (eds.). *Urkunden zur älteren Handels-und Staatsgeschichte der Republik Venedig mit besonderer Beziehung auf Byzanz und die Levante*, Fontes Rerum Austriacarum 12–14, Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften, Vienna, 1856–1857 (repr. Verlag Adolf M. Hakkert, Amsterdam, 1964).
Tafur, Pero. *Andanças é viajes de Pero Tafur por diversas partes del mundo avidos (1435–1439)*, Imprenta de Miguel Ginesta, Madrid, 1874; trans. Malcolm Letts, *Pero Tafur: Travels and Adventures 1435–1439*, Harper, New York, 1926.
al-Tanūkhī, al-Muḥassin ibn'Alī. *The Table-Talk of a Mesopotamian Judge, Being the First Part of the Nishwar al-Muḥassin al-Tanūkhī*, trans. D. S. Margoliouth, Royal Asiatic Society, London, 1922.
Tarin, Gil. *El registro del merino de Zaragoza, el caballero Don Gil Tarin, 1291–1312*, ed. Manuel de Bofarull y de Santorio, Imprenta del Hospicio Provincial, Zaragoza, 1889.
Tate, Georges. *Les Campagnes de la Syrie du Nord du* IIe *au* VIIe siècle. *Un Example d'expansion démographique et économique à la fin de l'antiquité*, Paul Geuthner, Paris, 1992.
Tchalenko, Georges. *Villages antiques de la Syrie du Nord: le massif du Bélus à l'époque romaine*, Paul Geuthner, Paris, 1953–1958.
Tenenti, Alberto and Ugo Tucci (eds.). *Storia di Venezia temi. Il mare*, Istituto della Enciclopedia Italiana, Rome, 1991.
Tenorio y Cerero, Nicolás. *El Concejo de Sevilla. Estudio de la organización político-social de la ciudad desde su reconquista hasta el reinado de Alfonso XI*, Imp. de E. Rasco, Seville, 1901.
Testaments of the Twelve Patriarchs, trans. R. H. Charles, Adam & Charles Black, London, 1908.

Thomas, Georg Martin. *Capitolare dei visdomini del Fontego dei Todeschi in Venezia (Capitular des deutschen Hauses in Venedig)*, A. Asher & Co., Berlin, 1874.
"Einen Bericht über die ältesten Besitzungen der Venezianer auf Cypern," *Abhandlungen der Bayerischen Akademie der Wissenschaften*, Philosophisch-Philologische und Historische Klasse, Bayerischen Akademie der Wissenschaften, Munich, 1878, 143–157.
Thomas, John and Angela Hero (eds.). *Byzantine Monastic Foundation Documents*, Dumbarton Oaks, Washington, DC, 2000.
Al-Tibrīzī, Muḥammad. *Mishkāt al-Maṣābīḥ*, ed. Muḥammad N. Albani, 2 volumes, al-Maktab al-Islāmī lil-Ṭibā'a wa al-Nashr, Damascus, 1961–1962.
Tolaini, Emilio. *Forma Pisarum. Storia urbanistica della città di Pisa problemi e ricerche*, Nistri-Lischi, Pisa, 1979.
Torres, Diego de. *Relación del origen y suceso de los xarifes y del estado de los reinos de Marruecos, Fez y Tarudante*, ed. Mercedes García-Arenal, Siglo Veintiuno, Madrid, 1980.
Torres Balbás, Leopoldo. "Alcaicerías," *al-Andalus* 14 (1949) 431–455.
"Las alhóndigas hispanomusulmanas y el Corral del Carbón de Granada," *al-Andalus* 11 (1946) 447–481
Ciudades hispano-musulmanas, Instituto Hispano-Árabe de Cultura, Madrid, 2nd edition, 1985.
Torres Fontes, Juan (ed.). *Libro del repartimiento de las tierras hecho a los pobladores de Murcia*, Real Academia de Alfonso X el Sabio, Murcia, 1991.
Repartimiento de Lorca, Real Academia de Alfonso X el Sabio, Murcia, 1994.
Repartimiento de Murcia, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1960.
Tourtoulon, Charles de. *Jacme Ier le Conquérant*, Imprimerie Typographique de Gras, Montpellier, 1867.
al-Ṭūlayṭulī, Aḥmad b. Mughīth. *al-Muqni fī 'ilm al-shurūṭ (Formulario notarial)*, ed. Francisco Javier Aguirre Sádaba, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1994.
Udina Martorell, Federico. "Las relaciones entre Túnez y la Corona de Aragón en el segundo tercio del siglo XIV hasta 1360," *Anuario de Estudios Medievales* 10 (1980) 337–340.
(Urban IV). *Les Registres d'Urbain IV (1261–1264)*, ed. Jean Guiraud, A Fontemoing, Paris, 1904.
Uría Riu, Juan. "La hospitalidad con los peregrinos y el hospedaje," in *Las Peregrinaciones a Santiago de Compostela*, ed. L. Vásquez de Parga, J. M. Lacarra, and J. Uría Riu, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1948, I, 281–399.
Van Berchem, Max (ed.). *Matériaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum*, XIX: *Egypte*, Insitut français d'archéologie orientale, Cairo, 1903.
Matériaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum, XXIII: *Jérusalem "Ville"*, Insitut français d'archéologie orientale, Cairo, 1922.
Matériaux pour un corpus inscriptionum Arabicarum, XXV: *Syrie du Nord*, Insitut français d'archéologie orientale, Cairo, 1909.

Van Cleve, Thomas Curtis. *The Emperor Frederick II of Hohenstaufen: Immutator Mundi*, Clarendon Press, Oxford, 1972.
Velluti, Donato. *La Cronica domestica: scritta fra il 1367 e il 1370*, Sasoni, Florence, 1914.
Vendrell Gallostra, Francisca (ed.). *Rentas reales de Aragón de la época de Fernando I (1412–1416)*, Instituto Universitario de Estudios Medievales, Barcelona, 1977.
Verlinden, Charles. "From the Mediterranean to the Atlantic: Aspects of an Economic Shift," *Journal of European Economic History* 1 (1972) 425–646.
Vicens Vives, Jaime. *An Economic History of Spain*, Princeton University Press, Princeton, 1969.
Villani, Giovanni. *Cronica di Giovanni Villani*, Il Magheri, Florence, 1823 (repr. Multigrafica Editrice, Rome, 1980).
Vogüé, Charles J. M. de. *Syrie centrale. Architecture civile et religieuse du 1er au VIIe siècle*, Noblet & Baudry, Paris, 1865.
Volpe, Gioacchino. *Studi sulle istituzioni comunali a Pisa*, Sansoni, Florence, new ed., 1970.
von Harff, Arnold. *The Pilgrimage of Arnold von Harff*, trans. Malcolm Letts, Hakluyt Society, second series, 94, 1946 (repr. Kraus, Millwood, NJ, 1990).
von Stromer, Wolfgang. *Bernardus Teotonicus e i rapporti commerciali tra la Germania Meridionale e Venezia prima della instituzione del Fondaco dei Tedeschi*, Centro Tedesco di Studi Veneziani, Venice, 1978.
Vööbus, Arthur. *History of the School of Nisibis*, Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium, Louvain, 1965.
Waddington, William Henry (ed.). *Inscriptions grecques et latines de la Syrie*, F. Didot, Paris, 1870.
Walmsley, Alan. "Architecture and Artefacts from 'Abbāsid Fihl: Implications for the Cultural History of Jordan," in *Proceedings of the Fifth International Conference on the History of Bilād al-Shām*, History of Bilād al-Shām Committee, Amman, 1991, 135–159.
"Production, Exchange, and Regional Trade in the Islamic East Mediterranean: Old Structures, New Systems?" in *The Long Eighth Century*, ed. Inge L. Hansen and Chris Wickham, E. J. Brill, Leiden, 2000, 265–343.
"The Social and Economic Regime at Fihl (Pella) and Neighbouring Centres, between the 7th and 9th Centuries," in Canivet and Rey-Coquais (eds.), *La Syrie de Byzance*, 249–61.
Wansbrough, John. "A Mamlūk Ambassador to Venice in 913/1507," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 26 (1963) 503–530.
"A Mamlūk Commercial Treaty Concluded with the Republic of Florence 894/1489," in Stern (ed.), *Documents from Islamic Chanceries*, 39–79.
"Venice and Florence in the Mamlūk Commercial Privileges," *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* 28 (1965) 483–523.
al-Wansharīsī, Aḥmad b. Yaḥya. *Mi'yār al-mu'rib wa al-jāmi' al-maghrib*, Wizārat al-Awqāf wa al-Shu'ūn al-Islāmiyah bi-l-Mamlakah al-Maghribiyah, Rabat, 1981.
Weiss, Gershon. "Legal Documents Written by the Court Clerk Halfon ben Manasse (dated 1100–1138): A Study in the Diplomatics of the Cairo

Geniza," Ph.D. dissertation, University of Pennsylvania, Philadelphia, 1970.
Wheatley, Paul. *The Places where Men Pray Together*, University of Chicago Press, Chicago, 2001.
Wiet, Gaston. *Cairo, City of Art and Commerce*, University of Oklahoma Press, Norman, 1964.
Willard, Henry M. "The *Fundicus*, a Port Facility of Montecassino in Medieval Amalfi," *Benedictina* 19 (1972) 253–261.
William of Tyre. *A History of Deeds Done beyond the Sea*, trans. Emily Atwater Babcock, Columbia University Press, New York, 1943.
Winkelmann, Eduard (ed.). *Acta Imperii inedita saeculi* XIII *et* XIV. *Urkunden und Briefe zur Geschichte des Kaiserreichs und des Königreichs sizilien*, I, Neudr. d. Ausg., Innsbruck 1880 (repr. Scientia Verlag, Aalen, 1964).
Wirth, Eugene. "Alep et les courants commerciaux entre l'Europe et l'Asie du XIIe au XVIe siècles," *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée* 55–56 (1990) 44–56.
Wolff, Philippe. "L'hôtellerie, auxiliaire de la route. Notes sur les hôtelleries toulousaines au moyen âge," *Bulletin Philologique et Historique (jusqu'à 1610) du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques* (Paris) 1 (1960) 189–205.
Wright, William (ed.). *Apocryphal Acts of the Apostles*, II, Williams & Norgate, London, 1871.
al-Yāqūt ibn ʿAbd Allāh. *Muʿjam al-buldān*, Dār al-Ṣādar, Beirut, 1956.
Zachariadou, Elizabeth A. *Trade and Crusade: Venetian Crete and the Emirates of Menteshe and Aydin (1300–1415)*, Hellenic Institute of Byzantine and Post-Byzantine Studies, Venice, 1983.
Zambler, A. and F. Carabellese. *Le Relazioni commerciali fra la Puglia e la Repubblica di Venezia dal secolo* X *al* XV, V. Vecchi, Trani, 1898 (new ed. Arnaldo Forni, Bologna, 1991).
Zanón, Jesus. *Topografía de Córdoba almohade a través de las fuentes árabes*, Consejo Superior de Investigaciones Científicas, Madrid, 1989.
al-Zarkashī, Muḥammad b. Ibrahim. *Tāʾrīkh al-dawlatayn al-Muwaḥḥadiyah wa al-Ḥafṣiyah*, Mabaʿah al-Dawlah al-Tūnisīya al-Maḥrūsah, Tunis, 1872; French trans. Edmond Fagnon, *Chronique des Almohades et des Hafçides, attribuée à Zerkechi, traduction française d'après l'édition de Tunis et trois manuscrits*, A. Braham, Constantine, 1895.
Zielinski, Herbert (ed.). *Tancredi et Willelmi III regum diplomata*, Böhlau Verlag, Vienna, 1982.

DATABASES ON THE INTERNET

Opera del Vocabolario Italiano Database, compiled by the Centro di Studi Opera del Vocabolario Italiano (http://www.lib.uchicago.edu/efts/ARTFL/projects/OVI/).
Dumbarton Oaks Hagiography Database of the 8th to 10th Centuries (http://www.doaks.org/Hagio.html).

فهرس المصطلحات

فهرس الأماكن

فهرس الأعلام

المحتويات